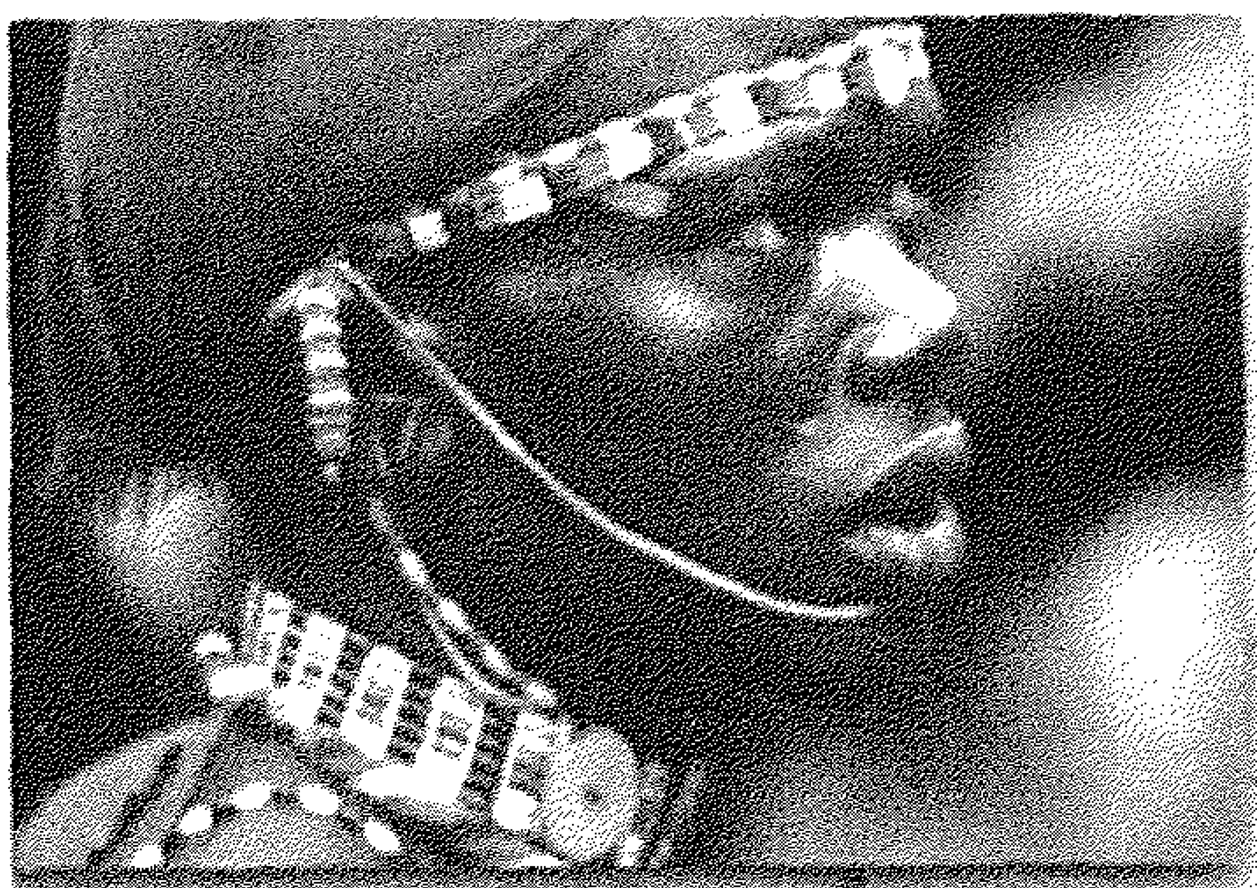
الصراعات العرقية

واستقرار العالم المعاصر

دراسة في الأقليات والجامعات والحركات العرقية



دكتور

أحمد وهبان

قسم العلوم السياسية

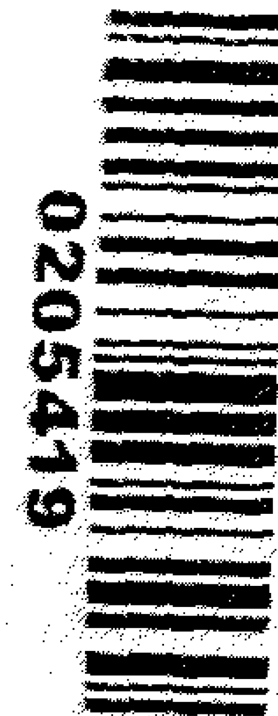
كلية التجارة - جامعة الإسكندرية











٢٠٠١



دار الجامعة الجديدة للنشر

٣٨ ش سوتير - الأزاريطة - الاسكندرية ت: ٤٨٦٨٠٩٩

الصراعات العرقية
واستقرار العالم المعاصر

دراسة في: الأقليات والجماعات والحركات العرقية

الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر

دراسة فى : الأقليات والجماعات والحركات العرقية

دكتور أحمـــد وهبـــان

قسم العلوم السياسية

كلية التجارة - جامعة الإسكندرية

دار الجامعة الجديدة للنشر

٣٨ ش سوتير - الأزاريطة - الإسكندرية

تليفون وفاكس ٤٨٦٨٠٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير "

صدق الله العظيم

سورة : الحجرات - الآية : ١٣

" يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم خلق من تراب "

(حديث شريف)

الإهــــداء

إلى : العالم العلم ، والأستاذ الجليل

أستاذى وأستاذ الأجيال :

الدكتور محمـد طـه بـدوى

جزاه الله عنى وعن سائر تلامذته وكافة مريديه

خير الجزاء ...

وإلى : العطاء فى ذروة سخائه

والأستاذية فى أوج رقيها

أستاذتى الكريمة :

الدكتورة ليلى أمين مرسى

أثابها الله عنى خير المثوبة ...

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

يسعدنا أن نضع بين يدى القارئ العربى الطبعة الثالثة من كتابنا هذا، بعد أن نفدت طبعتاه الأولى والثانية . وقد حرصنا أن تأتى هذه الطبعة منقحة مزيدة ، بحيث تضم بين دفتيها ما استجد فى سائر أرجـــاء البســيطة مــن صراعات عرقية ، ذلك - بطبيعة الحال - فضلا عما سنضمنه هذه الطبعــة من تعريف بأظهر التطورات التى طرأت على حال الصراعـــات العرقيــة التقليدية والتى كنا قد عرضنا لها فى الطبعتين السابقتين .

والله الموفـــق .

أحمد وهبـــان

الإسكندرية - نوفمبر ٢٠٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

أخى القارئ العربى :

نفدت – بعون الله – نسخ الطبعة الأولى من كتابنا هذا ، وها نحن نقدم لك طبعته الثانية بعد مرور زهاء عامين على صدور سابقتها .

إن هذا الكتاب جاء لكى يؤكد حقائق عديدة تتصل بواقع عالمنا المعاصر ، فلقد انتهينا – من خلاله – إلى حقيقة قوامها أن هذا العالم إنما يعيش – بحق – عصر الصراعات العرقية ، تلك الصراعات التى أضحت تشكل خطراً داهماً أرخى سدوله على العشرات من الدول ، فقض مضجع قاطنيها ، وجعلها نهبا للقلاقل والاضطرابات ، ووضع استقرارها فى مهب الريح .

ثم هناك الحقيقة الكبرى التى أكدها هذا الكتاب ، وها نحن نلح من جديد فى تأكيدها ، ألا وهى أنه : " لاسبيل إلى استقرار سياسى دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة فى ظل مجتمع أسس بنيانه على التجميع الإجبارى لشعوب غير متجانسة قوميا " .

أخى القارئ : إن كنت فى ريب مما تقدم فانظر إلى عالم اليوم . ونحن الآن فى شهر يونيو ١٩٩٨ ، ها هم أبناء جنوب السودان لايزالون يمتشقون الحسام فى مواجهة الشماليين ، فى حرب ضروس أتت على الأخضر وكثير من اليابس فى تلك الدولة التى يعانى الملايين من أبنائها شظف العيش ، ويئنون تحت وطأة الجوع ، وبدلا من أن توجه الموارد المحدودة للدولة إلى شراء الخبز اللازم لسد رمق الجائعين يلقى بها فى

حومة الوغى كبارود يفتك بالكثيرين من أبناء ذلك البلد، ويعمق في أنفس الناجين منهم أسباب الحقد والبغضاء في مواجهة بعضهم البعض .

وقبل أن تحول نظرك عن القارة الأفريقية أنظر إلى منطقة القرن الأفريقي ومايدور فيها الآن (يونيو ١٩٩٨) من حرب طاحنة استعر أوراها بين إثيوبيا وإريتريا كلٌ يسعى إلى السيطرة على أكبر مساحة ممكنة من المناطق الحدودية معتبرا إياها جزءا من أراضيه . وهكذا فإنه على الرغم من خمود نيران الصراع العرقي في تلك المنطقة باستقلال الإريتريين عن إثيوبيا عام ١٩٩٣ إلا أن تلك النيران أبت إلا أن تخلف وراءها نظيرة لها أشد ضراوة هي نيران حرب بين دولتين متجاورتين تختلفان حول تعيين الحدود بينهما . ثم فلتتجه بنظرك إلى شبه القارة الهندية في آسيا حيث السباق النووي المحموم الدائر بين الهند والباكستان، وحيث قامت كلتا الدولتين - كما نعلم - بالعديد من التفجيرات النووية خلال مايو المنصرم . وهذا التسابق علام ؟ ، وبمعنى آخر : لماذا يوجه الهنود والباكستانيون جانبا عظيم الشأن من مواردهم - على تواضعها - إلى سباق التسلح بدلا من توجيهه لملء البطون الخاوية ؟ .

والإجابة : إنه العداء ، وما هو سبب ذلك العداء ؟ إنه - ببساطة - ذلك الصراع العرقي المتأجج في إقليم جامو وكشمير على نحو ماسنعرض في هذا الكتاب .

وإذا يممت وجهك شطر أوربا ستجد الباسكيين لايزالون يناضلون من أجل الخلاص من ربقة الإسبان ، ونيل الإستقلال ، وإقامة دولتهم المنشودة التي تجسد هويتهم . فإن أردت لنفسك إطلالة على البلقان - وما أدراك ما البلقان - فسترى أبناء كوسوفا من المسلمين الألبان يواجهون عمليات الإبادة والتطهير العرقي من جانب صرب يوغوسلافيا الجديدة ، لالشئ إلا لأن أولئك القوم أرادوا لأنفسهم الإستقلال ، والتخلص من نير تلك الدولة التي هي أبعد ماتكون عن تحقيق آمالهم وصون هويتهم .

فإذا ما اتجهت إلى العالم الجديد فستجد فرنسيى كيبيك لايزالون يتطلعون إلى يوم فيه يحصلون على استقلالهم ، ويقيمون دولتهم المبتغاة . وها هم الهنود الحمر من أبناء إقليم تشيباس المكسيكى يتحسسون طريقهم المشحون بالنار والدم والدموع عساهم – فى النهاية – يحصلون على شئ من حقوقهم المفتأت عليها من قبل الحكومة المكسيكية .

وبعد أخى القارئ : تلك هى – فحسب – بعض الأمثلة التى أردنا بها أن نشير إلى خطورة شأن الصراعات العرقية على استقرار عالمنا المعاصر ، فإن كنت لازلت فى شك من هذه الحقيقة فاقرأ هذا الكتاب لعلك تقتنع .

والله الموفق

أحمد وهبان

الإسكندرية – يونيو ١٩٩٨

تصديـــــــر :

تشير ملاحظة الواقع السياسى فى عالم اليوم إلى أن الحركات العرقيـة قد أضحت تمثل – بحق – واحدة من أبرز ظواهر الحياة السياسية فى العديـد من البلدان . وترتبط هذه الظاهرة – من حيث وجودها – بالدول التى تتسـم بتنوعها العرقى Multi-ethnic States ، سواء أكانت تلك الدول تنتمى إلـى العالم الثالث كالسودان ، والعراق ، وسريلانكا ، أو كانت تدخل فـى مصاف الدول المتقدمة حال كندا والمملكة المتحدة .

والحق أن المتتبع لمجريات الواقع الدولى الراهن سـرعان مـايدرك ماللحركات العرقية من آثار عظيمة الشأن على استقرار المجتمعـات التـى توجد بها. ولعل أظهر الأمثلة على ذلك ما أصاب الدولة السوفيتية السـابقة من تفكك، إذ كان مرد ذلك التفكك إلى الحركات العرقية التى راحت تطفـو على سطح الحياة السياسية السوفيتية خلال العهد الجورباتشوفى ، ثـم شـيئا فشيئا شرعت كل منها – متوسلة بشتى الوسائل – فى المطالبـة بانفصـال جماعتها العرقية عن الإتحاد السوفيتى ، وإقامة دولة مستقلة تجمع شتات بنى نحلتها ، وتجسد هويتهـم . وهكذا فسرعان ماقوضت أسس الدولة السوفيتية، وتمزقت أوصالهـا ، لكى تزول بذلك – من خريطة توزيع القوى الدوليـة – قوة ظلت لعقود عديدة تمثل واحدة من أكبر قوتين عرفهما العالم المعاصر .

كذلك فقد كان من شأن الحركات العرقية أن زالت من حـيز الوجـود دولة يوغسلافيا ، تلك الدولة التى إنحدر شعبها من عرقيات عديدة لم تفلـح الجهود المضنية التى قام بها الزعيم اليوغسلافى الراحل تيتو فى صـهرها ، وبالتالى فلم يكن فى مقدوره خلق هوية يوغسلافية جامعة ، وإن كان قد نجح – من خلال قبضته الحديدية – فى الإطباق على كافة العرقيـات الخاضعـة لحكمه ، والإحتفاظ بوحدة الكيان اليوغسلافى . بيد أنه برحيل تيتـو بـدأت قبضة السلطة المركزية على الجماعات العرقية اليوغسلافية تخف شيئا فشيئا على نحو هيأ لظهور حركات عرقية عديدة راحت كل منها تخوض حروبـا

طاحنة فى سبيل استقلال جماعتها عن الكيان اليوغسلافى ، وإقامة دولة مستقلة تعبر عن ذاتيتها ، الأمر الذى كان من شأنه أن تفككت يوغسلافيا إلى عديد من دويلات كانت رحى الحرب لما تزل دائرة بينها حتى عهد قريب .

وفضلا عما تقدم فبفعل الحركات العرقية مزقت أوصال كل من تشيكوسلوفاكيا ، وإثيوبيا ، كما بات الإنقسام خطرا داهما يخيم على الكثير من دول العالم حال كندا ، وسريلانكا ، والعراق ، وتركيا ، ولبنان ، والسودان ، وإندونيسيا ، وروسيا ، وإيران ، وغدت الوحدة الوطنية – وبالتالى الإستقرار السياسى – موضع تهديد دائم فى كل من بوروندى ، ورواندا ، والجزائر ، والهند ... وغيرها .

وهكذا فإذا كان المشتغلون بعلوم السياسة قد راحوا يطلقون على القرن التاسع عشر " قرن القوميات " Century of Nationalism فإننا لانكون بعيدين عن كبد الحقيقة إذا ماقلنا إن عالمنا المعاصر يعيش – بحق – عصر الحركات العرقية.

هذا وعلى الرغم من الأهمية البالغة لظاهرة الحركات العرقية فى العالم المعاصر على النحو المتقدم فإن المشتغلين بالدراسات السياسية لم يعيروها – بعد– الإهتمام اللائق ، على نحو يمكننا معه القول بأن هذه الظاهرة لم تخضع – حتى الآن – للدراسة العلمية الحقة . ومن هنا كان موضوع كتابنا هذا :

الصراعات العرقية
واستقرار العالم المعاصر

ولما كانت الحركات العرقية قد برزت – فى عصرنا – بجل صورها ، وشتى مقوماتها فى الإتحاد السوفيتى (السابق) وكانت الحركات العرقية السوفيتية هى أعظم نظيراتها المعاصرة شأنا وأمضاها أثرا فقد اخترنا أن ينصب عليها موفور اهتمامنا ، ولذا فقد أفردنا لها القسم الثالث من هذا

الكتاب برمته . وذلك – بطبيعة الحال – على إثر الإهتمام البالغ بكافة الجوانب المتعلقة بالحركات العرقية ، لاسيما سماتها العامة المشتركة التى تجعل منها وبحق " ظاهرة " ، الأمر الذى حتم علينا أن نعرض لحالات متباينة أخرى فى مناطق مختلفة من العالم على النحو الذى قمنا به فى القسم الثانى ، على أن تكون الدراسة المستفيضة للحركات العرقية السوفيتية (فى القسم الثالث) بمثابة تتويج واستجلاء لما وقفنا عليه من حقائق تتصل بالظاهرة العرقية فى القسمين الأول والثانى .

ويستهدف هذا الكتاب – فى المقام الأول – الإجابة على تساؤل هام قوامه :

هل من سبيل إلى استقرار سياسى ووحدة وطنية فى مجتمع أسس بنيانه على التجميع الإجبارى لشعوب غير متجانسة قوميا ؟ ، وبمعنى آخر فإن هدف هذا البحث يتمحور حول التعريف بظاهرة الحركات العرقية فى العالم المعاصر من حيث طبيعتها وأسبابها وأهدافها ووسائلها وآثارها على الحياة السياسية فى البلدان التى توجد بها ، ولاسيما فيما يتصل بآثارها على الإستقرار السياسى ، وتداعياتها على الوحدة الوطنية . وتتعين الإشارة – بصدد الإستقرار السياسى – إلى أننا نعنى هنا بالإستقرار السياسى بمعناه الواسع ، والذى يشير إلى استقرار واستمرار كيان الوحدة السياسية ذاته .

وهكذا فإن صلب هذا الكتاب إنما يتمثل فى ظاهرة الحركات العرقية فى العالم المعاصر ، من حيث كنهها وأسبابها وآثارها فى الحياة السياسية ، وذلك كله من ثنايا العرض لبعض النماذج (الحالات) المعبرة عن هذه الظاهرة ، وعلى رأس هذه النماذج كافة نماذج الحركات العرقية التى شهدها الإتحاد السوفيتى السابق ، والحركة العرقية الكردية ، والحركة العرقية فى إقليم كيبيك الكندى ، والحركة العرقية فى جنوب السودان .

وبصدد خطة البحث فإننا سنضمن كتابنا هذا ثلاثة أقسام ، وتقرير ختامى ، وذلك على النحو التالى :

القسم الأول : فى التعريف بالظاهرتين القومية والعرقية

وينطوى هذا القسم على فصلين نعنونهما كما يلى :

الفصل الأول : فى التعريف بالدولة القومية

وذلك على اعتبار أن الدولة القومية تمثل الصورة المثلــى للمجتمــع السياسى ، حيث يسودها الإستقرار السياسى ، وتظللها الوحدة الوطنية ، فهى دولة التكامل والوحدة ، التى يتعين على الشعوب إقامتها إن هــى أرادت أن تنأى بنفسها عن الصراعات العرقية . ويتضمن هذا الفصل أربعة مبــاحث ، نعرض من ثناياها للجذور التاريخية لفكرة القومية ، ثم للتعريف بمفــهومى القومية والأمة ، فالتعريف بمقومات القومية ، وانتهاءً بــالتعريف بالمفــهوم المعاصر للدولة القومية .

الفصل الثانى : فى التعريف بالظاهرة العرقية (الجماعات والحركات)

ويتضمن هذا الفصل خمسة مباحث نعرض مــن خلالــها للتعريــف بالجماعة العرقية ، فبمقومات الذاتية العرقية ، ثم بمفهوم الأقلية ، فتصنيــف الجماعات العرقية ، وانتهاءً بالتعريف بمفهوم الحركة العرقيــة ، وســماتها والتى سنسعى إلى استجلائها من ثنايا القسم الثانى .

القسم الثانى : فى التعريف بظاهرة الحركات العرقية فى العالم المعاصر

وينصب هذا القسم برمته على تحليل الظاهرة محــل البحــث بغيــة الوقوف على سماتها العامة المشتركة . ونعرض فى هذا الفصل للعديد مــن نماذج الحركات العرقية المعاصرة حال الحركة العرقية الكردية ، والحركــة العرقية فى إقليم كيبيك الكندى ، والحركة العرقية فى جنــوب الســودان ... وغيرها .

القسم الثالث : فى الحركات العرقية
وانهيار الإتحاد السوفيتى (السابق)

وينطوى هذا القسم – بدوره – على فصلين ، وذلك على النحو التالى:

الفصل الأول : فى الحركات العرقية فى الإتحاد السوفيتى
خلال الفترة : ١٩١٧ – ١٩٨٤

وهى الفترة التى سبقت وصول جورباتشوف إلى الحكم فى الكرملين ، والتى تمكن الزعماء السوفييت خلالها من الإطباق على كافة الجماعات العرقية الخاضعة لحكمهم من خلال قبضتهم الجبارة ، كما سعى هؤلاء الزعماء – خلال الفترة المذكورة – بشتى السبل إلى طمس الهويات العرقية لتلك الجماعات . ونعرض فى هذا الفصل كافة السياسات التى انتهجها قاطنو الكريملين بغية بلوغ غايتهم المتقدمة .

الفصل الثانى : فى الحركات العرقية فى الإتحاد السوفيتى
خلال عهد جورباتشوف ومابعده

ويتضمن هذا الفصل ستة مباحث نعرض من خلال خمسة منها إلى كافة الحركات العرقية التى ظهرت فى الإتحاد السوفيتى خلال عهد جورباتشوف ، أما المبحث السادس فنعرض فيه لتفكك الإتحاد السوفيتى وآثاره الدولية .

التقرير الختامى :

ويتضمن هذا التقرير – بإذن الله – أظهر الملاحظات التى توصلنا إليها بصدد هدف البحث .

وفى النهاية فإننى إذ أشرف بتقديم كتابى هذا إلى القارئ العربى إنما أتمنى أن يمثل إضافة إلى مكتبته ، ولبنة فى صرح معرفته .

وعلى الله قصد السبيل ... أحمد وهبان

الإسكندرية فى : نوفمبر ١٩٩٦

المضامـــين

القســم الأول

فــى

التعريف بالظاهرتين القومية والعرقية

الفصل الأول

فــى

التعريف بالدولة القومية

يتفق المعنيون بدراسة الظواهر السياسية علــى أن الصــورة المثلــى للمجتمعات السياسية تتمثل فى صورة الدولة القومية National State ، وهى الصورة التى راحت تسود التنظيم السياسى للمجتمعات الإنسانية منذ القــرن التاسع عشر ، وباعتبارها أقدر صور التنظيم السياسى للمجتمعات اســتجابة إلى قيمة إنسانية اجتماعية مضمونها ألا تكره أمة على الحياة مع غيرها فــى ظل وحدة سياسية واحدة ، وألا تتفتت أمة لها وحدتها الذاتية – بما لها مــن خصائص متفردة – جبرا عنها بين وحدات سياسية متعددة [(١)] . ففــى ظــل الدولة القومية يتجانس العنصر البشرى على نحو يــهيئ لترســيخ الوحــدة الوطنية بين أفراده ، وبالتالى تتكامل الجماعة البشرية المشكلة للدولة تكــاملا يسقط عنها أسباب التصادم المفضى إلى الضعف والتحلل .

وارتباطا بما تقدم تظهر الدولة على الإمبراطوريات القديمة ، " ذلــك بأن هذه الإمبراطوريات كانت تقوم على التجميــع الإجبــارى للشــعوب . وبالتالى فقد كانت تضم عديدا من قوميات متباينة لغة وأصلا ترتبط فيما بينها برباط الإكراه السياسى [(٢)]. وتظل هذه الشعوب خاضعة لإمرة الإمــبراطور مادام هذا الإمبراطور قويا وقادرا على إخضاعها لسلطانه ، فــإذا مــا وهنت قوته سارعت الشعوب الخاضعة لإمرته لكى تــدق طبــول الحــرب طلبــا للإستقلال ، والتخلص من نير الإمبراطورية ، الأمر الذى كان ولابد مــن أن يتمخض – فى النهاية – عن تفكك الإمبراطورية وزوالها من الوجود .

---

(١) أنظر فى هذا المضمون :

- محمد طــه بدوى – ليلى أمين مرسى ، النظريــة العامة للعلاقات الدوليــة . الطبعــة الرابعة – الإسكندرية ، ١٩٩٢ ، ص ٢٠٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

وهكذا يمكن القول بأن الإمبراطوريات كانت تمثل مرتعا خصبا للحركات العرقية وغيرها من الحركات الإنفصالية . أما في ظل الدولة القومية – بخصائصها المتقدمة فلا مجال لمثل هذه الحركات ، ذلك بأن الدولة القومية تقوم على جماعة بشرية متجانسة تجانسا قوميا ، وسواء تحقق هذا التجانس من خلال وحدة الأصل واللغة أو حتى من ثنايا وحدة المصالح والرغبة في الحياة المشتركة فإنه لابد – كما قدمنا – من أن يؤدى إلى ترسيخ الوحدة الوطنية ، وتأكيد الصلابة السياسية للدولة في الداخل والقوة الإستراتيجية لها في الخارج .

وهكذا فإن الدولة القومية تعد بحق الصورة المثلى للمجتمعات السياسية، كما أنها تمثل مصلا واقيا من ظاهرة الحركات العرقية وغيرها من الحركات الإنفصالية ، تلك الحركات التى تشكل – ولاشك – خطرا داهما يكاد يعصف بكيان المجتمعات التى توجد بها .

ونظرا لكل ماتقدم فإننا سنفرد هذا الفصل – والذى ينطوى على أربعة مباحث – للتعريف بالدولة القومية ، بما يقتضيه ذلك من العرض للجذور التاريخية لفكرة القومية ، وكذا التعريف بالأمة ، فالتعريف بمقومات القومية، ثم التعريف بالمفهوم المعاصر للدولة القومية .

وبذلك فإننا سنقسم هذا الفصل على النحو التالى :

المبحث الأول : فى الجذور التاريخية لفكرة القومية .

المبحث الثانى : فى التعريف بمفهومى القومية والأمة .

المبحث الثالث : فى التعريف بمقومات القومية .

المبحث الرابع : فى التعريف بالمفهوم المعاصر للدولة القومية .

المبحث الأول

فـــى

الجذور التاريخية لفكرة القومية [1]

لعقود طويلة – وحتى قبيل نهاية القرن الثامن عشر – ظل مبدأ " حـق العروش فى تقرير مصائر الشعوب " يمثل واحدا من أظهر المبـــادئ التـــى تحكم دبلوماسية القارة الأوربية. وفى ظل هذا المبدأ – والذى عرف أيضــــا بمبدأ " الشرعية "– كانت السيادة تمثـــل خاصـــة مـــن خصـــائص الملـــوك الشخصية، وكان مصيـــر المدن والأقاليم – بسكانها – يتقرر تبعا لمصـــــير أصحاب العروش وإراداتهم [2] . وكانت الدولة تتمثل فى شخص الملك وهى تعد ملكا خالصا له وتخضع لمشيئته خضوعا مطلقا لايتقيد بأى قيد ، حتى أن لويس الرابع عشر ملك فرنسا كان يقول " أنا الدولة " . لقد كان يحق للملوك – بمقتضى مبدأ الشرعية – أن يتصرفوا فى الأقاليم الخاضعة لهم تصرفـــا مطلقا مثلما يتصرف الأفراد فى الأراضى والعقارات المملوكة لهم ، كما كان يحق للملوك أن يهدوا بعض المقاطعات الخاضعة لإمرتهم إلى ملوك آخرين، أو يبادلوا هذه المقاطعات بمقاطعات تابعة لممالك أخرى . كذلك فقد كـــــانت أقاليم الممالك خاضعة لقوانين الإرث وأنظمة الصداق وغيرها مـــن التقـــاليد الموروثة من القرون الوسطى . وعلى ذلك فكثيرا ماكانت الممالك تتوســـع ، أو تتقلص ، أو تنضم إلى بعضها البعض ، أو تنفصل عن بعضها البعـــض حسب أهواء الملوك ورغباتهم ، أو من جراء أية تغيرات قـد تطـرأ علـــى

---

(١) تتعين الإشارة إلى أن لفظة " القومية " – فى اللغة العربية – مشتقة من كلمة القـوم ، ويقصد بهذه الكلمة " الجماعة من الناس الذين يقومون قومة رجل واحـــد للقتـــال ، وهذا لايتأتى بطبيعة الحال إلا إذا تحقق لأعضاء هذه الجماعـــة قـــدر كبـــير مـــن التجانس والتضامن ووحدة المشاعر ". نقلا عن صوفى أبو طالب فى :

– محمد طه بدوى وآخرون ، المجتمع العربى والقضية الفلسطينية ، دار النهضـــة العربية ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ١٦٨ .

(٢) محمد طه بدوى – ليلى أمين مرسى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٧ .

أحوالهم الشخصية من زواج وتوارث ووفاة ، وكل ذلك علاوة على ماكان يكتسبه الملوك من حقوق من خلال مايخوضون غماره من حروب أو مايعقدونه من معاهدات [١] .

وإبان الحقبة المذكورة كان الناس يعتقدون أن الملوك يحكمون البلاد بتفويض وتخويل من الله ، ويستمدون حقوقهم وسلطانهم من مشيئته ، وبالتالى فإنه يتعين على رعايا الدولة أن يطيعوا أوامر الملك كما يطيعون أوامر الله . وهكذا فقد انتشر هذا الإعتقاد بين الناس وتغلغل فى نفوسهم ، وبات يشكل واحدا من المبادئ العامة التى يتولى رجال الدين تلقينها فى المعابد خلال مختلف التعاليم والطقوس [٢] . وكأثر لمبدأ حق العروش فى تقرير مصائر الشعوب – بمضمونه المتقدم – نجد أن ألمانيا – على سبيل المثال – كانت – خلال العقد الأخير من القرن الثامن عشر – مقسمة إلى مايربو على ثلاثمائة وستين وحدة سياسية مستقلة عن بعضها استقلال تاما . وقد بدأ عدد هذه الوحدات يتناقص شيئا فشيئا حتى وصل إلى مائتين وثمانية وأربعين وحدة سنة ١٨٠٣ ، فإلى تسع وثلاثين وحدة سنة ١٨١٥ ، فخمس وعشرين وحدة سنة ١٨٧١ [٣] ، وهو العام الذى شهد جمع شتات هذه الوحدات فى دولة ألمانية واحدة على النحو الذى سنعرض له لاحقا .

وجملة القول فى شأن ماتقدم أن مبدأ حق العروش فى تقرير مصائر الشعوب – بمضمونه المتقدم – قد ساد لعقود طويلة خلال الحقبة السابقة على حلول القرن التاسع عشر . بيد أنه مع قيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ راح المجال ينفسح لعدد من مبادئ جديدة مناقضة تماما لمبدأ الشرعية القديم فيما

---

(١) أنظر فى هذا المضمون :
- أبو خلدون ساطع الحصرى ، أبحاث مختارة فى القومية العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥ ، ص ٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٣) أبوخلدون ساطع الحصرى ، محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٥ ، ص ٢٧ .

يتصل بحقوق الشعوب والأمم . " فلقد ارتبطت الثورة الفرنسية بفكرة الحقوق الطبيعية National rights نقلا عن فلاسفة العقد السياسى ، وهى الفكرة التى بزغت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فى فكر كل من جون لوك الإنجليزى وجان جاك روسو الفرنسي . وارتباطا بفكرة الحقوق الطبيعية هذه جاءت الثورة الفرنسية – متأثرة فى ذلك بفكر روسو بالذات – بمفهوم سياسى جديد هو مفهوم القومية Nationalism. ومن هنا فإن البعض يرى أن فكر روسو لم يكن له أبلغ الأثر على الثورة الفرنسية فحسب وإنما كان له كذلك عظيم الأثر على الأفكار المتعلقة بفكرة القومية فى القرن التاسع عشر، ولاسيما تلك الأفكار التى قامت الوحدتان الإيطالية والألمانية إعمالا لها " [(١)].

ولقد كان من أظهر المبادئ التى ارتبطت بها الثورة الفرنسية – باعتباره واحدا من الحقوق الطبيعية – مبدأ حق الشعوب فى تقرير مصائرها، وذلك بطبيعة الحال كبديل لمبدأ حق العروش فى تقرير مصائر الشعوب . وقد صاحب هذا المبدأ الجديد – مبدأ حق الشعوب فى تقرير مصائرها – نيوع مبدأ آخر جديد هو مبدأ القوميات أو مايعرف كذلك بالمبدأ القومى ، " ومؤدى هذا المبدأ الإعتراف لأبناء الأمة الواحدة بالحق فى تنظيم كيانهم القومى وتحقيق شخصيتهم القومية سياسيا واجتماعيا واقتصاديا على وجه الإستقلال عن غيرهم من الأمم " [(٢)] .

وعلى الرغم من ارتباط المبدأ القومى بمبدأ حق تقرير المصير فإن ثمة اختلافا بين المبدأين قوامه : " أن مبدأ حق تقرير المصير يشير إلى حق كل جماعة بشرية فى أن تحدد مصيرها السياسى سواء بالإنفصال عن الدولة

---

(١) بصدد مساهمات روسو الفكرية فيما يتصل بفكرة القومية ، انظر :

- Carr. E. H. and others, Nationalism, Oxford University Press, London, 1939. p.p. 25-34.

(٢) انظر فى هذا الصدد : صوفى أبوطالب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧١ ، وكذا :

- Weigall, David and Murphy, Michael, European History, BPP Letts Educational, London. 1993. P. 31.

التى تنتمى إليها وإنشاء دولة مستقلة تضمها ، أو حتى بالإنضمام إلى دولة أخرى . ويرتكز هذا الحق على الإرادة الشعبية الحرة دون تقييدها سلفا بضرورة وجود روابط موضوعية بين أفراد الجماعة كروابط اللغة أو التاريخ أو غيرها " [1] ، وذلك على عكس المبدأ القومى الذى كان يقضى بضرورة الجمع بين الوحدة القومية (الأمة) والوحدة السياسية (الدولة) ، فلا تقوم وحدة سياسية على أكثر من أمة ولاتتوزع الأمة الواحدة بين عديد من دول .

ومهما يكن من أمر ذلك التباين بين مضمون مبدأ القوميات ومضمون مبدأ حق تقرير المصير فقد اعتمد أنصار القومية – منذ القرن التاسع عشر – على حق تقرير المصير فى تبرير حق الأمم فى تنظيم كيانها القومى على النحو الذى ترتضيه . وهكذا اختلط المبدآن ببعضهما ، فأصبح حق تقرير المصير لايقتصر على حق الشعب فى تقرير مصيره السياسى ، وإنما اتسع ليشمل حق الأمة فى تقرير مصيرها السياسى وإقامة دولة تجمع شمل شتاتها [2] .

وجملة القول فى شأن ماتقدم أنه قد صاحب قيام الثورة الفرنسية ذيوع عدد من مبادئ جديدة تتصل بحقوق الشعوب والأمم . وقد تمثل أظهر هذه المبادئ فى مبدأى " القوميات " و " حق تقرير المصير " . ومن هنا فإننا نتفق مع الرأى القائل " بأن الثورة الفرنسية هى التى علمت العالم معنى القومية " [3] غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أن غزوات نابليون لأراضى أوربا – غداة نجاح الثورة الفرنسية – قد انحرفت عن مبادئ هذه الثورة . ففى سبيل تكوين إمبراطورية واسعة تجاوز نابليون عن مبادئ الثورة الفرنسية – وعلى رأسها المبدأ القومى – إلى حد أنه نصب ملوكا على دول

---

(١) انظر نفس المرجع السابق .

(٢) فى هذا المضمون أنظر : صوفى أبوطالب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٢ .

(٣) Kohn, Hans, The age of Nationalism, Harper & Prothers, Publishers, New York, 1962, p. 3.

لاتربطهم بها أية روابط بل ويجهلون لغات شعوبها ، كما جمع فــي الدولــة الواحدة شعوبا تتنافر لغة وحضارة ، وضم بعض الأراضي إلى فرنسا . بيد أن الغزو الفرنسي لأراضي أوربا ألهب شعور أبنائها فــي التخلــص مــن الإحتلال ، وعمق الفكرة القومية في نفوسهم . وما كادت أوربا تتحرر مــن جيوش نابليون – على إثر هزيمته – حتى انهارت الحكومات والدول التــي أقامها ، واستمرت الشعوب الأوربية تلح في تنفيذ مبدأى حق تقرير المصــير والسيادة الشعبية ومايؤديان إليه من إقامة الدولة على أساس قومي،فضلا عن تقييد سلطات الملوك[1] .

وفي عام ١٨١٥ – وعلى إثر إندحار جيوش فرنسا – انعقد مؤتمر في فيينا بغية اعادة تنظيم أوربا بعد الأعاصير التي أثارتها والإنقلابــات التــي أوجدتها الحروب النابليونية الطويلة . غير أن مقررات فيينا جــاءت – فــي جملتها – مخيبة لما كانت تتطلع إليه شعوب أوربا من طموحات قومية . ذلك بأن المؤتمرين في فيينا لم يعيروا مطالب الشــعوب فــي تقريــر المصــير والسيادة الشعبية أي اهتمام . فبدلا من إقرار هذين المبدأين ، أكد المؤتمرون تمسكهم بمبدأ حق العروش في تقرير مصائر الشعوب (مبدأ الشــرعية) ، وبالتالي إعادة الأمور في أوربا إلى ماكانت عليه قبل قيام الثورة الفرنســية ، وتوزيع الشعوب بين ملوكها القدامى . وقد أعقب مؤتمر فيينا عدة مؤتمــرات استهدف الملوك من خلالها اتخاذ إجراءات موحــدة لاخمــاد الحركــات القومية وغيرها من الحركات الثورية في شتى بقاع القارة الأوربية . وقــد تمخضت هذه المؤتمرات عن عقد الإتفاق المعروف بــبروتوكول تروبــاو ، وبمقتضى هذا الإتفاق فإن الدول التي تتغير حكوماتها نتيجــة لثــورة تفقــد عضويتها في الحلــف الأوروبي ، كما أعطــي البروتوكول للدول الموقعــة عليه حق التدخل المسلح ضد الثورات لإعادة الأوضاع إلى ماكانت عليه قبل اندلاع هذه الثورات [2]

(١) أنظر في هذا المضمون : صوفي أبوطالب ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣.
(٢) راجع في هذا الصدد :

وهكذا فقد انتهى مؤتمر فيينا – وما تبعه من مؤتمرات – بانتصار أصحاب الحقوق الشرعية القدامى ، واعادة مجد العروش القديمة (الحقوق الشرعية) وذلك بطبيعة الحال على حساب حقوق الشعوب . بيد أن هذه المؤتمرات لم تكد تنتهي حتى بات الإيمان راسخا فى قلوب شعوب أوربا جميعا بوجوب إقامة الرباط السياسى (الدولة) على أساس من الرباط الطبيعى (الأمة) . إنه مبدأ القوميات الذى يقضى بضرورة أن تأتى الوحدة السياسية (الدولة) متوجة للوحدة الطبيعية التى تربط أبناء الأمة الواحدة ، وبالتالى فلا بد من أن تكون الدولة قومية . وبطبيعة الحال فقد أصبح مؤدى هذا الإيمان الجديد أن أضحى أمرا بغيضا لدى شعوب العصر أن ترى الأمة الواحدة أبناءها مبعثرين بين وحدات سياسية متفرقة ، أو خاضعين لسلطان أجنبى ، أو مكرهين على الاتحاد مع أبناء أمة أخرى تحت نير سلطان سياسى واحد (١) .

ولقد ساعد على ترسيخ الفكرة القومية فى نفوس الشعوب الأوربية وزكى الجهاد فى سبيلها اعتباران هما (٢) :

(١) سياسة الكبت التى حبكها المؤتمرون فى فيينا والتى كان مؤداها كبت الأفكار الحرة ومن بينها فكرة القومية ، وقمع كل حركة فى سبيلها لحساب مبدأ الحقوق الشرعية ، فلقد تمخض هذا الكبت عن انفجار ملأ جو القرن التاسع عشر كله برذاذ فكرة القومية فراحت تنتشر كالنار فى الهشيم لتغطى شتى أصقاع القارة الأوربية ، ولم يعد أصحاب الحقوق الشرعية

== - المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

- أبوخلدون ساطع الحصرى ، محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩ .

(١) محمد طه بدوى – محمدطلعت الغنيمى ، دراسات سياسية وقومية ، منشأة المعارف، الإسكندرية ، ١٩٦٣ ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٣ ، ١٠٤

(الأوتوقراطيون) قادرين على قمع حركات المؤمنين بمبـــدأ القوميـــات ، الأمر الذى كان له أبلغ الأثر فى التمكين للحركات القومية .

(٢) إحساس بعض الأمم التى وقعت فريسة للغزو النابليونى – وعلى رأسها المانيا – بأن تفتتها السياسى هو الذى مكن هذا الغزو منـــها ، ولكـــى يؤمن أبناء هذه الأمم بأنه لاسبيل إلى تفادى مثل هذا الغزو فى المســتقبل إلا باتحاد قومى يجمع شتات الأمة ويقوى من شوكتها سياسيا .

وتأسيسا على ماتقدم ففى أعقاب مؤتمر فيينا تكونت فى شتى أرجـــاء أوربا جمعيات سرية تدعو إلى العنف والثورة فى ســـبيل تحقيـق الوحـدة السياسية القومية ، وأدى ذلك إلى التفاف القوى القومية حول إحدى الدويلات القوية (كبروسيا فى المانيا وبيدمونت فى إيطاليا) واتخاذها مقرا ومنطلقـــا للحركة القومية ، وسرعان ما انضمت إلى هذه الدويلة بقية الدويلات استجابة للمشاعر القومية [١] .

وجملة القـــول فى شأن ماتقدم أن فكرة القومية قد بلغت درجـــة مـن الرسوخ فى أذهان الشعوب – إبان القرن التاسع عشر – أضحت معها بمثابة زى القرن ، ومن هنا جاء وصف القرن التاسع عشر بأنه قـــرن القوميـــات Century of Nationalism ، حيث ظهرت خلاله الفكرة القومية فى أوربـــا مرتبطة بحق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وبالتالى جاءت بمثابة الثـــورة على الحقوق الشرعية القديمة (حقوق العروش) مستهدفة الوحدة السياســـية بالنسبة لأبناء الأمة الواحدة من أجل القوة [٢] .

وكنتيجة لمبدأ القوميات – بمضمونه المتقدم – طرأ على أوضاع أوربا

---

(١) راجع بصدد هذه الحركات :
- صوفى ابوطالب ، مرجع سبق ذكره ، من ص ٢٠٣ إلى ص ٢٠٧ .
- Kohn, Op. Cit., p.p. 9-12.

(٢) محمد طه بدوى – طلعت الغنيمى ، مرجع سبق ذكره ، من ص ١٠٣ إلى ص ١٠٧ .

السياسية – خلال القرن الذى أعقب مؤتمر فيينا لعام ١٨١٥ – من التطورات والإنقلابات مالم يسجل التاريخ مثيلا له فى أى عهد من العهود الغابرة (١) .

فإبان الحقبة المذكورة ظهرت أغلب الدول القومية فى أوربا . وإذا كانت هذه الدول قد نشأت كثمرة مباشرة لانتصارات حربية أو ثورات شعبية أو لاعتبارات متعلقة بالتوازن الأوربى وتحالف الدول الكبرى فإن ثمة حقيقة كبرى لاسبيل إلى إنكارها قوامها أن استقرار الوعى القومى ورسوخ الإيمان بالقومية كان بمثابة القلب النابض فى كل الحركات القومية ، إذ تبعثت جميعها من هذا الإيمان عاملة على أن تستند الوحدة السياسية إلى وحدة طبيعية ، فلا تفتيت لوحدة الأمة الواحدة لحساب سيادات سياسية مختلفة ، ولاسيطرة أجنبية ، ولا إكراه على اتحاد سياسى بين أبناء أمم مختلفة لاتصدق رغبتهم فيه . ومن هنا فقد أتت الحركات القومية بثمارها فى أوربا عن طريق التفتيت أو التماسك أو الإنفصال . فمن خلال التماسك (بالإتحاد) ظهرت دولتان كبيرتان (ألمانيا وإيطاليا) ، وعن طريق التفتيت بالتحرير أو الانقسام أو الانفصال ثم التجمع – وفى مدى مائة عام تقريبا من تاريخ انعقاد مؤتمر فيينا ١٨١٥ – تم إنفصام الرباط السياسى بين (بلجيكا وهولندا) و (السويد والنرويج) ، و (النمسا والمجر) وغيرها ، وتم تحرير اليونان وبلغاريا ورومانيا وألبانيا من التبعية لسيادة تركيا . وبعامل التحرر ثم الإلتئام ظهرت دول جديدة كيوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ، وبعثت بولندا التى كانت مقسمة بين روسيا والنمسا (٢) .

ولعل من أبرز الوحدات القومية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر (قرن القوميات) الوحدتين الألمانية والإيطالية ، وكذا الوحدات التى ظهرت

---

(١) أبوخلدون ساطع الحصرى، محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، مرجع سبق ذكره، ص ٩

(٢) راجع فى هذا الصدد :

- محمد طه بدوى ، طلعت الغنيمى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٤ ، ١٠٥
- صوفى أبوطالب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

فى منطقة البلقان . لذا فإننا نرى أنه من مقتضيات التأصيل التاريخى لفكرة القومية أن نعرض بإيجاز لكل من هذه الوحدات .

أولا : الوحدة الألمانية [1] :

لقد كانت ألمانيا فى أواخر القرن الثامن عشر – كما سبق أن اشرنا – فى حالة شبيهة بإقطاعيات القرون الوسطى ، ذلك بأنها كانت مقسمة إلى عدد كبير من الدول والدويلات والمدن الحرة . وكان الحكم يعود فى بعضها إلى رؤساء دينيين وفى بعضها الآخر إلى رؤساء زمنيين ، وكان بين هؤلاء الرؤساء ملوك وأمراء ودوقات وجراندوقات ، وكان – إلى جانب ذلك كله – ثمة مدن حرة عديدة مستقلة فى إدارة شئونها ومتمتعة بسيادة تامة فى أمورها الداخلية والخارجية . وعلى الرغم من وجود مايسمى بالإمبراطورية المقدسة إلا أن هذه الإمبراطورية كانت لاتتمتع بأية سلطة حقيقية ، فكانت كل واحدة من الوحدات السياسية الكبيرة والصغيرة مستقلة فى شئونها استقلالا تاما ، حيث كان لكل منها حكومة خاصة وجيش خاص وقوانين خاصة . وباستثناء مملكة بروسيا كانت جميع الوحدات الألمانية – على كثرتها – شديدة الضعف من جميع الوجوه السياسية والعسكرية [2]

ومع اعتلاء نابليون سدة الحكم فى فرنسا وسعيه إلى بناء إمبراطوريته كان من الطبيعى – فى ظل ظروف التفكك التى كانت تعانيها ألمانيا – أن تتجه أطماعه إلى الأراضى الألمانية ، فما أن دانت له السيطرة على هذه الأراضى حتى شرع فى تمزيق أوصال الدول أو الدويلات الألمانية الجنوبية المتصلة بنهر الراين ، حيث ألحق قسما منها بفرنسا الحاقا مباشرا ، وكون

---

(١) أنظر بصدد الوحدة الألمانية :

- Weigall & Murphy, Op. Cit., pp. 81-82.

وأيضا : نورالدين حاطوم ، حركة القومية الألمانية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧١ .

(٢) أبوخلدون ساطع الحصرى ، محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨.

من قسم آخر منها مملكة جديدة أطلق عليها إسم مملكة وستفاليا ونصب أخيه جيروم ملكا عليها ، ثم كون اتحادا من بعض الدويلات الألمانية عرف باتحاد الراين وأعلن نفسه حاميا على هذا الاتحاد ، وفى أعقاب ذلك قام نابليون بمهاجمة بروسيا ودحر جيوشها فى موقعة (يينا) ، ثم زحف إلى برلين واستولى عليها ، وفصل عن مملكة بروسيا أكثر من نصف أراضيها ، كما فرض عليها غرامة مالية باهظة ورقابة عسكرية قاسية . وفوق ماتقدم فقد جعل من ألمانيا الشمالية قاعدة للاستعدادات العسكرية التى كان يقوم بها لغزو روسيا ، كما جند مئات الآلاف من الألمان فى الحروب ضد روسيا (١)

ولقد كان لاكتساح نابليون الأراضى الألمانية أبلغ الأثر فى نفوس الألمان ، إذ باتوا يدركون تمام الإدراك أن فقدان الوحدة القومية هو السبب فيما أصاب بلادهم ، ونظرا لذلك فقد امتلأ جو القرن التاسع عشر فى ألمانيا على وجه الخصوص بفلسفة القومية والعصبية الجنسية وسيادة الجنس الألمانى ورسالته السامية التى تقع على عاتقه نحو البشرية بأسرها (٢). ولقد سرى هذا التيار القومى فى نفوس الألمان بسرعة كبيرة واستثار - بوجه خاص - همم رجال الفكر والسياسة ودفعهم إلى العمل عملا متواصلا فى سبيل تخليص البلاد من ربقة السيطرة الفرنسية ، وقد تمثل مركز هذه المساعى والحركات فى بروسيا التى اجتمع فيها كبار رجال الفكر والأدب والسياسة من جميع أنحاء ألمانيا ، وتضافروا على خلق روح جديدة فى البلاد (٣) .

---

(١) أنظر فى هذا الصدد :

- المرجع السابق ، ص ٣٠ .

Featherstone, H.L., A Century of Nationalism, Thomas Nelson and Sons LTD, London. 1939, p.p. 57-74.

(٢) محمد طه بدوى - طلعت الغنيمى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٢ .

(٣) أبوخلدون ساطع الحصرى ، محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، مرجع سابق، ص ٣٠.

ولقد كان" فيخته" إمام دعاة القومية الألمانية وسمو الجنس الألمانى[١] ، إذ عمد فيخته إلى نشر هذه الفكرة من خلال الخطب والمقالات والقاء الدروس والمحاضرات ، ومن هنا فقد تمكن فيخته وغيره من المفكرين من استثارة روح التضحية وتقوية نزعة الاتحاد فى النفوس . كما أخذ رجال السياسة يقدمون على اجراء اصلاحات ادارية واجتماعية لتهيئة السبيل أمام حركات الإستقلال والوحدة ، وذلك فضلا عما قام به رجال الجيش من اعادة تنظيم الحياة العسكرية على أسس جديدة . وهكذا فإن الجهود التى بذلها رجال الفكر والسياسة والجيش فى بروسيا على إثر كارثة " يينا " كانت تستهدف هدفين أساسيين هما : تخليص البلاد الألمانية من النير الفرنسى من ناحية ، وتوحيدها سياسيا وعسكريا من جهة أخرى [٢] .

ولقد تكللت هذه الجهود بالنجاح فى دحر الجيوش النابليونية بموازرة جيوش الدول الأوربية ، الأمر الذى أوجد فى نفوس القوميين الألمان أملا قويا فى تحقيق الوحدة الألمانية . بيد أن السياسة التى سارت عليها الدول المؤتمرة فى فيينا غداة الإنتصار على نابليون – كما سبق أن أشرنا – قد خيبت آمال القوميين الألمان ، حيث قرر ساسة أوربا تنظيم أوربا من جديد على أساس اعادة الملوك إلى حقوقهم الشرعية ، وقد حال ذلك – بطبيعة الحال – دون توحيد ألمانيا ، حيث أبقى النظام الجديد الذى أقره المؤتمرون على تسع وثلاثين وحدة سياسية ألمانية بين ملكية ودوقية ، وغرندوقية ، وإمارة مستقلة عن غيرها تمام الإستقلال .

بيد أنه على الرغم من كل الجهود التى بذلتها الحكومات الأوربية فى

---

(١) كذلك كان هيجيل من المبرزين من بعد فيخت فى هذه الناحية ، وذلك فى كتابه " فلسفة التاريخ " الذى نشر عام ١٨٣٧.
انظر فى هذا الصدد : محمد طه بدوى -طلعت الغنيمى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٢.

(٢) أبوخلدون ساطع الحصرى ، محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، مرجع سبق ذكره ، من ص ٣١ إلى ص ٣٥.

سبيل تعويق فكرة الوحدة الألمانية ، فإن هذه الفكرة ظلت تتغلغل فى النفوس وأخذت – من خلال الصراع الثورى المسلح – تتحقق شيئا فشيئا متغلبة على سائر أنواع المشاكل والعوائق التى كانت تعترض سبيلها .

وهكذا فقد ألف الدين الجديد (القومية) بين ثلاثمائة وستين ولاية ألمانية كانت لاتزال متمايزة حتى نهاية القرن الثامن عشر ، وما أن حل عام ١٨٧١ حتى اندمجت الخمس والعشرون وحدة – التى كان قد آل إليها حال الثلاثمائة والستين ولاية – فى دولة اتحادية واحدة ، ثم آل بها الأمر – بدافع ذات المحرك – فى سنة ١٩٢٣ إلى دولة بسيطة موحدة . إن هذا المحوك (القومية) هو الذى دفع أمراء تلك الوحدات السياسية المتمايزة إلى قبول زعامة بروسيا بعد أن رسخ الإيمان بالقومية فى قلوب أبناء الأمة الألمانية جميعا على اختلاف تبعياتهم السياسية . وإذا كانت شخصية بسمارك وانتصار بروسيا على فرنسا فى حرب سنة ١٨٧٠ قد هيأ السبيل للوحدة الألمانية فإن الدين الجديد (القومية) هو الذى نفخ من روحه فى هذه الوحدة، فقد كان من معجزاته فى القرن التاسع عشر أن تجمع أبناء الأمة الألمانية جميعا فى اتحاد سياسى واحد بعد أن ظلوا لحقب طويلة مبعثرين بين ذلك الرماد من الوحدات السياسية ، وتلك هى غاية الدين الجديد [١] إنها الدولة القومية .

ثانيا : الوحدة الإيطالية [٢] :

لقد تجلت المعجزة الثانية من معجزات الدين الجديد (القومية) – إبان القرن التاسع عشر – فى توحيد إيطاليا . ولقد كان الإيمان بالرباط المقدس فيما بين الإيطاليين والذى قوامه وحدة اللغة ووحدة التاريخ – هو جوهر

---

(١) محمد طه بدوى – طلعت الغنيمى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٥ .

(٢) انظر بصدد الوحدة الإيطالية : نور الدين حاطوم ، حركة القومية الإيطالية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧١ . وكذلك لنفس المؤلف : تاريخ الحركات القومية ، الجزء الأول ، دار الفكر الحديث ، لبنان . ١٩٦٧.

حركتى التحرير (من السيطرة الأجنبية) والتوحيد السياسى . وقد كان أبناء الأمة الإيطالية مبعثرين بين عدد كبير من وحدات سياسية متمايزة يقع بعضها تحت سيطرة دول أجنبية . لذلك كان لابد – لكى تتحقق غاية الدين الجديد (أى الوحدة) – من حركتين تسيران جنبا إلى جنب ، إنهما حركتا التحرير والتوحيد . وإذا كانت الظروف قد هيأت لهاتين الحركتين جهود زعماء قوميين ككافور وغاريبالدى ومعاونات حربية من الخارج بدوافع دبلوماسية كمساعدة فرنسا وبروسيا – لاعتبارات متصلة بالتوازن الدولى آنذاك – فإن التخلص من السيطرة النمساوية وتوحيد الولايات الإيطالية كانا بحق ثمرة إيمان أبناء الأمة الإيطالية بالدين الجديد (أى القومية) ، ذلك الإيمان الذى دعا الجمهوريين بزعامة غاريبالدى فى الجنوب إلى التخلى بنفس راضية عن مراكزهم للملكيين فى الشمال تمكينا للوحدة . وهكذا فقد كان الإيمان بالدين الجديد (أى القومية) هو الدافع إلى الوحدة الإيطالية فى البداية والمتوج لحركاتها فى النهاية [١] .

ثالثا : الوحدات القومية فى منطقة البلقان :

لقد كانت البلاد البلقانية – فى أوائل القرن التاسع عشر – تابعة برمتها للسلطان العثمانى ، وذلك على الرغم من أن هذه البلاد كانت موطنا لشعوب وقوميات عديدة متباينة ، حيث كان هناك اليونان والبلغار والصرب والألبان والبوشناق والبوماق والأفلاق والأتراك ، وهى شعوب تمثل قوميات متعددة تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا من حيث اللغة والدين والتاريخ [٢] .

وفى ظل هذه الأوضاع تجلت المعجزة الثالثة من معجزات الدين الجديد (القومية) على البقاع البلقانية ، إذ كان لابد من أن ينفخ هذا الدين من

---

(١) انظر بصدد الوحدة الإيطالية كذلك :
- محمد طه بدوى – طلعت الغنيمى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٥ ، ١٠٦.

(٢) أبوخلدون ساطع الحصرى ، محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

روحه فى تلك البقاع ، الأمر الذى كان لابد وأن يتمخض عن اندلاع الثورات التحريرية والإنفصالية فى صفوف الشعوب البلقانيـــة فــى طــول البقــاع وعرضها . وقد انقشع غبار هذه الثورات عن خمس دول قومية هى اليونـان ورومانيا ويوغسلافيا وبلغاريا وألبانيا (١) .

وإذا كانت هذه الحركات قد زكاها وهن الدولة المتبوعة وتدخل الــدول الكبرى ، فإن ثمة حقيقة لاسبيل إلى إنكارها مفادها أن انتشار الوعى القومى بين أبناء الشعوب البلقانية، ورسوخ إيمانهم بالقومية كانا الدافع المحرك لتلـك الحركات. وعلى سبيل المثال فقد جاء فى البيان الــذى أصــدره المؤتمــر اليونانى سنة ١٨٢٢ بإعلان الإستقلال : " إن الحرب التى نخوضها اليوم هى حرب القومية المقدسة ، وغايتها استرداد حقوق الأمة المهضومة وضمــــان كرامتها " (٢) .

مصير الفكرة القومية خلال القرن العشرين :

باندلاع الحرب العالمية الأولى نشطت الأبحاث والمناقشات والدعايـات ذات الصلة بقضايا القوميات إلى حد كبير . ذلك بأن الحلفاء عندما أصــدروا تصريحاتهم المتعلقة بأغراض الحرب أعلنوا أنهم سيعملون بمبدأ حق تقريــر المصير ، وبالتالى فإنهم سيعملون على تحرير الشعوب الخاضعة للســيطرة الأجنبية ومساعدة هذه الشعوب فى تكوين دول خاصة بها (٣) .

وغداة انتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى أكد الرئيس الأمريكى ويلسون على مبدأ حق الشعوب فى تقرير مصيرها ، وذلك فى ثنايا نقاطـــه الأربع عشرة ، وقد كان من شأن ذلـــك أن ظـــهرت دول جديـــدة كبولنـــدا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ، كذلك فقد تكرر تأكيد حق الشــعوب فــى تقريــر

---

(١) محمد طه بدوى – طلعت الغنيمى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٦ .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) أبوخلدون ساطع الحصرى ، حول القومية العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٥ ، ص ٢٠٣ .

مصيرها فى تصريح الأطلنطى أثناء اشتداد رحى الحرب العالمية الثانية ، وفى الإعلان الصادر عن اجتماع يالتا فى أواخر سنى الحرب المذكورة . وفضلا عن كل ماتقدم فقد ورد مبدأ حق تقرير المصير بارزا فى المادة الأولى من ميثاق الأمم المتحدة باعتباره إحدى دعائم العلاقات الدولية التى يسعى الميثاق إلى إنمائها على أساس ودى (١) .

هذا ولايزال عالمنا المعاصر يزخر بالحركات العرقية التى تعمل – مرتبطة بمبدأ حق تقرير المصير – على الإنفصال عن الدولة التى توجد بها وإقامة دولة مستقلة تضم أبناء أمتها ، ولعل من أظهر الأمثلة على ذلك الحركة العرقية فى جنوب السودان ، والحركة العرقية الكردية ، والحركة العرقية فى إقليم كيبيك الكندى ، وغيرها من الحركات التى سنعرض لها – بإذن الله – فى القسم الثانى من هذا الكتاب .

وجملة القول فى شأن ماتقدم فإن الفكرة القومية – وما تمخضت عنه من مبادئ – لم تمت بإنقضاء القرن التاسع عشر (قرن القوميات) ، ذلك بأن هذه الفكرة لاتزال راسخة فى ضمير العديد من الأمم والشعوب التى مابرحت تسعى بدأب إلى بلوغ غايتها المتمثلة فى الحصول على حقها فى تقرير مصيرها .

---

(١) أحمد سويلم العمرى ، اصول العلاقات السياسية الدولية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٩ ، ص ٥٧٦.

المبحث الثانى

فـى

التعريف بمفهومى " القومية " و " الأمة "

بصدد التعريف بمفهوم القومية – بادئ ذى بدء – يمكن القـول بـأن التعريفات التى قدمت فى هذا الصدد قد تعددت بتعدد الباحثين الذين عنوا بهذا المفهوم . وعلى سبيل المثال فثمة من يرى أن القومية " تعنى بمفهومها العام ميلا أو شعورا بالإنتماء إلى جماعة حضارية معينة ، ورغبة فـى التجمـع والترابـط لتحقيق غايات وأهداف مشتركة فى ظل إحسـاس عـام بوحـدة المصير " [١] .

وثمة من يقول بأن للقومية مفهومين أحدهما إجتماعى والآخر سياسى ، حيث يبرز المفهوم الإجتماعى كيان القومية باعتبارها رابطة تربـط الفـرد بكائن إجتماعى يتحد أفراده فى اللغة والتاريخ والثقافة والمصالح المشتركة ، ويتمثل هذا الكائن الإجتماعى فى الأمة . أما المفهوم السياسى للقومية – تبعا لهذا الإتجاه – فهو ينصرف إلى أن القومية هى عقيدة سياسية قوامها الشعور القومى الذى يدفع أبناء الأمة إلى الإعتقاد بأنهم مجموعة بشرية متمايزة عـن غيرها من الجماعات ، لها كيانها الذاتى وتطلعاتها القومية ، كما أن لها الحق فى أن تنتظم فى وحدة سياسية مستقلة عن غيرها ، وأن تنظم كيانها القومـى تنظيما اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا بما يحقق شخصيتها القومية [٢] .

وفى كتابه " قوة الأمـم The Might of Nations " يعـرف جـون ستوسنـجر John Stoessinger القومية بأنها وعى تجمع بشرى ما بمصيره

---

(١) اسماعيل صبرى مقلد ، العلاقات السياسية الدولية ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ٩٧ .

(٢) صوفى أبوطالب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧١ .

المشترك وماضيه الواحد ورؤيته المستقبلية الموحدة [١] .

ويعرِّف هنسلى Hinsley القومية بأنها حالة عقلية – فى ظلها – يصبح الولاء السياسى للفرد متجها لأمته [٢] .

ولعل من أكثر التعريفات شمولا وأوسعها احاطة بكنه القومية ذلك التعريف الذى قوامه أن القومية تعنى مجرد التعبير عن ذات الأمة فى مجال جماعة الأمم (الجماعة الإنسانية الشاملة) ، وهى من الداخل تعبير عن إحساس الفرد بارتباطه بالحياة المشتركة بمفاهيمها وأساليبها التى تختص بها أمته ، وهو إحساس يؤدى إلى تضامن أبناء الأمة تضامنا طبيعيا بما يستتبعه من تقييد الأنانية الفردية تقييدا ذاتيا مصدره ذات الفرد من أجل صالح الجماعة [٣] .

وتمثل القومية – بمفهومها المتقدم – صورة من صور التمايز داخل الجماعة الإنسانية الكبرى ، وهى تعتمد على مجموعة خصائص واقعية تتوفر لمجموعة بشرية معينة تُولِّد لدى أفرادها إحساسا مشتركا بالتجانس فيما بينهم وتميزهم عما عداهم ، ومن هنا فإن القومية تمثل مبدأ من مبادئ التمايز الإجتماعى [٤] . ذلك بأن ارتباط الدولة الحديثة بعناصرها البشرية على أساس ترابط هذه العناصر فيما بينها برباط القومية قد أكد لظاهرة التمايز القديمة التى ارتبطت بقيام المجتمعات السياسية ، والتى كان مؤداها الإرتياب فى كل الذين يقيمون وراء حدود الإقليم ، أو فى كل من يأتى من ورائه على اعتبار أن الأصل فيهم أنهم أعداء . فلقد أكدت ظاهرة الدولة الحديثة لتلك

---

(١) Russett, Bruce & Starr, Harvey, World Politics, Themenu for choice, Second Edition, W. H. Freeman and Company, New York, Oxford, 1985. p. 47.

(٢) Hinsley, F. H., Nationalism and The International System, Hodder and Stoughton, London, 1973, p. 1.

(٣) محمد طه بدوى ، النظرية السياسية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

النظرة القديمة على أساس من معيار القومية ، ففي إطار إقليم الدولة ثمة وطنيون يرتبطون فيما بينهم وبين الدولة برباط سياسي دعامته القومية . وهو يؤدي بهؤلاء إلى مراكز قانونية وسياسية معينة بحقوق وواجبات متبادلة بينهم وبين الدولة ، فهم حين يبلغون سنا معينة مواطنون ، وفيمن عدا هؤلاء من المقيمين على إقليم الدولة أجانب في مراكز سياسية وقانونية مختلفة تماما عن مراكز المواطنين الذين طالما سموا أيضا بالرعايا أي رعايا السلطة السياسية [1] .

وتتعين الإشارة هنا إلى الإختلاف بين مفهومي" الوطنية " و" القومية "، فالحق أن الوطنية والقومية تمثلان نزعتين من أبرز النزعات التي تربط الفرد بالجماعة وتجعله يحبها ويفتخر بها ويعمل من أجلها ويضحي في سبيلها ، غير أن مفهوم الوطنية يشير إلى حب الوطن ، أو إن شئنا إلى ارتباط الفرد بإطاره الإقليمي ومن يقطنه من أفراد وما يسوده من نظم ، وبالتالي يكون ولاء الفرد لوطنه . والشعور الوطني غريزة طبيعية تدفع الإنسان إلى التعصب للوطن والتضحية في سبيله ، وهو شعور لازم الإنسان منذ انضمامه إلى غيره من بني البشر في حياة مشتركة مستقرة . أما فيما يتصل بمفهوم القومية فهو يشير إلى حب الأمة أي ارتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف إصطلاحا بالأمة ، وبالتالي فإن الشعور القومي يعد حديث العهد إذ ظهر بظهور فكرة القومية ، وكذلك فإن ثمة إختلافا بائنا بين الشعور الوطني والشعور القومي ، إذ يقتصر الأول على الوعي بمشاكل الدولة التي ينتمي إليها الشخص ، أما الشعور القومي فينصرف إلى مشاكل الأمة وتطلعاتها القومية [2] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) انظر في هذا الصدد :

- صوفي أبوطالب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٠ ، ١٧١ .
- أبوخلدون ساطع الحصري ، أبحاث مختارة في القومية العربية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣.

وجملة القول فى شأن التعريف بمفهوم القومية أنه يشير إلى حالة من الأحاسيس النفسية المشتركة تولد لدى أفراد الأمة الرغبة فى الحياة المشتركة.

أما فيما يتصل بمفهوم الأمة فقد تعددت - أيضا - التعريفات بصدده ، فبادئ ذى بدء نجد أن العديد من الكتاب - وبالذات الأنجلوسكسون - لايجدون حرجا فى استخدام لفظتى أمة Nation ودولة State كلفظتين مترادفتين ، فالأمة لدى هذا الإتجاه - شأنها فى ذلك شأن الدولة - ليست إلا كيانا يتمتع بالإستقلال Independence ينطوى على تجمع بشرى Population ، وإقليم Territory، وحكومة Government [1] .

والحق أن هذا الخلط بين مفهومى الأمة والدولة فى التعريف السابق يعد أمرا غير مقبول ، ذلك بأنه ليس مما يحتاج إلى بيان أن ثمة إختلافا بائنا بين المفهومين ، فالعوامل المهيئة لقيام الدولة تتمثل فى التجمع البشرى والإقليم والسلطة السياسية ، وهنا تختلف الأمة عن الدولة حيث أن توافر ركنى التجمع البشرى والإقليم يعد أمرا ضروريا لوجود كل منهما ، وعلى حين يقتضى قيام الدولة وجود ركن ثالث هو السلطة السياسية فإن هذا الركن لايعد من مقتضيات وجود الأمة . كذلك فإنه من اللازم أن يتجانس أفراد التجمع البشرى المكون للأمة بينما لايشترط التجانس فى شعب الدولة [2] ، ذلك بأن الدولة قد تكون قاصرة على أمة واحدة إعمالا لمبدأ القوميات ، كما قد تضم الدولة الواحدة عديدا من أمم وذلك حال الإتحاد السوفيتى السابق ، وذلك كله فضلا عن أنه قد توجد أمة بدون دولة مثل الأمة البولندية أثناء الحرب العالمية الثانية [3] .

---

(١) انظر فى هذا الشأن :

- Roskin, Michael G. & others, Political Science, an intruduction, Fourth Edition, prentice- Hall International, Inc., 1991, p. p. 27-31.

(٢) فى هذا المعنى ، أنظر : صوفى أبوطالب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٩ .

(٣) إبراهيم أحمد شلبى ،علم السياسة ، دراسة فى قواعده الأصولية وضوابطه ==

ومن جانب آخر فإن ثمة من يعرف الأمة بأنها جماعة بشرية متجانسة فى الجنس واللغة والدين [١] . ويرد هذا الرأى الترابط القومى إلـى مجـرد معايير موضوعية بحتة وهو أمر لايستقيم مع الواقع . ذلك بأن مـن شـأن الأخذ بهذا الرأى نفى صفة الأمة عن التجمع البشرى الأمريكـى والتجمع البشرى السويسرى ، وذلك نظرا لانحدار كليهما من أصول عرقية مختلفة . وفى رأينا فإنه ليس بمقدور أحد أن ينكر وجود أمة سويسرية (وكـذا أمـة أمريكية) يتجانس أفراد تجمعها البشرى من خلال وحدة المصالح والرغبة فى الحياة المشتركة ، وذلك على النحو الذى سنعرض له لاحقا فـى ثنايا عرضنا لمقومات القومية فى المبحث التالى .

وفى كتاب له نشر عام ١٩١٤ بعنوان " الماركسية والمسألة القوميـة " يعرف ستالين الأمة بأنها جماعة مستقرة من البشر تكونت تاريخيا من جراء وحدة اللغة ، والأرض ، والحياة الإقتصادية ، ووحدة التكوين النفسى التـى تتجلى فى وحدة الثقافة [٢] ويؤخذ على هذا التعريف ما أخذ على التعريف السابق من اغفاله لدور عامل " الرغبة فى الحياة المشتركة " فى خلـق الأمم .

وفى رأينا فإن التعريفات التالية تقترب شيئا فشيئا من كنه الأمة :

يعرف مانتشينى Mancini الإيطالى الأمة بأنها مجتمع طبيعـى من البشر يرتبط بعضه ببعض من خلال وحـدة الأرض والأصـل والعـادات واللغة، فضلا عن اشتراكه فى الحياة وفى الشعور الإجتماعى [٣] .

ويرى كابـور Kapoor أن الأمة هى : " جماعة من الناس يجمعهم

== النظرية ، الدار الجامعية ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ٥٨.

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) أبوخلدون ساطع الحصرى ، ماهى القومية ؟ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ١٤٣.

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٥ .

إحساس واع نابع من تراث ثقافى مشترك وتطلع مشترك إلى العيش معا فى دولة مستقلة ، ويلزم أن تستحوذ هذه الجماعة فى صورة الأمة على الولاء السياسى والنهائى للأفراد المكونين لها " (١)

وثمة رأى آخر قوامه أن الأمة هى " جماعة من البشر تجمعهم وحدة نفسية (يعبرعنها بالوعى القومى) ، وأهداف مشتركة (يعبر عنها بالتطلعات القومية) تتولد عن اتحادهم فيما بينهم فى عدة عناصر كاللغة والتاريخ والثقافة ... الخ ، ويستأثرون بإقليم معين يمارسون فيه سيادتهم (يعبر عنها بالسيادة الشعبية) بوضع تنظيم معين لكيانهم السياسى والإجتماعى والإقتصادى (يعبر عن هذا التنظيم بالأيديولوجية القومية) ، وتتكون الأمة على مدى أجيال ولذا توصف بأنها ظاهرة إجتماعية حضارية " (٢) .

والحق أنه يؤخذ على هذا التعريف غموض بعض المفاهيم واستخدام بعض العبارات غير الإصطلاحية وذلك حال عبارة " السيادة الشعبية "

وأخيرا فإن أستاذنا الدكتور محمد طه بدوى يقدم تعريفا للأمة قوامه أنها : " مجموع الأفراد من سلف وخلف على مدى الأجيال الذين يشتركون فى الإحساس بصفات واحدة تفضى إلى حالة الضمير القومى ، فيشكلون تبعا لذلك وحدة جماعية تشعر بتميزها إزاء ماعداها من الجماعات الإنسانية ، وبما تنطوى عليه من روابط وواجبات يحكمها الضمير القومى ، تتمثل أكثر مايكون فيما يفضى إليه هذا الضمير من تضامن القوميين فيما بينهم من أجل إزكاء الشعور القومى ، والدفع به نحو تطلعاته الذاتية " (٣) .

وتتميز كل أمة عن غيرها من الأمم بعدة سمات يعبر عنها إصطلاحا بعبارة " الطابع القومى " . وتشير هذه العبارة إلى مجموعة التقاليد والمصالح

---

(١) نقلا عن : محمود إسماعيل محمد ، دراسات فى العلوم السياسية ، مكتبة الإمارات – العين – الطبعة الثانية ، ١٩٨٤ ، ص ٤٩ .

(٢) صوفى أبوطالب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٣) محمد طه بدوى ، النظرية السياسية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٢ .

والمثل العليا التى تسود أمة ما فتصبغ عقلية أبنائها وتفكيرهم وطرائق حياتهم وسلوكهم بطابع معين يميزهم عن غيرهم من أبناء الأمم الأخرى . فتقاليد الجماعة هى التى تربط الأمة بماضيها وتراث الأسلاف ، ذلك بأن التقاليد هى عبارة عن مجموعة من أنماط السلوك التى توارثتها الجماعة وأنزلتها من نفسها منزلة القيم الثابتة التى لاتحيد عنها ، والتى تعتبر أن فى التمسك بها والحفاظ عليها ضمانا لوجود الجماعة وتعبيرا عن ذاتها . أما عنصر المصلحة فهو يمثل حاضر الأمة وهو يشير إلى كل مايحقق للأمة وجودها ويضمن لها تقدمها ورفاهيتها من نظم قانونية وسياسية واقتصادية تحكم علاقات أفراد الأمة ببعضهم من ناحية ، وعلاقة الأمة بغيرها من ناحية أخرى . أما فيما يتصل بعنصر المثل العليا فهو يمثل ماتصبو إليه الأمة من آمال وما تتطلع إليه من تقدم فى المستقبل [1] .

وجملة القول - إذا - أن الطابع القومى هو الذى يحفظ على الأمة تماسكها، وتضامن أبنائها ، وهو كذلك الذى يميزها عن غيرها من الأمم .

وغالبا ماينطوى الطابع القومى على تمجيد خصائص الأمة والحط من قدر غيرها . وفضلا عن ذلك فكثيرا ماتزعم الأمة أنها أرقى الأمم وأنها خلقت لحمل رسالة سامية للبشرية ، وهذه النزعة هى التى دفعت بعض الشعوب الأوربية إلى التسامى على غيرها من الشعوب، ولنا فى "عقيدة الجنس الآرى" التى اعتنقها الألمان لعقود طويلة - لاسيما فى العهد النازى- أظهر الأمثلة على ذلك [2] .

ومن جانب آخر فإن لكل أمة جملة من التطلعات أو الأهداف يعبر عنها بالتطلعات أو الأهداف القومية ، ومن أبرز الأهداف القومية التى تتطلع

---

(١) صوفى أبوطالب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) أنظر فى هذا الصدد :

- محمد طه بدوى - ليلى أمين مرسى ، مرجع سبق ذكره ، من ص ١٤٩ إلى ص ١٥١.

إليها الأمم: تحقيق الوحدة القومية ، والحصول على الإستقلال ، والتخلص من السيطرة الأجنبية سواء فى المجال السياسى أو الإقتصادى أو حتى الفكرى والثقافى . كذلك فمن أبرز الأهداف القومية التطلع إلى التفوق على الأمم الأخرى فى جميع المجالات العلمية والحربية والإقتصادية ... إلخ ، وعلى نحو يرفع من هيبة الأمة ويزيد من كرامتها ويوسع من دائرة نفوذها [١] .

وحين تتشكل الأمة (الوحدة القومية) فى دولة (وحدة سياسية) تكتسب الأمة الشخصية الإعتبارية ، ذلك بأن نظام الدولة وحده هو الذى ينقل الأمة من حالة الوجود الجماعى المتمثل فى مجرد الحدث إلى حالة الوجود القانونى بما يعنيه من شخصية إعتبارية . ولهذا الإعتبار كان الإلتقاء الكامل بين الدولة والأمة يمثل الصورة المثلى للدولة فى فلسفة القوميات فى القرن التاسع عشر فى أوربا ، فى معنى أن تقوم الدولة على جماعة قومية واحدة ، وعلى الجماعة القومية كاملة ، فلا تقوم على عديد من قوميات ، ولاتتفتت الأمة الواحدة بين عديد من دول . إن هذا الإلتقاء الكامل بين الدولة والأمة هو الذى يهيئ للتمكين لذاتية الأمة ويجعل منها شخصا اعتباريا ، ومن الدولة (بمؤسساتها) أداته العضوية المعبرة عن إرادته [٢] .

ويسود الأمة شعورجماعى يعرف بالشعور القومى (أو الوعى القومى)، وهو نوع من شعور الجماعة يؤلف بين أعضائها ويستهدف تحقيق تطلعاتها القومية، ويشمل الشعور القومى الإحساس الكامن فى نفوس أبناء الأمة ، والذى ينطوى على حبها والولاء لها والتمسك بلغتها وبتاريخها وبتقاليدها . ويلاحظ أن الشعور القومى يبلغ ذروته حينما يجابه الأمة أمر جلل ، وتتمثل مظاهر الشعور القومى فى التباهى بما أسهمت به الأمة فى تطور حضارة البشرية ، وتخليد أعمال الأبطال والموهوبين من أبنائها ،

---

(١) فى هذا المعنى أنظر : صوفى أبوطالب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٨.

(٢) محمد طه بدوى ، النظرية السياسية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٢ .

وتفضيل ماهـو قومى على ماعداه ، والتحيز لأبناء الأمة ضد الأجـانب ، والولاء التام لكل القضايا القومية ، والتضحية فى سبيلها [١] .

ويؤدى الشعور القومى – بمضمونه المتقدم – دورا مرموقا فى خلـق الوحدة السياسية القومية ، ذلك بأن انعقاد إرادة القوميين جميعا وتصميمـهم على تلك الوحـدة ، بدافع من ذلك الشعور ، هـو الـذى حقـق الوحـدات السياسية القومية الكبرى فى القرن التاسع عشر (الوحدة الإيطالية والوحـدة الألمانية) [٢] على النحو الذى سبق أن أشرنا إليه فى المبحث السابق .

غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أن الدولة كثيرا ماتؤدى دورا بناء فـى تكوين الأمة فلا تأتى لاحقة لوجود الجماعة القومية لتتوج وحدتها الطبيعية ، وإنما تؤدى دور الناظم بين عدة مجموعات بشرية متباينة قوميا (أصلا ولغة ... وهكذا) ، وهى إذ توجه هذه المجموعات المتباينة نحـو بلـوغ الغايـة المشتركة تهيئ لعامل الرغبة فى الحيـاة الجماعيـة ، فيتـألف مـن تلـك المجموعات مجتمع قومى جديد تشكل تلك الرغبة عامل الترابط فيه ، وذلـك حال الأمة الأمريكية(أمة الولايات المتحدة) والأمة السويسـرية [٣] علـى النحو الذى سنعرض له فى المبحث التالى .

وجملة القول فى شأن ماتقدم أن الدولة القومية تعد بحق الصورة المثلى للمجتمعات السياسية ، ففى ظلها تتشكل الوحدة القومية (الأمة) فى وحـدة سياسية (دولة) ، وبالتالى لاتتفتت الأمة الواحدة بين عديد من دول ولاتضم الدولة الواحدة عديدا من أمم ، وإذن فلا تجميع ولاتفتيت للأمم بـالإكراه . إنها الدولة القومية التى راحت تبزغ بحلول القرن التاسع عشر فى أوربـا ، ولكى تحـل محل الإمبراطوريات التى راح نجمها يخبو ويأفل منـذ ذلـك الحيـن .

---

(١) صوفى أبوطالب ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٢) محمد طه بدوى ، النظرية السياسية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٤ .

(٣) نفس المرجع السابق .

المبحث الثالث

فـى

مقـومـات القوميـــة

لقد تباينت الإتجاهات والآراء فيما يتصل بتعيين المقومات التى ترتكـز إليها الأمة (مقومات القومية) . والحق أن هذا التباين قد ارتد – فى بعــض الأحيان – إلى أسباب موضوعية ، غير أن مرجعه فى أحيان أخرى كثـــيرة كان إلى أسباب غير موضوعية تتعلق بمصالح ونزعات الأمة التى ينتمـــى إليها صاحب الإتجاه أو القائل بالرأى .

وفى إطار عرضنا لشئ من هذه الإتجاهات وتلك الآراء فإن ثمة مـــن يرى أن المقومات التى ترتكز عليها الأمة تتمثل فى [1] :

(١) الجوار الإقليمى أو ماقد يعرف بالإقليمية Regionalism .
(٢) وحدة اللغة Common language .
(٣) وحدة الدين Common religion .
(٤) وحدة الثقافة Common culture .
(٥) وحدة نسق القيم الإجتماعية Common set of social rules .
(٦) وحدة الأصل العرقى Common ethnic background .
(٧) وحدة التاريخ Common history .

وثمة رأى آخر يتمثل مقومات القومية فى [2] :

(١) وحدة اللغـــــة .
(٢) وحدة الأصل Common origin .
(٣) وحدة الديـــــن .

---

(١) أنظر فى هذا الصدد : - Russett and Starr, Op. Cit., p. p. 46-48.
(٢) Carr and others, Op. Cit. P. p. 254-258.

(٤) وجود شخصية قومية متميزة Distinctive national character .

وثمة رأى ثالث قوامه أن الرابطة القومية ترتكز إلى جملة مقومات مادية وأخرى معنوية .

أما المقومات المادية عند القائل بهذا الرأى فتتمثل فى [١] :

(١) عامل البيئة الجغرافية : حيث يرى المؤرخ الإنجليزى بكل Buckle أن البيئة الجغرافية هى التى تقرر تاريخ أية أمة من الأمم .

(٢) عامل الجنس : حيث يفصل علماء الأحياء بين الأجناس البشرية من حيث قياس الجمجمة ، ونسبة عرضها إلى طولها ، ومن حيث طول القامة ، ولون الشعر ، والعينين .

(٣) العامل الإقتصادى : وذلك على اعتبار أن عدد السكان وطرق معيشتهم عاملان يشكلان أساسا ماديا ذا أثر بالغ فى تشكيل الشخصية القومية .

ذلك بصدد المقومات المادية أما فيما يتصل بالمقومات المعنوية لدى القائل بهذا الرأى فإنها تتمثل فى :

(١) الحكومة من حيث نوعها ونظامها والقوانين التى تصدرها .

(٢) الدين وما له من أثر بالغ فى تشكيل الشخصية القومية .

(٣) عامل اللغة والأدب وما لذلك من أثر على توحيد آراء الأفراد ومعتقداتهم وأفكارهم وطرق تفكيرهم .

(٤) عامل التربية والثقافة وما لهما من أثر هام على خلق الشخصية القومية بكل مقوماتها .

---

(١) أحمد خاكى ، فلسفة القومية ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ ، من ص ١٨ إلى ص ٧٣ .

وفضلا عن كل ماتقدم من آراء فإن أحد دعـــاة القوميـة العربيـة البارزين (١) يرى أن إنعقاد الرابطة القومية لابد وأن يرتكز إلى وحدة اللغـة ووحدة التاريخ. ذلك بأن اللغة – لدى القائل بهذا الرأى – تمثل أهم الروابـط المعنوية التى تربط الفرد بغيره من الناس ، وذلك على اعتبار أنها واسـطة التفاهم بين الأفراد ، كما أنها تعد بمثابة آلة التفكير ووسـيلة نقـل الأفكـار والمكتسبات من الآباء إلى الأبناء ومن الأجداد إلى الأحفاد ومن السلف إلـى الخلف . فاللغة التى ينشأ عليها الفرد تكيف تفكيره بمكيفات خاصة ، كما أنها تؤثر تأثيرا عميقا فى عواطفه ، كذلك فإن وحدة اللغة تخلق نوعا من وحـدة التفكير والشعور ، وتربط الأفراد المتحدثين بها بسلسلة طويلة ومعقدة مـن الروابط الفكرية والعاطفية ، ذلك فضلا عن أن اللغة تعد أقوى الروابط التـى تربط الأفراد بالجماعات ، كما أن الذى يميز الأمم عن بعضـها البعـض – بالدرجة الأولى – هو لغتها . إن اللغة هى روح الأمة وحياتها وبالتالى فـهى تعد بمثابة محور القومية وعمودها الفقرى .

أما فيما يتصل بالتاريخ فإنه يعد بمثابة شعور الأمة وذاكرتها ، ذلـك بأن كل أمة إنما تشعر بذاتها وتكون شخصيتها من خلال تاريخها الخـاص ، فوحدة التاريخ من شأنها أن تولد تقاربا فى العواطف والنزعـات ، إذ أنـها تؤدى إلى تماثل فى ذكريات المفاخر السـالفة ، وكـذا ذكريـات الملمـات الماضية ، بما يستتبعه ذلك من تشابه فى أمانى النهوض وآمال المستقبل .

وهكذا ينتهى صاحب هذا الرأى إلى القول بأن اللغة والتـاريخ همـا مقوما القومية الفعليان ، فالأمة التى تنسى تاريخها تكون قد فقدت شـعورها وأصبحت فى حالة من السبات وإن لم تفقد الحياة ، وبالتالى فإنه بمقدور هذه الأمة أن تستعيد وعيها وشعورها بالعودة إلى تاريخها القومى . بيد أن الأمـة إذا مافقـدت لغتها تكون عندئذ قد فقدت الحياة ، ودخلت فى عداد الأموات ،

---

(١) أبوخلدون ساطع الحصرى ، أبحاث مختارة فى القومية العربية ، مرجع سبق ذكره، من ص ٣٥ إلى ص ٤٠ .

فلا يبقى من سبيل إلى عودتها إلى الحيـــاة [١]

الإتجاهان الألمانى والفرنسى بصدد مقومات القومية :

ومهما يكن من أمر الآراء التى عرضنا لها ســـلفا بصـــدد مقومـــات القومية فإن ثمة معيارين تقليدييـــن للأمة : معيار موضـــوعى بحـــث يـــرد الترابـــط فى الأمة – وبالتالى القومية – إلى مقومات واقعية حال الجنس أو اللغة أو الدين . ولقد لاقى هذا المعيار رواجا كبيرا فى الفكر الألمانى منـــذ أوائل القرن التاسع عشر . أما المعيار الثانى – فيما نحن بصـــدده – فـــهو معيار ذاتى يعتمد بصفة أصلية فى تحديد موطن الرباط القومى على الرغبـــة فى الحياة المشتركة ، وبالتالى فإن الأمة تعنى، وفقا له أكـــثر مـــايكون – رابطة روحية ، وهذا المعيار الذاتى يمثل الإتجاه اللاتينى عامة والفرنســـى خاصة ، إذ ينكر الفكر الفرنسى على المعيار الموضوعى صلاحيته مســـتندا فى ذلك إلى الواقع ، فالإتحاد السويسرى – على سبيل المثال – يقوم علـــى أمة سويسرية يعوزها الرباط الموضوعى (وحدة اللغة أو الدين أو الإعتقـــاد فى الأصل البيولوجى) ، بينما عنصر الترابط فيها روحى يتمثل فى الرغبـــة فى الحياة المشتركة [٢] .

والحق أن نشأة هذين الإتجاهين اللذين نحن بصددهمـــا قـــد جـــاءت مرتبطة بأسباب غير موضوعية (ذاتية) تتصل بالنزاع الألمانى الفرنســـى حول منطقة الألزاس الغنية بالفحم . فلقد كانت فرنسا – منذ عصور – تتطلع إلى التوسع شمالا حتى نهر الراين لتضمن لنفسها حدودا طبيعية قوية ، غـــير أن الألمان كانوا بعكس ذلك يحرصون على الإحتفاظ بنهر الرايـــن داخـــل بلادهم كما كانوا يتوقون إلى استرداد الألزاس من فرنســـا ، حيـــث كـــانت الألزاس مقاطعة ألمانية حتى أواسط القرن السابع عشـــر ، بيـــد أن فرنســـا استولت عليها فى عهد لويس الرابع عشر وضمتها إلى إقليمـــها بمقتضـــى

---

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) محمد طه بدوى ، النظرية السياسية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٣ .

معاهدة وستفاليا [١] ، ومع ذلك فقد ظل سكان الألـزاس محتفظيـن بلغتـهم الألمانية وتقاليدهم الخاصة . ولقد كان القوميون الألمان يشعرون بالإسـتياء الشديد من جراء دخول الألزاس تحت حكم فرنسـا ، وقـد عـبر المـؤرخ الفرنسى إدجار كينيه – آنذاك – عن ذلك بقوله : " إن معاهدة وستفاليا لاتزال تدمى قلوب الألمان كما تدمى قلوبنا نحن مقررات فيينا " [٢] . كذلك فقد علق زعيم الوحدة الألمانية بسمارك على احتلال الفرنسيين للألزاس بقوله : " كلما ألقيت نظرة على خريطة أوربا ورأيت الألزاس داخلة فى حـدود فرنسـا ، وكلما تصورت أن إستراسبورج تعيش تحت ظل العلم الفرنسى شعرت فـى أعماق نفسى بثورة غيظ شديدة " [٣] .

وعندما انتصرت بروسيا على فرنسا فى حرب السبعين واستولت على ولاياتها الشمالية بما فيها الألزاس بفضل زعامة بسمارك وتدابيره المحكمـة كان من الطبيعى أن تطلب من فرنسا التنازل عن الألزاس ، الأمر الذى كان من شأنه أن اشتدت المناقشات بين المفكرين الألمان ونظرائـهم الفرنسـيين حول أحقية ضم الألزاس ، وكان من الطبيعى أن يتأثر هـؤلاء المفكـرون بنزعات الدولة أو الأمة التى ينتسبون إليها ، ومن هنا فقد راح كـل مـن الفريقين يقدم من الأسانيد ويسوق من الحجج مايدعم موقف أمته . فقد كـان المفكرون الألمان يقولون إن الأمة كائن إجتماعى حى يتكون بعمـل اللغـة والتاريخ ، وينشأ نشأة طبيعية بدوافع ذاتية مثل سائر الكائنات الحية ، فاللغـة إنما هى العامل الأصلى فى تكوين الأمة ، ومن هنا يجب أن تكـون كذلـك العامل الأساسى فى تحديد الدولة . بيد أن الفرنسيين كانوا يعـارضون هـذه النظرية ، لأن الأخذ بها كان من شأنه أن يحول دون تحقيق تطلعاتـهم فـى الوصول إلى نهر الراين ، فتوصلوا إلى نظرية المشيئة (أو الرغبة) والتـى

---

(١) أبوخلدون ساطع الحصرى ، محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، مرجـع سـبق ذكره ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) أبوخلدون ساطع الحصرى ، ماهى القومية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٠ .

(٣) نفس المرجع السابق .

قوامها أن الأمم إنما تتكون بمشيئة الجماعات فى العيش المشترك [1] . ويقول فى ذلك المؤرخ الفرنسى فوستل دو كولانج : " قد يكون الألزاسيون " ألمان " باللغة ولكنهم على كل حال فرنسيون بالنزعة والمشيئة ، وليست فتوحات لويس الرابع عشر أو معاهدة وستفاليا هى التى جعلتهم فرنسيين - كما يتوهم الألمان - بل هى الثورة العظمى ، تلك الثورة التى أدمجت الألزاس بفرنسا ، وجعلت الألزاسيين فرنسيين بكل معنى الكلمة ، إن القومية لاتتعين باللغة وإنما بالرغبة والمشيئة ، ومن هنا فالعدالة تقضى بمراعاة مشيئة الألزاسيين وتحقيق رغباتهم فى هذا المضمار" [2]

وفى المقابل يقول المفكر الألمانى مومسن : " لقد استولى الفرنسيون على الألزاس بقوة الحديد والنار وحكموا الألزاسيين منذ قرنين تحت شبكة تشكيلاتهم الإدارية والإنضباطية ، وخلال هذه المدة اتخذ الفرنسيون شتى التدابير لتخدير شعور الألزاسيين حتى أنسوهم تاريخهم وقوميتهم ، وربما كان الألزاسيون قد فقدوا وعيهم القومى لكنهم لايزالون " ألمان " باللغة ، فمن حقنا نحن الألمان - بل من واجبنا - أن نوقظ هؤلاء من سباتهم ونعيد إليهم وعيهم ونحيي شعورهم بقوميتهم " [3]

وعلى الرغم من أن مشكلة الألزاس قد حسمت بحكم القوة والغلبة بمقتضى معاهدة فرانكفورت فى أعقاب حرب السبعين فإن المناقشات المتصلة بها لم تنته بذلك . فبعد مرور أكثر من عشر سنوات على حرب السبعين قدم أرنست رينان الفرنسى نظرية عن القومية ترتبط تماما بما قدمه غيره من المفكرين الفرنسيين . وقد تبلورت هذه النظرية فى الخطاب الذى ألقاه رينان بجامعة السوربون فى عام ١٨٨٢ والذى عنونه بـ " ماهى القومية ؟ " . وقد استعرض رينان فى خطبته مختلف الآراء والنظريات

---

(١) فى هذا المضمون انظر : أبوخلدون ساطع الحصرى ، محاضرات فى نشوء الفكرة القومية، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

المتصلة بالأمة ومقوماتها ، ولكى ينتهى إلى القول بأن مقوم القومية الرئيسى يتمثل فى الإرادة والمشيئة ، ومن هنا فإن الأمة هى جماعة من الناس اتفقت مشيئتهم على العيش المشترك [١] . وإذن فالرغبة فى الحياة المشتركة والعزم على الإستمرار فيها هما أس الأساس فى تكوين الأمم [٢] ، أو على حد قول رينان فإن الأمة هى " روح Soul .. مبدأ روحى Spiritual principle .. إنها ترتكز فى وقتنا الحاضر على مقوم ثابت قوامه إرادة واضحة معبرة عن رغبة فى الحياة المشتركة " [٣] .

وجملة القول فى شأن الإتجاهين الألمانى والفرنسى بصدد مقومات القومية أن ألمانيا قد تميزت بمغالاتها فى الربط بين القومية وبين الجنس مخالفة بذلك النزعة اللاتينية التى سادت فى القرن التاسع عشر ، والتى كانت ترى فى القومية رباطا إراديا ، فأساسها رغبة الفرد فى أن يحيا مع غيره فى ظل جماعة سياسية واحدة ، بينما القومية الألمانية هى قومية إجبارية تفرض على جميع الناطقين بلغة واحدة والذين ينتمون إلى جنس واحد . واستنادا إلى ماتقدم كانت كل من فرنسا وألمانيا تدعى لنفسها الحق فى الألزاس فهى ألمانية بجنسها ولغتها ، وهى فرنسية برغبتها وشعورها الوطنى . وهكذا اختلفت مقومات القومية من بلد إلى بلد فهى العصبية الجنسية إذا كان ثمة سبيل إليها وإلا فهى وحدة الضمير [٤] .

ومهما يكن من أمر الخلاف بين المعيارين الموضوعى والذاتى بصدد مقومات القومية فإن القومية تعنى فى النهاية التعبير عن الإحساس المتولد عن العناصر شبه البيولوجية أو النفسية لأفراد التجمع البشرى . إن القومية هى حالة الأحاسيس النفسية المفضية إلى الرغبة فى الحياة الجماعية . وهكذا يبدو المعيار الذاتى أكثر من المعيار الموضوعى تمثيلا للصورة النهائية

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(٢) ابوخلدون ساطع الحصرى ، ماهى القومية ؟ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٨ .

(٣) Carr and others, Op. Cit., p. 259.

(٤) محمد طه بدوى ، طلعت الغنيمى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٣ .

للقومية ، وذلك مع الأخذ فى الإعتبار ماتؤديه العناصر شبه البيولوجية (وحدة الأصل أو اللغة أو التاريخ أو الدين) من دور مرموق فى كثير من الأحيان كعناصر مفضية إلى حالة الأحاسيس النفسية (١) .

والحق أنه تأسيسا على ماتقدم يمكننا القول أن العامل المنشئ للوحدة القومية يتمثل فى الرغبة فى الحياة المشتركة ، غير أن ثمة عوامل أخرى عديدة تعد بمثابة العوامل المهيئة لهذه الرغبة وبالتالى للوحدة القومية ، وفيما يلى نعرض لأظهر هذه العوامل بشئ من التفصيل .

العوامل المهيئة للوحدة القومية :

ويتمثل أبرز هذه العوامل فى الجوار الإقليمى ، ووحدة اللغة ، ووحدة الأصل ، والدين ، والتاريخ المشترك :

أولا : الجوار الإقليمى :

ليس ثمة شك فى أن لعامل الجوار الإقليمى أبلغ الأثر كعامل مهيئ للتجانس القومى ، وذلك على اعتبار أن أولئك الذين يقطنون نفس الإقليم يجابهون نفس المشكلات والتحديات ، الأمر الذى من شأنه أن يخلق نوعا من التجانس بينهم ، فضلا عما يؤدى إليه من تجانس فى المشاعر والأحاسيس بين أفراد التجمع البشرى ، كذلك فالذين يعيشون فى نفس الإقليم غالبا ماتكون لهم نفس الأنشطة الإقتصادية نظرا لاعتمادهم على نفس الموارد ، ومشاركتهم فى نفس أنماط النشاط ، وانهماكهم فى نمط واحد من التفاعلات الإقتصادية . وليس من شك فى أن لكل هذه العوامل أبلغ الأثر فى توحيد

---

(١) محمد طه بدوى ، النظرية السياسية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩. وانظر كذلك بصدد الإتجاهين الألمانى والفرنسى :

- صلاح الدين عبدالوهاب ، أضواء على المجتمع العربى ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٩٦٣ ، من ص ٥٧ إلى ص ٦٤ .

وأيضا : ابراهيم أحمد شلبى ، مبادئ القانون الدولى العام ، مكتبة الآداب، القاهرة ،١٩٨٨ ، ص ١٣١ ، ص ١٣٢

نظرة أفراد التجمع البشرى إلى العالم الخارجى ، وخلق جملة من المصالح المشتركة فيما بينهم [1] .

وفضلا عما تقدم فإن الإقليم يؤدى دورا بارزا فى تشكيل الطابع القومى ، فالطبيعة الجبلية من مناخ وتضاريس تتحكم إلى حد كبير فى أنماط حياة الناس وسلوكهم وعاداتهم بل ونظمهم السياسية والإجتماعية . كما أن الطباع والخصائص النفسية تتباين من بيئة جغرافية معينة إلى بيئة جغرافية أخرى ، فهى فى البلاد الحارة مغايرة تلك السائدة فى البلاد الباردة ، وهى فى المناطق الجبلية مختلفة عنها فى الصحارى والوديان [2] .

وفوق ماتقدم فإن استقرار الجماعة فى إقليم معين على وجه الدوام يحفظ لها كيانها وذاتيتها ، كما يؤدى إلى الإبقاء على تعلق أفراد هذه الجماعة بإقليمهم على نحو يهيئ لتماسكهم ويوحد تاريخهم . وعلى العكس من ذلك فإن عدم استقرار الجماعة فى إقليم معين وتفرقها بين أصقاع شتى ، وبالتالى امتزاجها بجماعات أخرى ، كلها أمور من شأنها أن تؤدى إلى ذوبان هذه الجماعة فى الجماعات الجديدة على نحو يقضى على كيانها الذاتى [3] . وهكذا فمن شأن ارتباط جماعة ما بإقليم معين على وجه الدوام أن يؤدى إلى توحيد تلك الجماعة داخل حدودها وتمييزها عن غيرها من الجماعات القومية ، أو على حد قول موير Muir : " إن الأمم البارزة فى المجتمع الدولى هى التى تتمتع بأكبر قدر من الوحدة الجغرافية وهى تدين بوجودها إلى هذه الحقيقة " [4] .

وتجدر الإشارة فى هذا الصدد إلى أن إبن خلدون يعد أول من نبه – فى مقدمته فى القرن الرابع عشر الميلادى – إلى أثر البيئة الجغرافية على

---

(١) Russett and Starr, Op. Cit., p. 46.

(٢) صوفى ابوطالب ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٥ .

(٣) نفس المرجع السابق .

(٤) إسماعيل صبرى مقلد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٨ .

أخلاق الناس وطباعهم وعاداتهم وكذا فى لون بشرتهم ، ثم جاء مونتسكيو من بعد ابن خلدون بما يربو على الثلاثة قرون لكى يؤكد – فى ثنايا كتابه " روح القوانين (١٧٤٨) " – على دور العوامل الطبيعية والجغرافية فى تاريخ الجماعات البشرية، ولاسيما فيما يتصل بتكوين الشعوب وخصائصها الأخلاقية والجسمانية . وعند المفكر الألمانى هيردر (١٧٤٤ – ١٨٠٤) فإن للبيئة الجغرافية تأثيرا حاسما فى تكوين الأمم وما يظهر بينها من اختلافات . وفضلا عما تقدم فقد ظهرت فى القرن التاسع عشر فى انجلترا مدرسة فكرية بزعامة مين Maine راحت تلتف حول مقولة مؤداها أن البيئة الجغرافية هى التى تميز الأمم عن بعضها ، كما أنها هى التى تحدد طابع أية أمة (١) .

وعلى أية حال فإن أحدا ليس فى مقدوره أن ينكر ما للتجاور الإقليمى من دور مرموق فى خلق نوع من التماثل فى مصالح واتجاهات التجمع البشرى قاطن الإقليم ، وعلى نحو يهيئ لخلق " الرغبة فى الحياة المشتركة " لدى أفراد ذلك التجمع البشرى ، تلك الرغبة التى تعد – كما قدمنا – العامل المنشئ للوحدة القومية . ولعل من أبرز الأمثلة على دور هذا العامل الجغرافى – كعامل مهيئ للوحدة القومية – ذلك الدور الفعال الذى أدته جبال البرانس – التى تفصل شبه جزيرة أيبريا عن باقى دول غرب أوربا – فى نمو القومية الإسبانية . ومن جانب آخر فقد كان لجبال الألب أبلغ الأثر فى دعم أواصر الوحدة القومية الإيطالية ، كما أن الطبيعة الجبلية لمنطقة البلقان كانت ذات تأثير واضح فى نمو القوميات المختلفة القائمة فى تلك المنطقة ، كذلك فقد كان للقنال الإنجليزى أبلغ الأثر فى نمو القومية الإنجليزية ، كما كان المحيط الأطلنطى من العوامل الهامة وراء قيام القومية الأمريكية ، ذلك فضلا عما أداه موقع كل من اليابان وإندونيسيا – كجزر بحرية منفصلة عن القارة الآسيوية – من دور هام فى قيام القوميتين اليابانية والإندونيسية (٢) .

---

(١) فى هذا المعنى أنظر : صوفى ابوطالب ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٤.

(٢) بصدد مضمون هذه الأمثلة أنظر : إسماعيل صبرى مقلد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٨، ٩٩ .

ثانيا : وحدة اللغـــة :

ويمثل هذا العامل واحدا من أبرز المقومات المهيئة للوحدة القوميـــة ، بل ويذهب كارتلون هيز – على سبيل المثال – إلى اعتباره أبرز المقومـــات على الإطلاق فى هذا الصدد . ذلك بأن من شأن وحدة اللغة أن تؤدى إلـــى تيسير عملية الإتصال بين أفراد التجمع البشرى ، كما أنها تؤدى إلى حفـــظ التراث القومى المتمثل فى الأدب والأخلاقيات والقيم والتقاليد والأفكار، علـى نحو يهيئ – فى النهاية – إلى خلق شعور بالتجانس والتجاوب بيـــن أفـــراد التجمع البشرى ذى اللغة الواحدة [١] . ومن جانب آخر فإن اللغة تعد بمثابـــة أداة لربط الأجيال الماضية بالأجيال الحاضرة بأجيـــال المســـتقبل ، إذ مـــن خلالها يتلقى الأفراد كل التراث الفكرى للأمة [٢] .

وفضلا عما تقدم فليس ثمة شك فى أن اللغة المشتركة من شأنها العمل على خلق نوع من الثقافة القومية المشتركة Common National Culture، وفى المقابل فمن الصعوبة بمكان خلق ثقافة قومية موحـــدة دون أن تكـــون هناك وحدة فى اللغة بين أفراد التجمع البشرى . ولعل أبلغ الأمثلة على ذلـــك أنه على الرغم من وجود اختلاف فى الثقافـــة بيـــن الألمـــان السويســـريين والألمان الذين يقطنون ألمانيا إلا أن هذا الإختلاف أقل بمراحل من الإختلاف القائم بين ألمان سويسرا وفرنسييها ، كما أنه على الرغم من وجود بعـــض الإختلافات الثقافية بين الإنجليز والأمريكيين ، فإن الأمريكييـــن يعتـــبرون أعمال شكسبير وميلتون جزءا لايتجزأ من تراثهم الثقافى [٣] . وهكذا فمـــن شأن التجانس اللغوى أن يهيئ لخلق نوع من التجانس الثقافى بما لذلك مـــن آثار بالغة على الطابع القومى والشخصية القومية ، وكـــذا علـــى التكويـــن الإجتماعى والسياسى للأمة ، وكلها أمور من شأنها التأكيد لتميز الأمة عـــن غيرها من الأمم .

---

(١) فى هذا المعنى أنظر : المرجع السابق ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) فى هذا المعنى أنظر : صوفى أبوطالب ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٨ .

(٣) Carr and others. Op. Cit., p. 255.

ونظرا لذلك الدور البالغ الأثر الذى تؤديه اللغة كعامل مهيئ للوحدة القومية نجد أن بعض القيادات السياسية تلجأ إلى إحياء لغات قديمة أو غير سارية إذا كان من شأن ذلك ترسيخ التجانس القومى بين أفراد التجمع البشرى لدولها . ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك سعى القيادات الإسرائيلية المتعاقبة بكل السبل إلى إحياء اللغة العبرية ، مستهدفة من وراء ذلك هدفا قوامه صهر أولئك اليهود – المتباينى اللغة والذين جاءوا إلى إسرائيل من شتى أصقاع البسيطة – فى بوتقة قومية إسرائيلية موحدة (١) .

والحق أن استقراء التاريخ يشير إلى أن كل الحركات القومية التى ظهرت فى أوربا فى القرن التاسع عشر قد اعتمدت على وحدة اللغة ، سواء للمطالبة بالإنفصال عن غيرها وتكوين دولة مستقلة تقتصر على المتحدثين بلغة واحدة ، أو للمطالبة بجمع شتات المتحدثين بلغة واحدة فى دولة واحدة ، كذلك فإن تسويات الصلح التى تمت فى أعقاب الحربين العالميتين اعتمدت على اللغة كمعيار لتحديد الجماعة التى تمنح حق تقرير المصير (٢) .

ويرى البعض أنه لولا اللغة الإيطالية – على سبيل المثال – لما كانت قد قامت للوحدة الإيطالية قائمة لاسيما فى ظل التفتت الذى كان عليه الإيطاليون فى القرن التاسع عشر . كما أن بولندا مدينة فى أمر حفظ كيانها إلى لغتها بجانب كاثوليكيتها ، لأن كاثوليكيتها إن كانت قد استطاعت أن تصونها من الإندماج فى سائر البلاد السلافية ماكان يمكن لها أن تصونها من مغبة الدمج فى النمسا التى هى كاثوليكية مثلها . كذلك فإن أهمية اللغة فيما يتصل بأمور القومية تظهر للعيان بوجه خاص من حقيقة أن الحواجز اللغوية تنطبق فى أكثر الأحوال على الحدود الفاصلة بين القوميات ، ففى الشلزفيج والهولشتاين – مثلا – نجد أن الحدود الفاصلة بين الدانمركيين والألمان ليست

---

(١) أنظر فى هذا المعنى :

- Russett and Starr. Op. Cit., p. 46.

(٢) صوفى أبوطالب ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٨.

الحدود السياسية بل هى الحدود التى يرسمها حاجز اللغة [1] .

وليس ثمة شك – تأسيسا على ماتقدم – فى أن افتقاد التجمع البشرى لوحدة اللغة هو أمر له تداعياته السلبية على روابط التضامن والإندماج القومى . وعلى سبيل المثال فقد أدى وجود جزء لايستهان به من سكان كندا يتكلم الفرنسية إلى حدوث ازدواجية واضحة من الناحيتين الثقافية والحضارية تتمثل فى ارتباط الكنديين الفرنسيين بالتراث الحضارى الفرنسى ، فى الوقت الذى يرتبط فيه الكنديون الإنجليز بالتراث الأنجلوسكسونى . وهذه الإزدواجية الثقافية تمثل عاملا يغذى النزعات الإنفصالية فى كندا ، حيث يعتقد الكنديون الفرنسيون أن لهم قومية متميزة تبرر انفصالهم فى دولة مستقلة . وكمثال آخر توجد فى دولة الهند أربع عشرة لغة ومئات اللهجات مما يعقد من إمكانات الإتصال بين أفراد التجمع البشرى [2] ، ويهدد التجانس القومى داخل تلك الدولة .

وتجدر الإشارة إلى أن الإختلافات اللغوية لاتتفق بالضرورة مع الإختلافات القومية ، فأحيانا مانجد قوميات عديدة تتحدث لغة واحدة ، فاللغة الإنجليزية يتحدث بها عديد من الشعوب فى بريطانيا والولايات المتحدة واستراليا ونيوزلندا وأجزاء من كندا وجنوب أفريقيا ، وغيرها ، ومع ذلك لايمكن الإدعاء بأن المتحدثين بهذه اللغة ينتسبون إلى قومية واحدة . كذلك فاللغة الفرنسية هى لغة كل من فرنسا وبلجيكا ، والألمانية تستخدمها كل من ألمانيا والنمسا ، والإسبانية هى لغة إسبانيا وكذا معظم دول أمريكا اللاتينية . وفى كل هذه الحالات فإن اللغة المشتركة فضلا عن أنها تؤدى إلى زيادة الشعور بالإندماج والتجاوب بين أفراد القومية الواحدة فإنها تزيل عائقا من

---

(١) أبوخلدون ساطع الحصرى ، حول القومية العربية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦.

(٢) إسماعيل صبرى مقلد ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٠ .

طريق التفاهـــم بين هذه القومية وغيرها من القوميـــات التى تتحدث نفـــس اللغة [١] .

وهكذا – تأسيسا على كل ماتقدم – تمثل وحدة اللغة واحدا من أبـــرز المقومات التى تهيئ للوحدة القومية .

ثالثا : وحدة الأصـــل :

يرى بعض المهتمين بالقومية أن وحدة الأصل العنصرى أو العرقـــى تشكل الركيزة الأولى فى قيام القومية ، وأنه بدون التجانس الســـلالى فـــى تركيب الأمة تفقد العوامل والمقومات الأخرى فعاليتها [٢] . والحق أن اهتمام الجماعات بأصولها السلالية واعتزازها بهذه الأصول والتفاخر بها فيما بينـــها كلها أمور قديمة ترتد إلى عصور سحيقة ، إذ كانت الجماعات – منذ القدم – تزعم انحدارها من جد ذى صفات وخصائص أسطورية [٣] .

كذلك فإننا لانعدم – فى العصور الحديثة – أمثلة لأمم راحت تزعم أنها ارقى أمم الأرض وأسماها وأكثرها حضارة ، وأنها ماخلقت إلا لتحمل علـــى عاتقها مسئولية الحضارة الإنسانية قاطبة ، وذلك حال الشعب الألمانى الـــذى ظل – لعقود طويلة ولاسيما فى العهد النازى – يزعم أنه جنس آرى له سمو على ماعداه من الأجناس ، وأنه هو وحده القادر على حمل مشعل الحضـــارة الإنسانية ، إنها عقيدة الجنس الآرى التى انطلق منها هتلر فيما قام بـــه مـــن توسع وتوغل فى شتى بقاع القارة الأوربية خلال السنوات الأخيرة من عقـــد الثلاثينيات ، والسنوات الأولى من عقد الأربعينيات من القرن العشرين [٤] .

---

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٣) أنظر فى هذا المعنى :

- Carr and others. Op. Cit., p.p. 255-256.

(٤) بصدد عقيدة الجنس الآرى أنظر : محمد طه بدوى – ليلى أمين مرســـى ، مرجـــع سبق ذكره، من ص ١٤٩ إلى ص ١٥١ .

ومهما يكن الأمر فإن الأبحاث العلمية التي قام بها علماء الأنثروبولوجي تؤكد أن قول أفراد أمة ما بانحدارهم من أصل واحد هو أمر من قبيل الأساطير والأوهام الشائعة ، حيث أثبتت هذه الأبحاث أنه لاتوجد أمة على وجه البسيطة تنحدر من أصل واحد فعلا ، وإنما تكونت الأمم من تداخل عشرات العروق والأجناس فى مختلف أطوار التاريخ ، وبالتالى فليس ثمة جماعة قومية أيا كانت تشكل عنصرا متميزا بذاته ، ذلك بأنه قد حدث – تحت تأثير الهجرات والإنتقالات عبر الحدود الجغرافية المختلفة وخلال حقب تاريخية متتالية – نوع من التداخل والإختلاط بين الأجناس إلى درجة لايمكن معها القول بأن ثمة عنصرا يخلو من شوائب الإختلاط بغيره من العناصر والقوميات [١] .

وعلى الرغم من كل ماتقدم فإنه ليس بمقدور أحد أن ينكر مايؤديه " الإعتقاد فى وحدة الأصل السلالى " من دور مرموق كعامل مهيئ للرغبة فى الحياة المشتركة بين أفراد التجمع البشرى الذى يسوده ذلك الإعتقاد ، وعلى نحو يفضى إلى ترسيخ التجانس القومى بين افراد ذلك التجمع . وبمفهوم المخالفة فإن الإعتقاد فى تباين الأصول السلالية لدى أفراد شعب دولة ما هو أمر من شأنه أن يهيئ لظهور حركات عرقية إنفصالية تسعى بشتى الوسائل إلى الانفصال عن الدول التى توجد بها ، وانشاء دول جديدة تجمع شتات السلالة الذى قامت الحركات العرقية كتعبير عنها . ولنا على ذلك العديد من الأمثلة حال الحركة العرقية الكردية ، والحركة العرقية فى جنوب السودان ، والحركة العرقية فى قبرص ، والحركة العرقية فى إقليم كيبيك الكندى ، وغيرها من الحركات العرقية التى سنعرض لها لاحقا .

---

(١) أنظر فى هذا الصدد :

- Carr and others, Op. Cit., p. 256.

– أبو خلدون ساطع الحصرى ، أبحاث مختارة فى القومية العربية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢ ، ٣٣.

– إسماعيل صبرى مقلد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٧ ، ٩٨ .

رابعا : وحدة التاريـخ :

يكاد الاجماع ينعقد بين الباحثين على أن التاريخ المشترك يعتبر عاملا أساسيا فى تكوين القومية ، ذلك بأن القومية – كظاهرة إجتماعية – هى نتاج تفاعل عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية ونفسية حدثـت خـلال العديد من القرون ، وأدت إلى دمج بعض الجماعات فى بعضها وصهرها فى بوتقة واحدة فتميزت بذلك عن غيرها من الجماعـات مـن حيـث تراثـها وتقاليدها ، ولايقتصر أثر التاريخ على تكوين الأمة ، بل يظهر كذلـك هـذا الأثر على الحركات القومية ، إذ كثيرا مايعتمد القوميون على أمجاد الماضى فى إشعال جذوة المشاعر القومية [١] ، على نحو يجعل الأمـة تفيـق مـن غفوتها، وتتطلع بدأب إلى الحصول على حقها فى تقرير مصيرها .

ويعتبر التاريخ المشترك واحدا من أبرز العوامل فيما يتصـل بإثـارة الشعور بالوحدة القومية ، كما أن من شـأنه أن يؤكـد الإحسـاس بـالولاء والإنتماء إلى قومية ما ، كذلك فإن وحدة التاريخ تغـذى الشـعور بـالفخر والإعتزاز بكل مايمثله هذا التاريخ ويرمز إليه . وتعد الحروب مـن أقـوى الأحداث فى تاريخ الأمم دعما للشعور القومى ، ذلك بأن الحروب تمثل نوعا من المحن القومية التى من شأنها أن تصهر الشعور القومى فى بوتقـة مـن الإنفعال الموحد بما يهيئ لصلابة الأمة فى مجابهة التحديات الخارجيـة . وارتباطا بما تقدم تحرص الدول المختلفة على تدريـس التـاريخ القومـى والتركيز عليه لما له من آثار إيجابية بالغة الأهمية على الترابط القومى [٢] .

خامسا : وحدة الديـن :

يرى المفكر الفرنسى هنرى هاوزر أن للدين دورا كبيرا فـى أمـور القوميات، وعلى سبيل المثال فإن كاثوليكية بولندا أدت دورا بالغ الأهمية فى حفظ كيانها والحيلولة دون اندماج البولنديين مع سائر السلافيين المجـاورين

(١) صوفى أبوطالب ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤.

(٢) فى هذا المعنى أنظر: إسماعيل صبرى مقلد ، مرجع سبق ذكره ، ص١٠٠ ،١٠١.

لهم والذين هم من أرثوذكسيى المذهب ، كذلك فإن هذه الكاثوليكية هى التى حالت دون اندماج البولنديين مع سكان شرق ألمانيا الذين هم من اللوثريين . وكمثال آخر على دور الدين كعامل مهيئ للوحدة القومية وكعامل حافظ لكيان الأمم فى مواجهة بعضها البعض نجد أن الأيرلنديين قد استطاعوا أن يحافظوا على كيانهم بفضل اختلافهم فى المذهب مع سكان الجزر البريطانية (١) . كذلك فإن الكنيسة الأسكتلندية كانت بمثابة الدعامة الرئيسية التى ارتكزت إليها وحدة الأسكتلنديين من جهة ، كما أنها هى التى ميزتهم عن الإنجليز منذ القرن السابع عشر من جهة أخرى (٢) . وفضلا عن كل ماتقدم فهناك الدور الذى لعبه الدين فى تقسيم شبه القارة الهندية إلى دولتى الهند وباكستان ، ذلك بأن كلا من الهندوسية والإسلام كان يمثل حضارة وثقافة وفلسفة ونظاما للحياة يختلف جذريا عن الآخر ، ومن هنا فلم يكن من الميسور إذابة عوامل التناقض بين هاتين العقيدتين الدينيتين إلا من خلال قيام دولتين تمثل كل منهما القيم والمعتقدات التى تدين بها . كذلك فهناك الدور الذى يلعبه الدين فى المخططات السياسية للعقيدة الصهيونية وهو الدور الذى تبلور فى إنشاء دولة إسرائيل إرتكازا إلى وحدة الدين (٣) .

وفى النهاية فإن جملة القول فى شأن مقومات القومية أنه يمكننا أن نخلص - تأسيسا على كل ماقدمنا - إلى أن قوام القومية هو رغبة تجمع بشرى مافى العيش المشترك وذلك على تباين المقدمات المفضية إلى تلك الرغبة ، وسواء تمثلت هذه المقدمات فى الجوار الإقليمى ومايؤدى إليه من وحدة المصالح بين أفراد التجمع البشرى ، أو وحدة اللغة أو الأصل أو التاريخ أو الدين ... كلها أو بعضها ، على النحو الذى عرضناه له سلفا بالتفصيل .

---

(١) أبوخلدون ساطع الحصرى ، حول القومية العربية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٥ .

(٢) Carr and others, Op. Cit., p. 258.

(٣) إسماعيل صبرى مقلد ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠١ .

المبحث الرابع

في

التعريف بالمفهوم المعاصر للدولة القومية

وهكذا فإنه استنادا إلى كل ماتقدم يمكننا القول أن الدولة القومية لم تعد تعنى فى الإصطلاح ماكانت تعنيه الفلسفات الغربية فى القرن التاسع عشر من ضرورة الجمع بين الأمة الواحدة كاملة والوحدة السياسية الواحدة فلا تتفتت الأمة الواحدة بين عديد من دول ولا تضم الدولة الواحدة عديدا من أمم (مبدأ القوميات) ، وإنما الذى بات يعنيه إصطلاح الدولة القومية فى عصرنا هو أن يتحقق للعنصر البشرى فى الدولة عامل التجانس المهيئ للوحدة الوطنية فى الداخل ، وسواء تحقق هذا التجانس من خلال وحدة اللغة أو الأصل أو وحدة اللغة والأصل معا ، أو حتى بعامل وحدة المصالح وما تهيئ له من وحدة المصير ، أو غير ذلك مما يهيئ لرغبة العنصر البشرى المشكل للدولة فى الحياة الجماعية الواحدة (١) .

وارتباطا بذلك فإنه لم يعد من المتعين فى عصرنا بحال لإعتبار الدولة قومية أن تضم شتى الناطقين بلغة واحدة أو المنحدرين من أصل واحد ، وإلا لاستبعدنا من وصف الدولة القومية الولايات المتحدة ، فهى وإن تجانست عناصرها البشرية (لغة إنجليزية) وانصهرت بعامل وحدة المصالح فى ظل الدولة الفيدرالية، إلا أنها لاتضم شتى الناطقين بتلك اللغة فى العالم . وكذلك الحال بالنسبة لسويسرا فهى تقوم على عناصر بشرية تنتمى إلى أجناس متباينة ، فمنها الفرنسيو الأصل والذين يتكلمون الفرنسية ، ومنها الجرمانيو الأصل والذين يتكلمون الألمانية، ومنها الإيطاليو الأصل والذين يتكلمون الإيطالية ، بل وثمة مجموعة رابعة لها لغتها الخاصة (الرومانس) ،

---

(١) انظر فى هذا المضمون : محمد طه بدوى ، النظرية السياسية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥

وبرغم هذا التباين فى الأصل واللغة فثمة قومية سويسرية يتحقق الرباط فيها بعامل الرغبة فى الحياة الجماعية الواحدة المتولدة عن وحدة المصالح (١) .

وجملة القول - إذاً - فإن التجمع البشرى فى ظل الدولة القومية متجانس على نحو يهيئ لترسيخ الوحدة الوطنية بين أفراده ، الأمر الذى من شأنه ألا يدع مجالا لأسباب التصادم المفضى إلى الضعف والتفكك . وقوام هذا التجانس هو الرغبة فى العيش المشترك بين أفراد التجمع البشرى على تباين المقدمات المفضية إلى هذه الرغبة ، كأن تتحقق من خلال وحدة الأصل أو اللغة أو الدين أو المصالح أو التاريخ ، وعلى النحو الذى عرضنا له بتفصيل سابق .

تعقيب :

تتعين الإشارة إلى أن الدولة القومية بمقومها الرئيسى المتمثل فى تجانس عنصرها البشرى تجانسا قوميا قد راحت تتميز عن الإمبراطوريات القديمة ، تلك الإمبراطوريات التى كانت تقوم على التجميع الإجبارى لشعوب متباينة الأصل واللغة والدين ، وبالتالى فقد كان التجمع البشرى لتلك الإمبراطوريات يفتقر إلى الرباط الموضوعى المتمثل فى وحدة الأصل واللغة والدين من ناحية ، كما كان يعوزه الرباط الذاتى المتمثل فى الرغبة فى الحياة المشتركة بين أفراده من ناحية أخرى . لذلك - وكما سبق أن أشرنا - فقد كانت تلك الإمبراطوريات تعانى من ظاهرة الحركات العرقية ، إذ كانت كل جماعة عرقية تسعى بشتى الوسائل إلى الإستقلال عن الإمبراطورية وتكوين دولة مستقلة تجمع شتاتها ، الأمر الذى كان لابد من أن يتمخض فى النهاية عن اضمحلال الإمبراطورية واندثارها . أما الدولة القومية بركنها الركين المتمثل فى التجانس القومى فهى تمثل بحق مصلا واقيا من ظاهرة

---

(١) انظر فى هذا الصدد :

- نفس المرجع السابق .
- محمود إسماعيل محمد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩ .

الحركات العرقية وغيرها من الحركات الإنفصالية ، ومن هنا فإنـــها تعـد الصورة المثلى للمجتمع السياسى .

غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أنه قد ظهرت فى عالمنـــا المعـــاصر وحدات سياسية تشبه إلى حد كبير فى خصائصها الإمبراطوريات القديمـــة ، وتعرف هذه الوحدات إصطلاحا بالدول متعددة العرقيات ، وذلك حال الإتحاد السوفيتى السابق ويوغسلافيا السابقة ، بل إننا لانكون بعيدين عن كبد الحقيقة إذا ماقلنا إن كلا من العراق والسودان وإيران والهند ولبنان وتركيا وقـبرص وكندا وسريلانكا هى الأخرى دول متعددة العرقيات ، وكل هـــذه الــدول - شأنها شأن الإمبراطوريات القديمة - تفتقر إلى التجانس القومى ، إذ تضـــم تجمعات بشرية متباينة الأصل واللغة والدين كما تفتقر إلى الرغبة فى الحيـاة المشتركة بين أفرادها ، الأمر الذى تمخض بطبيعـــة الحـــال عـــن ظـــهور الحركات العرقية فى تلك الدول على النحو الذى سنعرض له - إن شـــاء الله - فى القسمين الثانى والثالث من هذا الكتاب .

الفصـل الثانـى

فـى

التعريـف بالظاهــرة العرقيـة

(الجماعات - الحركات)

تتعين الإشارة - بادئ ذى بدء - إلى أن ثمة إختلافا بائنا بين المشتغلين بالدراسات الإجتماعية - ولاسيما الأنثروبولوجية منها - فيما يتصل بمدلــول عبارة الجماعة العرقية Ethnic group . فثمة من لايستشعر حرجا فى القول بأن الجماعة العرقية هى ذاتها الجماعة السلالية Racial Group ، وثمة مــن يستخدم مفهوم الجماعة العرقية كمرادف لمفهوم الأمة Nation ، ذلك فضلا عن أن فريقا يعتد به من الباحثين فى ضروب الظواهر الإجتماعية لايرى أن ثمة تباينا فى المدلول بين عبارة الجماعة العرقية ولفظة الأقليــة Minority ، غير أن الخلاف على أشده بين باحثى هذا الفريق - لابصدد تعريف الأقليــة فحسب - وإنما كذلك بخصوص تسميتها، فثمة من يكتفى بلفظة الأقلية للدلالة عليها ، وثمة من يطلق عليها الأقلية القومية National minority ، فى حين أن ثمة من يستخدم عبارة الأقلية العرقية Ethnic minority كى يشير إليها.

وهكذا فقد اختلف الباحثون وتداخلت المفاهيم إلى حد استعصى فى ظله الوقوف على مدلول اصطلاحى متفق عليه فيما يتعلــق بعبــارة الجماعــة العرقية.

وعلى الرغم من كل ماتقدم ففى رأينا أن باحثا ما إن هو أراد أن يدلــو بدلوه فى أمر تعريف الجماعة العرقية لابد وأن يجيــب علــى عديــد مــن تساؤلات تتمثل فى:

ما المقصود بالجماعة العرقية ؟ وماهى مقومات ذاتيتها ؟ ، وما الفارق بينها وبين الجماعة السلالية ، وكذا بينها وبين الأمة ؟ ، ثم : أثمة فارق بيـن

الجماعة العرقية والأقلية ؟ وماهى أنواع الجماعات العرقية ؟ ، وفى النهاية ماذا نعنى بعبارة الحركة العرقية Ethnic movement ؟ .

وارتباطا بما تقدم يأتى هذا الفصل كى يقدم الإجابة عن كل هذه التساؤلات ، وذلك فى ثنايا مباحث خمسة نعنونها كما يلى :

المبحث الأول : فى التعريف بالجماعة العرقية .

المبحث الثانى : فى مقومات الذاتية العرقية .

المبحث الثالث : فى التعريف بمفهوم الأقلية .

المبحث الرابع : فى تصنيف الجماعات العرقية .

المبحث الخامس : فى التعريف بمفهوم الحركة العرقية .

المبحث الأول

فى

التعريف بالجماعات العرقية

يرتد الأصل اللغوى للفظة عرقية Ethnicity إلى اللفظة اليونانية القديمة Ethnos ، والتى تقابل فى المدلول لفظة أمة Nation ، وقوامها – لدى اليونان – جماعة بشرية ينحدر أفرادها من ذات الأصل [1]. ومن جانب آخر فقد كان الأوربيون – فى العصور الوسطى – يطلقون لفظة عرقية على من هم ليسوا مسيحيين أو يهودا [2] ، وإذن فعبارة الجماعة العرقية – آنذاك – كانت تعنى كل جماعة يدين أفرادها بدين غير المسيحية أو اليهودية . أما فيما يتصل بالمدلول المعاصر لعبارة الجماعة العرقية فالإختلاف قائم – كما سبق أن أشرنا – بين المشتغلين بالدراسات الإجتماعية حول فحوى هذه العبارة ، وذلك إلى حد أن ثمة من يرى أن عبارة الجماعة العرقية لاتعدو أن تكون بديلا للفظة الأقلية . كما أنه من الأفضل استخدام المفهوم الثانى نظرا لأن المفهوم الأول لايشيع استخدامه على نطاق شعبى واسع ، كما أن ثمة اختلافا حول تحديد نطاقه إذ قد يتسع ليشمل كل أشكال التمايز لتصبح الجماعة العرقية بذلك بمثابة خط متواصل يبدأ بالقبيلة وينتهى بالأمة ، كما أنه قد يضيق ليقتصر على التمايز العرقى دون سواه [3] .

---

(١) Conor. Walker, A nation is a nation, is a state . is an ethnic group. is a .... in John Hutchinson and Anthony D. Smith. Nationalism. Oxford University Press. 1994. p. 43.

(٢) سعدالدين ابراهيم ، تأملات فى مسألة الأقليات ، دار سعاد الصباح ، القاهرة – الكويت ، ١٩٩٢ ، ص ٢٣ .

(٣) بصدد مضمون هذا الرأى أنظر : نيفين مسعد ، الأقليات والإستقرار السياسى فى الوطن العربى، مركز البحوث والدراسات السياسية – جامعة القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ، ١٩٨٨ .

والحق أننا من جانبنا نرفض تماما هذا الرأى ، ذلك بأنه ينطوى على الخلط بين مفهومى الجماعة العرقية والأقلية ويستخدمهما كمترادفين ، فى حين أن ثمة اختلافا فى المدلول بين هذين المفهومين ، وذلك على النحو الذى سنفصله لاحقا . من جانب آخر فإن القائل بهذا الرأى يعيب على عبارة الجماعة العرقية عدم ذيوعها على المستوى الشعبى وهذا هو مانرفضه أيضا. ذلك بأن العبرة – لدى المشتغلين بالعلم – هى بالعبارات الإصطلاحية المتفق عليها فيما بينهم لا بالعبارات الشائعة لدى العامة والدهماء . وعلى صعيد ثالث فإنه يؤخذ على القائل بهذا الرأى عدم تحديده لمفاهيم عديدة كالأمة والجماعة السلالية الأمر الذى كان من شأنه أن تداخلت لديه هذه المفاهيم ، على نحو استعصى فى ظله على ذلك الباحث الوقوف على المدلولات الدقيقة لتلك المفاهيم من جهة ، وإظهار أوجه الإختلاف بينها من جهة أخرى .

ومهما يكن الأمر فإنه من ثنايا كتابات جمهرة يعتد بها من المشتغلين بالدراسات الإجتماعية يمكننا تقديم تعريف للجماعة العرقية قوامه أنها : " تجمع بشرى يرتبط أفراده فيما بينهم من خلال روابط فيزيقية أو بيولوجية (كوحدة الأصل أو السلالة) أو ثقافية (حال وحدة اللغة أو الدين أو الثقافة)، ويعيش هذا التجمع فى ظل مجتمع سياسى أرحب مشكلاً لإطار ثقافى حضارى مغاير للإطار الثقافى الحضارى لباقى المجتمع ، ويكون أفراد هذا التجمع مدركين لتمايز مقومات هويتهم وذاتيتهم ، عاملين دوما من أجل الحفاظ على هذه المقومات فى مواجهة عوامل الضعف والتحلل " .

والحق أن تعريفنا المتقدم يمثل محصلة لاطلاعنا على عديد من تعريفات قدمها الباحثون للجماعة العرقية ، وفيما يلى نسوق جملة من هذه التعريفات :

١ - **الجماعة العرقية هى** : تجمع بشرى يشترك أفراده فى بعض المقومات الفيزيقية (كوحدة الأصل) أو الثقافية (كوحدة اللغة أو الدين أو

التاريخ أو غيرها من المقومات الثقافية) [١] .

ويتميز هذا التعريف بتأكيد صاحبه على أن مقومات الذاتية العرقية ليست بالضرورة – كما قد يعتقد البعض – مقومات فيزيقية أو بيولوجية ، وإنما قد تكون كذلك مقومات ذات طابع ثقافى كوحدة اللغة أو الثقافة أو غيرها . غير أنه يؤخذ على القائل بهذا التعريف تجاهله لاعتبار هام يتمثل فى ضرورة كون الجماعة تعيش فى مجتمع يضم جماعة أو جماعات أخرى، ففى تلك الحالة فحسب نكون بصدد جماعة عرقية ، أما إذا كانت الجماعة تشكل منفردة الكيان البشرى لمجتمعها – حال الألمان فى ألمانيا مثلا – فإننا نكون بصدد أمة Nation لاجماعة عرقية وذلك على النحو الذى سنعرض له لاحقا .

٢ – **الجماعة العرقية هى :** جماعة بشرية يشترك أفرادها فى العادات والتقاليد،أو اللغة أو الدين أو أى سمات أخرى مميزة بما فى ذلك الأصل والملامح الفيزيقية الجسمانية ، كما يكون هؤلاء الأفراد – وكذا أفراد الجماعات الأخرى القريبة – مدركين لتباين الجماعة عن غيرها فى أى من هذه السمات ، على نحو يخلق لديهم الشعور بالإنتماء كل لجماعته [٢].

ويتميز هذا التعريف بما تميز به سابقه من حيث التأكيد على كل مقومات الذاتية العرقية من فيزيقية وثقافية ، ذلك فضلا عن أن صاحب هذا التعريف الذى نحن بصدده قد ضمن تعريفه إشارة إلى إدراك أفراد كل جماعة عرقية لتباينهم عما عداهم من أفراد الجماعات الأخرى التى تشاركهم ذات المجتمع أو الدولة ، ذلك الإدراك الذى من شأنه التأكيد لتماسك الجماعة واستمرارها .

---

(١) Richmond, Anthony H., Reading in race and ethnic relations, Pergamon Press, Oxford, 1972, p. 199.

(٢) أنظر فى هذا المضمون : سعد الدين ابراهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣ .

٣ – **الجماعة العرقية هى** : فئة متميزة من السكان تعيش فى مجتمع أكبر لها ثقافتها المتمايزة ، تشعر بذاتيتها ويرتبط أفرادها معا إما بروابط السلالة أو الثقافة أو القومية (١) .

ويكاد هذا التعريف – من حيث فحواه – يتطابق مع تعريف آخر مؤداه: أن الجماعة العرقية هى تجمع بشرى يترابط أعضاؤه فيما بينهم من خلال روابط مشتركة كوحدة الأصل أو القومية أو الثقافة ، وهم يعيشون معا داخل إطار حضارى ثقافى مخالف لإطارهم الحضارى الثقافى ، بيد أنهم يظلون محتفظين بتميزهم الثقافى (٢) .

ويكاد هذان التعريفان يتطابقان – من حيث المضمون – مع التعريف السابق عليهما .

٤ – **الجماعة العرقية هى** : مجموعة من الأفراد يعيشون فى مجتمع أكبر لهم سلف مشترك (سلالة واحدة) ، أو تاريخ وذكريات مشتركة ، أو ثقافة مشتركة ، أو تجمع بينهم صلة القرابة ، أو الجوار، أو وحدة السمات الفيزيقية ،أو اللغة ، أو اللهجة الواحدة ، أو الرابطة القبلية (الإنتماء القبلى)، أو الإنتماء الدينى ، أو أى تركيب من هذه العناصر معا (٣) .

ويتشابه هذا التعريف إلى حد كبير مع التعريفات الثلاثة السابقة ، غير أنه يختلف عنها فى كونه ينطوى على سرد تفصيلى لمقومات الذاتية العرقية من فيزيقية إلى ثقافية .

وهكذا يتضح فى ثنايا كل ماقدمنا من تعريفات أن عبارة الجماعة العرقية لاتعنى بالضرورة تلك الجماعة التى ينحدر أفرادها من ذات الأصل

---

(١) فاروق مصطفى إسماعيل ، العلاقات الإجتماعية بين الجماعات العرقية : دراسة فى التكيف والتمثيل الثقافى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ٤١ .

(٢) Encyclopaedia of the social sciences, Volume Five, The Macmillan Company. New York, p. 607.

(٣) انظر فى هذا المضمون : فاروق مصطفى إسماعيل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٢

أو تلك التى يشترك أفرادها فى سمات فيزيقية أو بيولوجية واحدة ، ذلك بأن مدلول تلك العبارة يمتد ليشمل كذلك تلك الجماعات التى يترابط أفرادها فيما بينهم من خلال روابط اجتماعية أو ثقافية كوحدة اللغة أو الثقافة أو غيرها . وإذن فمقومات الذاتية العرقية ليست بالضرورة مقومات بيولوجية فيزيقية ، وإنما قد تكون كذلك مقومات اجتماعية ثقافية . وتأسيسا على ذلك يبدو جليا الفارق بين مدلولى عبارتين طالما خلط بينهما العديد من الباحثين فى مجال الدراسات الإجتماعية ، وتتمثل هاتان العبارتان فى عبارة الجماعة العرقية Ethnic group وعبارة الجماعة السلالية Racial group . فالحق أن تلك الأخيرة لاتعنى أكثر من جماعة بشرية ينحدر أفرادها من سلالة واحدة أو أصل واحد ، أو على حد قول البعض [1] فهى جماعة من الناس يمتلكون فى غالبيتهم ملامح فيزيقية سلالية مشتركة حال لون الجلد ، وشكل الرأس ، وملامح الوجه ، وطول القامة ، وغيرها من السمات الفيزيقية التى تميز الجماعة عن غيرها من الجماعات السلالية .

وفى ضوء ماتقدم يتضح أن عبارة الجماعة السلالية إنما تشير إلى الجماعات التى يشترك أفرادها فى السمات الفيزيقية فحسب ، فى حين أن عبارة الجماعة العرقية قد تشير إلى جماعات يشترك أفرادها فى السمات الفيزيقية كما قد تشير إلى جماعات يرتبط أفرادها من خلال روابط ثقافية مشتركة كوحدة اللغة أو الثقافة ، وإذن فالجماعة السلالية لاتعدو أن تكون نوعا من أنواع الجماعات العرقية، أو إن شئنا فإن كل جماعة سلالية تمثل جماعة عرقية ، فى حين أن كل جماعة عرقية ليست بالضرورة جماعة سلالية . ولعل مما يدعم رأينا المتقدم أن غير واحد من الباحثين فى ضروب الظاهرة العرقية راح فى تعريفه للجماعة العرقية يؤكد على مقوم الثقافة ويجعل منه الركن الركين للذاتية العرقية ، ومن أظهر هذه التعريفات مايقول به علماء الإجتماع الأمريكيون من أن الجماعة العرقية هى : " جماعة ذات أعراف ثقافية وحضارية مشتركة يسود أفرادها الشعور بالهوية الواحدة ،

(١) فى هذا المضمون يرجع إلى : المرجع السابق ، ص ٤٣ .

وهذه الجماعة تعيش كجماعة تحتية Subgroup داخل مجتمع أوسع [١]
كذلك فإن ثمة من ينحو ذات المنحى فى التأكيد على المقوم الثقافى للذاتية العرقية إذ يعرف الجماعة العرقية بأنها : " تجمع بشرى يشترك أفراده فى أنماط ومعايير السلوك المتعلقة بشتى الأنشطة الحياتية كالزواج ، والمصاهرة، والصداقة ، وممارسة الطقوس ، والشعائر ، وغيرها من أنماط ومعايير السلوك التى تنطوى عليها ثقافة الجماعة ، ويمثل هذا التجمع جزءا من تجمع بشرى أكبر، كما أنه يتفاعل مع غيره من التجمعات البشرية التى يشملها النسق الإجتماعى Social System " [٢]

وهكذا فإننا نخلص من خلال كل ماتقدم – ولاسيما تعريفنا للجماعة العرقية – أن هذه الأخيرة قد تكون جماعة ذات مقومات فيزيقية (أى جماعة سلالية) ، كما قد تكون جماعة ذات مقومات ثقافية (لغوية أو دينية أو ثقافية) ، أو حتى جماعة ذات مقومات فيزيقية ثقافية .

كذلك فإننا نخلص من ذلك التعريف إلى أن الجماعة العرقية إنما تمثل واحدة من بين عديد من جماعات أخرى (جماعتين على الأقل) تشكل فيما بينها الكيان البشرى لمجتمع واحد . أما إذا كانت جماعة ما تشكل منفردة الكيان البشرى لمجتمعها (حال الألمان فى ألمانيا مثلا) فإننا نكون بصدد أمة Nation .

والحق أن ثمة إتجاها مخالفا لما نقول به فى هذا الصدد ، إذ يرى أنصار هذا الإتجاه أن الجماعة العرقية قد لاتكون بالضرورة مجرد جزء من الكيان البشرى لمجتمعها ، وإنما قد تشكل منفردة هذا الكيان (حال الصينيين والإنجليز والفرنسيين فى دولهم) ، كما قد تشكل جماعة واحدة الكيان

---

(١) Connor. Op. Cit., p. 43.

(٢) Cohen, Abner. Urban Ethnicity, Tavistock Publications, London, 1974, P.P. ix-xii.

البشرى لعديد من دول (وذلك حال العرب) (١) . وبطبيعة الحال فإننا نرفض هذا الرأى نظرا لأن من شأن الأخذ به عدم التمييز بين مفهومى الأمة والجماعة العرقية . غير أنه مما تجدر الإشارة إليه فيما نحن بصدده أن علماء الإجتماع فى الإتحاد السوفيتى السابق كانوا قد درجوا على اعتبار الأمة ذاتها جماعة عرقية ، كما درج علماء الإجتماع الغربيون على اعتبار كل جماعة مختلفة موضوعيا وتدرك هذا الإختلاف ذاتيا بمثابة جماعة عرقية سواء أكانت جماعة قومية ، أو دينية ، أو مذهبية ، أو لغوية، أو حتى جماعة ذات نمط معيشى متميز كالبدو والغجر. بيد أن الفريقين على أية حال يتفقان على استخدام عبارة الجماعة العرقية للإشارة إلى أى من الجماعات التى لاتشكل منفردة الكيان البشرى لمجتمعها ، أى أننا مثلا لانطلق على الفرنسيين فى فرنسا عبارة جماعة عرقية وإنما نقول الأمة الفرنسية أو الشعب الفرنسى ، فى حين أننا نصف الفرنسيين فى كندا (القاطنين لإقليم كيبيك) بأنهم جماعة عرقية (٢) كذلك فإن الجماعة البشرية الكردية فى جملتها تمثل أمة ، غير أن الجماعات الكردية فى كل من إيران وتركيا والعراق وسوريا تمثل كل منها جماعة عرقية .

وهكذا يتضح بجلاء الفارق بين مدلولى لفظة الأمة وعبارة الجماعة العرقية، وإذن فإننا نكون بصدد جماعة عرقية فى حالة وجود جماعة أو جماعات عرقية أخرى تشاركها العيش فى ذات المجتمع أو الدولة ، وعادة لايقتصر الإختلاف أو التباين بين هذه الجماعات على أى من المتغيرات العرقية كالدين أو اللغة أو السلالة ، وإنما يكون كذلك بصدد الحجم العددى ومظاهر الغلبة والقوة الإجتماعية فى أشكالها السياسية والإقتصادية والثقافية، إذ نادرا – إن لم يكن مستحيلا – أن تتساوى الجماعات العرقية فى نفس المجتمع من حيث العدد والمكانة الإجتماعية والأوضاع السياسية والمنزلة الثقافية ... الخ . وبذلك فإن التباين العرقى عادة مايقترن بتباين كمى سكانى

(١) Connor, Loc. Cit.

(٢) أنظر فى هذا المعنى : سعد الدين إبراهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٦ ، ٢٧.

وتباين كيفى يتصل بموقع الجماعة داخل المجتمع بشتى قطاعاته [1] .

وفضلا عن كل ماتقدم فإنه يستفاد من تعريفنا المتقدم للجماعة العرقية أن أفراد هذه الأخيرة لابد وأن يكونوا مدركين لهويتهم المتميزة ، واعين بمقومات ذاتيتهم العرقية على نحو يهيئ لخلق شعور بوحدة الهوية داخل نطاق الجماعة ، وهو شعور ينبع من التشابه فى الخصائص الفكرية للجماعة وسواد روح الجماعة بين أفرادها بما يهيئ لتعاونهم ، الأمر الذى يؤدى بدوره إلى خلق عاطفة الولاء للجماعة ، تلك العاطفة التى تؤدى دورا بارزا فى إحداث نوع من التماسك بين أفراد الجماعة ، ودفعهم إلى اتباع ماتفرضه تلك الجماعة من معايير وقيم وأنماط سلوك ، وكلها عوامل من شأنها أن تظهر الجماعة كوحدة واحدة فى تعاملها مع الغرباء ، أو إن شئنا أولئك الذين ينتمون إلى جماعات أخرى [2] . ويتولد الوعى العرقى بالذات لدى أفراد جماعة ما من خلال علاقات الجماعة وتفاعلها مع الجماعات العرقية الأخرى التى تشاركها ذات الإطار الإجتماعى السياسى (المجتمع أو الدولة) ، فالإدراك الذاتى للتفرد والإختلاف عن الآخرين لدى أفراد جماعة ما لايعدو أن يكون نتاجا لرؤيتهم وإدراكهم لهوية الآخرين ، إذ أن إدراك فرد ما لكونه أبيض البشرة لايتم إلا من خلال إدراكه لأن ثمة من هم سود البشرة ، وإدراك فرد ما لإسلامه لايتم إلا من خلال إدراكه لمسيحية أو هندوكية فرد أو أفراد آخرين . وتقوم الجماعة العرقية ببث الوعى العرقى وإدراك الهوية فى نفوس أفرادها عن طريق عملية التنشئة الإجتماعية ، وذلك بغية الحفاظ على كيان الجماعة وتراثها الثقافى . كما تتعين الإشارة إلى أن تنمية الوعى العرقى لدى أفراد جماعة عرقية ما قد ترتد إلى مايلاقيه هؤلاء الأفراد من تفرقة أو تمييز فى المعاملة أو اضطهاد من جانب أفراد الجماعات

---

(١) أنظر فى هذا المعنى : ذات المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(٢) أنظر فى هذا المضمون تفصيلا : فاروق مصطفى إسماعيل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٢ ، ٥٣.

الأخرى [١] .

والحق أن الوعي العرقي لدى أفراد جماعة عرقية مالا بد وأن يكون مقترنا بسواد روح العصبية بينهم فيما يتصل بهويتهم وذاتيتهم ومقومات هذه الذاتية وتلك الهوية . " فالجماعة لاتكون إلا بالعصبية أى بشعور التضامن والتلاحم الجماعي تجاه الجماعات الأخرى " [٢] . وفي ذلك يقول أحد المفكرين البارزين [٣] : " إذا ضعفت العصبية فى قوم رماهم الله بالفشل ، وغفل بعضهم عن بعض ، وأعقب الغفلة تقطع فى الروابط ، وتبعه تقاطع وتدابر ، فيتسع للأجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم ، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بإفاضة روح التعصب فيهم فى نشأة ثانية " . ويتعين التنويه إلى أن المقصود بالتعصب هنا صورته المعتدلة ، ذلك بأن الإفراط فى التعصب يعد مذمة تبعث على الجور والإعتداء [٤] . وإذن فالتعصب للجماعة لدى أفرادها يتعين أن يكون بالقدر الذى يحفظ للجماعة تماسكها ، ويقوى شوكتها ، ويلهب حماستها ، ويجمع شتاتها فى مواجهة أولئك الذين يريدون لها الهزال والزوال .

وفى النهاية فإنه تجدر الإشارة إلى أن ثمة عاملين من شأنهما حفظ الكيان البشرى والثقافى للجماعة العرقية وتأكيد استمراريتها ، ويتمثل هذان العاملان فى[٥] :

---

(١) أنظر فى هذا المضمون بالتفصيل : سعدالدين ابراهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩، ٣٠.

(٢) برهان غليون ، المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات ، سينا للنشر ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص ٤٤

(٣) هو الإمام محمد عبده : أنظر بصدد آرائه هذه المراجع السابق ، ص ٤٤ إلى ص ٤٧.

(٤) فى ذات المضمون : أنظر نفس المرجع السابق .

(٥) انظر فى هذا المضمون بالتفصيل : سعد الدين ابراهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥ ، ٢٦

أولا : إن عضوية الجماعة العرقية هى عضوية إجبارية ، فى معنـــــى أن أفراد الجماعة يولدون فيها ويرثون خواصها العرقية مثل الديـــن أو اللغة أو لون البشرة ، كما يكتسبون تدريجيا خواصها الثقافية . ومـن خلال هذا العامل (أى العضوية الإجبارية) تضمن الجماعة تجديـــد صفوفها وتتأكد عملية الإحلال والتعويض عمن تفقدهم الجماعة مـــن أعضائها نتيجة الوفاة .

ثانيا : التزاوج الداخلى : فى معنى أن الغالبية العظمى من أفراد أية جماعة عرقية ينتهى بهم الحال - فى ظل القيود التى تفرضها الجماعة عليهم وأعرافها التى تورثها إياهم - إلى الزواج من أفراد نفس الجماعـــــة العرقية من الجنس الآخر .

وجملة القول فى شأن تعريف الجماعة العرقية هو أننا خلصنا فى هــذا الصدد إلى تعريف قوامه : أن الجماعة العرقية هى تجمع بشـــــرى يرتبــط أفراده فيما بينهم من خلال روابط فيزيقية أو بيولوجية (كوحدة الأصــــل أو السلالة) أو ثقافية (حال وحدة الدين أو اللغة أو الثقافة) ، ويعيـــش هـــذا التجمع فى ظل مجتمع سياسى أرحب مشكلا لإطار ثقافى حضارى مغـــــاير للإطار الثقافى الحضارى لذلك المجتمع ، ويكون أفراد هذا التجمع مدركيـــن لمقومات هويتهم وذاتيتهم ، عاملين دوما من أجل الحفاظ عليها ودعمها فـــى مواجهة عوامل الضعف والتحلل .

المبحث الثانى

فى

مقومات الذاتية العرقية

لقد خلصنا من خلال تحليلنا فى المبحث السابق – وارتباطاً بالتعريف الذى قدمناه للجماعة العرقية – إلى أن مقومات الذاتية العرقية قد تكون مقومات فيزيقية بيولوجية ، كما قد تكون مقومات إجتماعية ثقافية . وفيما يلى نعرض بشئ من التفصيل لكل من هذه المقومات ، وأثرها فى تأكيد الذاتية العرقية للجماعة :

أولا : المقومات الفيزيقية للذاتية العرقية :

وتتمثل هذه المقومات فى وحدة السلالة أو الأصل أو العنصر الذى ينحدر منه أفراد الجماعة ، ومايترتب على ذلك من إشتراك هؤلاء الأفراد قاطبة فى سمات فيزيقية مميزة ناتجة عن الوراثة البيولوجية ، وهى سمات من شأنها أن تظل ثابتة نسبيا خلال الأجيال المتعاقبة ، على نحو يهيئ للحفاظ على كيان الجماعة العرقية ، وصيانة ذاتيتها [١] . والحق أن ثمة إختلافا بين الباحثين بصدد تحديد ماهية السمات الفيزيقية السلالية التى تصنف على أساسها الجماعات سلاليا ، فثمة من يقصر هذه السمات على الملامح الجسمانية الظاهرة حال لون البشرة ، وكثافة وتجعد شعر الرأس ، ومدى اكتساء الجسم بالشعر ، وشكل ولون العينين وطول القامة [٢] ، فى حين أن ثمة من يميز بين نوعين من السمات الفيزيقية يتمثلان فى [٣] :

١ - **السمات الهيكلية** (أو المستترة) : وهى تلك التى تحتاج لآلات

---

(١) أنظر فى هذا المعنى : فاروق مصطفى إسماعيل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٨ .

(٢) سعدالدين إبراهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣ .

(٣) أنظر فى هذا الصدد : يسرى عبدالرازق الجوهرى ، السلالات البشرية ، دار الطلبة العرب – بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩ ، ص ١٥٧ .

خاصة بغية قياسها وملاحظتها ، ومن أمثلة هـذه السمات شكل وحجم الجمجمة ، والوجه، والأنف، والأسنان ، والحواجب ، وعظام الوجنات ، وبنية الجسم ، ونسبة

الأطراف .

٢ – **السمات السطحية (أو الظاهرة)** : وهى التى يمكن ادراكها بالعين المجردة ، وتشمل لون البشرة ، وشكل الشعر ولونه ، ولون العين وثنيتها ، وشكل الشفاة ... وغيرها .

وتتعين الإشارة إلى أن تمايز الجماعات الإنسانية استنادا إلى السلالة أو الجنس – أو إن شئنا الدقة الإعتقاد فى هذا التمايز – هو أمر طالما أدى دورا بالغ الأثر فى تحديد أنماط العلاقة بين تلك الجماعات ، وتحريك شتى صور الصراع فيما بينها عبر حقب طويلة من التاريخ الإنسانى . " ففى العهد الفرعونى – بداية – كان ثمة تمييز بين الأجناس قوامه علاقة بين سيد وعبد ، وبين آسر وأسير ، إذ كان المصريون القدماء ينظرون إلى سكان الجنوب (الزنوج) نظرة استخفاف ، وذلك على النحو الذى تظهره اللوحات الساخرة التى رسمها الرسامون المصريون للزنوج ، كما كان المصريون ينظرون نظرة إستعلاء إلى الأجانب الآخرين حال الليبيين " (١) . وفى ظل الإمبراطورية الرومانية كان الرومان ينظرون إلى غيرهم من الشعوب باعتبارهم شعوبا لاتستحق الإحترام ، ولاسيما تلك الشعوب التى كانوا يغزون أرضها ، والتى كانوا لايذكرونها إلا بكل إحتقار (٢) .

من جانب آخر فإبان الحقبة الإستعمارية نجد أن مستعمرى الأمريكتين من الإسبان والبرتغال والإنجليز وغيرهم كانوا يفتئتون على حقوق السود والسكان الأصليين للبلاد مستندين فى ذلك إلى تبريرات من صنعهم قوامها

---

(١) كينيث ليتل ، السلالة والمجتمع ، ترجمة محمد جلال عباس ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٨،٢٧.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

أن السود وسكان الأمريكتين الأصليين ليسوا من نسل آدم وحـــواء ، وأنـــهم ليست لهم روح بشرية تسمو إلى إتصالها بالرب، وأن روحهم مشـــتقة مـــن فصيلة دون الإنسان، فى حين أن روح البيض وفصائلهم إنســـانية ، وفـــى ضوء ذلك فإنه يتعين التمييز بين الفريقين (١).

وفى إطار ظاهرة الإستعلاء بالجنس – كذلك – نجـد أن انتصـارات اليابان على روسيا فى مطلع القرن الحالى قـد بثـت فـى اليابـانيين روح الإعتزاز بجنسهم الأصفر ، والإعتقاد فى سموه على غيره من الأجنـــاس . وارتباطا بهذا الزهو نشأت سياسة (آسيا للآسيويين) التى تبناها اليابانيون ، والتى كانت تعنى عملا أن آسيا هى للإستعمار اليابانى ، وأنه يتعين إقصـاء الرجل الأبيض عن القارة الآسيوية ، على أساس أنها تمثل مجـــالا حيويـــا لليابان (٢) . وهكذا فإن ظاهرة الإستعلاء بالجنس كانت من وراء الحـــروب التوسعية العديدة التى خاضتها اليابان منذ مطلع هذا القرن، تلك الحروب التى لم توقفها إلا هزيمة اليابان فى الحرب العالمية الثانية .

وفضلا عن كل ماتقدم فلقد كانت لظاهرة الإستعلاء بـــالجنس آثارهـــا البالغة على السياسة الألمانية للرايخ الأول والثانى والثالث ، تلـــك السياســـة التى استندت إلى أيديولوجية (سمو الجنـــس الآرى) (٣) . فارتباطـــا بـــهذه الأيديولوجية راح الإمبراطور فيلهلم الثانى فى أواخر القرن التاســـع عشـــر يؤكد على سمو الإنسان الألمانى على سائر البشر ، وأنه يتعيـــن أن يتبـــوأ الألمان موقعهم اللائق فى إدارة دفة السياسة العالمية . كما أكد الإمـــبراطور الألمانى على أن رسالته التى وكلها إليه الله – باعتباره راعى ألمانيا الكبرى – هى أن يأخـــذ بناصية الشعب الجرمانى صـــوب صدارة سائر الشعوب ،

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : أحمد سويلم العمرى ، التفرقـــة العنصريـــة ، المؤسســـة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٢٠ .

(٢) أنظر فى هذا المضمون : المرجع السابق ، ص ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) أنظر بصدد هذه الأيديولوجية تفصيلا : محمد طه بدوى – ليلـــى أميـــن مرســـى ، النظرية العامة للعلاقات الدولية ، مرجع سبق ذكره ، من ص ١٤٩ إلى ص ١٥١ .

واحتلال القارة الأوربية [١] .

وانطلاقا من ذات الأيديولوجية إنطلق هتلر فى العهد النازى بجحافله مرددا عبارة ألمانيا فوق الجميع ، غازيا شرق أوربا ، على اعتبار أن الشعوب التى تقطن هذه المنطقة هى شعوب دنيا ما وجدت إلا لكى توضع فى خدمة الشعب الألمانى العظيم . إنها الطموحات التوسعية المرتكزة إلى الإستعلاء بالجنس ، تلك الطموحات التى لم توقفها إلا الهزيمة القاسية التى لقيها الألمان فى الحرب العالمية الثانية .

هذا ولايفوتنا – فى هذا المقام – أن ننوه إلى أن فكرة الإستعلاء بالجنس لم يقتصر معتنقوها على أبناء الجنسين الأبيض والأصفر ، وإنما وجدت – كذلك – أشياعا لها فى صفوف أولئك القوم من ذوى البشرة السوداء والذين يعرفون بالزنوج. وحسبنا أن نشير فى هذا الصدد إلى حركة " الصهيونية السوداء " التى كانت قد ظهرت مع بزوغ شمس القرن العشرين على يد الزنجى الجامايكى ماركوس جارفى ، ذلك الرجل الذى اتسمت أفكاره بالعنصرية والتعصب للجنس الأسود ، والدعوة إلى استخدام سائر وسائل العنف كى يتأتى للسود الحصول على المكانة اللائقة بهم بين الأجناس، باعتبارهم – على حد قوله – أرقى الأجناس . حيث يقول جارفى معبرا عن ذلك : " إننا لانطالب بالمساواة بالرجل الأبيض ... إننا نطالب بالسيادة والتفوق على الجنس البشرى كله ... إن العنف هو الطريق المؤدى إلى تحقيق أهدافنا ، ويجب أن يكون الشعار الذى يتمسك به الزنوج فى جميع أنحاء العالم هو القوة لا القانون ، والسلطة لا العدالة " [٢] .

وتأكيدا على فكرته عن سمو الجنس الأسود راح جارفى يؤسس

---

(١) فى هذا المضمون أنظر : أحمد سويلم العمرى ، التفرقة العنصرية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٦ .

(٢) أنظر فى هذا الصدد : نزيه نصيف ميخائيل ، النظم السياسية فى أفريقيا : تطورها واتجاهها نحو الوحدة ، دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٧. ص ٥٢ ،٥٣ ، ٥٤

الكنيسة الأفريقية الأرثونكسية ، التى فيها رسم الشيطان – على عكس كنائس البيض – باللون الأبيض ، والملاك باللون الأسود . إنها ذات الفكرة التى عبر عنها الشاعر التوجولى الراحل أرماتو حيث قال : " إلهنا أسود سواد سرمدى .. ذو شفاة غليظة مكتنزة وشعر مجعد ، وعيونه بنية رقراقة لأنه قد خلقنا على صورته .. إن إلهنا لأسود " [1] . ويشار – أخيرا – إلى أن أيديولوجية الصهيونية السوداء بمضمونها المتقدم قد لاقت رواجا واسعا فى صفوف الزنوج الأمريكيين خلال عقدى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين ، كما أن هذه الفكرة لاتزال ذات تأثير يعتد به على زنوج الولايات المتحدة حتى يومنا هذا .

ومهما يكن من أمر كل ماتقدم فإن التمييز بين الجماعات البشرية استنادا إلى تمايزها سلاليا إنما يرتكز إلى افتراضين [2] قوامهما :

١ – إن هناك نقاء سلاليا داخل الجماعات البشرية ، فى معنى أن كل جماعة تمثل درجة عالية من التجانس السلالى فى مواجهة الجماعات الأخرى .

٢ – إن الإختلافات الفيزيقية السلالية بين الجماعات تنطوى بدورها على اختلافات أخرى غير فيزيقية مثل درجة الذكاء ، والنشاط ، والإنضباط، وروح المسئولية ، والأخلاق .

غير أن أغلب المشتغلين بالدراسات الإجتماعية راحوا – من خلال دراسات عديدة – يؤكدون افتقار الإفتراضين السابقين إلى السند العلمى . فبصدد الإفتراض الأول – بادئ ذى بدء – نجد أن الأبحاث الأنثروبولوجية تؤكد اختلاط الأجناس والأنساب كنتيجة للهجرة والحروب والغزوات وتبادل المنافع بين الشعوب على مدى العصور والأجيال ، وعلى نحو بات معه وجود جماعة بشرية ذات نقاء سلالى بمثابة أمر من قبيل المستحيل . فعلى

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٢) أنظر فى هذا الصدد : سعد الدين إبراهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣ .

سبيل المثال نجد أن الفرنسيين والإيطاليين يمثلون خليطا من الجرمان والسلت والفندال والعرب والمغول والبيض والسمر ، أما الألمان – فبرغم زعمهم أنهم ينحدرون من جنس آرى وأنهم بمثابة سلالة نقية – إلا أنهم يمثلون خليطا من المغول ، والتتار، والسلت ، والصقالبة ، والآريين، في حين يمثل الإنجليز خليطا من ابناء قبائل أوربا الذين غزوها في عهد روما القديمة تحت إمرة يوليوس قيصر ، وأما العرب فخليط من السمر ، والمغول، والتتار، والصقالبة ، والسود ، وأهل البادية ، وقلب نجد ، وقريش، وأهالى حوض البحر المتوسط (١) .

أما فيما يتصل بالإفتراض الثانى فصحيح أن ثمة تميزا مورفولوجيا بيولوجيا بين الأجناس (أبيض – أصفر – أسود) إلا أن أحدا – حتى الآن – لم يكن بمقدوره أن يقنع إقناعا علميا بأن لهذا التميز أثرا فى خاصة العمل بالفكرة التى هى جوهر الإنسان (٢) بحق .

وهكذا يتضح فى ثنايا ماتقدم أن مقولة إن جماعة ما تنحدر من ذات الأصل أو تنتمى إلى سلالة واحدة نقية هى مقولة يعوزها السند العلمى . وعلى الرغم من ذلك فإن أحدا ليس فى مقدوره أن ينكر مايؤديه الإعتقاد فى وحدة الأصل (٣) لدى أفراد جماعة ما من دور عظيم الشأن فى دعم تماسك تلك الجماعة ، والحفاظ على ذاتيتها ، وتأكيد استمراريتها وحفز همم أفرادها، وصهر طاقاتهم فى بوتقة واحدة بغية الوصول إلى ماتتغياه الجماعة من غايات . ذلك فضلا عما لازال يؤديه الإعتقاد فى التمايز السلالى – وكذا التمايز فى السمات الفيزيقية – من دور هام فى تحريك شتى صور الصواع

---

(١) هذه الأمثلة نقلا عن : أحمد سويلم العمرى ، التفرقة العنصرية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٥ .

(٢) محمد طه بدوى ، النظرية السياسية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٧ .

(٣) استخدم عالم الإجتماع الشهير ماكس فيبر Max Weber عبارة (الإعتقاد فى وحدة الأصل) وليس عبارة (وحدة الأصل) وذلك بصدد تعريفه للجماعة العرقية . انظر هذا التعريف فى:
- Connor, Op. Cit., p. 44.

بين الجماعات البشرية فى عصرنا ، وذلك على النحو الذى سنعرض له لاحقا بالتفصيل .

ولايفوتنا فى النهاية واستكمالا لكل ماتقدم أن نشير إلى ظاهرة عهدها العديد من مجتمعات العالم المعاصر كأثر للتباين فى السمات الفيزيقية أو الإعتقاد فى التمايز السلالى بين أفراد الجماعات التى تشكل الكيان البشرى لتلك المجتمعات ، إنها ظاهرة التفرقة العنصرية ، والتى ترتكز على سياسة قوامها التمييز بين الأجناس فى شتى المجالات الإجتماعية والسياسية والإقتصادية داخل المجتمع . وتعد دولة اتحاد جنوب أفريقيا فيما سبق من أظهر بلدان العالم المعاصر ممارسة لسياسة التفرقة العنصرية ، إذ طالما اتبعت الأقلية الأوربية البيضاء فى تلك الدولة سياسة عزل اجتماعى وسياسى إزاء سكان البلاد الأصليين من السود ، فحرمتهم من شتى حقوقهم السياسية وجل حقوقهم الإجتماعية والإقتصادية [1] . غير أنه مما تتعين الإشارة إليه أن السنوات الأخيرة قد شهدت – تحت وطأة تصاعد الكفاح المسلح من جانب السود – تراجعا واسع النطاق عن سياسة التفرقة العنصرية من جانب الأقلية البيضاء ، وعلى نحو هيأ لاعتلاء السود سدة الحكم فى تلك الدولة .

من جانب آخر فإن استراليا تعد مثالا آخر لدولة مارست التفرقة العنصرية،

إذ طالما وضعت العراقيل أمام الملونين الراغبين فى الهجرة إليها [2]. وفضلا عما تقدم فإننا لانعدم آثارا واضحة لسياسة التفرقة العنصرية فى الولايات المتحدة ولاسيما فى ولايات الجنوب ، إذ يتخذ البيض من مقولة التمايز السلالى سندا يبرر استغلالهم للسود ، وأيضا فإن الفئات الدنيا من البيض يمعنون فى التمسك بتلك المقولة التى تهيئ لهم إحساسا بالسمو إزاء هؤلاء السود كرد فعل لمركب النقص الذى ينتاب أفراد تلك الفئات من جراء

(١) انظر بصدد مضمون سياسة التفرقة العنصرية : أحمد سويلم العمرى ، التفرقة العنصرية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) انظر فى هذا المضمون : كينث ليتل ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦ .

السود كرد فعل لمركب النقص الذى ينتاب أفراد تلك الفئات من جراء مركزهم الإجتماعى الأدنى(١) . كذلك فإن التمايز السلالى لاتزال له آثاره البالغة على الحياة الإجتماعية وكذا الحياة السياسية فى الولايات المتحدة ، فارتباطا به لايزال السود – لاسيما على المستوى القومى – بمنأى عن المراكز الإجتماعية والسياسية المرموقة (٢) .

وهكذا فإننا نخلص من خلال كل ماتقدم إلى أن الإعتقاد فى وحدة الأصل لدى أفراد جماعة ما – المصحوب بتشابه سماتهم الفيزيقية – يمثل واحدا من أبرز مقومات الذاتية العرقية لتلك الجماعة ، كما أن التباين فى السمات الفيزيقية – المرتبط بالإعتقاد فى التمايز السلالى بين الجماعات المختلفة – يشكل عاملا بالغ الأثر فى تحديد طبيعة العلاقات بين هذه الجماعات .

ثانيا : المقومات الثقافية للذاتية العرقية :

ويتمثل أظهر هذه المقومات فى مقومين هما : وحدة اللغة والثقافة ، ووحدة الدين . وفيما يلى نعرض بشئ من التفصيل لكل من هذين المقومين ، وأثره فى تحديد هوية الجماعة العرقية ، وكذا فى تحديد طبيعة العلاقات بين الجماعات العرقية التى تشكل الكيان البشرى للمجتمع :

١ – وحدة اللغة والثقافة :

لاتمثل اللغة أداة للتواصل والتخاطب بين الأفراد فحسب وإنما تمثل كذلك وعاء للثقافة ، ونمطا للتفكير ومخزنا للتراث ، ومن هنا فإن المتكلمين بلغة ما – كلغة أصلية – يشتركون معا فى هذه الموروثات ، ويختلفون فى

---

(١) انظر فى ذلك : محمد طه بدوى ، النظرية السياسية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٨

(٢) محمد طه بدوى ، محاضرات فى مقومات الحياة السياسية فى الولايات المتحدة (غير منشورة) ، ملقاة على طبة ماجستير العلوم السياسية - كلية التجارة - جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٦ .

كل هذه الأمور عما عداهم من أفراد الجماعات التى تتحدث لغات أخــرى . من جانب آخر فإن لغة الجماعة الأصيلة – التى تسمى بلغة الأم – تمثل أداة التنشئة الإجتماعية التى تقوم بها الأم والتى عن طريقها يتم إرساء الدعـائم الأساسية للشخصية ، كذلك فإن اللغة تعد بمثابة مرآة لنسق القيم والمعـايير وكذا قواعد السلوك السائدة فى الجماعة (١) . وهكذا فإن تبـاين الجماعـات الإنسانية اللغوى من شأنه أن يجعلها متباينة من حيث أطرهـا الثقافيـة ، إذ تأسيسـا على ذلك التباين يكون لكل جماعة إطار ثقـافى متمـيز لـه مـن الخصائص والسمات مايجعل أساليب معيشة الجماعة مغايرة – علـى نحـو واضح – لأساليب معيشة الجماعات الأخرى (٢) .

والحق أن ثمة مجتمعات عديدة فى عالمنا المعاصر قد اتسمت بالتعددية اللغوية أو الثقافية . ففى الإتحاد السوفيتى السابق – مثلا – نجد أنـه كـانت توجد جماعات عرقية لغوية عديدة ، فإلى جانب المجموعة الروسـية كـان هناك اللتوانيون والأستونيون (فى أوربا) ، والتركمـانيون ، والأرمـن ، والأذربيجانيون ، وغيرهم (فى آسيا) . كذلك فقد ضمت يوغسلافيا السابقة عديدا من مجموعات ثقافية تمثل أظـهرها فـى الصـرب ، والكـروات ، والألبان، والبلغاريين ، والمقدونيين (٣) . وفضلا عما تقدم نجد أن اللغة تسهم بدور بارز فى تحديد الفواصل بين الجماعات العرقيـة المشـكلة للمجتمـع الهندى ، حيث يضم هذا المجتمع أكثر من اثنتى عشرة لغة ، وليس ثمة لغـة واحدة من بينها تمثل اللغة الرئيسية أو اللغة الأم (٤).

وتتعين الإشارة إلى أن موقع الجماعـة العرقيـة إزاء غيرهـا مـن الجماعات التى تشاركها ذات المجتمع قد يتحدد فى ضـوء ثقافتـها ، ففـى

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : سعدالدين إبراهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣ ، ٣٤ .
(٢) أنظر فى هذا المعنى : فاروق مصطفى إسماعيل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٨ .
(٣) فى ذات المضمون أنظر : سعدالدين إبراهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٥ ، ٣٦ .
(٤) أنظر فى هذا الصدد : فاروق مصطفى إسماعيل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٠ ، ٦١ .

الولايات المتحدة – مثلا – تتدرج الجماعات العرقية – من حيث المكانة – تدرجا هرميا قوامه أن ذوى الثقافة الأنجلوسكسونية يتبوأون قمة الهرم العرقى ، يليهم ذوو الثقافة اللاتينية، فذوو الثقافة السلافية ، ثم يأتى فى النهاية ذوو الثقافات غير الأوربية . ويحتمى هذا التدرج بالعرف الإجتماعى الأمريكى الذى لايقل صرامة عن القانون، ذلك العرف الذى فى ظله لا أمل للأفراد أو الجماعات فى شق طريق الحراك الإجتماعى – اقتصاديا وسياسيا – مالم يكتسبوا كل أو بعض عناصر الثقافة الأنجلو سكسونية وعلى رأسها اللغة الإنجليزية (١) .

ومهما يكن الأمر فإن أهمية عامل اللغة أو الثقافة كمقوم للذاتية العرقية تتوقف على الإدراك الذاتى له من جانب الجماعة ، ففى بعض الأحيان تقدمه الجماعة على غيره من المقومات (كالسلالة أو الدين) وتضفى عليه أهمية كبرى كمحور لعصبيتها الذاتية ، غير أنه فى أحيان أخرى قد تنحسر أهمية هذا العامل اللغوى الثقافى ، وتبرز عوامل أخرى فى المقدمة كمحاور لهوية الجماعة (٢) . ففى الهند – على سبيل المثال – نجد أن كلا من الهندوس والمسلمين الذين يتحدثون لغة التاميل قد يتضامنون – فى ظل ظروف معينة – بغية الوقوف فى مواجهة أولئك الذين يتحدثون اللغة الآرية ، غير أنه فى مواقف أخرى يتضامن الهندوس الشماليون والجنوبيون فى مواجهة المسلمين وينظرون إليهم كأعداء (٣) .

وهكذا يتضح فى ثنايا ماتقدم أهمية وحدة اللغة والثقافة كأحد مقومات الذاتية العرقية .

---

(١) انظر فى نفس هذا المضمون : سعدالدين إبراهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٢ .
(٢) انظر فى ذات المعنى : المرجع السابق ، ص ٣٤ .
(٣) بصدد هذا المثال انظر : فاروق مصطفى إسماعيل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٠ ، ٦١ .

٢ – وحدة الديـن :

تشير الملاحظة إلى أن اشتراك أفراد جماعة ما فى العقيدة الدينية يمثل – بحق – مقوما بارزا من مقومات الذاتية العرقية لهذه الجماعة . ذلك بـأن العقيدة الدينية تؤثر تأثيرا بالغا فى سلوك الجماعة ، وعلى نحو قد يفـوق – فى بعض الأحيان – تأثير وحدة السلالة أو اللغة فى هذا الصدد . ففى ظـل مواقف وأوضاع معينة قد يتغاضى المرء – فى سلوكه – عن رابطة السلالة أو اللغة أو حتى الأيديولوجية من أجل العقيدة الدينية ، وذلك حـال موقـف اليهود السوفييت بشأن الهجرة إلى إسرائيل ، فعلى الرغـم مـن أن هـؤلاء اليهود كانوا يتحدثون ذات اللغات التى يتحدث بها غيرهم مـن السـوفييت ، ويعيشون فى مجتمع يتبنى الأيديولوجية الماركسية كأساس للتنظيم الإجتماعى بشتى صوره إلا أن كثيرين منهم – ارتباطا بعقيدتهم الدينية وتضامنا منـهم مع من يشاركونهم هذه العقيدة – آثروا الهجرة إلـى إسـرائيل ذات اللغـة المغايرة للغاتهم ، والمجتمع الرأسمالى المذهب الذى يتباين – من حيث جـل مقوماته – عن المجتمع السوفيتى الذى نزحوا منه (١) .

وتجدر الإشارة – من ناحية أخرى – إلى أن تباين الجماعات العرقيـة المشكلة لمجتمع ما من حيث الدين لايكتسب أهمية سياسية إلا إذا ترتب عليه تنافس أو تنازع أو صراع بين هذه الجماعات ، سواء فى مجـال القيـم أو الثروة أو السلطة أو غير ذلك من المجالات . ومن هنا يفـرق كثـير مـن الكتاب بين مفهومى الطوائف والطائفية ، إذ يشير المفهوم الأول إلى مجـرد التنوع فى المعتقدات والممارسات الدينية بين الأفـراد أو الجماعـات التـى يتشكل منها المجتمع ، فى حين أن المفهوم الثانى – أى الطائفية – يشير إلى استخدام هذا التنوع الدينى لتحقيق أهداف سياسية أو اقتصادية أو ثقافيـة أو غيرها (٢) .

---

(١) بصدد مضمون مشابه إلى حد كبير : انظر المرجع السابق ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) سعدالدين ابراهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٧ .

ولعل المجتمع الهندى يمثل واحدا من بين عديد من مجتمعات معاصرة يؤدى فيها الدين دورا بارزا فى تحديد طبيعة العلاقات بين الجماعات العرقية المشكلة لها ، وعلى نحو يمكن معه القول أن للطائفية – بمضمونها المتقدم – سماتها الواضحة فى ذلك المجتمع . فالهند تعد دولة متعددة الديانات يشكل الهندوس فيها نحو ٥ر٧٠% من إجمالى عدد السكان ، ذلك فضلا عن وجود أقليات أخرى لها نفوذها فى مناطق معينة من الهند حال جماعة السيخ فى إقليم البنجاب وجماعة المسيحيين فى منطقة كيرالا . غير أن الطائفية لاتظهر بجلاء إلا فيما يتصل بالعلاقة بين الهندوس والمسلمين ، وذلك على الرغم من أن الجماعتين تنتميان – فى واقع الأمر – إلى سلالة واحدة ، حيث أن معظم مسلمى الهند قد تحولوا إبان نشر الدعوة الإسلامية عن الهندوسية . غير أن الإختلافات الدينية بين الجماعتين أدت إلى اختلافات أخرى فى طرق وأساليب الحياة . ومن هنا فالمسلمون والهندوس لايختلفون فيما بينهم بصدد السمات الفيزيقية وإنما ينصب الإختلاف بين الجماعتين على العقيدة الدينية ، إذ أمدت كلتيهما عقيدتها بأساس واضح لتنظيم ذاتها بما يتعارض مع الجماعة الأخرى (١) .

ولايفوتنا فى هذا الصدد أن نشير إلى أن ثمة تدرجا هرميا للجماعات التحتية (الطوائف) التى تنطوى عليها الجماعة الهندوسية فى المجتمع الهندى ، ويعد الدين هو العامل الذى تتدرج على أساسه هذه الجماعات من حيث المكانة ، إذ تأتى طائفة (البراهما) فى قمة الهرم ، تليها طائفة (الكشاتريا) ، ثم (الفيشا) ، ثم طائفة (السودرا) ، وأخيرا طائفة (الباريا) أو المنبوذين . وفى ضوء موقع الطائفة من هذا التدرج تتحدد الوظائف الإجتماعية المنوط بأفرادها القيام بها ، فالطائفة الأولى تقوم على الوظائف الروحية والقيادية ، فى حين تقوم الطائفة الثانية بوظيفة المحاربين ، أما الطائفة الثالثة فتقوم بأمور التجارة والزراعة ، وأما الرابعة فهى طائفة

(١) أنظر فى هذا المضمون : فاروق مصطفى اسماعيل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

العمال اليدويين ، ثم تأتى الطائفة الخامسة فى أسفل السلم الإجتماعى الإقتصادى وتؤدى الأعمال الوضيعة . وتحترم كل طائفة فى هذا التدرج مايعلوها من طوائف ، كما تقبل مكانتها الإجتماعية كأمر مقدس تمليه العقيدة الهندوسية (١).

وعلى صعيد آخر وبصدد الصراع الطائفى بين الهندوس والمسلمين فإنه تجدر الإشارة إلى أن آثار هذا الصراع لم تقتصر – من حيث النطاق – على المجتمع الهندى ، حيث امتدت هذه الآثار لكى تخلق صراعا دوليا بين الهند وإحدى الدول الإسلامية المتاخمة لها وهى باكستان ، إذ كان من شأن الإختلاف فى العقيدة بين الهندوس والمسلمين أن ظهرت حركة عرقية فى إقليم كشمير ذى الأغلبية المسلمة ، وقد جعلت هذه الحركة من الإنفصال عن الهند والإنضمام إلى باكستان هدفا لها ، ومن هنا فقد لقيت التأييد التام من جانب هذه الأخيرة ، على نحو أدى إلى تأجج نيران الصراع بين الدولتين المتجاورتين إلى حد جعلهما تنساقان إلى الحرب غير مرة . إنه الصراع الذى لازالت رحاه دائرة حتى يومنا هذا ، والذى فى ظله بات اندلاع حرب جديدة بين الهند وباكستان أمرا محتمل الحدوث فى أى وقت .

وهكذا يتضح فى ثنايا ماتقدم أن وحدة الدين لدى جماعة ماتشكل مقوما بارزا من مقومات ذاتيتها ، كما أن تباين الجماعات المشكلة لمجتمع ما من حيث العقيدة الدينية من شأنه أن يهيئ لظهور الطائفية فى ذلك المجتمع على النحو المشار اليه سلفا .

وتأسيسا على كل ماقدمنا فى هذا المبحث نخلص إلى أن مقومات الذاتية العرقية قد تكون مقومات فيزيقية بيولوجية (كوحدة الأصل أو السلالة أو تشابه السمات الفيزيقية) ، كما قد تكون مقومات اجتماعية ثقافية (حال وحدة اللغة والثقافة أو وحدة الدين) . واستكمالا لما تقدم نضيف الملاحظات

---

(١) أنظر فى ذات المضمون : سعد الدين ابراهيم ، مرجع سبق ذكره ، من ص ٤٠ إلى ص ٤٢ .

التاليــــة :

١ - إن ظاهرة العرقية - بمقوماتها المتقدمة - تعــد واحــدة مــن أبــرز الظواهر التى عهدتها المجتمعات الإنسانية متقدمها ومتخلفها ، وعلى مر الأزمان ماضيها حال حاضرها [١] ، إذ وجــدت العرقيــة فــى ظــل الإمبراطوريات القديمة كالهند القديمة وكذا الإمبراطوريــة البيزنطيــة وأيضا الإمبراطورية العثمانية ، ذلك فضلا عــن انتشــار الجماعــات العرقية فى العديد من بلدان العالم المعاصر كالمملكة المتحدة ، وكنــدا ، والعراق ، وتركيا ، وقبرص ، وإسبانيا ، وغانا ، ونيجيريا ، والــهند، وسيريلانكا ... وغيرها . ويرتد وجود تلك الجماعات إلــى الــهجرات البشرية ، والحروب ، والغزوات ، والإستيلاء علــى أراضــى الغــير بالقوة، وطرد الجماعات ، والهروب مخافة الحرب والدمار ، أو البحـث عن فرص اقتصادية معينة ، أو حتى الإستجابة لضغوط بيئية [٢] .

٢ - إنه ليس من الضرورة أن يشترك أفراد جماعة ما فى كــل مقومــات العرقية من فيزيقية وثقافية حتى تعتبر هذه الجماعة جماعــة عرقيــة ، وإنما يكفى أن يرتبط أفراد الجماعة من خلال أى من هــذه المقومــات حال وحدة السلالة أو اللغة أو الدين ، على أن يكونوا متباينين - بصــدد هذا المقــوم - مع غيرهم من أفــراد الجماعــات الأخــرى المشــكلة لمجتمعهم [٣] .

٣ - إن أثر تباين الجماعات العرقية فى أى من مقومــات ذاتيتــها علــى العلاقات فيما بينها يتوقف على مدى إدراك أفراد هذه الجماعات لذلــك التباين ، وانعكاس ذلك على أنماط سلوكهم إزاء الجماعات الأخرى التى تشاركهم ذات المجتمع . ذلك بأن الإختلاف الموضوعى بين الجماعـات

---

(١) Cohn, Abner, Op. Cit., p. IX.

(٢) انظر فى هذا الصدد : فاروق مصطفى اسماعيل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦ .

(٣) انظر فى هذا المضمون : المرجع السابق ، ص ٦١ .

فى أى من المتغيرات العرقية قد يكون كبيرا ، ومع ذلك فإن أفراد هــذه الجماعات قد لايضفون على هذا الإختلاف أهمية تذكـــر ، ولايرتبــون عليه آثارا ذات بال . غير أنه فى أحيان أخرى قد يكون التمايز العرقى بين الجماعات طفيفا ومع ذلك فإن أفراد هذه الجماعات يضفون عليـــه أهمية قصوى ، بما يهيئ لخلق مشاعر عدائية وسلوك صراعى متبــادل بين تلك الجماعات . كما تجدر الإشارة إلى أن أحد المتغيرات العرقيـــة كالتباين فى السلالة أو اللغة قد تكون له آثاره البالغة على العلاقات بيـن الجماعات المتباينة بصدده فى مرحلة تاريخية معينة ، غـــير أن هــذه الآثار قد تتضاءل تماما فى ظل مرحلة تاريخية أخرى [١] .

---

(١) انظر فى هذا المضمون : سعد الدين ابراهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤ .

المبحث الثالث

فى

التعريف بمفهوم الأقلية Minority

تتعين الإشارة – بداية – إلى أنه على الرغم من أن ظهور جماعات الأقلية فى المجتمعات الإنسانية أمر قديم العهد ، وأن هذه الجماعات توجد فى كثير من بلدان العالم المعاصر ، إلا أن ثمة خلافا بشأنها بين الباحثين لابصدد تعريفها فحسب وإنما كذلك فيما يتصل بتسميتها ، إذ أن ثمة فريقا من الباحثين يطلق عليها – كما أسلفنا – الاشارة عبارة الأقليات القومية National Minorities (١) ، فى حين راح فريق آخر يكتفى بلفظة الأقليات Minorities بصدد التعبير عن هذه الجماعات (٢) ، ذلك فضلا عن أن غير واحد من الباحثين ينحو إلى استخدام عبارة الأقليات العرقية Ethnic Minorities كى يشير إلى تلك الجماعات .

والحق أننا نميل إلى الأخذ بما يقول به الفريق الثانى ، ذلك بأن لفظة القومية – التى يستخدمها الفريق الأول – إنما تستخدم – من جانب أغلب المشتغلين بالدراسات الإجتماعية – مقترنة إما بمفهوم الأمة ، وإما بمفهوم الدولة القومية Nation – State ، علىنحو يجعل فى استخدام هذه اللفظة مايستدعى إلى الذهن أيا من هذين المفهومين أو كليهما ، فى حين أن الأقلية

---

(١) انظر فى هذا الصدد على سبيل المثال :

- Janowsky. Oscar I., Nationalities and National Minorities. Macmillan. New York. 1945.

- Encyclopaedia of the social sciences. V. 9, Op. Cit. P. 518.

– وأيضا : إسماعيل صبرى مقلد ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٦ .

(٢) انظر فى ذلك : على صادق أبوهيف ، القانون الدولى العام ، الطبعة السابعة ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٦٥ ، من ص ٣١٠ إلى ص ٣١٢ .

- Whitaker. Ben. Minorities: a question of human rights?, pergamon press. Oxford, 1984.

هى مجرد جماعة من بين أكثر من جماعة متمايزة – من حيث السـلالة أو الأصل أو الدين – تشكل فيما بينها الكيان البشـرى لمجتمع واحد . وتأسيسا على أن الأقلية – أيا كانت مقوماتها – هى بالضرورة جماعة عرقية ، فـإن إضافة لفظة عرقية إلى لفظة أقلية على النحو الذى يقول به أنصـار الـرأى الثالث يعد تزيدا ليس له مقتضى ، إذ ليس ثمة مايدعونا لأن نطلـق علـى الأقلية عبارة الأقلية العرقية طالما أن كل الأقليات لابد وأن تكون عرقيـة . غير أنه يتعين التنويه – قبل أن نشرع فى تعريف الأقلية – إلى أنه إذا كانت كل أقلية هى حتما جماعة عرقية ، فإن كل جماعة عرقية ليست بـالضرورة أقلية وذلك على النحو الذى سيتضح من ثنايا تحليلنا اللاحق .

وإذا كان اختلاف الباحثين بصدد تسمية جماعة الأقلية قد جـاء علـى النحو المتقدم فإن الإختلاف بينهم بصدد تعريفها كان أوضح صورة وأوسـع هوة . ومهما يكن من أمر هذا الإختلاف فإننا يمكن أن نميز فى أغواره بيـن ثلاثة اتجاهات فكرية بصدد تعريف الأقلية ، فعلى حين يؤكد أنصار الإتجـاه الأول فى تعريفاتهم للأقلية على معيار العدد (أى عدد أفراد جماعة الأقليـة مقارنا بعدد باقى أفراد المجتمع) ، ينحو أنصار الفريق الثانى فى تعريفاتـهم إلى التأكيد على معيار آخر هو الوضع السياسى والإجتماعى للأقلية . أمـا الإتجاه الثالث فيذهب أنصاره إلى الجمع بين المعيارين المتقدمين فيما يتصـل بتعريف الأقلية . وفيما يلى نعرض بشئ مـن التفصيـل لكـل مـن هـذه الإتجاهات، ولبعض ماقدمه أنصارها بصدد الأقليات من تعريفات .

الإتجاه الأول : أنصار معيار العدد :

وينحو أنصار هذا الإتجاه فى تعريفهم للأقلية إلى التركيز على معيـار العدد، فاعتبار جماعة ما أقلية أم لايتحدد – لديهم – فى ضوء نسـبة الكـم البشرى لهذه الجماعة إزاء الكم البشرى لباقى المجتمع . إذن فالأقلية – عنـد أنصار هذا الإتجاه – لاتعدو أن تكون جماعة عرقية متمايزة عـن غالبيـة السكان فى مجتمعها بصدد أى من مقومات الذاتية العرقية كوحدة السـلالة أو

اللغة أو الدين أو غير ذلك من المقومات . وجملة القول فى شأن ماتقدم أن الأقلية هى الجماعة أو الجماعات العرقية ذات الكم البشرى الأقل فى مجتمعها .

ويعد هذا الإتجاه هو الإتجاه التقليدى فيما يتصل بتعريف الأقلية ، ويتمثل أنصاره فى فريق يعتد به من المشتغلين بالدراسات الإجتماعية ، فضلا عن لفيف لايستهان به من فقهاء القانون الدولى . ولعل من أظهر التعريفات التى قدمها أنصار هذا الإتجاه للأقلية مايلى :

١ - الأقلية هى : " مجموعة من السكان لهم عادة جنسية الدولة غير أنهم يعيشون بذاتيتهم ويختلفون عن غالبية المواطنين فى الجنس واللغة والعقيدة والثقافة والتاريخ والعادات " (١) . وإذن فمفاد هذا التعريف أن الأقلية هى جماعة عرقية متمايزة عن غالبية سكان مجتمعها بصدد شتى مقومات الذاتية العرقية. ومن هنا فإننا لانتفق مع القائل بهذا التعريف بصدده ، ذلك بأن الأقلية - شأنها فى ذلك شأن أية جماعة عرقية - لايشترط فيها بالضرورة أن تختلف عن باقى سكان مجتمعها فى شتى مقومات الذاتية العرقية ، إذ يكفى لاعتبار جماعة ما أقلية أو جماعة عرقية أن تتمايز هذه الجماعة عن غيرها من سكان مجتمعها بصدد أى من هذه المقومات أو بعضها ، على أن يكون أفراد تلك الجماعة مدركين لذلك التمايز على نحو يكون له أثره الواضح على مواقفهم وسلوكهم إزاء الجماعات الأخرى التى تشارك جماعتهم ذات المجتمع .

٢ - ينصرف اصطلاح الأقلية على وجه العموم إلى أية طائفة من البشر المنتمين إلى جنسية دولة بعينها متى تميزوا عن أغلبية المواطنين المكونين لعنصر السكان فى الدولة المعنية من حيث العنصر أو الدين

---

(١) أحمد سويلم العمرى ، أصول العلاقات السياسية الدولية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٢١ .

أو اللغة " [١] . ويكاد هذا التعريف يتطابق – من حيث مضمونه – مع عديد من تعريفات أخرى ، من ذلك أن ثمة من يعرف الأقلية بأنها : " جماعة من بين رعايا الدولة تنتمي بجنسها أو بلغتها أو بدينها إلى غير ماينتمي إليه غالبية الرعايا " [٢] . وفي ذات المضمون يعرف أحد المشتغلين بالدراسات القانونية الأقلية بقوله :

"الأقلية هي مجموعة من الأفراد داخل الدولة تختلف عن الأغلبية من حيث الجنس أو العقيدة أو اللغة ، فاعتبارشخص ما من الأقلية مسألة واقع يرجع فيها إلى العناصر الموضوعية " [٣] . وفضلا عما تقدم فإن ثمة من يعرف الأقلية بأنها : " ذلك الجزء من سكان الدولة الذى ينتسب أفراده إلى أصل قومي يختلف عن الأصل القومي الذى ينحدر منه غالبية هؤلاء السكان " [٤] .

وهكذا يتضح في ثنايا ماتقدم تركيز أصحاب التعريفات الأربعة السابقة على معيار العدد ، إذ يستفاد من هذه التعريفات قاطبة أن الأقلية لاتعدو أن تكون الجماعة أو الجماعات العرقية ذات الكم البشري الأقل في مجتمعها . غير أنه مما يؤخذ على هذه التعريفات أن أصحابها – وإن التقوا على تضمينها سردا لمقومات الذاتية العرقية – إلا أن أحدا منهم لم يشر في تعريفه إلى عنصر هام يتمثل في إدراك أفراد الأقليات

---

(١) محمد سامي عبدالحميد ، أصول القانون الدولي العام ، الجزء الأول ، الجماعة الدولية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، بدون تاريخ ، ص ١١٥ .

(٢) انظر بصدد هذا التعريف : محمد حافظ غانم ، مبادئ القانون الدولي العام ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٢ ، ص ٥٢٣ ، وكذا :
- أحمد عطية الله ، القاموس السياسي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٠ ، ص ١١٩ .

(٣) الشافعي محمد بشير ، القانون الدولي العام في السلم والحرب ، مكتبة الجلاء الحديثة، المنصورة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٦ ، ص ١٠٨ .

(٤) إسماعيل صبري مقلد ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٦ .

أو الجماعات العرقية لهذه المقومات ولتباينهم بصددها عما عداهم من أفراد المجتمع ، ذلك الإدراك الذى يهيئ لظهور مفهوم " نحن " ليعبر به أفراد الجماعة عن أنفسهم ، ومفهوم " هم " كى يشير أفراد الجماعة إلى أولئك الذين ينتسبون إلى الجماعات الأخرى التى تشاركهم مجتمعهم .

٣ - الأقلية هى جماعة يرتبط أفرادها فيما بينهم من خلال روابط معينة حال وحدة الأصل أو اللغة أو العقيدة الدينية ، كما يشعر هؤلاء الأفراد بأنهم مختلفون بصدد هذه الروابط عن أغلبية سكان دولتهم (١) .

ويقترب من هذا التعريف – من حيث فحواه – تعريف آخر قدمه أحد الباحثين المهتمين بالظاهرة العرقية ، وقوام هذا التعريف : أن الأقلية " هى أية مجموعة بشرية تختلف عن الأغلبية فى مجتمعها بصدد واحد أو أكثر من المتغيرات التالية : الدين أو اللغة أو الثقافة أو السلالة ، وذلك على

اعتبار أن أيا من هذه المقومات يضفى على هذه المجموعة البشرية قسمات اجتماعية اقتصادية حضارية تلون سلوكها ومواقفها السياسية فى مسائل مجتمعية رئيسية " (٢) . وفى موضع آخر يعرف ذات الباحث الأقلية بأنها : " أى كيان بشرى يشعر أفراده بوحدة الإنتماء لاشتراكهم الجماعى فى امتلاك خاصية أو خصائص نوعية لاتشترك معهم فيها الجماعات الأخرى أو الأغلبية فى المجتمع " (٣) .

---

(١) Encyclopaedia Britannica, Volume 15, William Benton Publisher, London, p.452.

(٢) سعدالدين ابراهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٣) قدم هذا التعريف أيضا الدكتور سعدالدين ابراهيم أنظر بصدده : السيد محمد جبر ، المركز الدولى للأقليات فى القانون الدولى العام مع المقارنة بالشريعة الإسلامية ، منشأة المعارف، الإسكندرية ، ١٩٩٠ ، ص ٩٠ .

وفى ضوء ماتقدم يتضح استناد القائلين بهذه التعريفات الثلاثة – أيضا – إلى معيار العدد بمضمونه المتقدم ، ذلك فضلا عن تأكيدهم على عنصر إدراك أفراد جماعة الأقلية لمقومات ذاتيتهم العرقية ، فالأقلية – على حد قول أحد الباحثين – يجب أن تكون واعية تماما بتلك المقومات التى تحقق لها التضامن الداخلى والتمايز فى مواجهة الآخرين ، ذلك بأن الأقلية هى نتاج عمليتين تتمثل أولاهما فى استقطاب كل من يشارك أفراد جماعة الأقلية فى مقومات ذاتيتها ، أما العملية الثانية فتتمثل فى استبعاد كل من يتباين مع تلك الجماعة بصدد هذه المقومات (١) .

وجملة القول فى شأن هذا الإتجاه أن أنصاره ينحون – بصدد تعريفهم للأقلية – إلى التأكيد على معيار العدد ، والذى مفاده أن الأقلية هى الجماعة (أو الجماعات) العرقية ذات الكم البشرى الأقل فى مجتمعها . ويؤخذ على هذا الإتجاه عدم اشارة أنصاره إلى الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للأقليات .

الإتجاه الثانى : الأقلية هى كل جماعة عرقية مستضعفة :

وينحو أنصار هذا الإتجاه – فى تعريفاتهم لجماعة الأقلية – إلى التركيز على معيار الوضع السياسى والإجتماعى والإقتصادى لهذه الجماعة ، إذ تعد أقلية – لديهم – كل جماعة عرقية مستضعفة (أو مقهورة) من الناحية السياسية ، ومفتأت على حقوقها من الناحيتين الإجتماعية والإقتصادية ، وذلك بغض النظر عن عدد أفراد هذه الجماعة ، حتى ولو كانوا يمثلون أغلبية عددية إزاء ماعداهم من أفراد مجتمعهم .

وينتسب إلى هذا الإتجاه بصدد تعريف الأقلية فريق لايستهان به من المشتغلين بالدراسات الإجتماعية ، فضلا عن العديد من فقهاء القانون ،

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : نيفين مسعد ، مرجع سبق ذكره ، ص (د) .

وتتلخص وجهة نظر هذا الفريق فى أنه : (ليست كل أقلية عددية هى بالضرورة مقهورة ، كما أنه ليست كل أغلبية هى بالضرورة قاهرة ، فالأوربيون فى معظم أقطار آسيا وأفريقيا – إبان الحقبة الإستعمارية – كانوا يمثلون أقلية عددية ، بيد أنهم كانوا يسيطرون على مقاليد الأمور فى تلك الأقطار ، ويقهرون سكانها الأصليين الذين كانوا يمثلون أغلبية فائقة من حيث العدد ، ولعل من أظهر الأمثلة على ذلك الشكل الإستعمارى الذى كان قائما فى كل من الجزائر ، وزيمبابوى (روديسيا) ، وكذا جنوب افريقيا (إلى عهد قريب) ، وقد كان قوام ذلك الشكل الإستعمارى تسلط أقلية وافدة أصلا من الخارج استوطنت الأرض بالقوة ، أو فى حماية جيش احتلال ، تمارس سياسة القهر إزاء الأغلبية من السكان الأصليين) [١] وهكذا فإرتباطا بما تقدم راح أنصار هذا الإتجاه من الباحثين – كما أسلفنا الإشارة – ينبذون المعيار العددى الكمى فى تعريف جماعتى الأقلية والأغلبية ، ويستعيضون عن هذا المعيار بمعيار آخر فى هذا الصدد هو معيار الوضع السياسى والإجتماعى والإقتصادى للجماعة .

وكأمثلة على التعريفات التى قدمها أنصار هذا الإتجاه بصدد مفهوم الأقلية نقدم التعريفات التالية :

١ – الأقلية هى : (مجموعة من الأشخاص فى الدولة ليست لها السيطرة أو الهيمنة ، تتمتع بجنسية الدولة إلا أنها تختلف من حيث الجنس أو الديانة أو اللغة عن باقى الشعب ، وتصبو إلى حماية ثقافتها وتقاليدها ولغتها الخاصة) [٢] .

ويتضح من خلال هذا التعريف أن صاحبه لم يضمنه أية إشارة إلى معيار العدد بمضمونه المتقدم ، وإنما ركز بدلا من ذلك على معيار

---

(١) انظر فى هذا المضمون : سعد الدين ابراهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨ .

(٢) ينسب هذا التعريف إلى فان ديك ، وقد نقلناه عن : السيد جبر ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٦

الوضع السياسى للأقلية ، إذ يستفاد من هذا التعريف أن الأقلية هى أية جماعة عرقية تتبوأ موقعا غير مسيطر فى مجتمعها . والحق أننا نتحفظ على هذا التعريف لأسباب سنعرض لها فى موضع لاحق .

٢ - الأقلية هى : (جماعة تشترك فى واحد أو أكثر من المقومات الثقافية أو الطبيعية ، وفى عدد من المصالح التى تكرسها تنظيمات وأنماط خاصة للتفاعل ، وينشأ لدى أفرادها وعى بتمايزهم فى مواجهة الآخرين نتيجة التمييز السياسى والإجتماعى - الإقتصادى ضدهم مما يؤكد تضامنهم ويدعمه) (١) .

ويلاحظ أن هذا التعريف - شأنه فى ذلك شأن التعريف السابق عليه - لم يتضمن أية إشارة إلى عنصر العدد كمعيار لتحديد الأقلية ، كما أن القائل به قد استند - هو الآخر - إلى معيار الوضع السياسى والإجتماعى والإقتصادى بشأن تعريف الأقلية . ويظهر هذا التعريف على غيره من التعريفات المتقدمة قاطبة بإشارة صاحبه فيه إلى عامل المصلحة المشتركة كواحد من العوامل التى تهيئ لتماسك جماعة الأقلية وتضامن أفرادها .

غير أننا لانتفق مع القائل بهذا التعريف فيما ذهب اليه من أن وعى أفراد جماعة الأقلية بتمايزهم عن الآخرين إنما ينشأ كنتيجة للتمييز السياسى والإجتماعى والإقتصادى ضدهم ، ذلك بأن هذا الوعى بالتمايز - فى رأينا - إنما ينشأ لدى افراد الجماعة من خلال عملية التنشئة الإجتماعية ، تلك العملية التى تتم فى ضوء مقومات الجماعة الذاتية لاسيما الثقافية منها حال اللغة أو الدين . وإلا فلماذا يشعر أفراد الأقلية الفرنسية التى تستوطن كندا بتمايزهم العرقى برغم أنهم لايعانون من أى من صور التمييز ؟

---

(١) نيفين مسعد ، مرجع سبق ذكره ، ص (د) .

٣ - الأقلية هى : جماعة بشرية يرتبط أفرادها فيما بينهم من خلال روابط فيزيقية (بيولوجية) أو ثقافية تميزهم عن غيرهم من أفراد مجتمعهم ، ويعانى أفراد هذه الجماعة من معاملة قوامها عدم المساواة مع الآخرين ، ولذلك فهم يشعرون بأن ثمة تمييزا جماعيا يمارس فى مواجهتهم[١] .
ويقترب هذا التعريف - من حيث مضمونه - من تعريف آخر قوامه أن الأقلية هى : (جماعة من الناس تختلف عن الآخرين فى مجتمع ما من حيث العرق أو القومية أو الدين أو اللغة ، وترى هذه الجماعة نفسها كجماعة متميزة ، وعلاوة على ذلك فهذه الجماعة بعيدة عن السلطة ، ومن ثم تكون عرضة لبعض الإستبعاد والتمييز والمعاملة المختلفة)[٢].

وهكذا فإن صاحبى هذين التعريفين - أيضا - قد استندا إلى معيار الوضع السياسى والإجتماعى والإقتصادى - دون معيار العدد - بصدد تحديد جماعة الأقلية ، إذ أن مفاد كلا التعريفين أن الأقلية هى أية جماعة عرقية مستضعفة أو غير مسيطرة فى مجتمعها ، وبمفهوم المخالفة فإن أية جماعة عرقية مسيطرة أو تتمتع بالمساواة مع غيرها من سكان مجتمعها لاتعد أقلية حتى وإن كانت تمثل أقلية من حيث العدد، وهذا هو مالانوافق عليه لأسباب سنعرض لها لاحقا .

٤ - الأقلية هى : (جماعة عرقية لها هوية قومية متميزة وذاتية ثقافية واضحة تعيش داخل دولة تسيطر على مقاليد الأمور فيها جماعة قومية أخرى ، وتنظر هذه الأخيرة إلى الدولة باعتبارها تعبيرا خاصا عن

---

(١) انظر بصدد هذا التعريف :

- Wagley, Charles, Minorities in the New World, Colombia University Press, New York, 1985, p. 4.

(٢) ورد هذا التعريف فى الجزء العاشر من الموسوعة الدولية للعلوم الإجتماعية ، وقد نقلناه عن

- وائل أحمد علام ، حماية حقوق الأقليات فى القانون الدولى العام ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٨ .

هويتها) [1] . وتأكيدا على أخذه بمعيار الوضع السياسى والإجتماعى والإقتصادى – دون معيار العدد – يضيف صاحب هذا التعريف أنه : على الرغم من أن ثمة أقليات تشكل عملا الجماعات المسيطرة والأكثر ثراء فى مجتمعاتها فإن لفظة أقلية تستخدم فى عصرنا – على حد قول هذا الباحث – للدلالة على أولئك الذين هم فى وضع غير مسيطر أو دفاعى Defensive Position " [2] .

والحق أننا نأخذ على القائل بهذا التعريف – إلى جانب تجاهله لمعيار العدد كسائر أنصار هذا الإتجاه – استخدامه لعبارتى الجماعة العرقية والجماعة القومية كعبارتين مترادفتين ، ويرتكز مأخذنا هذا إلى أن ثمة اختلافا فى المدلول بين هاتين العبارتين ، إذ أن عبارة الجماعة القومية لاتعدو أن تكون مرادفا للفظة الأمة ، وكما سبق أن أوضحنا فإن هذه اللفظة تختلف من حيث المدلول عن عبارة الجماعة العرقية .

وجملة القول فى شأن هذا الإتجاه أن أنصاره ينحون إلى الأخذ بمعيار الوضع السياسى والإجتماعى والإقتصادى – دون معيار العدد – بصدد تعريفهم للأقلية ، إذ يستفاد من تعريفاتهم المتقدمة أن الأقلية – لديهم – هى أية جماعة عرقية مستضعفة أو غير مسيطرة وتعانى من التمييز أو الإضطهاد أو الإستبعاد ، بغض النظر عن عددها ، وبمفهوم المخالفة لاتعد أقلية – لدى أنصار هذا الإتجاه – أية جماعة عرقية مسيطرة أو غير مستضعفة حتى ولو كانت تمثل أقلية من حيث العدد . والحق أننا نأخذ على أنصار هذا الإتجاه المآخذ التالية :

١ – تجاهلهم لمعيار العدد بصدد تعريف الأقلية ، وهذا أمر غير مقبول نظرا لأن من شأنه تمييع الفواصل بين مفهومى الأقلية والأغلبية ، وعدم تحديد مدلوليهما تحديدا جامعا مانعا ينتفى فى ظله الخلط والتداخل بين

---

(١) Encyelopeadia of Social Sciences, Vol. 9, Op. Cit., P. 518.

(٢) Ibid. p. 518.

هذين المفهومين . فعلى سبيل المثال نجد أن الأغلبية العددية الهائلة من السود فى جنوب أفريقيا كانت – إلى عهد قريب – تمثل جماعة عرقية مستضعفة تعانى شتى صنوف التمييز والإضطهاد والإستبعاد من جانب أقلية عددية مسيطرة من البيض فى مجتمعها (١) . فهل بمقدور أحد القول بأن السود – فى ظل تلك الظروف – كانوا يمثلون أقلية فى حين أن البيض كانوا لايعتبرون كذلك ؟

٢ – إنه يستفاد من تعريفاتهم أن الأقليات هى بالضرورة جماعات عرقية غير مسيطرة فى حين أن ملاحظة الواقع تشير إلى أن ثمة جماعات – اتفق على كونها أقليات – ومع ذلك فهى جماعات مسيطرة ، وذلك حال أقليتى البيض فى كل من زيمبابوى (روديسيا) وجنوب أفريقيا ، واللتين كانتا – إلى عهد قريب – تمثلان جماعتين مسيطرتين كل فى دولته .

٣ – القول بأن الأقليات – نظرا لكونها غير مسيطرة لديهم – هى بالضرورة جماعات تعانى من التمييز أو الإضطهاد أو الإستبعاد ، وهذا قول مرفوض أيضا نظرا لأن ملاحظة الواقع تشير إلى أن ثمة أقليات غير مسيطرة إلا أنها تعامل على قدم المساواة مع غيرها من الجماعات المشكلة لمجتمعها ، وذلك حال الأقلية الفرنسية فى كندا ، والتى لاتعانى من الأية صورة من صور التمييز أو الإضطهاد أو الإستبعاد . .

وتأسيسا على كل ماتقدم فإننا لانتفق مع أنصار هذا الإتجاه فيما ذهبوا إليه ، ولاسيما تجاهلهم لمعيار العدد بصدد تعريفهم للأقلية ، الأمر الذى كان من شأنه أن فشل هؤلاء الباحثون – على النحو المتقدم – فى تقديم تعريف جامع مانع للأقلية .

---

(١) بصدد مايدعم وجهة نظرنا هذه أنظر : سامى عبدالحميد ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٥ .

الإتجاه الثالث : الأقلية هى الجماعة العرقية الأقل عددا والأدنى موقعا :

ويتمثل جل أنصار هذا الإتجاه فى المشتغلين بالدراسات القانونية . وهم يذهبون بصدد تعريفهم للأقلية إلى الجمع بين معيار العدد بمضمونه الذى أسلفنا الإشارة اليه ، ومعيار الوضع السياسى والإجتماعى والإقتصادى للجماعة بمضمونه المتقدم . إذ تتمحور تعريفاتهم حول أن الأقلية هى الجماعة العرقية ذات الكم البشرى الأقل ، والوضع السياسى والإجتماعى والإقتصادى الأدنى أو غير المسيطر فى مجتمعها .

ومن بين ماقدمه أنصار هذا الإتجاه من تعريفات للأقلية نسوق التعريفات التالية كأمثلة :

١ - الأقلية هى : (مجموعة من مواطنى الدولة تختلف عن أغلبية الرعايا من حيث الجنس أو الدين أو اللغة أو الثقافة ، وغير مسيطرة أو مهيمنة، وتشعر بالإضطهاد مستهدفة حماية القانون الدولى لها) [(١)] .

وعلى الرغم من عدم الدقة فى صياغة هذا التعريف إلا أنه يتضح من ثناياه أن صاحبه قد جمع بين معيار العدد ومعيار الوضع السياسى والإجتماعى والإقتصادى بصدد تحديد الأقلية . غير أنه يؤخذ على القائل بهذا التعريف أنه يرى أن الأقلية هى بالضرورة فى وضع غير مسيطر ، مع أن ملاحظة التاريخ – وكذا الواقع – تشير – كما أسلفنا القول – إلى أن ثمة أقليات مسيطرة حال الأقلية البيضاء فى جنوب افريقيا إلى عهد قريب ، وكذلك أقليات أخرى سنشير لها فى موضع لاحق .

من جانب آخر فإن صاحب هذا التعريف يرى أن الأقلية هى – بالضرورة أيضا – جماعة تعانى من الإضطهاد ، حيث يضيف بصدد شرح تعريفه أنه "إذا لم تكن الأقلية محلا للإضطهاد فلا تدخل مناط

---

(١) السيد جبر . مرجع سبق ذكره ، ص ٩٦ .

تعريفنا للأقليات ، وحسبنا أن نشير إلى أن أهل النوبة فى مصر على الرغم من قلة عددهم واختلاف لونهم عن بقية أفراد الشعب إلا أن عدم شعورهم وإحساسهم بأنهم محلا للإضطهاد تتداعى معه أوجه الإختلاف بينهم وبين أفراد الشعب مما يخرجهم من مصاف التعريف " [١] .

والحق أننا نرفض هذا الرأى وما استند إليه من أسانيد . ذلك بأن ملاحظة الواقع تشير إلى أن ثمة أقليات لاتعانى من الإضطهاد ، وذلك حال الأقلية الفرنسية فى كندا كما سبق أن أشرنا . وتجدر الإشارة إلى أن اعتبار الفرنسيين فى كندا أقلية وجماعة عرقية متميزة إنما يرتد إلى إدراكهم العميق لتمايزهم عن باقى الشعب الكندى من حيث الأصل واللغة ، ولإضفائهم أهمية قصوى على هذا التمايز . أما النوبيون فى مصر – فعلى الرغم من اختلافهم عن أغلبية الشعب المصرى من حيث بعض السمات الفيزيقية كلون البشرة ، إلا أن إدراكهم لهذا الإختلاف – وكذلك إدراك باقى الشعب له ، هو إدراك غير عميق ، كما أن المصريين جميعا – بمن فيهم أهل النوبة – لايضفون على هذا الإختلاف أهمية تذكر . ويرتد ذلك إلى ارتباط أهل النوبة بأغلبية الشعب المصرى من خلال وشيجة راسخة تتمثل فى الدين المشترك المتمثل فى الإسلام ، ذلك الدين الذى يؤكد على رابطة الأخوة بين جميع المسلمين أيا كان لونهم أو أصلهم ، ويجعل الأفضلية بينهم لأقواهم إيمانا ، لا لأبيضهم أو أسودهم أو أحمرهم .

٢ – فى عام ١٩٨٥ تبنت اللجنة الفرعية لمنع التمييز وحماية الأقليات [٢] تعريفا قدمه أحد أعضائها للأقلية أنها : " جماعة من المواطنين فى دولة ما يشكلون أقلية عددية ، ويكونون فى وضع غير مسيطر فى هذه

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٢) تمثل هذه اللجنة أحد أجهزة الأمم المتحدة ، وقد أنشئت فى عام ١٩٤٧ . أنظر بصدد تعريفها المشار إليه : وائل أحمد علام ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨ ، ١٩ . وأنظر كذلك : السيد جبر ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٢ .

الدولة، ولهم خصائص عرقية (١) أو دينية أو لغوية تختلف عن خصائص أغلبية السكان ، ويكون لديهم شعور بالتضامن فيما بينهم يشجعه وجود – ولو ضمنيا – إرادة جماعية فى البقاء كجماعة متميزة ، وهدفهم هو تحقيق المساواة مع الأغلبية فى الواقع وفى القانون ".

وهكذا فإن القائل بهذا التعريف قد جمع – هو الآخر – بين معيار العدد ومعيار الوضع السياسى والإجتماعى والإقتصادى بسدد تعريف الأقلية . ويتميز هذا التعريف بتأكيد صاحبه فيه على أهمية عنصر الإدراك والوعى بالتمايز عن الآخرين لدى أفراد جماعة الأقلية ، وأثر هذا العنصر فى دعم وجود الجماعة وتأكيد استمراريتها . غير أننا نأخذ على القائل بهذا التعريف ذات المأخذ الذى أخذناه على القائل بالتعريف السابق، إذ يرى هو الآخر أن الأقلية هى – بالضرورة – فى وضع غير مسيطر ، وهذا هو مارفضناه ونرفضه نظرا لوجود أقليات مسيطرة فى مجتمعاتها كما أسلفنا الإشارة وكما سنشير لاحقا .

من جانب آخر فإننا نأخذ على القائل بهذا التعريف حصره لأهداف الأقليات فى هدف المساواة ، فى حين أن الأقليات قد تكون لها أهداف أخرى عديدة أظهرها هدف الإنفصال عن الدولة وتكوين دولة مستقلة ، أو الإنضمام إلى دولة مجاورة يشترك شعبها مع أفراد الأقلية فى ذات المقومات العرقية . والأمثلة فى عالمنا المعاصر عديدة بصدد الأقليات التى تناضل فى سبيل الإنفصال عن الدولة ، ومن ذلك : الأقلية المسلمة التى تقطن إقليم كشمير بالهند ، والأقلية المسلمة المتمركزة فى جمهورية

---

(١) يتعين التنويه إلى أن استخدام لفظة عرقية هنا غير دقيق ، ذلك بأن الخصائص العرقية تتضمن الخصائص الدينية واللغوية التى ذكرها صاحب التعريف فى تعريفه ، وكان الأجدر به أن يقول : " ولهم خصائص سلالية أو دينية أو لغوية " أو أن يكتفى بـ " ولهم خصائص عرقية " . راجع المبحثين السابقين بشأن تعريف الجماعة العرقية ومقومات ذاتيتها .

الشيشان التابعة لروسيا الإتحادية ، والأقلية الزنجية فى جنوب السودان ، والأقليات الكردية فى كل من العراق وتركيا وإيران .

٣ – الأقلية هى : (جماعة غير مسيطرة من مواطنى دولة ما أقل عدديا من بقية السكان ، يرتبط أفرادها ببعضهم عن طريق روابط عرقيـــة [(١)] أو دينية أو لغوية أو ثقافية تميزهم بجلاء عن بقية السكان ، ويتضامن أفراد هذه الجماعة فيما بينهم للحفاظ على هذه الخصائص وتنميتها [(٢)] ، [(٣)] .

ويقترب هذا التعريف من حيث المضمون – إلى حد كبير – من التعريف السابق عليه ، وإن كان هذا التعريف لم يتضمن أية إشارة إلى أهـــداف الأقلية . وعلى ذلك فإن لصاحب التعريف ما لصاحب التعريف الســابق عليه ، وعليه ماعليه باستثناء المأخذ المتصل بأهداف الأقلية .

وجملة القول فى شأن هذا الإتجاه أن أنصاره قـــد جمعــوا – بصــدد تعريفهم للأقلية – بين معيار العدد ومعيار الوضع السياســـى والإجتمــاعى والإقتصادى على النحو السابق الإشارة إليه ، فمــؤدى تعريفــات هــؤلاء الباحثين أن الأقلية هى الجماعة العرقية الأقل عددا ، وغير المسيطرة سياسيا وبالتالى اجتماعيا واقتصاديا . والحق أنه يحسـب لــهؤلاء البــاحثين عــدم تجاهلهم لمعيار العدد بصدد تعريف الأقلية ، الأمر الذى ساعد – إلـــى حــد كبير – على الإقتراب من تحديد المدلول الدقيق للفظة الأقلية، وتقديم تعريـف يعتد به بصددها ، غير أننا نرى أن أحدا منه هؤلاء الباحثين لم يفلح فى تقديم تعريف جامع مانع للأقلية إذ يصر هؤلاء الباحثون علـــى أن الأقليــة هـــى بالضرورة جماعة غير مسيطرة ، كما يذهب البعض إلى أنها لابد وأن تكون محلا للإضطهاد ، وهذا هو مارفضناه ونرفضه للأسباب التى أسلفنا ذكرها ،

---

(١) نفس التنويه السابق .

(٢) أعتقد أن استخدام كلمة (تنميتها) هنا هو تزيد ليس له مقتضى ، كما أنه اســتخدام غير دقيق ، إذ كيف تنمى خصائص أو روابط فيزيقية أو دينية أو لغوية أو ثقافية ؟

(٣) وائل أحمد علام ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠ .

ذلك فضلا عما ورد فى تعريفات هؤلاء الباحثين من أخطاء فى الصياغة ، وخلط بين المفاهيم على النحو المشار إليه سلفا .

وفى النهاية فإنه لايسعنا إلا أن نقدم – من جانبنا – هذا التعريف للأقلية آملين أن يكون بمثابة خطوة نحو الوصول إلى تعريف جامع مانع فى هذا الصدد :

الأقلية هى : الجماعة أو الجماعات العرقية ذات الكم البشرى الأقل فى مجتمعها ، والتى تتمايز عن غيرها من السكان من حيث السلالة أو السمات الفيزيقية أو اللغة أو الدين أو الثقافة ، ويكون أفرادها مدركين لمقومات ذاتيتهم وتمايزهم ، ساعين على الدوام إلى الحفاظ عليها ، وغالبا ماتكون هذه الجماعة أو الجماعات فى وضع غير مسيطر فى ذلك المجتمع ، كما يعانى كثير منها – بدرجات متفاوتة – من التمييز والإضطهاد والإستبعاد فى شتى قطاعات المجتمع السياسية والإجتماعية والإقتصادية .

وتأسيسا على تعريفنا هذا للأقلية نؤكد على النقاط الآتية :

١ – أن الأقلية هى الجماعة أو الجماعات العرقية ذات الكم البشرى الأقل فى مجتمعها ، فعلى سبيل المثال نجد أن دولة كالصين تضم عديدا من جماعات عرقية سلالية أهمها : جماعة الهان (وتشكل ٩٥% من جملة عدد السكان) ، وجماعة المنغوليين ، وجماعة الأتراك ، وجماعة التاى، وجماعة التبتيين (وتشكل هذه الجماعات الأربع الأخيرة مجتمعة ٥% من عدد السكان) [١] . وفى ضوء ذلك فإن جماعة الهان تمثل جماعة الأغلبية فى الصين ، فى حين تمثل كل من الجماعات الأربع الأخرى جماعة أقلية . من جانب آخر فإن أفراد كل من هذه الجماعات الخمس يدركون مقومات ذاتيتهم ، وتمايزهم عن أفراد الجماعات الأخرى ،

(١) انظر بصدد هذا المثال : فتحى حسن عطوة ، اضطرابات التبت : أسبابها وأبعادها. مجلة السياسة الدولية ، مؤسسة الأهرام – القاهرة ، العدد (٩١) يناير ١٩٨٨ . من ص ٢٥٠ إلى ص ٢٥٢ .

ويعملون على الدوام من أجل الحفاظ على هذه المقومات ، ولنا المثال الواضح على ذلك فى النضال الدائم للتبتيين (سكان التبت) من أجل الحفاظ على مقومات ذاتيتهم كجماعة عرقية تتمايز عن الجماعات العرقية الأخرى من حيث السلالة والدين واللغة .

٢ - إن الأقليات غالبا ماتكون فى وضع غير مسيطر فى مجتمعها ، وإذن فليست كل الأقليات هى بالضرورة فى هذا الوضع (١) ، ذلك بأن ملاحظة التاريخ - وكذا الواقع - تشير إلى أن بعض المجتمعات قد عهدت الأقليات المسيطرة ، وذلك حال مجتمعات كل من روديسيا (زيمبابوى) ، وناميبيا ، وجنوب أفريقيا ، تلك المجتمعات التى كانت جماعات الأغلبية السوداء فيها - إلى عهد قريب - تئن تحت نير سيطرة أقليات بيضاء أوربية الأصل ، ذلك إلى جانب أن ثمة مجتمعات - فى وقتنا هذا - تسيطر الأقليات فيها على مقاليد الأمور ، وذلك حال بورندى وروأندا وإريتريا ، على النحو الذى سنعرض له لاحقا بشئ من التفصيل .

٣ - إن كثيرا من الأقليات يعانى من التمييز أو الإضطهاد أو الإستبعاد بدرجات متفاوتة ، وفى قطاعات المجتمع المختلفة من سياسية واجتماعية واقتصادية . ومن أمثلة الأقليات التى تعانى من هذه الأوضاع السيئة كل من :

أ - الأقلية المسلمة فى الهند والتى تشكل مايربو على ٦ر١٧% من تعداد السكان هناك ، وتتعرض هذه الأقلية لشتى مظاهر التمييز والإضطهاد من جانب الأغلبية الهندوسية والتى تشكل حوالى ٥ر٧٠% من جملة سكان الهند البالغ عددهم زهاء المليار نسمة . وتتجسد أبشع صور هذا الإضطهاد والتمييز فيما يلاقيه المسلمون البنغال من تنكيل

---

(١) انظر فى هذا المعنى :

- Encyclopaedia Britannica. Op. Cit., p. 542.

على يد الهندوس فى ولاية آسام [١] ، ذلك فضلا عن لجـوء السـلطات الهندية المستمر إلى استخدام العنف بشتى صوره فى مواجهة المسـلمين فى ولاية جامو وكشمير .

ب - أقلية الهنود الحمر فى المكسيك ، والتى تستوطن ولاية تشيباس ، وهى تجابه العديد من صور الإضطهاد والتمييز ، إذ يعانى أفرادها مـن أحوال اقتصادية واجتماعية متدهورة ، دون الحصول على أية فرصـة للتعبير عن أنفسهم ، أو حتى إبداء رأيهم ، فى دولة يتشـدق حكامـها بالديمقراطية والعدالة الإجتماعية [٢] .

ج - الأقلية البربرية المقهورة سياسيا وثقافيا من جانب الأغلبية العربيـة فى الجزائر ، والتى لايسمح لها باستخدام لغتها (وهى غير مكتوبة) إلا فى أضيق نطاق [٣] .

د - الأقلية التبتية (سكان اتبت) فى الصيـن واذيـن يعـانون مـن الإضطهاد والتميـيز فـى شـتى المجـالات الإجتماعيـة والسياسـية والإقتصادية والثقافية من جانب جماعة الهان التى تمثل جماعة الأغلبيـة فى الصين [٤] .

---

(١) انظر فى هذا المضمون : أحمد ناجى قمحة ، العنف الإسلامى الهندوسى ، مجلـة السياسة الدولية ، العدد ١١٢ ، ابريل ١٩٩٣ ، من ص ١٣٠ إلى ص ١٣٤ . وكذا:
- محمد عيسى الشرقاوى ، المشكلة الطائفية فى الهند ، مجلة السياسـة الدوليـة ، العدد ٧٣ ، يوليو ١٩٨٣ ، من ص ١٢٩ إلى ص ١٣١ .

(٢) انظر فى هذا المضمون : نرمين السعدنى ، تمرد الهنود الحمر والنظـام السياسـى المكسيكى ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١١٦ ، ابريل ١٩٩٤ ، من ص ٢٣٥ إلى ص ٢٣٨ .

(٣) أنظر فى هذا المضمون : جهاد عودة ، الجزائر والمواجهة بين الدولـة والـبربر ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٦١ ، يوليو ١٩٨٠ ، من ص ١٨١ إلى ص ١٨٣ .

(٤) فتحى حسن عطوة ، اضطرابات التبت ، مرجع سبق ذكره ، من ص ٢٥٠ إلى ص ٢٥٢ .

هـ - الأقلية المسلمة فى إثيوبيا ، والتى تقطن إقليم إريتريا ، والتى طالما عانى أبناؤها من شتى صور الإضطهاد والتمييز ، حتى تمكنوا مؤخرا - على إثر نضالهم الطويل المسلح - من الحصول على استقلالهم كدولة ، والذى تم فى ٢٤ مايو ١٩٩٣ (١) .

و - الأقلية التاميلية فى سريلانكا والتى تسكن الإقليم الشمالى والشرقى من الجزيرة (إقليم جافنا) ، حيث يمنح الدستور السريلانكى الطائفة السنهالية (الأغلبية) كافة الإمتيازات ، إذ تعتبر لغتها هى اللغة الرسمية للبلاد إلى جانب اللغة الإنجليزية ، فى حين حرم التاميل من أغلب الحقوق السياسية والعسكرية والإقتصادية والإجتماعية ، بحيث باتوا يمثلون أقلية مضطهدة من جانب السنهال . وإن كانت تجدر الإشارة إلى أن التاميل قد منحوا حق الحكم الذاتى بمقتضى اتفاق كولومبو بين الهند (التى ينتمى إليها التاميل من حيث الأصل والدين) وسريلانكا فى يوليو عام ١٩٨٧ ، وعلى الرغم من ذلك فلا يزال التاميل يشعرون بالإضطهاد والتمييز ، ولذلك فلا تزال منظمة نمور التاميل الإنفصالية مستمرة فى صراعها المسلح ، مستهدفة انفصال التاميل بإقليم جافنا عن سريلانكا (٢) .

غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أنه إذا كان كثير من الأقليات يعانى من التمييز والإضطهاد إلا أن ثمة أقليات تتمتع بالمساواة مع الأغلبية ، ذلك فضلا عن تمتع البعض منها بالحكم الذاتى . ولعل من أظهر الأمثلة فى هذا الصدد مايلى :

---

(١) انظر فى هذا الصدد : أحمد يوسف القرعى ، مصر واستقلال إريتريا ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١١٣ ، يوليو ١٩٩٣ ، من ص ١٤١ إلى ص ١٤٣ .

(٢) لتفاصيل أخرى أنظر : جمال الدين محمد على ، اتفاق كولمبو بين الهندوس وسريلانكا ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٩٠ أكتوبر ١٩٨٧ ، من ص ٢٠٨ إلى ص ٢١٢ ، وكذا :

- Ethnic Conflicts Worldwide. Current History. April 1993. p. 168.

١ -الأقلية الفرنسية فى كندا ، والتى تختلف عن باقى الشعب الكندى من حيث السلالة واللغة والمذهب الدينى ، وهى تقطن إقليم كيبيك . وتتمتع هذه الأقلية بالمساواة مع الأغلبية ولاتعانى من الإضطهاد أو التمييز ومع ذلك فإن ثمة حركات عرقية عديدة ظهرت فى كيبيك ، راح بعضها يناضل من أجل الحصول على الحكم الذاتى للإقليم ، فى حين راح البعض الآخر يطالب بانفصال كيبيك عن كندا .

٢ - أقلية الباسك فى إسبانيا أو سكان إقليم الباسك الإسبانى والذين ينتمون إلى أصول غير لاتينية ، ويتحدثون لغة خاصة بهم ، وهم يطالبون منذ قرون بأن يكونوا مع شركائهم فى الجنس واللغة على الجانب الآخر من الحدود الفرنسية (الباسك الفرنسى) دولة مستقلة ، وقد حصل الباسكيون على الحكم الذاتى مع نهاية عقد السبعينيات [١] ، وعلى الرغم من ذلك فلا تزال حركة (إيتا) الإنفصالية مستمرة فى صراعها الدامى مع الحكومة الإسبانية بغية تحقيق الإنفصال التام وإقامة دولة الباسك المنشودة .

٣ - الأقلية السلوفاكية فى تشيكوسلوفاكيا (السابقة) ، والتى كانت تشكل حوالى ٣٢% من عدد السكان ، فى حين كان التشيك يمثلون جماعة الأغلبية إذ كانوا يشكلون حوالى ٦٣% من عدد السكان ، ذلك فضلا عن وجودجماعتى أقلية أخريين هما الجماعة المجرية والجماعة الرومانية . وتجدر الإشارة إلى أن الدولة التشيكوسلوفاكية خرجت إلى

---

(١) أنظر فى هذا الصدد : Ibid., p. 1167.

- وكذا : محمد على المداح ، مشكلة الباسك بين الإستقلال والحكم الذاتى ، العدد ٥٩ مجلة السياسة الدولية - يناير ١٩٨٠ ، من ص ١٥٤ إلى ص ١٦٠ .

- وأيضا : الطاهر أحمد مكى ، الضغوط الداخلية على المسرح الإسبانى ، العدد ٣٩ ، مجلة السياسة الدولية ، يناير ١٩٧٥ ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

- ونازلى معوض احمد ، النظام الإسبانى مابعد الجنرال فرانكو ، العدد ٤٣ ، مجلة السياسة الدولية ، يناير ١٩٧٦ ، من ص ١٦٧ إلى ص ١٧٠ .

حيز الوجود فى نوفمبر عام ١٩١٩ ، وعلى إثر إنهيار الإمبراطورية النمساوية – المجرية . وقد ظلت هذه الدولة قائمة إلى أن تم اقتسام بعض أراضيها جبرا عنها بين كل من ألمانيا وبولندا والمجر ، وذلك بمقتضى إتفاق ميونيخ الشهير فى سبتمبر عام ١٩٣٨ ، ثم سرعان ما احتلت ألمانيا الهتلرية باقى أراضى تشيكوسلوفاكيا مع بداية الحرب العالمية الثانية ، غير أن الجيوش الأمريكية والسوفيتية تمكنت من تحرير الأراضى التشيكوسلوفاكية فى عام ١٩٤٥ ، وبذلك استعادت دولة تشيكوسلوفاكيا سيادتها على كامل أراضيها بما فى ذلك الأراضى التى كانت كل من المجر وبولندا قد ضمتها . وعلى إثر ذلك استولى الشيوعيون على الحكم فى تشيكوسلوفاكيا ، وأعادوا تنظيم الدولة استنادا إلى أيديولوجيتهم الماركسية . وعلى طول تاريخ تشيكوسلوفاكيا كانت الأقلية السلوفاكية تتمتع بالمساواة التامة مع الأغلبية التشيكية ، وذلك فى شتى المجالات السياسية والإجتماعية والإقتصادية . وعلى الرغم من ذلك نجد أنه بحلول عقد التسعينيات – واضمحلال الشيوعية وتهاوى نظمها فى أوربا – بدأت بعض الخلافات تدب بين نواب التشيك ونواب السلوفاك داخل البرلمان الإتحادى ، وقد تمحورت هذه الخلافات حول الأسس التى يتعين أن يستند إليها الإصلاح السياسى والإقتصادى فى تشيكوسلوفاكيا ، وسرعان مابدأت المطالبات بالإنفصال تتصاعد داخل سلوفاكيا . وفى ١٧ يوليو ١٩٩٢ أعلن المجلس القومى السلوفاكى (البرلمان) سيادة سلوفاكيا على أراضيها ، وفى أول سبتمبر من نفس العام أقر المجلس الدستور الجديد لجمهورية سلوفاكيا . وفى أول يناير ١٩٩٣ تم الإنفصال الفعلى والتام بين التشيك والسلوفاك ، حيث قامت على أنقاض تشيكوسلوفاكيا دولتان جديدتان هما جمهورية التشيك ، وجمهورية سلوفاكيا [١] .

---

(١) لمزيد من التفاصيل فى هذا الصدد انظر :

وهكذا فإن ملاحظة واقع كل من الأقلية الفرنسية فى كندا ، والأقليـــة الباسكية فى إسبانيا ، والأقلية السلوفاكية فى تشيكوسلوفاكيا (السابقة) تشـير إلى :

أنه على الرغم من تمتع كل من هذه الأقليات (أو الجماعات العرقية) بالمساواة مع الأغلبية ، إلا أن ذلك لم يـــؤد إلـــى وأد الحركـــات العرقيـــة الإنفصالية داخلها ، إذ ظل أفراد هذه الجماعـــات علـــى إدراكـــهم العميـــق لمقومات ذاتيتهم وتمايزهم العرقى إزاء أفراد الجماعات الأخرى ، على نحـو جعل الإنفصال – لديهم – يمثل هدفا لايمكنهم المساومة بشأنه .

- أمانى محمود فهمى ، تشيكوسلوفاكيا وأزمة البحث عن الهوية ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١١١ يناير ١٩٩٣ ، من ص ١٣٤ إلى ص ١٣٩ . وكذا :

- Svec, Milan, Czechoslovakia's Velvet Divorce, Current History, November, 19921, p.p. 376-380.

المبحث الرابع

في

تصنيف الجماعات العرقية

تجدر الاشارة – بداية – إلى أن ثمة اتجاهات عديدة متباينة بصدد تصنيف الجماعات العرقية [1] ، ويرتد هذا إلى اختلاف الأسس التى يرتكز عليها الباحثون فى التصنيف . وعلى أية حال فإننا نرى أن أظهر الاتجاهات فى هذا الصدد تتمثل فى اتجاهين وهما :

الاتجاه الأول : ويستند أنصاره في تصنيفهم للجماعات العرقية إلى المقومات الذاتية للجماعة كوحدة السلالة أو اللغة أو الدين .

الاتجاه الثانى : ويصنف أنصاره الجماعات العرقية استنادا إلى مواقعها السياسية والإجتماعية والإقتصادية فى مجتمعاتها .

وفيما يلى نعرض لكلا الاتجاهين بشئ من التفصيل :

الاتجاه الأول : تصنيف الجماعات العرقية حسب مقومات ذاتيتها :

وارتباطا بمعيار مقومات ذاتية الجماعة تصنف الجماعات العرقية إلى جماعات سلالية ، وجماعات لغوية ، وجماعات دينية ، وذلك على النحو التالى :

١ - **الجماعة السلالية :** وهى جماعة عرقية يرتبط أفرادها فيما بينهم من خلال رابطة الأصل المشترك (أو وحدة السمات الفيزيقية كلون البشرة) ، وذلك على اعتبار أن هذه الرابطة هى المقوم الأصيل لذاتيتهم ، ولتمايز جماعتهم إزاء غيرها من الجماعات التى يتشكل منها مجتمعهم .

---

(١) أنظر فى ذلك بتفصيل طويل : سعدالدين ابراهيم ، مرجع سبق ذكره ، من ص ٤٠ إلى ص ٥٢ .

وتنتشر الجماعات السلالية فى عديد من مجتمعات العالم المعاصر ، فعلى سبيل المثال نجد أن المجتمع الأفغانى يتكون من ثمان جماعات عرقيةسلالية هى جماعة البشتون (وتمثل جماعة الأغلبية) ، وجماعة الطاجيك (وتمثل كبرى الأقليات وينحدر أفرادها من أصول إيرانية) ، والأوزبك (وهم يمثلون إحدى جماعات الأقلية وترتد أصولهم إلى الأوزبك فى آسيا الوسطى والقوقاز) والهزارة (وهى أيضا جماعة أقلية من أصل تترى مغولى) ، وذلك فضلا عن أربع جماعات أقلية صغيرة هى النورستانى ، والبلوتشى ، والقرجيز ، والتركمان [1] .

وفى إطار المجتمع الأمريكى ثمة عديد من جماعات سلالية تتباين فيما بينها من حيث السلالة والسمات الفيزيقية ، ويتمثل أظهر هذه الجماعات فى جماعة البيض (وهى جماعة الأغلبية والتى ينحدر أغلب أفرادها من أصول أوربية) ، وجماعة الزنوج (وهى أقلية يعتد بها وينحدر أفرادها من أصول أفريقية وهم من ذوى البشرة السوداء) ، وعلى الرغم من اشتراك البيض والزنوج فى ذات اللغة والثقافة والدين إلا أن تباين الفريقين من حيث السمات الفيزيقية يجعل منهما جماعتين عرقيتين متمايزتين [2] ، وعلى نحو ماسبق أن ذكرنا فإن هذا التباين لاتزال له آثاره على الأوضاع السياسية والإجتماعية والإقتصادية لكل من الجماعتين ، وكذا على أنماط العلاقات بينهما ، لاسيما فى ولايات الجنوب .

٢ - **الجماعة اللغوية** : وهى كل جماعة عرقية يشترك أفرادها فى التحدث بلغة واحدة ، ويتمايزون من خلالها عن أفراد الجماعات العرقية الأخرى فى مجتمعهم .

---

(١) انظر فى هذا المضمون : معتز محمد سلامة ، الأزمة ومستقبل الدولة فى أفغانستان، العدد ١١١ ، مجلة السياسة الدولية ، يناير ١٩٩٣ ، ص ١٥٦ .

(٢) انظر فى هذا المضمون : كينيث ليتل ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ . وكذا :

- Encyclopaedia of the Social Sciences, V. 5, Op. Cit., p. 607.

وكما سبق أن أشرنا فإن التباين اللغوى بين الجماعات لابد وأن يتمخض عن تباين ثقافى فيما بينها ، ولعل من أظهر الأمثلة على المجتمعات ذات التعددية اللغوية الثقافية فى عالمنا المعاصر كل من كندا ، وإسبانيا ، وسريلانكا ، والهند ، والعراق ، وتركيا ، وإيران ، والسودان ، والجزائر وغيرها .

ففى كندا مثلا نميز بين الجماعة التى تتحدث اللغة الفرنسية (فى اقليم كيبيك) ، والأغلبية التى تتحدث اللغة الإنجليزية (فى باقى الأقاليم) .وفى إسبانيا هناك على سبيل المثال جماعة الباسك التى تتحدث لغة غير الإسبانية التى هى لغة الأغلبية ، وفى سريلانكا نميز بين الجماعة التى تتحدث لغة التاميل فى جافنا ، والجماعة التى تتحدث لغة السنهال فى باقى الأقاليم . وفى الجزائر نميز بين جماعة العرب (التى تتحدث العربية وهى تمثل الأغلبية)، وجماعة البربر (التى تتحدث اللغة الأمازيغية غير المكتوبة وهى تمثل الأقلية) ... وهكذا .

٣ - **الجماعة الدينية** : وهى كل جماعة عرقية يمثل الدين المقوم الرئيسى لذاتيتها وتمايزها عن غيرها من الجماعات العرقية التى تشاركها ذات المجتمع .

ويوجد فى عالمنا المعاصر الكثير من المجتمعات متعددة الديانات (أو المذهب الدينى) ، ومن هذه المجتمعات على سبيل المثال نذكر كلا من لبنان، ومصر ، والسودان ، ونيجيريا ، والهند ، وسريلانكا ، وبورما ، والفلبين ، والصين ، والمملكة المتحدة وغيرها . ففى لبنان مثلا نجد أن ثمة جماعات دينية عديدة أظهرها : جماعة المسلمين السنة ، وجماعة المسلمين الشيعة ، وجماعة الدروز ، وجماعة المارون المسيحية ، وجماعة الروم الأرثوذكس ، وغيرها [١] . وفى نيجيريا نميز بين جماعة المسلمين فى

---

(١) أنظر بصدد الطائفية فى لبنان : عبدالعزيز سليمان نوار ، الحرب الأهلية وأبعادها الطائفية ، العدد ٤٣ ، مجلة السياسة الدولية ، يناير ١٩٧٦ ، من ص ٨ إلى ص ١٣

الشمال ، وجماعة المسيحيين فى الجنوب . وفى الفلبين توجد جماعة أقلية مسلمة فى الجنوب الى جانب جماعة الأغلبية المسيحية ... وهكذا

وجملة القول فى شأن هذا التصنيف للجماعات العرقية أنه يرتكز إلى مقومات الذاتية العرقية للجماعة حال وحدة الأصل أو اللغة أو الدين . غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أن أغلب الجماعات العرقية لاتقتصر الرابطة بين أفرادها على مقوم واحد ، فالتاميل مثلا فى شمال سريلانكا يتمايزون عن السنهال (الأغلبية) من حيث الأصل واللغة والدين ، والفرنسيون فى كندا يختلفون عن الأغلبية من حيث الأصل واللغة والمذهب الدينى ... وهكذا .

الإتجاه الثانى : تصنيف الجماعات العرقية حسب مواقعها السياسية والإجتماعية والإقتصادية :

وقوام هذا الإتجاه تصنيف الجماعات العرقية إلى صنفين هما :

(١) الجماعات المسيطرة .

(٢) الجماعات غير المسيطرة .

والجماعة العرقية المسيطرة هى تلك الجماعة العرقية التى تهيمن على مقاليد السلطة فى مجتمعها ، والتى يتبوأ أفرادها أرقى المواقع الإجتماعية ، كما يشكلون الفئة الأكثر ثراء فى ذلك المجتمع الذى يعد بمثابة تعبير عن هويتهم . وبمفهوم المخالفة لما تقدم فإن الجماعة العرقية غير المسيطرة هى الجماعة أو الجماعات التى تكون بمنأى عن السلطة ، والتى يحتل أغلب أفرادها مواقع اجتماعية غير رئيسية ، كما يشكل أغلبهم الفئة الأقل ثراء فى مجتمعهم الذى تهيمن على مقاليد الأمور فيه جماعة مغايرة تعتبره بمثابة تجسيد لهويتها .

وعلى النحو المشار اليه سلفا فإن كثيرا من الجماعات العرقية غير المسيطرة يعانى من الإضطهاد أو التمييز أو الإستبعاد من جانب الجماعات

المسيطرة ، غير أن ثمة جماعات عرقية غير مسيطرة تتمتع بالمساواة مع الجماعات المسيطرة فى مجتمعها ، ذلك فضلا عن وجود جماعات غير مسيطرة تتمتع بالحكم الذاتى .

والحق أن تصنيف الجماعات العرقية إلى جماعات مسيطرة وجماعات غير مسيطرة يكاد يتطابق مع تصنيفها إلى جماعات أغلبية وجماعات أقلية ، ذلك بأن الجماعات المسيطرة غالبا ماتكون جماعات أغلبية فى مجتمعاتها ، فى حين أن أغلب الأقليات تشكل جماعات غير مسيطرة . ومع ذلك فالأقليات ليست بالضرورة جماعات غير مسيطرة ، ذلك بأن ملاحظة الواقع – وكذا التاريخ – تشير إلى أن ثمة أقليات تمتعت بوضع مسيطر فى مجتمعاتها . فعلى سبيل المثال نجد أنه على إثر إنقسام امبراطورية الهابسبرج Habsburg empire عام ١٨٧٦ إلى قسمين : غربى (نمساوى) ، وشرقى (مجرى) ، وعلى الرغم من أن المجريين كانوا يشكلون أقلية فى القسم الشرقى إلا أنهم كانوا يتبوأون موقع الأغلبية المسيطرة ، كما كانت لغتهم هى اللغة الرسمية الوحيدة فى شتى أقاليم القطاع الشرقى ماعدا الإقليم الكرواتى السلوفينى الذى كان يتمتع بدرجة ما من درجات الحكم الذاتى [١] . كذلك ففى ناميبيا نجد أن الأقلية البيضاء البالغ عددها مائة ألف فرد طالما تمتعت بوضع الجماعة المسيطرة على حساب الأغلبية السوداء والبالغ عددها مليونا وأربعمائة ألف فرد ، تلك الأغلبية التى عانت لسنوات طويلة من شتى صنوف الإضطهاد والتمييز فى ظل احتلال جنوب أفريقيا لناميبيا . وقد ظلت هذه الأوضاع قائمة حتى أواخر عام ١٩٨٨ ، عندما حصلت ناميبيا على استقلالها بمقتضى اتفاقية نيويورك التى أبرمت فى ديسمبر من ذلك العلم [٢] . من جانب آخر نجد أنه فى روديسيا (زيمبابوى) كانت الأقلية الأوربية

---

(١) راجع بصدد هذا المثال :

- Encyclopaedia Britannica, Op. Cit., V. 15, p. 544.

(٢) فتحى عبدالفتاح ، ناميبيا : نهاية كابوس وبداية وطن ، مجلة المنار ، دار المنار – القاهرة ، العدد ٦٠ ، ديسمبر ١٩٨٩ ، من ص ٤٠ إلى ص ٤٥ .

البيضاء تستأثر بالسيطرة السياسية والإقتصادية والإدارية ، وهــو الوضــع الذى سعت دوما إلى الحفاظ عليه من خلال قمع الأغلبية الساحقة من السكان الأصليين [١] . غير أنه مع تصاعد الكفاح المسلح من جانب الأغلبية السوداء خلال السنوات الأخيرة من عقد السبعينيات تمكنــت روديســيا مــن نيــل استقلالها، وذلك بمقتضى اتفاقية لندن التى أبرمت فى ديسمبر ١٩٧٩، والتى أجريت على إثرها أول انتخابات تشريعية فى روديسيا (أو زيمبـــابوى) ، حيث فاز فيها حزب الإتحاد الوطنى الأفريقى لزيمبابوى (زانو) بزعامـــة روبرت موجابى أحد زعيمى حركة التحرير ، ومن هنا فقد كلف موجـــابى بتشكيل الوزارة ، ولكى تنتهى بذلك سيطرة الأقلية الأوربيـــة علـــى مقـــاليد الأمور فى زيمبابوى [٢] . وأيضا فإنه لايفوتنا فى هذا الصدد أن نشير إلـــى الوضع المسيطر الذى احتلته الأقلية البيضاء فى جنوب افريقيا ، وذلك علـــى حساب الأغلبية السوداء من سكان البلاد الأصليين والتى كانت - إلى عـــهد قريب - تعانى شتى صنوف التمييز والإضطهاد والإستبعاد من جانب تلـــك الأقلية . وبحلول السنوات الأولى من عقد التسعينيات وتحت وطـــأة الكفـــاح المتصاعد من جانب السود والضغوط الدولية المناهضة للعنصرية رضخـــت الأقلية البيضاء وراحت تتخلى إلى حد كبير عن وضعها المسيطر لحســـاب الأغلبية السوداء . وعلى إثر أول انتخابات غير عنصرية أجريت فى جنوب افريقيا تمكن الزعيم الأفريقى الأسود ذو التاريخ النضالى الحـــافل نيلســـون مانديلا من الوصول إلى سدة الحكم ، ولكى يصبح أول رئيس أسود لجنـــوب أفريقيـــا .

---

(١) انظر فى هذا الصدد : محمود عبدالمنعم مرتضى ، قضية التمييز العنصـــرى فـــى روديسيا، العدد ٥ مجلة السياسة الدولية ، يوليو ١٩٦٦ ، من ص ٤٨ الى ص ٦٧ .

(٢) فى هذا المضمون : أنظر محمد عيسى الشرقاوى ، استقلال زيمبـــابوى ومســـتقبل الجنوب الأفريقى ، العدد ٦٠ ، مجلة السياسة الدولية ، ابريـــل ١٩٨٠ ، مـــن ص ١٤٩ إلى ص ١٥٣.

وفضلا عن كل ماتقدم فإن عالمنا المعاصر لايخلو من أقليات مسيطرة في مجتمعاتها ، وذلك حال جماعة التوتسي في بوروندي ، حيث تمثل هذه الجماعة أقلية تشكل نحو ١٤% من عدد السكان ، وعلى الرغم من ذلك فهي تستأثر بالحكم وتتبوأ أرقى المواقع الإجتماعية والعلمية على حساب جماعة الأغلبية من الهوتو التي تشكل حوالي ٨٥% من عدد السكان والتي تعاني من الإضطهاد في بوروندي(١) .

كذلك فقد تمكنت أقلية التوتسي من السيطرة على مقاليد الأمور في رواندا في عام ١٩٩٤ ، إذ تمكن الجيش الشعبي لرواندا التابع للتوتسي من الإطاحة بالحكومة الرواندية والتي كانت أغلبيتها من الهوتو ، وقد أسفرت الصراعات المسلحة من التوتسي والهوتو في رواندا عن مصرع مايربو على المليون شخص أغلبهم من الهوتو ، إنها المذبحة التي عرفت – وبحق – بمذبحة القرن .

أيضا هناك الأقلية المسيحية المسيطرة في إريتريا منذ استقلالها عام ١٩٩٣ والتي يتزعمها المسيحي أسياسي أفورقي .

وهكذا نخلص من خلال ماتقدم إلى أن الأقليات ليست بالضرورة جماعات غير مسيطرة ، ذلك بأن ثمة أقليات تتمتع بوضع مسيطر ، ومع ذلك فإنه ليس بمقدورنا إلا أن نقول أن أغلب الأقليات عادة تكون في وضع غير مسيطر في مجتمعاتها ، وذلك كما هي الحال في كل من السودان ، والعراق ، وإيران ، وتركيا ، وكندا ، والصين ، والهند ، والفلبين ، وبورما، وسريلانكا ، وإسبانيا ... وغيرها .

---

(١) انظر في هذا المضمون : طارق حسني ابو سنة ، بوروندي والإنقلاب العسكري الثالث ، العدد ٩١ ، مجلة السياسة الدولية ، يناير ١٩٨٨ ، ص ٢٢١ .

المبحث الخامس

فى

التعريف بمفهوم الحركة العرقية

تتسم أية جماعة عرقية – كما أسلفنا القول – بارتباط أفرادها فيما بينهم من خلال روابط فيزيقية أو ثقافية ، ويتمايزون بصددها عن أفراد الجماعات العرقية الأخرى التى تشارك جماعتهم ذات المجتمع ، ومن جانب آخر فإن عدم المساواة بين الجماعات العرقية المشكلة للمجتمع غالبا مايمثل إحدى السمات البارزة فى المجتمعات متعددة العرقيات ، إذ بينما تكون ثمة جماعات عرقية فى وضع مسيطر تعتلى سدة الحكم ويتبوأ أفرادها قمة الهرم الإجتماعى والإقتصادى فى المجتمع فإن جماعات عرقية أخرى تكون فى وضع غير مسيطر ، بمنأى عن السلطة ، ويقبع أغلب أفرادها فى مواقع اجتماعية غير مرموقة ، كما يشكلون الفئة الأقل ثراء فى مجتمعهم ، ذلك فضلا عن أن كثيرا من الجماعات العرقية غير المسيطرة (لاسيما الأقليات منها) يعانى من الإضطهاد أو التمييز أو الإستبعاد من جانب الجماعات المسيطرة فى مجتمعه . ومن هنا تتولد مشاعر الإستياء والسخط لدى أفراد تلك الجماعات من جراء أوضاعهم المتدنية من جهة ، ومن جهة أخرى كنتيجة لوجودهم فى مجتمع يضم جماعات عرقية مغايرة لاتربطهم بها أية رابطة موضوعية (كوحدة الأصل أو اللغة أو الدين) أو روحية (حال الرغبة فى الحياة المشتركة) . وكإفراز لواقعها هذا تنشأ داخل الجماعات غير المسيطرة (والتى هى غالبا أقليات) حركات سياسية اجتماعية ترمى إلى : إما تخليص الجماعات من نير اللامساواة والإضطهاد ، وإما الانفصال بها عن مجتمع لايعبر عن هويتها العرقية . إنها مايعرف بالحركات العرقية Ethnic Movements .

وفى ضوء ماتقدم يمكن تعريف الحركة العرقية بأنها : " حركة سياسية اجتماعية منظمة تنشأ فى إطار جماعة عرقية غير مسيطرة (غالبا ماتكون

أقلية)، ويكون لهذه الحركة برنامج عمل ينطوى على ماتصبو إليه من أهداف وما تتوسل به من وسائل بغية بلوغ هذه الأهداف التى قد تتمثل فى إعمال مبدأ المساواة بصدد علاقة الجماعة بالجماعات الأخرى لاسيما المسيطرة منها ، كما قد تستهدف الحركة فى بعض الأحيان تحقيق نوع من الحكم الذاتى لجماعتها على الإقليم الذى تقطنه ، ذلك فضلا عن أن ثمة حركات قد تتغيا الإرتقاء بجماعتها إلى تبوؤ موقع السيطرة فى مجتمعها (*) ، غير أن أغلب الحركات ترمى إلى انفصال الجماعة عن المجتمع السياسى الذى يشملها ، وإقامة دولة مستقلة تجسد هويتها ، أو الإنضمام إلى دولة أخرى مجاورة تشاركها ذات المقومات العرقية ، وفى سبيل تحقيق أهدافها تلجأ الحركة إلى استخدام وسائل عديدة بعضها ذو طابع سلمى ، وبعضها يرتكز إلى العنف " .

ويتضح من خلال تعريفنا هذا أن الحركة العرقية هى حركة منظمة فى معنى أنها حركة يتوافر لها إطار تنظيمى قوامه مؤسسة أو جملة مؤسسات سياسية وعسكرية ، إذ نادرا ماتخلو حركة عرقية من جناح عسكرى إلى جانب جناحها السياسى ، وبطبيعة الحال تأتى على رأس الإطار التنظيمى للحركة قيادة يلتف حولها عدد لايستهان به من أفراد الجماعة المؤمنين بأهداف الحركة ومبادئها (١) .

من جانب آخر فإنه يستفاد من تعريفنا المتقدم أن لكل حركة عرقية برنامج عمل يتضمن أهدافها ، ووسائلها التى تلجأ إليها بغية تحقيق هذه الأهداف . وقد تتمثل أهداف الحركات العرقية إما فى تحقيق المساواة

---

(١) انظر بصدد الإطار التنظيمى للحركة وأهدافها :
- سعدالدين ابراهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٤٤ ، وكذا :
- Richmond, Op. Cit., p.p. 200-202.

(*) يمكن أن نطلق على هذه الحركات عبارة " حركات ارتقائية " ، كما تتعين الإشارة إلى أن ثمة من المحللين من يطلق عليها عبارة " حركات استعلائية " ومن هؤلاء مثلا : سعد الدين ابراهيم ، المرجع السابق .

لجماعتها أو حصولها على الحكم الذاتى ، وإما الإرتقاء بـــها إلـــى موقـــع السيطرة فى مجتمعها (حركات إرتقائية حال الحركة المارونية فى لبنان) ، أو انفصال هذه الجماعات عن مجتمعاتها . والحق أن ملاحظة الواقع تشــير إلى أن الهدف الحقيقى لأغلب الحركات العرقية يتمثـل فـــى الانفصـــال ، إنهـــا – إذا – لاتعدو أن تكون حركات انفصالية بطبيعتها [١] .

(ويدعم الدعوة الإنفصالية تركز الجماعة فى إقليم أو رقعة جغرافية واحـــدة لاسيما وإن كانت هذه الرقعة تقع على أطراف إقليـــم الدولـــة بعيـــدا عـــن مركزها. كما تترسخ الدعوة الإنفصالية حيـــن تتوافـــر للجماعـــة العرقيـــة المقومات الأساسية لقيام دولة مستقلة ، وذلك حال الوفرة النســبية للســكان والموارد . وكما سبق أن أشرنا فإن ثمة حركات عرقية انفصالية لاترمى إلى إنشاء دولة مستقلة بل تستهدف الإنضمام إلى مجتمع سياسى آخر مجاور لـــه ذات الخصائص العرقية للجماعة الانفصالية ، ومثال ذلـــك كفـــاح الأقليـــة التركية فى قبرص من أجل الإنضمام إلى مجتمعها الأم (تركيـــا) وكذلـــك كفاح سكان أوجادين فى إثيوبيا بغية الانفصال والانضمام إلى المجتمـــع الأم المتمثل فى الصومال) [٢] .

كما يتضح فى ثنايا التعريف السابق أن وسائل الحركات العرقية قـــد تكون ذات طابع سلمى (كإنشاء الأحزاب السياسية التى تتبنى أهدافها مثلا)، كما قد ترتكز إلى العنف بشتى أساليبه سواء تمثلت هذه الأساليب فى الحـــروب النظامية ، أو حرب العصابات ، أو عمليات الإختطـــاف ، والإغتيـــالات ، والتصفية الجسدية ، وكل ذلك – بطبيعة الحال – فى سبيل بلوغ غاياتـــها . وذلك كله على النحو الذى سيبدو جليا فى ثنايا تحليلنا اللاحق .

---

(١) أنظر فى هذا المعنى : Ibid., p. 200.

(٢) سعد الدين ابراهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٢

تقريـــــــــر :

انتهينا فى ثنايا هذا الفصل بمباحثه الخمسة إلى تقديم تعريف للجماعة العرقية ، والوقوف على مقومات ذاتيتها ، على نحو هيأ لاستجلاء الفـــارق بينها وبين ماقد يختلط بها أو يتداخل معها من مفاهيم حال الجماعة الســلالية والأمة والأقلية . كما عرضنا أيضا لأبرز الإتجاهات فيما يتصل بتصنيــف الجماعات العرقية ، ذلك فضلا عن التعريف بالحركة العرقيـــة ومقوماتــها وأهدافها ووسائلها . ويتمثل أظهر ما انتهينا إليه بصدد ماتقدم فيما يلى :

١ – إن الجماعة العرقية هى : تجمع بشرى يرتبط أفراده فيما بينـــهم مـــن خلال روابط فيزيقية أو بيولوجية (كوحدة الأصل أو السلالة) أو ثقافية (حال وحدة اللغة أو الدين أو الثقافة) ، ويعيش هذا التجمع فـــى ظــل مجتمع سياسى أرحب ، مشكلا لإطار ثقافى حضارى مغــاير للإطــار الثقافى الحضارى لباقى المجتمع ، ويكون أفراد هذا التجمـــع مدركيــن لتمايز مقومات هويتهم وذاتيتهم ، عاملين دوما من أجل الحفاظ على هذه المقومات فى مواجهة عوامل الضعف والتحلل .

٢ – إن مقومات الذاتية العرقية لاتقتصـــر علـــى المقومـــات الفيزيقيـــة أو البيولوجية (كوحدة السلالة أو السمات الفيزيقيـــة المشـــتركة) ، وإنمـــا تتضمن كذلك مقومات ثقافية حال وحدة الدين أو اللغة أو الثقافة .

٣ – الأقلية هى : الجماعة أو الجماعات العرقية ذات الكم البشرى الأقل فـــى مجتمعها ، والتى تتمايز عن غيرها من السكان من حيـــث الســـلالة أو السمات الفيزيقية أو اللغة أو الدين أو الثقافة ، ويكون أفرادها مدركيـــن لمقومات ذاتيتهم وتمايزهم ، ساعين على الدوام إلى الحفـــاظ عليـــها ، وغالبا ماتكون هذه الجماعة أو الجماعات فى وضع غير مسيطر فى ذلك المجتمع ، كما يعانى كثير منها – بدرجات متفاوتة – مـــن التميـــيز أو الإضطهاد أو الإستبعاد فى شتى قطاعات المجتمع السياسية والإجتماعية والإقتصادية . وهكـــذا فإن كل أقلية هى جماعة عرقية فى حين أن كل

جماعة عرقية ليست بالضرورة أقلية .

٤ – إن الجماعات العرقية قد تكون جماعات سلالية أو لغوية أو دينية ، وإن كانت أغلب الجماعات العرقية لاتقتصر الرابطة بين أفرادها على مقوم واحد ، إذ غالبا ماتكون الجماعة العرقية جماعة سلالية ولغوية ، أو سلالية ولغوية ودينية ... وهكذا . من جانب آخر فإن الجماعات العرقية قد تكون جماعات مسيطرة ، كما قد تكون جماعات غير مسيطرة في مجتمعها ، كما أن أغلب الجماعات غير المسيطرة هي أقليات يعاني كثير منها من التمييز أو الإضطهاد أو الإستبعاد ، ولذلك نجد أن الحركات العرقية يرتبط وجودها بالجماعات غير المسيطرة .

٥ – الحركة العرقية هي حركة سياسية اجتماعية منظمة تنشأ في إطار جماعة عرقية غير مسيطرة (غالبا ماتكون أقلية) ، ويكون لهذه الحركة برنامج عمل ينطوي على ماتصبو إليه من أهداف ، وما تتوسل به من وسائل بغية بلوغ هذه الأهداف التي قد تتمثل في اعمال مبدأ المساواة بصدد علاقة الجماعة بالجماعات الأخرى ، لاسيما المسيطرة منها ، كما قد تستهدف الحركة في بعض الأحيان تحقيق نوع من الحكم الذاتي لجماعتها على الإقليم الذي تقطنه ، ذلك فضلا عن أن ثمة حركات قد تتغيا الإرتقاء بجماعتها إلى تبوؤ موقع السيطرة في مجتمعها، غير أن أغلب الحركات العرقية ترمي إلى انفصال الجماعة عن المجتمع السياسي الذي يشملها ، وإقامة دولة مستقلة تجسد هويتها ، أو الإنضمام إلى دولة أخرى مجاورة تشاركها ذات المقومات العرقية ، وفي سبيل تحقيق أهدافها تلجأ الحركة إلى استخدام وسائل عديدة بعضها ذو طابع سلمي ، وبعضها يرتكز إلى العنف .

* * * * *

القسـم الثانى

فـى

التعريف بظاهرة الحركات العرقية

فى العالم المعاصر

دهليـــز :

خلصنا فى القسم السابق إلى تقديم تعريف للحركة العرقية قوامه أنـــها حركة سياسية اجتماعية منضمة تنشأ فى إطار جماعة عرقية غير مســـيطرة (غالبا ماتكون أقلية) ، ويكون لهذه الحركة برنامج عمـــل ينطـوى علـــى ماتصبو إليه من أهداف ، وما تتوسل به من وسائل بغية بلوغ هذه الأهــداف التى قد تتمثل فى اعمال مبدأ المساواة بصدد علاقة الجماعـــة بالجماعـات الأخرى لاسيما المسيطرة منها ، كما قد تستهدف الحركة فى بعض الأحيـان تحقيق نوع من الحكم الذاتى لجماعتها على الإقليم الذى تقطنه ، ذلك فضـــلا عن أن ثمة حركات قد تتغيا الارتقاء بجماعتها إلى تبوؤ موقع السيطرة فـــى مجتمعها ، غير أن أغلب الحركات العرقية ترمى إلى انفصال الجماعة عـــن المجتمع السياسى الذى يشملها ، واقامة دولة مســـتقلة تجســد هويتـــها ، أو الانضمام إلى دولة أخرى مجاورة تشاركها ذات المقومات العرقيـــة ، وفـــى سبيل تحقيق أهدافها تلجأ الحركة إلى استخدام وسائل عديدة بعضها ذو طـابع سلمى ، وبعضها يرتكز إلى العنف .

والحق أنه يستفاد من تحليلنا المتقدم - فى هذا القســم - أن الحركـــات العرقية قد أضحت تمثل بحق إحدى ظواهر الحياة السياســـية فـــى عالمنـــا المعاصر . وتشير ملاحظة الواقع السياسى فى عالم اليوم إلى أن ثمة سـمات عامة تكاد تشترك فيها سائر الحركات العرقية . ويتمثل أظهر هذه الســـمات فيما يلى :

١ - إن هذه الحركات ترتبط من حيث وجودها بالمجتمعـــات التـــى تتسـم بتنوعها العرقى .

٢ - أن هذه الحركات غالبا ماتكون ذات طبيعة انفصالية .

٣ - إن هذه الحركات غالبا ماتلجأ إلى استخدام العنف مـــن أجـل تحقيـق أهدافها.

٤ - إن هذه الحركات تمثل تهديدا بالغا للاستقرار السياسى فى المجتمعات التى توجد بها .

٥ - إن هــذه الحركات - برغم كونها حركات داخلية - إلا أنها كثيرا ماتنتج آثارا دولية .

وارتباطا بما تقدم نعرض فيما يلى - بشئ من التفصيل - لكل من هـذه السمات موزعة على فصول خمسة تأتى مرتبة على النحو التالي :

الفصل الأول : فى ارتباط الحركات العرقية بالمجتمعات متنوعة العرقيات .

الفصل الثانى : فى غلبة الطابع الإنفصالى على أهداف الحركات العرقية.

الفصل الثالث : فى غلبة طابع العنف على وسائل الحركات العرقية .

الفصل الرابع : الحركات العرقية كمصدر تهديد للاستقرار السياسى .

الفصل الخامس : فى الآثار الدولية للحركات العرقية .

ثم نذيل هذا القسم بتقرير يتضمن أظهر مانخلص إليه من نتائج .

* * * * *

الفصل الأول

فى

ارتباط الحركات العرقية بالبلدان متنوعة الأعراق

الحق أن الحركات العرقية ترتبط - من حيث وجودها - بالدول التى تتسم بتنوعها العرقى ، سواء أكانت تلك الدول تنتمى إلى العالم الثالث ، أو كانت تدخل فى مصاف الدول المتقدمة . وإن كان يلاحظ أن ظاهرة التنوع العرقى هى أكثر التصاقا بواقع مجتمعات العالم الثالث ، حيث يتسم أغلب هذه المجتمعات بتعدد أعراقه ، وانطواء كيانه البشرى على أكثر من جماعة عرقية ، الأمر الذى يصاحبه فى الأغلب الأعم غيبة فكرة المواطنة بين أفراد الجماعات البشرية المشكلة للمجتمع ، بما يعنيه ذلك من انتفاء الولاء السياسى الموحد الذى يتجه إلى حكومة قومية واحدة ، وبالتالى تعدد الولاءات السياسية داخل المجتمع الواحد ، بحيث يكون ولاء الفرد لجماعته العرقية - وليس ولاؤه للحكومة المركزية - هو المشكل لتوجهه السياسى ، والمهيمن على سلوكه الإجتماعى . إنها - إذاً - ظاهرة افتقاد فكرة الشعب الواحد ، والأمة الواحدة ، والوطن الواحد ، والمصير الواحد ، والولاء الواحد ، والهوية الواحدة ، والهدف الواحد [1] .

وفى ظل ذلك كله يصبح المجتمع متنوع العرقيات أرضا خصبة للحركات العرقية بشتى صورها من انفصالية ، إلى ارتقائية ... إلى غيرها .

وتتعين الإشارة إلى أن الطبيعة العرقية (غير المتجانسة) لمجتمعات العالم الثالث إنما ترتد إلى طبيعة جغرافية هذه المجتمعات ، إنها الطبيعة المترتبة على الحدود المصطنعة للأقاليم ، وهى الحدود التى خطتها يد

---

(١) أنظر فى هذا الصدد : أحمد وهبان ، التخلف السياسى وغايات التنمية السياسية : رؤية جديدة للواقع السياسى فى العالم الثالث، دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، ٢٠٠٠ ، ص٢٠.

المستعمر ، والتى جاء تعيينها - بطبيعة الحال - مستهدفا مصالحه ، حتى ولو كان من شأن ذلك تمزيق كيان تجمعات سكانية كان من الممكن أن تشكل نوعا من التكامل القومى إن أحسن

رسم الحدود الجغرافية فيما بينها ، أما فى ظل ماقام به المستعمر من تعيين للحدود فكثيرا ما تمزقت أوصال الجماعات العرقية ، وتناثرت بين عديد من الدول ، كما أن الأمم التاريخية المستقرة كثيرا ماتم تقسيمها إلى عديد من دويلات تشيع داخلها أسباب الفرقة والإنقسام [١].

ومهما يكن الأمر فإن الحركات العرقية إنما يرتبط وجودها بالبلدان متنوعة العرقيات سواء أكانت هذه البلدان تنتمى إلى العالم الثالث ، أو كانت - حتى - ضمن بلدان العالم المتقدم ، ولايقدح فى ذلك كون غالبية البلدان متنوعة العرقيات داخل حظيرة العالم الثالث . وتلكم هى الملاحظة التى تبدو جلية من خلال الجدول التالى ، والذى نقدم فيه سردا لأظهر الحركات العرقية التى شهدها العالم المعاصر سواء تلك التى ماتزال قائمة ، أو التى انتهت ببلوغ أهدافها :

الدولة (متنوعة العرقيات)	الحركة العرقية	طبيعة الحركة
إثيوبيا	الحركة الإريترية	انفصالية
إثيوبيا	حركة صوماليى أوجادين	انفصالية
السودان	حركات الجنوبيين (أظهرها حركة جون جارانج)	أغلبها انفصالية

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

جنوب أفريقيا	حركة الأغلبية السوداء	ارتقائيــــة
روديسيا (زيمبابوى)	حركة الأغلبية السوداء	ارتقائيــــة
ناميبيــــا	حركة الأغلبية السوداء	ارتقائيــــة
تركيــــا	الحركة الكردية	انفصاليــــة
تركيــــا	حركة عرب الإسكندرونة	انفصاليــــة
العــــراق	الحركة الكردية	انفصاليــــة
إيــــران	الحركة الكردية	انفصاليــــة
الإتحــاد الســــوفيتى (السابق)	الحركة الليتوانية	انفصاليــــة
الإتحــاد الســــوفيتى (السابق)	الحركة اللاتفية	انفصاليــــة
الإتحــاد الســــوفيتى (السابق)	الحركة الإستونية	انفصاليــــة
الإتحــاد الســــوفيتى (السابق)	الحركة القازاقية	ارتقائيــــة ثــــم انفصالية
الإتحــاد الســــوفيتى (السابق)	الحركة التركمانية	ارتقائيــــة ثــــم انفصالية
الإتحــاد الســــوفيتى (السابق)	الحركة القرجيزية	ارتقائيــــة ثــــم انفصالية
الإتحــاد الســــوفيتى (السابق)	الحركة الطاجيكية	ارتقائيــــة ثــــم انفصالية
الإتحــاد الســــوفيتى	الحركة الأوزبكية	ارتقائيــــة ثــــم

(السابق)		انفصالية
الإتحـــاد الســـــــوفيتى (السابق)	الحركة الأوكرانية	انفصاليـــة
الإتحـــاد الســـــــوفيتى (السابق)	الحركة البيلوروسية	انفصاليـــة
الإتحـــاد الســـــــوفيتى (السابق)	الحركة الجيورجية	انفصاليـــة
الإتحـــاد الســـــــوفيتى (السابق)	الحركة الأذرية	انفصاليـــة
الإتحـــاد الســـــــوفيتى (السابق)	الحركة الأرمينية	انفصاليـــة
الإتحـــاد الســـــــوفيتى (السابق)	الحركة المولدوفية	انفصاليـــة
روسيا الإتحادية	الحركة الشيشانية	انفصاليـــة
روسيا الإتحادية	الحركة الداغستانية	انفصاليـــة
روسيا الإتحادية	الحركة الأنجوتشيـــة	انفصاليـــة
يوغسلافيا (القديمة)	الحركة الكرواتيـــة	انفصاليـــة
يوغسلافيا (القديمة)	الحركة السلوفينية	انفصاليـــة
يوغسلافيا (القديمة)	حركة مســـلمى البوســـنة والهرسك	انفصاليـــة
يوغسلافيا (القديمة)	حركة كـــروات البوســـنة والهرسك	انفصاليـــة

يوغسلافيا (القديمة)	الحركة المقدونية	انفصالية
يوغسلافيا (الجديدة)	حركة البان كوسوفا	انفصالية
كرواتيا	حركة صرب كرايينا	انفصالية
تشيكوسلوفاكيا	الحركة السلوفاكية	انفصالية
جيورجيا	الحركة الأبخازية	انفصالية
جيورجيا	الحركة الأوسيتية	انفصالية
أذربيجان	حركة أرمن ناجورنو كاراباخ	انفصالية
مولدافيا	الحركة الجاجوازية	انفصالية
إندونيسيا	حركة مسيحيي تيمور الشرقية	انفصالية
إندونيسيا	حركة مسلمي جزر الملوك	ارتقائية
الهند	حركة السيخ فى البنجاب	انفصالية
الهند	حركة مسلمي جامو وكشمير	انفصالية
الفلبين	حركة المسلمين فى الجنوب: جبهة تحرير مورو -- حركة أبي سياف	 انفصالية انفصالية
فيجى	حركة السكان الأصليين	ارتقائية

الصيـــن	حركة التبتيين	انفصاليـــة
الصيـــن	حركـــة المســلمين فـــى سينكيانج	انفصاليـــة
سريلانكـــا	حركـــة التــاميل(نمـــور التاميل)	انفصاليـــة
الباكستـــان	حركـــة البنغـــال وإقامـــة بنجلاديش	انفصاليـــة
الباكستـــأن	حركة مهاجر قومى فـــى كراتشى	انفصاليـــة
بورمـــــا	الحركة الكارينية	انفصاليـــة
قبـــــرص	حركة القبارصة الأتراك	انفصاليـــة
المكسيـــــك	حركة الــــهنود الحمـــر فـــى تشيباس	انفصاليـــة
إسبانيـــا	حركة الباسك (منظمـــــة إيتا)	انفصاليـــة
المملكة المتّحدة	حركة الشـــين فيـــن فـــى ايرلندا الشمالية	انفصاليـــة
ليبريـــــا	حركة الجيو والمانو	ارتقائيـــة
كنـــــدا	حركة فرنسيى كيبك	انفصاليـــة
لبنـــــان	حركة الموارنــــة	ارتقائيـــــة
لبنـــــان	حركة الشيعـــة	ارتقائيـــــة
لبنـــــان	حركة الدروز	ارتقائيـــــة

الجزائــــــر	الحركة البربريـــة	ارتقائيـــــة
المغـــرب	الحركة البربريـــة	ارتقائيـــــة
تشـــــاد	حركة عرب الشمال	انفصاليـــة
بورونـــــدى	حركة التوتسى	ارتقائيـــــة
بورونـــــدى	حركة الهوتو	ارتقائيـــــة
روانـــــدا	حركة التوتسى	ارتقائيـــــة
روانـــــدا	حركة الهوتو	ارتقائيـــــة
بنجلاديـــــش	حركة شيتاجونج	انفصاليـــة
نيكارجـــوا	حركة ميسكيتو	انفصاليـــة
الكونجو الديمقراطى	حركة التوتسى	ارتقائيـــــة

جدول رقم (١)

المصدر : اعتمدنا بصدد تركيبه على المراجع الآتية :

- تيد روبرت جار ، أقليات فى خطر ، ترجمة مجدى عبدالحكيم ، سـامية الشامى ، مكتبة مدبولى - القاهرة - ١٩٩٥.
- سعدالدين ابراهيم ، الملل والنحل والأعراق : هموم الأقليات فى الوطن العربى ، مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية - القاهرة - ١٩٩٤.
- BURG. STEVEN L., Why Yugoslavia Fell a part, Current History. November, 1993, p.p. 357 – 363.

وهكذا يتضح من الجدول السابق أن الحركات العرقية ترتبط من حيث وجودها بالدول متنوعة الأعراق سواء أكانت هذه الدول تنتمى إلـــى العـــالم

الثالث كالسودان ، وبورما ، وسريلانكا ، أو كانت تدخل فى مصاف الـــدول الكبرى حال كندا ، والمملكة المتحدة ، وإسبانيا .

وبما أننا قد أشرنا سلفا إلى العديد من الحركات العرقيـــة فـــى العـــالم الثالث ، كما أننا سنعرض لاحقا لنظيرات لها فإنه قد يكون من قبيـــل إتمـــام الأمر أن نعرض فى السطور التالية لنموذج للحركات العرقية فـــــى الـــدول المتقدمة ، وليكن نموذج : الحركة العرقية فى إقليم كيبيك الكندى .

الحركة العرقية فى إقليم كيبيك الكندى

يمثل إقليم كيبيك Quebec إحدى مقاطعات الدولة الفيدرالية الكنديـــة ، ويشكل سكانه – حسب تعداد عام ١٩٩٠ – حوالى ٥ر٢٥% من جملة سكان كندا البالغ عددهم – آنذاك – ٧ر٢٦ مليون نسمة (١) . وعلى عكـــس بـــاقى الأقاليم الكندية فإن أغلبية عظيمة الشأن من سكان كيبيك ينحدر أفرادها مـــن أصل فرنسى ، ويتحدثون اللغة الفرنسية ، فضلا عـــن اعتناقـــهم المذهـــب الكاثوليكى . ويطلق أفراد هذه الأغلبية علـــى أنفســـهم وصـــف " الكنديـــين الفرنسيين "French Canadians" . وعلى حين يشكل الكنديون الفرنســـيون ٨٠% من جملة سكان كيبيك ، فإن ثمة أقلية تتشكل من باقى سكان الإقليـــم ، يتحدث أفرادها الإنجليزية ، وينحدرون من أصول أنجلـــو سكســـونية فـــى غالبيتهم ، ويعتنقون المذهب البروتستانتى (٢) .

ويرتد الوجود الفرنسى فى كندا إلى النصف الأول من القرن الســـادس عشر، عندما استولى المستكشف الفرنسى جاك كارتييه على مصب نهر سان لوران فى عام ١٥٣٥ ، تحت راية فرانسوا الأول ملك فرنســـا . غـــير أن

---

(١) Holloway. Steven K.. Canada Without Quebec. Orbis. Fall. 1992. p. 538.

(٢) Bercuson. David J.. Why Quebec and Canada Must Part, Current History, March 1995. p. 125.

حركة استيطان الفرنسيين لشمال القارة الأمريكية تعود بجذورها إلى أوائل القرن السابع عشر ، إذ استقرت – وقتذاك – مجموعة من المهاجرين الفرنسيين في نوفاسكوتيا بقيادة شامبلان ، والذى على يديه تأسست مدينة كيبيك عام ١٦٠٨ . ومع تتابع موجات الهجرة الفرنسية تأسست مدينة مونتريال عام ١٦٤٢ . غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أن حركة الهجرة الفرنسية إلى كندا كانت ضيقة النطاق إذا ماقورنت بالهجرة البريطانية إلى الأراضى الكندية . من جانب آخر فقد استغلت بريطانيا انشغال فرنسا بحروبها الأوربية – خلال عهد لويس الرابع عشر فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر – وقامت بالإستيلاء على المستعمرات الفرنسية فى كندا ، لكى تدخل الدولتان الفرنسية والبريطانية – إثر ذلك – فى صراعات طويلة ، حسمها البريطانيون لصالحهم فى النهاية بالإستيلاء على كيبيك عام ١٧٥٩ ، ومونتريال عام ١٧٦٠ . واذعانا للأمر الواقع فقد أقرت فرنسا – بمقتضى معاهدة باريس ١٧٦٣ – بسيادة بريطانيا على كندا [١] .

وبمقتضى دستور عام ١٨٦٧ أضحت كندا دولة فيدرالية ، يمثل كيبيك أحد أقاليمها [٢] . وقد نص هذا الدستور على اعتبار اللغة الفرنسية لغة رسمية للدولة الكندية إلى جانب اللغة الإنجليزية [٣] .

وعلى أية حال فقد ظل الكنديون الفرنسيون مدركين لتمايزهم العرقى إزاء من عداهم من قاطنى كندا ، وبالتالى فقد ظلوا قابضين على هويتهم ، عاضين بالنواجذ على مقومات ذاتيتهم المتمثلة فى وحدة الأصل (الفرنسى) ،

---

(١) أنظر بصدد هذا التطور التاريخى : سمعان بطرس فرج الله ، الحركة الإنفصالية فى كندا ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١١ ، يناير ١٩٦٨ ، من ص ٩٨ إلى ص ١٠٢، وكذا :

Fulford, Robert, Canada: A great northern paradox?, World Politics, annual editions, 1990-91, p.p. 71-72.

(٢) Bereuson, Op. Cit., p. 123.

(٣) سمعان بطرس فرج الله ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠١ .

واللغة (الفرنسية) ، والمذهب الدينى (الكاثوليكى) . وفضلا عما تقدم فقد عاش الكنديون الفرنسيون - دوما - ينظرون إلى كندا باعتبارها دولتين ، إحداهما فرنسية والأخرى إنجليزية ، وإلى الشعب الكندى باعتباره شعبين هما الشعب الكندى الفرنسى ، والشعب الكندى الإنجليزى [1] .

ويؤكد المهتمون بالشئون الكندية أن ظهور الحركات العرقية فى كيبيك - بصورة جلية - إنما يرتد إلى عقد الستينيات ، إذ بدأت منذ ذلك الحين تطفو على سطح الحياة السياسية فى كيبيك حركات عرقية بعضها انفصالى ، والآخر يمكن أن نطلق عليه ارتقائى . ويتمثل أظهر الحركات الارتقائية التى ظهرت لدى الكنديين الفرنسيين فى حزب سياسى تمكن من الوصول إلى سدة الحكم فى كيبيك عام ١٩٦٠ ، ألا وهو الحزب الليبرالى Liberal Party ، والذى تزعمه آنذاك جان ليساج Jean Lesage . وقد تبنى ليساج خلال الفترة (١٩٦٠-١٩٦٦) خطة واسعة النطاق استهدفت تحديث شتى قطاعات المجتمع الكيبيكى ، وزيادة مشاركة الكنديين الفرنسيين فى إدارة الشئون الكندية قاطبة . وقد أطلق ليساج على خطته هذه عبارة " الثورة الهادئة " Quiet revolution [2] . وهكذا فإن الحزب الليبرالى لم يكن يستهدف انفصال كيبيك عن كندا وإنما كان يستهدف فحسب الارتقاء بشئون الإقليم ، والسعى إلى توسيع نطاق مشاركة الكنديين الفرنسيين فى إدارة الشئون الكندية .

أما مايتصل بالحركات العرقية الانفصالية فى كيبيك فيمكن أن نميز داخلها بين حركات تتوسل بالعنف فى سبيل بلوغ غايتها ، وحركات يكسو

---

(١) Bereuson. Op. Cit., p. 125, and : Jockel, Josph T., And If Quebec Secedes: Aview from the United States, Current History, March, 1995, p.p. 127-128.

(٢) أنظر بصددها :

Me Roberts, Kenneth, Quebec: Social Change and Political Crisis, Third Edition, M. & S., Canada, 1988, p.p. 128-147.

وسائلها الطابع السلمى . فبصدد الحركات التى يغلب عليها طابع العنـــف – بادئ ذى بدء – يتمثل أظهرها فى جبهة تحرير كيبيك Front de liberation du Quebec (FLQ) [١] . وقد ظهرت هذه الجبهة إلى حيز الوجود فـــى ١٠ مايو ١٩٦٣ ، وهى لم تتورع عن استخدام كافة وسائل العنـــف والارهـــاب بغية الوصول إلى غايتها المتمثلة فى انفصال كيبيك عن كندا ، واعلانه دولة مستقلة . فلقد نظمت الجبهة – فى سبيل الإعلان عن هدفـــها – المظــاهرات والإضطرابات ، كما عمدت إلى القيام بأعمال العنف والتخريب المنظم التـــى استهدفت جميع المؤسسات الفيدرالية ، والقوات المسلحة ، وكذا المؤسســـات الإقتصادية التابعة للناطقين بالإنجليزية . وفضلا عما تقدم فقد لجأت الجبهـــة منذ نهاية عقد الستينيات إلى أسلوب الاختطاف الذى استهدف العديـــد مـــن الساسة الكنديين والدبلوماسيين الأجانب ، كما قامت الجبهة بتنظيم العديد مـــن عمليات الإغتيال فى مواجهة عديد من الزعماء السياسيين فى كيبيك . ولعـــل من أظهرَ ماقامت به الجبهة من أعمال عنف تلك الإنفجارات التى شـــهدتها مدينة مونتريال عام ١٩٦٩ ، وكذا عمليتا الاختطاف الفاشلتان اللتان استهدفتا كلا من المبعوث التجارى الإسرائيلى ، والقنصل الأمريكى مع بدايـــة عقـــد السبعينيات ، وتلك العملية الناجحة التى تمت فى مواجهة أحد الدبلوماســـيين البريطانيين ، فضلا عن عمليـــة اختطاف وزير العمل والهجرة فـــى إقليـــم كيبيك واعدامه فى عام ١٩٧٠ [٢] .

أما فيما يتصل بالحركات العرقية الانفصالية الكيبيكيـــة التـــى يكســـو وسائلها الطابع السلمى فيتمثل أظهرها فى حزب كيبيـــك Parti Quebecois (PQ) ، وهو الحزب الذى طفا على سطح الحياة السياسية فى كيبيـــك عـــام ١٩٦٨ ، وراح يجعل غاية منتهاه انفصال الإقليـــم الكيبيكـــى عـــن كنـــدا ،

---

(١) Holloway, Op. Cit., p. 533.

(٢) أنظر فى هذا المضمون : نزيرة الأفندى ، العنف والحركة الإنفصالية فـــى كنـــدا ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٢٣ ، يناير ١٩٧١ ، ص ١٣٩

واعلانه دولة مستقلة [١] . وشيئا فشيئا ترسخت قاعدة الحزب وأخذت شعبيته فى التنامى المستمر . ففى الانتخابات التى جرت فى كيبيك عام ١٩٧٠ حصل حزب كيبيك على ٢٣% من اصوات الناخبين ، وبالتالى فقد كان يمثل حزب المعارضة الرئيسى فى مواجهة الحزب الليبرالى الحاكم آنذاك [٢] . أما فى ظل الانتخابات التى أجريت فى الإقليم فى ١٥ نوفمبر ١٩٧٦ فقد تصدر حزب كيبيك الإنفصالى الأحزاب الأخرى قاطبة من حيث عدد المقاعد التى حصل عليها ، حيث فاز الحزب بحوالى ٦٩ مقعدا من جملة عدد مقاعد الجمعية الوطنية الكيبيكية البالغ عددها ١١٠ مقاعد . وهكذا فقد شكل زعيم الحزب رينيه ليفيسك حكومة كيبيك ، الأمر الذى كان من شأنه أن استشعرت الحكومة الفيدرالية الخطر ، إذ خشى المسئولون الكنديون من أن يقوم ليفيسك بإعلان استقلال كيبيك [٣] . ومن هنا فقد راح رئيس الوزراء الكندى يوجه نداء قوميا إلى ما أسماه بالأمة الكندية ، دعا فيه إلى ضرورة الحفاظ على الوحدة الوطنية فى البلاد ، وراح يؤكد : " إن أرض كندا تتسع لكل الكنديين بلا تمييز ، أو استثناء لغوى ، أو ثقافى ، أو اجتماعى " . غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من تبنى حزب كيبيك للإنفصال وتأكيده عليه فإن ظروف كيبيك – عام ١٩٧٦ – لم تكن تسمح بالانفصال ، ذلك بأن استطلاعات الرأى التى كان ليفيسك قد أجراها فى الإقليم بشأن الإنفصال أكدت أن نسبة مؤيدى استقلال كيبيك عن كندا لاتتجاوز الخمسة عشرة فى المائة من جملة سكان الإقليم ، ذلك فضلا عن أن الإقليم كان فى حاجة إلى الدعم الاقتصادى الهائل الذى كانت تقدمه له الحكومة الفيدرالية

---

(١) Meadwell, Husdon. The Politics of Nationalism in Quebec, World Politics, January, 1993, p. 203.

(٢) أنظر فى هذا المضمون : نزيرة الأفندى ، العنف ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٠.

(٣) أنظر فى هذا المضمون : نازلى معوض أحمد ، كويبك والحركة الانفصالية فى كندا، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٤٨ ، أبريل ١٩٧٧ ، ص ١١٧.

آنذاك . ومن هنا فقد راح حزب كيبيك يتبنى - بصورة مؤقتة - شعار "السيادة فى ظل الفيدرالية الكندية " [١] .

على أية حال فإنه بحلول عقد التسعينيات كان قد بدا جليا أن أنصار استقلال كيبيك قد حازوا تأييدا لايستهان به من جانب الكيبيكيين . وقد تجلى هذا التأييد من خلال نتائج انتخابات الجمعية الوطنية الكيبيكية التى أجريت فى سبتمبر عام ١٩٩٤، حيث حصل حزب كيبيك بزعامة جاك باريزو Jacques Pariweau على سبع وسبعين مقعدا من جملة مقاعد الجمعية البالغ عددها ١١٠ مقاعد . الأمر الذى كان من شأنه أن أنيط بالزعيم الانفصالى باريزو تشكيل حكومة الإقليم . وعلى صعيد آخر فقد أكدت استطلاعات الرأى التى أجريت فى كيبيك عام ١٩٩٥ أن حوالى نصف سكان الإقليم قد باتوا يؤيدون انفصاله عن كندا ، واعلانه دولة مستقلة [٢] . وتأسيسا على ذلك فقد راح باريزو يعلن - بعد أن أضحى رئيسا لوزراء كيبيك - أنه قد آن الأوان لاجراء استفتاء بين الكيبيكيين بصدد مصير إقليمهم . وبالفعل فقد تم - فى شهر اكتوبر ١٩٩٥ - اجراء استفتاء فى كيبيك ، طلب بمقتضاه من الكيبيكيين أن يعلنوا موقفهم من استقلال الإقليم . وقد أوضحت نتيجة هذا الإستفتاء أن ثمة انقساما حادا بين قاطنى كيبيك بصدد مواقفهم من مسألة مستقبل الإقليم ، إذ وافق ٤ر٤٩ % منهم على انفصاله عن كندا وانشاء دولة كيبيكية مستقلة ، فى حين عارض ذلك ٦ر٥٠% من الكيبيكيين . والحق أنه على الرغم من هزيمة التيار الانفصالى فى استفتاء اكتوبر ١٩٩٥ فإن ثمة حقيقة لاسبيل إلى انكارها قوامها أن عدد مؤيدى هذا التيار قد تعاظم إلى حد

---

(١) أنظر فى هذا المضمون بالإضافة إلى المرجع السابق : نبيل صباغ . كويبيك ومصير الوحدة الكندية ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٥٣ ، يوليو ١٩٧٨ ، من ص ١٣٠ إلى ص ١٣٢.

(٢) انظر فى هذا المضمون : مختار شعيب ، " كيبيك " البركان الذى يهدد الوحدة الكندية ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٢٣ ، يناير ١٩٩٦ ، ص ٢٧٢ .

كبير ، لاسيما إذا قورن هذا العدد بنظيره الذى كان سائدا خلال عقد الستينيات . كما تتأكد هذه الحقيقة إذا مانظرنا بعين الاعتبار إلى كون الكنديين الفرنسيين لايمثلون سوى ٨٠% فقد من جملة سكان كيبيك ، وبالتالى - وفى ضوء نتائج هذا الاستفتاء - يمكن القول أن غالبيتهم تؤيد استقلال الإقليم .

على أية حال فإن باريزو راح يؤكد غداة اعلان نتائج استفتاء اكتوبر ١٩٩٥ أنه لن يتخلى ألبتة عن مسعاه الانفصالى ، وأنه لامحالة مستفت الكيبيكيين - من جديد - بصدد استقلال إقليمهم . فى حين راح رئيس الوزراء الكندى يؤكد أنه لن يسمح أبدا باجراء أية استفتاءات أخرى تتصل باستقلال كيبيك ، وأعلن عزمه على السعى إلى الحفاظ على وحدة الأراضى الكندية ، وليظل مصير الإقليم معلقا حتى يومنا هذا .

وفى النهاية فإن ثمة ملاحظتين تتعين الإشارة إليهما بصدد الحركة العرقية الانفصالية فى إقليم كيبيك . وتتمثل هاتان الملاحظتان فى :

١ - إن هذه الحركة تمثل - دونما شك - تهديدا عظيم الشأن لوحدة أراضى الدولة الكندية ، إذ - فى ظل وجودها - بات الإنقسام يشكل خطرا داهما يكاد يعصف بكيان هذه الدولة ، ويجعل استقرارها فى مهب الريح ، لاسيما وأن ثمة جناحا فى التيار الإنفصالى لايتورع عن التوسل بشتى وسائل العنف بغية بلوغ غايته ، ويتمثل هذا الجناح - كما سبق أن اشرنا - فى جبهة تحرير كيبيك ، تلك الجبهة التى جعلت ديدنها عمليات الاختطاف ، والاغتيال ، والتخريب ، والارهاب بشتى صوره . الأمر الذى يجعلنا نرصد ملاحظة أخرى تتعلق بوسائل الحركات العرقية ، وقوام هذه الملاحظة أنه حتى فى ظل المجتمعات الديمقراطية قد تنشأ حركات عرقية انفصالية يغلب على وسائلها طابع العنف ، وذلك على الرغم مما يتوافر فى ظل هذه المجتمعات من قنوات عديدة شرعية للتعبير عن الآراء والمطالب . ولعله مما يؤكد على صحة هذه الملاحظة

مانقوم به الحركة العرقية الأيرلندية الانفصالية - ممثلة في الجيش الجمهوري - من أعمال عنف متواصلة بغية الوصول إلى هدفها المتمثل في انفصال شمال أيرلندا عن المملكة المتحدة ، وذلك كله على الرغم من الطبيعة الديمقراطية للنظام السياسي البريطاني .

غير أنه تتعين الإشارة إلى أن أية دولة مهما بلغت مستويات الحرية والديمقراطية فيها لايمكنها أن تتسامح مع الحركات الإنفصالية ، ذلك بأن من شأن هذه الحركات أن تهدد وجود الدولة ذاته ، وهو أمر لايمكن لأى من الدول أن تساوم بشأنه .

٢ - إن الحركة العرقية الانفصالية الكيبيكية قد تمخضت - برغم كونها حركة داخلية - عن آثار دولية هامة ، إذ كان من شأنها - دوما - تعكير صفو العلاقات بين كندا وفرنسا ، ذلك بأن المسئولين الفرنسيين قد عبروا غير مرة عن تأييدهم لانفصال كيبيك عن كندا ، واقامة دولة فرنسية على أراضيه . ولقد كان أبرز هؤلاء المسئولين الزعيم الفرنسي الأسبق شارل ديجول، والذى فى عهده بلغت العلاقات الفرنسية الكندية أوج توترها ، ذلك بأن ديجول لم يتردد - وفى أثناء وجوده على الأراضى الكندية - فى إعلان تأييده لاستقلال كيبيك عن كندا ، وذلك فى خطاب له ألقاه فى مدينة مونتريال أثناء زيارته لها فى ٢٤ يوليو ١٩٦٧، حيث راح يردد عدة مرات فى خطابه عبارة عاشت كيبيك حرة Vive Quebec Liber . وقد اعترضت الحكومة الكندية بشدة على خطاب ديجول ، بيد أنه لم يكترث بهذا الإعتراض ، بل وراح يؤكد تمسكه بموقفه بأن راح يقطع زيارته لكندا قبل زيارة العاصمة أوتاوا . ولقد أعقب ذلك حدوث أزمة دبلوماسية حادة بين فرنسا وكندا (١) .

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : أحمد وهبان ، العلاقات الأمريكية الأوربية بين التحالف والمصلحة ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص ١٦١ .

وتجدر الإشارة إلى أن موقف الرئيس الفرنسى الحالى جاك شيراك من الحركة الانفصالية الكيبيكية يعد مطابقا لموقف ديجول ، ذلك بأن شيراك أكد قبيل الاستفتاء الكيبيكى فى أكتوبر ١٩٩٥ أن فرنسا سوف تعـــترف بدولـــة كيبيك المستقلة فـــى حالة التصويت فى الاستفتاء بنعــــم للانفصـــال، كمـــا أعلنـــت فرنسا عن ضمانها لاعتراف مجموعة دول الفرانكوفـــون بالدولـــة الكيبيكية المستقلة [١] .

ولعلنا لسنا فى حاجة إلى القول بأن هذا الموقف الفرنسى مـــن شـــأنه تعميق هوة الخلاف بين كندا وفرنسا فيما يتصل بمشكلة الإقليم الكيبيكى .

تعقيـــــب :

نخلص من خلال ماتقدم إلى أن الحركات العرقية ترتبط – من حيـث وجودها – بالمجتمعات متعددة العرقيات ، سواء أكانت هذه المجتمعات تنتمى إلى العالم الثالث ، أو كانت تدخل فى مصاف المجتمعات المتقدمـــــة . وإذن فوجود الحركات العرقية لايقتصر على بلدان العالم الثالث ، ذلك بـــأن هـــذه الحركات قد توجد كذلك فى بلدان العالم المتقدم حال كندا على النحو الســـالف بيانه . وفضلا عما سبق فإن ثمة حقيقة تشير إليها ملاحظتنا المتقدمة لواقـــع الحركة العرقية الكيبيكية ، ومؤدى هذه الحقيقة أنه :

لاسبيل إلى استقرار سياسى دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة فى مجتمـع أسس بنيانه على التجميع الإجبارى لشعوب غير متجانسة قوميا .

ويبقى أن نشير – فى النهاية – إلى أن الوضع فى كيبيك لايزال علـــى النحو الذى كان عليه غداة استفتاء الإستقلال عام ١٩٩٥ ، كما لايزال جـــاك باريزو وحزبه يتحينون الفرصة لاستفتاء الكيبيكيين من جديد بصدد مســـألة الانفصال .

---

(١) أنظر فى هذا المضمون ، مختار شعيب ، " كيبيك ... " ، مرجع سبق ذكــــره ، ص ٢٧٣ .

الفصل الثانــى

فــى

غلبة الطابع الانفصالى على أهداف الحركات العرقية

يرتبط وجود الحركات العرقية - كما قدمنــا - بالمجتمعــات متعــددة العرقيات ، حيث يضم المجتمع الواحد أكثر من جماعة عرقية واحدة لايشعر أفراد أى منها بأن ثمة مايربطهم بأفراد الجماعات الأخرى ، على نحو يــهيئ لغيبة فكرة المواطنة وانتفاء التكامل السياسى داخل المجتمع ، وشعور أفــراد الجماعات العرقية غير المسيطرة (التى هى أقليات غالبا) بأن الدولة التــى تنتسب إليها لاتعبر عن ذاتيتها، ولاتجسد هويتها ، وإنما هى تجسيد لهويـــة وذاتية الجماعية المسيطرة فحسب . وتأسيسا علــى ذلــك فكثــيرا مــاتطل الحركات العرقية برأسها داخل مثل هذه الدول ، ويصبح مــن الطبيعــى أن يغلب على أهداف هذه الحركات الطابع الإنفصالى . وذلكم هو ماتشير إليــه ملاحظة واقع الحركات العرقية المعاصر ، حيث يدخل أغلبها فــى نطــاق الحركات الإنفصالية ، فى معنى أن كلا منها تتغيا غاية نهائية قوامها انفصال بنى نحلتها بإقليمهم عن الدولة التى تضمه بغية إنشاء دولة مســتقلة تجمــع شتاتهم وتعبر عن هويتهم ، أو الإنضمام بهذا الإقليم إلــى دولــة مجــاورة تشاركهم ذات الهوية العرقية .

ونقدم فى الجدول التالى سردا لأظهر الحركات العرقية الانفصالية التى عرفها العالم المعاصر ، مع الإشارة - فى ذات الوقت - إلى هدف كل منها:

الحركة العرقية الانفصالية	الدولة التى ظهرت بها	تعريف بالحركة وهدفها
الحركة الإريترية	إثيوبيا	يمثل الإقليم الإريترى منطقة فاصلة بين الأراضى الإثيوبية وسواحل البحر الأحمر. ويقطنه أناس ينحدر أغلبهم من أصول عربية ، ويدين أكثر من ٧٠% منهم بالإسلام أما لغتهم فتتمثل فى العربية إلى جانب لغة محلية أخرى هى التيجرينية . خضعت إريتريا للحكم المصرى خلال عهد أسوة محمد على ، قبل أن تسيطر عليها إيطاليا خلال الفترة (١٨٩٠- ١٩٤١) ، ثم بريطانيا (١٩٤١-١٩٥٠) ، إلى أن سيطرت عليها إثيوبيا عام ١٩٥٠ معتبرة إياها إقليما يتمتع بالحكم الذاتى (الذى كان شكليا) فى ظل فيدرالية إثيوبية . عانى الإريتريون كثيرا من صنوف الإضطهاد لاسيما فى عهدى الإمبراطور هيلاسلاسى ، والرئيس منجستو هيلاماريام. ظهرت العديد من الحركات العرقية الإريترية المطالبة بالإنفصال عن إثيوبيا منذ عام ١٩٦٠، كان أهمها جبهة تحرير إريتريا ، تلك الجبهة التى تمكنت تحت قيادة أسياسى أفورقى (وهو مسيحى) وبعد كفاح مرير ومضن وطويل من إرغام الحكومة الإثيوبية (الرئيس زيناوى) على إجراء استفتاء بين الإريتريين بخصوص حق

		تقرير المصير ، لكى تصبح إريتريا منذ ذلك الحين (٢٤ مايو ١٩٩٣) دولة مستقلة . * يلاحظ سيطرة جماعة الأقلية المسيحية على الحكم فى إريتريا الأمر الذى ينذر بدخول البلاد فى دوامة الحرب الأهلية لاسيما فى ظل شعور الأغلبية المسلمة بالإضطهاد . * توجد مشكلة حدودية بين إريتريا وإثيوبيا لما تزل قائمة حتى الآن .
حركة صومالي أوجادين	إثيوبيا	تستهدف هذه الحركة انفصال إقليم أوجادين عن إثيوبيا بغية الإنضمام إلى الصومال التى تعتبر بالنسبة للأوجادينيين " الدولة الأم " إذ ينحدرون من أصول صومالية . ويشار إلى أن تلك الحركة كادت تحقق هدفها من خلال حرب الأوجادين الشهيرة (١٩٧٤-١٩٧٧) ، والتى كادت الميلشيات الأوجادينية فيها أن تسيطر على سائر أرجاء الإقليم لولا تدخل الإتحاد السوفيتى وكوبا وإقامة جسر جوى لنجدة نظام منجستو ماريام ذى الميول الماركسية ، لكى يتمكن ذلك النظام فى النهاية من إعادة الإقليم إلى الحظيرة الإثيوبية . هذا ولاتزال الحركة الأوجادينية – حتى يومنا هذا – تناضل من أجل بلوغ هدفها .
الحركة العرقية فى جنوب السودان	السودان	شهد إقليم جنوب السودان منذ استقلال البلاد عام ١٩٥٦ (بل ومنذ عام ١٩٥٥) عديدا من الحركات العرقية الانفصالية التى تستهدف الانفصال بالإقليم عن السودان وإقامة دولة جنوبية

		تجسد الهوية الزنجية . ولعل أظهر الحركات القائمة حاليا هى حركة الجيش الشعبى لتحرير السودان بزعامة جون جارانج . وسوف نعرض للحركة العرقية فى جنوب السودان تفصيلا من خلال صفحات تالية .
الحركة الكردية	تركيا	عرف التاريخ الكردى العديد من الحركات العرقية الإنفصالية منذ تقسيم كردستان (أرض الأكواد) بين إيران الصفوية الشيعية وتركيا العثمانية السنية عام ١٥١٤. ومنذ ذلك الحين والأكراد يناضلون من أجل انفصال المناطق الكردية عن تركيا وإيران والعراق بغية إقامة دولة كردستان التى تجسد الهوية الكردية . ويتمثل أظهر الحركات الكردية المعاصرة داخل تركيا فى حزب العمال الكردستانى بقيادة عبدالله أوجلان والذى نشأ مع بداية عقد الثمانينيات من القرن العشرين . وسوف نعرض للحركة الكردية بالتفصيل فى صفحات لاحقة .
الحركة الكردية	العراق	أنظر الحركة الكردية فى تركيا ، وكذا الفصل الثالث من هذا القسم .
الحركة الكردية	إيران	أنظر الحركة الكردية فى تركيا ، وكذا الفصل الثالث من هذا القسم .
حركة القبارصة الأتراك	قبرص	تضم قبرص جماعتين عرقيتين هما : القبارصة اليونانيين ويشكلون ٤/٥ سكان الجزيرة القبرصية، والقبارصة الأتراك ويشكلون الخمس الباقى . ومنذ استقلال قبرص عام ١٩٥٩

		والصراع قائم بين الجماعتين حيث يرغب القبارصة اليونانيون فى إعمال مبدأ الإينوزيس القاضى بضم قبرص إلى اليونان ، الأمر الذى دفع القبارصة الأتراك إلى تبنى مبدأ الإنفصال وإقامة دولة قبرصية تركية مستقلة تجسد هويتهم تمهيدا للانضمام مستقبلا إلى تركيا . وقد نجح القبارصة الأتراك بالفعل فى بلوغ هدفهم ، ولكن على يد تركيا التى غزت الجزيرة عام ١٩٧٤، وأعلنت قيام الدولة القبرصية التركية على قطاع يربو على ٣٠% من جملة الأراضى القبرصية . وباستثناء تركيا لم تعترف أية دولة بالدولة القبرصية التركية ، كما لايزال الصراع العرقى في قبرص قائما لم تحسم نتيجته حتى الآن .
حركة التبتيين	الصين	يقع اقليم التبت على الحدود بين الصين من جهة والهند ونيبال من جهة أخرى ، وتبلغ مساحة الإقليم حوالى مليون وربع المليون من الكيلومترات المربعة ، ويقطنه زهاء المليونى شخص يدين أغلبهم بالبوذية اللامية ، ويتزعمهم الزعيم الأشهر الدلاى لاما الموجود الآن فى الهند، التى فر إليها خوفا من بطش الصينيين عام ١٩٥٩ ، ولقد عانى التبتيون كثيرا من اضطهاد الحكومة الصينية ، ولاسيما خلال مايعرف بالثورة الثقافية (١٩٦٦ – ١٩٧٦) حيث دمر أغلب معابدهم ، وأديرتهم ، وأجبر الرهبان على العمل فى الحقول ، كما حاولت الحكومة الصينية مرارا تغيير الخريطة الديموجرافية للإقليم من

		خلال توطين الصينيين داخله . وتستهدف الحركة العرقية التبتية منذ عام ١٩٥٩ انفصال اقليم التبت عن الصين وإقامة دولة مستقلة تجسد الهوية التبتية ، ولاتزال هذه الحركة قائمة حتى يومنا هذا .
حركة مسلمي سينكيانج (تركستان الشرقية)	الصين	كانت الصين – فى عام ١٨٤٤ – قد احتلت إقليما يعرف بالتركستان الشرقية ، وراحت تطلق عليه اسم سينكيانج . ويقطن هذا الإقليم مايربو على ١٥ مليون نسمة غالبيتهم الساحقة من المسلمين ، وتبلغ مساحته مايقرب من مليونين من الكيلومترات المربعة . ويرتبط سكان الإقليم بروابط دينية وسلالية ولغوية وتاريخية مع سكان التركستان الغربية التى يتشكل منها الآن خمس جمهوريات إسلامية (سوفيتية سابقة) تعرف بجمهوريات آسيا الوسطى وهى قازقستان ، وطاجيكستان ، وأوزبكستان ، وتركمانستان ، وقرجيزستان . ويعانى مسلمو سينكيانج من الإضطهاد من قبل الحكام الصينيين فى ظل تعتيم إعلامى بالغ على أوضاعهم . وتستهدف حركة مسلمى التركستان الشرقية الانفصال عن الصين وإقامة دولة إسلامية مستقلة .
حركة السيخ	الهند	والسيخ هم طائفة دينية تعتنق عقيدة تمثل خليطا من الديانات المنتشرة فى الهند (من سماوية وأرضية) ، وهم يشعرون بالاضطهاد من جانب الأغلبية الهندوسية ، ويسعون إلى الإنفصال بإقليم البنجاب (الذى يشكلون غالبية سكانه) وإقامة

		دولة تجسد هويتهم .
حركة مسلمي جامو وكشمير	الهند	وتسعى هذه الحركة – منذ انفصال الباكستان عن الهند عام ١٩٤٧ – إلى الانسلاخ عن الدولة الهندية بغية الإنضمام إلى الدولة الأم والتى تجسد الهوية الإسلامية فى المنطقة ألا وهى باكستان .
حركة التاميل	سريلانكا	تضم سريلانكا جماعتين عرقيتين رئيسيتين هما : السنهال ويشكلون جماعة الأغلبية ، والتاميل وهم أقلية. ويرتبط التاميل بروابط دينية (هندوس) وسلالية وتاريخية مع سكان ولاية تاميل نادو الهندية، والتى هى شديدة القرب جغرافيا من شبه جزيرة جافنا التى يقطنها تاميل سريلانكا . ومنذ استقلال سريلانكا عام ١٩٤٧ ظهرت العديد من الحركات الانفصالية فى صفوف التاميل يعد أظهرها منظمة نمور التاميل التى مابرحت تناضل من أجل الانفصال بشبه جزيرة جافنا التى يشكلون غالبية سكانها وإقامة دولة مستقلة على أراضيها تعبر عن الهوية التاميلية بمنأى عن سريلانكا التى هى – فى تصور التاميل – لاتعبر إلا عن هوية السنهال .
الحركة العرقية فى تيمور الشرقية	إندونيسيا	استهدفت هذه الحركة انفصال تيمور الشرقية عن إندونيسيا ، حيث يقطن الإقليم التيمورى الشرقى أغلبية من المسيحيين الكاثوليك على خلاف أغلب الأقاليم الإندونيسية الأخرى ، وقد نجحت الحركة التيمورية مؤخرا من خلال نضالها المسلح – وفى ظل ضغوط أمريكية على الحكومة الإندونيسية – فى بلوغ هدفها ، وحصل التيموريون الشرقيون

		على استقلالهم على إثر استفتاء أجرى فى الإقليم خلال شهر أغسطس ١٩٩٩م .
حركة البنغال	الباكستان	وقد نجحت هذه الحركة فى بلوغ هدفها المتمثل فى الانفصال عن الباكستان وإقامة دولة تمثل أبناء السلالة البنغالية ، فكانت دولة بنجلاديش التى ظهرت الى حيز الوجود عام ١٩٧١ والتى لعبت الهند (العدو اللدود لباكستان) دورا رئيسيا فى اقامتها وتكريس وجودها .
حركة مهاجر قومى	الباكستان	وتستهدف هذه الحركة الإنفصال بإقليم كراتشى عن الباكستان وإقامة دولة مستقلة على أراضيه .
الحركة العرقية فى أيرلندا الشمالية	المملكة المتحدة	كانت بريطانيا قد ضمت الجزيرة الأيرلندية كاملة عام ١٨٠٠م ، وظل الأيرلنديون يعانون اضطهاد الإنجليز حتى عام ١٨٢٩ عندما أعطوا حقوقهم السياسية والمدنية كاملة كمواطنين بريطانيين . غير أن ذلك لم يمنع من ظهور حركات انفصالية سعت إلى استقلال الجزيرة التى يقطنها سكان كانوا يتحدثون بلغة مغايرة للانجليزية ، ويدينون – على خلاف الإنجليز – بالكاثوليكية . ولعل أهم الحركات الإنفصالية التى ظهرت فى أيرلندا حركة الشين فين . وهى الحركة التى ظلت تناضل منذ منتصف القرن التاسع عشر تقريبا من أجل استقلال أيرلندا إلى أن وافقت بريطانيا عام ١٩٢١ على إجراء استفتاء حصلت على إثره أيرلندا الجنوبية على استقلالها وأعلنت الجمهورية فيها ، ونص دستورها على حقها فى ضم أيرلندا

		الشمالية واستمرت الشين فين (وجناحها العسكرى المعروف بالجيش الجمهورى) تناضل من أجل فصل شمال أيرلندا عن المملكة المتحدة ، وإلحاقه بباقى الجسد الأيرلندى فى الجنوب ، وذلك على الرغم من أن الكاثوليك لايمثلون سوى ٣٨% من سكان أيرلندا الشمالية فى حين يشكل البروتستانت الموالين لبريطانيا (وحزبهم ألستر الإتحادى) مايربو على نصف سكان الإقليم . وقد ظلت الحكومة البريطانية ترفض انفصال أيرلندا الشمالية عنها إلا أنه بحلول شهر أبريل عام ١٩٩٨ وافق البريطانيون – فى ظل تصاعد عمليات العنف للجيش الجمهورى وتحت وطأة ضغوط الأمريكيين (المتعاطفين تاريخيا مع الأيرلنديين) – على منح شمال أيرلندا حكما ذاتيا موسعا وإقامة حكومة محلية يتقاسم مقاعدها كل من حزب ألستر البروتستانتى الموالى لبريطانيا ، وحزب الشين فين الانفصالى. وقد عرف هذا الإتفاق باتفاق رامبوييه والذى لم يوضع حتى الآن فى حيز التنفيذ نظرا لرفض الجيش الجمهورى إلقاء السلاح الأمر الذى عكس أزمة الثقة العميقة بين الطرفين ، وبالتالى فلاتزال المشكلة الأيرلندية قائمة دون حل حتى الآن .
الحركة المقدونية	يوغسلافيا (السابقة)	حيث ينحدر المقدونيون من أصول يونانية ، كما كانوا يشكلون – تاريخيا – جزءا من الشعب اليونانى ، وبالتالى لم يكونوا يرتبطون بأية رابطة سواء – موضوعية أو روحية – باليوغسلاف .

		وقد تمكن المقدونيون بحلول عام ١٩٩٣ من نيل استقلالهم بحد السيف وأقاموا دولة مقدونيا التى تجسد هويتهم .
الحركة العرقية السلوفينية	يوغسلافيا (السابقة)	استهدفت هذه الحركة انفصال سلوفينيا عن يوغسلافيا، وقد تحقق لها ما أرادت من خلال حرب ضروس خاضت غمارها عام ١٩٩٣ .
الحركة العرقية الكرواتية	يوغسلافيا (السابقة)	استهدفت هذه الحركة انفصال كرواتيا عن يوغسلافيا ، وقد حققت هدفها بالفعل على إثر صراع مسلح طويل انتهى عام ١٩٩٣ .
الحركة العرقية لمسلمى البوسنة	يوغسلافيا (السابقة)	إستهدفت هذه الحركة إنفصال جمهورية البوسنة والهرسك عن يوغسلافيا ، وقد أعلن استقلال الجمهورية بالفعل على إثر استفتاء أجرى عام ١٩٩٢ غير أن ثمة حربا ضروبا اندلعت فى هذه الجمهورية وانتهى الأمر عام ١٩٩٦ بتوقيع الأطراف المتحاربة على اتفاقية ديتون ، والتى بمقتضاها أصبحت البوسنة دولة مستقلة تضم رابطة فيدرالية بين المسلمين والكروات ، ترتبط بدورها برابطة كنفدرالية مع صرب البوسنة .
الحركة العرقية فى كيبيك (حزب كيبيك)	كندا	وتستهدف انفصال إقليم كيبيك ذى الأغلبية الفرنسية الأصل واللغة عن كندا ذات الأغلبية الأنجلوسكسونية (أصلا ولغة) وذلك على النحو الذى عرضنا له سلفا بالتفصيل .
حركة الباسكيين	إسبانيا	وتستهدف هذه الحركة انفصال إقليم الباسك عن إسبانيا ، وإقامة دولة باسكية مستقلة تضم باسكيى

(منظمـــــة إيتا)		أسبانيا، وبنى نحلتهم الذين يقطنون فـــى فرنســا بالقرب من الحدود الفرنسية الإســبانية . (وقــد سبقت الإشارة إلى هذه الحركة) .

جدول رقم (٢) (*)

المصــدر : تم تركيبه بالإستعانة بالمراجع الآتية :

١ - جار ، مرجع سبق ذكره .

٢ - سعدالدين ابراهيم (مشرف) ، هموم الأقليات ، التقرير الســنوى الأول (١٩٩٣) ، إصدارات مركز ابن خلدون - القاهرة - ١٩٩٤

٣ - White, Stephen & Others (ed.), Developments in East European Politics, Macmillan, 1993.

٤ - محمد حرب ، الصراع الصينى التركستانى ومستقبل تركستان الشـرقية . العدد (١٣٢) من مجلة السياسة الدوليـــة ، أبريــل ١٩٩٨ ، ص ١٠٧ : ١١٣.

هـ . أ . ل . فشر ، تاريخ أوربــا فــى العصــر الحديـث : ١٧٨٩ - ١٩٥٠، تعريب أحمد نجيــب هاشــم ، وديــع الضبــع ، القــاهرة - دار المعارف- الطبعة الثامنة ، ١٩٨٤ .

(*) لم ينطو هذا الجدول على العديد والعديد من الحركات الانفصاليـــة التـــى عرفــها الإتحاد السوفيتى السابق وجمهورياته وهى الحركات التى سنعرض لـــها بتفصيــل طويل من خلال القسم الثالث .

وفيما يلى نعرض بشئ من التفصيل لإحــــدى الحركـــات العرقيـــة الانفصالية فى عالمنا المعاصر ، وهى الحركة العرقية فى جنوب السودان .

* * * * *

الحركة العرقية فى جنوب السودان

تبلغ مساحة إقليم جنوب السودان مايربو على ربع مساحة الدولة السودانية ، إذ تقدر مساحة الإقليم بحوالى ٦٥٠٠٠٠ كيلو متر مربع ، فى حين أن مساحة السودان قاطبة تصل إلى حوالى ٨١٣ر٥٠٥ر٢ كيلومتر مربع . وقد بلغ عدد سكان الإقليم الجنوبى - حسب إحصاء عام ١٩٨٣ - حوالى ٢٩٦ر٣٧١ر٥ نسمة ، يشكلون زهاء ربع سكان الدولة السودانية البالغ عددهم - حسب ذات الإحصاء - حوالى ٥٨٢ر٥٩٢ر٢١ نسمة [(١)] . وينطوى هذا الكيان البشرى للدولة السودانية على تنوع عرقى هائل ، إذ يضم المئات من الجماعات العرقية المتباينة سلاليا ولغويا ودينيا وثقافيا ، وإن كان ثمة اختلاف بين الباحثين حول عدد هذه الجماعات. إذ يذكر البعض أن : " السودان بها ٧٥٢ قبيلة ، وأن ثمة ١١٤ لغة متداولة داخل حدودها ، أما فيما يتصل بالأصول السلالية للسودانيين فإن ٤٠% منهم ينحدرون من أصول عربية ، كما أن ٣٠% جنوبيون من أصول أفريقية ، و١٢% من قبائل غرب افريقيا ، و ١٢% نوباويون وبجاة ، و ٣% نوبيون ، ٣% أجانب ومولودون . وبصدد التقسيم اللغوى فى البلاد فإن ٥١% من السودانيين يتكلمون العربية ، فى حين يتكلم باقى السودانيين لغات ولهجات أخرى " [(٢)] .

وثمة من الباحثين من يذكر أن : " السودان يتكون من أجناس شتى وثقافات عديدة ، حيث يضم بين جنباته نحو ٥٩٧ قبيلة يتحدثون أكثر من ٤٠٠ لغة ولهجة، ويمارسون طقوسا دينية متنوعة فى إطار كل من الإسلام،

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : أحمد الصاوى ، الأقليات التاريخية فى الوطن العربى ، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٢) ورد فى : عبدالملك عودة ، مستقبل جنوب السودان بين وحدة الدولة أو الإنفصال ، مجلة السياسة الدولية ، العدد (١٠٩) ، يوليو ١٩٩٢ ، ص ٧ .

والأديان القبلية ، والمسيحية ، وذلك على الترتيب [١] . ويشير باحث ثالث إلى أن " السودانيين ينقسمون إلى أكثر من ٥٣٠ قبيلة تختلف أصولها العرقية بين العروبة والزنجية ، كما تختلف لغاتها ولهجاتها المحلية " . ويشير رابع إلى أن " ٤٠% من سكان السودان من العرب ، و٦٠% من الأفارقة ، وأن المسلمين يشكلون ثلثى السكان ، فى حين يشكل المسيحيون وأصحاب الديانات الطبيعية الثلث الباقى " . ويذكر سادس أن : " السودان يضم ٥٨٣ قبيلة تتحدث ٢٠٧ لهجة " . ويشير سابع إلى " أن السودان يضم أكثر من ٦٠٠ مجموعة عرقية " [٢] .

ومهما يكن من أمر ذلك الاختلاف بين الباحثين حول التركيب العرقى للكيان البشرى السودانى فإنه يلاحظ أن ثمة اتفاقا عاما بينهم على أن عدد الجماعات العرقية القاطنة للسودان يبلغ بضع مئات . الأمر الذى يؤكد - دون ريب - صدق مقولتنا السابقة بأن ثمة تنوعا عرقيا هائلا ينطوى عليه الكيان البشرى للدولة السودانية .

واستكمالا لما تقدم نذكر أن سكان شمال السودان ينحدرون من أصول حامية / سامية ، إذ جاءوا إلى موطنهم هذا من خلال موجات متتابعة من الهجرات العربية [٣] . فى حين ينتمى شعب الجنوب إلى ثلاث مجموعات سلالية كبرى تتمثل فى النيليين Nilots ، والنيليين الحاميين Nilohamites ، والسودانيين Sudanic. وتضم هذه المجموعات الثلاث الكبرى عشرات من الجماعات العرقية التحتية (القبائل) ، ويتمثل أظهر قبائل جنوب السودان فى

---

(١) طلعت محمود عبدالرازق (مقرر) وآخرون ، الأقليات فى المنطقة العربية وتأثيرها على الأمن القومى العربى ، تقرير صادر من وزارة الدفاع المصرية (بدون تاريخ) ، ص ٨٣.

(٢) أنظر بصدد هذه الأطروحات : طلعت رميح ، مستقبل السودان : أزمة الحكم ، أزمة الجنوب ، أزمة الهوية ، (بدون ناشر) ، ١٩٩٤ ، ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ،

(٣) كلامد بشير حامد ، نشر السلطة والتكامل القومى فى جنوب السودان ، مجلة السياسة الدولية، العدد ٩١ ، يناير ١٩٨٨ ، ص ٩٠ .

: الدينكا ، والنوير ، والشلوك (مجموعة قبائل) ، والباري ، والمنـــداري ، والأزاندي ، والبونجو [١] . ويتوزع الجنوبيون على ثلاث مديريات تشـــكل مجتمعة إقليم جنوب السودان ، وهي مديريات بحر الغزال ، وأعالي النيـل ، والمديرية الإستوائية . أما بصدد الأديان المنتشرة في الجنوب فيشير الكتــاب السنوي للتبشير Annual Mission Book لعام ١٩٨١ (والــذي يصــدره مجلس الكنائس العالمي) إلى أن ٦٥% من سكان الجنوب لايعتنقون ديانـات سماوية، وأن ١٨% منهم مسلمون، و١٧% يدينون بالمسيحية [٢].

ويتضح في ثنايا ماتقدم أن ثمة تنوعا عرقيا هائلا ينطوي عليه الكيــان البشري لإقليم جنوب السودان وبالتالي فإن سكان الجنوب هم أبعد مـايكونون عن تشكيل أمة واحدة ، كما أنهم ليسوا - كما قد يعتقد البعض - على قلــب رجل واحد . وتلكم هي الحقيقة التي يعبر عنها أحد كبار الساسة الســودانيين الجنوبيين وهو أبيل ألير بقوله: " إن أهل الجنوب ينحـــدرون مــن أصــول وجذور متعددة ، جغرافيــا وتاريخيا ، وهم لم يكونوا في يوم من الأيام شعبا موحدا متسق السياسة ، محدد الخطط أمام القوى الأجنبية ، بل على نقيــض ذلك كان كثير من الجنوبيين يقاتل جيرانه ، وبالتالي فقد كــانت الصدامــات بينهم أمرا شائعا وسمة بارزة على نحو أدى إلـــى إضعافــهم إزاء التدخــل الأجنبي الذي تعرضوا له ، بيد أنهم برغم هذا التنافر يجمع بينــهم الرفــض للقوى الأجنبية ، وللسخرة وللابتزاز ، ولمصادرة أموالهم وممتلكاتهم ، والحد من حريتهم الفردية التي عليها يحرصون ويعضون بالنواجذ " [٣] .

ويبقى التساؤل : إذا كان الشماليون لاينتمون إلى اصل سلالي واحد ،

---

(١) راجع في ذلك بتفصيل طويل : سعد الدين ابراهيم ، الملل والنحل ... ، مرجع ســبق ذكره ، من ص ٣١٥ إلى ص ٣٢٢ .

(٢) أنظر في هذا المضمون : أحمد الصاوي ، منرجع سبق ذكره ، ص ٨٧ ، ٩٠ .

(٣) أنظر في هذا المضمون : أبيل ألير ، جنوب السودان : التمادي في نقض المواثيــق والعهود ، ترجمة بشير محمد سعيد ، ميد لايت المحدودة ، لنـدن ، ١٩٩٢، ص ١٣ ، ١٤ .

وكذا الجنوبيون ما الذى يجمع كلا الفريقين - إذاً - فى مواجهة الآخر ؟

يجيب على ذلك أحد المثقفين الجنوبيين وهو دانستان بقوله : " يعتبر السودانيون الشماليون أنفسهم عربا ، ويعتبر السودانيون الجنوبيون أنفسهم أفارقة ، وهذا الشقاق الأفرو - عربى الحاد ينفى فكرة السودان الواحد، والشعب الواحد " [1] .

على صعيد آخر فإن ثمة تساؤلا آخر يطرح نفسه ألا وهو : كيف تم تجميع تلك الفسيفساء العرقية التى ينطوى عليها الكيان البشرى السودانى فى دولة واحدة ؟ وبمعنى آخر ماذا كان السبيل إلى تخليق دولة كالسودان تنطوى على كل هذا التنوع العرقى ؟

يؤكد المهتمون بشئون الدولة السودانية أن هذه الدولة إنما قامت - منذ البداية - على التجميع الإجبارى لعديد من شعوب غير متجانسة قوميا . حيث تأسست الدولة السودانية على يد والى مصر محمد على ، الذى راح يرسل جحافله إلى الجنوب بدءا من عام ١٨٢١ ، مؤسسا بذلك الكيان السودانى المعاصر من خلال القوة المسلحة . ويقول فى ذلك الباحث السودانى إيزانا أنوك : " إن السودان هو كيان مفتعل أوجده الحكم التركى المصرى خلال الفترة (١٨٢١ - ١٨٧٥)[2].

ويؤكد على ذلك أبيل ألير بقوله : " عندما غزا محمد على السودان ، واحتل أراضيه فى الربع الأول من القرن التاسع عشر لم يكن هناك كيان سياسى موحد بإسم ذلك القطر ، بل كانت هناك سلطتا سنار ودارفور تسيطران على الجزء الأكبر مما نسميه اليوم بالسودان الشمالى . وكانت الممرات المائية الواقعة فى الجنوب وهى بحر العرب ، وبحر الغزال ، والنيل الأبيض ، والسوباط ، خاضعة لسيطرة الدينكا ، والنوير ، والشولك ، والأنواك ، وهى من أكبر القبائل فى السودان الجنوبى ، ولم تكن قبضة هذه

---

(١) أنظر فى هذا الصدد : محمد بشير حامد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٠ .
(٢) طلعت رميح ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٧ .

القبائل قاصرة على هذه الممرات المائية ، بل كانت تمتد إلى المراعى والسهول المحيطة بها " (١) .

وجملة القول فى شأن ماتقدم أن بنيان الدولة السودانية إنما أسس على التجميع الإجبارى لشعوب عديدة غير متجانسة قوميا ، وأنه على الرغم من التنوع العرقى الهائل الذى ينطوى عليه الكيان البشرى لكل من الجنوب والشمال فإن الجنوبيين – عموما – يعتبرون أنفسهم أفارقة ، فى حين يعتبر الشماليون أنفسهم عربا . ويمكن القول أن هذا الإدراك – لاسيما من جانب الجنوبيين – قد تعمق بفعل عاملين رئيسيين هما :

١ – السياسة الجنوبية التى اتبعها المحتلون الإنجليز فى السودان خلال الفترة (١٩٢٠-١٩٥٠) ، والتى كانوا يسعون من ورائها إلى عزل جنوب السودان تماما عن الشمال ، وإلحاقه بمستعمرات بريطانيا فى شرق أفريقيا . وفى سبيل ذلك عمد الإنجليز إلى محاصرة الوجود العربى الإسلامى فى الجنوب ، من خلال إبدال كافة الموظفين والإداريين والفنيين العرب – من مصريين وسودانيين شماليين العاملين فى المديريات الجنوبية الثلاث بنظراء لهم جنوبيين ، كما شرع الإنجليز فى التضييق على التجار الشماليين العاملين فى الجنوب ، فضلا عن تشجيع استخدام اللغات المحلية الجنوبية (غير العربية) ، والسعى إلى أن تكون الإنجليزية لا العربية هى لغة التفاهم بين قبائل الجنوب . وفوق ماتقدم فقد قام الإنجليز بإنشاء شريط أرضى بعرض عدة كيلومترات ، ليفصل بين المديريات الشمالية والمديريات الجنوبية ، حيث أفرغ هذا الشريط من سكانه تماما وأخليت كل قراه ونسفت مؤسساته ومرافقه بهدف وأد كل فرص الاتصال والتفاعل بين الشماليين والجنوبيين (٢) .

٢ – قرارات لجنة السودنة التى صدرت عام ١٩٥٤ خلال فترة

---

(١) أبيل ألير ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١ .

(٢) أنظر فى هذا المضمون : سعدالدين ابراهيم ، الملل والنحل ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١٣ ، ٣١٤ .

الإعداد لاستقلال السودان . ويقصد بالسودنة إبدال الكوادر الإدارية والفنية الإنجليزية التى كانت تدير شئون البلاد بأخرى سودانية تمهيدا للاستقلال . ويؤكد المهتمون بشئون السودان أن قرارات لجنة السودنة كانت متحيزة لسودانيي الشمال ، وبالتالى فقد كانت تتضمن افتئاتا على حقوق سودانيي الجنوب ، الأمر الذى كان من شأنه أن أثار استياء الجنوبيين ، وعمق شعورهم بالإغتراب إزاء الشماليين . وهذه هى الحقيقة التى يؤكدها أحد الباحثين السودانيين – وهو محمد عمر بشير – بقوله : " لقد قامت لجنة السودنة وفقا لأفضل التقاليد التى أرستها الإدارة الإنجليزية للخدمة المدنية بالتعيين وبالترقيات تبعا للخبرة والمؤهلات ، ولكن لما كانت الوظائف التى تولاها الجنوبيون – وقتذاك – أقل وأدنى بكثير من تلك التى تولاها الشماليون فإن الجنوبيين لم يستفيدوا استفادة تذكر من سودنة الوظائف العمومية ، ذلك بأنه لم يعين منهم غير أربعة فى وظيفة مساعد مفتش ، وإثنين فى وظيفة مأمور ، وكانت تلك الوظائف هى أعلى ماعينوا فيه ، الأمر الذى كان مخيبا لآمال المتعلمين الجنوبيين، الذين بدأوا ينظرون للسودنة وكأنها عملية استبدال سيد (سودانيو الشمال) بسيد آخر (الإنجليز)، بل وراحوا ينظرون للأمر وكأنه استعمار جديد من الشمال " (١)

وهكذا شيئا فشيئا تعمقت أسباب استياء الجنوبيين إزاء الشماليين ، لكى تغرس فى الواقع السودانى – قبيل الإستقلال عن إنجلترا – بذور حرب أهلية ضروس لاتزال رحاها دائرة حتى يومنا هذا .

ولقد تمثلت الشرارة الأولى التى أشعلت أوار هذه الحرب فى التمرد الذى قامت به الفرقة العسكرية الجنوبية الإستوائية فى أغسطس عام ١٩٥٥، على إثر سريان اشاعة عن مقتل جندى جنوبى على يد نظير له شمالى (٢) . وسرعان ماشرعت هذه الفرقة فى مهاجمة القوات الشمالية ، حيث أسفر

---

(١) ورد فى : عبدالملك عودة ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢ .

(٢) سعدالدين ابراهيم ، الملل والنحل ... مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٦ .

القتال بين الطرفين عن مصرع ٢٦١ من الشماليين ، و٧٥ من الجنوبيين . كما فر رتل من جنود الفرقة الإستوائية بأسلحتهم إلى الغابات والأحراش ، وقاوموا قوات الحكومة ، واعتدوا على الأهالى وأفراد القبائل ، وأحالوا المنطقة إلى بؤرة نزاع مسلح (١) . وتجدر الإشارة إلى أن فلول الفرقة الإستوائية التى فرت إلى الأحراش إبان تمرد أغسطس ١٩٥٥ قد مثلت النواة التى تشكل منها جيش حرب العصابات الانفصالى المعروف " بالأنيانيا " Anyanya ، ذلك الجيش الذى كان بمثابة الجناح العسكرى لمنظمة جنوبية انفصالية هى منظمة سانو Sanu أو إن شئنا منظمة الإتحاد الوطنى السودانى الأفريقى Sudan African National Union . وقد تشكلت منظمة سانو فى أوغندا من جانب لفيف من أبناء جنوب السودان كان أفراده قد نزحوا إلى الدولة الأوغندية غداة اعتلاء العسكريين سدة الحكم فى الخرطوم على إثر انقلاب عسكرى تزعمه إبراهيم عبود فى ١٧ ديسمبر عام ١٩٥٨ (٢) . وعلى الرغم من تعدد المنظمات والأحزاب السياسية ذات الطابع العرقى التى نشأت بغية تبنى قضية الجنوب فإن منظمة سانو كانت أوسعها قاعدة ، وأكثرها تنظيما ، وأمضاها تأثيرا . وإن كان قد عابها عدم إلتقاء سائر أعضائها حول هدف واحد بصدد مستقبل جنوب السودان ، إذ كان ثمة جناح يطالب بإقامة دولة سودانية فيدرالية تضم الشمال والجنوب ، فى حين أن جناحا آخر كان يتبنى مطلب انفصال جنوب السودان تماما عن شماله ، وإقامة دولة جنوبية مستقلة (٣) .

على صعيد آخر فإنه بوصول عبود إلى الحكم فى الخرطوم عام ١٩٥٨ واستتباب حكمه مع بداية عقد الستينيات راح الزعيم السودانى يشرع

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : عبدالملك عودة ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢ .

(٢) أنظر فى هذا المضمون : السيد السيد حجاج ، الحياة السياسية فى السودان من الإستقلال يناير ١٩٥٦ حتى مايو ١٩٦٩ ، مجلة كلية التجارة ، جامعة الإسكندرية - (المجلد ١٩) العدد الثانى لسنة ١٩٨٢ ، ص ٦٥ .

(٣) أنظر بصدد الإشارة إلى هذين الجناحين : المرجع السابق .

فى تنفيذ برامج لتعريب التعليم فى الجنوب ، وفتح المعاهد الدينية الإسلامية ، كما عمد إلى زيادة عدد الضباط الشماليين فى المناصب الإدارية (وخاصة المحافظين ونوابهم) فى المديريات الجنوبية الثلاث . وفضلا عن ذلك فإن الحكومة العسكرية الجديدة لم تتردد فى اللجوء إلى كافة أساليب البطش والعنف مع دعاة الإنفصال وكذا مع دعاة الفيدرالية فى الجنوب [1] .

ولقد كان من شأن ذلك كل ذلك أن تأججت مشاعر الاستياء إزاء الشماليين لدى أبناء الجنوب ، وراحت قوات الأنيانيا تباشر نشاطها العسكرى بدءا من شهر سبتمبر عام ١٩٦٣ ، حيث قامت هذه القوات- وقتذاك - بشن العديد من الهجمات على مراكز الجيش والشرطة السودانية قرب المناطق الحدودية مع إثيوبيا ، وشيئا فشيئا تعددت مثل هذه الهجمات ، واتسع مجال نشاط الأنيانيا خلال الشهور التالية ، لكى تبلغ ذروة اتساعها بحلول عام ١٩٦٤ إثر حصول الأنيانيا على كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة قام بنقلها إلى مقاتليها أحد القساوسة الجنوبيين من خلال أراضى الكونغو ، حيث كان هذا القس أحد أعضاء منظمة سانو . وبتلقيهم لتلك الأسلحة راح مقاتلو الأنيانيا يعمدون إلى توسيع وتكثيف هجماتهم ومد عملياتهم إلى مديرية بحر الغزال [2] ، لكى يتسع بذلك نطاق الحرب الأهلية فى السودان ، ويستعر أوارها .

وفى ٢٩ أكتوبر ١٩٦٤ اضطر عبود - تحت وطأة الضغوط الشعبية- إلى التخلى عن الحكم لصالح حكومة مدنية ترأسها سر الختم خليفة . وقد راح الزعيم السودانى الجديد يعلن اعتزامه اتباع سياسة جديدة قوامها التفاوض بصدد مشكلة جنوب السودان ، حيث دعا الجنوبيين إلى مؤتمر مائدة مستديرة فى الخرطوم خلال شهر مارس عام ١٩٦٥ ، وسرعان مالقيت دعوة سر الختم هذه قبولا لايستهان به من جانب المنظمات والأحزاب

---

(١) سعدالدين ابراهيم ، الملل والنحل ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٧ .

(٢) أنظر فى هذا المضمون : المرجع السابق ، ص ٣٢٨ .

الجنوبية ومن بينها سانو . وبالتالى فقد انعقد المؤتمر بالفعل فى العاصمة السودانية خلال شهر مارس عام ١٩٦٥ ، وإن كان لم يحضره قادة الأنيانيا . وعلى أية حال فقد فشل المؤتمر فى التوصل إلى صيغة يقبلها جميع الأطراف بصدد مستقبل الجنوب ، كما بات واضحا خلال هذا المؤتمر أن ثمة انقساما بائنا بين الجنوبيين بصدد موقفهم من المشكلة ، إذ كان ثمة تنظيمات جنوبية تطالب بقيام نظام فيدرالى فى السودان يضم الشمال والجنوب معا، فيما كانت هناك تنظيمات أخرى تعض بالنواجذ على مطلب استقلال جنوب السودان عن شماله ، وإقامة دولة جنوبية مستقلة [١] .

وبفشل مؤتمر المائدة المستديرة اشتعل من جديد أوار الحرب بين قوات الأنيانيا والقوات الحكومية ، وسرعان ماتأججت المعارك بين الجانبين مع وصول حكومة محمد محجوب ذى النهج المتشدد إلى الحكم فى الخرطوم بحلول أواخر شهر أبريل عام ١٩٦٥ ، حيث كان محجوب من دعاة استخدام الصرامة مع المتمردين الجنوبيين ، كما كان من أنصار تعريب وأسلمة الجنوب [٢] . لذلك فقد شهد شهرا يونيو ويوليو من ذات العام (١٩٦٥) تصعيدا لعمليات الجيش وقوات الأمن الحكوميين فى مواجهة المنظمات العسكرية والسياسية الجنوبية . وقد أسفر القتال بين الفريقين وقتذاك عن مصرع وإصابة حوالى ٥٠٠ شخص فى مدينتى "واو " و " جوبا " ، كما أدى احتدام المعارك بين الجانبين إلى فرار عشرات الآلاف من المدنيين الجنوبيين إلى الدول الأفريقية المجاورة ، وتحولهم إلى لاجئين [٣] .

على صعيد آخر فقد تزايدت الانشقاقات داخل صفوف الجنوبيين ، وقد كان أظهر هذه الإنشقاقات ذلك الإنشقاق الذى طال منظمة سانو فى شهر

---

(١) أنظر بصدد مؤتمر المائدة المستديرة : محمد بشير حامد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٢ .

(٢) أنظر فى هذا المضمون : سعدالدين ابراهيم ، الملل والنحل ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .

يونيو عام ١٩٦٥ ، إذ انسلخ عنها – وقتذاك – لفيف من قياداتها وراحوا يؤلفون جبهة انفصالية جديدة عرفت بجبهة تحرير أزانيا ، والتى تبنت هدفا رئيسيا قوامه الانفصال الكامل للجنوب عن الشمال [١] .

وفى أغسطس ١٩٦٧ عقد بمدينة أنجوردى بجنوب السودان مؤتمر هام شاركت فيه عدة فصائل جنوبية بالإضافة إلى قادة الأنيانيا . وقد تمخض هذا المؤتمر عن إعلان تكوين حكومة مؤقتة لجنوب السودان ، على أن تكون بلدة بانجو عاصمة مؤقتة لتلك الحكومة . غير أن زعيم جبهة أزانيا لم يحضر مؤتمر أنجوردى ، الأمر الذى تأكد معه الانقسام الحاد بين الجنوبيين أنفسهم ، بصدد موقفهم من مشكلة جنوب السودان [٢] ، وهو الانقسام الذى ظل يمثل السمة الرئيسية للحركة العرقية فى جنوب السودان . ففى مارس ١٩٦٩ اجتمع فى باجو باندى بجنوب السودان ممثلون عن عديد من المنظمات الجنوبية ، حيث راحوا يعلنون إلغاء حكومة جنوب السودان المؤقتة ، ويشكلون حكومة جنوبية جديدة أطلقوا عليها حكومة النيل . وقد كان أهم توجهات هذه الحكومة هو التأكيد على استقلال الجنوب تماما عن الشمال ، واستخدام الكفاح المسلح طريقا لذلك ، بالتعاون مع الأنيانيا ، بغية القضاء المبرم على سيطرة العرب على الجنوبيين . غير أنه سرعان ماتصاعد الانقسام فى صفوف الجنوبيين ، حيث ظهرت تنظيمات جديدة منافسة لحكومة النيل حال منظمة نهر سو ، ومنظمة أزانيا السودانية ، كما أعلن قائد الأنيانيا عن معارضته لحكومة النيل ، وتكوينه لحكومة دولة أنيدى تحت رئاسته . وفى يوليو من عام ١٩٧٠ تم حل حكومة النيل ، وبات القائد العام للأنيانيا الجديد – جوزيف لاجو – أقوى زعماء الجنوب . وقد راح لاجو يعلن عن قيام منظمة انفصالية جديدة تحت إمرته ، وهى جبهة تحرير

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : طلعت عبدالرازق (محرر) وآخرون : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٣ .

(٢) أنظر فى هذا المضمون : سعدالدين ابراهيم ، الملل والنحل ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣٢ .

جنوب السودان . وذلك فى الوقت الذى كان الصراع الدامى يدور فيه على أشده بين الأنيانيا وقوات حكومة الخرطوم [(١)] .

على صعيد آخر فإن زعامة سودانية جديدة كانت قد جاءت إلى الحكم على إثر انقلاب عسكرى تزعمته فى ٢٥ مايو ١٩٦٩ ، وتتمثل هذه الزعامة فى الرئيس السودانى الأسبق جعفر النميرى . وقد كان توجه النميرى إزاء مشكلة الجنوب مغايرا إلى حد كبير لمواقف أسلافه ، ففى ٩ يونيو عام ١٩٦٩ راح الزعيم السودانى يعلن : أن سياسة حكومته فى الجنوب تقوم على أساس العمل على منح الجنوبيين حكما ذاتيا إقليميا فى إطار السودان الموحد ، نظرا لأن ثمة فوارق تاريخية وثقافية بين الشمال والجنوب ، وبالتالى فإن وحدة البلاد يجب أن تبنى فى ضوء هذه الحقائق الموضوعية [(٢)].

وعلى الرغم من التغير الكبير فى موقف الخرطوم من مشكلة الجنوب والذى تجسد فى مبادرة نميرى المتقدمة فإن الصراع الدامى بين الأنيانيا وقوات الجيش السودانى قد استمر ، بل وقد شهد عاما ١٩٧٠ ، ١٩٧١ تصعيدا للعمليات العسكرية بين الطرفين [(٣)] . غير أنه على إثر انتخاب نميرى رئيسا للسودان – فى أكتوبر ١٩٧١ – راح الزعيم السودانى يجرى اتصالات سرية مع قادة الجنوب ، كما سعى الإمبراطور الأثيوبى هيلاسلاسى إلى التقريب بين مواقف الفصيلين السودانيين المتنازعين [(٤)] ، الأمر الذى تمخض فى النهاية عن توقيع اتفاقية أديس أبابا للمصالحة السودانية فى فبراير عام ١٩٧٢ ، تلك الإتفاقية التى أنهت حربا أهلية

---

(١) راجع فى هذا المضمون : المرجع السابق ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٥ .
(٢) أنظر فى هذا المضمون : طلعت عبدالرازق (محرر) وآخرون ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٣ .
(٣) أنظر فى هذا المضمون : سعدالدين إبراهيم ، الملل والنحل ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣٥ .
(٤) محمد بشير حامد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٣ .

استمرت خلال الفترة (١٩٥٥ - ١٩٧٢) ، وكانت تكلف السودان حوالى ٥٠ مليون من الجنيهات الإسترلينية سنويا ، فضلا عن أنها حصدت آلاف الأرواح ، ودمرت عشرات القوى والمرافق ، وشردت مئات الآلاف من المدنيين ، وعمقت الحقد والكراهية فى نفوس أبناء البلد الواحد ، وعطلت مسيرة السودان نحو تحقيق وحدته الوطنية ، وأعاقت تدعيم استقلاله ، ووقفت حائلا بينه وبين التغلب على مشكلاته الإقتصادية والإجتماعية (١) .

على أية حال فإنه فى ٢٧ فبراير ١٩٧٢ تم - فى العاصمة الإثيوبية - التوقيع على اتفاقية أديس أبابا من جانب ممثلين عن الحكومة السودانية ونظراء لهم عن حركة تحرير جنوب السودان ، وبحضور ممثل عن إمبراطور إثيوبيا ، وآخرين عن كل من مجلس الكنائس العالمى ، ومجلس كنائس أفريقيا ، ومجلس الكنائس السودانى . وبمقتضى هذه الإتفاقية منحت المديريات السودانية الجنوبية الثلاث حكما ذاتيا فى إطار دولة السودان ، حيث تم التوقيع على مايعرف " بالقانون الأساسى لتنظيم الحكم الذاتى الإقليمى فى المديريات الجنوبية لجمهورية السودان الديمقراطية " . ويتمثل أهم ما تضمنه هذا القانون فيما يلى (٢) :

١ - بمقتضى المادة الرابعة : تشكل مديريات بحر الغزال والإستوائية وأعالى النيل منطقة حكم ذاتى داخل إطار جمهورية السودان الديمقراطية ، وتعرف بإسم المنطقة الجنوبية .

٢ - بمقتضى المادة الخامسة : تضم المنطقة الجنوبية أفرعا تنفيذية وتشريعية ، ويحدد هذا القانون وظائفها وسلطاتها .

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : سعد الدين ابراهيم ، الملل والنحل ... ، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢٥ .

(٢) اعتمدنا بصدد هذا القانون على : وثيقة منشورة بمجلة السياسة الدولية ، العدد ٩١ ، يناير ١٩٨٨ ، بعنوان : اتفاقية أديس أبابا ، ترجمة مجدى على عطية ، من ص ١٤٦ إلى ص ١٥٠ .

٣ – بمقتضى المادة السادسة : العربية هي اللغة الرسمية للسودان ، والإنجليزية هى اللغة الرئيسية للمنطقة الجنوبية ، دون المساس باستخدام أية لغة أو لغات أخرى قد تخدم الضرورة العملية لتأدية الوظائف الإدارية ، والتنفيذية فى المنطقة على نحو كفء وسريع .

٤ – بمقتضى المادة الثامنة : يمارس التشريع الإقليمى فى المنطقة الجنوبية بواسطة مجلس شعب إقليمى ينتخبه المواطنون السودانيون المقيمون فى المنطقة الجنوبية ، ويحدد القانون تكوين وشروط عضوية المجلس.

٥ – بمقتضى المادة السابعة عشرة : تؤول السلطة التنفيذية الإقليمية إلى المجلس التنفيذى العالى الذى يتصرف بالنيابة عن الرئيس .

٦ – بمقتضى المادة الخامسة والعشرين : يجوز لمجلس الشعب الإقليمى فرض رسوم وضرائب إقليمية إلى جانب الرسوم والضرائب القومية والمحلية ، ويجوز له أيضا إصدار التشريعات والأوامر لضمان جباية كافة الأموال العامة على مختلف المستويات .

والحق أنه يتضح فى ثنايا النصوص السابقة أن اتفاقية أديس أبابا لعام ١٩٧٢ قد منحت الجنوبيين دورا عظيم الشأن فى إدارة شئونهم الخاصة، ويمكن القول أن الإختصاصات والصلاحيات التى حصل عليها الجنوبيون بمقتضى الإتفاقية كانت تجاوز نظيراتها الممنوحة للحكومات المحلية (حكومات الولايات) فى ظل الدول الفيدرالية . وفضلا عما تضمنته اتفاقية أديس أبابا من صلاحيات واسعة لصالح الجنوبيين – على النحو المتقدم – فقد سمح لهم بأن تكون لهم حياتهم السياسية ذات الطابع الليبرالى ، على الرغم من أن التنظيم السياسى فى الشمال كان يقوم على أساس نظام الحزب الواحد. وهكذا فعلى حين سمح للجنوبيين بالأخذ بنظام التعددية الحزبية ، كان الشماليون يئنون تحت نير نظام الحزب الواحد (الإتحاد الإشتراكى) الذى فرضه النميرى ، وعلى ذلك فقد كان الجنوب – فى ظل اتفاقية أديس أبابا – يكاد يمثل دولة داخل دولة .

ولعله يكون قد اتضح من خلال ماتقدم لماذا وافقت جبهة تحرير السودان على التخلى عن مسعاها الانفصالى ، وإلقاء أسلحتها ، والانضواء تحت لواء اتفاقية أديس أبابا .

على أية حال فإنه يمكن القول أن اتفاقية أديس أبابا قد نجحت في اخماد نيران الحرب الأهلية في السودان ، وإعادة الإستقرار إلى ربوعه وقد استمر هذا الاستقرار لمدة عشر سنوات ، لم تخل من تعبير الجنوبيين عن سخطهم غير مرة إزاء كل مايعتبرونه انتهاكا من جانب النميرى لاتفاقية أديس أبابا . غير أن هذا السخط قد تزايد مع بداية عقد الثمانينات وبلغ أوجه مع بداية عام ١٩٨٣ ، على نحو هيأ لانهيار اتفاقية أديس أبابا ، وظهور حركة عرقية جنوبية جديدة راحت تعلن تمردها على حكومة الخرطوم ، لكى يشتعل من جديد أوار الحرب الأهلية فى السودان . ويمكن القول أن أهم أسباب إنهيار اتفاقية أديس أبابا – من وجهة نظر الجنوبيين – قد تمثلت فى (١) :

١ – تدخل الحكومة المركزية فى عمليات تعيين قيادات الإقليم الجنوبى .

٢ – قيام الحكومة المركزية بشكل غير دستورى بحل حكومات ومجالس شعب الإقليم الجنوبى فى أعوام ١٩٨٠ ، ١٩٨١ ، ١٩٨٣ .

٣ – اتجاه حكومة الخرطوم إلى التكامل مع مصر ، وعقد اتفاقية دفاع مشترك بين الجانبين . وقد عبر أحد السياسيين الجنوبيين (المسلمين) وهو – مانجو الجاك – عن موقف الجنوبيين الرافض للتكامل مع مصر بقوله : " أما عن موقف الجنوبيين من العرب والوحدة العربية وموقفهم من مصر خصوصا فقد مر بمراحل عديدة ، فإلى وقت قريب جدا كانت هناك عداوة شديدة لكل ماهو عربى ... ومن هنا كان رفض الجنوبيين لمشاريع الوحدة أو الإتحاد بين السودان ومصر وليبيا على أساس أن

---

(١) أنظر بصدد هذه الأسباب على سبيل المثال: طلعت عبدالرازق (محرر) وآخرون، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٥ .

ذلك سيجعل منهم أقلية داخل أقلية ، ولما علق فى أذهان الجنوبيين عـن دور العرب فى تجارة الرقيق .. إننا نخاف من سيطرة وهيمنة الشـمال علينا ... فما بالك بمن هم أكثر تقدما وأكبر عـددا مـن الشـماليين ... وبرغم أن صورة العرب قد تحسنت كثيرا فى الجنوب منذ اتفاقية أديس أبابا وخاصة بسبب ما لمسه الجنوبيون من مساعدات مصر والكويت لهم .. إلا أن مخاوفهم ماتزال قوية .. لذلك فحين عرض مشروع التكـامل بين مصر والسودان للنقاش فى مجلس الشعب السـودانى عـام ١٩٧٦ انسحب النواب الجنوبيون من الجلسة .. إذ كانوا متخوفين من الابتـلاع الهيمنة بواسطة مصر " [١] .

٤ – القرار الذى إتخذه نميرى فى ٦ يونيو عام ١٩٨٣ بإقامة ثلاث حكومات إقليميـة فى الجنـوب (هى حكومات بحر الغزال، الإستوائية ، أعـالى النيل) [٢]. إذ اعتبر بعض الجنوبيين ذلك بمثابة محاولـة مـن جـانب حكومة الخرطوم لإضعاف الجنوب عن طريق سياسة " فرق تسد " [٣] .

تلكم كانت بعض الأسباب التى أججت مشاعر الاستياء لدى الجنوبيين، ذلك الاستياء الذى بلغ أوجه – كما أسلفنا القول – مع بداية عام ١٩٨٣ ، أما الشرارة التى فجرت بركان الاستياء لدى الجنوبيين وعجلت باندلاع الحـرب الأهلية من جديد فقد تمثلت فى سعى حكومة الخرطوم – فى مـايو ١٩٨٣ – إلى إعمال قرار كانت قد اتخذته سلفا بنقل فرق القوات الجنوبية إلى الشمال، إذ راحت القوات الجنوبية تعلن تمردها ورفضها لتنفيذ القرار ، الأمر الـذى أدى إلى وقوع اشتباكات بين هذه القوات وقوات تابعـة للقيـادة العسـكرية الشمالية ، فر على إثرها الجنود والضباط الجنوبيون إلى مناطق الغابـات ، والمناطق الحدودية مع إثيوبيا ، ثم انضم إليهم أحد الضباط الجنوبيين كـان

(١) سعدالدين ابراهيم ، الملل والنحل ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤٥ .

(٢) محمد بشير حامد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٦ .

(٣) أنظر فى هذا المضمون : طلعت عبدالرازق (محرر) وآخرون ، مرجـع سبق ذكره ، ص ٩٦ .

قبل عام ١٩٧٢ يعد أحد مقاتلى الأنيانيا ألا وهو العقيد جون جـــارانج (١) وسرعان ماتزايدت عمليات هروب الجنود الجنوبيين إلى الغابات بالأســـلحة والعتاد ، وراحوا يطلقون على أنفسهم " أنيانيا ٢ . كمـــا ظـــهرت واجهـــة سياسية للمتمردين حيث تزعمهم جون جارانج ، وراح يؤسس حركة جنوبيـة جديدة أطلق عليها الجيش الشعبى لتحرير السودان ، والتى تعـــرف أيضـــا بحركة تحرير شعب السودان ، والتى حرص جارانج من وراء تسميته إياهـا بهذا الإسم إلى إظهار أنها ليس حركة إنفصالية ، كما راح يعلـــن أن هـــدف حركته هو التخلص من حكم النميرى . على أية حـــال فقـــد ازداد اشـــتعال الصراع بين حركة جارانج والقوات الحكومية غداة إصدار النميرى لقرارات تطبيق الشريعـــة الإسلامية فى السودان ، وهى القرارات التى صدرت فـــى سبتمبر عام ١٩٨٣ (٢) .

وعلى إثر ذلك شنت حركة جارانج هجمات عديـــدة علـــى المراكـــز الحكومية ، وكذا على مواقع العمل فى قناة جونجلى ، وحقول البترول خـــلال عامى ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ . وقد أفادت التقارير فى عـــام ١٩٨٤ بـــأن قـــوات جارانج قد نجحت فى قطع الملاحة النهرية بين الشمال والجنـــوب بـــإغراق باخرتين نهريتين قرب ملكال ، بحيث أصبحت الاتصـــالات بيـــن شـــطرى السودان مقتصرة على رحلات الطيران السودانى ، والتى تقلص عددها إلـــى حد كبير خلال عام ١٩٨٤، بل وتوقفت تماما الرحـــلات إلـــى مدينـــة واو عاصمة إقليم بحر الغزال . كما أفادت التقارير بأن حوالى ٣٠٠٠ طالب مـــن طلاب المدارس الثانوية فى الجنوب قد انضموا إلى الأنيانيـــا خـــلال عـــام ١٩٨٣، وأن قوات جارانج قد نجحت فى الاستيلاء على كميات ضخمة مـــن الأسلحة والذخيرة من مخازن الجيش السودانى فى بور ، وببيبور ، وأويـــل ، وأيود ، كما حصلت على كميات أخرى من أوغندا . وفضلا عما تقدم فقـــد

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : عبدالملك عودة ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧ .

(٢) راجع فى هذا المضمون على سبيل المثال : طلعت عبدالرازق (مقرر) وآخرون ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٥ .

أنشأت حركة جارانج محطة إذاعة خاصة بها ، تبث برامجها من منطقة الحدود الإثيوبية (1).

وفى أبريل ١٩٨٥ تمت الإطاحة بالرئيس السودانى جعفر النميرى من خلال انتفاضة شعبية استولى على إثرها الجيش بزعامة الفريق عبدالرحمن سوار الذهب على الحكم ، حيث أعلن بقاءه فى السلطة لمدة عام كفترة انتقالية يتم خلالها انتخاب برلمان سودانى جديد ، ونقل السلطة إلى حكومة مدنية . وقد أعلنت حكومة سوار الذهب عن دعوتها إلى إيجاد حل سلمى لمشكلة الجنوب ، ولقيت هذه الدعوة بالفعل قبولا من جانب جارانج ، وأسفرت هذه النوايا الطيبة عن عقد اجتماع فى كوكادام بإثيوبيا فى مارس عام ١٩٨٦. وقد حضر هذا الإجتماع ممثلون عن حركة جارانج ، ونظراء لهم عن تحالف النقابات المهنية والإتحادات العمالية والأحزاب السياسية فى السودان . وتمخض هذا الإجتماع عن إصدار مايعرف بوثيقة كوكادام . ولعل أبرز ماجاء فى هذه الوثيقة مايلى (2) :

١ - التعهد بالبحث عن السلام من خلال التشاور والسعى إلى عقد مؤتمر دستورى قومى يناقش مختلف جوانب القضية .

٢ - ارتباط انعقاد المؤتمر الدستورى بإلغاء قوانين الشريعة الإسلامية الصادرة فى سبتمبر ١٩٨٣ .

٣ - العودة إلى دستور ١٩٥٦ ذى الطابع العلمانى .

٤ - ضرورة إلغاء الإتفاقيات التى تمس السيادة الوطنية (إشارة إلى اتفاقيات التكامل مع مصر) .

٥ - تعهد حركة جارانج بوقف إطلاق النار فور انعقاد المؤتمر الدستورى وإلغاء قوانين سبتمبر .

---

(١) أنظر فى هذا المضمون: سعدالدين إبراهيم ، الملل والنحل ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤٩ .

(٢) أنظر فى هذا الصدد : المرجع السابق ، ص ٣٥٢ .

وعلى إثر مؤتمر كوكادام أجريت انتخابات برلمانية فى السودان أصبح الصادق المهدى بمقتضاها رئيسا للوزراء . وما أن وصل المهدى إلى الحكم حتى استجد حدث أطاح بمقررات كوكادام ، إذ قامت قوات جارانج بإسقاط طائرة سودانية مدنية فوق ملكال بالجنوب بعد الاشتباه فى أنها تنقل معدات عسكرية . وقد ترتب على ذلك إعلان المهدى وقف أى إتصالات أخرى مع حركة جارانج ، معتبرا اياها منظمة إرهابية (١) ، وليستمر بذلك الصراع الأهلى الدامى فى السودان، والذى لم تفلح كافة الجهود – التى بذلت لحله بالطرق السلمية – فى إخماد نيرانه لسنوات عديدة تالية .

وفى ٣٠ يونيو عام ١٩٨٩ وصل إلى الحكم فى السودان – على إثر انقلاب عسكرى – الرئيس السودانى الحالى الفريق عمر البشير . وعلى الرغم من أن البشير قد أعلن عن أمله فى حل مشكلة الجنوب بالطرق السلمية إلا أنه أكد عدم تخليه عن قوانين الشريعة الإسلامية ، فضلا عن رفضه لأية محاولة انفصالية فى الجنوب . وفى ذات الوقت أكد جارانج رفضه التام لاستمرار الجنوب فى كنف دولة دينية ، وراح يعلن أنه لن يتخلى عن موقفه إلا إذا أصبح السودان دولة علمانية ديمقراطية (٢) . وهكذا فقد راحت قوات الحكومة السودانية تشن حربا شعواء لاهوادة فيها ضد حركة جارانج الذى كان لايزال حتى بداية عقد التسعينيات يعلن أن حركته ليست انفصالية ، وإنما تستهدف فحسب إقامة دولة علمانية ديمقراطية فى السودان . غير أنه فى أغسطس ١٩٩١، أعلنت مجموعة من قيادات حركة جارانج – بشقيها العسكرى والسياسى – انسلاخها عن الحركة . وكان على رأس هذه المجموعة كل من رياك مشار (من قبيلة النوير) ، ولام أكول (من قبيلة الشلوك) ، وبالتالى فهما يختلفان سلاليا عن جارانج ومعظم أعضاء حركته الذين ينتمون إلى قبيلة الدينكا (٣) . وقد عرفت المجموعة التى

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : نفس المرجع السابق .

(٢) أنظر فى هذا المضمون : عبدالملك عودة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٣) أنظر فى هذا المضمون : طلعت عبدالرازق(محرر) وآخرون، مرجع سبق

استقلت عن حركة جارانج بحركة الناصر ، نظرا لأن قادتها عقدوا مؤتمرهم الأول فى مدينة الناصر، حيث راحوا من خلاله يعلنون أن هدف حركتهم إنما يتمثل فى انفصال جنوب السودان تماما عن الشمال ، وإقامة دولة جنوبية مستقلة (١) .

وهكذا فقد أصبح ثمة حركتان عرقيتان رئيسيتان فى جنوب السودان ، وعلى حين راحت إحداهما (حركة جارانج) تعلن تبنيها لهدف قوامه السعى إلى إيجاد دولة سودانية علمانية ديمقراطية موحدة ، ذهبت الأخرى إلى المطالبة بالإستقلال التام للجنوب . وسرعان ماندلع القتال بين الحركتين ، وراح جارانج يعلن : " أنا لا أفرق بين ميلشيات الناصر والجيش السودانى أو كتائب الإسلاميين المساندة له " (٢) . غير أن جارانج – أمام تزايد الانقسامات فى حركته – راح يعلن فى توريت فى ١٢ سبتمبر ١٩٩١ عن تعديل أهداف حركته لكى يجعل الانفصال التام بجنوب السودان أحد بدائل ثلاثة تتبناها الحركة ، إذ راح يقول إنه إذا لم توافق حكومة الخرطوم على مطلب السودان الموحد العلمانى الديمقراطى الفيدرالى فإن الحركة تطرح بديلين آخرين هما : " الكونفدرالية " بين دولتين مستقلتين ذواتى سيادة ، أو منح شعب الجنوب حق تقرير مصيره من خلال استفتاء يجريه (٣) . وهكذا فقد راح جارانج – مع بداية عقد التسعينيات – يعلن تبنيه لهدف انفصال جنوب السودان ، ذلك الهدف الذى كان – من قبل – يحرص دوما على تأكيد عدم ارتباط حركته به . وبتبنى جارانج لهدف الانفصال أضحت الحركتان العرقيتان الجنوبيتان الرئيسيتان انفصاليتين . وعلى الرغم من ذك فقد استمر الصراع المسلح الدامى بين الحركتين لعدة سنوات ، ذلك الصراع الذى راح

== ذكره ، ص٩٨ .

(١) أنظر فى هذا المضمون : عبدالملك عودة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) سعدالدين ابراهيم (مشرف) ، هموم الأقليات ، التقرير السنوى الأول (١٩٩٣) ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٤ .

(٣) أنظر فى هذا المضمون : عبدالملك عودة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ .

يعكس عدم التجانس العرقي الذى ينطوى عليه الكيـــان البشــرى لجنـوب السودان ، إذ بدا الأمر وكأنه صراع بين قبيلة الدينكــا (وتمثلـها حركــة جارانج) من ناحية ، وقبيلتى النوير والشلوك (وتمثلهما حركـــة النـاصر "مشار – أكول ") من ناحية أخرى . وقد شهد عام ١٩٩٣ تصعيدا هائلا فى المعارك الدائرة بين الحركتين الجنوبيتين ، حيث بلغت المعارك أوج اشتعالها فى ثلاث مدن ريفية جنوبية هى واط ، وأيور ، وكونفور . ونظرا لتعـــاظم أعداد القتلى فى منطقة المدن الثلاث ، فقد باتت تعرف بمثلث الموت ، حيث قتل وشرد من سكان هذه المنطقة – من جراء الصراع المسلح بين حركتـــى جارانج والناصر خلال عام ١٩٩٣ – عشرات الآلاف ، وعلى سبيل المثـال ففى معارك اندلعت بين القوات الحركتين فى ١٤ فبراير ١٩٩٣ قامت قـوات جارانج التى تنتمى إلى قبائل الدينكا بقتل أكثر من عشرة آلاف مـــن أبنـاء قبيلتى الشلوك والنوير اللتين ينتمى إليهما مشار وأكول ، وعمدت إلى حـرق أكواخهم . وفى ١٠ يونيو ١٩٩٣ راحت قوات جارانج تهاجم قوات مشـــار فى كونفور ، حيث أسفر القتال بين الجانبين عن مصرع الآلاف ، وتشـــريد ماكان قد تبقى من سكان المدينة . وفى ١٢ أكتوبر من ذات العام شهد مثلث الموت قتالا ضاريا بين الفصيلين الجنوبيين ، أسفر عن مقتل مايربو علـــى نصف سكان مدن المثلث (١) . وقد استمرت المعارك مشتعلة بين الجـــانبين حتى نهاية عام ١٩٩٣ برغم الجهود المضنية التى بذلتها الولايات المتحـــدة (ممثلة فى سفيرها بالخرطوم) بغية تحقيق المصالحة بين جارانج ومشـــار . غير أنه مع نهاية عام ١٩٩٤ بات واضحا أن الجهود الأمريكية قد آتت أكلها أخيرا ، إذ شيئا فشيئا بدأ التقارب بين جارانج ومشار. وفى ٨ ينـــاير ١٩٩٤ اتفق الجانبان على التقدم بمشروع مشترك فى مفاوضات السلام مع الحكومة السودانية يتضمن حق تقرير المصير لجنوب السودان ، وإجراء استفتاء فـــى هذا الشأن . وعلى الرغم من ذلك فإن مشار لم ينضو تحت لواء جـــارانج ،

---

(١) راجع فى هذا الصدد بالتفصيل : سعدالدين إبراهيم (مشـــرف) همـوم الأقليـات (١٩٩٣) ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨٠ .

وإن كانت الحرب بين قوات الطرفين قد توقفت ، فى حين استمرت بطبيعة الحال الحرب بين القوات الحكومية ، وقوات سائر الفصائل الجنوبية . وقد ذكر تقرير عسكرى حكومى أن مايربو على خمسين ألف مسلح قتلوا فى ظل الحرب الأهلية خلال السنوات (١٩٨٩ - ١٩٩٤) ، ويعادل هذا العدد خمسة أضعاف عدد الجنود الذين قتلوا فى ظل الصراع الأهلى خلال الفترة (١٩٧٥ - ١٩٨٨) (١) .

وعلى الرغم من وقوع أحداث عنف متقطعة بين قوات جارانج وقوات مشار خلال عام ١٩٩٤ فإن تقاربا يعتد به بين الزعيمين الجنوبيين قد بدا واضحا مع بداية عام ١٩٩٥. وفى ٢٧ أبريل من ذات العام وقع الطرفان اتفاقا عرف بإتفاق لافون ، راحا من خلاله يعلنان الوقف الدائم لإطلاق النار بين الحركتين ، وحرية تحرك قواتهما ، وكذا سكان الجنوب قاطبة فى المناطق التى يسيطران عليها ، والسعى المشترك نحو حصول شعب جنوب السودان على حق تقرير المصير ، فضلا عن دعوة كافة المجموعات الجنوبية المسلحة الأخرى لوقف إطلاق النار فيما بينها (٢) .

على صعيد آخر فقد عقدت سائر فصائل المعارضة السودانية (من شمالية وجنوبية) مؤتمرا فى العاصمة الإرترية أسمرة خلال الفترة من ١٥ إلى ٢٣ يونيو ١٩٩٥ . حيث أطلق على هذا المؤتمر (مؤتمر القضايا المصيرية) . ولعل أهم ما اتفق عليه المؤتمرون بصدد مشكلة جنوب السودان هو إقرارهم بأنه لاسبيل إلى إنهاء الحرب الأهلية فى السودان إلا من خلال منح الجنوبيين حق تقرير المصير (٣) .

---

(١) راجع فى هذا الصدد:سعد الدين إبراهيم(مشرف)،الملل والنحل والأعراق ، التقرير السنوى الثانى، ١٩٩٥. دار الأمين للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٥، من ص ٢٤٧ إلى ص ٢٦٠

(٢) أنظر فى هذا المضمون : محمد أبو الفضل ، المصالحة والحرب فى جنوب السودان، مجلة السياسة الدولية ، العدد (١٢٣) ، يناير ١٩٩٦ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(٣) أنظر فى هذا المضمون : المرجع السابق ، ص ٢٤٦ .

وقد عاودت هذه القوى ذاتها الإجتماع فى العاصمة الإريترية خلال شهر مارس عام ١٩٩٧ ، حيث تم توقيع مايعرف باتفاق أسمرة الذى اتفقت بمقتضاه غالبية القوى المناوئة لحكم البشير (من شمالية وجنوبية) على العمل المشترك من أجل إسقاط الحكومة السودانية القائمة ذات النهج الإسلامى . ولقد كان من شأن استضافة إريتريا لاجتماعات القوى السودانية المتمردة أن تفاقمت الخلافات وتنامى ميراث العداء بين النظامين الحاكمين فى الخرطوم وأسمرة .

على صعيد آخر فقد نجحت الحكومة السودانية فى استقطاب زعماء العديد من الحركات الجنوبية الإنفصالية التى كانت قد شقت عصا الطاعة على جون جارانج . إذ فى أعقاب اجتماع أسمرة المشار إليه وفى شهر أبريل من عام ١٩٩٧ أبرمت حكومة الخرطوم اتفاق سلام مع قادة ثلاثة من تلك الحركات . حيث وقع الاتفاق فى شهر أبريل كل من : رياك مشار زعيم حركة استقلال جنوب السودان ، وكاربينو كوانين قائد مايعرف بالحركة الشعبية لتحرير السودان ، وهارون كافى زعيم مجموعة جبال النوبة .[١] وفى يوليو التالى أعلنت الحكومة السودانية قبولها إعلان المبادئ الصادر عن منظمة الإيجاد ، والذى يقضى بإعطاء الجنوبيين حق تقرير المصير على إثر فترة انتقالية مدتها أربع سنوات ، تكون بمثابة هدنة بين القوات الحكومية وقوات الحركات الجنوبية الثلاث المذكورة ، وكذا حركة لام أكول الذى وقع اتفاق السلام فى وقت لاحق من شهر سبتمبر عام ١٩٩٧ .

وقد اعتبر جون جارانج أن موافقة حكومة البشير على اعلان المبادئ المذكور هى مجرد شرك نصبته هذه الحكومة بغية الإيقاع بالجنوبيين ، وشق صفوفهم ، وإجهاض وحدتهم إعمالا لسياسة فرق تسد . وعلى ذلك فلا تزال قوات مايعرف بالجيش الشعبى لتحرير السودان (حركة جارانج) تمتشق

---

(١) راجع فى هذا المضمون على سبيل المثال : أيمن عبدالوهاب ، الأزمة السودانية : المحددات والقيود ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٣٢ – أبريل ١٩٩٨ . ص ١٩٨ : ٢٠٠ .

السيف فى مواجهة قوات الحكومة السودانية . وهكذا فلاتزال رحى الحرب الأهلية دائرة فى السودان ، تفتك بعشرات الآلاف من أبنائه ، وتقف حجر عثرة فى سبيل استقراره ، وتشكل عقبة كئود أمام جهود إنمائه . وها هو الانقسام يطل برأسه مشكلا خطرا داهما يكاد يعصف بكيان الدولة السودانية، الأمر الذى يؤكد صحة الحقيقة التى سبق أن سقناها والتى قوامها : أنه لاسبيل إلى استقرار سياسى دائم ، ولا إلى وحدة وطنية حقة فى مجتمع تكون من خلال التجميع الإجبارى لشعوب غير متجانسة قوميا .

تعقيب :

اتضح من خلال عرضنا للحركة العرقية فى جنوب السودان أن هذه الحركة هى حركة يغلب عليها الطابع الانفصالى ، إذ يسعى الجنوبيون إلى الانفصال بمنطقتهم عن شمال السودان ، وإقامة دولة جنوبية مستقلة . من جانب آخر فإنه يستفاد من عرضنا المتقدم أن الحركة العرقية فى جنوب السودان إنما يغلب على وسائلها طابع العنف ، إذ تجمع بين أسلوبى حرب العصابات والحرب شبه النظامية فى سبيل بلوغ هدفها ، الأمر الذى باتت الحرب الأهلية فى ظله تمثل إحدى الظواهر البارزة والدائمة فى الواقع السودانى . إذ ظلت هذه الحرب زهاء خمس وثلاثين عاما تخللت الفترة (١٩٥٥ – ٢٠٠٠ م) وهى الفترة الممتدة من قبيل استقلال السودان وحتى عام ٢٠٠٠ م .

يبقى أن نشير إلى أن الحركة العرقية فى جنوب السودان كانت – ولا تزال – لها آثار دولية ، إذ كان من شأنها فى الماضى أن توترت العلاقات بين السودان وإثيوبيا ، خلال فترة حكم الإمبراطور الإثيوبى هيلاسلاسى ، وكذا فترة حكم الرئيس مانجستو هيلاماريام ، إذ كان كل من الزعيمين الإثيوبيين يقدم – خلال فترة حكمه – دعما للحركة الانفصالية فى جنوب السودان ، الأمر الذى حدا بالحكومة السودانية إلى تقديم الدعم لحركة تحرير

اريتريا ، من خلال فتح مكاتب لها فى الخرطوم ، فضلا عن إعداد معسكرات تدريب لمقاتليها على الأراضى السودانية [1] . غير أن العلاقات بين السودان وإثيوبيا قد تحسنت إلى حد كبير بسقوط حكومة منجستو فى إثيوبيا فى ٢٧ مايو ١٩٩١ واعتلاء ميليز زيناوى سدة الحكم فى أديس أبابا، حيث راح زيناوى يعلن فى أول يونيو ١٩٩١ : " أنه لن يسمح بوجود معسكرات على الأراضى الإثيوبية تهدد أمن السودان ، وأن متمردى الجيش الشعبى لتحرير السودان قد أغلقوا مكاتبهم فى العاصمة الإثيوبية ، وأن زعيمهم جارانج قد غادرها " [2] .

غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أن الحرب الأهلية فى السودان قد تمخضت – فى وقتنا الراهن – عن آثار دولية جديدة . وتتمثل هذه الآثار فى تدهور العلاقات بين السودان ، وأوغندا ، إذ تتهم الحكومة السودانية نظيرتها الأوغندية بتقديم دعم كبير إلى قوات جارانج ، فضلا عن قيامها بإرسال قوات أوغندية للقتال إلى جانب قوات الجبهة الشعبية لتحرير السودان وسرعان ما تبادلت الحكومتان التصريحات العدائية والاتهامات ، ووصل التوتر بينهما إلى ذروته مع بداية عام ١٩٩٦ ، حيث شرعت كل منهما فى حشد قواتها المسلحة على الحدود المشتركة ، الأمر الذى بات يهدد باندلاع الحرب بين الدولتين فى أية لحظة .

ولقد شهد النصف الثانى من عام ١٩٩٩ تحسنا نسبيا فى العلاقات بين الدولتين ، إذ اتفقتا على أن توقف أوغندا مساعداتها لجون جارانج ، فى مقابل أن تتخلى السودان عن نهجها القائم على تقديم العون العسكرى للميلشيات الأوغندية المناوئة لحكومة كمبالا ، والمتمركزة بالقرب من الحدود الأوغندية السودانية . وفى إطار هذا التحسن أعلنت الدولتان – فى ٨ ديسمبر

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : عبدالعزيز المهنا ، السودان وسط اللهب ، الكتاب العالمى ، قبرص ، ١٩٩٤ ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٢) أنظر فى هذا المضمون : سعد الدين إبراهيم ، الملل والنحل .. ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٥٨ .

١٩٩٩ – إعادة العلاقات الدبلوماسية بينهما . وهو الأمر لم يكن مستساغا من قبل الولايات المتحدة ، تلك الدولة التى تنظر إلى النظام الإسلامى القائم فى الخرطوم باعتباره واحدا من أظهر أعدائها ، وبالتالى فهى تتحرق شوقا إلى اليوم الذى ترى فيه انهيار ذلك النظام . ومن هنا كان سعى الأمريكيين الدائم إلى تدعيم حركة جارانج من خلال إغداق المساعدات العسكرية والإقتصادية عليها ، ذلك فضلا عن العمل بكل السبل على الإيقاع بين السودان وجيرانه لاسيما أوغندا ، ومصر . وارتباطا بما تقدم وفى محاولة منها لإعادة التوتر إلى أجواء العلاقات السودانية الأوغندية راحت الولايات المتحدة تعلن – فى أكتوبر ٢٠٠٠ م – أن حكومة الخرطوم لاتزال تقدم يد العون لمتمردى أوغندا ، الأمر الذى ينذر بعودة المناخ العدائى كى يخيم على علاقات الدولتين الجارتين . كما يشار على صعيد العلاقات الأمريكية السودانية إلى تواصل الدعم الأمريكى الصريح والكبير لحركة جون جارانج. وعلى سبيل المثال ففى ٢٩ نوفمبر ١٩٩٩ وعندما لاحت فى الأفق بوادر مصالحة بين الرئيس السودانى وخصمه المعارض اللدود الصادق المهدى راحت الولايات المتحدة تعلن على لسان المتحدث باسم وزارة الخارجية ريتشارد هولبروك عن عزمها تقديم مساعدات عاجلة لجارانج .

وفضلا عما تقدم فإن ورقة جارانج كانت إحدى الأوراق الهامة التى استخدمتها مصر للضغط على النظام الإسلامى فى السودان ، والذى تعتبره الحكومة المصرية مصدر تهديد لها . فارتباطا بذلك أجرت تلك الحكومة اتصالات عديدة – سرية وعلنية – مع جون جارانج ، ولعل المشهد الذى لاينسى فى هذا الصدد هو استقبال ذلك الرجل فى القاهرة عام ١٩٩٧ استقبالا كاستقبال الزعماء الشرعيين . غير أنه فى ظل تحسن العلاقات بين النظامين المصرى والسودانى – على إثر إبعاد البشير لشريكه فى الحكم والعدو اللدود للحكومة المصرية حسن الترابى عن السلطة – يلاحظ أن النظام المصرى راح يتملص من علاقاته مع جارانج .

كذلك على صعيد الآثار الدولية للحركة العرقية فى جنوب السودان

يتعين التنويه إلى أن هذه الحركة لها آثارها الجلية على العلاقات السودانية الإريترية . إذ طالما نظر الزعيم الإريترى (المسيحى) أسياسى أفورقى بعين ملؤها الريبة إلى النظام (الإسلامى) القائم فى الخرطوم ، لاسيما وأن هذا النظام يستضيف على أراضيه جانبا كبيرا من ميلشيات جماعة الجهاد الإسلامى الإريترى المناوئة لأفورقى ، والرافضة لهيمنة الأقلية المسيحية على مقاليد السلطة فى أسمرة ، والداعية إلى استعادة جماعة الأغلبية المسلمة لموقعها الطبيعى كجماعة مسيطرة يشكل أفرادها أكثر من ثلاثة أرباع سكان إريتريا . وفى مقابل تدعيم الحكومة السودانية لحركة الجهاد الإسلامى نجد أن الحكومة الإريترية راحت تستخدم ورقة جارانج للضغط على نظام الخرطوم ، فشرعت فى تقديم كل ما فى جعبتها من مساعدات للمتمردين فى جنوب السودان . وتؤكد بعض المصادر أن العداء بين الحكومتين كان من التأجج إلى حد تورط كلتيهما فى إشراك قواتها بصورة مباشرة فى الحرب إلى جانب القوات المناوئة للأخرى . يبقى أن نشير إلى أن العلاقات السودانية الإريترية قد شهدت تحسنا يعتد به خلال الشهور الأخيرة من عام ١٩٩٩، كما أعلنت الدولتان – فى ٤ يناير ٢٠٠٠ – إقامة علاقات دبلوماسية بينهما .

* * * * *

الفصل الثالث

فى

غلبة طابع العنف على وسائل الحركات العرقية

تشير ملاحظة واقع الحركات العرقية إلى أن هذه الحركات غالبا ما تتوسل بالعنف بغية بلوغ غاياتها ، لاسيما إذا كانت هذه الغايات انفصالية أو ارتقائية . ذلك بأن تلك الحركات لاتدخر – فى سبيل تحقيق أهدافها – أيا من وسائل العنف إلا وتلجأ إليها ، سواء تمثلت هذه الوسائل فى الحرب النظامية، أو حرب العصابات ، أو التطهير العرقى ، أو عمليات الإغتيال ، أو الإختطاف ، أو مايعرف بالعمليات الإنتحارية ، أو المظاهرات ذات الطابع العنفى ، أو عمليات التفجير .. أو غيرها . ونظرا لما تقدم فإن الصراعات العرقية دائما ما تتمخض عن وقوع خسائر بشرية ومادية جسيمة . وذلكم هو مايبدو جليا فى الجدول التالى ، والذى نقدم من خلاله أمثلة لشئ مما نتج عن بعض الصراعات العرقية المعاصرة من آثار :

الدولة (متنوعة العرقيات)	نبذة عن آثار الصراع العرقى داخلها
روانــدا	تشهد رواندا منذ عام ١٩٩١ صراعا عرقيا عنيفا بين قبيلتى الهوتو (وهى جماعة الأغلبية) والتوتسى (التى تمثل جماعة الأقلية) . وقد تأجج هذا الصراع وبلغ ذروة اشتعاله عام ١٩٩٤ على إثر اغتيال رئيسى رواندا وبوروندى – فى ٦ ابريل – من خلال إسقاط طائرة كانا يستقلانها فوق العاصمة الرواندية كيجالى ، وأشارت أصابع الاتهام – وقتذاك – إلى ميلشيات التوتسى . الأمر الذى أدى إلى اشتعال حرب نظامية

	ضروس ، خاضها الجيش الشعبى الروانـدى التـابع للتوتسى ، فى مواجهة جيش الحكومة الروانديـة الـذى كانت أغلبيته – آنذاك – من الهوتو ، حيث اسـتطاع التوتسيون أن يطيحوا بالحكومة الرواندية ذات الأغلبية الهوتووية التى كانت قائمة يومذاك ، لكى تصبح بذلـك جماعة التوتسى – برغم كونها أقلية – هى الجماعـة المسيطرة فى رواندا . وقد أسفرت المعارك الضاريـة بين قوات الجانبين عام ١٩٩٤ وحده عن مصرع زهاء المليون شخص أغلبهم من الهوتو ، وتلكم هى المذبحـة التى راح المحللون يطلقون عليها " مذبحة القرن " . على صعيد آخر فقد أسفرت تلك المعـارك عـن تشريد ثلاثة ملايين من الروانديين ، وفرارهـم إلـى الدول المجاورة كلاجئين . هذا ولاتزال الأمور غـير مستقرة فى رواندا حتى يومنـا هـذا (٢٠٠٠ م) إذ يرفض أبناء الهوتو – بطبيعـة الحـال – أن تكـون جماعتهم – التى هى جماعة الأغلبية – الجماعة غـير المسيطرة ، فى حين يأبى أبناء قبيلة التوتسـى إلا أن يكونوا هم المسيطرين (١) .
بوروندى	على غرار الصراع العرقى فى رواندا تشهد بوروندى منذ بداية عقد التسعينيات صراعا عرقيا داميـا بيـن التوتسى (جماعة الأقلية) والهوتو (جماعة الأغلبيـة التى تشكل نحو ٨٥% من جملة السـكان) . وعلـى الرغم من كونها أقلية لاتربو نسبة عددها إلـى جملـة سكان بوروندى عن ١٣% فإن قبيلة التوتسـى تمثـل

(١) تم الاعتماد بصدد كتابة هذه النبذة على متابعتنا الدقيقة للمشكلة الرواندية من خـلال وسائل الإعلام العربية والأجنبية .

	الجماعة المسيطرة داخل الدولة البوروندية ، وتحتـل التوتسي موقعها المسيطر هذا منذ مايربو على خمس وثلاثين عاما . ويأبى التوتسيون إلا أن يكونوا هم المسيطرين برغم كونهم أقلية . لذلك فقد قامت القوات المسلحة التوتسية باختطاف الرئيس البوروندى ميلشيور نداداى (الهوتووى الإنتماء) وإعدامه في أعقاب انتخابه رئيسا للبلاد بمقتضى أول انتخابات حرة أجريت فيها عام ١٩٩٣ . وفى أبريل من العام التالى ١٩٩٤ – وبعد حوالى ستة أشهر تقريبا من اغتيال نداداى – اغتيل خلفه كارميرا مع نظيره الرواندى عن طريق إسقاط طائرتهما المشتركة فوق العاصمة الرواندية كيجالى . هذا ولاتزال رحى الصراع الدامى بين الهوتو والتوتسى دائرة حتى يومنا هذا (نهاية أكتوبر ٢٠٠٠ م) ، ذلك الصراع الذى انطوى على مذابح مروعة قام بها كلا الفريقين المتناحرين فى مواجهة أولئك الذين ينتمون إلى الفريق الآخر . وقد تمخضت تلك المذابح حتى الآن عن مصرع مائتى ألف شخص ، منهم مائة ألف لقوا حتفهم خلال عامى ١٩٩٤ ، ١٩٩٥ وحدهما حسب تقدير الأمين العام للأمم المتحدة – وقتذاك – بطرس غالى . ولم تفلح الجهود المضنية التى تقوم بها مجموعة من الدول الأفريقية وعلى رأسها جنوب أفريقيا – حتى يومنا هذا – فى إخماد نيران ذلك الصراع.
السودان	لاتزال الحرب الأهلية فى السودان -كما أسلفنا القول –

	مستعرة الأوار بين قوات الحكومة السودانية ، وقوات الحركات الانفصالية الجنوبية وعلى رأسها حركة الجيش الشعبى لتحرير السودان بزعامة جون جارانج. كما يشهد الجنوب بين الفينة والفينة صراعات دامية بين الجنوبيين أنفسهم . وحسب تقديرات الحكومة السودانية فقد تمخضت الحرب بين القوات الحكومية وحركة جارانج خلال الفترة (١٩٨٩ - ١٩٩٤) وحدها عن مصرع مايربو على الخمسين ألف عسكرى ، ذلك فضلا عما لم يدخل فى هذه التقديرات الحكومية من إحصاء لعدد الأشخاص الذين أودت بحياتهم المعارك بين الجنوبيين أنفسهم ، والذى يقدر بعشرات الآلاف على نحو ما أسلفنا الإشارة . كذلك فقد تمخضت الصراعات العرقية الدامية فى السودان عن تدمير عشرات القرى والمدن ، وفرار الآلاف من أبناء جنوب السودان إلى الدول المجاورة كلاجئين (١) .
ليبيريا	شهدت البلاد خلال الفترة (١٩٨٩-١٩٩٧) صراعا عرقيا داميا بين جماعتى الجيو The Gio والمانو The Mano من جهة ، والجماعة العرقية المسيطرة المتمثلة فى جماعة كراهن Krahn من جهة أخرى ، إذ شنت جماعتا الجيو والمانو بزعامة تشارلز تيلور Charles Taylor حرب عصابات شعواء ضد الجيش الليبيرى الذى تسيطر عليه جماعة كراهن ، وقد استهدف تيلور - المعروف بدمويته - من وراء تلك الحرب الإطاحة

(١) أنظر فى هذا المضمون تفصيلا وعلى سبيل المثال : سعد الدين ابراهيم (مشرف)، الملل والنحل ... ، (تقرير ١٩٩٥) ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٧-٢٦٠ .

	بجماعة كراهن من الحكم ، والارتقاء بجماعتى الجيو والمانو إلى موقع السيطرة فى ليبيريا . وفى سبيل ذلك قامت قوات تيلور – فى عام ١٩٩٠ – باغتيال الرئيس الليبيرى الكراهنى الأصل صامويل دو Samuel Doo وعلى الرغم من ذلك استمرت الحرب الأهلية دائرة الرحى فى ليبيريا حتى عام ١٩٩٧ عندما دانت لتيلور السيطرة على مقاليد السلطة فى البلاد . وقد أسفرت تلك الحرب حتى بداية عام ١٩٩٣ عن مصرع مايربو على العشرين ألف شخص ، وتشريد مئات الآلاف من الليبيريين ، وفرارهم إلى الدول المجاورة كلاجئين . ولعل جسامة خسائر ليبيريا من جراء الصراع العرقى تتضح بجلاء إذا ماذكرنا أن عدد سكانها لايتجاوز المليونين ونصف المليون نسمة .
جنوب أفريقيا	كانت جماعة الأغلبية السوداء – كما سبق أن أشونا – قد شرعت فى شن حرب عصابات فى مواجهة قوات الحكومة العنصرية للأقلية البيضاء . وقد بدأ السود كفاحهم عام ١٩٦١ وظلوا مستمرين فيه لحقبة تجاوز الثلاثين عاما ، حيث تبنى هذا الكفاح تسعة عشر تنظيما سياسيا ، أظهرها المؤتمر الوطنى الأفريقى ، والذى تكفل الجناح العسكرى له (رمح الوطن) بالجانب الأكبر من كفاح الجماعة السوداء من أجل تبوؤ موقع السيطرة فى وطنها ، وقد أسفر الصراع المسلح الدامى بين السود والأقلية البيضاء عن مصرع أعداد هائلة من أفراد الجانبين . وعلى سبيل المثال فقد قتل من جراء هذا الصراع زهاء ١٥٠٠٠ شخص خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٨٤ ، وحتى بداية عقد

	التسعينيات . وتجدر الإشارة إلى أن الجماعة السوداء قد تمكنت – مع بداية عام ١٩٩٤ – من بلوغ غايتها ، فأمام الكفاح الضارى للسود أذعن الحكام البيض لمطالبهم . وفى أبريل ١٩٩٤ أجريت أول انتخابات غير عنصرية فى البلاد حيث إعتلى- على إثرها – زعيم المؤتمر الوطنى الأفريقى نيلسون مانديلا سدة الحكم فى جنوب أفريقيا . وعلى الرغم من ذلك فإن ثمة صراعا عرقيا لما يزل قائما هناك ، بين حركة إنكاتا الممثلة لجماعة الزولو ، وغيرها من الجماعات السوداء . ويرتد هذا الصراع إلى أسباب قبلية ، إذ يرفض الزولو استئثار أبناء قبيلة الهاوسا – التى ينتمى إليها مانديلا – بأغلب مواقع السلطة فى البلاد . وقد اسفر الصراع الدامى بين الزولو وغيرها من الجماعات السوداء – على سبيل المثال – عن مصرع ثلاثة آلاف شخص فى عام ١٩٩٢ وحده (١) .
سريلانكا	ثمة صراع دام لاتزال رحاه دائرة منذ مايربو على ١٦ عاما وحتى يومنا هذا (نوفمبر ٢٠٠٠ م) بين أبناء الأقلية التاميلية ، وقوات الحكومة التى تنتمى إلى جماعة الأغلبية السنهالية ، إذ يستهدف التاميل – كما قدمنا – انفصال موطنهم (شبه جزيرة جافنا فى شمال البلاد) عن سريلانكا ، وإقامة دولة تاميلية مستقلة . وتتبنى كفاح التاميل عدة تنظيمات سياسية وعسكرية

(١) اعتمدنا فى هذا الصدد على :

- Ethnic Conflicts Workdwide in : Current History , Op. Cit., p. 168.

وكذا : نيفين القباج ، جنوب أفريقيا : والتوجه الصعب نحو التسوية ، مجلة السياسة الدولية ، العدد (١٠٩) ، يوليو ١٩٩٢ ، من ص ١٢٨ إلى ص ١٣٠ .

أظهرها جبهة تحرير إيلام (أو نمور التاميل) . وقد أودى الصراع بين الفصيليين المتصارعين بحياة عشرات الآلاف من الأشخاص . وعلى سبيل المثال فإن أحد التقارير يشير إلى أن هذا الصراع قد تمخض خلال الفترة (١٩٨٣-١٩٩٣) وحدها عن مصرع ٢٨٠٠٠ تاميلى ، و ٥٠٠٠٠ سنهالى [١] .

وتلجأ منظمة نمور التاميل - فى سبيل بلوغ غايتها - إلى استخدام كافة وسائل العنف من حرب شبه نظامية ، إلى حرب عصابات ، وعمليات اغتيال ، واختطاف ، وتفجير ، وعمليات انتحارية ... الخ . ولعل من أظهر عمليات نمور التاميل ذات الطابع العنفى مايلى :

١ - اغتيال الرئيس السريلانكى راناسينج بريما داسا فى ١ مايو ١٩٩٣ من خلال هجوم انتحارى استخدمت فيه دراجة بخارية .

٢ - اغتيال زعيم المعارضة السريلانكية فى ٢٤ أكتوبر ١٩٩٤ من خلال عملية انتحارية .

٣ - القيام بعدة عمليات تفجير فى الحى التجارى بالعاصمة السريلانكية كولمبو فى ٣١ يناير ١٩٩٦ ، وهى العمليات التى أسفرت عن مصرع مايربو على ٨٠ شخصا ، وإصابة بضع مئات آخرين .

٤ - قيام زعيم نمور التاميل برابا كاران بتدبير عملية لاغتيال رئيسة سريلانكا السابقة تشاندريكا كومارا تونجا ، وهى العملية الانتحارية التى قامت بها إمرأة

---

(١) Ethnic Conflicts... , Op. Cit.

	تاميلية داخل كولمبو فى ١٨ ديسمبر ١٩٩٩ ، والتى نجت فيها كومارا تونجا من الموت بأعجوبة ، حيث أصيبت إصابة بالغة فى إحدى عينيها ، كما أودت العملية بحياة مايقرب من ٤٠ شخصا . وقد تمت تلك العملية أثناء قيام الرئيسة السريلانكية بإحدى جولاتها الانتخابية . ويشار كذلك إلى نجاة كومارا تونجا من محاولة اغتيال أخرى دبرها نمور التاميل من خلال رسالة ملغومة تمكنت الشرطة من إبطال مفعولها فى ١٨ يناير ٢٠٠٠ م . ٤ - العملية الانتحارية التى دبرها نمور التاميل فى ٢٢ اكتوبر ٢٠٠٠ حيث قامت جماعة منهم بمهاجمة ميناء ترنكومالى فى شمال شرق سريلانكا على ظهر أربعة زوارق ملغومة ومزودة بأسلحة مضادة للطائرات ، الأمر الذى أسفر عن إغراق سفينتين للبحرية السريلانكية ، وإسقاط طائرة مروحية ، فضلا عن مقتل القائمين بالهجوم ، وإثنين من البحارة السريلانكيين ، وإصابة العشرات من الأشخاص المتواجدين فى الميناء . هذا ولاتزال الحرب شبه النظامية دائرة الرحى حتى يومنا هذا (نوفمبر ٢٠٠٠ م) ، حيث شهد عام ٢٠٠٠ تصعيدا خطير الشأن فى الصراع بين قوات نمور التاميل ، والقوات الحكومية السريلانكية .
الهند	تمثلت أولى الحركات العرقية التى شهدتها الدولة الهندية فى تلك الحركة التى تمخضت جهودها عن قيام دولة الباكستان المستقلة عام ١٩٤٧ . وقد أسفر الصراع الدامى الذى شهدته الهند - وقتذاك - بين

قوات تلك الحركة وقوات الحكومة الهندية عن مصرع زهاء ربع مليون شخص ، كما أدى ذلك الصراع إلى تشريد ١٢ مليونا آخرين (١) .

أما فيما يتصل بوقتنا الراهن فإن الهند تشهد العديد من الصراعات العرقية التى تأتى كإنعكاس لكونها دولة تنطوى على تنوع عرقى هائل . ويتمثل أظهر هذه الصراعات فى :

أ - الصراع بين المسلمين والهندوس ، وهو صراع دائم مايكاد يتوقف - لفترة - حتى يستعر أواره من جديد . ولعل من أبرز المصادمات التى تمت بين المسلمين والهندوس مؤخرا تلك المصادمات الدامية التى إندلعت على إثر قيام مسلحين هندوس بتدمير مسجد للمسلمين فى ولاية أوتار براديش Uttar Pradesh خلال شهر ديسمبر ١٩٩٢ . وقد أسفرت تلك المصادمات التى امتدت إلى كافة أرجاء الدولة الهندية عن مصرع ٢٠٠٠ شخص (حسب التقديرات الرسمية) (٢) .

ب - الصراع بين الانفصاليين السيخ وقوات الحكومة الهندية فى إقليم البنجاب Punjab . وقد تمخض هذا الصراع الدامى خلال الفترة (١٩٨٢-١٩٩٢) عن مصرع زهاء عشرين ألف شخص ، وذلك فى إطار سعى السيخ إلى إقامة دولتهم المستقلة المنشودة

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : محمد السماك ، الأقليات بين العروبة والإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٩٠ ، ص ١٣١ .

(٢) Ethnic Conflicts Worldwide in : Current History.. Loc. Cit.

(خالستان).

وتجدر الإشارة إلى أن عمليات الاغتيال تمثل إحدى الوسائل الرئيسية التى يلجأ إليها الانفصاليون السيخ ، ولعل أبرز الإغتيالات التى قاموا بتدبيرها يتمثل فى اغتيال رئيسة وزراء الهند السابقة إنديرا غاندى فى ٣١ اكتوبر ١٩٨٤ ، والذى جاء كرد فعل من جانب السيخ على قيام القوات الهندية باقتحام معبدهم الذهبى فى مدينة أمريستار مع بداية شهر يونيو ١٩٨٤ ، وهو الاقتحام الذى أسفر عن مصرع مايقرب من ألف شخص من الجانبين [١] . كذلك فقد دبر السيخ عملية اغتيال راجيف غاندى فى ٢١ مايو ١٩٩١ داخل ولاية تاميل نادو ، وقد كان راجيف يومذاك زعيما للمعارضة ، حيث كان خارج السلطة (رئيس وزراء سابق) .

على صعيد آخر قام انفصاليون سيخ فى ٢٥ أغسطس ١٩٨٤ باختطاف طائرة ركاب هندية من مطار إقليم البنجاب بغية لفت نظر الرأى العام الدولى إلى قضيتهم ، وقد انتهت هذه العملية باستسلام الخاطفين لسلطات مطار دبى الذى كانوا قد توجهوا بالطائرة إليه ، حيث تم تأمين حياتهم .

جـ - الصراع الدامى بين ميلشيات الحركة الانفصالية لمسلمى جامو وكشمير وقوات الحكومة الهندية . وتضم هذه الحركة ثلاثين حزبا انفصاليا

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : جمال الدين محمد على ، اغتيال إنديرا غاندى ومستقبل القارة الهندية ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٧٩ ، يناير ١٩٨٥ ، ص ٢٠٦:٢٠٤.

يطلق عليها مجتمعة (مؤتمر الحرية لعموم التنظيمات الانفصالية بكشمير) ، ويعد حزب المجاهدين أقوى هذه الأحزاب وأمضاها تأثيرا . وقد تمخض الصراع بين القوات الهندية والانفصاليين الكشميريين خلال الفترة (١٩٩٠-١٩٩٢) عن مصرع حوالى ٥٠٠٠ شخص من الجانبين ، فضلا عن نزوح حوالى ١٢٠٠٠٠ شخص - أغلبهم من الهندوس عن كشمير ، وتشتتهم بين الولايات الهندية الأخرى . كما أسفر هذا الصراع ذاته خلال الفترة (١٩٩٣-٢٠٠٠) عن مصرع مايربو على ٢٠٠٠٠ شخص ، فضلا عن جرح آلاف آخرين. ويشار إلى أن بعض الانفصاليين الكشميريين قاموا باختطاف طائرة ركاب هندية من مطار العاصمة النيبالية كاتمندو فى ٢٤ ديسمبر ١٩٩٩ ، حيث احتجزوا على متنها ١٦٠ راكبا كرهائن لمدة ثمانية أيام قبل أن يفرجوا عن الرهائن فى مطار قندهار الأفغانى على إثر اذعان رئيس الوزراء الهندى فاجباى لمطالبهم وعلى رأسها الإفراج عن ثلاثة من أبرز الزعماء الإسلاميين الكشميريين فى مقدمتهم الزعيم الفذ مسعود أزهر ، الذى ما أن خرج من السجن حتى راح يتوعد الهند مؤكدا أن الجهاد الكشميرى سيستمر حتى يحقق أهدافه كاملة . هذا ولاتزال رحى الصراع العنيف الدامى دائرة حتى يومنا هذا (نوفمبر ٢٠٠٠ م) بين الانفصاليين الكشميريين والقوات الهندية ، حيث يشن الكشميريون بدعم من باكستان حرب عصابات شعواء على كل	

	مظاهر الوجود الهندى فى الإقليم .
الصيـــــن	يشهد إقليم التبت الصينى – كمـــا ســـبق أن أشـــرنا – صراعا عرقيا بين الانفصاليين التبتيين وقوات الحكومة الصينية . وتشير التقارير إلى أن هذا الصراع قد أسفر خلال الفترة (١٩٥٩-١٩٩٢) عن مصرع مايزيد عن ٨٧٠٠٠ تبتى [١] . كما يشهد إقليم سينجيانج صراعا آخر داميا بيـــن الانفصاليين المسلمين وقوات الحكومة الصينية غير أن ضحايا هذا الصراع غير معروف عددهم نظرا للتعتيـم الشديد والصارم الذى تفرضه الحكومة الصينية علـــى مايجرى فى ذلك الإقليم .
لبنـــــان	أسفرت الحرب الأهلية الدامية (ذات الطابع العرقـى) التى شهدتها لبنان خلال الفترة (١٩٧٥ – ١٩٩٠) عن مصرع حوالى ١٠٠٠٠٠ شخص ، وجـرح مـــايربو على ٢٠٠٠٠٠ آخرين ، فضلا عن تشـــريد نصــف مليون لبنانى ، وذلك كله من بيـــن ســـكان لايتجـــاوز عددهم الثلاثة ملايين نسمة . أما بصدد الخسائر المادية لتلك الحرب فتقدر بما يربو على ١٥ مليار دولار [٢] .
تركيـــــا	يشن الإنفصاليون الأكراد (حزب العمال الكردستانى) حرب عصابات شعواء فى مواجهة القوات التركيـــة . ففى عام ١٩٩٠ قامت ميلشيات الحزب بحوالـــى ٨٠١ عملية مسلحة ، فى حين بلغ عدد عملياتها المسلحة فى عام ١٩٩١ حوالى ١٦٥ عملية ، أما فى عـــام ١٩٩٢

(١) Ibid.

(٢) سعد الدين إبراهيم ، الملل والنحل ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٠٢.

	كان عدد العمليات٣٥٨٣ عملية ، ثم ٢١٦١ عملية في عام ١٩٩٣ ومايزيد على ١٨٨١ عملية خلال عام ١٩٩٤ [١] . ويشار إلى أن حدة عمليات حزب العمال قد خفت في الآونة الأخيرة على إثر نجاح الحكومة التركية في اعتقال زعيم الحزب عبدالله أوجلان على النحو الذى سنعرض له بتفصيل لاحق .
إندونيسيا	شهدت إندونيسيا صراعا عرقيا داميا بين ميلشيات الحركة الانفصالية لسكان تيمور الشرقية (ويدين أغلبهم بالكاثوليكية الرومانية) ، وقوات الحكومة الإندونيسية . وقد بدأ هذا الصراع غداة انسحاب البرتغال من تيمور الشرقية عام ١٩٧٥ ، حيث طالب التيموريون منذ ذلك الحين بالانفصال عن إندونيسيا (ذات الأغلبية المسلمة) ، وإقامة دولة مستقلة تجسد هويتهم . وتشير تقارير منظمات حقوق الإنسان إلى أن الصراع فى تيمور الشرقية قد تمخض – حتى نهاية عام ١٩٩٢ – عن مصرع عدد من الأشخاص يتراوح مابين المائة والمائتى ألف من سكان الجزيرة البالغ عددهم حاليا ٦٠٠ ألف شخص . وتذكر هذه التقارير أن ارتفاع عدد القتلى فى تيمور الشرقية يرتد إلى أسباب عديدة أهمها المجاعات وعمليات الإعدام التى كانت تدبرها وتنفذها الحكومة الإندونيسية [٢] . يبقى أن نشير إلى أنه فى ظل تصاعد كفاح انفصاليى تيمور بزعامة جوشماو (قائدهم الأشهر) وتحت وطأة

(١) سعد الدين ابراهيم (تقرير ١٩٩٥) ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤٨ .

(٢) Ethnic Conflicts..., Op. Cit. P. 168.

الضغوط الأمريكية اضطرت الحكومة الإندونيسية إلى إجراء استفتاء لتقرير مصير الإقليم ، حيث وافق التيموريون بأغلبية كبيرة على الاستقلال ، وبالتالى فقد نالوا استقلالهم بمقتضى نتيجة ذلك الاستفتاء الذى أجرىفى أغسطس ١٩٩٩ . على صعيد آخر – وفى أعقاب استقلال تيمورالشرقية تصاعدت حدة المصادمات العرقية فى العديد من الجزر الإندونيسية الأخرى . وتعد جزر مالوكو المعروفة بجزرالملوك(وكذا جزر البهار) أكثر مناطق إندونيسيا معاناةمن الصراعات العرقية الدامية ،حيث تشهد الجزر وعلى رأسها جزيرتا هالما جيرا وسيرام منذ بداية عام١٩٩٩ صراعا عرقيا طائفيا داميا بين المسيحيين والمسلمين. وهو الصراع الذى أسفر حتى الآن عن مصرع مايربو عى ٤٦٠٠ شخص أغلبهم من المسلمين ، فضلا عن إحراق حوالى تسعة آلاف مبنى منها مايزيد عن١٢٠ مسجدا وكنيسة، وتشريد نصف مليون فرد. وقد بلغ الصراع ذروته خلال الأسبوع الأخير من عام١٩٩٩والأسبوعين الأولين من عام ٢٠٠٠ ، حيث قتل خلال هذه الفترة الوجيزة وحدها زهاء ألف شخص غالبيتهم من المسلمين.وقد أدت هذه الأحداث إلى اندلاع الاضطرابات فى جزر إندونيسية أخرى . حيث شهدت جزيرة لومبوك فى منتصف يناير ٢٠٠٠ اضطرابات طائفية بين المسلمين والمسيحيين والهندوس قام خلالها المسلمون بإحراق ١٣ كنيسة كرد فعل لما قام به مسيحيو أمبون (عاصمة جزر الملوك) من مذابح طالت المسلمين.	

	كما كانت جاكرتا قد شهدت في ٧ ينـــاير ٢٠٠٠ مظاهرة حاشدة ضمت ٣٠٠ ألف من المسلمين طـلبوا خلالها بإعلان الجهاد نصرة لمسلمي جـزر الملـوك رافعين شعارات " الجـهاد .. الجـهاد "، " أحرقـوا الكنائس " الأمر الذى وضع استقرار إندونيسيا فوق فوهة بركان .
يوغسلافيـــا (القديمة)	أسفرت حرب الإنفصال التى خاضها الكروات بغيـة الانفصال بكرواتيا عن الإتحاد اليوغسلافى عام ١٩٩١ عن مصرع حوالى عشرة آلاف شـخص [١] . مـن جانب آخر فإن ثمة حركة صربية انفصالية فى اقليـم كرايينا الكرواتى تسعى منذ عام ١٩٩١ إلـى انفصـال الإقليم عن كرواتيا تمهيدا للانضمام به إلى صربيـا. وقد أسفر الصراع الدامى بين الكروات والصرب فـى كرايينا خلال الفترة (١٩٩١-١٩٩٣) عـن مصـرع حوالى ٢٥٠٠٠ شخص [٢] أما فيما يتصل بالصراع العرقى الذى أنهاه اتفـاق ديتون عام ١٩٩٧ والخاص بالبوسنة والهرسك فإنـه ليس ثمة تقديرات دقيقة لعدد ضحاياه، وإن كان ثمـة اتفاق بين المراقبين على إن هذا العدد يقدر بعشـرات الآلاف . وعلى سبيل المثال فقـد نشـرت صحيفـة الواشنطن بوست الأمريكية فى ٥ فبراير ١٩٩٣ تقريرا ذكرت فيه أنه خلال الأشهر العشرة الأخيرة (التى تبدأ من مارس١٩٩٢) تم إخراج سبعمائة ألف بوسنى مسلم

(١) التقرير الإستراتيجى العربى ، (١٩٩٢) ، الأهرام ، القاهرة،١٩٩٣ . ص ٨٩.

(٢) EthnicConflicts..., op. cit. P. 167.

	من بيوتهم وأصبحوا لاجئين . كما أكد تقرير للمجموعة الأوربية أن الصرب قاموا باختطاف مايزيد على ٢٠ ألف إمرأة مسلمة ، وعمدوا إلى اغتصابهن مرارا كجزء من استراتيجيتهم في إذلال الخصوم . وقدر الرئيس البوسنى على عزت بيجوفيتش عدد الضحايا المسلمين(حتى نهاية عام ١٩٩٣)بحوالى مائتى ألف شخص . وذلك فى إطار عمليات الإبادة الجماعية أو مايسمى التطهير العرقى الذى قام به الصرب في مواجهة المسلمين .
روسيا الإتحادية	لاتزال حرب الشيشان الثانية مشتعلة منذ منتصف سبتمبر ١٩٩٩ وحتى يومنا هذا (نوفمبر ٢٠٠٠) بين القوات الفيدرالية الروسية من جهة ، وقوات الانفصاليين الشيشان بزعامة أصلان مسخادوف من جهة أخرى . ويشار إلى أن حرب الشيشان الأولى (١٩٩٤ – ١٩٩٦) قد أودت بحياةزهاءمائة ألف شخص من الروس والشيشانيين ، فضلا عن تشريد عشرات الآلاف من الشيشان، وكانت هذه الحرب قد انتهت بخروج مذل للقوات الروسية من شيشينيا على إثر تكبد الروس خسائر فادحة . أما الحرب الدائرة حاليا فقد بدأت كحرب نظامية فى سبتمبر عام ١٩٩٩ثم مابرحت أن حولها الشيشانيون – إثر تمكن الروس من دخول العاصمة الشيشانية جروزنى – إلى حرب عصابات شعواء يشنونها من معاقلهم الجبلية الجنوبية التى كانوا قد انسحبوا إليها بحلول أول فبراير عام ٢٠٠٠م. وتشير التقديرات الرسمية الروسية إلى أن خسائر القوات الروسية في الحرب تقدر – حتى

أكتوبر ٢٠٠٠ - بحوالى ٢٥٠٠ قتيل ، وزهاء ٧١٠٠ جريح، غير أن المصادر المحايدة تؤكد أن خسائر الروس الحقيقية تقدر بما يربو على أربعة أضعاف هذه الأرقام الرسمية. وبطبيعة الحال فقد قتل فى هذه الحرب آلاف الشيشانيين ، وكانت غالبية القتلى من المدنيين الذين دكت منازلهم ومدنهم حيث جندت الحكومة الروسية لحرب الشيشان مايزيد على مائة ألف عسكرى مسلحين بالأسلحة الثقيلة تدعمهم الطائرات الحربية . ولم يتورع الروس خلال هذه الحرب عن ضرب المدن الآهلة ، وتدمير مقومات البنية التحتية فى شيشينيا ، على نحو استحالت معه العاصمة الشيشانية جروزنى إلى أطلالا يسكنها الخراب بعد أن كانت واحدة من أجمل مدن الدنيا ، كما دمرت فى الحرب ثانية المدن الشيشانية أو أوروس مارتان ، وفر مايربو على ٢٠٠ ألف شيشانى إلى أنجوتشيا كلاجئين . ويشار إلى أن القوات الروسية قد ارتكبت فى هذه الحرب - فضلا عما تقدم - جرائم بشعة فى حق الإنسانية حيث عمدت إلى اغتصاب النساء وقتلهن ، وإقامة معسكرات لتعذيب الشيشانيين هى من البشاعة بحيث شبهها البعض بمعسكرات هتلر وستالين .

على أية حال لايزال المقاتلون الشيشانيون يشنون حرب عصابات شعواء فى مواجهة القوات الروسية ، وقد تصاعدت عملياتهم خلال شهر أكتوبر ٢٠٠٠ الذى شهد العشرات من العمليات الموجعة التى طالت الروس .

	يبقى أن نشير إلى أن المقاتلين الشيشان قد أعلنوا من خلال موقعهم على شبكة المعلومات الدولية مسئوليتهم عن إغراق الغواصة النووية الروسية (كورسك) فى بحر بارنتس بالقطب الشمالى فى ١٢ أغسطس ٢٠٠٠ ، والتى قتل سائر بحارتها البالغ عددهم ١١٨بحارا. كما أعلن المقاتلون كذلك مسئوليتهم عن تفجير برج أوستانكينو (٥٤٠ مترا) والذى يعد ثانى أعلى برج تليفزيونى فى العالم ، وذلك فى ٢٧ أغسطس ٢٠٠٠ ،هذا ولم يتأكد حتى الآن ضلوع الشيشانيين فى تينك العمليتين .
نيجيريا	منذ وصول الرئيس(المسيحى) أوباسونجو إلى السلطة فى مايو ١٩٩٩ والبلاد تشهد صدامات عرقية بالغة الخطورة . ففى أواخر نوفمبر من ذلك العام شهدت لاجوس (العاصمة الإقتصادية لنيجيريا) اضطرابات عرقية عنيفة بين قبيلتى الهاوسا واليوروبا، أسفرت عن مصرع ٥٠ شخصا ، حيث مزقت عشرات الجثث وأصبحت أشلاء داخل سوق المدينة فى ٢٥ نوفمبر .كما امتدت أعمال العنف إلى منطقة دلتا نهر النيجر حيث اضطرت قوات الجيش إلى التدخل بعد مصرع ١٢ شرطيا على يد عصابات مسلحة من قبيلة إيجاو ، وفى نفس الوقت كانت ولاية كانو فى الشمال تشهد أوضاعا مضطربة بعد الإعلان عن عزم البرلمان المحلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى الولاية التى تزيد نسبة المسلمين فيها على ٨٠% من جملة السكان . وبحلول بداية عام ٢٠٠٠شهدت مدينتا لاجوس

وإيبندان مزيدا من الصدامات العرقية الدامية ، أسفرت عن مصرع ٣٥ شخصا ، فضلا عن تدمير عشرات المنازل ، والمؤسسات العامة والخاصة ، والمحال التجارية ، وانتشار أعمال السلب والنهب .

وفى ٢١ فبراير ٢٠٠٠ تجددت الاشتباكات العنيفة بين المسلمين والمسيحيين فى ولايات الشمال ذات الأغلبية المسلمة ، وذلك على إثر إعلان تلك الولايات واحدة تلو الأخرى عزمها تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية . فارتباطا بذلك شهدت ولايات كادونا ، وزمفارا ، وآبا ، وسوكوتو ، وكيبه صدامات دامية. وقد اسفرت تلك الصدامات فى كادونا عن مصرع مايزيد على ٤٠٠ شخص ، وتدمير عشرات المنازل ، والسيارات ، ودور العبادة من مساجد وكنائس .

وفى نفس الوقت تمخضت الصدامات العرقية فى آبا عن مصرع ٤٠٠ شخص ، كما شهدت ذات الفترة صراعا داميا قتل فيه ٣٠٠ شخص من مسلمى الهوسا على يد أبناء قبيلة إيبو فى جنوب شرق نيجيريا.

وهكذا باتت نيجيريا تعيش على فوهة بركان الاشتعال لاسيما مع رفض أوباسونجو لتطبيق الشريعة الإسلامية فى ولايات الشمال ، بل وإساءته للشريعة وتحقير شأن أحكامها ، فى الوقت الذى أصر فيه مسلمو الشمال على المضى قدما فى إعمال مبادئ الشريعة وانضم إليهم فى هذا المسعى مسلمو ولاية بوشي الذين يشكلون أكثر من ٧٥% من سكان الولاية.

	وفى ظل تلك الظروف راحت تطفو على السطح اقتراحات بتحويل نيجيريا إلى اتحاد كونفيدرالى (بدلا من كونها دولة فيدرالية موحدة) الأمر الذى بات ينذر بتفكك كبرى الدول الأفريقية من حيث عدد السكان .
المملكة المتحدة	ظلت منظمة الجيش الجمهورى الأيرلندى (الجناح العسكرى لمنظمة شين فين الانفصالية) لعقود عديدة تمارس عملياتها ذات الطابع العنفى داخل الأراضى البريطانية . ولعل من ابرز هذه العمليات على الإطلاق ذلك الهجوم الذى قام به الجمهوريون الأيرلنديون على مقر الحكومة البريطانية (١٠ داونينج ستريت) فى وسط العاصمة لندن فى ٧ فبراير ١٩٩١ . وهو الهجوم الذى استخدمت فيه قذائف الهاون ، حيث أطلقها المهاجمون من سيارة كانت تقف على بعد ٢٠٠متر من مقر الحكومة البريطانية ، فى الوقت الذى كان مجلس الحرب البريطانى مجتمعا فيه برئاسة رئيس الوزراء آنذاك جون ميجور لمتابعة تطورات حرب الخليج . وعلى الرغم من أن أحدا من المجتمعين لم يصب بسوء إلا أن هذا الهجوم أصاب البريطانيين بالهلع . كذلك ففى مساء ٩ فبراير ١٩٩٦ نفذت عناصر الجيش الجمهورى عملية تفجير هائلة فى منطقة شوق العاصمة البريطانية لندن أسفرت عن مصرع شخصين، وإصابة مايربو على مائة آخرين.أما عن الخسائر المادية التى ترتبت على هذه العملية فقد قدرتها الحكومة البريطانية بحوالى ١٠٠ مليون من الجنيهات الإسترلينية .

يبقى أن نشير إلى أن الشين فين (وجناحها العسكرى الجيش الجمهورى) كانت قد دخلت فى هدنة مع الحكومة البريطانية بدءا من صيف عام ١٩٩٧ ، ثم أجريت مفاوضات بين الجانبين برعاية الولايات المتحدة أسفرت - كما أسلفنا الإشارة - عن توقيع إتفاقية رامبوييه (المعروفة باتفاق الجمعة العظيمة) والتى تقضى بمنح أيرلندا الشمالية حكما ذاتيا موسعا يتقاسم السلطة المحلية فى ظله حزبا الشين فين الكاثوليكى الانفصالىبزعامة جيرى آدامز ، وألستر البروتستانتى الإتحادى بزعامة ديفيد ترمبل. وقد وقعت هذه الإتفاقية فى ٢٢مايو ١٩٩٨ ، وعلى الرغم من ذلك فهى لم توضع موضع التنفيذ حتى يومنا هذا ، حيث يرفض الجيش الجمهورى إلقاء أسلحته فى الوقت الذى يصر فيه ترامب على تجريد الجمهوريين من السلاح قبل تطبيق الإتفاقية ، الأمر الذى عكس عمق أزمة الثقة بين الجانبين . وراح جيرى آدامز يؤكد أن اتفاقية الجمعة العظيمة لم تتضمن نصا صريحا يلزم الجيش الجمهورى بإلقاء أسلحته . وفى ظل تمسك كلا الطرفين بموقفه أعلن البرلمان البريطانى - فى ٦ فبراير ٢٠٠٠ - موافقته على مشروع قرار تقدم به تونى بلير رئيس الوزراء يقضى بإعادة الحكم البريطانى المباشر إلى أيرلندا ، الأمر الذى اعتبره جيرى آدمز تهديدا خطيرا لاتفاق الجمعة العظيمة، لكى يزداد التوتر بين الجماعتين الأيرلنديتين لاسيما مع تنظيم جماعة الأورانج البروتستانتية لمظاهرات - خلال الصيف الماضى - ابتهاجا بانتصار تاريخى قديم

	كان البروتستانت قد حققه على الكاثوليك . كما زاد من عمق الخلافات رفض جماعة منشقة عن الجيش الجمهورى(تعرف باستمرارية الجيش الجمهورى) إيقاف عمليات العنف . ويذكر أن هذه الجماعة قامت – فى ٦ فبراير ٢٠٠٠ – بإحداث تفجير كبير فى فندق إيرفينستاون داخل العاصمة الأيرلندية بلفاست ، كما فجرت ذات الجماعة سيارة ملغومة قبيل ساعات من انطلاق مسيرات الأورانج فى الصيف الماضى .
إسبانيا	لايزال الانفصاليون الباسكيون يناضلون من أجل استقلال الباسك عن إسبانيا ،وإقامة دولة باسكية مستقلة، وتشير التقارير إلى أن عدد ضحايا الصراع العرقى الباسكى الإسبانى يعتبر ضئيلا إذا ماقورن بعدد ضحايا أى صراع عرقى آخر فى العالم المعاصر ، إذ على طول الفترة (١٩٦٨-١٩٩٢) لم يسفر ذلك الصراع – على صعيد الخسائر البشرية – سوى عن مصرع ٧١٧ شخصا فقط [١] . وعلى الرغم من ذلك فإن هجمات منظمة إيتا الانفصالية الباسكية تكون جد موجعة للإسبان ، حيث تقوم باختيار ضحاياها دائما من بين الشخصيات الكبرى المؤثرة . وكانت منظمة إيتا قد دخلت فى هدنة مع الحكومة الإسبانية استمرت ١٥شهرا أعلنت انتهاءها فى ٣ ديسمبر١٩٩٩ ، ومنذ ذلك التاريخ وجهت إيتا للإسبان عدة ضربات شديدة الإيلام أسفرت حتى الآن – نوفمبر ٢٠٠٠– عن مصرع ٢١ شخصا ، فضلا عن إحداث

(١) Ethnic Conflicts... ,op. cit. P. 167.

خسائر مادية جسيمة . ولعل أهم عمليات إيتا خلال الفترة الأخيرة هى مايلى : - فى ٢١يناير ٢٠٠٠ قامت المنظمة بتفجير سيارتين ملغومتين فى حى يقطنه العسكريون داخل العاصمة الإسبانية مدريد ، مما أسفر عن مصرع أحد كبار الضباط الإسبان ، وإصابة ٤ أشخاص آخرين ، فضلا عن إلحاق دمار شديد بالمبانى المجاورة . - فى سبتمبر ٢٠٠٠ محاولة (فشلت) لتفجير متحف الباسك أثناء زيارة ملك إسبانيا خوان كارلوس ، ورئيس وزرائه خوسيه ماريا أزنار وضيفهما المستشار الألمانى شرودر للمتحف . وجاءت هذه العملية على إثر اعتقال قوات الشرطة الفرنسية للزعيم العسكرى البارز فى إيتا إيجناسيو جراثيا أوريجى الذى كان قد حاول اغتيال خوان كارلوس عام ١٩٩٥. - ١٦ أكتوبر ٢٠٠٠قيام إيتا باغتيال أحد أبرز الشخصيات السياسية فى إشبيلية (ويدعى أنطونيو كارينوس) من خلال تفجير سيارته . - ٢٣ أكتوبر ٢٠٠٠ قيام إيتا باغتيال ضابط إسبانى كبير من خلال تفجير سيارة ملغومة فى بلباو . - ٣٠ اكتوبر ٢٠٠٠ قامت عناصر إيتا من خلال تفجير سيارة ملغومة باغتيال أحد قضاة المحكمة الإسبانية العليا ، كما قتل فى الحادث حارس القاضى وسائقه ، فضلا عن جرح زهاء ٣٥ شخصا ،وتدمير العديد من السيارات والحافلات الموجودة بالقرب من مكان الانفجار ، وكذا المبانى المجاورة .	

	- ٢ نوفمبر ٢٠٠٠ تفجير سيارة ملغومة على بعد أمتار من مكان كان من المزمع أن يعقد فيه خوسيه أزنار (رئيس الوزراء) مؤتمرا صحفيا في مدينة برشلونة .

جدول رقم (٣)

وهكذا يتضح فى ثنايا الجدول السابق مدى ضخامة حجم الخسائر الناجمة عن الصراعات العرقية، الأمر الذى يؤكد غلبة طابع العنف على وسائل الحركات العرقية .

ونعرض فى الصفحات التالية بشئ من التفصيل لواحدة من هذه الحركات بغية الوقوف على مدى لجوئها إلى العنف :

الحركة العرقية الكردية

١ — تعريف بالأكراد وكردستان :

تتعين الإشارة - بداية - إلى أن ثمة اختلافا بين المهتمين بالشئون الكردية حول الأصل السلالى للأكراد . فعلى سبيل المثال نجد أن المستشرق الروسى فلاديمير مينورسكى يقول بأن الأكراد ينحدرون من أصل آرى ، كما أن لغتهم تنتمى إلى عائلة اللغات الآرية ، وأن تاريخ ولوجهم منطقة كردستان يرتد إلى قرون عديدة سبقت ميلاد المسيح [١] . وفى بحث لاحق راح مينورسكى يؤكد على أن الأكراد هم أحفاد الميديين ، الذين كانوا - إلى جانب الفارسيين - يشكلون مجموعتين من القبائل الإيرانية ، يرتد تاريخهما

---

(١) ف . ف . مينورسكى ، الأكراد ، ملاحظات وانطباعات ، ترجمة : معروف خزنة دار ، دار الكاتب - بيروت ، ١٩٨٧ ، ص ٣٣ .

إلى النصف الثانى من القرن التاسع قبل الميلاد . ويضيف مينورسكى أن الميديين هم بناة أول دولة إيرانية كبيرة ، وأن دولتهم مكثت زهاء مائة وخمس وسبعين عاما إلى أن استطاع مؤسس الدولة الفارسية قورش خلع آخر الملوك الميديين فى عام ٥٥٠ ق.م [١] . وفى رأى آخر يشير أستاذ التاريخ مار (وهوروسى أيضا) إلى أن الأكراد هم السكان الأصليون لجبال آسيا الصغرى شأنهم فى ذلك شأن الأرمن ،والجيورجيين ، والخالديين . ويرد مار أصل الأكراد إلى قوم ورد ذكرهم كثيرا فى الكتابات القديمة تحت إسم كردوخ، والذين تحدث عنهم المؤرخ اليونانى القديم إكزينوفون فى كتابه أناباس عام ٤٠٠ ق.م [٢] .

كذلك فإن ثمة رأيا ثالثا يقول به سيدنى سميث، إذ يشير إلى أن: الأكراد هم من الأقوام الهندو أوربية ، وأنهم قدموا إلى موطنهم الحالى فى الوقت الذى قدم فيه الميديون إلى ميديا ، والإيرانيون إلى إيران ، حيث وفدت كافة هذه الشعوب إلى هذا الموطن بعد عام ٦٥٠ ق.م [٣].

ويذكر أحد الباحثين أن الأكراد ينحدرون من قبيلة كوتيالتى كانت تعيش فى مرتفعات زجروس منذ عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد [٤] .

ويربط نولدكة الأكراد بالإكريتى ،وهم قوم كانوا يعيشون فى المنطقة الجبلية غربى بحيرة وان ، وتفرقوا بصورة واسعة فى البلاد (مابين إيران وميديا). ويضيف نولدكة أن كلمة : " كيرتى " تطورت إلى كلمة "كورتو "

---

(١) ف. ف . مينورسكى ، الأكراد : أحفاد الميديين ،ترجمة : كمال مظهرأحمد ، من نفس المرجع السابق ، من ص ١٢٧إلى ص ١٣٢ .

(٢) عزيز الحاج ، القضية الكردية فى العشرينات ، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٢٢٤.

(٣) محمد فتحى الشاعر ، الأكراد فى عهد عماد الدين زنكى ، توزيع دار المعارف ، ١٩٩١ ، ص ٨.

(٤) محمد السماك ، مرجع سبق ذكره،ص ٢٩ .

أو "كوردو " أولا ، ثم إلى كلمة " كورت "وهى كلمة أصلية [١] .

أما سافراستيان فهو يربط الأكراد بشعب " كوتو " الذى عاش فى مملكة " كوتيام " الواقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة ، بين نهرى الزاب الصغير وديالى ، ويعتقد أن كلمة أكراد مأخوذة من الكلمة الأشورية "كورتو" [٢] .

ومهما يكن من أمر ذلك الخلاف بين الباحثين حول الأصل السلالى للأكراد فإن ثمة حقيقة لاسبيل إلى إنكارها قوامها أن الأكراد يمثلون جماعة سلالية تقطن موطنها الحالى (كردستان) منذ عشرات القرون. ومن نافلة القول أن إقليم كردستان مفتت حاليا بين خمس دول هى تركيا ، وإيران ، والعراق ، وسوريا ، وأرمينيا . وكما أن ثمة اختلافا بين الباحثين حول الأصل السلالى للأكراد ، فإنهم لايتفقون -كذلك – بصدد حدود الإقليم الكردستانى ومساحته . فيرى جافان Gavan أن : "كردستان هى المنطقة التى يقطنها الأكراد ، وهى منطقة جبلية فسيحة تغطى جنوب شرقى تركيا ، وشمال شرقى العراق ، وغرب إيران ، وتمتد فى نتوء محصور فى شمال شرقى سوريا ، أو هى الأرض التى تقع بين سلسلة جبال بونتيك والقوقاز ، وخطوط التماس الفارسى ، وهضاب بلاد النهرين من جانب ،وجبال طوروس والهضبة الإيرانية من الجانب الآخر ، وتقدر مساحتها بمائتى ميل " [٣] .

ويقول الباحث الكردى عبدالرحمن قاسملو أن الحدود التقريبية لكردستان يمكن رسمها كالآتى : " يبدأ خط مستقيم عند قمة أرارات فى

---

(١) مازن بلال ،المسألة الكردية: الوهم والحقيقة، بيسان للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٩٣، ص ١٤٠ .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) س . س جافان ، كردستان : أمة مقسمة فى الشرق الأوسط، بدون ذكر اسم المترجم ، أو الناشر ، ١٩٦٣ ، ص ١٩ .

الشمال الشرقى ، ينحدر جنوبا إلى الجزء الجنوبى من زاجروس ويشتكوه (فى غرب إيران) ، ومن تلك المنطقة نرسم خطا مستقيما نحو الغرب إلى الموصل فى العراق ،ثم خطا مستقيما نحو الغرب يمتد من الموصل إلى المنطقة الكردية من لواء الإسكندرونة ،ومن تلك النقطة يمتد نحو الشمال الشرقى حتى أضروم فى تركيا ، ثم من أضروم يمتد الخط نحو الشرق إلى قمة أرارات. والمساحة الكلية للأراضى الواقعة ضمن هذه الحدود ٤٠٩٦٥٠ كيلو مترا مربعا ،ومن هذه المساحة يوجد ١٩٤٤٠٠ كيلومترا مربعا فى تركيا ، و ١٢٤٩٥٠ فى إيران ، و ٧٢٠٠٠ فى العراق ، و ١٨٠٠٠ فىسوريا ، وتقع كردستان بين خطى عرض ٣٠و٤٠ شرقا ، و ٣٧ ، ٤٨غربا " [١]

وتجدر الإشارة إلى أن أغلب الباحثين يميلون إلى الأخذ بماورد عن قاسملو بصدد مساحة كردستان [٢] .

وفضلا عما تقدم فإن ثمة اختلافا واسعا بين الباحثين بصدد عدد الأكراد، إذ يذكر البعض أن عددهم يتراوح بين ٣٠، و٣٥ مليون نسمة موزعين على النحو الآتى [٣] :

- تركيا : ويعيش بها عدد يتراوح بين (١٢،١٦) مليون كردى .
- إيران : ويقطنها مايتراوح بين (٦ ، ٨) مليون كردى .
- العراق : ويبلغ عدد الأكراد داخلها من (٤،٥) ملايين كردى.
- سوريا : وبها حوالى مليون ونصف المليون كردى.
- أرمينيا : وبها بضعة آلاف من الأكراد.

---

(١) عزيز الحاج ، مرجع سبق ذكره ، ص٢٢٧ ، ٢٢٨.

(٢) أنظرفى هذا الصدد مثلا: سعد الدين إبراهيم ، الملل والنحل ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٤ .

وكذا : التقرير الإستراتيجى العربى (١٩٩١) ، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٠ .

(٣) أنظر فى هذا الصدد : درية عونى ، عرب وأكراد : خصام أم وئام ، دار الهلال ، القاهرة، ١٩٩٣ ، ص ١٦ .

ويذكر باحث آخر أن عدد الأكراد قد يبلغ عشرين مليونا موزعين كالآتى [١] :

- تركيا : ويعيش بها عدد يتراوح بين (٩، ١٠) مليون كردى .
- إيران : ويوجد بها من (٦ إلى ٧) ملايين كردى .
- العراق : ويبلغ عدد الأكراد فيها ٥ر٣ مليون كردى.
- سوريا : وبها مليون كردى .
- أرمينيا : ويبلغ عدد أكرادها ٤٥٠ ألف نسمة .

وثمة رأى ثالث – وليس أخيرا – بصدد تعداد الأكراد قوامه أن[٢] : عدد أكراد تركيا يتراوح بين ٧ ، ١٢مليون نسمة ، فى حين يبلغ عدد أكراد العراق مليونى نسمة ، أما أكراد إيران فيبلغ عددهم كذلك مليونى نسمة، فى حين أن أكراد سوريا يصل عددهم إلى حوالى ٢٥٠ ألف نسمة،أما أكراد أرمينيا فيصل عددهم إلى ١٢٠ ألف نسمة .

والحق أن مرد هذا الاختلاف بين الباحثين بصدد عدد الأكراد هو إلى كون الأمة الكردية مفتتة بين عديد من دول ، بعضها يرفض الاعتراف بالأكراد كجماعة عرقية متمايزة ، فالحكومات التركية المتعاقبة – مثلا- قد جرت على إطلاق عبارة "أتراك الجبال" على الأكراد .

وعلى أية حال فإن ثمة اتفاقا بين الباحثين على أن أكبر الجماعات الكردية عددا هى الجماعة الكردية القاطنة فى تركيا ، تليها تلك التى تقطن إيران ، فالتى تستوطن العراق، فتلك التى تعيش فى سوريا ، وأخيرا الجماعة الكردية فى أرمينيا .

وتتمثل أهم المدن التى يقطنها الأكراد فى تركيا فى ديار بكر ، وهكارى ، ووان ، وتبليس ،ودرسيم . أما فى العراق فيتركز الأكراد فى المحافظات الشمالية المتمثلة فى السليمانية ، وأربيل ، ودهوك، كما يشكلون

---

(١) عزيز الحاج ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٢) التقرير الإستراتيجى العربى (١٩٩١) ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٠ ،١٤١.

نصف سكان محافظة كركوك ، وبصدد أكراد إيران فإنهم يتركزون في ولايتي كرمنشاه، وأردلان ، ومقاطعة لورستان، في حين يتركز أكراد سوريا في منطقة كرداخ بولاية حلب ،وكذا في لواء ديرالزور ، أما أكراد أرمينيا فيتركزون في يريفان (١) .

وتدين الغالبية العظمى من الأكراد بالإسلام ،وتعتنق المذهب السني ، أما بصدد اللغة الكردية فهي تنتمي إلىمجموعة اللغات الهندوأوربية والتي تضم – إلى جانب الكردية – كلا من الفارسية ، والأفغانية ، والبلوجية ، والبشتونية ،والطاجيكية ، والأسيتينية (٢) .ويتكلم الأكراد لغتهم بلهجات عديدة، أظهرها الكورمانجي Kurmanji والصوراني Sorani . فالكورمانجي هل لهجة أغلبية الأكراد ، ويتكلم بها أكراد تركيا ، وسوريا ،وبعض أكراد العراق ، وأكراد أرمينيا . أما الصوراني فتتكلم بها غالبية أكراد إيران والعراق (٣) .

٢ - الحركات العرقية الكردية :

يستفاد مما سبق أن كردستان – في عصرنا – لاتعدو أن تكون كيانا إقليميا ممزقا بين عديد من الدول ، على رأسها تركيا ،وإيران ،والعراق . وتتعين الإشارة إلى أن هذا التقسيم قد تم على مرحلتين ، كما أنه كان تقسيما تحكميا قام به أولئك الذين كانوا يحتلون كردستان ، ويخضعون الأكراد لنيرهم. وقد تمثلت أولى مراحل تمزيق الجسد الكردستاني في التقسيم الذي طاله غداة معركة جالديران (أوتشالديران) ، التي اندلعت في ٢٣ أغسطس عام ١٥١٤ بين إيران الصفوية الشيعية، وتركيا العثمانية السنية في عهد السلطان سليم الأول . فعلى إثر تلك المعركة قسمت كردستان بين الدولتين،

---

(١) راجع في هذا المضمون نفس المرجع السابق ، وكذا : عزيز الحاج ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٠ .

(٢) درية عوني ،مرجع سبق ذكره ، ص٢٧.

(٣) جافان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥ .

بحيث حصلت تركيا العثمانية – التى انتصرت فى الحرب – علـــى الجـــزء الأكبر من كردستان [1] . وقدتم إقرار هذا التقسيم بصورة نهائية بمقتضـــــى إتفاقية ١٦٣٩ التى أبرمت بين الشاه الإيرانى عباس، والســـلطان العثمــانى مراد الرابع [2].

أما التقسيم الثانى الذى أصاب الجسد الكردستانى قد تم بمقتضى إتفاقية سايكس – بيكو السرية لعام ١٩١٦ ،والتى بموجبها اتفقت كل من بريطانيـــا وفرنسا على اقتسام أقاليم الإمبراطورية العثمانية ، بحيث تحصل بريطانيـــا على أراضى الرافدين من خانقين شمالا (كردستان الجنوبية) حتى الخليـــج العربى ، وفى المقابل تحصل فرنسا على معظم أراضى ســـــوريا الكـــبرى (سوريا ولبنان) ، وجزءا من كردستان الشمالية الغربية (جنـــوب شـــرقى تركيا) ، أما فلسطين فقد تقرر أن تصبـــح كيانـــا دوليـــا تحـــت الوصايـــة البريطانية . غير أن روسيا قد علمت بفحوى إتفاقية سايكس – بيكو ، لذلـــك فقد سارعت كل من انجلترا وفرنسا إلى ترضيتها بالموافقة على منحها الجزء الشمالى الغربى من كردستان [3] ، وهو الجزء الذى تنازلت روســـــيا عـــن معظمه لتركيا بمقتضى معاهدة برست – ليتوفسك لعام ١٩١٨ ، ومن جـــانب آخر فقد تنازلت فرنسا عن منطقة الموصل لبريطانيا بمقتضى اتفاقية وقعـــت بين الدولتين فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، كما تنازلت فرنســـــا عـــن منطقة ديار بكر الكردية لتركيا بموجب اتفاقية وقعت بين الدولتين فى أنقـــره خلال شهر أكتوبر ١٩٢١ [4] .

وبانتهاء الحـــرب العالمية الأولى والشروع فى تسويات ما بعد الحرب

---

(١) أنظر بصدد هذا التقسيم : صلاح بدر الدين ، القضية الكردية والنظام العالمى الجديد، رابطة كاوا للثقافة الكردية ، بيروت ، ١٩٩٣ ،ص ١٢ .

(٢) درية عونى ، مرجع سبق ذكره ، ص١٤٣.

(٣) أنظر بصدد اتفاقية سايكس – بيكو: سعدالدين ابراهيم ، الملل والنحـــل ... ، مرجـــع سبق ذكره ، ص ٢٢٠ .

(٤) أنظر فى هذا المضمون: درية عونى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

لاحت للأكراد فرصة هائلة لنيل استقلالهم ، لاسيما وأن مبـــادئ ويلســـون الأربعة عشر لعام ١٩١٨كانت قد تضمنت نصا قوامــه: " حــق الشــعوب الخاضعة للسلطان العثماني في تقرير مصيرها " (١) . على أية حال ففي ١٠ أغسطس١٩٢٠ عقدت – في إطار تسويات مابعد الحرب – معاهدة ســيفر، وهي المعاهدة التي انصب اهتمام بعض موادها على إيجــاد حــل للمســالة الكردية ، ويتمثل أظهر هذه المواد في المادتين (٦٢) ، (٦٤) . حيث جــاء بالمادة (٦٢) أنه : " تجتمع في الأستانة لجنة من ثلاثـــة أعضــاء تعينــهم حكومات بريطانيا وفرنسا وإيطاليا على التوالي لتضع – في مدى ستة شهور من تاريخ بدء تنفيذ هذه المعاهدة – مشروعا للحكم الذاتي يتعلق بالمنــاطق التي للأكراد فيها الأغلبية ، والتي تقع شرق الفــرات ، وجنــوب الحــدود الجنوبية لأرمينيا (على ماستقرر فيما بعد) ،وشمال حدود تركيا وســوريا وبلاد النهرين " (٢) .

اما المادة (٦٤) فقد ورد فيها : " إذا حدث خلال سنة مــن التصديــق على هذه الإتفاقية أن تقدم الأكراد إلى عصبة الأمم طالبين الإســتقلال عــن تركيا، وإذا اعترفت العصبة بأهلية هؤلاء السكان في حياة مســتقلة ، فــإن تركيا تتعهد بقبول هذه التوصية ،والتخلي عن كل حق في هــذه المنطقــة، وستكون الإجراءات التفصيلية لتخلي تركيا عن هــذه الحقــوق موضوعــا لإتفاقية منفصلة تعقد بين كبار الحلفاء وتركيا ، وإذا ماتم تخلي تركيا عــن هذه الحقوق ، فإن الحلفاء لن يثيروا أي اعتراض ضد قيــام أكــراد ولايــة الموصل بالانضمام الاختياري إلى هذه الدولة (أي الدولة الكردية) " (٣) .

وهكذا فقد اعترف للأكراد لأول مرة – بمقتضــى إتفاقيــة دوليــة – بوجودهم كشعب يتعين أن يكون له الحق في تقرير مصيره .غير أن الآمــال

---

(١) أنظر بصدد هذا النص : التقرير الإستراتيجيالعربي (١٩٩١) ، مرجع سبق ذكره ، ص١٤٠.

(٢) جافان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦ .

(٣) سعدالدين إبراهيم ، الملل والنحل ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢١.

التى علقها الأكراد على إتفاقية سيفر سرعان ماذهبت أدراج الرياح . ففى عام ١٩٢٣ تمكن مصطفى كمال أتاتورك من اعتلاء سدة الحكم فى تركيا، وإلغاء الخلافة الإسلامية . وما أن تحقق له ذلك حتى راح أتاتورك يرفض معاهدة سيفر ، ويطالب بإلغائها . وبالفعل فقد وافق الحلفاء على إلغاء معاهدة سيفر ، وراحوا يوقعون كبديل عنها إتفاقية لوزان مع تركيا الكمالية فىيوليو١٩٢٣ ، وهى الإتفاقية التى بمقتضاها احتفظت تركيا بكافة أراضيها (عدا الأقاليم العربية) . ولم تذكراتفاقية لوزان أى شئ بصدد المسألة الكردية ، الأمر الذى كان يعنى عملا بقاء كردستان مقسمة بين كل من تركيا، وإيران ، والإتحاد السوفيتى (وهى دول مستقلة) ، والعراق وسوريا (وهما وحدتان سياسيتان خاضعتان – آنذاك – للإنتداب) (١) . وإذا كانت تركيا لم تعترف –آنذاك – بضم العراق إلى ولاية الموصل ، غير أنها عادت وأقرت هذا الضم بمقتضى معاهدة ثلاثية وقعتها مع بريطانيا والعراق فى ٥ يونيو ١٩٢٦ (٢) .

وهكذا فقد ظلت كردستان مقسمة – حتى وقتنا هذا – بين كل من تركيا، وإيران ، والعراق بصورة أساسية، كما أن ثمة أجزاء كردستانية ضئيلة المساحة خاضعة لكل من سوريا ، وأرمينيا . وعلى ذلك فإننا سنهتم فى السطور التالية بمعالجة الحركات الكردية الرئيسية ، أى التى توجد فى كل من تركيا ، وإيران ،والعراق.

أ - الحركات العرقية الكردية فى تركيا :

تتعين الإشارة – بداية – إلى أن الحركات العرقية الكردية فى تركيا لم تكن وليدة هذا القرن ، ذلك بأنه قد ظهر العديد من الحركات العرقية الكردية الانفصالية داخل تركيا خلال القرن التاسع عشر ، بل وثمة حركة كردية

---

(١) المرجع السابق .

(٢) حامد محمود عيسى ، المشكلة الكردية فى الشرق الأوسط ، مكتبة مدبولى ، القاهرة،١٩٩٢ ، ص ٧٠ .

انفصالية ظهرت فى كردستان التركية فى أواخر القرن الثامن عشر ، وهـى الحركة التى تزعمها عبدالرحمن باشا بابان والتى قامت بانتفاضة اسـتمرت خلال الفترة (١٨٧٧ - ١٩١٢) .

وعلى أية حال فقد شهدت كردستان التركية خلال الفـترة (١٧٨٨ - ١٩٣٩) مايربو على خمس عشرة ثورة وانتفاضة وحركة مسلحة قام بـها الأكراد طلبا للإستقلال ، والتخلص من ربقة الأتراك (١) . وفيما يلى نعـوض لأظهر هذه الحركات .

انتفاضة مير محمد فى راوندوز (١٨١٢-١٨٣٦) :

وقد تمكن ميرمحمد حاكم راوندوز من تأسيس قوة مسـلحة تسـليحا جيـدا ، ثم راح يسعى إلى ضم العديد من المناطق الكردية إلى مقاطعتـه . وفى عام ١٨١٨ أعلن استقلال المناطق الخاضعـة لإمرتـه عـن الدولـة العثمانية، كما شرع فى سك عملات ذهبية خاصة براوندوز كتعبـير عـن استقلالها . وبحلول أوائل ثلاثينيات القرن التاسع عشر كان مير محمـد قـد بسط سلطته على أراض شاسعة تمتد من الموصل حتى الحدود الإيرانية ،ثـم مالبث أن عقد العزم على ضم المناطق الكردية فى إيران إلـى أراضيـه ، حيث نجح بالفعل فى ضم بعض هذه المناطق . غير أن السلطان العثمـانى سرعان ما أدرك الخطر الذى يمكن أن يحيق به فى حالة قيام دولة كرديـة مستقلة فتيـة ، لذلك فقد جيش جيشا ضخما ، راح يهاجم قوات مير محمـد التى أخذت تنهار شيئا فشيئا أمام الزحف التركى ، لكى يعلن مـير محمـد إستسلامه فتى نهايـة عام ١٩٣٦، وتدخل القوات التركية راونـدوز حيـث قامت بقتل حوالى عشرة آلاف كردى ، وإحراق عدد كبير من القرى ، أمـا مير محمـد فقد اقتيد إلى اسطنبول حيث تم إعدامه بأمر السلطان العثمانى -

---

(١) صلاح بدر الدين ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤ ، ١٥ .

آنذاك - محمود الثاني [1].

ثورة بدرخان (١٨٣٠-١٨٤٧) :

وهى الثورة التى بلغت أوج عنفوانها خلال عـامى ١٨٤٢ ، ١٨٤٣ . وقد استهدفت هذه الثورة تحرير كردستان من الدولتين العثمانية (التركيـة)، والقاجارية (الإيرانية) ، وإقامة دولة كردستان المستقلة . ولقد أدى رجـال الدين المسلمين دورا بارزا فى توجيه دفة هذه الثورة [2] ، التـى تزعمـها أميربوتان بدرخان ، ذلك الزعيم الكردى الذى سعى إلى الإفادة مـن حالـة الاضطراب التى انتابت الأتراك على إثر معركة نصيبين، التى خاضوها فى مواجهة قوات محمد على حاكم مصر . ففى ظل هذه الأوضاع راح بدرخان يبسط سيطرته على وان ، والموصل ، وسوجيولاق ، وأورومية ، وديـار بكر، كما تمكن بدرخان من إقامة محالفات مع عدد لايستهان بها من زعمـاء الأكراد. وفضلا عما تقدم فقد عمد الزعيم الكردى إلى الاقتداء بتجربة محمـد على فى مصر، بأن سعى إلى بناء جيش ، وإنشاء مصانع للذخيرة. بيـد أن الأتراك تمكنوا فى النهاية من إخماد ثورة بدرخان ، وتبديد طموحاتـه فـى إنشاء الدولة الكردية المستقلة. وقد نفى بدرخان هو وأسـرته إلـى خـارج كردستان عام ١٨٤٧ [3] .

ثورة الشيخ عبيدالله النهرى (١٨٧٨- ١٨٨١) :

وقد مهد الشيخ النهرى لثورته بالعمل على توحيد رؤساء العشـائر ، وخلق أكبر إجماع كردى ممكن . كما تحالف النهرى مع مسيحيى كردستان،

---

(١) راجع فى ذلك بالتفصيل : جليلى جليل وآخرون، الحركة الكرديـة فـى العصـر الحديث، ترجمة: عبدى حاجى ، دار الرازى ، بيروت١٩٩٢ ، من ص ١٥ إلى ص ١٧ .

(٢) مازن بلال، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦١ .

(٣) أنظر فى هذا المضمون : حامد محمود عيسى ،مرجع سبق ذكره ،ص١٦ ، وكـذا : محمد السماك ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٩ .

والحركة القومية الأرمينية . ذلك فضلا عن أنه لم يحصر حركته في الكردستان العثمانى ، بل تجاوزها إلى كردستان إيران ، حيث كان يرى - كما جاء فى إحدى رسائله إلى الممثل البريطانى فى نشخال (التابعة لتركيا) - أن : " الأمة الكردية هى أمة قائمة بذاتها ،كما أن زعماء كردستان وقاطنيها ، من مسلمين ومسيحيين ، وسواء أكانوا خاضعين لتركيا أو لإيران إنما هم متحدون ومتفقون عى عدم قبول خضوعهم للحكومتين التركية والفارسية " . وأضاف النهرى : " إننا نريد أن نحكم أنفسنا بأنفسنا " [١] .

وعلى أية حال فعلى الرغم من اتساع نطاق ثورة النهرى وتعاظم شعبيته بين الأكراد فإن ثورته قد سحقت فى النهاية ، كما تم نفيه مع أسرته إلى مكة حيث توفى عام ١٨٨٣ [٢] .

ثورة الشيخ سعيد البيرانى (١٩٢٣- ١٩٢٥):

تمثل ثورة الشيخ سعيد واحدة من أبرز الثورات التى شهدتها كردستان التركية خلال النصف الأول من القرن الحالى . وقد أشعل الأكراد فتيل هذه الثورة فى إطار تصديهم لجهود أتاتورك التى استهدفت تتريكهم ، حيث كان الزعيم التركى قد عمد -غداة اعتلائه سدة الحكم فى تركيا عام ١٩٢٣ -إلى اتخاذ جملة إجراءات معادية للأكراد ، إذ حظر عليهم استخدام لغتهم ،كما قام بنفى زعمائهم إلىمناطق بعيدة عن كردستان ،وفضلا عن ذلك فقد سعى أتاتورك إلى محو كلمة " أكراد " من الوجود ،فراح يطلق على الأكراد " أتراك الجبال". وقد جاءت المادة ٨٨من الدستور الجمهورى التركى بمثابة إضفاء للطابع القانونى على إجراءات أتاتورك المتقدمة ، إذ نصت هذه المادة على أن : " جميع سكان تركيا هم أتراك ،أيا كانت ديانتهم ، أو قوميتهم ". كما راحت الصحف التركية - آنذاك- تؤكد على أنه " يجب على غير

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : درية عونى ، مرجع سبق ذكره ، ص١٢٨ .

(٢) مازن بلال ، مرجع سبق ذكره، ص١٦١ .

الأتراك أن يندمجوا فى المجتمع التركى ، وإلا تعين عليهم الرحيل" (١) .

وفى مواجهة تلك الإجراءات التى استهدفت طمس هويتهم راح الأكراد يسارعون فى تنظيم صفوفهم بغية الدخول فى حلقة جديدة من حلقات كفاحهم المضنى من أجل تقرير المصير. ففـى أعقاب إعلان الجمهوريـة التركيـة بأيام قليلة كان الأكراد قد كونوا منظمة انفصالية عرفـت بلجنـة اسـتقلال الكردى " آزادى". وراح الزعيم الكردى البارز سعيد البيرانى (الشيخ سعيد) يجوب القرى فى حملة لتوعية الفلاحين الأكراد بضرورة السعى إلى إقامـة دولة كردية ، والتخلص من النير التركى ، وشيئا فشيئا اندلعت الثورة فـى شتى أرجاء كردستان ، وراحت قيادة الثورة تعلن فى عام١٩٢٤ عن قيـام حكومة كردية مؤقتة (٢) ، وبحلول عام ١٩٢٥ كانت الثورة قد امتدت إلـى أربع عشرة ولاية من ولايات شرق البلاد ، كما تمكن الأكراد مـن حشـد جيش قوامه عشرون ألف مقاتل ، راحوا يقاتلون تحت شـعارات انفصاليـة حال : " عاش الاستقلال" ، و " عاشت كردستان" . وبمرور الوقت تزايـدت أعداد القوات الكردية حتى بلغت ٤٠ ألف مقاتل ، وتمكن الثوارمن الاستيلاء على مناطق واسعة من كردستان ، ثم مـابرحوا أن راحـوا يسـعون إلـى الاستيلاء على ديار بكر بغية إعلان دولتهم المستقلة . غـير أن الحكومـة التركية جابهت الأكراد بقوات لاقبل لهم بها ،وبالتالى فقـد فشـل الـهجوم الكردى على ديار بكر، وراح الشيخ سعيد يصدر أوامره لقواته بالانسحاب ، وشيئا فشيئا ساءت أوضاع الثوار، كما قامت قوات حكومية قوامها سـبعون ألف مقاتل بمهاجمتهم ،وطردهم بمنأى عن ديار بكر ، وبحلـول منتصـف ابريل١٩٢٥ قامت أعداد هائلة من القوات التركية بمحاصرة مـاتبقى مـن قوات الأكراد فى وادى كينجو ،وسرعان مـا انـهارت مقاومـة الأكـراد، وتحطمت قواتهم . كما تم إلقاء القبض على الشيخ سـعيد وعشـرات مـن

---

(١) أنظر بصدد هذه الإجراءات : حامد محمود عيسى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٥٩.
(٢) أنظر فى هذا المضمون : درية عونى ،مرجع سبق ذكره ،ص ١٣٠ .

مساعديه [١] . وفى أعقاب ذلك قدم هؤلاء الزعماء للمحاكمة ، حيث حكم على ٤٦ منهم – وعلى رأسهم الشيخ سعيد – بالإعدام [٢] .

يبقى أن نشير إلى أن ثورة الشيخ سعيد كانت من العنفوان بحيث شاركت فى قمعها قوات تركية قوامها مائتى ألف مقاتل ، تسلحوا بشتى أنواع الأسلحة، حتى أن سلاح الطيران التركى قد ساهم فى إخماد الثورة . وفضلا عما تقدم فقد كلفت ثورة الشيخ سعيد الميزانية التركية حوالى ٥٠ مليون ليره، كانت تشكل – وقتذاك– ٢٥ % من جملة النفقات فى تلك الميزانية [٣].

انتفاضة أرارات (١٩٢٧ – ١٩٣١) :

فى أعقاب نجاح الأتراك فى إخماد ثورة الشيخ سعيد راحت المنظمات الوطنية الكردية تتوحد تحت قيادة عناصر كردية تعيش خارج كردستان، حيث ظهرت جبهة كردية واحدة أطلق عليها إسم حزب خويبون .وقد قام هذا الحزب بالتنسيق مع المنظمات والأحزاب الأرمينية التى كانت تناضل بدورها – آنذاك – من أجل إستقلال الأرمن الخاضعين لربقة الأتراك [٤] .

وقد تمثل الهدف المحورى لحزب خويبون – والذى ضمنه برنامجه التأسيسى – فى النضال ضد الأتراك حتى جلاء آخر جندى تركى من الأراضى الكردية المقدسة . وفى سبيل ذلك فقد وضع الحزب نصب عينيه تشكيل فصائل كردية خاصة وتدريبها وتسليحها بالأسلحة الحديثة. وبالفعل فقد تم تشكيل هذه الفصائل ، حيث وضعت تحت قيادة إحسان نورى باشا . وسرعان ما بدأت قوات الأكراد نضالها من أجل بلوغ غايتها . وقد نجحت

---

(١) راجع فى هذا الصدد بالتفصيل : جليلى جليل وآخرون ، مرجع سبق ذكره ، من ص ١٣٧ إلى ص١٤٤.

(٢) جافان ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩.

(٣) جليلى جليل وآخرون ،مرجع سبق ذكره ، ص١٤٥.

(٤) أنظر فى هذا المضمون : سعد الدين إبراهيم ، الملل والنحل ... ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٢.

هذه القوات خلال عامى ١٩٢٨ و١٩٢٩ فى تحقيق انتصارت لايستهان بها فى مواجهة قوات الحكومة التركية . وبحلول بداية عام ١٩٣٠ كانت قد دانت للأكراد السيطرة على معظم الولايات الشمالية الشرقية. وإزاء ذلك راحت الحكومة التركية ترسل تعزيزات هائلة إلى قواتها فى المنطقة . واستعر أوار المعارك بين الجانبين طيلة عام ١٩٣٠. وبطبيعة الحال لم يكن بمقدور القوات الكردية – ذات الإمكانات التسليحية المتواضعة – أن تصمد أمام جحافل الجيش التركى المدججة بأحدث الأسلحة ، وبالتالى فقد تمكن الأتراك بحلول عام ١٩٣١ من سحق قوات الأكراد ،وإخماد انتفاضتهم . (١) يبقى أن نشير إلى أن الهجوم التركى واسع النطاق على المناطق الكردية خلال انتفاضة آرارات قد أسفر – حسب ماذكرته صحيفة " زاريا فوستوكا " – عن تدمير زهاء ٢٠٠ قرية وبلدة كردية ،ومصرع عدة آلاف من الثوار الأكراد ، أما بصدد عدد الضحايا من المدنيين فقد تراوح بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألف شخص . وحسب إحصاءات لجنة خويبون فقد دمرت القوات التركية٦٦٠ قرية، وأحرقت ١٥٢٠٦ منازل (٢).

وثمة ملاحظة أخيرة تجدر الإشارة إليها وهى أن الحكومة الإيرانية كانت – فى بداية انتفاضة أرارات – تقدم مساعدات للثوار الأكراد ، بيد أن الحكومة التركية نجحت فى إقناع شاه إيران بالتخلى عن الأكراد ، فى مقابل أن يقدم الأتراك للإيرانيين تنازلات إقليمية فى منطقة الحدود التركية الإيرانية. وبذلك فقد وقعت الدولتان إتفاقا بمقتضاه أوقفت إيران مساعداتها للثوار الأكراد ، كما قدمت مساعدات للقوات التركية فى مواجهاتها مع الثوار، وفى المقابل قدمت تركيا للإيرانيين بعض التنازلات عند إعادة تخطيط الحدود بين الدولتين (٣) . وهكذا فإن الحركة العرقية الكردية كانت

---

(١) أنظر فى هذا المضمون بالتفصيل : جليلى جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، من ص ١٦٣ إلى ص ١٦٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

(٣) أنظر فى هذا المضمون : درية عونى ، مرجع سبق ذكره، ص ١٣١ .

لها آثار دولية طالت العلاقات بين الدول المعنية بها .

ثورة درسيم (١٩٣٦ – ١٩٣٨) :

وقد اندلعت هذه الثورة بزعامة سيد رضا بغية التصدى لمحاولات تتريك منطقة درسيم الكردستانية ، حيث تمكن رضا مع بداية عام ١٩٣٧من إقناع العديد من العشائر الكردية بالانضواء تحت قيادته ، الأمر الذى هيأ له تأسيس جيش كردى قوامه٣٠ ألف مقاتل ، راحوا يصبون جام غضبهم على القوات التركية ، كما قاموا بتدمير الجسور والطرق وخطوط التلغراف [١] . غير أن عام ١٩٣٧شهد حدثين كان من شأنهما تحطيم الروح المعنوية للأكراد، وإضعاف بأسهم . وقد تمثل الحدث الأول فى تمكن الحكومة التركية من اعتقال سيد رضا ثم إعدامه ، أما الحدث الثانى قد تمثل فى التوقيع على معاهدة سعد آباد فى يوليو١٩٣٧ من جانب حكومات كل من تركيا وإيران والعراق ، تلك المعاهدة التى اتفقت الدول الثلاث بمقتضاها على اتخاذ تدابير مشتركة والوقوف صفا واحدا فى مواجهة الخطر الكردى [٢] . وهكذا فقد كانت للحركة العرقية الكردية – دوما – آثار هامة على العلاقات بين الدول المعنية بها .

على أية حال فإنه على الرغم مما تقدم فقد واصل الأكراد نضالهم فى مواجهة الأتراك واضطر الجيش التركى إلى استخدام الغازات السامة على نطاق واسع ، كما عمد الأتراك إلى استخدام سلاحى المدفعية والطيران بكامل رجالهما وعتادهما فى محاصرة الثوار الأكراد داخل درسيم [٣] . وبحلول شهر يوليو عام ١٩٣٨ شهدت درسيم معارك طاحنة بين الجيش التركى والثوار الأكراد ، وقد استمر الصراع الدامى بين الفريقين إلى أن

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : جليلى وآخرون ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨١

(٢) أنظر فى هذا المضمون : المرجع السابق ، ص ١٨١،١٨٢ .

(٣) أنظر فى هذا المضمون : سعد الدين ابراهيم ، الملل والنحل ...، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٢

تمكن الأتراك من إخمـاد ثورة درسيم تماما بحلول شهر أكتوبر عام ١٩٣٨ [١] . وعلى إثر ذلك انتقم الجيش التركى من سكان درسيم انتقاما عنيفا ، حيث قام بإحراق الغابات ، والقرى ، وقتل آلاف المدينيين ، كما اضطرت مئات أخرى إلى الإنتحار الجماعى غرقا فى نهر منذور خوفا من بطش الأتراك . ويقدر البعض خسائر الأكراد فى نضالهم ضد الأتراك خلال عقدى العشرينيات والثلاثينيات بمئات الآلاف من القتلى . وفضلا عن ذلك فقد تم اجتثاث زهاء مليون ونصف المليون كردى من كردستان وتوطينهم فى أواسط الأناضول. وحتى لاتقوم للمقاومة الكردية قائمة مرة أخرى فرضت السلطات التركية على المنطقة الكردية حصارا دام إلى عام ١٩٥٠. كما حظرت دخول الأجانب إلى هذه المنطقة خلال الفترة (١٩٣٩-١٩٦٥). وفوق ماتقدم فقد محيت من قواميس اللغة التركية كلمات " أكراد " ، و "كردستان " ، و " لغة كردية " ، وظلت الحكومة التركية على نهجها فى الإشارة إلى الأكراد بأتراك الجبال [٢] .

الحركة العرقية الكردية المعاصرة فى تركيا :

تتعين الإشارة – بداية إلى أن كردستان التركية قد شهدت هدوءا نسبيا خلال العقود الأربعة اللاحقة لثورة درسيم ، بحيث خلت الفترة (١٩٤٠-١٩٨٠) من وجود أية حركة عرقية كردية يعتد بقوتها ، إذ اتسمت كافة المنظمات الكردية التى ظهرت خلال تلك الفترة بالضعف المتناهى ، بحيث لم يكن بمقدورها التصدى للقبضة الحديدية التى أطبقت بها الحكومة التركية على كردستان خلال العقود التالية لثورة درسيم [٣] . غير أنه بحلول عقد الثمانينيات طفت على سطح الحياة الكردية منظمة انفصالية راحت تجب بقوتها قوة ماعداها من تنظيمات كردية، وتتمثل هذه المنظمة فى حزب

(١) أنظر فى هذا المضمون : جليلى جليل وآخرون ، مرجع سبق ذكره ، ص١٨٣ .

(٢) أنظر فى هذا المضمون : سعد الدين ابراهيم ، الملل والنحل ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٣) أنظر فى هذا المضمون على سبيل المثال : المرجع السابق .

العمال الكردستانى Partiya Karkaren Kurdiistan (PKK) ، ذلك الحزب الذى تأسس على يد الزعيم الكردى عبدالله أوجلان Abdullah Oculan، ووضعت اللبنات الأولى فى بنيته خلال عقد السبعينيات ، وإن كان أوجلان قد اضطر مع بداية عقد الثمانينيات إلى الفرار إلى لبنان ، حيث بدأ فى إعداد ميلشيات عسكرية كردية راحت تتسلل بمساعدة سوريا إلى كردستان التركية، وأخذت فى شن حرب عصابات شعواء فى مواجهة الأتراك (١) . وسرعان ماتعاظمت قاعدة الحزب فى كردستان التركية ،وبلغ أوج عنفوانه فى عام ١٩٨٤، حيث اتسع نطاق كفاحه المضنى من أجل انفصال كردستان عن تركيا ، وإقامة دولة كردية مستقلة .ويتوسل حزب العمال الكردستانى فى سبيل بلوغ هدفه بحرب العصابات ، التى تعتمد على أسلوب الكر والفر. وكما سبق أن أشرنا فقد قام الحزب خلال عام ١٩٩١ بحوالى ٨٠١ عملية مسلحة في مواجهة قوات الجيش التركى ومنشآته ، فى حين بلغ عدد العمليات التى قام بها الحزب عام ١٩٩١ حوالى ١٦٥ عملية .أما عام ١٩٩٢ فقد شهد ٣٥٨٣ عملية عنف قامت بها ميلشيات حزب العمال الكردستانى فى مواجهة الأتراك . وفى عام ١٩٩٣ قامت هذه الميلشيات بحوالى ٢١٦١ عملية ، فى حين بلغ عدد عملياتها فى عام ١٩٩٤ حوالى ١٨٨١ عملية . وبطبيعة الحال قد كلفت هذه العمليات الحكومة التركية آلاف الملايين من الليرات (٢).

وفضلا عما تقدم يقوم حزب العمال الكردستانى من حين إلى آخر بمهاجمة المبانى والمنشآت التركية الموجودة بالخارج، فعلى سبيل المثال قام أتباع الحزب – فى يونيو ١٩٩٣ – بهجمات مسلحة طالت السفارات والقنصليات والمصارف التركية فى أكثر من ثلاثين مدينة داخل كل من

---

(١) Gunter, Micheal M., The Kurdish Problem in Turkey, The Middle East Journal, Summer, 1988, p.p.394-397.

(٢) أنظر فى هذا المضمون : سعد الدين إبراهيم (محرر) ،الملل والنحل ... ، (تقريـر ١٩٩٥)، مرجع سبق ذكره، ص٣٤٨ .

ألمانيا ، وفرنسا ،وسويسرا ،والدانمارك ، والسويد [١] .

ومهما يكن من أمر ماتقدم فإن حزب العمال الكردستانى تلقى فى فبراير ١٩٩٩ ضربة ساحقة أضعفت إلى حد كبير من قدراته العسكرية والتنظيمية ، ففى منتصف ذلك الشهر تمكنت المخابرات التركية – بمساعدة أمريكية إسرائيلية – من القبض على عبدالله أوجلان فى كينيا ، تلك الدولة التى كان قد دخلها قادما من إيطاليا التى كان قد وصلها إثر خروجه من ملاذه الأصلى فى سوريا ، التى اضطرت إلى إخراجه من أراضيها بعد تهديد الأتراك للسوريين بشن الحرب عليهم إن هم لم يسلموهم أوجلان . إذ يشار إلى أن أعوام ١٩٩٦ ،١٩٩٧، ١٩٩٨ قد شهدت توترا خطيرا فى العلاقات التركية السورية ، وكان مرد هذا التوتر إلى استضافة سوريا لأوجلان وتقديم المساعدات لحزب العمال الكردستانى . ويذكر بعض المحللين أن سوريا جرت على استخدام ورقة المشكلة الكردية كوسيلة للضغط على تركيا عسى أن يقدم الأتراك للسوريين بعض التنازلات فيما يتصل بخلافات الدولتين حول اقتسام مياه نهر الفرات، حيث كان الأتراك قد عكفوا على بناء العديد من السدود على النهر ، ضاربين عرض الحائط بما جره ذلك من مشكلات للسوريين. وفضلا عن هذه المشكلة فهناك المشكلة الأخرى القائمة بين الدولتين والمتصلة بلواء الإسكندرونة الذى تحتله تركيا ، فى الوقت الذى يعتبره السوريين أرضا سورية . على أية حال فإنه فى ظل التهديد التركى بإعلان الحرب على سوريا وتوتر العلاقات بين الدولتين ووصولهما إلى حافة الحرب اضطرت سوريا إلى إخراج أوجلان من أراضيها وإن كانت لم تسلمه إلى تركيا . وقد غادر الزعيم الكردستانى الأراضى السورية وراح يتنقل بين عديد من الدول (منها روسيا واليونان وإيطاليا) حتى تم القبض عليه فى كينيا على نحو ماقدمنا . وفى ظل ضغوط شعبية تطالب بإعدامه تمت محاكمة أوجلان فى تركيا حيث قضت محكمة الاستئناف فى أواخر نوفمبر ١٩٩٩ بتأييد حكم محكمة أول درجة بإعدامه .

---

(١) سعدالدين إبراهيم ، الملل والنحل... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٤ .

والحق أن عملية القبض على أوجلان ومحاكمته صاحبتها آثار دولية هامة ، إذ على إثر القبض عليه توترت إلى حد كبير العلاقات بين تركيا وكل من اليونان وإيطاليا اللتين أثار الأتراك إيواؤهما لأوجلان إثر خروجه من سوريا ، وقد وصل التوتر ذروته عندما انطلقت حناجر الأتراك بعبارات تهديدية لاذعة إزاء الدولتين . على صعيد آخر فإن الحكم بإعدام الزعيم الكردى قد أثار استياء وغضب دول الجماعة الأوربية إزاء الأتراك ، وراحت الجماعة الأوربية تهدد تركيا بأن فرصتها فى الإنضمام الى الجماعة ستكون فى حكم المنعدمة لو أن الأتراك أقدموا على تنفيذ حكم الإعدام الذى تجرمه الجماعة الأوربية ، وتعتبره إعتداء بالغا على حقوق الإنسان . ومن المعروف أن تركيا تسعى حثيثا منذ عقود لاسترضاء الجماعة الأوربية عساها ترضى وتقبل بمنح الأتراك عضويتها .وفى ظل هذه الضغوط لم يكن أمام الحكومة التركية سوى الإذعان لمطلب الجماعة الأوربية ، إذ راح رئيس الوزراء التركى بولنت أجاويد يعلن فى بداية عام ٢٠٠٠تأجيل تنفيذ حكم الإعدام فى أوجلان إلى أجل غير مسمى .وبرر أجاويد ذلك بأن المصلحة العليا للبلاد تقتضى مثل هذا القرار ، برغم تعارضه مع المطالبات الشعبية واسعة النطاق بإعدام الزعيم الكردستانى .

وهكذا فإن الحركة العرقية الكردية فى تركيا كانت لها دوما آثارها الدولية على الرغم من كونها حركة داخلية .

ب - الحركة العرقية الكردية فى إيران :

لقد قام الأكراد الخاضعون للنير الإيرانى - خلال القرن الراهن - بالعديد من الثورات التى استهدفت الحصول على حق تقرير المصير. وفيما يلى نعرض لأظهر هذه الثورات .

ثورة إسماعيل أغا سيمكو (١٩٢٠- ١٩٢٥) :

كان سيمكو يمثل - وقت قيامه بثورته هذه - رئيسا لقبيلة الشيكاك .

وقد استطاع هذا الزعيم الكردى أن يجند تحت إمرته زهاء ٤٠ ألفا من أبناء قبيلته (١) ، راحوا جميعا يقاتلون من أجل إقامة دولة كردستان المستقلة عن إيران. وقد تمكنت قوات سيمكو من بسط سيطرتها على سائر الأراضى الكردية الواقعة غرب بحيرة أورمية ، والتى تضم مدن مهاباد ، وماكو ، وخوى ، وقوتور ، وديلمان ، وسقز ، وسردشت ، وبانه ، وبوقان ، وفى أعقاب ذلك راح سيمكو يعمل على إعادة تشكيل جيشه بغية تحويل الفصائل الاقطاعية الكردية المتطوعة الخاضعة لقيادته إلى وحدات عسكرية نظامية، كما تمكن الزعيم الكردى من بناء ترسانة أسلحة يعتد بها ، ثم مالبث أن نصب نفسه ملكا على كردستان ، وقام بتشكيل حكومة كردية ، راحت تسعى إلى إقامة علاقات دبلوماسية مع الدول الأجنبية ، كما قامت هذه الحكومة بإصدار مجلة كردستان لكى تكون بمثابة لسان حالها (٢) . وعلى صعيد آخرفقد راح سيمكو يدعو إلى استقلال سائر الأقاليم الكردية التى تحتلها الدول المجاورة الأخرى ، لذلك فقد عمد إلى الاتصال بالقيادات الكردية الأخرى فى كل من تركيا ،والعراق، بغية تنسيق نضال الأكراد قاطبة فى سبيل إقامة كردستان المستقلة الموحدة (٣) .

وعلى أية حال فإن قوات سيمكو لم تتمكن من الصمود طويلا أمام جحافل القوات الإيرانية التى راحت تجتاح المناطق الكردية ، وسرعان ما انهارت مقاومة الأكراد لاسيما وأن ثمة قوات تركية قد شاركت القوات الإيرانية فى دحرهم . ويمكن القول بأن ثورة سيمكو قدفقدت جل عنفوانها خلال النصف الأول من عقد العشرينيات ، ومع ذلك فإن إسماعيل سيمكو – الذى كان قد تمكن من الفرار إلى خارج إيران – ظل يحاول محاولات يائسة لحشد الأكراد حول قضية إستقلال كردستان. وقد ظل سيمكو يناضل من أجل

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : حامد محمود عيسى . مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨٨ .

(٢) أنظر فى هذا المضمون: جليلى جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره،ص ١٣٢.

(٣) أنظر فى هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم ، الملل والنحل ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢٣ .

القضية الكردية حتى عام ١٩٣٠ ، عندما نجحت عملية كانت الحكومة الإيرانية قد دبرتها لإغتياله .

حركة القاضى محمد وإنشاء جمهورية مهاباد الكردية المستقلة (١٩٤٥ - ١٩٤٦):

كانت جيوش الحلفاء قد دخلت الأراضى الإيرانية أثناء الحرب العالمية الثانية . وقد راحت القوات السوفيتية تعمد إلى حث الأقليات فى المناطق الإيرانية الخاضعة لها على السعى إلى تقرير مصيرها . وفى علم ١٩٤٥ - وبتشجيع من السوفييت - أنشأ الأذربيجانيون دولة مستقلة فى إقليم أذربيجان الإيرانى (١) . وفى أواخر عام ١٩٤٥ نشأ فى كردستان الإيرانية حزب سياسى راح يتبنى القضية الكردية، ألا وهو الحزب الديمراطى الكردستانى ، وقد تزعم هذا الحزب القاضى محمد قاضى مهاباد (٢) . وفى ٢٢ يناير ١٩٤٦ - ومن خلال اجتماع كردى حاشد شهده ميدان جوار جرا (المشاعل الأربعة) - أعلن القاضى محمد قيام جمهورية مهاباد الكردية التى تتمتع بالحكم الذاتى فى إطار الدولة الإيرانية ، وذلك استنادا إلى مبدأ حق الشعوب فى تقرير مصائرها ، وباعتبار أن الأكراد يمثلون شعبا قائما بذاته ، يعيش على أرضه (٣) .

وقد ضمت الجمهورية الكردية الوليدة مناطق مهاباد ، وشنو ، ومياندواب ، وسردشت ، وبانه ، وسقز ، وسنندج . أما فيما يتصل بحكومة الجمهورية فقد أصبح القاضى محمد رئيسا لها ، كما تشكلت حكومة ضمت ثلاثة عشر وزيرا (٤)، وقام الأكراد بتأسيس جيش كردى منفصل عن

(١) أنظر فى هذا المضمون : المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .
(٢) جليلى جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠١ .
(٣) أنظر فى هذا المضمون : درية عونى ، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٤) جليلى جليل وآخرون ، مرجع سبق ذكره ،ص ٢٠٣ .

المقاتلين من رجال القبائل [1] .

وقد كتب القاضي الأمريكي و . دوجلاس عن جمهورية مهاباد قائلا : " لقد عادت التقاليد الكردية التي كان قد ألغاها الشاه ، وأعدت المدارس لكل طفل حتى الصف السادس ، وأعدت الكتب لطلاب المدارس الأولية باللغة الكردية ، وصدرت صحيفة يومية كردية بإسم " كردستان" ، كما صدرت مجلتان أدبيتان ، وأعد الدستور الذى نص على دولة كردية جمهورية الطابع، وطالب الدستور الحكومة بالدفاع عن مصالح العامل الكردى ، وتنظيم الإتحادات العمالية . كما نص الدستور على أن الناس يجب أن يمكنوا من التعليم بغض النظر عن الجنس والدين ، وأعلن الدستور أنه يجب أن تحصل النساء على كل الحقوق السياسية والإقتصادية والإجتماعية التى للرجال ، كما حرم الربا بمقتضى الدستور" [2] .

على أية حال فإن جمهورية مهاباد لم يدم عمرها أكثر من عام، إذ بمجرد إنسحاب القوات السوفيتية من شمال إيران – مع نهاية عام ١٩٤٦ – زحفت قوات الحكومة الإيرانية نحو الجمهورية الكردية (وكذا الجمهورية الأذربيجانية) ، وتمكن الإيرانيون من القبض على زعماء جمهورية مهاباد وإبادة الآلاف من سكانها، وسرعان ماحوكم الزعماء الأكراد، وتم إعدام القاضي محمد ووزير دفاعه [3]. لكي تزول بذلك – من الوجود– الجمهورية الكردية الوليدة في مهاباد .

انتفاضة الأكراد غداة نجاح الثورة الإسلامية فى إيران :

شهدت العقود الثلاثة التى تلت انهيار جمهورية مهاباد انتهاج الشاه للعديد من السياسات المتشددة إزاء الأكراد، بغية وأد كل نزعة استقلالية لديهم . إذ عمد الشاه إلى استخدام كافة وسائل سياسة الصهر القسرى ،

---

(١) حامد محمود عيسى ،مرجع سبق ذكره، ص ٤٠٠ .
(٢) جافان ، مرجع سبق ذكره، ص ٥٦ ، ٥٧ .
(٣) سعد الدين ابراهيم ، الملل والنحل ... ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٤ .

وتهجير الأكراد إلى مناطق البلاد الأخرى ، فضلا عن قيام الشرطة السرية الإيرانية باعتقال الزعماء الأكراد ، والزج بهم في غياهب السجون ، وتعريضهم لشتى صور التعذيب . وعلى الرغم من ذلك فإن الحزب الديمقراطي الكردستاني لم يتوقف عن نضاله في سبيل رفع الوعي السياسي لدى الأكراد ، وتذكيرهم دوما بغايتهم الرئيسية والمتمثلة في إقامة كردستان المستقلة [١] . ومع اندلاع الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩ راح الأكراد يساندون الثوار ضد العدو اللدود للفريقين وهو الشاه . وقد كان الأكراد وقتذاك يعلقون آمالا كبارا على الحكام الجدد في طهران ،إذ كانوا يعتقدون أن موقف هؤلاء الحكام من القضية الكردية سيختلف جذريا عن موقف سلفهم الشاه [٢] . وبنجاح الثورة واعتلاء الإسلاميين سدة الحكم في طهران خلال شهر فبراير ١٩٧٩ راح الحزب الديمقراطي الكردستاني يعقد اجتماعا حاشدا في مهاباد ، ليعلن من خلاله ظهوره إلى العلن. كما أكد قادة الحزب – وعلى رأسهم عبدالرحمن قاسملو – أنهم سيعملون على إقناع السلطة الجديدة في طهران بتقديم تنازلات للأكراد [٣] . وفي إطار هذا المناخ المفعم بالمشاعر القومية كانت فصائل الثوار الأكراد المسلحة – وعلى رأسها البيشمركة – قد بسطت إشرافها على مساحات واسعة من أراضي كردستان إيران ، بحيث قامت المجالس الثورية بممارسة سلطتها داخل هذه المدن،وراحت الإذاعة تبث برامجها باللغة الكردية داعية إلى النضال في سبيل الحكم الذاتي للأكراد في إطار الدولة الإيرانية ، وأضحى الشعار الذي رفعه الحزب الديمقراطي الكردستاني في نضاله يتمثل في : "الديمقراطية لإيران والحكم الذاتي لكردستان " [٤] . ومن جانب آخر فقد راح الحزب يصيغ مشروعا للحكم الذاتي بغية تقديمه للحكومة الإسلامية في طهران، وقد تمثل أظهر بنود هذا المشروع في ضرورة أن يسجل في الدستور الإيراني

---

(١) أنظر في هذا المضمون : جليلي وآخرون ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧٤ .

(٢) أنظر في هذا المعنى :حامد محمد عيسى،مرجع سبق ذكره، ص ٤١٨، ٤١٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٤٢.

(٤) جليلي جليل وآخرون ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧٥ .

كون كردستان منطقة تتمتع بالحكم الذاتى ، فضلا عن تعيين حدودها ، وقيام سكانها بانتخاب مجلس عمومى لإدارة شئونها الداخلية ،وجعل اللغة الكردية - إلى جانب اللغة الفارسية - لغة رسمية فى كردستان ، وأن تصبح كافة الشئون الداخلية الكردستانية - بما فيها الأمن - تحت إشراف أجهزة الحكم الذاتى المحلية (١) .

ومهما يكن الأمر فإن الآمال الكبار التى كان الأكراد يعلقونها على حكومة الثورة - فيما يتصل بمنحهم الحكم الذاتى - سرعان ماذهبت أدراج الرياح ، وأثبت الواقع طوباويتها . ففى ٢٨ مارس عام ١٩٧٩ توجه وفد كردى برئاسة قاسملو إلى قم بغية عرض مطالب الأكراد على آية الله خومينى، وخلال الإجتماع مع الزعيم الإيرانى فوجئ الزعماءالأكراد بما لم يكن فى حسبانهم ، إذ رفض خومينى تماما فكرة منح الأكراد حكما ذاتيا فى إطار الجمهورية الإسلامية (٢) . والحق أن الزعيم الإيرانى كان يرفض أية نعرة عرقية ، إذ كان يؤمن فحسب بفكرة التضامن بين المسلمين أيا كانت سلالتهم . فإذا كان الأكراد مسلمين فعن أى حكم ذاتى يتحدثون إذن؟

على أية حال فإنه برفض الخومينى لمطالب الأكراد المتصلة بالحكم الذاتى اندلعت المصادمات بين البيشمركة الكردية والحرس الثورى الإيرانى بدءا من شهر أبريل عام ١٩٧٩ ، وراح الحزب الديمقراطى الكردستانى يسعى إلى تعبئة الأكراد فى سبيل النضال من أجل نيل حقهم فى تقرير المصير (٣). وفى صيف عام١٩٧٩ شملت المصادمات كل من مهاباد، وسنندج ، وبوقان ، وبانه ، وسردشت ، وأورمية ، وكاميران ، ومريوان. وبحلول شهر أغسطس جرت معارك ضارية بين القوات الحكومية والثوار شملت جميع المناطق التى يسكنها الأكراد بما فيها المدن الكبيرة مثل: بانه ،

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) أنظر فى هذا المعنى: حامد محمود عيسى ، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٠ ، ٤٢١ .

(٣) أنظر فى هذا المضمون: المرجع السابق ، ص ٤٢٢.

وباوة ، وسقز ، وميانداوب ، وغيرها . وقد استخدمت قوات الجيش الإيراني – خلال هذه المعارك – الطيران ، والدبابات ، والمعدات الصاروخية في مواجهة الأكراد على نطاق واسع [١] .

وبحلول شهر مايو عام ١٩٨٠اشتد القتال في كردستان ،وتعرضت مدينة سنندج للقصف الجوي بطائرات الفانتوم ، وبالتالي فقد ألحقت خسائر فادحة بالسكان المدنيين وبالمدينة نفسها [٢] . وقد استمرت المعارك الطاحنة بين الجانبين الإيراني والكردي حتى أواخر عام ١٩٨٠ ، عندما دانت لجحافل الحكومة الإيرانية السيطرة على معظم المدن الكردستانية . في حين فرت فلول القوات الكردية إلى المناطق الجبلية لتبدأ في اللجوء إلى حرب عصابات طويلة الأمد في مواجهة قوات الحكومة الإيرانية لكي تتضاءل بذلك قوة الحركة العرقية الكردية في إيران . والحق أن السياسة التي انتهجتها الحكومة الإسلامية في طهران بصدد المسألة الكردية كان لها أعظم الأثر في إضعاف موقف الإستقلاليين الأكراد . ذلك بأن هذه السياسة لم ترتكز إلى مجرد استخدام القوة الغاشمة ، وإنما بنيت كذلك على استخدام " الفكرة " ، إذ راحت الحكومة الإيرانية ترسل رجال الدين المسلمين إلى المناطق الكردستانية بغية الدعوة إلى فكرة التضامن الإسلامي كبديل للفكرة العرقية . ومؤدى فكرة التضامن هذه أن المسلمين أخوة أيا كانت سلالتهم ، وبالتالي فإنه يتعين على الأكراد– الذين هم مسلمون – أن يوقفوا حربهم ضد الحكومة الإيرانية " الإسلامية " .

من جانب آخر فقد راحت الصحافة الإيرانية تدعو إلى ترسيخ فكرة التضامن الإسلامي بمضمونها المتقدم، فعلى سبيل المثال نجد أن صحيفة "إطلاعات" راحت تؤكد على أن :" عامل تضافر الإيرانيين ووحدتهم لم يكن

---

(١) جليلي جليل وآخرون ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٧٦ ،٢٧٧ .

(٢) حامد محمود عيسى ، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٢ .

أبدا اللغة ولون البشرة ومبدأ التوزيع السكاني والتقاليد والثقافة وإنمـــا كـــان الإسلام" ، وأضافت الصحيفة : " إن الحاجة إلى العدالة الإسلامية وتطبيـــق الحكم الإسلامي كان الدافع الذى أدى دوما إلى تكاتف الشعوب الإيرانية مـــع بعضها البعض"[1].

وهكذا فإن هذه السياسة الإيرانية التى تأسست على عنصـــري القـــوة والفكرة معا كان لها أعظم الأثر فى إضعاف الحركة العرقية الكردية، إحداث الانقسام فى صفوف الأكراد بين متضامنين مع الحكومـــة الإســـلامية فـــى طهران، وبين مناضل فى سبيل إستقلال كردستان. ويكفى أن نشير فى هـــذا الصدد إلى أن الحكومة الإيرانية نجحت فى إقناع واحد مـــن أبـــرز القـــادة الأكراد– وهو الشيخ عز الدين الحسيني – بالانضواء تحت الراية الإسـلامية والتخلي عن النضال فى سبيل استقلال كردستان.

وجملة القول فى شأن ما تقدم أن الحكومة الإيرانية نجحت إلـــى حـــد كبير فى إقناع قطاعات واسعة من الأكراد بـــالتخلي عـــن فكـــرة اســـتقلال كردستان الأمر الذى كان من شأنه أن أضحت الحركة العرقية الكردية فـــى إيران ضعيفة بحيث انحصر مؤيدوها المعلنون فى عدد ليس بـــالكبير مـــن الأكراد الإيرانيين. وتلجأ هذه الحركة فى نضالـــها إلـــى أسـلوب حـــرب العصابات منذ عام ١٩٨٤ ، وهو التاريخ الذى كانت قواتها قد منيـــت فيـــه بخسائر فادحة أمام قوات الحكومة الإيرانية .

جـــ-الحركة العرقية الكردية فى العراق :

قام أكراد العراق – شأنهم فى ذلك شأن بنى نحلتهم داخل كل من تركيا وإيران – بالعديـــد من الثورات خلال القـــرن الراهن فى سبيل نيل الحق فى

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : جليلي جليل وآخرون ، مرجع سبق ذكره، من ص ٢٨١ إلى ص ٢٨٣.

تقرير المصير. وفيما يلي نعرض لأظهر هذه الثورات:

ثورة الشيخ محمود البرزنجي (١٩١٩) :

ينتمى الشيخ محمود البرزنجي إلى إحدي العائلات الكبرى فى كردستان الجنوبية، وقد كان له موقع الزعامة فى عائلته، كما تمتع بمنزلة دينية عظيمة الشأن بين قطاعات عريضة من الأكراد، وفضلا عن ذلك فقد تعاظم نفوذه فى كردستان نظرا لكون العديد من المسلحين يخضعون لإمرته. وعندما هزمت القوات التركية فى العراق- إبان الحرب العالمية الأولى- راح القائد التركي على إحسان باشا يتصل بالشيخ محمود، ويغدق عليه الأموال بغية استخدامها فى تشكيل مجموعات مسلحة تتولى مهاجمة المعسكرات الإنجليزية فى منطقة كركوك، كما أبرق إحسان باشا إلى حامية السليمانية طالبا منها تسليم إدارة اللواء إلى الشيخ محمود، كى يحكم بإسم الدولة العثمانية . بيد أن الشيخ راح – فى أعقاب ذلك- يتقرب إلى الإنجليز ويرسل إليهم برسائل فحواها أنه على استعداد لتسليم السليمانية لهم ، حيث كان الشيخ يعتقد أن الإنجليز سوف يمنحون الأكراد الحق فى تقرير مصيرهم، لا سيما وأن الحكومة البريطانية كانت قد أعلنت مرارا -خلال الحرب العالمية الأولى- إعتزامها منح الشعوب الخاضعة لربقتها حق تقرير المصير[١].

على أية حال فإن الإنجليز ما أن دانت لهم السيطرة على كردستان الجنوبية حتى قاموا بتعيين الشيخ محمود حكمدارا على السليمانية، ومنحه صلاحيات واسعة. وقد اعتقد الشيخ- وقتذاك - أن تعيينه حاكما للسليمانية لا يعدو أن يكون خطوة سوف تتبعها خطوات عديدة نحو قيام الدولة الكردية المستقلة . لذلك ففى أول ديسمبر عام ١٩١٨ راح الشيخ محمود يقدم للمندوب السامي البريطاني فى العراق- والذى كان فى زيارة للسليمانية

---

(١) راجع فى هذا المضمون: عزيز الحاج، مرجع سبق ذكره، ص ٩٦ ،٩٧.

وقتذاك – عريضة موقعة من قبل أربعين زعيما كرديا راحوا يطالبون فيها الحكومة البريطانية بمساعدة الأكراد فى نيل الاستقلال[1] . غير أن مواقف الحكومة البريطانية – فى أعقاب ذلك – جاءت مخيبة لآمال الشيخ محمود، إذ راح الإنجليز يصدرون قرارات انطوت على تقليص لاختصاصاته، وبالتالي فقد بات جليا لديه أنهم لا يعتزمون السير قدما فى إقامة الدولة الكردية التى طالما طالب بها الشيخ، وجعل من إنشائها هدفه المحوري. وهكذا فسرعان ما راح الشيخ يعلن الثورة على الإنجليز تلك الثورة التى إندلعت إبتداء من ٢١ مايو ١٩١٩ فى السليمانية،ثم ما لبثت أن تأججت واستشرت نيرانها استشراء النار فى الهشيم ، وامتدت إلى مناطق واسعة من كردستان الجنوبية، بل ومن كردستان الإيرانية [2].

وقد أذاعت السلطة العسكرية البريطانية فى ٢٨ مايو ١٩١٩ بيانا جاء فيه: " أن الشيخ محمود قد قبض على زمام الأمور فى السليمانية بغتة فى ٢١ مايو، وأخذ بعض الضباط والأفراد البريطانيين هناك كأسرى"[3]. وهكذا فقد دانت للشيخ– فى ٢١ مايو– السيطرة التامة على السليمانية فراح يضع يده على الخزينة ، ويقطع المواصلات السلكية مع كركوك، ويرفع العلم الكردي على الدوائر الحكومية، بعد إنزال العلم البريطاني من فوقها[4]. وشيئا فشيئا راح الشيخ يتجه بقواته نحو كركوك، حيث تمكنت هذه القوات من دحر فصيلة من القوات البريطانية مزودة بأحد الأسلحة والسيارات المصفحة كانت تعسكر عند شعب طاسلوجة الجبلي بالقرب من كركوك. وفضلا عن ذلك فسرعان ما اندلعت انتفاضة كردية فى منطقة جم جمال شمال السليمانية، وقدم محمد جباري– الذى كان يشرف على ١٢ قرية– مساعدات كبيرة

---

(١) أنظر فى هذا المعنى : جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٠.

(٢) أنظر فى هذا المحتوى: عزيز الحاج، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) حامد محمود عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٢ ، ١٢٣.

للشيخ محمود، كما قاد عبد الله عسكري انتفاضة سكان عشر قري كردية في منطقة قلاسيوكة[1].

وفى ١٨ يونيو ١٩١٩ كان الشيخ محمود على موعد مع المعركة الفاصلة فى منطقة ديربند بازيان، إذ التقت قواته فى ذلك التاريخ مع قوات إنجليزية فى معركة غير متكافئة، إذ حشد الإنجليز للمعركة فرقة معززة بالمدرعات والطائرات والمدافع. وقد استطاعت هذه القوات- بمساعدة بعض الأغوات الأكراد الموالين لها- أن تتسلل من وراء قوات الشيخ محمود. وتطوقها ومن ثم تدحرها. وقد جرح الشيخ محمود ذاته فى هذه المعركة، كما تمكن الإنجليز من القبض عليه وإرساله إلى بغداد، حيث حكم عليه بالإعدام ثم خفف الحكم إلى السجن، ومن ثم نفى الشيخ إلى الهند حيث ظل أسيرا حتى أواخر عام ١٩٢٢[2]. وهكذا فقد أسدل الستار على ثورة الشيخ محمود، تلك الثورة التى مثلت بحق حلقة هامة من حلقات نضال أكراد العراق من أجل نيل الحق فى تقرير المصير.

انتفاضة الملا مصطفى البارزاني (١٩٤٣-١٩٤٥):

تجدر الإشارة - بداية - إلى أن كردستان الجنوبية قد شهدت- خلال الفترة الواقعة بين ثورة الشيخ محمود (١٩١٩) وانتفاضة مصطفى البارزاني (١٩٤٣) -عديدا من الإنتفاضات التى قام بها الأكراد فى سبيل نيل الحق فى تقرير المصير، فخلال الفترة(١٩٢٩-١٩٣١) شهدت المنطقة انتفاضة أخرى تزعمها الشيخ محمود البرزنجي، وفى عام ١٩٣٢ اندلعت فى كردستان الجنوبية ثورة للشيخ أحمد البارزاني ، كما شهدت الفترة (١٩٣٣-١٩٤٢) العديد من الاضطرابات والحركة المسلحة التى قام بها الأكراد فى

(١) جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٢.
(٢) عزيز الحاج، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٥.

إطار نضالهم من أجل تقرير المصير[1].

أما فيما يتصل بانتفاضة الملا مصطفى البارزاني فقد اندلعت غداة نجاحه فى الفرار من منفاه بالسليمانية فى عام ١٩٤٣، أى أن هذه الإنتفاضة قد اندلعت وكانت الحرب العالمية الثانية لما تزل دائرة الرحي، وحيث شهدت كردستان الجنوبية وقتذاك صعوبات اقتصادية جمة، على نحو أثار استياء الأكراد، وأدى إلى تذمرهم، الأمر الذى هيأ لالتفاف الكثيرين منهم حول البارزاني فى انتفاضته[2].

وقد تمثلت أولى المشاكل التى جابهت الزعيم الكردي فى نقص الأسلحة، لذلك فقد قام بتشكيل قوة مسلحة ووضع لها خطة استهدفت الهجوم على مراكز الشرطة والاستيلاء على ما بداخلها من أسلحة. ففى صيف عام ١٩٤٣- على سبيل المثال- بلغ عدد مراكز الشرطة التى استولت عليها قوات البارزاني فى مناطق شيروان مزن وميركة سور ٢١ مركزا [3].

على صعيد آخر فقد اكتسب البارزاني تأييد العديد من المنظمات الاستقلالية الكردية حال منظمات هيوا (الأمل) ، ورزكاري (الحرية) ، وشورش (الثورة) ، وغيرها، وفضلا عما تقدم فقد راح الأكراد يقدمون تترا على الالتفاف حول البارزاني . ومع بداية الانتفاضة أرسلت السلطات العراقية قوة بوليسية لمواجهة الثوار، بيد أنهم تمكنوا من دحرها، كما استطاعوا تحطيم طابور من القوات الحكومية عند منطقة ميركة سور[4]، لتزداد بذلك شيئا فشيئا قوة الثوار، ويتعاظم نفوذهم فى كردستان، على نحو كان من شأنه أن تدخل السفير الإنجليزي لدى العراق مهددا البارزاني بأن

---

(١) صلاح بدر الدين، مرجع سبق ذكره، ص ١٦.

(٢) أنظر فى هذا المعنى: حامد محمود عيسى ، مرجع سبق ذكره، ص١٦٤، ١٦٥.

(٣) جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٨.

(٤) المرجع السابق، ص ١٨٩.

الحكومة البريطانية قد تبحث التدخل لمساعدة القوات العراقية في سحق الثورة الكردية إذا لم يلق الثوار السلاح، ويجلسون مع الحكومة العراقية إلى طاولة المفاوضات. وعلى ذلك فسرعان ما بدأت المفاوضات بين ممثلي الحكومة العراقية والبارزاني، حيث تقدم البارزاني بعديد من المطالب للسلطات العراقية كان أظهرها: تشكيل ولاية كردية تضم كركوك ، والسليمانية ، وأربيل ، والموصل ، ودهوك ، وزاخو، وعقرة ، وسنجار، والشيخان ، وخالقين ، على أن تتمتع هذه الولاية بإستقلال ذاتي في المسائل الثقافية والإقتصادية والزراعية. كما طالب البارزاني باعتبار اللغة الكردية لغة رسمية في الولاية الكردية ، وتعيين وكيل وزارة كردي في جميع الوزارات العراقية، ووزير كردي يكون مسئولا عن ولاية كردستان[١].

وقد وافقت الحكومة العراقية – خلال المفاوضات التي أجريت مع البارزاني في بداية عام ١٩٤٤– على المطالب الكردية، غير أن هذه الحكومة سرعان ما نقضت عهودها،ورفضت تنفيذ تعهداتها تحت وطأة المعارضة القوية التي لقيتها من قبل جانب لا يستهان به من الساسة العراقيين. وعلى ذلك فسرعان ما راح الأكراد يحملون السلاح من جديد، لتبدأ بذلك حلقة أخرى من حلقات الصراع الدامي بينهم وبين قوات الحكومة العراقية. وقد استمرت المعارك الطاحنة بين الجانبين حتى تمكنت القوات العراقية – بمساعدة قوات إنجليزية فضلا عن دعم تركي– من حسم نتيجة المعارك لصالحها في ٢٨ سبتمبر عام ١٩٤٥، وبعد أن كبدها الأكراد خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، وإن كانت هذه القوات قد دمرت خلال زحفها أكثر من ٥٠ مركزا سكانيا كرديا[٢].

وهكذا فقد أخدمت انتفاضة البارزاني الأولى، والتي على إثرها تمكن

---

(١) أنظر في هذا المحتوى: حامد سليمان عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٢، ١٧٣.

(٢) جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، من ص ١٩٣ إلى ١٩٥.

الرجل من الفرار إلى إيران حيث شارك أكراد إيران فى إنشاء جمهورية مهاباد على النحو السابق الإشارة إليه، ثم فر البارزاني من إيران غداة القضاء على الجمهورية الكردية واتجه إلى الإتحاد السوفيتي، حيث ظل هناك حتى الإطاحة بالنظام الملكي فى العراق فى يوليو عام ١٩٥٨، فعاد إلى العراق من جديد .

انتفاضة البارزاني الثانية (**١٩٦١-١٩٧٥**) :

شهدت العراق- فى ١٤ يوليو عام ١٩٥٨- انقلابا عسكريا تزعمه أحد ضباط الجيش وهو عبد الكريم قاسم، ومن خلال هذا الانقلاب تمت الإطاحة بالنظام الملكي وإعلان الجمهورية فى العراق. وقد راح الزعيم العراقي الجديد- غداة نجاح انقلابه - يعلن اعتزامه إعادة الحياة الديمقراطية إلى البلاد، والاعتراف بالأحزاب بما فيها الحزب الديمقراطي الكردستاني (البارتي) ، كما أعلن قاسم عن سماحه بإصدار صحف ومجلات كردية ، وبعودة الزعماء الأكراد - وعلى رأسهم البارزاني- إلى وطنهم. وفضلا عن ذلك فقد أعلن دستورا مؤقتا بهدف تأكيد عودة الديمقراطية إلى العراق، وقد جاء بهذا الدستور بند اعتبر- من قبل الأكراد - مغنما يعتد به، إذ نص هذا البند على أن الشعب العراقي يتكون من قوميتين هما العرب والأكراد، وأنهما شركاء فى الوطن. ولعل ابتهاج الأكراد بهذا الدستور كان مرده إلى أنه كان أول دستور حديث لدولة من الدول التى تقتسم كردستان ينص على وجود شعب كردي داخل هذه الدولة[1].

وبالسماح له بالعودة عاد البارزاني من الإتحاد السوفيتي إلى العراق، حيث شهدت الشهور التالية تقاربا بينه وبين قاسم، كما راح البارزاني يدعم نظام قاسم بأن وضع كثيرين من الأكراد فى خدمة الميلشيات الشعبية التى

---

(١) أنظر فى هذا المضمون: درية عوني، مرجع سبق ذكره، ص ٨١،٨٢.

كونها قاسم للدفاع عن نظامه[١]. غير أنه بحلول عام ١٩٦١ بدأت الخلافات تنشب بين الزعيمين نتيجة لتخلي قاسم عن وعوده المتصلة بالديمقراطية، وشروعه فى محاربة الأحزاب والقوى السياسية الأخرى بما فيها الحزب الديمقراطي الكردستاني، وفضلا عن ذلك فقد قام قاسم بإغلاق جريدة الحزب المعروفة باسم " خبات" (الكفاح) ، وتقديم رئيس تحريرها إلى المحاكمة. كما راح الزعيم العراقي يلغى كل ما جاء بالدستور المؤقت. ونظرا لما تقدم فقد شعر البارزاني بالخطر على حياته ففر من بغداد إلى برزان. وسرعان ما انفجر القتال فى كردستان، إذ راح قاسم يرسل طائرات سلاح الجو العراقي- فى ٩ سبتمبر ١٩٦١- لقذف المناطق الكردية- بما فيها بارزان- بالقنابل. وإزاء ذلك راح البارزاني يعبئ الأكراد فى سبيل المقاومة ، وعلى حين كان تحت إمرته فى عام ١٩٦٢ حوالي ألف مقاتل، وصل عدد جنوده خلال العامين التاليين إلى ٢٠٠٠٠ مقاتل، ثم إرتفع هذا العدد إلى ٧٥٠٠٠ مقاتل خلال السنوات العشر التالية[٢].

على أية حال فإن القتال ظل مشتعلا بين قوات البارزاني (البيشمركة) وقوات الحكومة العراقية إلى أن تمت الإطاحة بعبد الكريم قاسم- فى ٨ فبراير ١٩٦٣- من خلال انقلاب تزعمه كل من عبد السلام عارف وأحمد حسن البكر، وكان الأخير ينتمي إلى حزب البعث. وسرعان ما أعلن الحكام الجدد فى بغداد عن عزمهم حل القضية الكردية بطريقة سلمية. وعلى ذلك فقد بدأت المفاوضات بين ممثلي الحكومة العراقية وممثلي الحركة الكردية فى منتصف فبراير عام ١٩٦٣ ، حيث طالب الأكراد بأن ينص الدستور العراقي على أنه : " تعتبر الجمهورية العراقية دولة موحدة تتألف من قوميتين رئيسيتين هما العرب والأكراد" ، وأن : " يتمتع الأكراد بالحكم

---

(١) طلعت عبد الرازق (محرر) وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ٩.

(٢) أنظر فى هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم ، الملل والنحل... مرجع سبق ذكره، ص٢٢٩.

الذاتي فى إطار الدولة العراقية" [1]. غير أن الجانبين العراقي والكردي فشلا فى الوصول إلى تسوية مرضية لكليهما، الأمر الذى كان من شأنه أن اندلعت الحرب من جديد بين البيشمركية وقوات الحكومة العراقية، حيث أسفر القصف الجوي العراقي للمناطق الكردية عن تدمير ١٦٧ قرية كردية، ومصرع ٦٣٤ مدنيا، فضلا عن ١٤٣ من المسلحين الأكراد[2].

وبحلول شهر نوفمبر ١٩٦٣ تمكن عارف من إبعاد البعثيين عن السلطة وبالتالي فقد انفرد بالإمساك بدفة الحكم فى بغداد. وفى أعقاب ذلك راح عارف يوجه نداء إلى الأكراد يطالبهم فيه بوقف القتال والجلوس إلى طاولة المفاوضات، فاستجاب الأكراد لذلك وبدأت المفاوضات ، واستمرت لمدة عامين دون الوصول إلى نتيجة، الأمر الذى أدى إلى اندلاع الصراع الدامي – من جديد– بين البيشمركة وقوات الحكومة العراقية، وقد استمرت المعارك بين الجانبين حتى شهر يوليو ١٩٦٨، حيث تكبدت القوات العراقية خلالها خسائر فادحة. وفى ١٧ يوليو ١٩٦٨ يتولى حزب البعث برئاسة أحمد حسن البكر مقاليد السلطة فى بغداد على إثر انقلاب عسكري، وفى أعقاب ذلك يسعى النظام الجديد إلى إيجاد حل سلمي للمسألة الكردية لكن المفاوضات مع الأكراد تنهار أيضا هذه المرة، ويندلع القتال من جديد بين قوات الفريقين، وتستمر المعارك حتى ربيع عام ١٩٧٠. غير أنه فى ١١ مارس ١٩٧٠ تتقدم الحكومة العراقية بمشروع يقضى بمنح الحكم الذاتي للأكراد، وسرعان ما وافق البارزاني على هذا المشروع وتم وقف إطلاق النار بين البيشمركة والقوات الحكومية. وقد تمثلت أهم نصوص مشروع الحكم الذاتي المشار إليه فيما يلي[3]:

---

(١) أنظر فى هذا الصدد: جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٢.

(٢) طلعت عبد الرازق (محرر) وآخرون، مرجع سبق ذكره ، ص ١١.

(٣) راجع فى هذا الصدد بالتفصيل: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل.........، مرجع سبق ذكره من ص ٢٢٩ إلى ص ٢٣١.

١ - الاعتراف باللغة الكردية كلغة رسمية أسوة باللغة العربية، وذلك في المناطق التي تقطنها أغلبية كردية، كما تكون هذه اللغة هي لغة التعليم في مدارس تلك المناطق (المادة١).

٢ - تعديل الدستور العراقي بحيث ينص على أن الشعب العراقي يتكون من أمتين رئيسيتين هما الأمة العربية، والأمة الكردية، وأن يقر الدستور الحقوق القومية للشعب الكردي والأقليات الأخرى في إطار وحدة العراق (المادة١٠).

٣ - أن يكون أحد نواب رئيس الجمهورية كرديا (المادة١٢).

٤ - العمل على تعويض الأكراد عما أصابهم من تخلف في ميادين الثقافة والتعليم (المادة ٣).

٥ - حق الشعب الكردي في إقامة منظماته الطلابية ، والشبابية ، والنسائية ، والعلمية (المادة٥) .

وقد اتفق الطرفان الكردي والحكومي على تحديد فترة انتقالية قدرها أربع سنوات قبل الإعلان عن الاستقلال الذاتي الداخلي لكردستان، بحيث يعلن هذا الإستقلال في موعد أقصاه ١١ مارس ١٩٧٤(١).

وفي أعقاب موافقة الأكراد على بيان ١١ مارس ١٩٧٠ تم وقف إطلاق النار بين البيشمركة وقوات الحكومة، وساد الهدوء - إلى حد كبير - كردستان الجنوبية طيلة السنوات الأربع الممتدة من عام ١٩٧٠ وحتى ١٩٧٤. غير أنه في ١١ مارس ١٩٧٤ (نهاية الفترة الانتقالية) راحت الحكومة العراقية تعلن من جانب واحد مشروعها للحكم الذاتي، وحددت فيه منطقة الحكم الذاتي على أساس تعداد عام ١٩٥٧ وليس على أساس تعداد جديد كما نص مشروع ١١ مارس ١٩٧٠. كذلك فإن مشروع الحكومة

---

(١) حامد محمود عيسى، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٦.

العراقية بصدد الحكم الذاتي لعام ١٩٧٤ نص على كـون أربيـل عاصمـة للإقليم الكردي (وليس كركوك كما أراد الأكراد) ، وفضلا عما تقدم فقد حـدد المشروع الجديد مساحة لمنطقة الحكم الذاتي اعتبرها الأكراد لا تمثل سـوى نصف مساحة كردستان الجنوبية(١). ونظرا لكل ما تقدم فقد أصدر الحـزب الديمقراطي الكردستاني بيانا غاضبا انتقد فيه الحكومة العراقية واتهمها بعـدم احترام نصوص وروح إتفاقية ١١ مارس عام ١٩٧٠. بيد أن هذه الحكومـة لم تأبه بانتقادات الحزب، وراحت تمضي قدما فى تنفيذ مشـروعها للحكـم الذاتي، الأمر الذى كان من شأنه أن أثار استياء الأكراد، وسرعان ما اندلـع الصراع الدامي بين البيشمركة بزعامة البارزاني والجيش العراقي، وتـأجج الصراع بين الجانبين غداة رفض الزعيم الكردي لإنذار وجهته له الحكومـة العراقية لقبول قانون الحكم الذاتي عام ١٩٧٤. وقد بلغ عدد القوات العراقيـة فى قمة المعارك ضد البيشمركة حوالي ١٠٠ ألف جندي مسلحين بالدبابـات والمدفعية، ويدعمهم سلاح الطيران، أما بصدد عدد البيشمركة المشاركين فى معارك عام ١٩٧٤ فقد وصل عددهم إلى ما يقرب من ستين ألفـا مسـلحين بالأسلحة الحديثة التى تدفقت عليهم من حكومة الشاه، حيث كانت الحكومـة الإيرانية تدعم الأكراد بالأسلحة، كما كانت مدفعية الحدود الإيرانية تعضدهـم مباشرة بين الحين والآخر(٢). والحق أن المساعدات التى كانت تقدمها إيـوان للأكراد كان لها أبلغ الأثر فى تدعيم البيشمركة التى أبلت بلاء حسـنا فـى معاركها ضد قوات الحكومة العراقية ، نظرا لما كان بيـن الدولتيـن مـن خلافات حادة حول تعيين الحدود فى منطقة شط العرب الإستراتيجية(٣). غير أنه بحلول ربيع عام ١٩٧٥ استجد حدث كانت له عواقـب وخيمـة علـى

---

(١) أنظر فى هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل.....، مرجع سبق ذكره، ص٢٣٣.

(٢) أنظر بصدد هذا المضمون: المرجع السابق ذكره.

(٣) أنظر فى هذا المعنى: طلعت عبد الرازق (محرر) وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ١٦.

النضال الكردى ، ويتمثل هذا الحدث فى توقيع الحكومتين الإيرانية والعراقية على إتفاقية الجزائر، والتى بمقتضاها قدمت العراق لإيران تنازلات عظيمة الشأن فى شط العرب، مقابل توقف إيران عن تقديم المساعدة للأكراد(١).

وبتوقيع إتفاقية الجزائر فقد الأكراد حليفهم الكبير والمتمثل فى إيران، حيث التقى الشاه بالبارزاني وخيره بين الاستسلام للحكومة العراقية، أو طلب اللجوء السياسي إلى طهران، أو الاستمرار فى الحرب دون أية مساعدة إيرانية. وبذلك فقد أدرك الأكراد أنهم سيكونون الخاسر إذا ما دخلوا في صراع غير متكافئ مع قوات الحكومة العراقية، وبالتالي فقد قرر زعماؤهم - وعلى رأسهم البارزاني- إيقاف النضال، والإنسحاب إلى إيران بدءاً من يوم ٢٢ مارس عام ١٩٧٥، حيث فر إلى إيران حوالي ٣٥ ألف مقاتل من البيشمركة ، إلى جانب حوالي ١٥٠ ألفاً من النساء والشيوخ والأطفال، وبذلك فقد أصيبت الحركة الوطنية الكردية فى العراق بأشد إنتكاساتها العسكرية والسياسية خلال الفترة اللاحقة للحرب العالمية الثانية(٢).

وهكذا فقد انتهت حلقة جديدة من حلقات الصراع الدامي الذى طالما خاضه الأكراد فى سبيل نيل الحق فى تقرير المصير. يبقى أن نشير إلى أن المعارك بين البيشمركة والقوات الحكومية قد أسفرت- خلال الفترة من مارس ١٩٧٤ وحتى مارس ١٩٧٥- عن مصرع ١٤ ألف جندي عراقي، بينما قدر مصدر عراقي آخر مجمل خسائر هذه الحرب بنحو ٦٠ ألف قتيل وجريح من العسكريين العراقيين ومن الأكراد(٣).

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : درية عوني، مرجع سبق ذكره، ص ٩٣، ٩٤.

(٢) أنظر فى هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم ، الملل والنحل.... ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٤

(٣) طلعت عبد الرازق (محرر) وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص١٦.

الحركة العرقية الكردية المعاصرة فى العراق:

شهدت السنوات الأربع اللاحقة على الإنتكاسة الكردية الكبرى لعام ١٩٧٥ قيام الحكومة العراقية باتخاذ جملة إجراءات إزاء الأكراد استهدفت إحكام القبضة عليهم. فخلال هذه السنوات (١٩٧٥-١٩٧٩) تم إخلاء ١٢٢٢ قرية كردية من سكانها فى محافظات ديالي، والسليمانية، وأربيل، والموصل. وقد تم إحراق قسم من هذه القرى وإزالته تماماً بغية خلق حزام أمني فى المنطقة الشمالية يحول بين أكراد العراق وبين الاتصال ببني نحلتهم فى الدول المجاورة[١]. كما تم خلال الفترة المذكورة تهجير ٥٠ ألف كردي من موطنهم فى الشمال، وتشجيع العرب على التوطن فى كردستان، وذلك بهدف تغيير التركيب السكاني للمنطقة الكردية، وإخضاع الأكراد لسيطرة الحكومة من خلال إبعادهم عن المناطق الجبلية الحصينة، التى طالما اعتصموا بها فى مقاومتهم لقوات الحكومة العراقية[٢].

وعلى الرغم مما تقدم فقد شهدت الفترة (١٩٧٥-١٩٧٩) ظهور العديد من الأحزاب الكردية التى راحت تتخذ من نيل الأكراد لحق تقرير المصير هدفاً لها. ولقد تمثل أظهر هذه الأحزاب- على الإطلاق- فى حزب الإتحاد الوطني الكردستاني ، الذى تأسس على يد الزعيم الكردي البارز جلال الطالباني فى أول يونيو عام ١٩٧٥[٣]. كذلك فقد كان من أظهر الأحزاب الكردية التى ظهرت فى كردستان العراق- بهدف النضال فى سبيل المشكلة الكردية- حزب الحركة الإسلامية، والذى يتزعمه الشيخ عثمان عبد العزيز[٤].

---

(١) أنظر فى هذا المضمون: جليلي جليل وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ٢٩٩.

(٢) أنظر فى هذا المضمون: طلعت عبد الرازق (مقرر) وآخرون ، مرجع سبق ذكره، ص ١٨.

(٣) درية عوني، مرجع سبق ذكره، ص ٩٧.

(٤) المرجع السابق، ص ١٠٠.

وجملة القول فى شأن ما تقدم أن الحركة العرقية الكردية المعـــاصرة إنما تضم العديد من الأحزاب يأتي على رأسها كل من:

١-الحزب الديمقراطي الكردستاني(البارتي) ، ويتزعمه مسعود البـــارزاني، وهو أحد أبناء الملا مصطفى.

٢-الإتحاد الوطني الكردستاني، ويتزعمه جلال الطالباني.

٣-حزب الحركة الإسلامية الكردستانية، ويتزعمه الشيخ عثمان عبد العزيز.

وبالعودة إلى صعيد أنشطة الحركة العرقية الكردية المعـــاصرة فـــى العراق نقول أنه باندلاع الحرب العراقية الإيرانية- فى سبتمبر ١٩٨٠- راح أكراد العراق يخوضون غمار حرب جديدة فى سبيل نيل الحق فـــى تقريـــر المصير، حيث تحالفوا فى هذا الصدد مع إيران فى مواجهة الحكومة العراقية وقد تمكن الأكراد إبان الحرب العراقية الإيرانية- وبمساعدة إيـــران- مـــن تحقيق انتصارات عديدة على القوات العراقية التى كـــان عليـــها أن تتـــازل خصمين لدودين فى نفس الوقت، هما الإيرانيون على الحدود، والأكراد داخل الحدود. وعلى سبيل المثال فمع بداية عام ١٩٨٥ نجح أكثر من عشرة آلاف من بيشمركة طالباني فى إعادة السيطرة على الطرق والقري الواقعـــة بيـــن كركوك والسليمانية والممتدة حتى الحدود مع إيران، فى حين كان البرزانيون - وقتذاك- يسيطرون على منطقة تمتـــد مـــن الحـــدود الســـورية وحتـــى راوندوز(١). وفى ٢٨ مارس ١٩٨٨ أعلنت إيران نجاح قواتها المتحالفة مـــع الأكراد العراقيين فى السيطرة على ١٤٠٠ كيلو متر مربع فـــى كردســـتان العراقية(٢)، وقد كانت مدينة حلبجة على رأس المناطق التى ســـيطر عليـــها الأكراد وقتذاك.

وإزاء ما تقدم راحت قوات الحكومة العراقية تصب جام غضبها على

---

(١) أنظر فى هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٢) طلعت عبد الرازق (مقرر) وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣.

الأكراد، مستخدمة أشد الأسلحة المتاحة لديها فتكا، وعلى رأسها الأسلحة الكيماوية، حيث قامت هذه القوات- فى الفترة من ١٦ إلى ١٨ مارس عام ١٩٨٨ - بإحراق حلبجة على نحو أدى إلى مصرع زهاء ٥ آلاف كردى، وفرار عشرات الآلاف من الأكراد إلى إيران وتركيا. وما أن تم وقف إطلاق النار بين إيران والعراق فى أغسطس عام ١٩٨٨ حتى أتمت قوات الحكومة العراقية إحكام قبضتها على كردستان الجنوبية(١). وبالتالي فقد أخمدت انتفاضة كردية جديدة، حاول الأكراد من خلالها بلوغ غايتهم المتمثلة فى نيل حق تقرير المصير . أما الانتفاضة الكردية التالية فقد شهدتها كردستان الجنوبية خلال حرب الخليج الثانية، وأثناء المعارك التى شهدتها بداية عام ١٩٩١ بين ما يعرف بقوات التحالف الدولي والقوات العراقية ، على إثر قيام هذه الأخيرة باجتياح الكويت فى صيف عام ١٩٩٠. ففى ٤ مارس ١٩٩١ اندلعت إنتفاضة شعبية فى جميع أنحاء كردستان الجنوبية، وقد إنطلقت الشرارة الأولى لهذه الانتفاضة من مدينة رانيا، ثم مالبثت أن عمت سائر ربوع كردستان التى سرعان ما سقطت فى أيدي القوات الكردية. بيد أن إنتصارات الأكراد هذه لم تدم طويلا، إذ زحفت جحافل الجيش العراقي بأسلحتها الثقيلة تدعمها الصواريخ والطائرات نحو كركوك ، وأعادتها إلى الحظيرة الحكومية فى خلال يومين ، وفى ٢ أبريل كانت القوات الحكومية قد نجحت فى السيطرة على السليمانية. وإزاء ذلك أصدر مجلس الأمن- فى ٥ أبريل ١٩٩١-قرارا يدعو الحكومة العراقية إلى وقف هجماتها على الشعب الكردي، ولم يكن أمام صدام سوى الرضوخ ، وإيقاف عمليات قواته فى كردستان(٢).

---

(١) أنظر فى هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل.. ، مرجع سبق ذكره، ص٢٣٦.

(٢) راجع فى هذا المضمون: سعد الدين إبراهيم (مشرف) ى، هموم الأقليات...، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٦، ٢٥٧.

وفى أعقاب ذلك دارت مفاوضات بين الحكومة العراقية والزعماء الأكراد بيد أن هذه المفاوضات لم تسفر عن حل للمسألة الكردية يرضى الطرفين. وإزاء ذلك راح الرئيس العراقي صدام حسين يتخذ قرارا غريبا يتمثل فى فصل كردستان إداريا عن باقي العراق، وسحب جميع الإدارات الحكومية من مدن أربيل، والسليمانية، ودهوك، وفرض حصار إقتصادي على كافة المناطق الكردية(١). وحتى يومنا هذا لا تزال كردستان فى ظل هذا الوضع الغريب فلا هى خاضعة للحكومة العراقية، ولا هى معترف بها كدولة مستقلة، إذ رفضت كافة دول العالم وعلى رأسها الدول الكبرى الاعتراف باستقلال الكيان الكردستاني، برغم قيام الأكراد بانتخاب برلمان مستقل لهم، وتشكيل حكومة من بينهم منذ عام ١٩٩٢. وهكذا فلا يزال مصير كردستان الجنوبية معلقا حتى يومنا هذا، إذ ترفض الدول الكبري اعتبارها دولة مستقلة لأن من شأن ذلك الاعتراف بتقسيم العراق، الأمر الذى من شأنه حدوثه أن يؤدي إلى إختلالات بالغة الأثر على استقرار منطقة الشرق الأوسط، وكذا على موازين القوى بها.... وهى أمور ليس هذا بمجال للاستفاضة فى الحديث عنها.

تعقيب :

وهكذا فبعد أن فرغنا من تحليل الحركة العرقية الكردية فى كل من تركيا وإيران والعراق فإن ثمة حقائق عديدة تستفاد من تحليلنا ويتعين التأكيد عليها. ويتمثل أظهر هذه الحقائق فى أن هذه الحركة كانت ولاتزال تمثل تهديدا عظيم الشأن للاستقرار السياسي فى الدول التى توجد بها لا سيما تركيا والعراق، كما يتضح من تحليلنا المتقدم للحركة العرقية الكردية أن هذه الحركة- على طول تاريخها- لم تدخر أيا من وسائل العنف إلا واستخدمتها

---

(١) أنظر فى هذا المضمون: درية عوني، مرجع سبق ذكره، ص ١١٨.

فى سبيل بلوغ غايتها، أما الحقيقة الثالثة التى نود التـــأكيد عليـــها فـــهى أن الحركة العرقية الكردية كانت لها دوما آثار هامة على العلاقات بين الـــدول المعنية بها، إذ كانت لها آثارها على العلاقات التركية الإيرانية، كما كـــانت لها آثارها على العلاقات التركية العراقية، وكذا علـــى العلاقـــات الإيرانيـــة العراقية، فضلا عن آثارها على العلاقات التركية السورية.

كما رأينا استقطاب هذه المشكلة لاهتمام الإتحاد الأوروبـــي، وكذلـــك تأثيرها على العلاقات التركية اليونانية، والعلاقات التركية الإيطالية.

وفى النهاية فإننا لسنا بحاجة إلى القول أن تحليلنـــا المتقـــدم للحركـــة العرقية الكردية قد جاء مؤكدا للحقيقة التى سبق أن سقناها، والتى قوامها أنـــه لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة فى مجتمع تأسس بنيانه على التجمع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا.

الفصل الرابـــع

الحركات العرقية وآثارها على الإستقرار السياسي والوحدة الوطنية

يستفاد من كل ما قدمنا فى هذا القسم أن الحركات العرقية تشكل تهديدا بالغا للاستقرار السياسي فى المجتمعات التى توجد بها، كما أن لهذه الحركات آثارا سلبية لا يستهان بها على الوحدة الوطنية لتلك المجتمعات. ذلـــك بـــأن الحركات العرقية- كما سبق أن ذكرنا - تلجأ إلى شتى وسائل العنف بغيـــة بلوغ أهدافها، والتى هى فى الغالب أهداف ذات طبيعة انفصالية. فمن خـــلال ما تقدم وقفنا على أمثلة عديدة بصدد آثار الحركات العرقية على المجتمعـــات التى توجد بها، ونقدم فى الجدول التالي بعضا من هذه الأمثلة :

مسلسل	الدولة (متنوعة العرقيات)	أثر الحركات العرقية على الاستقرار السياسي والوحدة الوطنية داخلها
١	الهنـــــــد	أ -انفصال باكستان عنها فى عام ١٩٤٧. ب-اضطرابات دائمة فى إقليم البنجاب بين السيخ وقوات الحكومة. جـ-اضطرابات دائمة فى جامو وكشمير. د - اضطرابات شبه دائمة فى ولاية آسام بيـــن المسلمين والهندوس .
٢	باكستان	أ-انفصال البنغال عنها وإقامة دولة بنجلاديش فى عام ١٩٧١.

مسلسل	الدولة (متنوعة العرقيات)	أثر الحركات العرقية على الاستقرار السياسي والوحدة الوطنية داخلها
		ب -اضطرابات دائمة في إقليم كراتشي بين منظمة "مهاجر قومي" الانفصالية وقوات الحكومة.
٣	سريلانكا	اضطرابات عنيفة دائمة تصل إلى درجة الحروب الأهلية في كثير من الأحيان داخل جافنا.
٤	تركيا	أضطرابات دائمة بين الأكراد الانفصالين وقوات الحكومة في الجنوب.
٥	العراق	حالة أقرب ما تكون إلى التقسيم إلى ثلاث جمهوريات أولاها كردية في الشمال، وثانيتها شيعية في الجنوب، وثالثتها عربية في باقي أجزاء الكيان العراقي.
٦	الإتحاد السوفيتي	أنظر القسم الثالث (تفكك إلى ١٥ دولة)
٧	روسيا	أنظر القسم الثالث (مشكلة الشيشان)
٨	جيورجيا	أنظر القسم الثالث (مشكلتا أبخازيا وأوسيتيا)
٩	أذربيجان	أنظر القسم الثالث (مشكلة ناجورونوكاراباخ)
١٠	يوغسلافيا القديمة	-تفتت إلى عديد من دويلات هي يوغسلافيا الجديدة (الصرب والجبل الأسود) وكرواتيا، وسلوفينيا، والبوسنة والهرسك، ومقدونيا.
١١	يوغسلافيا الجديدة	-انسلاخ كوسوفا عنها بمساعدة حلف الأطلنطي(١٩٩٩) .

أثر الحركات العرقية على الاستقرار السياسي والوحدة الوطنية داخلها	الدولة (متنوعة العرقيات)	مسلسل
على إثر حرب أهلية امتدت خلال الفترة(١٩٩٢-١٩٩٥) تم توقيع إتفاق (هو إتفاق ديتون) بمقتضاه أقيمت جمهورية فيدرالية تضم المسلمين والكروات، وترتبط برابطة كونفيدرالية مع جمهورية صرب البوسنة.	البوسنة والهرسك	١٢
انقسام (فعلى) إلى دولتين، إحداهما تضم القبارصة اليونانيين، والأخرى تضم القبارصة الأتراك.	قبرص	١٣
اضطرابات دائمة بين المسلمين والمسيحين منذ وصول المسيحي أوباسونجو إلى الحكم عام ١٩٩٩.	نيجيريا	١٤
انقسمت إلي دولتين هما التشيك، وسلوفاكيا..	تشيكوسلوفاكيا	١٥
أعمال عنف متواصلة يقوم بها الجيش الجمهوري الأيرلندي.	المملكة المتحدة	١٦
اضطرابات دائمة في إقليم الباسك.	إسبانيا	١٧
برغم ندرة لجوء الانفصاليين الكيبيكيين إلى العنف إلا أنهم كادوا يحققون هدفهم المتمثل في إنفصال كيبيك عن كندا.	كندا	١٨
أ - انفصال إريتريا عنها على إثر حرب أهلية طويلة. ب -إضطرابات دائمة في إقليم أوجادين.	إثيوبيا	١٩

مسلسل	الدولة (متنوعة العرقيات)	أثر الحركات العرقية على الاستقرار السياسي والوحدة الوطنية داخلها
٢٠	رواندا	حرب أهلية بين التوتسي والهوتو.
٢١	بوروندي	حرب أهلية بين التوتسي والهوتو.
٢٢	السودان	حرب أهلية في الجنوب (١٩٥٥-١٩٧١) ، (١٩٨٣-٢٠٠٠)
٢٣	ليبيريا	حرب أهلية (١٩٩٠-١٩٩٧).
٢٤	الفلبين	اضطرابات دائمة فى الجنوب ، بخاصة في جزيرتي مندناو وجولو.
٢٥	جنوب أفريقيا	أ - حرب أهلية خلال الفترة (١٩٦١-١٩٩٣) . ب-اضطرابات عنيفة فى وقتنا الراهن بين قبيلة الزولو وقوات الحكومة.
٢٦	لبنان	حرب أهلية خلال الفترة (١٩٧٥-١٩٩٠).
٢٧	الصين	-اضطرابات دائمة فى إقليم التبت (١٩٥٩-٢٠٠٠) . -اضطرابات دائمة فى إقليم سينكيانج.
٢٨	المكسيك	اضطرابات دائمة فى إقليم تشيباس .

جدول رقم (٤)

- تم تركيبه بالاعتماد على بيانات الجداول السابقة.

وهكذا ففى ضوء ما تقدم فإننا لسنا بحاجة إلى القول بـــأن الحركـــات العرقية تشكل تهديدا بالغا للإستقرار السياسي (وكذا للوحدة الوطنيـــة) فـــى المجتمعات التى توجد بها، وعلى أية حال فإن ما سنقدمه فى القسم الثـــالث- من تحليل للحركات العرقية فى الإتحاد السوفيتي السابق- كفيل بإستجلاء هذه الحقيقة أكثر وأكثر.

• • • • •

الفصل الخامس

في

الآثار الدولية للحركات العرقية

تشير ملاحظة الواقع إلى أن الحركات العرقية- برغم كونها حركات داخلية - إلا أنها كثيرا ما تتمحض عن آثار دولية هامة. ولعل في عرضنا المتقدم لبعض نماذج الحركات العرقية ما يؤكد صحة هذه المقولة، فبصدد الحركة العرقية في إقليم كيبيك الكندي انتهينا إلى أن هذه الحركة كانت لها دوما آثار سلبية على العلاقات الكندية الفرنسية، لا سيما خلال الفترة التي اعتلى فيها ديجول سدة الحكم في فرنسا. أما فيما يتصل بالحركة العرقية في جنوب السودان فقد أوضحنا أنها كانت دائمة التأثير -بالسلب- على العلاقات بين السودان وجيرانه الذين يقدمون الدعم للانفصاليين في الجنوب، حيث خيم التوتر على أجواء العلاقات بين السودان وإثيوبيا خلال فترة حكم الإمبراطور الإثيوبي هيلاسلاسي، وكذا خلال فترة حكم خلفه الرئيس منجستو هيلاماريام، إذ كان كلاهما يدعم الحركة الانفصالية في جنوب السودان. كذلك فإن هذه الحركة أحدثت -ولاتزال تحدث- آثارا سلبية على العلاقات السودانية الأوغندية، حيث جرت أوغندا على تقديم يد العون لانفصاليي جنوب السودان، وكرد فعل لذلك راحت الحكومة السودانية الحالية تقدم المساعدات للمتمردين الأوغنديين المناهضين لحكومة كمبالا، وفضلا عما تقدم فإن مساندة الحكومة الإريترية الحالية لجون جارانج أحدثت تأثيرا سلبيا عميقا على العلاقات بين أسمرة والخرطوم، كما أن مشكلة جنوب السودان قد يكون من شأنها في بعض الأحيان (لا سيما في فترات الخلاف بين حكومتي القاهرة والخرطوم) توسيع هوة الخلافات بين المصريين والسودانيين، وخصوصا عندما تلجأ الحكومة المصرية إلى التقارب مع جارانج واستخدام ذلك كورقة ضغط على نظيرتها السودانية.

كما يشار كذلك إلى أن الولايات المتحدة قد راحت خلال السنوات الأخيرة تقدم يد العون لجون جارانج ، وتسعى إلى الإيقاع بين السودان وكل من أوغندا وإريتريا، مستهدفة من وراء ذلك تقويض وإسقاط النظام الإسلامي المناوئ لها والقائم فى السودان منذ عام ١٩٨٩.

على صعيد آخر وفى إطار الحديث عن الآثار الدولية للحركات العرقية فقد اتضح لنا - من خلال عرضنا للحركة الكردية - أن هذه الحركة كانت لها على الدوام آثار هامة على العلاقات بين الدول المعنية بها ، إذ كانت لها آثارها على العلاقات التركية الإيرانية، كما كانت لها آثارها على العلاقات الإيرانية العراقية، وكذا على العلاقات العراقية التركية، والعلاقات التركية السورية.. وهكذا. كما رأينا ما أحدثته قضية إلقاء القبض على زعيم حزب العمال الكردستاني (عبد الله أوجلان) من إضفاء أجواء ملؤها التوتر على العلاقات التركية اليونانية،وكذا العلاقات التركية السورية، والعلاقات التركية الإيطالية، نظرا لاتهام تركيا للدول الثلاث (اليونان وسوريا وإيطاليا) بإيواء أوجلان فترات متباينة على أراضيها قبل القبض عليه فى كينيا (محطته الأخيرة) مع بداية عام ١٩٩٩.

كما لاحظنا ما أحدثه حكم المحاكم التركية بإعدام أوجلان من تأثيرات سلبية على علاقة تركيا بالإتحاد الأوربي، وتأكيد الأوربيين على عرقلة دخول الأتراك إلى الإتحاد إن هم أقدموا على تنفيذ الحكم، الأمر الذى أجبر رئيس الوزراء التركي بولنت أجاويد على وقف تنفيذ ذلك الحكم على نحو ما سبق أن أشرنا.

ولعل من أبرز الحركات العرقية التى أفرزت آثارا دولية هامة الحركة الانفصالية فى جامو وكشمير الهندية، تلك الحركة التى تمخضت عن انسياق الهند والباكستان إلى محاربة كلتيهما الأخرى غير مرة أظهرها حرب عام ١٩٤٨، وحرب عام ١٩٦٥. إنها الحركة التى جعلت التوتر الشديد هو

الصفة الملازمة للعلاقات بين الدولتين، على نحو أوجد حالة من الغليان الدائم تسود منطقة الحدود الباكستانية الهندية، ولعل الأمر الأخطر بصدد ما تقدم هو تصاعد سباق التسلح بين الدولتين إلى حد امتلاك كلتيهما للسلاح النووي، والذى جاء كتتويج لجملة المساعي الدؤوبة التى بذلها كلا الطرفين فى مجال إقامة المفاعلات النووية منذ عام ١٩٥٥، وقد فجرت كلتا الدولتين قنبلتها النووية الأولى فى مايو ١٩٩٨ ، إذ ما أن فجر الهنود قنبلتهم من خلال تجاربهم النووية فى بداية ذلك الشهر، حتى فعل الباكستانيون الشئ نفسه إثر ذلك بأيام قلائل لتتحقق بذلك مقولة الزعيم الباكستاني الأسبق ذو الفقار على بوتو عندما أعلن فى عام ١٩٧٤ إن بلاده سوف تجوع وتأكل العشب من أجل إنتاج القنبلة النووية إن فعلها الهنود وأنتجوها. وهكذا دخلت الدولتان النادي النووي، وأصبحتا ضمن دول قليلة تمتلك ذلك السلاح الرهيب، الأمر الذى ينذر بوقوع كارثة مروعة فى حالة إقدام أى من الدولتين على استخدامه فى أى من مواقف التوتر الشديد التى باتت معهودة الحدوث فى علاقتهما.

كما يشار فى هذا الصدد إلى تقارب الصين مع الباكستان نكاية فى الهند التى تدعم انفصال التبت عن الصين، وكذا إلى علاقة الود المفقود الدائمة بين الهند والولايات المتحدة حيث تتهم الهند الأمريكيين بالانحياز الدائم لباكستان فى صراع الدولتين الجارتين حول كشمير.

كذلك فإن من أبرز الحركات العرقية التى أفرزت آثارا دولية هامة الحركة العرقية فى قبرص، تلك الحركة التى تشكل السبب الرئيسي وراء تأجج مشاعر العداء بين تركيا واليونان، على نحو جعل التوتر الدائم يسود مناخ العلاقات بين الدولتين، الأمر الذى كان من شأنه أن كادت الحرب تندلع بينها فى عام ١٩٦٤ لولا الضغوط الأمريكية على الطرفين من أجل منع نشوب الحرب بين حليفتي الولايات المتحدة اللتين تشكلان معا الجناح

الجنوبي لحلف شمال الأطلنطي. وإذا كانت المساعي الأمريكية قد نجحت فى إثناء اليونان وتركيا عن الانسياق إلى الحرب عام ١٩٦٤ فإن هذه المساعي الأمريكية لم تفلح فى بلوغ نفس الغاية عام ١٩٧٤ عندما اجتاحت الجيوش التركية قبرص على إثر ورود أنباء عن سعى القبارصة اليونانيين إلى إعمال مبدأ الإينوزيس والانضمام بالجزيرة إلى اليونان. وقد سيطرت تركيا على قطاع يشكل حوالي ٤٠% من أراضي الجزيرة القبرصية ، وأعلنتها إقليما لدولة قبرصية تركية، برغم أن القبارصة الأتراك لا يشكلون سوى ٢٠% فقط من سكان قبرص[١]. ولا تزال الدولة القبرصية التركية قائمة حتى يومنا هذا ، كما لاتزال المسألة القبرصية تشكل مصدر توتر دائم يخيم على أجواء العلاقات اليونانية التركية ، وتصيب دول حلف الأطلنطي – وعلى رأسها الولايات المتحدة– بالارتباك والحيرة وهى ترسم سياستها إزاء دولتين حليفتين، لكنهما فى الوقت ذاته فى حالة صراع دائم.

على صعيد آخر فإنه لا يفوتنا فى هذا المقام أن ننوه إلى ما أصبحت الحركات العرقية تستقطبه من اهتمام دولي، فضلا عما يتمخض عنه معظم الصراعات العرقية من خلق رأى عام دولي يتمحور اهتمامه حول هذه الصراعات، ويطالب بإيجاد الحلول لها. ولنا على ذلك أمثلة عديدة أظهرها ما إستقطبته الحرب العرقية فى البوسنة من اهتمام من قبل جماعة الدول وكذا من جانب الأمم المتحدة، فضلا عما تمخضت عنه تلك الحرب– بما شهدته من ممارسات همجية – من خلق رأى عام دولى، راح يدين ما انطوت عليه من خرق جسيم لكل مبادئ الإنسانية الحقة، وبالتالي فقد شكل عامل ضغط على جماعة الدول لكى تخف إلى وقف الصراع الدامي فى البوسنة[٢] ، وهو ما حدث بالفعل عام ١٩٩٦ عندما اضطر الصرب تحت

---

(١) راجع فى هذا المضمون على سبيل المثال: أحمد وهبان، العلاقات الأمريكية الأوربية ، مرجع سبق ذكره، من ص ٢١٢ إلى ص ٢٤٨.

(٢) راجع بصدد المشكلة البوسنية على سبيل المثال :

وطأة الضغوط الدولية والتهديدات الأمريكية إلى وقف حربهم الضروس ضد المسلمين والكروات ، لكى ينتهى الأمر بتوقيع إتفاق ديتون للسلام على النحو المشار إليه سلفا .

كذلك فإن الضغوط الدولية والأمريكية كانت السبب الرئيسي الذى أجبر الحكومة الإندونسية على منح إقليم تيمور الشرقية حق تقرير المصير، وبالتالي فقد حصل الإقليم على استقلاله عام ١٩٩٩ بعد ربع قرن قضاها التيموريون فى النضال من أجل تحقيق ذلك الهدف.

وفضلا عن كل ما تقدم فإنه لا يفوتنا أن ننوه إلى الآثار الدولية بالغة الخطورة التى أحدثها الصراع العرقي فى إقليم كوسوفا اليوغسلافي ، حيث تدخلت قوات حلف الأطلنطي – وعلى رأسها القوات الأمريكية- وراحت تضرب يوغسلافيا بكل عنف خلال صيف عام ١٩٩٩ ، الأمر الذى جعل اليوغسلافيين يذعنون للمطالب الغربية ويسحبون قواتهم من كوسوفا، الذى أضحى إقليما شبه مستقل من الناحية الفعلية، كما تم نشر قوات تابعة للأمم المتحدة بهدف الحفاظ على السلام فى الإقليم ، لكى تفتح بذلك صفحة جديدة من صفحات الكراهية والبغض بين الأمريكيين واليوغسلاف.

وهكذا فإن الصراعات العرقية لم يعد ينظر إليها باعتبارها مسائل تتصل بالشئون الداخلية للدول، وإنما أضحت من الموضوعات التى تستقطب اهتماما دوليا واسع النطاق لاسيما فى ظل التطورات الهائلة فى تقنيات الإعلام من صحف ، وشبكات تلفزة، وشبكة دولية للمعلومات، الأمر الذى

-Remington, Robin Alison, Bosnia: The Tangled web, Current History , = November, 1993 P.P. 364-369.

وكذا : مجدى نصيف، حرب البوسنة والهرسك، فى إطارها السياسي ، والإقتصادي، القومي، العرقي، الديني، دار المستقبل العربي، القاهرة ، ١٩٩٣.

جعل العالم كقرية صغيرة يتيسر لأى من سكانها متابعة كل ما يجري لباقي السكان ، داخل أى مكان من تلك القرية .

ومهما يكن من أمر كل ما تقدم فإن أظهر الحركات العرقية إفرازا لآثار دولية كانت تلك الحركات التى ظهرت في الإتحاد السوفيتي السابق منذ منتصف الثمانينيات، وأدت إلى تفككه وزواله، على نحو أحدث تغييرات جد خطيرة فى موازين القوى الدولية على النحو الذى سنعرض له تفصيلا فى القسم الثالث من هذا الكتاب.

• • • • •

تقـــــريـــــر:

قدمنا فى هذا القسم تحليلا لظاهرة الحركـــات العرقيـــة فـــى العـــالم المعاصر، واضعين نصب أعيننا الوقوف على السمات العامة المشتركة لتلك الحركات، والتى تجعل منها ظاهرة بحق. وقد خلصنا من تحليلنـــا للظـــاهرة موضوع البحث إلى أن ثمة سمات عامة تشير الملاحظـــة إلـــى أن ســـائر الحركات العرقية تكاد تشترك فيها. وتتمثل هذه السمات العامة المشتركة فى:

١ - إن الحركات العرقية ترتبط من حيـــث وجودهـــا بـــالدول متنوعـــة العرقيات، سواء أكانت هذه الدول تدخل فى مصاف الـــدول المتقدمـــة حال كندا وإسبانيا والمملكة المتحدة، أو كانت تنتمى إلى العالم الثـــالث حال كل من السودان ، وليبريا ، وروانـدا ، وبوروندي ، والعـــراق ، وسريلانكا ، والهند ، وإثيوبيا ، وغيرها . وقـــد عرضنـــا بـــالتفصيل للحركة العرقية الكردية وكذا الحركة العرقية فـــى جنـــوب الســـودان كنموذجين للحركات العرقية فى العالم الثالث، كما عرضنـــا للحركـــة العرقية فى إقليم كيبيك الكندي كنموذج للحركات العرقية فـــى الـــدول التى تدخل فى مصاف الدول المتقدمة.

٢ - إن الحركات العرقية غالبا ما تكون حركات انفصالية وقد أشرنا فـــى هذا الصدد إلى نماذج عديدة للحركات العرقية الانفصالية حال الحركـــة التاميلية (نمور التاميل) فى سريلانكا، وحركة مسلمي جامو وكشـــمير فى الهند، وحركة تيمور الشرقية فـــى إندونيســـيا، وحركـــة الجيـــش الجمهوري الأيرلندي فى أيرلندا الشمالية بالمملكة المتحـــدة، وحركـــة الباسكيين فى إسبانيا، وحركة مهاجر قومي فى باكستان.. وغيرهـــا. وذلك بطبيعة الحال فضلا عن الحركات الثلاث التـــى عرضنـــا لـــها بالتفصيل والتى انتهينا بصددها إلى ما يلي :

أ - الحركة العرقيـــة فى إقليم كيبيك الكندي: وهى تستهدف انفصال

إقليم كيبيك ذى الأغلبية الفرنسية عن كندا، وإقامة دولة مستقلة تجمع شتات الكنديين الفرنسيين، كما سبق أن أشرنا.

ب-الحركات العرقية في جنوب السودان: وهى تستهدف فى جملتها انفصال جنوب السودان عن شماله، وإقامة دولة مستقلة تضمن الجنوبيين الذين يعتبرون أنفسهم أفارقة، ويعتبرون الشماليين عربا. على النحو المشار إليه .

جـ-الحركة العرقية الكردية داخل كل من تركيا والعراق وإيران: وتتمثل غاية المنتهى للأكراد فى الانفصال بكردستان عن الدول الثلاث التى تتقاسمها، وإقامة دولة كردستانية تجمع شتات الأكراد وتجسد هويتهم. وذلك على النحو الذى عرضنا له بالتفصيل.

٣ - إن الحركات العرقية غالبا ما تلجأ إلى استخدام كافة وسائل العنف فى سبيل بلوغ غاياتها، إذ لا تدخر هذا الحركات أيا من وسائل العنف بغية تحقيق أهدافها، سواء تمثلت هذه الوسائل فى الحرب النظامية ، أو حرب العصابات، أو التطهير العرقي، أو عمليات الاغتيال، أو الاختطاف، أو المظاهرات ذات الطابع العنفي، أو غيرها. وقد أشرنا للعديد من النماذج للحركات العرقية وما تمخض عنه استخدامها العنف من آثار، حال حركة التوتسي وحركة الهوتو فى رواندا، ونظيرتيهما فى بوروندي، وحركة جماعتي الجيو والمانو فى مواجهة جماعة الكراهن فى ليبريا، وحركة الجيش الجمهوري فى أيرلندا، وحركة الباسك فى إسبانيا ، وحركة نمور التاميل فى سريلانكا.. وغيرها. أما فيما يتصل بالنماذج التى عرضنا لها تفصيلا فقد خلصنا- بصدد مدى استخدامها للعنف - إلى ما يلي :

أ - **الحركة العرقية فى إقليم كيبيك الكندي:** وقد أشرنا بصددهـــا إلى أن ثمة جناحا داخل التيار الانفصالي الكيبيكي لا يتورع عن التوسل بشتى وسائل العنف بغية بلوغ غايته، ويتمثل هذا الجناح فى جبهة تحرير كيبيك، تلك الجبهة التى جعلت ديدنها عمليـــات الاختطاف، والاغتيال، والتخريب، والإرهاب بشتى صـــوره ، الأمر الذى كان من شأنه أن رصدنا ملاحظة قوامها أنه حتـــى فى ظل المجتمعات الديمقراطية قد تنشأ حركات عرقية انفصالية يغلب على وسائلها طابع العنف، وذلك على الرغم مما يتوافـــر فى ظل هذه المجتمعات من قنوات عديدة شرعية للتعبير عـــن الآراء. ولعله مما يؤكد صحة هذه الملاحظة ما تقوم به الحركة العرقية الأيرلندية الإنفصالية (ممثلة فى الجيش الجمـــهوري) من أعمال عنف متواصلة بغية الوصول إلى هدفها المتمثل فـــى انفصال شمال أيرلندا عن المملكة المتحدة، وذلك كله على الرغم من الطبيعة الديمقراطية للنظام السياسي البريطاني.

ب -**الحركة العرقية فى جنوب السودان:** وقد دخلت هـــذه الحركـــة (ممثلة فى الجبهة الشعبية لتحريـــر الســـودان بزعامـــة جـــون جارانج) فى حرب أهلية مع قوات الحكومة السودانية منذ عـــام ١٩٨٣، وقد تمخضت تلك الحرب- طبقا لتقديـــرات الحكومـــة السودانية- خلال الفترة (١٩٨٩-١٩٩٤) وحدها عن مصرع ما يربو على الخمسين ألف مسلح ، فضلا عن عشرات الآلاف من المدنيين. كما أسفرت الحرب عن تدمير عشرات القري والمدن، وفرار عشرات الآلاف من أبناء جنوب السودان إلـــى الـــدول المجاورة كلاجئين.

جـ-الحركة العرقية الكردية داخل كل من تركيا والعراق وإيـران:

وقد قام الأكراد -على طول تاريخهم- بعشرات الثورات بغية تحقيق هدفهم في إنشاء كردستان المستقلة، ولعل من أبرز الأمثلة المعاصرة على لجوئهم إلى العنف ما قام به حزب العمال الكردستاني في تركيا وحدها من عمليات عنف في مواجهة المنشآت التركية منذ عام ١٩٨٤، وعلى سبيل المثال فقد قام الحزب - خلال الفترة (١٩٩٠-١٩٩٤) - بحوالي ٨٦٠٠ عملية عسكرية في مواجهة القوات، والمنشآت التركية.

٤ - إن الحركات العرقية تشكل تهديداً بالغاً للاستقرار السياسي في المجتمعات التي توجد بها، كما أن لهذه الحركات آثاراً سلبية لا يستهان بها على الوحدة الوطنية لتلك المجتمعات، ذلك بأن هذه الحركات تلجأ- كما سبق أن ذكرنا- إلى شتى وسائل العنف في سبيل بلوغ أهدافها، والتي هي في الغالب ذات طبيعة انفصالية. وتأكيداً لهذه الحقيقة فقد أشرنا إلى ما تمخضت عنه تلك الحركات من تمزيق لأوصال العديد من الوحدات السياسية حال يوغسلافيا، وتشيكوسلوفاكيا، وإثيوبيا، والهند، والباكستان، والبوسنة، فضلاً عن الإتحاد السوفيتي والذي رأينا أن نعرض له بتفصيل يليق به، فأفردنا له القسم الثالث من هذا البحث. وفضلاً عما تقدم فقد أدت الحركات العرقية إلى اندلاع الحرب الأهلية في عديد من دول حال السودان ، وليبريا ، وسريلانكا، ورواندا، وبوروندي، ولبنان.. وغيرها. كما أدت هذه الحركات إلى اضطرابات متلاحقة داخل كل من الهند ، وباكستان ، وإندونيسيا، والمملكة المتحدة، وإسبانيا ، والصين ، أما بصدد الحالات التفصيلية التي عرضنا لها فقد خلصنا من هذا العرض إلى ما يلي :

أ- الحركة العرقية فى إقليم كيبيك الكندي: وقد خلصنا إلى أن هذه الحركة- برغم ما يغلب علي وسائلها من طابع سلمي- تشكل تهديداً عظيم الشأن لوحدة أراضى الدولة الكندية، إذ في ظل وجودها بات الانقسام يشكل خطراً داهماً يكاد يعصف بكيان هذه الدولة، ويجعل استقرارها فى مهب الريح، لا سيما وأن نتائج إستفتاء خريف عام ١٩٩٥ قد أكدت تعاظم نسبة الكيبيكيين المؤيدين لانفصال كيبيك عن كندا.

ب-الحركة العرقية فى جنوب السودان: وقد تمخضت عن اندلاع حرب أهلية دامية بدأت منذ استقلال السودان عام ١٩٥٦ واستمرت حتى عام ١٩٧٢، وتوقفت لمدة أحد عشر عاما، ثم ما لبثت أن اندلعت من جديد فى عام ١٩٨٣، ولاتزال رحاها دائرة حتى الآن.

جـ-الحركات العرقية الكردية: وهى وإن كان تهديدها لاستقرار إيران ضئيلاً إلا أنها تشكل تهديداً عظيم الشأن لاستقرار كل من تركيا ، والعراق على النحو الذى عرضنا له تفصيلاً.

٥ - إن الحركات العرقية -برغم كونها حركات داخلية- إلا أنها كثيراً ما تتمخض عن آثار دولية هامة، وقد أشرنا فى هذا الصدد إلى دور الحركة العرقية فى جامو وكشمير فيما يتصل بتأجيج الصراع بين الهند وباكستان، كما عرضنا لأثر الحركة العرقية في قبرص فيما يتعلق بتحريك الصراع بين تركيا واليونان. أما بصدد الحالات التفصيلية التى عرضنا لها فقد خلصنا فيما يتصل بآثارها الدولية إلى ما يلي :

أ-الحركة العرقية فى إقليم كيبيك الكندي: وقد خلصنا بصددها إلى أنها كانت لها دوماً آثار سلبية هامة على العلاقات الكندية

الفرنسية لا سيما خلال فترة اعتلاء ديجول لسدة الحكم فى فرنسا.

ب-الحركة العرقية فى جنوب السودان: وقد أوضحنا أنها كانت لها آثار سلبية على العلاقات بين السودان وجيرانه الذين كانوا يقدمون الدعم للانفصاليين فى الجنوب حال إثيوبيا (خلال عهدي الإمبراطور هيلاسلاسي والرئيس منجستو ماريام)، وأوغندا فى وقتنا الراهن.

جـ-الحركة العرقية الكردية: وقد أوضحنا أنها كانت لها آثار هامة على العلاقات بين الدول المعنية بها، إذ كانت - ولا تزال - لها آثارها على العلاقات التركية الإيرانية، وكذا على العلاقات الإيرانية العراقية، والعلاقات التركية العراقية، والعلاقات السورية التركية.. وهكذا..

وفى النهاية فإن ثمة حقيقة لا سبيل إلى إنكارها بعد كل ما قدمنا إلا وهى أنه لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة فى مجتمع أسس بنيانه على التجمع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا.

ومهما يكن الأمر فإنه بغية استجلاء كافة الحقائق التى وقفنا عليها من خلال القسمين الأول والثاني فإننا سنتوج بحثنا هذا بدراسة للحركات العرقية فى الإتحاد السوفيتي (السابق) ، نظراً لما كان لهذه الحركات من تأثيرات عظيمة الشأن على الواقع السياسي فى عالمنا المعاصر قاطبة، ذلك فضلاً عما انطوت عليه هذه الحركات من تنوع هائل من شأن الوقوف عليه وتحليله ، أن يثرى أى عمل علمي فى مجال الحركات العرقية . ومن هنا فإننا سنفرد القسم الثالث من كتابنا هذا لدراسة الحركات العرقية فى الإتحاد السوفيتي السابق.

القسـم الثالـث

فـى

الحركات العرقية وانهيار الإتحاد السوفيتى

(دراسـة خاصـة)

تصديـــر :

يعج العالم المعاصر بالبلدان التى تتسم بتعددها العرقى Multi – Ethnic Societies . ولقد كان الإتحاد السوفيتى السابق يمثل بحق واحدا من أظـــهر هذه البلدان ، إذ انطوى كيانه البشرى على تنوع عرقى هائل ، وعلى نحـــو هيأ لقول البعض بأن : " الإتحاد السوفيتى يمثل إمبراطوريـــة فـــى عصـــر لايعرف الإمبراطوريات " [1]

وعلى أية حال فإن الإتحـــاد الســـوفيتى (الســـابق) كـــان وريـــث إمبراطورية دامت لقرون عديدة منصرمة ألا وهى الإمبراطورية الروســية ، تلك الإمبراطورية التى أسس بنيانها على التجميع الإجبارى للشـــعوب مـــن خلال صراعات مسلحة عديدة خاضها القياصرة الروس مع جيرانهم فى شتى أصقاع القارتين الآسيوية والأوربية، عبر عشرات العقود [2] . وهكـــذا فقـــد اشتمل الكيان البشرى للإمبراطورية الروسية علـــى شـــعوب شـــتى غـــير متجانسة، فلا هى ترتبط فيما بينها بأية روابط موضوعية كوحدة الســـلالة أو اللغة أو الدين ، ولا هى ترغب فى العيش المشترك . وعلى سبيل المثال فقد أظهر الإحصاء الذى تم فى روسيا عام ١٨٩٧ أن ثمة مايربو على المائـــة وست وأربعين لغة ولهجة مستخدمة داخل الإمبراطورية الروسية [3] .

ولقد أحكم القياصرة الروس قبضتهم على الشعوب الخاضعة لنـــيرهم مستخدمين إزاءها شتى صنوف القهر والإكراه ، ساعين بكل الســـبل إلـــى طمس هوياتها العرقية وترويسها ، قامعين أية حركة تســـتهدف الاســـتقلال

---

١) هيلين كارير دانكوس ، انتفاضة القوميات فى الإتحاد السوفيتى ، ترجمـــة : حســـن نافعة ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٦٦ ، أكتوبر ١٩٨١ ، ص ١٧٧ .

(٢) أنظر بصدد هذه الصراعات : أنور عبدالملك ، تحرك الإتحاد السوفيتى المستقبلى ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٩٤ ، أكتوبر ١٩٨٨ ، من ص ١٤٧ إلى ص ١٥١ .

(٣) أفنير كورلين ، ستانيسلاف تيوتيوكين ، سقوط الإمبراطورية الروســـية (١٩١٧) ، ترجمة أسما حليم ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة، (بدون تاريخ) ، ص ٣٨ .

لشعبها . غير أن مئات السنين من الحكم القيصرى لم تفلح فى طمس الهويات العرقية للشعوب الخاضعة للإمبراطورية الروسية ، وإن كان القياصرة قد نجحوا فى الحيلولة دون انفراط عقد إمبراطوريتهم ، التى ظلت - على حد تعبير لينين - تمثل سجنا للشعوب (Prison of Peoples) [1] .

وعلى إثر الثورة البلشفية لعام ١٩١٧ ورث الإتحاد السوفيتى الإمبراطورية الروسية بجل أقاليمها وشتى أعراقها . ولقد راح البلاشفة - شأنهم فى ذلك شأن أسلافهم القياصرة - يحكمون قبضتهم على الجماعات العرقية المشكلة للكيان السوفيتى ، ساعين سعيا حثيثا إلى صهر هذه الجماعات فى بوتقة واحدة على نحو يهيئ لخلق شعب جديد واحد هو ما أسماه الزعماء السوفيت بالشعب السوفيتى . ولكن هل نجح البلاشفة فيما فشل فيه القياصرة ؟ ذلكم هو التساؤل الذى سنحاول الإجابة عليه فى هذا القسم .

غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أنه كان ثمة تباين بين الزعماء الذين تعاقبوا على الحكم فى الإتحاد السوفيتى بصدد السياسات التى اتبعوها فى مختلف قطاعات المجتمع . إذ يمكن أن نميز فى هذا الصدد بين مرحلتين تباينت تلك السياسات تباينا كبيرا فى ظل كل منهما . وتتمثل المرحلة الأولى، والتى دامت لعدة عقود امتدت من عام ١٩١٧ (بتولى لينين مقاليد السلطة) وحتى ماقبل مجئ جورباتشوف إلى الحكم فى الإتحاد السوفيتى عام ١٩٨٥ ، فى حين تتمثل المرحلة الثانية فى الفترة التى اعتلى فيها جورباتشوف سدة الحكم فى الكريملين ، وهى الفترة التى لم تدم لأكثر من بضع سنين ، وإن كانت قد شهدت تحولات أيديولوجية عظيمة الشأن كان لها بالغ الأثر على شتى قطاعات الحياة السياسية والإقتصادية والإجتماعية داخل الإتحاد السوفيتى ، ذلك فضلا عن آثارها الواضحة على "المسألة القومية " فيما

---

(١) D'Encausse, Héléne Carrére, When" Prison of Peoples " was opened, in : Denber, Rachel (ed.), The Soviet Nationality reader : The disintengration in Context, Westview Press, Oxford, 1992, p. 87.

يتصل بطبيعة العلاقات بين الجماعة العرقية المسيطرة (أى المركز المتمثلى في روسيا) ، والجماعات العرقية الأخرى (أى المحيط المتمثل فى باقى الجمهوريات السوفيتية) .

وتأسيسا على ماتقدم فإننا سنعرض للحركات العرقية فى الإتحاد السوفيتى السابق فى ثنايا فصلين نخصص أولهما للتعريف بالحركات العرقية فى الإتحاد السوفيتى خلال الفترة (١٩١٧-١٩٨٤) ، أى فترة ماقبل الحكم الجورباتشوفى ، فى حين نعالج فى الفصل الثانى الحركات العرقية فى الإتحاد السوفيتى خلال عهد جورباتشوف ، وهى الفترة التى انتهت بانفراط عقد الإتحاد السوفيتى فى نهاية عام ١٩٩١ .

وجملة القول - إذا - أن هذا القسم سينطوى على فصلين نعنونهما على النحو التالى :

الفصل الأول : الحركات العرقية فى الإتحاد السوفيتى خلال الفترة (١٩١٧ - ١٩٨٤) .

الفصل الثانى : الحركات العرقية فى الإتحاد السوفيتى خلال عهد جورباتشوف وما بعده .

* * * * *

الفصـل الأول

فـى

الحركات العرقية فى الإتحاد السوفيتى

خلال الفترة (١٩١٧ - ١٩٨٤)

تكونت الإمبراطورية الروسية القيصرية - على النحو المشـــار إليـــه سلفـــا - كنتيجة لسياسات توسعية انتهجها القياصرة بدءا من القرن الخـــامس عشر ، حيث تمخضت هذه السياسات عن إخضاع شـــعوب شـــتى متباينـــة السلالة واللغة والدين ، ودمجها فى إطـــار الإمبراطوريـــة [١] . وقـــد راح القياصرة يحكمون قبضتهم على الشعوب الخاضعة لنيرهم من خلال عمليات قمع رهيبة مورست فى مواجهة تلك الشعوب ، ولعل من أظهر صور القمـــع هذه ماتعرض له المسلمون من صنوف شتى للاضطهاد والتنكيـــل ، والإبادة التى تجلت أوضح صورها فى المذابح التى قام بها إيفـــان الرهيب Ivan the Terrible خلال النصف الثانى من القرن السادس عشر [٢] .

ولقد ظلت الإمبراطورية الروسية قائمة حتى اندلاع الثـــورة البلشـــفية واستيلاء الشيوعيين بزعامة لينين على الحكم فى روسيا فى أواخـــــر عـــام ١٩١٧. ولعل السؤال الذى يطرح نفسه هنا هو : ماذا كان موقف البلاشـــفة وعلى رأسهم لينين من المسألة القومية National Question ؟ . لقـــد كـــان الزعيم البلشفـــى كما أسلفنا القول يطلق على روســـيا القيصريـــة " ســـجن الشعوب " ، وقد استطاع لينين استخدام المشاعر القومية كسلاح فى مواجهـــة القياصرة ، إذ راح يضيف إلى شعار " ياعمال العالم اتحدوا " شعارا جديـــدا

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : جار ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٥ .

(٢) Broxup. Pari Bennigsen, volga Tatars, in : Smith. Grhan, The Nationalities Question in Soviet Union, London, 1990. P. 278.

قوامه " أيتها الشعوب المسحوقة إنهضى وثورى " . ومن هنا فقد نجح فى اكتساب تأييد ودعم الشعوب الخاضعة لإمرة القياصرة ، إذ سرعان ما راحت هذه الشعوب تثور بالفعل لكى تحطم سجنها الكبير المتمثل فى الإمبراطورية الروسية (١) ، لاسيما وأن تلك الشعوب كانت قد تلقت تأكيدات من جانب البلاشفة بصيانة مقومات هويتها العرقية ، ومنحها الحق فى تقرير المصير ، حيث كان لينين ورفيقه ستالين قد وجها بيانات إلى شتى شعوب الإمبراطورية الروسية يدعوانها بمقتضاها إلى مساندة الثورة ، باعتبار أن الثورة – على حد قولهما – هى السبيل الوحيد أمام تلك الشعوب إن هى أرادت صيانة ذاتياتها والحصول على استقلالها . ولعل من أظهر هذه البيانات ، البيان الذى وجهه الزعيمان البلشفيان إلى مسلمى روسيا والشرق فى ٧ ديسمبر ١٩١٧ (٢) ، وقد جاء فيه : " يامسلمى روسيا ، يامسلمى الشرق،أيها الرفاق ، أيها الأخوة: فى خضم هذه الأحداث العظام نلتفت إليكم يامسلمى روسيا والشرق الذين استرقكم الإستعمار واستلب أموالكم وأراضيكم، يامسلمى روسيا ، يانتار الفولجا والقرم،يا أيها القرجيز وسكان سيبريا والتركستان ، ياسكان القوقاز الأبطال وقبائل الشيشان وسكان الجبال الأشداء ، أنتم يامن هدمت مساجدكم ، وحطمت معابدكم ، ومزق القياصرة الطغاة قرآنكم ، وحاربوا دينكم وأبادوا ثقافتكم وعاداتكم ولغاتكم ، ثوروا من أجل دينكم وقرآنكم وحريتكم فى العبادة . إننا هنا نعلن احترامنا لدينكم ومساجدكم ، وإن عاداتكم وتقاليدكم مصونة لايمكن المساس بها ، ابنوا حياتكم الكريمة المستقلة دون أية معوقات ، ولكم كل الحق فى ذلك ، واعلموا أن جميع حقوقكم الدينية والمدنية محمية بقوة الثورة ورجالها والعمال والفلاحين والجنود . لهذا نطلب منكم تأييد الثورة ومساندتها لأنها تقوم من

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : هيلين كارير دانكوس ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٨ .

(٢) أنظر بصدد هذا البيان تفصيلا : محمد عبدالقادر أحمد ، الجمهوريات الإسلامية فى الإتحاد السوفيتى بين الماضى والحاضر ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، من ص ٦٨ إلى ص ٧١ .

أجلكم ومن أجل حريتكم " .

ولعله مما تجدر الإشارة إليه - أيضا - بصدد ما أعلنه لينين عن حقوق القوميات أنه ضمن برنامجه المبادئ الأساسية الآتية [1] :

١ - المساواة والسيادة لشعوب روسيا .

٢ - حق شعوب روسيا في تقرير مصيرها بحرية بما في ذلك حقها في الانفصال وإقامة دولها المستقلة .

٣ - محو كافة أشكال التمييز أو التضييق على القوميات والأديان .

٤ - التطور الحر للأقليات القومية والمجموعات الثقافية التي تعيش على الأراضي الروسية .

وتأكيدا لما تقدم نصت كافة الدساتير السوفيتية المتعاقبة بدءا من دستور عام ١٩١٨ وانتهاء بدستور ١٩٧٧ على " المساواة في الحقوق والواجبات بين الكادحين بغض النظر عن القومية أو العرق " . كما نصت هذه الدساتير - وعلى رأسها دستور ١٩٣٦ - على " حق أية جمهورية سوفيتية اتحادية في تقرير مصيرها " [2]

وكان لينين قد أكد في برنامجه بصدد ما أسماه بالحل الثوري للمسألة القومية على أن حق تقرير المصير لايعني تقرير المصير الثقافي فحسب ، وإنما يعني كذلك الحق في تقرير المصير السياسي ، في معنى أن لكل شعب

---

(١) أنظر بصدد هذه المبادئ : ب . ج . غفوروف وآخرون ، لينين والتحرر الوطني في الشرق، ترجمة : مصطفى مجدي الجمال ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) أنظر في هذا الصدد على سبيل المثال :

Smith. Gordon B.. Soviet Politics: Continuity and Contradiction. Macmillan Education, London, 1988, p. 308.

وأيضا : خيري عزيز ، التغييرات الدستورية في الإتحاد السوفيتي ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٥٠ ، أكتوبر ١٩٧٧ ، ص ١٥٢، ١٣٥.

الحق فى الاستقلال وتكوين دولة مستقلة (١) .

وجملة القول – إذا – أن الزعماء البلاشفة وعلى رأسهم لينين كانوا قد راحوا يؤكدون دوما فى بياناتهم وبرامجهم – بل ودساتيرهم – على تمسكهم بمبدأ حق تقرير المصير ، بما فى ذلك حق الشعوب فى الانفصال عن الإتحاد السوفيتى وتكوين دول مستقلة تعبر عن ذاتياتها العرقية . ولكن هل طبق البلاشفة – بالفعل – هذا المبدأ " حق تقرير المصير " ؟ أم أنه كان مجرد شعار أجوف شأنه فى ذلك شأن شتى الشعارات التى طالما تشدقوا بها ؟. الحق أن ملاحظة الواقع تشير إلى أن هذا المبدأ – لدى الزعماء السوفييت – لم يكن سوى أحد شعاراتهم التى طالما طنطنوا بها ولم يلتزموها – فى الواقع – قيد أنملة . ولعل صدق مقولتنا هذه سيتأكد فى ثنايا عرضنا – فيما يلى – لسياسات الزعماء السوفييت إزاء ما أطلق عليه " المسألة القومية " ، وذلك خلال الفترة موضع دراستنا فى هذا الفصل .

سياسات ومواقف الزعماء السوفييت إزاء المسألة القومية (١٩١٧-١٩٨٤) :

ضم الإتحاد السوفيتى السابق نحو مائة وخمس عشرة جماعة عرقية تتفاوت من حيث تعدادها . وفيما يلى نقدم جدولا بأظهر الجماعات العرقية فى الإتحاد السوفيتى السابق من حيث تعدادها حسب إحصاء عام ١٩٥٩ ، وإحصاء عام ١٩٧٩:

---

(١) ألكسندر زيفيليف ، المسألة القومية فى الإتحاد السوفيتى ، دار نشر وكالة نوفوستى، موسكو، ١٩٧١، ص ١٣ . وأيضا :

Connor, Walker, The Soviet Prototype, in Denber , Op. Cit., p. 15.

الجماعة العرقية	التعداد بالآلاف عام (١٩٥٩)	التعداد بالآلاف عام (١٩٧٩)
الـــــروس	١١٤ر١١٤	٣٩٧ر١٣٧
الأستونيـــــون	٩٨٩	٠٢٠ر١
اللاتفيون	٤٠٠ر١	٤٣٩ر١
الليتوانيون	٣٢٦ر٢	٨٥١ر٢
الأوكرانيون	٢٥٣ر٣٧	٣٤٧ر٤٢
البيلوروسيون	٩١٣ر٧	٤٦٣ر٩
المولداف	٢١٤ر٢	٩٦٨ر٢
الأرمن	٧٨٧ر٢	١٥١ر٤
الأذربيجانيون	٩٤٠ر٢	٤٧٧ر٥
الجيورجيون	٦٩٢ر٢	٥٧١ر٣
الكازاخستنايون	٦٢٢ر٣	٥٥٦ر٦
الأوزبـــــك	٠١٥ر٦	٤٥٦ر١٢
التركمـــــان	٠٠٢ر١	٠٢٨ر٢
الطاجيـــــك	٣٩٧ر١	٨٩٨ر٢
القرجـــــيز Kirgis	٩٦٩	٩٠٦ر١
التتار (بمن فيهم تتار القرم)	٩٦٨ر٤	٣١٧ر٦
الشوفـــــاش Chuvash	٤٧٠ر١	٧٥١ر١

الجماعة العرقية	التعداد بالآلاف عام (١٩٥٩)	التعداد بالآلاف عام (١٩٧٩)
البشكير Bashkirs	٩٨٩	١ر٣٧١
الموردوفيون Mordovians الشيشان Chechens	١ر٢٨٥ ٤١٩	١ر١٩٢ ٧٥٦
الأودمرتيون Udmurts	٦٢٥	٧١٤
الماريون Mari	٥٠٤	٦٢٢
الأوسيتيون Ossetians	٤١٣	٥٤٢
البوريات Buryats	٢٥٣	٣٥٣
الياقوت Yakut	٢٣٣	٣٢٨
الألمان	١ر٦٢٠	١ر٩٣٦
اليهود	٢ر٢٦٨	١ر٧٦١
البولنديون Poles	١ر٣٨٠	١ر١٥١

جدول رقم (٥)

المصدر : Smith, Gerham (ed.), Op. Cit., p. 363.

وإلى جانب الجماعات العرقية التى ينطوى عليها هذا الجدول ، ضم الإتحاد السوفيتى عشرات الجماعات العرقيـة الأخرى حال الأبخاز ، والأنجوش ، والكومى، والفاربادان ، والدراجان Dargins ، واللاكس ،

والبلغار ، والرومانيين ، والليجيان ، والقازاك ، وغيرها [١] . ولقد كانت الجماعة الروسية تمثل الجماعة العرقية الرئيسية فى الإتحاد السوفيتى السابق إذ كانت أكثر الجماعات عددا وأهمها شأنا بحيث كان من المألوف استخدام كلمة الروس للدلالة على سكان الإتحاد السوفيتى[٢] ، كما كان الزعماء السوفييت يطلقون عليها " الأخر الأكبر " Elder brother [٣] .

وقد ظهر الإتحاد السوفيتى – من الناحية القانونية – بمقتضى معاهدة إتحادية أبرمت فى ديسمبر ١٩٢٢ . ولقد أكدت هذه المعاهدة – بناء على اقتراح لينين – أن إتحاد الجمهوريات السوفيتية الإشتراكية (الدولة الوليدة) هو إتحاد اختيارى تتساوى فى رحابه شتى الجمهوريات من حيث الحقوق ، كما تتمتع كل منها بالسيادة Sovereignty فضلا عن الحق فى الانفصال عن الإتحاد وتكوين دولة مستقلة [٤] .

وتتعين الإشارة إلى أن الإتحاد السوفيتى السابق كان مقسما إلى كيانات إقليمية متنوعة ، بتنوع أحجام الجماعات العرقية المشكلة له ، إذ كان ثمة جمهوريات اتحادية Union Republics أطلق على كل منها إسم مشتق من إسم الجماعة العرقية الكبرى فيها ، فى حين كانت ثمة جمهوريات تتمتع بالحكم الذاتى Autonomous Republics ، ويشكل كل منها جزءا من نسيج إحدى الجمهوريات الإتحادية ، وتضم هذه الجمهوريات المتمتعة بالحكم الذاتى الأقليات الهامة . وفضلا عما تقدم فقد كانت الجمهوريات الإتحادية تنطوى على كيانات أخرى أظهرها الأقاليم المتمتعة بالحكم الذاتى

---

(١) لتفاصيل أخرى أنظر : تيد روبرت جار ، مرجع سبق ذكره ، من ص ٢٣١ إلى ص ٢٤٠.

(٢) أحمد عباس عبدالبديع ، اضطرابات جورجيا ومشكلة القوميات فى الإتحاد السوفيتى، مجلة السياسة الدولية، العدد ٩٧ ، يوليو ١٩٨٩ ، ص ١٩٧

(٣) D'Encausse, Op. Cit., p. 92.

(٤) أنظر فى هذا الصدد :

Smith, Gerham (ed.), Op. Cit., p. 4-6.

Autonomous Provinces [1] . وقد بلغ عدد الجمهوريات الإتحادية في الإتحاد السوفيتي السابق خمس عشرة جمهورية هي : روسيا ، وأوكرانيا ، وبيلوروسيا ، وجورجيا ، وأرمينيا ، وأذربيجان ، وقازقستان، وأوزبكستان ، وطاجكستان ، وقرجيزيا ، وتركمانيا ، وليتوانيا ، وإستونيا ، ولاتفيا، ومولدوفا . في حين كان ثمة عشرون جمهورية ذات حكم ذاتي أغلبها في روسيا، أما الأقاليم المتمتعة بالحكم الذاتي فقد بلغ عددها ثمانية أقاليم [2] .

ونظرا للتنوع العرقي الهائل الذي انطوى عليه الإتحاد السوفيتي السابق ، راح الزعماء السوفييت خلال الفترة (١٩١٧-١٩٨٤) يحكمون قبضتهم على الجماعات العرقية الخاضعة لحكمهم ، واستخدموا شتى الوسائل بغية القضاء على النزعات العرقية لدى هذه الجماعات ، هادفين من وراء ذلك إلى صهرها في بوتقة واحدة بما يهيئ لخلق جماعة بشرية واحدة جديدة هي ما أسماه هؤلاء الزعماء بالشعب السوفيتي . وقد تمثل أظهر الوسائل التي لجأوا إليها لتحقيق هدفهم المنشود فيما يلي :

١ - وسائل تتعلق بطبيعة النظام السياسي السوفيتي .

٢ - الدعوة إلى فكرة الأممية البروليتارية Proletarian Internationalism كفكرة بديلة للقومية .

٣ - قمع أية حركة عرقية تستهدف انفصال شعبها عن الإتحاد السوفيتي .

٤ - السعي إلى طمس الهويات العرقية للجماعات غير الروسية .

٥ - سياسة الترويس Russification .

٦ - اقتلاع الجماعات العرقية المتمردة وتشتيتها عبر جمهوريات

---

(١) Barghoorn, Fredrick C. & Remington, Thomas F., Politics in USSR, Little, Brown and company, Third Edition, Boston, 1986, p.p. 73-74.

(٢) بطرس بطرس غالي ، محمود خيري عيسى ، المدخل في علم السياسة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص ٢٣٣ .

أخرى بمنأى عن مواطنها الأصلية .

وفيما يلى نعرض لكل من هذه الوسائل بشئ من التفصيل :

أولا : الوسائل التى تتعلق بطبيعة النظام السياسى السوفيتى :

لقد مثل النظام السياسى السوفيتى السابق – بطبيعته الشمولية – إحدى الركائز الهامة التى استند إليها سائر الزعماء السوفييت فى إحكام قبضتهم على شتى الجماعات العرقية التى شكلت الكيان البشرى للإتحاد السوفيتى السابق . وقد ارتكز ذلك النظام على حزب واحد هو الحزب الشيوعى ، ذلك الحزب الذى راح يحتكر الحياة السياسية ، ويهيمن على شتى الأجهزة الرسمية للدولة ، وعلى رأسها بطبيعة الحال المؤسسات السياسية الرسمية من تشريعية (مجلس السوفييت الأعلى Superme Soviet of USSR) ، وتنفيذية (هيئة الرئاسة Presidium ، ومجلس الوزراء Council of Ministers) [1] .
وقد استند الحزب الشيوعى السوفيتى إلى الأيديولوجية الماركسية معتبرا إياها الأيديولوجية الرسمية للدولة ، ومعتبرا ذاته القوام عليها ، فراح يفرضها على سائر أعضاء المجتمع متوسلا إلى ذلك بشتى الوسائل بما فى ذلك الإرهاب والتنكيل ، ومن هنا فقد كانت الخاصة الكبرى للنظام السوفيتى هى ارتكازه إلى " مبدأ الخوف " الذى تتسم به النظم الاستبدادية ، على عكس النظم الشرعية التى تستند إلى " مبدأ الشرف " [2] . وقد تسلطت على الحزب

---

(١) أنظر بصدد التنظيمات الهيراركية لمؤسسات الدولة السوفيتية :
Barghoorn & Remington, Op. Cit., p.p. 489-517.

(٢) أنظر بصدد النظام السوفيتى السابق :
- محمد طه بدوى ، النظرية السياسية ، مرجع سبق ذكره ، من ص ١٢٥ إلى ص ١٢٩.
- محمد طه بدوى ، ليلى أمين مرسى ، النظم والحياة السياسية ، (بدون ناشر) ، الإسكندرية ، ١٩٩١ ، من ص ١٨٦ إلى ص ٢٠٣ ، وكذلك من ص ٢٤٧ إلى ص ٢٤٩ .

الشيوعى قلة من المواطنين مشكلة لطبقة ممتازة بامتيــــازات لاحــدود لــها (اللجنة المركزية للحزب Central Committee of CPSU) ، ومــــن فوقــها طاغية هو: " الرجل رقم ١ " ، الذى تتجسد فيه الدولة ، فأعداؤه هم أعــداء الشعب ، والتنكيل بهم مشروع لأنه يمارس - أيديولوجيا - لحساب الشــعب ، الذى هو الآخر فى الواقع مجرد شعار أجوف . إن أحدا لم يكن ليســتطيع أن يأمن على نفسه من غدر " الرجل رقم واحد " ومهما كان موقعه على خريطة الحزب ، أو فى أجهزة السلطة الرسمية ، لأن " الثورة مستمرة " ومن حقــه أن يزيل من طريقها كل من يقف فى وجهه هو باعتباره من " أعداء الشعب " وتلكم كانت هى الفكرة التى ابتدعها ستالين لكى يتخذ منها سندا أيديولوجيــا للتنكيل بأعدائه الشخصيين (١) .

ولعــل من أظهر الأمثلة على ذلك ماقـــام به ستالين مــــن الإطاحــة بتروتسكى Trotsky من كافة مناصبــه لالشئ إلا لأنــه كان مخالفا له فـــى الرأى . وذلك على الرغم من أن تروتسكى كان أحد أبرز زعمـــاء الثــورة البلشفية (رفقاء لينين) ، فضلا عن كونه أحد المنظرين الماركسيين العظام، كما كان يحتل مواقع مرموقةعلى خريطة الحــزب الشـيوعى وكــذا فــى مؤسسات الدولة خلال العهد اللينينى. ومع كل ذلك فهاهو ستالين يقوم بإعفائه من شتى مناصبه ، ثم يجبره على ترك الإتحاد السوفيتى ، ويأمر بمحو إسمه تماما من شتى كتب التاريخ المدرسية والرسمية، فضلا عن رفع مؤلفاته مــن المكتبات ، ونسبة أعماله الإبداعية إلى غيره، ونزع صورته من مجموعـــة صور قادة الثورة البلشفية التى كانت معلقة فى مكتبة لينين بموسكو ، ولـــم يكتف ستالين بكل ذلك وإنما دبر عملية لاغتيال تروتسكى - وهو مــــا تــم بالفعل - فى مكسيكو سيتى (٢) .

وفضــلا عما تقدم فقد عمــد ستالين - خلال النصف الثانى مــن عقد

---

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) Smith, Gordon B., Op. Cit., p.p. 40-41.

الثلاثينيات – إلى استئصال المعارضين له ولحكمه داخل الإتحاد السوفيتى ، وتثبيت حكمه الديكتاتورى ، وذلك من خلال عمليات التطهير Great Purge والتى تمت خلال الفترة (١٩٣٦-١٩٣٨) ، والتى كان قوامها استخدام شتى صنوف الانتقام والقمع والتصفية الجسدية إزاء أولئك الذين كانت ثمة شبهات مثارة حول معارضتهم للحكم الستالينى . وقد طالت عمليات التطهير هذه أعضاء الحزب الشيوعى ومختلف منظماته ، ورجال السلك الدبلوماسى من سفراء ووزراء مفوضين ومستشارين للسفارات ، كما تمت تصفية العديد من كبار قادة الجيش . وعلى سبيل المثال نجد أنه قد تم إبادة أكثر من نصف أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، كما تم طرد أكثر من نصف أعضاء الحزب فى المدن الرئيسية، حيث تم استبعاد مايربو على المليون شخص منهم ، وذلك كله خلال الفترة المذكورة (١) . وتتعين الإشارة إلى أن ستالين قدِ حرص – خلال عمليات التطهير– على التخلص من الرفاق غير الروس الذين كانوا يبدون مشاعر عرقية مهما بلغ إخلاصهم ووفاؤهم للماركسية اللينينية ، فعلى سبيل المثال تمت تصفية نسبة لايستهان بها من المثقفين والمهنيين فى جورجيا ، تلك الجمهورية التى شهدت من الأعمال الوحشية والقتل الجماعى والتنكيل الضارى مايفوق بكثير ماطال غيرها من الجمهوريات السوفيتية (٢) .

ومن جانب آخر فقد كان الإعلام فى ظل النظام السوفيتى السابق موجها على نحو مركزى ، وخاضعا بشتى وسائله المقروءة والمسموعة والمرئية لرقابة صارمة من جانب الحزب الشيوعى ، كما انحصر هدف

---

(١) أنظر فى هذا الصدد بالتفصيل : ج. هـ .د. كول ، الإشتراكية والفاشية فى ثلاثينيات هذا القرن ، ترجمة : عبدالحميد الإسلامبولى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر – الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، بدون تاريخ ، من ص ٢٤٩ إلى ص ٢٥٢ ، وأيضا : Mcauley, Mary, Soviet Politicis: 1917-1991, Oxford University Press, 1992, p.p. 50-51.

(٢) أنظر فى هذا المضمون : أحمد عباس عبدالبديع ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٩ .

وسائل الإعلام السوفيتية المختلفة فى الدعاية للنظام السياسى وتضخيم إنجازاته أو حتى اختلاقها ، والتعتيم على كل ما من شأنه أن يسئ إليه أو إلى أى من رموزه .

أما فيما يتصل بالحريات العامة فقد وضع النظام قيودا جمة عليها ، إذ لم يكن ليسمح بحرية الرأى أو التعبير أيا كانت وسائل هذا التعبير . فعلى سبيل المثال لم يكن التظاهر عملا مقبولا على الإطلاق من جانب النظام السوفيتى ، وقد أدرك الرعايا السوفييت هذه الحقيقة المريرة من خلال تجربة قاسية ، ذلك بأن آخر مظاهرة سمعوا عن اندلاعها فى بلادهم كانت قد قامت فى موسكو فى ٧ نوفمبر عام ١٩٢٧. وقد قوبلت هذه المظاهرة بالقمع من جانب قوات الشرطة التى لم تتردد فى صب جام غضبها على كل رفاق لينين (من قادة الثورة) الذين تجمعوا ضد السلطة التى كان ستالين قد اعتلاها آنذاك ، وعلى إثر قمع المظاهرة اتهم منظموها (رفاق لينين) بمحاولة انتزاع السلطة من الحزب ، وتمت تصفيتهم جسديا بالتدريج .

وهكذا كان على الشعوب السوفيتية أن تعى الدرس جيدا وتدرك أنه لا أحد يتظاهر فى وطن العمال ، ذلك بأن العمال هم الذين يحكمون ، فضد من -إذا - يكون التظاهر [1] ؟ لقد علمت تلك الشعوب أن أولئك الذين قد تسول لهم أنفسهم أن يتظاهروا سوف يعتبرون - بداهة وتبعا لتقاليد النظام السوفيتى - أعداء الشعب ، وهو الإتهام الذى لم يكن له من جزاءات - فى ظل ذلك النظام - سوى الإعدام ، أو الزج بمن يكون موضعا له فى غياهب سجون سيبريا .

وفى إطار إحكام قبضة النظام على الجماعات العرقية غير الروسية راح ستالين فى عام ١٩٣٨ يصدر قانونا عسكريا بإلغاء الوحدات العسكرية

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : هيلين كارير دانكوس ، نهاية الإمبراطورية السوفيتية : (مجد الأمم) ، ترجمة : إبراهيم العريس ، دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث - الأرض للنشر، قبرص ، ١٩٩١، ص ٥٧ .

الخاصة بالجمهوريات (أى الوحدات ذات الطابع العرقى) . كما نص هذا القانون على أن تكون الخدمة العسكرية لأى فرد سوفيتى خارج جمهوريته ، وفى نطاق وحدات عسكرية متعددة الأعراق،وذلك حتى يصبح الجيش بمثابة مدرسة حقيقية للأممية (١) تنتفى فى ظلها النزعات العرقية البرجوازية .

وتتعين الإشارة إلى أن سائر الزعماء السوفييت كانوا يعلقون آمالا كبارا على الجيش معتبرين إياه إحدى الدعائم الرئيسية لوحدة السوفييت ، وأحد السبل الحقة المهيئة لخلق شعب سوفيتى واحد وهو الهدف الذى طالما تطلعوا إليه .

أما فيما يتصل بتوزيع الاختصاصات بين الحكومة الفيدرالية (السوفيتية) وحكومات الجمهوريات فقد انطوت كافة الدساتير السوفيتية على تقليص اختصاصات الجمهوريات إلى حد كبير . وحسبنا أن نشير فى هذا الصدد إلى أن اختصاصات الحكومة الفيدرالية قد تمثلت فى الآتى (٢) :

أ - الاختصاصات المتعلقة بمسائل الحرب والسلام ، وتنظيم شئون الدفاع، وحماية سلامة الدولة .

ب - قبول انضمام جمهوريات جديدة إلى الإتحاد السوفيتى .

ج - الموافقة على تغيير حدود الجمهوريات الإتحادية .

د - الموافقة على تشكيل مناطق وأقاليم جديدة ، وتشكيل جمهوريات ذات حكم ذاتى فى نطاق الجمهوريات الإتحادية .

هـ - ضمان التوفيق بين دساتير الجمهوريات الإتحادية وبين الدستور الإتحادى . [حيث يتعين أن تكون دساتير الجمهوريات متوافقة مع الدستور الإتحادى (المادة ٧٣ من دستور ١٩٧٧) ، كما أن لقوانين الإتحاد قوة متساوية فى أراضى كافة الجمهوريات، وفى حالة

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : نفس المرجع السابق .

(٢) أنظر بصدد هذه الإختصاصات : بطرس غالى ، خيرى عيسى ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٦.

تعارض قوانين الإتحاد مع قوانين الجمهوريات يسرى قانون الإتحاد (المادة ٧٤ - دستور ١٩٧٧)] [١] .

و -إدارة كافة شئون التجارة الخارجية على أساس احتكار الدولة .

ز - وضع المشاريع الإقتصادية القومية .

ح - التصديق على ميزانية الدولة الإتحادية وميزانيات الجمهوريات الإتحادية وغيرها من الميزانيات المحلية .

ط - إدارة النقل ووسائل الإتصال .

ى -إدارة البنوك وعقد القروض وإدارة نظام النقد ونظام الإعتمادات .

ك -الإشراف على البوليس السياسى [٢] .

ل - باقى الشئون المالية والإقتصادية وشئون الغذاء والعمل ومفتشيات العمال والفلاحين ، وإن كانت غير خاضعة لموسكو إلا أنها تخضع لقدر من التنسيق من جانبها [٣] .

أما ماعدا ذلك من اختصاصات فتتولاها الجمهوريات .

والحق أننا نتفق تماما مع الرأى القائل بأنه بمقارنة الصلاحيات التى احتفظ بها للمركز والصلاحيات المخولة للمحيط (الجمهوريات) يتضح أن صلاحيات الجمهوريات هى أقرب ماتكون إلى صلاحيات هيئات الحكم المحلى فى أية دولة شديدة المركزية . وعلى سبيل المثال فإن الجمهوريات لاتمارس أية صلاحيات ذات طابع سياسى بما فى ذلك الجمهوريات التى كانت تتمتع بعضوية الأمم المتحدة (أوكرانيا - بيلوروسيا) ، فهى لم تمارس فى الواقع أية سياسة خارجية مستقلة عن المركز [٤] .

ولعله مما يثير الدهشة أنه على الرغم من التضاؤل المتناهى

---

(١) هيلين كارير دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٣.

(٢) خيرى عزيز ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٢.

(٣) المرجع السابق .

(٤) دانكوس ، انتفاضة القوميات ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٠ .

للصلاحيات المخولة للجمهوريات على النحـو المتقدم فإن الزعماء السوفييت لم يتورعوا عن أن يضمنـوا دسـاتيرهم الإتحاديـة نصـا قوامـه : " أن الجمهوريات الإتحادية هى جمهوريات ذات سيادة " (المادة ٧٦ - دسـتور ١٩٧٧) . ومن هنا فإننا نتساءل : أية سيادة يقصدون ؟ . إن السيادة تعنى - كما هو متفق عليه بين المشتغلين بعلوم السياسة - انفراد الدولـة بـإصدار القرارات على مستوى مجتمعها الكلى فى الداخل ، ورفض التقيد بأى قيد من الخارج إلا بإرادتها [١] . وإذا كان هذا هو مفهوم السيادة فهل بمقدور أحد أن يزعم أن جمهوريات المحيط السوفيتية (عديمة الاختصاصـات السياسـية وضئيلة الاختصاصات الأخرى) كانت جمهوريات ذات سيادة ؟ . الحق أننا لانملك إلا أن نقول بأن السيادة - بمفهومها لدى السوفييت - لم تكن سـوى خدعة ، وشعار أجوف ليس له ظل من حقيقة شأنه فى ذلـك شـأن كافـة الشعارات التى طالما تشدقوا بها .

وجملة القول فى شأن ماتقدم أن الجماعـات العرقيـة فـى الإتحـاد السوفيتى السابق كانت قد أحكمت القبضة عليها من جانب الزعماء السوفييت خلال الفترة (١٩١٧-١٩٨٤) ، من خلال نظام سياسى شمولى ارتكز إلـى الحزب الشيوعى باعتباره - حسب نص الدساتير السوفيتية - " القـوة التـى توجه وتدير المجتمع السوفيتى ، والعامل الرئيسى فى نظامه السياسى " [٢] . ولقد راح هذا الحزب يفرض أيديولوجيته على كافة أعضاء المجتمع بشـتى الوسائل بما فى ذلك الإرهاب والتنكيل ، وإلى جانب احتكاره للحياة السياسية هيمن الحزب على مختلف الأجهزة الرسمية للدولة وعلى رأسها المؤسسـات السياسية ، ومن فوقه طاغية هو " الرجل رقم ١ " ، الذى يقوم مـن فـوق الحزب بل ومن فوق المجتمع والدولة جميعا بسلطات مطلقة ونهائية ، هيـأت

---

(١) محمد طه بدوى - ليلى أمين مرسى ، النظم والحياة السياسية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣.

(٢) محمد طه بدوى ، النظرية السياسية ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٩ .

له تصفية كل من يعارضه . كما تميز هذا النظام بإعلام موجه شاغله الأوحد الدعاية للنظام والتعتيم على أخطائه ، ذلك فضلا عن وضع قيود هائلة على حرية الرأى والتعبير . وفوق كل ماتقدم عمد الزعماء السوفييت – فى ثنايا دساتيرهم المختلفة – إلى تقليص الاختصاصات المخولة للجمهوريات إلى حد كبير ، كما تم – بمقتضى القانون العسكرى لعام ١٩٣٨ – تفكيك الوحدات العسكرية الخاصة بتلك الجمهوريات ، فلم يعد ثمة سوى جيش واحد هو الجيش السوفيتى ، أملا فى أن يكون هذا الجيش بمثابة النواة لخلق شعب سوفيتى واحد .

وهكذا يمكن القول من خلال كل ماتقدم أن النظام السوفيتى – بمقوماته المتقدمة – قد مثل إطارا ضاغطا على الجماعات العرقية بحيث لم تستطع إزاءه حراكا . ولكن – وعلى الرغم من كل خصائصه هذه – هل نجح النظام السوفيتى بكل جبروته فى وأد الحركات العرقية تماما ؟ ذلكم هو ماسنحاول الإجابة عليه فى ثنايا تحليلنا اللاحق .

ثانيا : الدعوة إلى فكرة الأممية البروليتارية كفكرة بديلة للقومية :

أكد لينين إبان الثورة البلشفية وغداتها – كما سبق أن أشرنا – إيمانه بمبدأ حق تقرير المصير ، وبالتالى حق سائر الشعوب التى كانت خاضعة لنير الإمبراطورية الروسية فى الانفصال عنها وتكوين دول مستقلة (١) . ولكن هل يعنى ذلك أن فكرة القومية [وما يرتبط بها من حق الشعوب فى تقرير مصائرها] تتماشى مع الفكر الماركسى الذى اعتنقه البلاشفة ؟ وهل كان البلاشفة مستعدين – حقا – للسماح للجماعات العرقية غير الروسية بالاستقلال وتكوين دولها الخاصة المتمتعة بالسيادة الكاملة ؟ . الحق أن الفكر الماركسى يرفض " القومية " باعتبارها من الميراث البرجوازى (٢) ، ويدعو

---

(١) Connor, Walker, The Soviet Prototype, in : Denber, Rachel (ed.) Op. Cit., p. 15.

(٢) أمانى الطرابيشى ، اضطرابات الأرمن فى الإتحاد السوفيتى ، مجلة السياسة ==

إلى فكرة الأممية البروليتارية Proletarian Internationalism التى جسدها الشعار الشيوعى الأشهر " ياعمال العالم..اتحدوا " ، والذى يدعو إلى تضامن الكادحين فى شتى أرجاء البسيطة دونما تمييز بينهم بسبب القومية ، ومن هنا فقد راح ماركس يبشر بدولة الكادحين العالمية ، والتى هى من فوق أمم العالم بشتى قومياتها (١) .

وكان ماركس وإنجلز قد أكدا فى البيان الشيوعى The Communist Manifesto رفضهما لفكرة القومية ، حيث قالا : " إن الثورة الصناعية قد قضت على القيم الثقافية العرقية والفوارق الإجتماعية المتأصلة فى البيئة الريفية " ، ثم راح المفكرون الماركسيون - من بعد - يتجهون إلى الحط من شأن القومية (والعرقية) ومهاجمتها على أساس ارتباطها بقوى الرجعية ، فهم يرون أن الرأسماليين إنما يعملون على استغلال الفوارق والاختلافات العرقية لتفتيت وحدة ونضال البروليتاريا . ومن هنا فإن على العمال أن يدركوا أن الروابط العرقية لاتمثل سوى عنصر لايعتد به فى مواجهة الحقيقة الكبرى المتمثلة فى انتمائهم إلى أخوة عالمية أوسع نطاقا هى كونهم جميعا أجراء مستعبدين ، يستغلهم رؤساؤهم كالدواب . ولمجابهة هذه المعاملة غير الإنسانية لابد للبروليتاريا من أن تكتسب الوعى الثورى الذى يتجاوز نطاق الروابط العرقية الضيقة إلى رحاب الروابط الإنسانية (٢) .

من جانب آخر فإن ثمة منظرين ماركسيين (وغربيين أيضا) يرون أن الروابط والقيم العرقية تأخذ فى التدهور بمعدلات سريعة تحت تأثير التصنيع والتحضر والعلمانية ، وبالتالى فإنه لايتعين تعليق أهمية كبيرة على قضايا العرقية فى المجتمع الصناعى ، حيث تتحدد العلاقات وفقا للمصالح

== الدولية، العدد ٩٣ ، يوليو ١٩٨٨ ، ص ٢٣٠.

(١) أنظر فى هذا الصدد : محمد طه بدوى ، النظرية السياسية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) أنظر فى هذا المضمون : أحمد عباس عبدالبديع ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٨.

الإقتصادية وأنماط الحياة الإجتماعية التى بـــاتت تطغـــى علـــى العوامـــل والإختلافات العرقية وتحيلها إلى مكانة ثانوية فى حياة الناس ، بحيث لم يعد يتبقى لها من أثر سوى بعض العادات والتقاليد ، التى تزدهر فى المناسـبات الدينية المقدسة والاحتفالات الثقافية القومية [١].

ولقد كان لينين – ذاته – يرى أن القومية (البرجوازية) ، والأمميـــة (البروليتارية) تعتبران أيديولوجيتين متعاديتين لاهوادة بينهما ، كما كان من أهم المبادئ اللينينية – بصدد المسألة القوميـــة – مبـدأ التضـــامن الأممـــى للكادحين من جميع القوميات [٢] . كما أن ثمة حقيقة طالما لم يفطـــن إليـــها الكثير من المحللين بصدد موقف لينين من فكرة حق تقرير المصير ، ومـــا تستتبعه من حق سائر الشعوب السوفيتية فى الانفصال وتكوين دول مستقلة ، قوامها ما أكده المحللون من أن لينين كان يؤمن تماما بحق تقرير المصـــير ، وأنه كان مقتنعا – بالفعل – بما أعلنه فى برنامجه من حق الشعوب السوفيتية فى الاستقلال . غير أن الحقيقة – وهذا مانود أن نؤكده – هى أن لينين كـــان قد أعلن فيما يتعلق بحق الاستقلال " أنه لايعنى بالمرة أن الحزب الشـــيوعى سوف يؤيد رغبة كل قومية (جماعة عرقية) فى الاســـتقلال ، ذلـــك بـــأن الشرط الحاسم هنا هو مصالح النضال الطبقى للبروليتاريا ، ومصالح الكفـــاح الظافر من أجل الثورة الإشتراكية " [٣] .

وبطبيعة الحال فإن هذه المصالح لم تسمح أبدا لأية جماعـــة عرقيـــة بالانفصال عن الإتحاد السوفيتى ، بل إنها اقتضت – حسب زعم البلاشـــفة – ابتلاع عديد من شعوب أخرى ، وضمها ضما قسريا إلى الكيان الســـوفيتى على النحو الذى سنعرض له لاحقا .

وهكذا فإن مبدأ حق تقرير المصير – لدى السوفييت – لم يكن – شأنه

---

(١) راجع فى هذا المضمون : المرجع السابق ، ص ١٩٧ .
(٢) زيفيليف ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥ ، ١٦.
(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٣ .

فى ذلك شأن سائر شعاراتهم – سوى مجرد شعار أجوف . وقد استهدف البلاشفة – وعلى رأسهم لينين – من وراء رفع ذلك الشعار تحقيق هدفين : أحدهما قصير الأجل، والثانى طويل الأجل . وقد تمثل الهدف الأول فى اكتساب تأييد ودعم الشعوب – التى كانت خاضعة للحكم القيصرى – إلى جانب الثورة البلشفية ، وذلك من ثنايا إقناع تلك الشعوب بأن الثورة هى السبيل الوحيد أمامها لنيل استقلالها . كذلك فقد سعى البلاشفة – من وراء إعلانهم عن الإيمان بحق تقرير المصير – إلى استقطاب هذه الشعوب إلى صفهم خلال السنوات الأولى لحكمهم، حيث كان البلاشفة يعانون – وقتئذ – من حالة ضعف شديد ، إذ كان الألمان طوال الجزء الأكبر من عام ١٩١٨ يحتلون أوكرانيا ، وبذلك انقطعت الصلة بين روسيا والبحر الأسود ، ذلك فضلا عن حصول تركيا على أقاليم كارس وأردهان وباطوم بمقتضى معاهدة برست ليتوفسك Brest-Litovsk [١] التى وقعت فى ٣ مارس عام ١٩١٨ بين روسيا ، والمانيا ، والنمسا ، وبلغاريا ، وتركيا ، والتى أجبر خلالها البلاشفة كذلك على التنازل عن جمهوريات البلطيق الثلاث (ليتوانيا – لاتفيا – إستونيا) .[٢]

وفضلا عما تقدم فقد كان موقف البلاشفة أكثر حرجا خلال الحرب الأهلية ، لاسيما وأن الدول المنتصرة فى الحرب العالمية الأولى – وعلى رأسها انجلترا وفرنسا – كانت تساند الجيش الأبيض (القيصرى) ، فى مواجهة الجيش الأحمر البلشفى [٣] . وهكذا فإنه على الرغم من أن لينين

---

(١) أنظر فى هذا الصدد بالتفصيل : إدوارد هاللت كار ، ثورة البلاشفة (١٩١٧–١٩٢٣) ، الجزء الثالث ، ترجمة : عبدالكريم أحمد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ١٩٧٣، من ص ٢٤١ إلى ص ٢٤٤ .

(٢) أنظر بصدد هذه المعاهدة : هارولد نيكلسون ، الدبلوماسية ، ترجمة : محمد مختار الزقزوقى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٧ ، ص ٢٣٦.

(٣) إدوارد هاللت كار ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٤ .

كان يعتبر أن فكرتى القومية وحق تقرير المصير فكرتان برجوازيتان إلا أنه استخدمهما كوسيلة تكتيكية ضد العدو القيصرى (١) .

أما بصـــدد الهدف الثانى الذى توخـاه البلاشفة من وراء إعلانهم عن التمسك بحق تقرير المصير ، وتأكيدهم فى شتى دساتيرهم على هذا الحـق ، فهو هدف دعائى ، يتمثل فى محاولة الظهور أمـــام الشـعوب المسـتعمرة وحركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث بمظـــهر النظـام المدافـع عـن استقلالها ، والحامل لراية حق الشعوب فى تقرير مصائرها (٢) ، وذلك كلـه سعيا وراء استقطاب تلك الشعوب إلى جانب السوفييت فى صراعـــهم مـع عدوهم اللدود (الولايات المتحدة) فى أحلك فترات الحرب الباردة . إذن فقد كان هذا الهدف هدفا طويل الأجل ، على عكس الـهدف الأول الـذى كـان مجرد هدف تكتيكى آنى .

وجملة القول فى شأن كل ماتقدم أن البلاشفة كانوا يرفضون " فكـــرة القومية" ويعتبرونها فكرة برجوازية رجعية ، كما كانوا يعتبرون أن النزعـة العرقية مآلها إلى الزوال ، إذ سرعان ما ستضمحل تحت تـــأثير التحديـث والتصنيع ، وأن البقاء هو لفكرة الأممية البروليتارية ، والتـى يكون الـولاء فى ظلها للطبقـة وليس للعرق ، وبالتالى فإنه يتعين على سائر الكـادحين أن يتضامنوا تحت راية الأممية البروليتارية لافظين أية نعرة عرقية . وعلـــى ذلك فقد سخرت شتى وسائل الدعاية السوفيتية من مقروءة ومسموعة ومرئية – للترويج لفكرة الأممية البروليتارية ، والدعوة إلى نبذ القومية التى هـى – لديهم – أحد موروثات البرجوازية البائدة ، كما راح كافة الزعماء والمثقفيـن السوفييت يروجون – فى خطبهم ومؤلفاتهم – لتلك الفكرة ، وذلك كله سـعيا وراء القضاء على أية نزعة قومية أو عرقية لدى أية جماعة من الجماعـات

---

(١) مختار شعيب عبدالله ، الصراع القومى والعرقى فى الجمهوريات المستقلة : أبخازيا – جورجيا ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٢٠ ، أبريل ١٩٩٥ ، ص ١٨٣ .

(٢) Conner, in : Denber (ed.), Op. Cit., p.p. 21-22.

العرقية المشكلة للإتحاد السوفيتى ، على نحو يهيئ لصهر هذه الجماعات فى بوتقة واحدة هى " الشعب السوفيتى المنشود "

وهكذا فإنه يتضح فى ثنايا تحليلنا المتقدم أن الزعماء السوفييت – وعلى رأسهم لينين – لم يكونوا – على المستوى الفكرى – مؤمنين بمبدأ حق تقرير المصير ، وإنما استخدموه لتحقيق مآرب فى أنفسهم على النحو المتقدم، وبالتالى يمكن القول أن حق الجمهوريات فى الانفصال الذى نصت عليه كافة الدساتير السوفيتية كان مجرد شعار أجوف شأنه فى ذلك شأن شتى الشعارات السوفيتية ، وهذا هو ماسنؤكد عليه من خلال تحليلنا اللاحق .

ثالثا : قمع أية حركة عرقية تستهدف انفصال شعبها عن الإتحاد السوفيتى:

لقد كان لينين يتساءل : هل يكون لأمة من الأمم أن تضطهد وتقهر غيرها ثم توصف فى ذات الوقت بأنها أمة حرة ؟ ، وأجاب لينين على تساؤله بالنفى وأكد أن روسيا العظمى عليها واجب النضال ضد كل شكل من أشكال الاضطهاد ، ومع ذلك فإنه عندما أصبح سيدا للكريملين راح يخضع للحكم الشيوعى كافة الجماعات العرقية التى كانت خاضعة للحكم القيصرى ، والتى كان يصفها بأنها "سجناء روسيا " [(١)] ، فعلى إثر الثورة البلشفية كان العديد من الجماعات العرقية الخاضعة لروسيا قد أعلن استقلاله مكونا لدول قومية مستقلة تجمع شتات أبناء نحلته ، غير أن جحافل الجيش البلشفى الأحمر سرعان ما اجتاحت هذه الدول منهية استقلالها ، ومخضعة إياها – من جديد – للنير الروسى . ولعل من أظهر الحركات العرقية التى كونت دولا مستقلة غداة الثورة البلشفية كلا من :

١ – الحركة العرقية الأوكرانية :

وهى الحركة التى كللت جهودها بإعلان – من جانب الجمعية القومية

(١) أنظر فى هذا المضمون : أحمد عباس عبدالبديع ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٨.

الأوكرانية Ukrainian Nationalist Assembly (Rada) عام ١٩١٧ – يقضى باستقلال أوكرانيا عن روسيا ، وقيام دولة أوكرانية مستقلة هـــى جمهوريـــة أوكرانيا الشعبية Okrainian People's Rebuplic . ومع اندلاع الحرب الأهلية الروسية راحت الدولة الأوكرانية الجديدة تقف فى صف الجيش الأبيـــض ، غير أن الأوكرانيين لم يكن بمقدورهم التصدى لزحف الجيش الأحمر الـــذى اجتـــاح جمهوريتهم الوليدة ، وأعـــادها إلى الحظيرة الروسية فى خلال شهر واحد (١) .

٢ – الحركة العرقية الأذربيجانية :

يمثل الإقليم الأذربيجـــانى أحـــد اقـــاليم منطقـــة مـــاوراء القوقـــاز Transcaucasia وتقطنه جماعة عرقية تدين بالإسلام هى الجماعة الآذريـــة . وقد كان هذا الإقليم يمثل – لعدة قرون – جزءا من الإمبراطورية الروســـية القيصرية (٢) . وباندلاع الثورة البلشفية عام ١٩١٧ ظهرت حركـــة عرقيـــة أذربيجانية راحت تتفصل بالإقليم عن روسيا ، لكـــى تنشـــئ بذلـــك دولـــة أذربيجان المستقلة . غير أن الجيش البلشفى راح يجتاح تلك الدولة ، ويقتحـم عاصمتها باكو فى مارس ١٩١٨ ، حيث اقترف البلاشـــفة مذبحـــة بشـــعة (مذبحة باكو) راح ضحيتها ثمانية عشر ألفا من الأذربيجانيين المســـلمين ، وبالتالى فقد تم إدماج أذربيجان من جديد – جبرا عنـــها – فـــى روســـيا . وتتعين الإشارة إلى أن الشعب الأذربيجانى قد قام بما يربو على الخمســـين حركة تمرد فى مواجهة الحكم الشيوعى السوفيتى (٣) .

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : Smith, Gordon B., Op. Cit., p. 304.

(٢) أنظر فى هذا المضمون :
Dragadze, Tamara, Azerbaijanis, in: Smith Graham, Op. Cit., p. 164.

(٣) أنظر فى هذا المحتوى : محمد عبدالقادر أحمد ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٩ .

٣ - الحركة العرقية البخارية وحركة بسماتشـــــى Basmachi فـــى آســـيا الوسطى :

حيث كان أمير بخارى قد تزعم حركة انفصالية فـــى منطقـــة آســـيا الوسطى التى تقطنها جماعات عرقية مسلمة العقيدة . وقد راح أمير بخـــارى يعلن انفصال بخارى عن روسيا فى فبراير ١٩١٨ ، كما كون جيشا كبـــيرا ضم عشرات الآلاف، راح يتصدى للجيش الأحمر ، غـــير أن الغلبـــة فـــى النهاية كانت لجيش البلاشفة الذى تمكن من اجتياح بخارى واحتلال أراضيها فى سبتمبر ١٩٢٠ [١] .

غير أن أمير بخارى تمكن من الفرار إلى بخارى الشرقية حيث بدأ فى إعادة تنظيم جيشه بالتعاون مع جماعات معادية للسوفييت ، هـــى جماعـــات بسماتشي Basmachi ، والتى كانت آنذاك منتشرة فى شتى أرجـــاء آســـيا الوسطى ، كما كانت قد تمكنت من الإستيلاء على منطقة فرغانة وتأســـيس حكومة للمنطقة فى خريف ١٩١٩. ومن خلال التعاون بين أمـــير بخـــارى وهذه الجماعات أمكن للطرفين تكوين جيش يعتد به قوامه ٢٠ ألف جنـــدى ، تولى قيادتهم جنرال تركى هو أنور باشا Enver Pasha الذى كان قد فر مـــن سلطان أتاتورك فى تركيا . وقد استمرت مقاومة البسماتشى عنيفة حتى عـــام ١٩٢٦ حيث راح الوهن - بعد ذلك - يدب فى أوصالها ، وأمكن للبلاشـــفة القضاء عليها تماما مع بداية عقد الثلاثينيات [٢] وهكذا فقد قام البلاشفة بقمـــع شتى الحركات العرقية فى آسيا الوسطى ، وإخضاعها لربقة روسيا .

٤ - الحركة العرقية الجورجية :

كان الجيورجيون قد أعلنوا إستقلال جورجيا عن روسيا فى ٢٦ مايو

---

(١) Payne, John, Tadzhiks, in : Smith, Graham (ed.), Op. Cit., p. 262.

(٢) أنظر فى هذا الصدد : نفس المرجع السابق ، وكذلك : محمد عبدالقـــادر أحمـــد ، مرجع سبق ذكره ، من ص ١٢٥ إلى ص ١٣٠ .

١٩١٨ وشرعوا على إثر ذلك فى تبنى برنامج اجتماعى قومى راحوا فى إطاره ينشئون المدارس والمكتبات فى شتى أرجاء جيورجيا ، كما أنشأوا أول جامعة جيورجية على الرغم من الظروف الإقتصادية الصعبة التى كان الإقتصاد الجيورجى يجابهها آنذاك . كما شهد النصف الثانى من عام ١٩١٨ إجراء أول انتخابات للمحليات فى الدولة الوليدة ، بل وسرعان ما أجرى الجيورجيون أول انتخابات تشريعية عامة فى عام ١٩١٩ ، حيث أسفرت هذه الإنتخابات عن فوز الحزب الإشتراكى الديمقراطى الجيورجى (GSDP) بمائة وتسعة مقاعد من جملة عدد مقاعد الجمعية التشريعية الجيورجية الذى كان يبلغ مائة وثلاثين مقعدا . ومن جانب آخر كان لينين قد وقع - فى ٧ مايو ١٩٢٠ - إتفاقية تؤكد على أن روسيا ليست لها أية مطالب إزاء جيورجيا ، كما أنها لاتعتزم التدخل فى الشئون الداخلية للجيورجيين . وعلى الرغم من تعهداتهم هذه فقد راح البلاشفة يؤلبون الأقليات الأبخازية والأوسيتية تجاه الدولة الجيورجية التى تضمهم . كما راحت أرمينيا تهاجم إقليم لور Lore المتنازع عليه بين الأرمن والجيورجيين ، غير أن إنجلترا كانت قد تدخلت إلى جانب جيورجيا على نحو أدى إلى تجميد الموقف ، واعتبار لور منطقة محايدة . غير أن لينين عاد - بعد أقل من عام على إعترافه بسيادة جورجيا - وأرسل جحافل الجيش الأحمر - بدءا من ١١ فبراير ١٩٢١ - إلى منطقة لور متذرعا بوجود حركة تمرد هناك ، وسرعان ما ابتلع البلاشفة جيورجيا من جديد ، إذ فى خلال ستة أسابيع من بداية الغزو تمكن الجيش الأحمر من الإطباق على جيورجيا ، والإجهاز على استقلالها الوليد ، وإعادتها من جديد إلى الحظيرة الروسية (١) .

وهكذا - وبعد كل ماقدمنا - فإنه لم يعد ثمة مجال للشك فى أن البلاشفة لم يلتزموا قيد أنملة - فى الواقع - بمبدأ حق تقرير المصير الذى

---

(١) أنظر فى هذا الصدد :

Parsons, Robert, Gorgians, in : Smith, Grham (ed.), Op. Cit., p.p. 181-182.

كانوا قد أعلنوا إيمانهم به إبان ثورتهم ، ذلك بأن الدبابات الروسية التي سحقت استقلال أوكرانيا ، وأذربيجان ، وجيورجيا ، وأبادت الحركة العرقية البخارية ، وحركة البسماتشي الإسلامية في آسيا الوسطى إنما سحقت وأبادت - إلى جانب كل ذلك - مبدأ حق تقرير المصير . ومن هنا تتأكد الحقيقة التي سبق أن سقناها والتي قوامها أن إعلان البلاشفة عن إيمانهم بذلك المبدأ إنما كان مجرد تكتيك استخدموه بغية استقطاب الجماعات العرقية غير الروسية إلى جانبهم في مواجهة الجيوش البيضاء إبان الحرب الأهلية الروسية التي أعقبت اندلاع الثورة البلشفية ، كل ذلك من جهة ، والظهور بمظهر النظام المناوئ للاستعمار ، وبالتالي المساند لحركات التحرر الوطني في بلدان العالم الثالث ، على نحو يهيئ لاستمالتها إلى معسكرهم الشيوعي من جهة أخرى .

والحق أن انتهاك السوفييت لحق تقرير المصير لم يقتصر على ماتقدم، ذلك بأنهم قاموا كذلك بضم العديد من الأقاليم المجاورة إلى أراضيهم ضماً قسرياً . وقد تمثل أظهر الأقاليم التي اغتصبها السوفييت فيما يلي :

١ - **جمهوريات البلطيق الثلاث :**

والتي تتمثل في ليتوانيا ولاتفيا وإستونيا ، وهي الجمهوريات التي كانت قد انفصلت عن روسيا - كما سبق أن أشرنا - بمقتضى معاهدة برست - ليتوفسك التي وقعها البلاشفة مع الألمان عام ١٩١٨، ثم حصل البلطيقيون على استقلالهم غداة انتهاء الحرب العالمية الأولى . غير أنه على حد قول البعض : فقد دفعت ستالين طموحاته التوسعية إلى التعاون مع الشيطان بغية استعادة تلك الجمهوريات [١] . وفي أغسطس عام ١٩٣٩ وقع البلاشفة والنازيون ميثاق عدم إعتداء عرف باتفاق مولوتوف - ريبنتروب Molotov – Ribbentrop Pact ، وهو الميثاق الذي كان يقضي بوقوف

---

(١) في هذا المعنى أنظر : تيد روبرت جار ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٠ .

السوفييت على الحياد إزاء توسع هتلر فى أوربا ، فى مقابل سماح هتلر لستالين بابتلاع دول البلطيق والعديد من المناطق الأخرى . وفى أعقاب التوقيع على الإتفاق النازى السوفيتى - وفي يونيو ١٩٤٠ - راح الجيش الأحمر يهاجم دول البلطيق محتلا إياها بدءا بليتوانيا ، فلاتفيا ، وانتهاء بإستونيا (١) ، وبذلك تم إدخال الجمهوريات الثلاث - جبرا عنها - إلى الحظيرة السوفيتية .

٢ - مولدافيا (أو مولدوفا) :

وهى عبارة عن إقليم جبلى كان - حتى عام ١٩٤٠ - يمثل جزءا لايتجزأ من أراضى رومانيا ، كما يرتبط المولداف مع الرومانيين من خلال وحدة اللغة والثقافة والتاريخ . ومع احتلال السوفييت لرومانيا - إبان الحرب العالمية الثانية - راح ستالين ينتزع مولدافيا - جبرا عن سكانها - ويضمها إلى الإتحاد السوفيتى ، حيث أصبحت تمثل إحدى جمهورياته الإتحادية (٢) .

٣ - كاريليا :

والتى كانت حتى نهاية عقد الثلاثينيات تمثل جزءا من أراضى فنلندا ، ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ - وعلى الرغم من أن السوفييت كانوا قد وقعوا مع الفنلنديين ميثاق عدم اعتداء عام ١٩٣٢ لمدة ١٢ عاما - طالب السوفييت فنلندا - التى أعلنت حيادها إزاء الحرب - بأن تتنازل عن بعض أقاليمها لهم من أجل حماية لينينجراد ضد أى هجوم ألمانى، غير أن الفنلنديين رفضوا هذا المطلب السوفيتى . وعلى إثر ذلك اجتاح الجيش الأحمر الأراضى الفنلندية ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت الهزيمة قد لحقت بالفنلنديين ، وبالتالى فقد سارعوا بتسليم السوفييت - عام

---

(١) أنظر فى هذا الصدد : Crampton, R.J., Eastern Europe in the Twentieth Century, Routledge, London, 1994, p.p. 105-106.

(٢) أنظر فى هذا المضمون : Smith, Gordon, B., Op. Cit., p. 306.

١٩٤٠ – الأراضى التى كانوا قد طلبوها ، والمتمثلة فى كاريليا ، وفايبورج، وهانجو [١] . غير أن القوات الفنلندية تمكنت فى عام ١٩٤١ – بمساندة قوات ألمانيا النازية – من استعادة كافة المناطق التى كان السوفييت قد اغتصبوها من الأراضى الفنلندية عام ١٩٤٠ ، كما توغلت تلك القوات فى عمق الأراضى السوفيتية . وبانتهاء الحرب وهزيمة الألمان توغلت القوات السوفيتية فى الأراضى الفنلندية واحتلت فايبورج ، فاضطر الفنلنديون إلى طلب الهدنة التى وقعت إتفاقيتها بالفعل فى عام ١٩٩٤ ، وبمقتضاها أجبر الفنلنديون على التنازل عن كاريليا ، وفايبورج ، وبروكالا [٢] .

وهكذا فقد ضمت كاريليا – أيضا – ضما قسريا إلى الإتحاد السوفيتى فى عام ١٩٤٤ ، حيث أصبحت تمثل جمهورية إتحادية . غير أن خروشوف قرر فى عام ١٩٥٦ أن تصبح كاريليا جمهورية ذات حكم ذاتى (فقط) فى إطار جمهورية روسيا الإتحادية [٣] .

وتتعين الإشارة – فضلا عن كل ماتقدم – إلى أن قهر السوفييت للجماعات العرقية والشعوب ، وانتهاكهم لمبدأ حق تقرير المصير لم يقتصرا على الجماعات المشكلة للإتحاد السوفيتى ، وإنما طالا كذلك الشعوب التى كانوا يطلقون عليها حلفاءهم . وتتمثل هذه الشعوب فى بلدان شرق أوربا التى كان الإتحاد السوفيتى قد احتجزها خلف السياج الحديدى The Iron Curtain خلال الحقبة اللاحقة للحرب العالمية الثانية [٤] . ولقد راح السوفييت يحكمون قبضتهم على تلك الشعوب فى إطار حلف وارسو ، ويعمدون إلى

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : ج. هـ . د. كول ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٦،١٨٧.

(٢) أنظر فى هذا المضمون : المرجع السابق ، ص ١٨٧ .

(٣) أنظر فى هذا المضمون : بطرس بطرس غالى – محمود خيرى عيسى ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٣ .

(٤) أنظر فى هذا الصدد :

Harbutt, Frasher J., The Iron Curtain : Churchill, America and the Origins of the Cold War, Oxford University Press, New York, 1986.

قمع أية محاولة من جانب أى من تلك الدول للتخلص من ربقة الحلف . ولعل من أظهر تلك المحاولات التى قمعها السوفييت مايلى :

١ - حركة إيمرى ناجى Imre Nagy فى المجر عام ١٩٥٦ :

انتخب إيمرى ناجى رئيسا لوزراء المجر من جانب اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المجرى فى بودابست فى ٢٣ اكتوبر ١٩٥٦ ، وكان ناجى معاديا للستالينية Anti – Stalinist ، كما كان ينادى بأن تكون للمجر إشتراكيتها الخاصة النابعة من مقوماتها القومية ، حيث تبنى فكرة مايعرف بالإشتراكية القومية National Communism (١) . وغداة انتخابه كرئيس للوزراء راح إيمرى ناجى يعد بإشاعة الديمقراطية فى المجر ، والإبتعاد ببلاده عن حلف وارسو وعن الإتحاد السوفيتى . وسرعان ما اندفعت الجماهير المجرية إلى الشوارع فى مظاهرات عنيفة مؤيدة للإتجاه الجديد ، ومعتدية على كل مايرمز للشيوعية فى بودابست . وهكذا فقد كانت الأوضاع فى المجر تنذر بانسلاخها عن حلف وارسو ، الأمر الذى حدا بالسوفييت إلى التدخل العسكرى فى بودابست حيث قمعت الدبابات الروسية المؤيدين للديمقراطية ، وارتكبت العديد من المذابح خلال الأيام الأخيرة من شهر أكتوبر عام ١٩٥٦ (٢) . وبطبيعة الحال فقد عمد السوفييت إلى تنحية ناجى عن رئاسة الوزراء . وفى عام ١٩٥٨ حوكم سرا لمدة خمسة شهور ، حيث حكم عليه بالإعدام وتم إعدامه فى ١٧ يونيو ١٩٥٨ (٣) .

وهكذا فقد أعاد السوفييت المجر إلى حظيرة حلف وارسو كى تدور فى

---

(١) Brzinski, Zbigniew K., The Soviet Bloc: Unity and Conflict, Frederick A. Praeger Publisher, New York, 1961, p.p. 225-229.

(٢) أنظر فى هذا الصدد : دونالدنيف ، حرب السويس : كيف أدخل إيزنهاور أمريكا إلى الشرق الأوسط ، ترجمة : أحمد خضر ، عبدالسلام رضوان ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، من ص ٤٧٧ إلى ص ٤٨٠ .

(٣) Rothschild, Joseph, Communist Eastern Europe, Walker and Company, New York, 1964, p.p. 120-121.

فلكهم من جديد .

٢ – الحركة التشيكوسلوفاكية ١٩٦٨ (ربيع براج Prague Spring) :

بحلول عام ١٩٦٨ ، وفى ٥ يناير منه شهدت تشيكوسلوفاكيا حدثا بارزا تمثل فى اعتلاء ألكسندر دوبتشك Alexander Dubcek لموقع القمة فى الحزب الشيوعى التشيكى ، بأن أصبح سكرتيره الأول . ولقد كان لمجئ دوبتشك إلى الحكم أبلغ الأثر على الحياة السياسية فى تشيكوسلوفاكيا ، وكذا على توجهات السياسة الخارجية التشيكية . فعلى صعيد الحياة السياسية – بادئ ذى بدء – شهدت البلاد إصلاحات سياسية واسعة النطاق نحت نحو الديمقراطية ، والأخذ بالتعددية الحزبية . كما أقر برنامج الحزب الشيوعى – على الصعيد الإقتصادى – إصلاحات قوامها الابتعاد عن النمط الشيوعى ، والأخذ بمبادئ إقتصاديات السوق شيئا فشيئا . أما على الصعيد الخارجى فقد بات واضحا – آنذاك – أن ثمة توجهات قوية داخل تشيكوسلوفاكيا تدعو إلى انتهاج سياسة استقلالية بمنأى عن حلف وارسو ، كما راحت الصحف التشيكوسلوفاكية توجه الانتقادات إلى الإتحاد السوفيتى .

وهكذا فقد كانت الأوضاع فى تشيكوسلوفاكيا تنذر بانسلاخها عن حلف وارسو . وفى ظل تلك الظروف راحت الصحف السوفيتية تؤكد على أن النظام الإشتراكى فى تشيكوسلوفاكيا أصبح فى خطر . وإزاء ذلك زحفت الجيوش السوفيتية فى ٢١ أغسطس عام ١٩٦٨ نحو العاصمة التشيكية براج بغية تدعيم النظام الشيوعى القائم فى مواجهة الحركة المطالبة بالديمقراطية . وفى أعقاب ذلك بعدة شهور تم إقصاء دوبتشك من منصبه الحزبى حيث عين سفيرا لتشيكوسلوفاكيا فى العاصمة التركية أنقرة [(١)] .

وهكذا لم يسمح السوفييت لتشيكوسلوفاكيا بالانسلاخ عن كتلتهم ،

---

(١) أنظر فى هذا الصدد : Crampton., Op. Cit.,p.p. 332-333.

وكذلك : Young. John W., Cold War Europe: 1945 – 1989. Edward Arnold, London. 1991, p.p. 213-214.

وأعادوها مستخدمين جبروتهم إلى ربقة حلف وارسو ، مذعنة لإرادتهم ، خاضعة لإدارتهم . ولم يكتف السوفييت بذلك وإنما وجهوا إنذارا شديد اللهجة واضح البيان إلى شتى البلدان الدائرة فى فلكهم (بلدان حلف وارسو) بأن أية محاولة للانفصال عن الحلف سوف تجابه بكل قوة من جانبهم . وقد تمثل ذلك الإنذار فيما يعرف بمبدأ بريجنيف Brezhnev Doctrine الذى أعلنه الزعيم السوفيتى ليونيد بريجنيف فى سبتمبر عام ١٩٦٨ ، أى فى خلال أقل من شهر من التدخل السوفيتى فى تشيكوسلوفاكيا . ومؤدى مبدأ بريجنيف " أن الإتحاد السوفيتى سيتدخل عسكريا فى دول شرق أوربا إذا ماتعرض أى منها - سواء من الداخل أو من الخارج - لخطر يهدد سلامة الكومنولث الإشتراكى ، ذلك الكومنولث الذى يتمثل أهم مبادئه فى أن كل دولة شيوعية حرة فى تقرير الطريق الذى تختاره ، ولكنها ليست حرة فى الانسلاخ عن الشيوعية ، وأنه لايجب أن ينظر إلى السيادة على أنها فكرة مجردة ، ولكن يتعين النظر إليها على أساس طبقى " (١) .

وفى ضوء ماتقدم تتأكد الحقيقة التى سبق أن سقناها والتى مؤداها أن السيادة لدى السوفييت لها مدول مغاير لمدلولها الحق ، وأنها - إذا - لم تكن - كما سبق أن أكدنا - سوى مجرد شعار رفعوه ولم يلتزموه البتة ، شأنه فى ذلك شأن مبدأ حق تقرير المصير الذى طالما أعلنوا تمسكهم به ، ونصت سائر دساتيرهم على الأخذ به معلنة حق أية جمهورية سوفيتية فى الانفصال عن الإتحاد السوفيتى متى أرادت. وهنا فإن التساؤل الذى يطرح نفسه هو : إذا كان السوفييت لم يسمحوا لأى من حلفائهم الشيوعيين بالانفصال عن حلف وارسو ، تراهم كانوا سيسمحون لأية جمهورية سوفيتية بالاستقلال الحق عن الإتحاد السوفيتى ؟

إن كل ماقدمنا فى هذا الفصل جاء ليؤكد حقيقة هامة قوامها أن حق

---

(١) راجع بصدد مبدأ بريجنيف : إسماعيل صبرى مقلد ، التقارب الأمريكى السوفيتى والحرب الباردة ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٧ ، يوليو ١٩٦٩ ، ص ٢٥ .

الانفصال الذى أعلن السوفييت الإيمان به وضمنوه دساتيرهم لم يكن سوى خدعة كبرى ، وشعار أجوف رفعوه بغية تحقيق مكاسب سياسية تكتيكية (إبان السنوات الأولى لثورتهم) ، وأخرى طويلة الأمد (خلال العقود اللاحقة تلك الثورة) وذلك على النحو المشار إليه سلفا .

فالحق أن الدبابات السوفيتية هى التى سحقت استقلال أوكرانيا ، وأذربيجان، وجورجيا ، وأبادت الحركة الانفصالية البخارية ، وحركة بسماتشى فى آسيا الوسطى غداة الثورة البلشفية . وبواسطة هذه الدبابات ذاتها أمكن للسوفييت إبتلاع دول البلطيق الثلاث (ليتوانيا - إستونيا - لاتفيا) ، واغتصاب كاريليا الفنلندية ، والسطو على مولدافيا الرومانية إبان الحرب العالمية الثانية . كما أن نفس الدبابات هى التى أجبرت المجر (علم ١٩٥٦) ، وتشيكوسلوفاكيا (عام ١٩٦٨) على الرضوخ لإرادة السوفييت ، والبقاء صاغرتين داخل حظيرة حلف وارسو .

إن مانود أن نؤكده فى النهاية - ولعلنا لانكون بعيدين عن كبد الحقيقة بصدده - هو أن الإتحاد السوفيتى - شأنه فى ذلك شأن الإمبراطورية الروسية التى ورثها - قام استنادا إلى التجميع الإجبارى لشعوب غير متجانسة تجانسا قوميا ، وبالتالى فإننا نتفق تماما مع الرأى القائل بأن الإتحاد السوفيتى كان يمثل إمبراطورية فى عصر لايعرف الإمبراطوريات .

رابعا : السعى بشتى السبل إلى طمس الهويات العرقية للجماعات السوفيتية:

لقد تمثل الهدف السوفيتى الدائم بصدد المسألة القومية - كما سبق أن أشرنا - فى الوصول بالمجتمع السوفيتى بوسيلة أو بأخرى إلى درجة من التكامل تختفى معها تلك المسألة [(١)] ، التى كانت تقض مضجع الزعماء السوفييت، باعتبارها مصدرا للاضطرابات والتفكك يكاد يعصف بكيان

---

(١) دانكوس ، إنتفاضة القوميات ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٦ .

مجتمعهم . وقد كان لينين يرى أن احتفاظ الجماعات العرقية المشكلة للإتحاد السوفيتى بثقافاتها الذاتية هو أمر مؤقت ، لن يدوم سوى فترة وجيزة ، أو مرحلة انتقالية تتبلور خلالها ثقافة بروليتارية موحدة تسود شتى أفراد تلك الجماعات ، بحيث تصبح الثقافة المشتركة لشعب سوفيتى واحد Sovetskii Narod [1] . وبطبيعة الحال فقد راح سائر الزعماء السوفييت – من بعد لينين – يؤكدون على ماقال به ، ويشيرون إلى أنه مع تطور المجتمع الإشتراكى فإن الهويات القومية والعرقية ضيقة الأفق سوف تضمحل ، كى تحل محلها هوية سوفيتية جامعة ترتكز إلى نسق ثقافى سوفيتى موحد . وتتمثل عناصر ذلك النسق فى أن كل مواطن سوفيتى سيكون لديه الإيمان بما يلى [2] :

١ – إن ثمة وطنا واحدا له هو الإتحاد السوفيتى (USSR) .
٢ – إن له أيديولوجية واحدة هى الماركسية – اللينينية Marxism-Leninis.
٣ – إن ثمة حزبا سوفيتيا واحدا هو الحزب الشيوعى للإتحاد السوفيتى (CPSU).
٤ – إن له هدفا واحدا هو بناء المجتمع الشيوعى .
٥ – إن ثمة نسقا اقتصاديا سوفيتيا موحدا موجها .
٦ – العلاقات التكاملية بين سائر الجماعات والفئات فى المجتمع .
٧ – الأممية البروليتارية Proletarian Internationalism .

وفى إطار سعيهم الحثيث إلى خلق ذلك النسق الثقافى الموحد (الثقافة البروليتارية) راح الزعماء السوفييت يعمدون إلى طمس الهويات العرقية للجماعات السوفيتية ، من خلال تقويض مقومات تلك الهويات وعلى رأسها الدين . إذ كان كل من ماركس ولينين يدرك مدى تأثير الدين فى نفوس

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ ، وكذلك : Smith, Godon B., Op. Cit., p. 309.
(٢) Ibid.

البشر ، وأهميته كمقوم لهوياتهم حيث كان كلاهما يؤكد دوما أن الدين هـــو أفيون الشعوب The Opium of the Peoples [١] . ونظرا لما تقدم فقــد راح سائر الزعماء السوفييت يجعلون ديدنهم محاربة الدين والدعوة إلى الإلحـاد ، حيث قاموا غداة الثورة البلشفية بحملة لتأميم الكنائس وإغلاقـها ، ووضـع المدارس الدينية تحت سيطرة الدولة .

وفي عام ١٩١٨ صدر قانون يقضي بالفصل التام بين الدين (الكنيسة) والسياسة (الدولة) [٢] . أما فيما يتصل بالمسلمين السوفييت قد قام البلاشـفة – غداة ثورتهم وفي غضون سنوات قليلة – بتحويل آلاف المسـاجد إلـى اسطبلات للخيل ونوادٍ للقمار ، كما حولت جامعة سمرقند العريقة إلـى نـاد للملحدين [٣] .

وقد شهدت فترة حكم خروشوف – لاسيما الفترة من ١٩٥٩– ١٩٦٤– حملة عنيفة معاديـة للديـن Anti-religious compaign اسـتهدف الزعيـم السوفيتي من ورائها بلوغ غاية قوامها محو الأديـان تمامـا مـن الإتحـاد السوفيتي بحلول عام ١٩٨٠ . وفي إطار حملته هذه قام خروشوف بـإغلاق أكثر من نصف عدد الكنائس والمدارس اللاهوتية التي كانت لاتزال تعمـل وقتذاك . كما أخضعت شتى شئون الكنيسة لإدارة مايعرف باللجان التنفيذيـة Executive Committees التي أنشئت خصيصا لهذا الغرض . وقد تعسـفت هذه اللجان في نفي القساوسة المتمسكين بالممارسة الكاملة للطقوس الدينيـة ، وكان يتم اختيار أعضائها من بين الملحدين وأعضاء الحزب الشيوعي بغيـة تقويض المؤسسات الدينية من الداخل [٤] .

وفي إطار الدعوة إلى الإلحاد تبارت إدارات نشر المعارف الإلحادية

---

(١) Ibid., p. 312.

(٢) Ibid.

(٣) محمد عبدالقادر ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٤ .

(٤) Smith, Gordon B., Op. Cit., p. 312.

فى تأليف ونشر الكتب التى تدعو إلى الإلحاد ، وتهاجم الأديان لاسيما الإسلام . فعلى سبيل المثال نجد أنه تم خلال الفترة (١٩٦٠-١٩٦٤) تأليف عدد كبير من الكتب التى تهاجم الإسلام ، وقد صدرت هذه الكتب باللغة الروسية ، ثم قامت الإدارات المشار إليها آنفا بترجمتها إلى لغات الجماعات العرقية التى تبتغى الإسلام دينا ، إذ ترجم فى هذا الصدد - عام ١٩٥٧ وحده - ٤٧ كتابا إلى لغة داغستان ، و٢٦ كتابا إلى اللغة الأوزبكية ، و١٥ كتابا إلى لغة القوزاق ، و١٤ كتابا إلى لغة أذربيجان ، و١٢ كتابا إلى لغة الطاجيك ، و٩ كتب إلى لغة التتار ، و٨ كتب إلى لغة القرجيز ، و٧ كتب إلى اللغة التركية ، و٤ كتاب بلسان البشكير ، وكتابان بلسان كيردا وكيشان ، وكتاب واحد بلسان الأبخاز [١] .

كما طبع فى الإتحاد السوفيتى خلال الفترة (١٩٥٤ - ١٩٦٤) تسعمائة وعشرون مصنفا مناهضا للإسلام بشتى لغات المسلمين السوفييت ، الأوزبكية ، والداغستانية ، والكازاخستانية ، والأذرية ، والطاجيكية ، والقرجيزية ، والتتارية ، والبشكيرية ، والشيشانية ، والأوسيتية ، والأبخازية ... وغيرها .

وفضلا عن ذلك فقد أنشئ فى طشقند عام ١٩٨٢ مايعرف بـ " بيت الإلحاد العلمى " ، والذى كان يعد من أنشط الأجهزة التى تقوم بنشر الكتب المعادية للدين الإسلامى [٢] .

وقد استمر بريجنيف - مع مجيئه إلى الحكم فى الإتحاد السوفيتى - على نهج أسلافه ، فراح يشن حملات دعائية عنيفة ضد التدين [٣] .

ومهما يكن الأمر فإن حملات البلاشفة ضد الأديان كانت لها نتائج

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : محمد عبدالقادر ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٢) أنظر فى هذا المضمون : المرجع السابق ، ص ١٥٨ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .
(٣) Smith, Gordon B., Loc. Cit., p. 312.

بارزة تجسدت فى تقلص عدد الكنائس والمساجد فى الإتحاد السوفيتى إلى حد كبير . إذ انخفض عدد الكنائس الممارسة للشعائر فى الإتحاد السوفيتى من ٥٤ ألف كنيسة فى عام ١٩١٧ ليصبح ٧ آلاف كنيسة فقط فى عام ١٩٨٧ ، كما انخفض عدد رجال الدين المسيحى من ٥١ ألف رجل دين عام ١٩١٧ إلى ٦٥٠٠ فقط عام ١٩٨٧ . أما عدد المساجد فقد انخفض من ٢٦ ألف مسجد عام ١٩١٧ إلى أربعة آلاف فقط عام ١٩٨٧ ، وانخفض عدد العلماء Mullahs من ٤٥ ألف ملا عام ١٩١٧ إلى ألفين فقط عام ١٩٨٧ (١) .

من جانب آخر وفى إطار سعيهم إلى طمس الهويات العرقية للجماعات المشكلة لمجتمعهم راح الزعماء السوفييت يتعاملون بكل شدة مع أية محاولة للتعبير عن أى من تلك الهويات . ولعل أوضح الأمثلة (٢) على ذلك إقصاء واحد من أبرز الساسة الأوكرانيين - وهو بتروشيلست - عن كافة مناصبه نظرا لمابدر منه من إشارة للنزعة العرقية فى أحد كتبه . وقد كان بتروشيلست حتى عام ١٩٧٠ يشغل منصب السكرتير الأول للحزب الشيوعى الأوكرانى ، كما كان عضوا بارزا فى هيئة الرئاسة ، وكذا فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى طوال عقد الستينيات ، غير أنه فى عام ١٩٧٠ نشر كتابا عنونه بـ " أوكرانيتنا السوفيتية " ، خصص بعض صفحاته للإشادة بتاريخ وثقافة جمهورية أوكرانيا ، وقد كان ذلك مبررا كافيا لإثارة غضب الكريملين الذى سرعان ماإستبعده من سائر المناصب التى كان يشغلها ، وذلك على الرغم من إخلاصه الشديد للشيوعية ، وعلى الرغم أيضا من أن أوكرانيا كانت إحدى الجمهوريات المفضلة لدى الروس ، الذين كانوا يطلقون عليها " الأخ الأكبر الثانى " ، وعلى الأوكرانيين " أشقاءهم الأقدمين "

وجملة القول فى شأن ماتقدم أن الزعماء السوفييت كانوا يسعون - فى

---

(١) Ibid., p. 313.

(٢) أنظر بصدد ذلك : أحمد عباس عبدالبديع ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٠ .

سبيل خلق شعب سوفيتى موحد – إلى طمس الهويات العرقيــة للجماعــات المشكلة للإتحاد السوفيتى ، من خلال تقويض مقومات تلك الهــويات وعلــى رأسها الدين ، الذى كان البلاشفة يدركون عظيم خطره وبالغ أهميته كمقــوم للذاتية العرقية ، وبالتالى فقد سعوا من خلال وسائل شتى – عرضنا لــها – إلى القضاء على الأديان ، وتهميش دورها فى الحياة السوفيتية . كمـا راح السوفييت يجابهون بكل حزم أية محاولة لتمجيد الهوية العرقية ، أو الإشــادة بأى من مقوماتها . وكل ذلك فى سبيل الوصول إلى هوية سوفيتية جامعــة تجب ماعداها من هويات ، وتستمد ركيزتها الأساسية من نسق ثقافى سوفيتى موحد هو " الثقافة البروليتارية " . كما استهدف السوفييت كذلــك مــن وراء طمس الهويات العرقية للجماعات المشكلة للإتحاد السوفيتى القضــاء علــى النزعات العرقية لديها ، على نحو يهيئ لإمكانية إحكام السيطرة عليها مــن جانب السلطة المركزية . لذا فقد لجأوا – إلى جانب ماتقدم – إلــى سياســة أخرى مكملة ألا وهى سياسة الترويس التى سنعرض لها فيما يلى :

خامسا : سياسة الترويس Russification :

ففى إطار سعيهم إلى صهر الجماعــات العرقيــة المشــكلة للإتحــاد السوفيتى فى بوتقة شعب واحد راح الزعماء السوفييت – إلى جانب محاولتهم لطمس هويات هذه الجماعات – يعمدون إلى إضفاء الطابع الروســى علــى جمهوريات المحيط (التى تضم الجماعات العرقية غير الروسية) ، وكـــذا على سائر المؤسسات الإتحادية وعلى رأسها الجيش والحــزب الشــيوعى . وكان ستالين فى خطاب النصر الذى ألقاه فى ٢٤ مايو عام ١٩٤٥ قــد راح يؤكد على أن روسيا هى الأمة صاحبة الدور القيادى فى الإتحاد الســوفيتى بعد أن أكسبتها الحرب هذا الحق [١] .

وبذلك فقد تخلــى ستالين عن مبدأ المساواة بين العرقيــات ، واعتبر

---

(١) أحمد عباس عبدالبديع ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٩ .

الروس هم الشعب القائد فى الإتحاد السوفيتى ، الذى بات بمثابة تنظيم هرمى للجماعات العرقية تعتلى قمته القومية الروسية ، التى تمثل – على حد تعبير القادة السوفييت – الأخ الأكبر لسائر القوميات السوفييتية . وقد استتبع ذلك إعادة النظر فى تاريخ روسيا القديم ، بل ولم تعد روسيا القيصرية هى سجن الشعوب كما كان يطلق عليها البلاشفة ذاتهم . كما عمد ستالين – ومن تبعه من الزعماء السوفييت – إلى تبنى سياسة استيعاب ثقافى إزاء الجماعات العرقية غير الروسية استهدفت ترويس هذه الجماعات ثقافيا ولغويا . فعلى الصعيد الثقافى راح الزعماء السوفييت يهاجمون ثقافات القوميات غير الروسية ، ويعتبرونها عوامل تفرقة ورمزا لماض متخلف ، وبالتالى فقد سعوا إلى إضعافها من خلال حملة واسعة النطاق على الأدب بحيث لم يعد الأدب لدى الجماعات غير الروسية وسيلة للحفاظ على هوياتها الثقافية ، وإنما بات شأنه فى ذلك شأن الأدب الروسى مجرد أداة لتمجيد الشيوعية، والتعبير عما أسماه السوفييت بالواقعية الإشتراكية . أما بصدد تراث الجماعات غير الروسية وتقاليدها فلم تعد – فى رأى الزعماء السوفييت – تمثل أمرا يستقيم مع المجتمع الإشتراكى الجديد ، وذلك فى الوقت الذى ازدهرت فيه الثقافة الروسية، واعتبرت التقاليد والتراث الروسيين بمثابة تقاليد وتراث الإتحاد السوفيتى بأكمله [1] أما على الصعيد اللغوى فقد عمل الزعماء السوفييت بشتى السبل على نشر اللغة الروسية فى إطار سائر الجمهوريات السوفييتية ، كما كانت هذه اللغة هى لغة السياسة والإقتصاد والعلم داخل الإتحاد السوفيتى ككل [2]، ذلك فضلا عن اعتبارها لغة التواصل بين مختلف الجماعات العرقية (القوميات) المشكلة للكيان السوفيتى.

وتدعيما لما تقدم بدأ الزعماء السوفييت منذ نهاية الثلاثينيات فى فرض

---

(١) راجع فى هذا المضمون : دانكوس ، نهاية الإمبراطورية .. ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٨ – ١٧٩ .

(٢) Barghoom & Remington, Op. Cit., p. 77.

الكتابة بالأبجدية السيريلية Cyrillic Alphabet على كافة الجماعات العرقية داخل الإتحاد السوفيتى ، حيث أجبرت هذه الجماعات على إحلال تلك الأبجدية فى الكتابة محل أبجدياتها الأصلية على اختلافها من لاتينية وعربية وغيرها [١] .

ومهما يكن الأمر فإن ثمة حقيقة لاسبيل إلى إنكارها هى أن سياسة الترويس بوجهها اللغوى والثقافى قد فشلت إلى حد كبير ، إذ لم يبلغ القادة السوفييت ماكانوا قد توخوه من أهداف فى ظلها . وعلى الرغم من ذلك فإن هؤلاء القادة كانوا يعمدون دوما إلى الإيهام بأن سياسة الترويس قد آتت أكلها، وأن العالم المعاصر يشهد مولد شعب سوفيتى حق . ولعل من أظهر الساسة السوفييت الذين برعوا فى تضخيم إنجازات سياسة الترويس زعيم الحزب الشيوعى الأوزبكستانى – إبان العهد البريجنيفى – شرف رشيدوف . حيث تمكن رشيدوف من إقناع بريجنيف بشكل دائم بأن أوزبكستان – كبرى الجمهوريات الإسلامية من حيث عدد سكانها – باتت تمثل نموذجا للتكامل الثقافى . وراح الزعيم الأوزبكستانى يعلن للجميع عن أن سياسته اللغوية قد حققت نجاحا مذهلا ، على نحو جعل كافة سكان أوزبكستان يجيدون اللغتين الروسية والأوزبكية معا . كما أكد رشيدوف على أنه إذا كان الشعب السوفييتى (الذى يتكلم لغة مشتركة والمكرس نفسه كليا للعمل من أجل الخير المشترك عن طريق الجهد الإقتصادى) موجودا فى مكان ما فهذا المكان هو بالقطع أوزبكستان رشيدوف . وتتعين الإشارة إلى أن رشيدوف كان – تأسيسا على دعاواه المتقدمة – قد حصل على أعظم تكريم يمكن أن يبلغه عضو فى المكتب السياسى من جانب السلطة السوفيتية . غير أنه بوفاته أظهرت التحقيقات أن سائر إنجازات رشيدوف لم تكن إلا ضربا من الأكاذيب التى طالما ارتكزت إليها النظم الشمولية وعلى رأسها النظام

---

(١) D'Encausse., Op. Cit., p. 89.

السوفيتى ذاته [١] .

وعلى أية حال فإن تحليلنا الذى سنقدمه فى صفحات لاحقة كفيل بتأكيد الحقيقة التى سقناها ، والتى مفادها أن سياسة الترويس اللغوى والثقافى كان مصيرها الفشل .

والحق أن سياسة الترويس التى انتهجها الزعماء السوفييت إزاء جمهوريات المحيط لم تستهدف فحسب النواحى الثقافية واللغوية ، وإنما طالت كذلك الكيانات البشرية لتلك الجمهوريات ، حيث عمدت السلطات السوفيتية طوال عقود عديدة إلى توزيع الروس فى كافة أرجاء جمهوريات المحيط السوفيتية عسى أن يهيئ ذلك لخلق نوع من التجانس والتلاحم بينهم وبين غيرهم من الجماعات العرقية . وقد كان خروشوف يؤكد أن انتشار الروس فى سائر أصقاع الجمهوريات السوفيتية الأخرى جاء بشكل طوعى ، وأنه قاد إلى محو كافة الفوارق بين مختلف العرقيات. غير أن ملاحظة الواقع السوفيتى كانت تشير إلى أن هذا الإنتشار كان من شأنه أن جعل من الروس جماعات منعزلة داخل جمهوريات المحيط ، كما غذى التناحرات العرقية بينهم وبين الجماعات العرقية الأخرى القاطنة لتلك الجمهوريات [٢]. وسرعان ماتوصل الروس – من تلقاء أنفسهم – إلى هذه الحقيقة، وأدركوا العداء المتصاعد إزاءهم ، وبالتالى فقد راحوا ينتقلون من الجمهوريات التى باتت إقامتهم فيها غير مستساغة إلى جمهوريات أخرى يتوقعون أن تكون ظروف إقامتهم فيها أفضل .

ويقدم الجدول التالى توضيحا للتغيرات التى طرأت على نسبة عدد الروس فى كل من جمهوريات المحيط إلى العدد الكلى لسكان الجمهورية خلال الفترة (١٩٥٩ – ١٩٨٩) :

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : دانكوس ، نهاية الإمبراطورية .. ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٦.

(٢) أنظر فى هذا المضمون : نفس المرجع السابق ، ص ٣١٦،٣١٧ .

السنة الجمهورية	١٩٥٩ %	١٩٧٠ %	١٩٧٩ %	١٩٨٩ %
أوكرانيا	١٦ر٩	١٩ر٤	٢١ر١	٢١ر٩
بيلوروسيا	٨ر٢	١٠ر٤	١١ر٩	١٣ر١
مولدافيا	١٠ر٢	١١ر٦	١٢ر٨	١٢ر٩
ليتوانيا	٨ر٥	٨ر٦	٨ر٩	٩ر٣
لاتفيا	٢٦ر٤	٢٩ر٨	٣٢ر٨	٣٣ر٨
إستونيا	٢٠ر١	٢٤ر٧	٧٩ر٩	٣٠ر٣
جيورجيا	١٠ر١	٨ر٥	٧ر٤	٦ر٢
أذربيجان	١٣ر٦	١٠	٧ر٩	٥ر٦
أرمينيا	٣ر٢	٢ر٧	٢ر٣	١ر٦
كازاخستان	٤٢ر٧	٤٢ر٤	٤٠ر٨	٣٧ر٦
قرجيزيا	٣٠ر٢	٢٩ر٢	٢٥ر٩	٢١ر٤
أوزبكستان	١٣ر٥	١٢ر٥	١٠ر٨	٨ر٣
طاجكستان	١٣ر٣	١١ر٩	١٠ر٤	٧ر٦
تركمانستان	١٧ر٣	١٤ر٥	١٢ر٦	٩ر٥

جدول رقم (٦)

أنظر بصدد بياناته :

- المرجع السابق ، ص ٣١٧ . وكذلك :

Smith, Graham (ed.), Op. Cit., 365.

ويلاحظ فى ثنايا الجدول السابق تصاعد وتيرة رحيل الروس من منطقتى القوقاز (أرمينيا – أذربيجان – جورجيا) ، ويترجم ذلك – على حد

قول البعض – تصاعد المشاعر المعادية للروس فى تلك الجمهوريات . غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أن الروس حينما كـــانوا يبـــارحون جمـــهوريات صعب عليهم العيش فيها فإنهم كانوا يتجهون إلى دول البلطيق ، حيث يرتفـع مستوى المعيشة ، وحيث تجتذبهم إمكانية الحصول على البضائع الإستهلاكية الغربية كالملابس ، والأثاث ، والأدوات المنزلية ذات التقنية المتطـورة [١] . ولكن هل كانت شعوب البلطيق أكثر من شعوب آسيا الوسطى قبولا لوجـــود الروس بين ظهرانيهم ؟ هذا ماسنجيب عنه فى صفحات قادمة بإذن الله .

وفضلا عن الترويس اللغوى والثقافى وترويـــس الكيانـــات البشـــرية لجمهوريات المحيط ، سعى الزعماء السوفييت إلى ترويس كافة المؤسســـات الإتحادية ، وعلى رأسها الحزب الشيوعى والجيش ، حيث سـيطر الـــروس على معظم المراكز الرئيسية للقوة على مستوى الحزب وبالتالى على مستوى الحكومة [٢] .

أما فيما يتصل بالجيش فتؤكد الإحصاءات المتاحـــة عـــن الســـنوات الأخيرة من عمر الإتحاد السوفيتى سيطرة العنصر الروسى على مقـــدرات الجيش ، ذلك بأن مايزيد على ٩٥% من كبار ضباط الجيش السوفيتى كـانوا من الروس ، ويشمل ذلك القيادة العليا للجيش ، ورئاســـة أركـــان القـــوات المسلحة ، وقيادات مسارح العمليات ، وقيادات المناطق العســـكرية ، ذلـــك فضلا عن أن ٧٥% من إجمالى ضباط الجيش السوفيتى كانوا من أصـــــول روسية أو سلافية ، كما كان يتولى تشغيل كافة المنشآت العسكرية الأساســـية أفراد روس ويعاونهم فى ذلك عدد محدود من الأوكرانييـــن والبيلـــوروس ، وتشمل هذه المنشآت القيادة العليا للتوجيه والسيطرة والإتصالات ، والحصول على المعلومات ، والقوات النووية الإستراتيجية ، وقوات الدفــــاع الجـــوى الإستراتيجى ، وقيادة المقـــاتلات الاعتراضيـــة الإســـتراتيجية ، والقـــوات

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكـــره ، ص٣١٨.

(٢) أحمد عباس عبدالبديع ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٠ .

الخاصـــة، وقوات الأمن التى كانت تتولى حماية القيادة العليـــا والمنشـــآت النووية [١].

وجملة القول بصدد سياسة الترويس أن هذه السياســـة كـــانت إحـــدى الوسائل التى لجأت إليها القيادات السوفييتية فيما يتصل بالتعامل مع المســـألة القومية . إذ استهدفت تلك القيادات من وراء الـــترويس الثقـــافى واللغـــوى للجماعات غير الروسية العمل على طمس الهويات العرقية لتلك الجماعـــات وتقويض مقومات ذاتياتها ، على نحو يهيئ لصهرها فى بوتقة واحدة مـــع الروس ، بما يؤدى إلى خلق هوية سوفيتية جامعة . وللتمكيـــن لذلـــك لجـــأ السوفييت – بجانب الترويس اللغوى والثقافى – إلى ترويس الكيان البشـــرى لجمهوريات المحيط على نحو ماقدمنا .

أما بصدد ترويس المؤسسات الإتحادية وعلى رأسها الجيش والحـــزب الشيوعى فقد استهدف الزعماء السوفييت من ورائه إحكام قبضتهم على هـــذه المؤسسات ، وبالتالى على سائر الجمهوريات بما تنطوى عليه من جماعـــات عرقيـــة.

سادسا : اقتلاع الجماعات العرقيـــة المتمـــردة وتشـــتيتها عـــبر جمهوريات بعيدة عن مواطنها الأصلية :

ولعل من أظهر حالات لجوء السوفييت إلى هذه السياســـة ماقـــام بـــه ستالين إبان الحرب العالمية الثانية . فخلال بضعة شهور تمتد مـــن أكتوبـــر ١٩٤٣ وحتى يونيو ١٩٤٤ قام الزعيم السوفيتى باقتلاع العديد من الجماعات العرقية (أقليات) من مواطنها الأصلية ، وتشتيتها عبر أرجاء آسيا الوسطى وأصقاع سيبيريا ، متهما إياها بخيانة الإتحاد السوفيتى والتعاون مع النـــازيين خلال الحرب . وقد بلغ عدد الأشخاص الذين تم ترحيلهم ترحيلا قسريا عـــن أوطانهم مايربو على المليون شخص ، ينتمون إلى سبع جماعـــات عرقيـــة

(١) مراد ابراهيم الدسوقى ، روسيا والتركة العسكرية للإتحاد السوفيتى ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٠٩.

صغيرة هى الشيشان Chechens ، والأنجوش Ingush ، والبلقار Balkars، والكالموك Kalmyks ، وتتار القرم Crimean Tatars ، فضلا عـــن ألمـــان الفولجا Volga Gernams [1] . ويوضح الجدول التالى عدد أفراد كـــل مـــن هذه الجماعات :

الجماعة العرقية	تعدادها (عام ١٩٣٩) بالفـــرد
الشيشـــان	٤٠٧٦٩٠
ألمان الفولجا	٣٨٠٠٠٠
تتار القـــرم	٢٠٠٠٠٠
الكالمـــوك	١٣٤٢٧١
الأنجـــوش	٩٢٠٧٤
الكاراتشـــيز	٧٥٧٧٣
البلقـــــار	٤٢٦٦٦
التعداد الإجمالى	١٣٣٢٤٧٤

جدول رقم (٧)

(تم تركيبه بالإعتماد على : D'Encausse, Op. Cit., p. 91)

وفى عام ١٩٤٦ صدر مرسوم يقضـــى باستباحة أراضى الجماعـــات المقتلعة ، حيث سمح لأفراد من جماعات عرقية أخرى بالإســـتيلاء عليـــها واستيطانها ، فى حين ظل الأفراد المقتلعون لمدة عشر سنوات يعيشون حيث هجروا فى ظل ظروف بالغة القسوة ، كما عمـــد النظـــام الســـوفيتى إلـــى

---

(١) D'Encausse. Op. Cit., p. 91.

تجاهلهم، وعدم الإشارة إليهم فى أية مناسبة ، بل ولم يعودوا يذكرون ضمن قوميات الإتحاد السوفيتى [١] .

وتتعين الإشارة إلى أنه مع مجئ خروشوف إلى الحكم فى الإتحاد السوفيتى بدأ عهد جديد فى التعامل مع الجماعات التى كان ستالين قد اتهمها بالخيانة ، واقتلعها من مواطنها ، حيث أعطى الحق لكل من الشيشان ، والأنجوش ، والكاراتشيز ، والبلقار فى العودة إلى مواطنهم الأصلية ، فى حين لم يمنح هذا الحق لكل من تتار القرم ، وألمان الفولجا [٢] . كما راح خروشوف – من ناحية أخرى – يؤكد على فكرة المساواة بين سائر الجماعات العرقية السوفيتية . ويرى البعض أن التغير الطفيف الذى طرأ على معاملة خروشوف للقوميات كان مرده إلى سعى الزعيم السوفيتى إلى الانفتاح على العالم الخارجى ، واستقطاب حركات التحرر الوطنى فى بلدان العالم الثالث ، وهو الهدف الذى لم يكن فى مقدوره بلوغه إن هو استمر على نهج أسلافه – لاسيما ستالين – فى طحن القوميات . ولقد أراد خروشوف أن يثبت للعالم الخارجى – ولاسيما الشعوب الإسلامية– أن الإتحاد السوفيتى هو دولة ذات عرقيات متعددة يحترم كل منها ذاتية الآخرين واستقلالهم [٣] .

غير أن خروشوف سرعان ما اكتشف أن سياسة المهادنة شأنها شأن سياسة العنف لاتقدم العلاج الناجع للمسألة القومية ، بل على العكس فإنها تشجع النزعات العرقية . وبالتالى فقد اتجه الزعيم السوفيتى إلى التأكيد على أن الحل الأمثل لتلك المسألة يكمن فى تحقيق المجتمع الشيوعى فى أقرب وقت ، وعلى اعتبار أن الأممية البروليتارية التى يحققها ذلك المجتمع كفيلة بإنهاء المسألة القومية ، وخلق شعب سوفيتى حق . وهكذا فقد كان خروشوف شأنه فى ذلك شأن سائر الزعماء السوفييت ينظر إلى المسألة

---

(١) Ibid.

(٢) Ibid., p. 95.

(٣) أنظر فى هذا المضمون : دانكوس ، إنتفاضة القوميات ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٩.

القومية باعتبارها مشكلة مؤقتة يمكن حلها وإنهاؤها شأنها فى ذلك شأن كافة المشكلات التى تجابههم ، وإذن فهؤلاء الزعماء لم يستوعبوا البعد الحقيقى لهذه المشكلة وطابعها الدائم والمهدد للنظام السوفيتي بأسره [١] ، إذ كانوا يؤكدون دائما على أنه يمكن إذابة كافة الفوارق العرقية ، وتوحيد الجماعات العرقية تحت راية الأممية البروليتارية .

وجملة القول فى شأن ماتقدم أن الزعماء السوفييت خلال الفترة (١٩١٧ - ١٩٨٤) قد سعوا من خلال وسائل شتى إلى إيجاد حل للمسألة القومية ، الناجمة عن كون الإتحاد السوفيتى دولة ذات تنوع عرقى هائل . ولقد راح هؤلاء الزعماء يحكمون قبضتهم على كافة الجماعات العرقية الخاضعة لحكمهم من خلال نظام شمولى يرتكز إلى الإرهاب والتنكيل ، ودستور اتحادى تقلصت فى ظله إلى حد بعيد اختصاصات جمهوريات المحيط لحساب السلطة المركزية . كما راح السوفييت يعلنون رفضهم لفكرة القومية باعتبارها من بقايا البرجوازية ، ويروجون لفكرة الأممية البروليتارية التى يكون الانتماء فى ظلها للطبقة لا للعرق . وفضلا عن ذلك فقد راحوا يقمعون بكل ضراوة أية حركة عرقية تستهدف انفصال شعبها عن الإتحاد السوفيتى ، برغم أن دستور الإتحاد كان ينص على حق أية جمهورية فى الاستقلال . وفوق ماتقدم فقد راح الزعماء السوفييت يسعون إلى طمس الهويات العرقية لجماعات المحيط وترويسها ، فضلا عن اقتلاع الجماعات العرقية المتمردة وتشتيتها بمنأى عن مواطنها الأصلية . ولعل السؤال الذى يطرح نفسه الآن هو : هل نجح الزعماء السوفييت - من خلال كافة الوسائل التى استخدموها - فى تسوية المسألة القومية ؟

تتعين الإشارة إلى أن سائر هؤلاء الزعماء قد أكدوا على أن المسألة القومية قد حلت ، وأن هذا يمثل أحد إنجازات ثورة أكتوبر . فعلى سبيل المثال نجد أن بريجنيف قد راح يؤكد فى تقريره الذى ألقاه فى المؤتمر الرابع

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : المرجع السابق .

والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى على أن " تحقيــق الحــزب للسياســة القومية اللينينية - سياسة المساواة والصداقــة بيــن الشــعوب - هــو أحــد الإنجازات الكبرى للإشتراكية " [1] . ومن الغريب أيضــا أن جورباتشــوف انتقد كافة السياسات التى انتهجها أســلافه مــاعدا سياســاتهم إزاء المســألة القومية، إذ كان يعتقد أن الإتحاد السوفيتــى - وإن كان يعانى من مشــاكل جمــة - إلا أن المسألة القومية قد باتت من ودائع التاريخ . وعلـــى ســبيل المثال ففى تقرير له قدمه فى ٢ نوفمبر عام ١٩٨٧ إلى الجلسة المشـــتركة للجنة المركزية للحزب الشيوعى ، ومجلس السوفييت الأعلى للإتحاد ومجلس السوفييت الأعلى لروسيا بمناسبة الذكرى الســـبعين للثــورة البلشــفية راح جورباتشوف يقول : "أيها الرفاق ، إن من حقنا اليوم أن نقول بأننا قد ســوينا المسألة القومية ، لقد شقت الثورة الطريق نحو المساواة فى الحقـــوق بيــن الأمم، كما ساهمت بشكل ملحوظ فى المساواة بصـــدد مســتويات التطــور الإقتصادى ، والإجتماعى ، والثقافى لدى كافة الجمهوريات ، والمنـــاطق ، وبين كافة الشعوب . إن الصداقة بين الشعوب السوفيتية هى واحدة من أكــبر منجزات أكتوبر ، وهذه الصداقة فى حد ذاتها تمثل ظاهرة فريدة فى التــاريخ العالمى ، وواحدة من دعائم قوة الدولة وصلابتها " [2] .

ولكن هل كانت المسألة القومية فى الإتحاد السوفيتى قد سويت بالفعل ؟

هذا ماستتضح الإجابة عنه من خلال تحليلنا فى صفحات تالية .

* * * * *

---

(١) زيفيليف ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٥ .

(٢) دانكوس ، إنهيار الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٥ .

تقريــــــــر :

استهدف هذا الفصل التعريف بالحركات العرقية فى الإتحاد السوفيتى السابق خلال الفترة الممتدة من قيام الثورة البلشفية (عام ١٩١٧) وحتى ماقبل اعتلاء جورباتشوف لسدة الحكم فى الكريملين عام ١٩٨٥ . وقد اقتضى ذلك التعريف بالتكوين العرقى للإتحاد السوفيتى ، والتقسيمات الإدارية التى خطها الزعماء السوفييت استجابة لذلك التكوين . كما عرضنا فى هذا الفصل بشئ من التفصيل للسياسات التى انتهجها هؤلاء الزعماء بغية تسوية المسألة القومية . ومن خلال تتبع الواقع السوفيتى خلال الفترة ١٩١٧ – ١٩٨٤ فيما يتصل بالمسألة القومية خلصنا إلى الملاحظات التالية :

أولا : إن الإتحاد السوفيتى كان وريث إمبراطورية تم بناؤها من خلال التجميع الإجبارى لشعوب متباينة من حيث السلالة واللغة والدين ، فضلا عن أنها لم تكن ترغب فى العيش المشترك . وهكذا فقد ورث الإتحاد السوفيتى الإمبراطورية الروسية بمختلف أقاليمها وجل أعراقها ، فكان دولة ذات تنوع عرقى هائل .

ثانيا : إن هدف الزعماء السوفييت الملح والمحورى والدائم فيما يتصل بالمسألة القومية كان يتمثل فى الوصول بالمجتمع السوفيتى إلى درجة من التكامل تختفى فى ظلها تلك المسألة ، التى طالما قضت مضجعهم ، ومثلت العامل المهدد لكيان دولتهم ، والمهيئ لتفككها واضمحلالها . وعلى ذلك فقد كان صهر الهويات العرقية للجماعات السوفيتية فى بوتقة هوية سوفيتية جامعة هو غاية المنتهى بالنسبة لهؤلاء الزعماء .

ثالثا : إن الزعماء السوفييت قد راحوا – فى سبيل تحقيق هدفهم المتقدم – يحكمون قبضتهم على شتى الجماعات العرقية المشكلة لدولتهم ، ساعين فى ذات الوقت إلى تحطيم أية نزعة عرقية لدى أى من هذه الجماعات . وبغية بلوغ ذلك استند هؤلاء الزعماء إلى ركائز عديدة،

ولجأوا إلى وسائل شتى ، ولعل من أظهر هذه الوسائل وتلك الركائز مايلـــى :

١ - **طبيعة النظام السياسى السوفيتى :** والذى كان يمثـــل نظامـــا شموليا ، ارتكز إلى حزب واحد هو الحزب الشـــيوعى ، ولقـــد راح هذا الحزب يفرض أيديولوجيته الماركســـية علـــى كافـــة أعضاء المجتمع بشتى الوسائل بما فى ذلك الإرهاب والتنكيـل . وقد احتكر هذا الحزب الحياة السياسية ، كما هيمن على مختلف الأجهزة الرسمية للدولة وعلى رأسها المؤسســـات السياســـية ، ومن فوقه طاغية هو " الرجل رقم واحد " الذى قام مـــن فـــوق الحزب - بل ومن فوق المجتمع والدولة جميعـــا - بســـلطات مطلقة ونهائية ، هيأت له تصفية سائر معارضيه . كمـــا كـــان الإعلام فى ظل ذلك النظام موجها بحيث كان شـــاغله الأوحـــد الدعاية للنظام ، والتعتيم على كافة أخطائه ، وكل ذلـــك إلـــى جانب وضع قيود هائلة من جانب النظام على حريـــة الـــرأى ، والتعبير ، والعقيـــدة .

وفوق كل ماتقدم عمد الزعماء الســـوفييت بغيـــة إحكـــام السيطرة على الجماعات العرقية إلى تقليـــص الاختصاصـــات المخولة للجمهوريات السوفيتية إلى أدنى حد ممكـــن (وذلـــك بمقتضى الدساتير التى وضعها هؤلاء الزعمـــاء) ، كمـــا تـــم بمقتضى القانون العســـكرى لعـــام ١٩٣٨ تفكيـــك الوحـــدات العسكرية الخاصة بالجمهوريات ، فلم يعد ثمة سوى جيش واحد متعدد العرقيات هو الجيش السوفيتى ، أملا فى أن يكون هـــذا الجيش بمثابة النواة لخلق شعب سوفيتى واحد . وهكذا فقد مثـــل النظام السوفيتى - بمقوماته المشار إليها - إطارا ضاغطا على الجماعات العرقية لم تستطع إزاءه حراكا .

٢ - **الدعـــوة إلى فكرة الأممية البروليتارية كفكرة بديلة للقومية :**

حيث راح كافة الزعماء والمثقفين السوفييت يروجون فى خطبهم ومؤلفاتهم لفكرة الأممية البروليتارية ، ويدعون إلى نبذ القومية باعتبارها إحدى موروثات البرجوازية البائدة ، كما سخرت شتى وسائل الإعلام السوفيتية من مقروءة ومسموعة ومرئية للترويج لفكرة الأممية البروليتارية ، التى يكون الولاء فى ظلها للطبقة لا للعرق . وقد استهدف السوفييت من وراء ذلك القضاء على أية نزعة قومية أو عرقية لدى أى من الجماعات المشكلة للإتحاد السوفيتى بما يهيئ لإحكام القبضة عليها على نحو ماقدمنا .

٣ - **قمع أية حركة عرقية تستهدف انفصال شعبها عن الإتحاد السوفيتى** : حيث قام السوفييت بسحق استقلال كل من أوكرانيا وأذربيجان وجيورجيا ، وإبادة الحركة الانفصالية البخارية وحركة بسماتشى فى آسيا الوسطى غداة الثورة البلشفية . ولم يكتف السوفييت بذلك وإنما شرعوا - مستخدمين جبروتهم - فى اغتصاب دول بأكملها وضمها إلى دولتهم ، فضلا عن سلخ أجزاء من اقاليم دول أخرى مجاورة ودمجها فى الإتحاد السوفيتى ، وذلك كله إبان الحرب العالمية الثانية . وقد تمثلت الدول التى ضمها السوفييت فى دول البلطيق الثلاث (ليتوانيا - إستونيا - لاتفيا) ، أما الأقاليم التى قاموا بالإستيلاء عليها عنوة وجبرا عن دولها الأصلية فقد تمثلت فى كل من كاريليا الفنلندية، ومولدافيا الرومانية . وفضلا عن التجميع الجبرى للشعوب وإرغامها على الدخول فى الحظيرة السوفيتية ، ولم يسمح السوفييت لأى من حلفائهم فى شرق أوربا بالإنسحاب من حلف وارسو . وعلى سبيل المثال فقد أجبرت الدبابات السوفيتية كلاً من المجر (عام ١٩٥٦) وتشيكوسلوفاكيا (عام ١٩٦٨) على الرضوخ لإرادة السوفييت ، والعودة صاغرتين إلى الدوران فى فلكهم داخل حظيرة حلف وارسو . وهكذا فإن كل ماتقدم يؤكد

على أن السوفييت لم يكونوا ليوافقوا على انفصال أية جمهورية سوفيتية عن الإتحاد السوفيتى ، وبالتالى فإن " حق تقرير المصير " الذى طالما تشدقوا به وحق الانفصال الذى طالما أكدوا التزامهم به وضمنوه سائر دساتيرهم لم يكونا فى الواقع سوى مجرد شعارين أجوفين رفعهما السوفييت بغية تحقيق مكاسب سياسية ، ولم يلتزموها ألبتة قيد أنملة . كما أننا لانكون بعيدين عن كبد الحقيقة إذا ماقلنا أن الإتحاد السوفيتى - فى ضوء ماتقدم - كان يقوم - شأنه فى ذلك شأن الإمبراطورية الروسية التى ورثها - على التجميع الإجبارى للشعوب، وبالتالى فإننا نتفق مع الرأى القائل بأن الإتحاد السوفيتى كان يمثل إمبراطورية فى عصر لايعرف الإمبراطوريات .

٤ - **السعى إلى طمس الهويات العرقية للجماعات المشكلة للإتحاد السوفيتى** من خلال تقويض مقوماتها وعلى رأسها الدين ، وعلى نحو يهيئ لإمكانية إحكام السيطرة عليها ، وصهرها فى بوتقة هوية سوفيتية جامعة تجب ماعداها من هويات ، وتستمد ركيزتها الأساسية من نسق ثقافى سوفيتى موحد هو " الثقافة البروليتارية " بمضمونها المتقدم .

٥ - **سياسة الترويس والتى انطوت على أهداف ثقافية** ، وأخرى تتصل بالكيانات البشرية للجمهوريات ، وثالثة تتصل بسائر المؤسسات الإتحادية للدولة . فأما الترويس الثقافى واللغوى فقد استهدف المساهمة فى طمس الهويات العرقية لجماعات المحيط وتقويض مقومات ذاتياتها ، على نحو يهيئ لصهرها مع الروس فى بوتقة واحدة ، بما يؤدى إلى خلق هوية واحدة ، وللتمكين لذلك لجأ السوفييت - بجانب الترويس الثقافى واللغوى - إلى ترويس الكيان البشرى لجمهوريات المحيط بتوطين تجمعات بشرية روسية داخل أراضى هذه الجمهوريات على نحو ماقدمنا

أما ترويض المؤسسات الإتحادية - وعلى رأسها الجيش والحزب الشيوعى - فقد استهدف الزعماء السوفييت من ورائه إحكام قبضتهم على هذه المؤسسات ، وبالتالى على سائر الجمهوريات بما تنطوى عليه من جماعات عرقية .

٦ - **اقتلاع الجماعات العرقية المتمردة من أراضيها** وتشتيتها فى أرجاء آسيا الوسطى وأصقاع سيبيريا بمنأى عن مواطنها الأصلية ، وهذا حال ماحدث مع الأقليات التى اتهمها ستالين بالخيانة والتعاون مع النازيين إبان الحرب العالمية الثانية ، وهى الأقليات المتمثلة فى الشيشان ، والأنجوش ، والبلقار والكارانشيز ، وتتار القرم ، والكالموك ، وألمان الفولجا .

رابعا : إنه من خلال الوسائل المتقدمة تمكن الزعماء السوفييت بالفعل خلال الفترة (١٩١٧ - ١٩٨٤) من إحكام قبضتهم على سائر الجماعات العرقية الخاضعة لنيرهم ، والمشكلة لدولتهم . كما قاموا بسحق أية حركة عرقية تستهدف انفصال شعبها عن الإتحاد السوفيتى، على نحو ماقدمنا .

خامسا : إن كافة الزعماء السوفييت الذين تعاقبوا على الحكم فى الكريملين بمن فيهم جورباتشوف - ذاته كانوا يؤكدون دوما على أنهم قد نجحوا فى تسوية المسألة القومية ، وأن الصداقة بين سائر الشعوب السوفيتية قد باتت تمثل واقعا ملموسا ، ودليلا قاطعا على عظمة ثورتهم (ثورة أكتوبر) .

ويبقى السؤال الذى سبق أن طرحناه : هل كان الزعماء السوفييت بالفعل قد نجحوا - حقا - فى تسوية المسألة القومية ؟ ... هذا هو ماسنقدم

الإجابة عنه - بإذن الله - فى ثنايا الفصل التالى ...

الفصل الثانى

فى

الحركات العرقية فى الإتحاد السوفيتى
خلال عهد جورباتشوف
(١٩٨٥ - ١٩٩١)

بوفاة الزعيم السوفيتى قسطنطين تشيرنينكو فى ١١ مارس ١٩٨٥ اعتلى ميخائيل جورباتشوف سدة الحكم فى الإتحاد السوفيتى . ولم تكد تمضى على ذلك بضعة شهور حتى بات واضحا أن الإتحاد السوفيتى بصدد تحولات فكرية عظيمة الشأن ، وأن هذه التحولات ستكون لها - لامحالة - آثار بالغة على شتى قطاعات المجتمع السوفيتى . إذ كانت هذه التحولات ثورية على نحو لم تشهد له الدولة السوفيتية مثيلا [١] . فلقد راح جورباتشوف يتبنى سياسة جديدة عرفت بالبريسترويكا (أى إعادة البناء) Perestroika ، والتى تمثل أظهر مقوماتها فى المصارحة أو الجلاسنوست Glansnost . وفى إطار تلك السياسة راح جورباتشوف ينتقد بشدة أسلافه من الزعماء السوفييت وعلى رأسهم ستالين وخروشوف وبريجنيف ، ويلقى عليهم بمسئولية التدهور الذى طال الإقتصاد السوفيتى . كما أعلن إدانته للممارسات التى انتهجها ستالين إزاء معارضيه ، واتهمه بارتكاب أخطاء جسيمة فى هذا الصدد ، وأصدر أوامره بتشكيل لجنة يناط بها إعادة كتابة تاريخ الحقبة الستالينية بغية رد الإعتبار للذين أضيروا من جراء حكم ستالين. وفى ٥ فبراير ١٩٨٨ أصدرت المحكمة السوفيتية حكما ردت بمقتضاه الإعتبار لعشرين من زعماء الثورة البلشفية الذين أعدمهم ستالين من

---

(١) أنظر فى هذا المعنى :

Mc Cauley, Martin (ed.), Gorbachev and Perestroika, Macmillan Press LTD., London, 1990, p. 1.

خلال عمليات التطهير التى قام بها فى أواخر الثلاثينيات [١] .

وبصدد سياسته الجديدة راح جورباتشوف يقول بـأن " البريسترويكا تعنى مبادرة الجماهير ، إنها التطوير الشامل للديمقراطية والحكم الذاتى الإشتراكى ، وتشجيع المبادرة ، والمسعى الخلاق ، ومزيد من المصارحة والنقد والنقد الذاتى فى كافة مجالات مجتمعنا ، إنها تعنى أقصى احترام للفرد، ومراعاة للكرامة الشخصية " ، وأضاف : " وأود أن أوضح أنه برغم أننا نحن السوفييت مع الإشتراكية إلا أننا لانفرض آراءنا على أى فرد ، فليقرر كل إمرئ خياره ، فسوف يضع التاريخ كل شئ فى موضعه " [٢] .

كما راح جورباتشوف يرفض سياسة التعتيم الإعلامى التى طالما ارتكز إليها أسلافه من الزعماء السوفييت ، والتى كانت تقوم على استخدام شعارات مضللة استهدفت دوما تمجيد النظام السوفيتى بشتى السبل ، فى الوقت الذى كان يتم فيه التستر على أخطاء النظام مهما كانت جسامتها . ويقول جورباتشوف فى ذلك : " لقد كان هناك انفصال بين القول والعمل ، على نحو جعل الناس لايصدقون الشعارات التى كانت تعلن ، وأصبح كل مايعلن من فوق المنابر ويطبع فى الصحف والكتب مثار شك وتساؤل " [٣] .

وهكذا فقد أبى جورباتشوف عن انتهاج المصارحة بديلا ، فراح يعلن الواقع المرير الذى يشهده المجتمع السوفيتى فى شتى قطاعاته الإقتصادية والسياسية وغيرها .

فعلى الصعيد الإقتصادى هاهو جورباتشوف يعترف – على عكس

---

(١) راجع فى هذا المضمون : شهريات مجلة السياسة الدولية ، العدد (٩٢) ، أبريل ١٩٨٨ ، ص ٣١٤ .

(٢) راجع فى هذا الصدد : ميخائيل جورباتشوف ، البريسترويكا : تفكير جديد لبلادنا وللعالم ، ترجمة : حمدى عبدالجواد ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، يناير ١٩٩٠ ، ص ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٨ ، ١٩ .

ماكان يفعل أسلافه - بأن ثمة معضلات جمة يجابهها الإتحاد السوفيتى فى هذا الصدد ، فيقول : " منذ النصف الأخير من السبعينيات بدأت بلادنا تعانى إخفاقا اقتصاديا ، إذ بدأت تظهر فى مجتمعنا عناصر الركود ، كما تدهورت معدلات نمو الدخل القومى لأكثر من النصف . وبحلول بداية الثمانينيات انخفضت هذه المعدلات إلى مستوى قريب من الركود الإقتصادى ، وبدأت تتسع الفجوة بيننا وبين البلدان الأخرى فى غير صالحنا ، سواء فيما يتصل بكفاءة الإنتاج ، أو جودة المنتجات ، أو التطور العلمى والتكنولوجى " (١) .

وقد حمل جورباتشوف بريجنيف مسئولية التدهور الذى يعانى منه الإقتصاد السوفيتى ، وأضاف أن العهد البريجنيفى كان يتسم بالبيروقراطية والجمود . وعلى إثر ذلك قرر مجلس السوفييت الأعلى - وكذا اللجنة المركزية للحزب الشيوعى - رفع إسم بريجنيف من كافة الشوارع والميادين والمنشآت السوفيتية ، وإسقاط اعتباره (٢) .

كما راح جورباتشوف فى إطار عملية إعادة البناء (البريسترويكا) يعلن تبنيه لبرنامج اقتصادى طموح يستهدف تخليص الإقتصاد السوفيتى من أغلال المركزية والتوجيه ، والانطلاق به إلى معارج التقدم فى رحاب قوى السوق (٣) .

أما على صعيد الحريات العامة- وفى إطار البريسترويكا والجلاسنوست- فقد راح جورباتشوف شيئا فشيئا يزيل القيود التى كان أسلافه قد كبلوا بها هذه الحريات، وعلى رأسها حرية الرأى والتعبير والعقيدة، حيث قام جورباتشوف فى هذا الصدد بالإفراج عن عشرات

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٢) مجلة السياسة الدولية ، شهريات العدد (٩٢) ، أبريل ١٩٨٨ ، ص ٣١١ .

(٣) أنظر فى هذا المضمون :

Urwin, Derek W., Western Europe Since 1945, Longman, London, Fourth Edition, 1989, p. 351.

المنشقين ممن كان أسلافه قد زجوا بهم فى غياهب المتعقلات لا لشئ إلا لأن أنفسهم سولت لهم معارضة من يقبعون فى الكريملين.

كما بدأ جورباتشوف فى تخفيف القيود المفروضة على حرية العبادة على نحو هيأ لزيادة أعداد غير الملحدين بصورة غير مسبوقة فى الإتحاد السوفيتي، وذلك إلي حد أن صحيفة البرافدا الناطقة بلسان الحزب الشيوعي راحت تحذر من تزايد عدد المتدينين، وتطالب فى ١٧ يناير عام ١٩٨٧ بإعادة تخطيط الدعاية الملحدة [١]

وهكذا يتضح – فى ضوء ما تقدم– أن المناخ السياسي فى الإتحاد السوفيتي خلال عهد جورباتشوف كان مغايرا تماما للمناخ السياسي فى عهود أسلافه، ذلك بأن العهد الجورباتشوفي قد شهد مناخا ليبراليا إلى حد يعتد به. غير أنه مما تتعين الإشارة إليه أن جورباتشوف عندما انتقد سياسات أسلافه فإنه هذا الانتقاد لم يطل سياساتهم المتصلة بالمسألة القومية، ذلك بأنه هو نفسه كان يرفض أية نزعة عرقية لدى أى من الجماعات المشكلة للإتحاد السوفيتي. ففى خطابه أمام المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي – فى ٢٥ فبراير عام ١٩٨٦ – راح جورباتشوف يقول : "إن كافة الثقافات يتعين احترامها ، غير أن ذلك لا ينبغي أن ينسينا ضرورة تقاربها وتكاملها تحت راية الأيديولوجية المشتركة، ونمط الحياة الإشتراكية، والتصور الإشتراكي للعالم. فليس ثمة مجال لقومية ضيقة بل انتماءات قومية فى إطار إشتراكية موحدة تعطي للمجتمع الشامل تلاحمه، أما القومية الضيقة والنزعة التحتية فهما مرفوضتان" [٢]. كما راح جورباتشوف ينتقد ما يحدث فى جمهوريات المحيط مما أسماه بالمحسوبية القومية فيما يتعلق بتوزيع المناصب المرموقة، حيث يتم تفضيل أى مواطن من أبناء الجماعة العرقية المسيطرة فى الجمهورية على أى مواطن سوفيتي آخر كفء، الأمر الذى من شأنه أن

---

(١) مجلة السياسة الدولية، شهريات العدد (٨٨) ، يناير ١٩٨٧ ، ص ٢٩٩.

(٢) أنظر فى هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية ......، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠.

يخلق نوعا من التمييز ضد أولئك الذين لا ينتمون إلى تلك الجماعات المسيطرة، وهذا ما يؤدي بالتالي- على حد قول جورباتشوف- إلى الإساءة للمصلحة العامة، وإعاقة تطور العلاقات بين الأعراق(١).

وفى كتابه البريسترويكا أكد جورباتشوف وجهة نظره هذه، وأشار إلى أن الأممية البروليتارية كفيلة بالقضاء على أية نزعة عرقية . حيث قال: سنظل ملتزمين بحزم بمبادئنا ، يتعين احترام المشاعر القومية للناس، وعدم تجاهلها. بيد أن المزايدة عليها تعنى انعدام المسئولية السياسية إن لم تكن تمثل جريمة، ومن تقاليد حزبنا أن يقاوم أية مظاهر لضيق الأفق القومي، والشوفينية، والطائفية، والصهيونية، ومعاداة السامية فى أى شكل يجري من خلاله التعبير عنها ، وسنبقي ملتزمين بهذا التقليد. إن خبرتنا تؤكد أن أى موقف قومي يمكن مواجهته بفاعلية من خلال الأممية الراسخة، والتربية التى تتم على هدى منها" (٢) . وفضلا عما تقدم فقد صدرت عن اجتماع اللجنة المركزية الموسعة للحزب الشيوعي فى ٢٨ يناير ١٩٨٧ بضعة قرارات ملزمة، كانت بمثابة ميثاق جديد لأسس العمل العام فى البلاد. وقد كان من بين هذه القرارات: تطوير العلاقات بين القوميات والضرب على أية محاولات لمظاهر الشوفينية، أو التعصب القومي، أو الصهيونية، أو معاداة السامية ، أو الغرور القومي(٣) .

من جانب آخر فإن جورباتشوف لم يكن يرفض الترويس اللغوى للجماعات العرقية غير الروسية، حيث كان يرى أن لذلك ما يبرره. حيث يقول : " فى بلدنا الفسيح المتعدد الأجناس لا يمكننا أن نستغني عن وسيلة مشتركة للاتصال ، وبالطبع أصبحت اللغة الروسية تقوم بإنجاز هذا الدور،

---

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) جورباتشوف ، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٣.

(٣) نازلى معوض أحمد، إصلاحات جورباتشوف الداخلية والتغير فى السياسة الخارجية، مجلة السياسة الدولية، العدد (٨٩) ، يوليو ١٩٨٧، ص ٧٥ ، ٧٦ .

وقد حدد التاريخ نفسه أن تتم عملية الإتصال بين الأمم علــى أســاس لغــة أكبرها" [(١)].

وهكذا فقد كان جورباتشوف -شأنه فى ذلك شأن سائر أسلافه- يرفض أية نزعة عرقية لدى أى من الجماعات المشكلة للكيان السوفيتي، كما كــان يؤمن -حاله فى ذلك حالهم- بأن الأممية البروليتارية والتنشئة التى تتم علــى هدى منها تشكلان مصلا واقيا للمجتمع السوفيتي فى مواجهــة أيــة نزعــة عرقية تحاول أن تطل برأسها فى إطاره.

وفضلا عما تقدم فقد كان جورباتشوف يؤكد دوما - كما كــان ســائر أسلافه يؤكدون- أن المسألة القومية فى الإتحاد السوفيتي قد سويت، بل وكان يري أن الإنجازات التى تحققت بصدد هذه المسألة تمثل بالنسبة له عنصــر الارتياح الرئيسي، ونقطة الارتكاز في الوصول إلى المستقبل[(٢)]. حيث كــان يقول بأن "الشعب السوفيتي يمثل جماعة اجتماعية شاملة للقوميات من طراز جديد " ، و" أن ضروب الاضطهاد والتمييز قد أزيلت، وأبدلت بالصداقة بيـن الشعوب، واحترام الثقافات القومية، والكرامة القوميــة للجميــع" [(٣)] ، و" أن الثورة الإشتراكية قد قضت على القهر القومي وانعدام المساواة ، وضمنــت التقدم الإقتصادي والفكري والثقافي لكافة الأمم والقوميات"[(٤)].

ويضيف جورباتشوف: " إنه ما كان لدولتنــا أن تبقــي إن لــم تكــن الجمهوريات تشكل بالفعل أسرة تقوم على الأخــوة والتعــاون والاحــترام والمساعدة المتبادلة" ، وأنه : " على الرغم من إنتشار النزعات القومية حتــى فى أكثــر بلدان العالم تقدما، فإن الإتحــاد السوفيتي يقدم مثالا فريدا حقا فى

---

(١) جورباتشوف، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٢.
(٢) دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ، مرجع سبق ذكره، ص ٢١
(٣) المرجع السابق، ص ١٩.
(٤) جورباتشوف، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٩.

تاريخ البشرية، وتلك هى ثمرات السياسة القومية التى وضعها لينين" [1].

وهكذا يتضح فى ثنايا ماتقدم أن جورباتشوف كان يؤكد دائما علـى أن المسألة القومية قد سويت، وأن النزعات العرقية قد باتت من ودائع التـاريخ، وأن على السوفييت أن يفخروا بمجتمعهم الذى أسس بنيانه علـى الصداقـة والتعاون، بحيث صار يشكل نموذجا يتعين على سائر المجتمعات أن تحاكيـه إن هى كانت تريد الاستقرار والتكامل.

ومهما يكن الأمر فإن المناخ الليبرالي الذى أفرزتـه البريسـترويكا والجلاسنوست والذى أضفي الشرعية على معارضة النظام سرعان ما كشف النقاب عن أن المسألة القومية لم تختف[2]. ففى ظل ذلك المناخ بدأت تطفـو على سطح الحياة السياسية فى الجمهوريات السوفيتية تجمعـات بشـرية ذات أهداف تتصل بالحفاظ على التراث،وسرعان ما أخذ عدد هذه التجمعات فـى التزايد . وأطلق عليها " المجموعات غير الرسمية" . وقد كان جورباتشـوف يري أن وجود مثل هذه المجموعات ضروري لدعم سياسـاته الإصلاحيـة، لكنها فى نفس الوقت لابد وأن توضع تحت رقابة السلطة المركزية، وبالتالي فقد تم وضعها تحت سلطة جبهات شعبية أكبر حجما، وهى الجبـهات التـى كانت – فى البداية- مجرد فروع للحزب، غير أنها سـرعان مـا حطمـت أغلاله التى فى أعناقها، وتحولت إلى أحزاب حقيقية ، لم يمض وقت طويـل حتى كانت قد اكتسبت شرعية راسخة استمدتها مما حصلت عليه من تـأييد شعبي عارم، كل من جانب الجماعة العرقية التى يمثلها [3].

وشيئا فشيئا بدأت الجهات الشعبية تكشف عن أهدافها الحقيقية، حيـث سرعان مابات واضحا أن هذه الجبهات لم تكن مجرد قـوى سياسـية ذات

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٠ ، ١٤١.

(٢) جارو ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٠.

(٣) أنظر فى هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية.. مرجع سبق ذكره، ص ١٧٤،١٧٥.

أهداف محدودة شأن سائر القوي التى تنطوي عليها الحياة السياسية فى كثير من بلدان العالم ، ذلك بأن أهداف الجبهات الشعبية التى انتشرت فى كافة جمهوريات الإتحاد السوفيتي كانت ذات طابع عرقي. حيث تمحورت تلك الأهداف فى البداية حول تحقيق بعض المطالب المحدودة لجمهوريات المحيط، حال الحصول على قدر أكبر من الاستقلالية فى إطار الإتحاد السوفيتي ، أو إعطاء مزيد من الاهتمام للغات الجماعات العرقية ذات الكم البشري الأكبر فى كل من هذه الجمهوريات.

وهكذا بدأت النزعات العرقية تطل برأسها داخل الكيان السوفيتي، ولكى يبدو جليا أن المسألة القومية لم تكن بعد قد حلت كما كان يدعي سائر الزعماء السوفييت. وسرعان ما تعاظمت هذه النزعات العرقية التى جسدتها الجبهات الشعبية، تلك الجبهات التى لم تلبث أن تحولت إلى حركات عرقية راحت تجعل من إستقلال شعوبها عن الإتحاد السوفيتي هدفا لها، متوسلة إلى ذلك بشتى الوسائل، من مشروعة وغير مشروعة. وراحت نيران العرقية التى أشعلتها تلك الحركات تضطرم وتستشري فى شتى أرجاء الجسد السوفيتي.

والحق أن ظهور الحركات العرقية وتعاظم شأنها خلال عهد جورباتشوف إنما كان مرده إلى ما هيأته الجلاسنوست من مناخ اتسم بالحرية إلى حد كبير، وعلى نحو هيأ لبعث النزعات العرقية من مرقدها. ففى ظل الجلاسنوست وجدت الجماعات العرقية نفسها وقد واتتها الفرصة كى تعبر عن مضمر نزعاتها، بعد قرون عديدة أحكمت القبضة خلالها على تلك الجماعات من لدن حكام جبابرة، حكموها بالحديد والنار، وكبلوها بأغلال القهر والاستبداد، وأذاقوها كافة صنوف الإرهاب والتنكيل. فما أن خفت القبضة عليها- فى رحاب البريسترويكا- حتى راحت تدق طبول الحرب، طلبا للاستقلال ، والتخلص من ربقة الإتحاد السوفيتي.

ومهما يكن الأمر فإننا سنعرض فيما يلي لأظهر الحركات العرقية التى

ظهرت فى الإتحاد السوفيتي السابق، وذلك من خلال ستة مبـــاحث متتابعـــة على النحو الآتي :

المبحث الأول : الحركات العرقية فى جمهوريات البلطيق.

المبحث الثاني : **الحركات العرقية فى آسيا الوسطى .**

المبحث الثالث : الحركات العرقية فى منطقة ما وراء القوقاز.

المبحث الرابع : الحركتان العرقيتان فى أوكرانيا وبيلوروسيا.

المبحث الخامس: حركتا مولدوفا والشيشان .

المبحث السادس: تفكك الإتحاد السوفيتي وآثاره الدولية.

* * * * *

المبحث الأول

فى الحركات العرقية فى جمهوريات البلطيق

تتمثل جمهوريات البلطيق- كما سبق أن أشرنا- فى ثلاث جمهوريات هى ليتوانيا، وإستونيا، ولاتفيا. وقد كانت هذه الجمهوريات حتى قيام الثورة البلشفية تشكل جزءاً من الإمبراطورية الروسية القيصرية، غير أنه فى عام ١٩١٨- وبغية الانسحاب من الحرب العالمية الأولى التى كانت مشتغلة الأوار آنذاك- راح البلاشفة يوقعون إتفاقية هدنة مع الألمان، تنازلت بمقتضاها روسيا عن جمهوريات البلطيق. وقد تم التوقيع على هذه الإتفاقية والتى عرفت بإتفاقية برست- ليتوفسك- Brest Litovesk فى ٣ مارس ١٩١٨ ، بين روسيا البلشفية من جهة، وقوى الوسط المتمثلة فى ألمانيا والنمسا وبلغاريا وتركيا من جهة أخرى[١].

وقد ظلت جمهوريات البلطيق تحت سيطرة الألمان لفترة وجيزة إنتهت بإنتهاء الحرب العالمية الأولى، وتوقيع اتفاقيات الصلح فى فرساى عام ١٩١٩. وهى الإتفاقيات التى حصلت فى أعقابها الجمهوريات البلطيقية على استقلالها، حيث دام هذا الاستقلال حتى نهاية عقد الثلاثينات. غير أنه فى ٢٣ أغسطس عام ١٩٣٩ وقع الإتحاد السوفيتي اتفاق عدم اعتداء مع ألمانيا النازية عرف بميثاق مولوتوف- ريبنتروب Molotov- Ribbentrop Pact، وبمقتضى أحد الملاحق السرية التى ضمها هذا الميثاق سمح هتلر لستالين بضم جمهوريات البلطيق الثلاث إلى الإتحاد السوفيتي[٢]، وعلى ذلك فسرعان ما اقتحمت جحافل الجيش الأحمر أقاليم تلك الجمهوريات، وضمتها عنوة إلى الأراضي السوفيتية، لكى تصبح بذلك جمهوريات اتحادية سوفيتية

---

(١) راجع فى هذا الصدد: بيير، ونوفان، تاريخ العلاقات الدولية: أزمات القرن العشرين(١٩١٤-١٩٤٥)، ترجمة : جلال يحيي، دار المعارف، الإسكندرية ، ١٩٧٩ ، ص ١٨٩.

(٢) Smith . Graham , Op. Cit., P. 39.

إلى الأراضي السوفيتية، لكى تصبح بذلك جمهوريات اتحادية سوفيتية رغماً عن أنف شعوبها .

وقد انتهج الزعماء السوفييت إزاء جمهوريات البلطيق- شأنها في ذلك شأن سائر الجمهوريات- سياسات عديدة استهدفت طمس هوياتها العرقية وترويسها. غير أن سنوات النصف الثاني من عقد الثمانينات جاءت لتؤكد فشل تلك السياسات فى بلوغ الغايات المتوخاة من وراء انتهاجها. حيث ظلت الجماعات العرقية الثلاث (الأستونيون والليتوانيون واللاتفيون) محتفظة بمقومات ذاتياتها، وعناصر هوياتها، وما أن تخلصت من نير الإرهاب والكبت بمجئ جورباتشوف إلى الكريملين حتى اشرأبت أعناقها نحو استعادة استقلالها، الذى كان ستالين قد محاه. وسرعان ما ظهرت الحركات العرقية الانفصالية داخل جمهوريات البلطيق متمثلة فى الجبهات الشعبية، حيث كانت هذه الجمهوريات هى مهد تلك الجبهات التى ما برحت أن انتشرت نظيرات لها فى سائر جمهوريات المحيط الأخرى على النحو الذى سنعرض له لاحقاً.

وعلى أية حال فإنه يتعين علينا- قبل أن نعرض للحركات العرقية فى جمهوريات البلطيق - أن نعرف بالتكوين العرقي لهذه الجمهوريات.

١- تعريف بجمهورية ليتوانيا وتكوينها العرقي :

تبلغ مساحة جمهورية ليتوانيا حوالى ٦٥٢٠٠ كيلو متر مربع، وتتمثل عاصمتها فى مدينة فيلنيوس Vilnius ، وقد بلغ عدد سكانها- حسب إحصاء عام ١٩٨٩- ما يقرب من ثلاثة ملايين وتسعمائة وتسعين ألف نسمة. ويدين اللتوانيون بالديانة المسيحية ويعتنقون المذهب الكاثوليكي[1]. وتتعين الإشارة إلى أن الليتوانيين كانوا- خلال فترة استقلالهم الوجيزة - قد أقاموا نظاماً ليبرالياً كان أقرب ما يكون إلى النظام الألماني فى عهد جمهورية فيمار، وبالتالي فقد كانت لهم تجاربهم فيما يتصل بالممارسات

(١) Ibid.

الديمقراطية وعلى رأسها الانتخابات الحرة[1] .

وتضم ليتوانيا خمس جماعات عرقية رئيسية هى : الليتوانيون (جماعة الأغلبية) ، ثم الروس ، فالبولنديون، فالبيلوروسيون، فـالأكرانيون . ويقـدم الجدول التالي بياناً بتعداد كل من هذه الجماعات:

الجماعة العرقيـــة	تعدادها (نسمة)
الليتوانيون	٢٩٢٤٠٠٠
الروس	٣٤٤٠٠٠
البولنديون	٢٥٨٠٠٠
البيلوروس	٦٣٠٠٠
الأوكرانيون	٤٥٠٠٠

جدول رقم (٨)

المصدر : جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٩

وتتعين الإشارة إلى أن ليتوانيا تضم جماعـات عرقيـة أخـرى لـم يتضمنها الجدول السابق، حيث أنها أقليات ذات أعداد ضئيلة.

ويتضـح فى ثنايا الجدول السابـق أن الليتوانيين يشـكلون حوالـى ٨٠% من سكان جمهوريتهـم ، وبالتالي فهم يمثلون كبرى الجماعـات العرقية فى ليتوانيـا ، ويتحدث الليتوانيون لغـة غير سلافية، ويستخدمون

(١) Vardys, V. Stanley, Lithunian National Politics, in : Denber, OP. Cit., P. 443.

الأبجدية اللاتينية فى الكتابـــة [١].

٢-تعريف بجمهورية إستونيا وتكوينها العرقي:

تبلغ مساحة جمهورية إستونيا ما يقرب من ٤٥١٠٠ كيلو متر مربـــع، وتتمثل عاصمتها فى مدينة تالين[٢] أو كما ينطقها البعض طـــالين Tallinn. وقد بلغ عدد سكان إستونيا- حسب تعـــداد عـــام ١٩٨٩- حوالـــى مليـــون وخمسمائة وست وستين ألف نسمة، ينتمون إلى العديد من الجماعات العرقية أظهرها الإستونيون، والروس، والأوكرانيون، والبيلوروس، ويقدم الجـــدول التالي تعريفاً بتعداد كل من هذه الجماعات العرقية حســـب إحصـــاء عـــام ١٩٨٩:

الجماعة العرقيـــة	تعدادها (نسمة)
الإستونيون	٩٦٣٠٠٠
الروس	٤٧٥٠٠٠
الأوكرانيون	٤٨٠٠٠
البيلوروس	٢٨٠٠٠

جدول رقم (٩)

المصدر: جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٠

ويتضح فى ثنايا الجدول السابق أن الأســـتونيين يشـــكلون الجماعـــة العرقية ذات الكم البشري الأكبر فى إستونيا، إذ يشكلون حوالى ٦١,٥% من

(١) Vardys., Lithunians , in : Smith , Graham , Op. Cit., P. 72.

(٢) إبراهيم عرفات، بيانات وحقائق عن الإتحاد السوفيتي، مجلة السياسة الدولية، العـــدد (٩٤) ، أكتوبر ١٩٨٨ ، ص ١٧٠.

عدد سكانها. ويذكر المؤرخون أن الإستونيين استقروا فى الإقليم المسمى بإستونيا منذ ما يقرب من خمسين قرنا من الزمان وأنهم خضعوا خلال تلك الحقبة للاحتلال الأجنبي لفترة تجاوز السبعمائة عام ، ونظرا لعددهم الضئيل فقد ظل شبح التلاشي يتهدد هويتهم، غير أنهم ظلوا متمسكين بمقومات ذاتيتهم العرقية ، وقاوموا شتى محاولات الاستيعاب التى تعرضوا لها طيلة تاريخهم من جانب الألمان، والسويديين، والبولنديين، وأخيرا الروس(١).

ويتكلم الإستونيون لغة تنتمي إلى مجموعة اللغات الفنلندية المجرية Finno - Ugric Language Group ، التى تضم العديد من اللغات المعاصرة حال اللغة الفنلندية واللغة المجرية، أما العقيدة الدينية للإستونيين فتتمثل فى المسيحية اللوثرية(٢).

وتجدر الإشارة إلى أن الإستونيين كانت لديهم تجربة ديمقراطية حقة شهدتها دولتهم إبان فترة استقلالها الوجيزة، والتى دامت خلال حقبة ما بين الحربين العالميتين ، فخلال تلك الفترة أقام الإستونيون نظاما ليبراليا على غرار النظم الليبرالية الغربية الراسخة، حيث كان هذا النظام يأخذ ببعض سمات النظام السويسري، فضلا عن بعض ملامح كل من النظام الألماني (فى عهد جمهورية فيمار)، والنظام الفرنسي، والنظام الأمريكي(٣). وعلى ذلك فعندما أجبر الإستونيون على الخضوع للنظام السوفيتي الشمولي كانت تجاربهم الديمقراطية لما تزل راسخة فى نفوسهم.

٣-تعريف بجمهورية لاتفيا وتكوينها العرقي:

تبلغ مساحة جمهورية لاتفيا ٦٣٧٠٠ كيلو متر مربع، وتتمثل

---

(١) راجع فى هذا الصدد :

Kionka, Riina, Estonians, in : Smith Graham, Op. Cit. P. 40.

(٢) Ibid, P.P. 49-40.

(٣) Ibid, P.43.

عاصمتها فى مدينة ريجا Riga [1]. وقد بلغ عدد سكان لاتفيا- حسب إحصاء عام ١٩٨٩- حوالي ٢٦٦٦٥٨٧ نسمة، ينتمون إلى عديد من الجماعات العرقية أظهرها اللاتفيون، والروس، والبيلوروس، والأوكرانيون، والبولنديون، والليتوانيون[2].

وفيما يلى نقدم جدولا ينطوى على تعداد كل من هذه الجماعات:

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
اللاتفيون	١٣٨٧٦٤٦
الروس	٩٠٥٥١٥
البيلوروس	١٢٠٠٠٠
الأوكرانيون	٩٢٠٠٠
البولنديون	٦٠٠٠٠
الليتوانيون	٣٤٠٠٠

جدول رقم (١٠)

المصدر: جار ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٩

و: دانكوس: نهاية الإمبراطورية..... ، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٠.

ويتضح من خلال الجدول السابق أن اللاتفيين يشكلون الجماعة العرقية ذات الكم البشري الأكبر فى جمهوريتهم، وإن كان تفوقهم العددى على ما

(١) إبراهيم عرفات، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠.

(٢) دانكوس، نهاية الإمبراطورية....، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٠.

عداهم من الجماعات غير كبير، حيث يمثلون ما يربو بقليل على ٥٢% من تعداد سكان لاتفيا. وذلك على الرغم من أنهم فى عام ١٩٣٥ (أى قبل الغزو السوفيتي لأراضيهم ببضع سنين) كانوا يمثلون ٧٥,٥% من سكان دولتهم، فى حين بلغت نسبتهم إلى جملة السكان فى عام ١٩٥٩ حوالى ٦٢%[١]. ويرتد هذا الانحدار فى نسبة عدد اللاتفيين إلى جملة سكان لاتفيا إلى عاملين: يتمثل أولهما فى ما قام به الزعماء السوفييت من تهجير للروس وتوطينهم فى جمهوريات المحيط ومن بينها- بطبيعة الحال- لاتفيا، لا سيما وأن الروس المهجرين كانوا يفضلون التوجه إلى جمهوريات البلطيق على نحو ما سبق أن أشرنا. ومن جانب آخر فإن زعماء الكريملين كانوا قد أجبروا أعدادا لا يستهان بها من الليتوانيين والإستونيين واللاتفيين على الرحيل من مواطنهم الأصلية، وقاموا بتشتيتهم فى منطقتي آسيا الوسطي وسيبيريا ، متهمين إياهم بالتعاون مع النازيين إبان الحرب العالمية الثانية[٢] أما العامل الثاني الذى أدى إلى تناقص نسبة اللاتفيين فى جمهوريتهم فيتمثل فى انخفاض معدل النمو السكاني بينهم[٣].

وتتعين الإشارة إلى أن اللاتفيين يدينون بالمسيحية، وإن كانوا يختلفون فيما بينهم بصدد المذهب، إذ يعتنق بعضهم المذهب الكاثوليكي، فى حين يعتنق البعض الآخر المذهب اللوثري[٤]. أما فيما يتصل باللغة فإن اللاتفيين يتكلمون لغة خاصة بهم تعرف باللغة اللاتفية. وقد ظل اللاتفيون طيلة حقبة خضوعهم للإتحاد السوفيتي عاضين بالنواجذ على مقومات هويتهم العرقية، والمتمثلة فى وحدة الأصل واللغة والدين، حيث قاوموا بشدة سياسة الترويس التى انتهجت إزاءهم ، شأنهم فى ذلك شأن سائر الجماعات العرقية المشكلة

---

(١) Smith . Graham, Latvians, in : Smith Graham (ed.), Op. Cit., P.P. 56-61.

(٢) أنظر فى هذا الصدد : جار ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٠

(٣) Smith, Graham. Latvians, Op. Cit., P. 61.

(٤) Smith, Graham(ed)., Op. Cit., P.39.

للكيان السوفيتي(١).

ومن ناحية أخرى فإنه مما تجدر الإشارة إليه أن النزعة العرقية لدى اللاتفيين ظلت متأججة لسنوات طويلة أعقبت احتلال السوفييت لأراضيهم، وعلى سبيل المثال فقد شهد عقد الخمسينيات وجود حركة عرقية لاتفية يعتد بقوتها، راحت تقاوم السلطات السوفيتية متوسلة إلى ذلك باستخدام أسلوب حرب العصابات(٢).

وعلى أية حال فإن الزعماء السوفييت - أسلاف جورباتشوف - قد نجحوا فى إخماد أية حركة عرقية ظهرت فى أى من الجمهوريات الخاضعة لنيرهم، بما فى ذلك جمهوريات البلطيق بطبيعة الحال، وبالتالي فقد تمكنوا - على نحو ما سبق أن أشرنا - من إحكام قبضتهم على تلك الجمهوريات قاطبة. غير أن شعوب المحيط ما أن حصلت على بعض الحرية- فى عهد جورباتشُوف- حتى اشرأبت أعناقها إلى الاستقلال والتخلص من ربقة السوفييت. وهكذا فقد ظهرت الحركات العرقية فى سائر الجمهوريات مجسدة فيما يعرف بالجبهات الشعبية، تلك الجبهات التى كانت جمهوريات البلطيق- ولا سيما ليتوانيا- مهدا لها. وفيما يلى نعرض بشئ من التفصيل للحركات العرقية فى جمهوريات البلطيق إبان عهد جورباتشوف.

الحركات العرقية فى جمهوريات البلطيق وآثارها على الكيان السوفيتي:

تعد الجبهة الشعبية الليتوانية (سايوديس) Lithuanian Popular Front (Sajudis) هى أولى الجبهات الشعبية التى ظهرت فى جمهوريات الإتحاد السوفيتي قاطبة. حيث تأسست هذه الجبهة فى ٣ يونيو عام ١٩٨٨، وفى وقت كانت فيه جمهوريات البلطيق تحتفل بالذكرى السابعة والأربعين

---

(١) أنظر فى هذا المضمون:

Smith , Graham, Op. Cit., P. 61.

(٢) Ibid., P. 57.

لعمليات الاقتلاع التى مارسها ستالين فى مواجهة الآلاف من البلطيقيين غداة استيلائه على تلك الجمهوريات. وقد تمثل هذا الاحتفال فى العديد من المظاهرات الحاشدة التى اندلعت فى عواصم الجمهوريات الثلاث، فى ظل مناخ سياسي مفعم بالغليان الشعبي(١). وقد تأسست سايوديس على يد كوكبة من المثقفين والأكاديميين الليتوانيين، تميزوا بالخبرة السياسة الواسعة، والقدرة الحركية العالية(٢).

وفى ٢٤ يونيو- أى فى أعقاب تأسيسها بأسابيع ثلاثة- نظمت سايوديس فى العاصمة الليتوانية فيلنيوس مظاهرة ضخمة ، استهدفت من ورائها الإعلان عن برنامجها ، الذى راح واضعوه يؤكدون فى ثناياه على أنهم مع البيريسترويكا ولكن فى ظل استقلال أكبر لليتوانيا. وأضافوا أنه لا مجال للحديث عن تقدم ليتوانيا إلا فى إطار الأمة الليتوانية ، إذ فى هذه الحالة فقط يمكن استنفار طاقات الليتوانيين من أجل البريسترويكا(٣).

ولم تكد تمضى على تأسيس ساديوس أربعة شهور حتى كان الإستونيون قد شرعوا فى تأسيس جبهتهم الشعبية ، ففى أول أكتوبر ١٩٨٨ تأسست فى طالين الجبهة الشعبية الإستونية، وذلك من خلال اجتماع هام ضم عدة جمعيات وتنظيمات غير رسمية، توافد مندوبوها من سائر الجمهوريات السوفيتية بغية حضور المؤتمر التأسيسي للجبهة. وفى أعقاب ذلك ببضعة أيام- وفى ٨ أكتوبر عام ١٩٨٨- أعلن فى العاصمة اللاتفية ريجا عن تأسيس الجبهة الشعبية فى لاتفيا، وذلك بحضور ما يربو على الألف مندوب وفدوا إلى لاتفيا من كافة أرجاء الإتحاد السوفيتي. وقد ضمت هذه الجبهة فى عضويتها أنصار البيئة، وشتى الجمعيات الثقافية، فضلا عن

---

(١) أنظر فى هذا الصدد : دانكوس ، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص١٧٦، ١٧٧.

(٢) Vardys, Lithuanian National Polticis, Op. Cit., P. 446.

(٣) دانكوس، نهاية الإمبراطورية.... ، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٧.

جمعية تدافع عن حرية العبادة تعرف بجمعية النهضة والتجديد، إلى جانب العديد من الشخصيات غير المنتمية إلى أية جمعيات[1].

وقد تمحورت أهداف الجبهات الشعبية البلطيقية – فى البداية – حول بضعة أمور تتصل بمناداة كل منها بتحقيق نوع من الاستقلال الإقتصادي لجمهوريتها، يمكنها من خلاله التصرف بحرية فى مواردها الذاتية، كما طالبت كل من هذه الجبهات بالعودة إلى نظام الملكية الخاصة، والتعامل بنقد جمهوريتها، واستخدام جوازات سفر صادرة عنها، وفرض قوانين جمركية خاصة بها تمكنها من السيطرة على حدودها، والرقابة على الهجرة وتقييدها (والمقصود بذلك هجرة الروس) ، وأن تكون الخدمة العسكرية فى فرق تابعة للجمهورية، وحق العمل السياسي المستقل، وتحرير الأكاديميات العلمية فى الجمهوريات من وصاية أكاديمية العلوم فى موسكو، وتحرير المنظمات الإجتماعية المختلفة من وصاية السلطة المركزية[2].

وقد أدرك المسئولون عن الجبهات الثلاث أن نجاح برامجهم مرهون بوصول هذه البرامج إلى الجماهير، وبالتالى فقد راحوا يناضلون من أجل الوصول إلى وسائل الإعلام المختلفة من مرئية إلى مسموعة إلى مقروءة ، حيث تمكنوا من تحقيق نجاحات لا يستهان بها فى هذا الصدد ، إذ نجد أن سايوديس قد تمكنت من تأسيس عشرات الصحف التى تطبع باللغتين الليتوانية والروسية، كما كان لسايوديس برنامج تلفزيوني أطلقت عليه إسم " أمواج النهضة" ، فى حين تمكنت الجبهة الإستونية من تقديم برامجها عبر التليفزيون. أما فى لاتفيا فبرغم القيود التى فرضت على الجبهة اللاتفية إلا

---

(١) المرجع السابق، ص ١٧٧ ، ١٧٨.

(٢) أنظر فى هذا الصدد :

White . Stephen, Gorbachev and after , Cambridge University Press , New York, 1991, Op.P.154.

وأيضا: فرانسواز توم، الدول السوفيتية واللهفة إلى التحرر، ترجمة: سوسن حسين، مجلة السياسة الدولية، العدد (١٠٤) ص ٢٥٤.

أنها تمكنت من الوصول إلى الجماهير من خلال برنامج إذاعـــي أســـبوعي خاص بها، كما أسست مجلة أسبوعية وزعت عشرات الآلاف مـــن النســـخ. وفى سبيل توسيع رقعة نفوذها قدمت الجبهة اللاتفية الدعم إلـــى مطبوعـــات تصدر عن تنظيمات أخرى كانت فى أغلبها منظمات دينية (١).

وعلى أية حال فإن الجبهات الشعبية سرعان مـــا اكتســـبت شـــرعية راسخة ، تجسدت من خلال الإقبال الواسع من جانب شعوب البلطيق علـــى الإنضمام لها، وعلى سبيل المثال نجد أن عدد أعضاء الجبهة الشعبية اللاتفية قد بلغ- خلال الأسابيع القليلة التى أعقبت تأسيسها- ما يربو على ٢٥٠٠٠٠ عضو، فضلاً عن عشرات الآلاف من المناصرين(٢). ومن جانب آخر فقـــد راحت الجبهات الشعبية البلطيقية توسع شيئاً فشيئاً من نطاق أهدافها، حيـــث شرعت فى مطالبة الحكومة السوفيتية بالاعتراف بـــالبروتوكولات الســـرية الملحقة بالإتفاق السوفيتي- النازي لعام ١٩٣٩، والتى بمقتضاها قام ســـتالين بضم جمهوريات البلطيق-قسراً- إلى الإتحاد السوفيتي ، كما راحت الجبهات الشعبية تكشف عن هدفها الحقيقي والمتمثل فـــى الانفصـــال عـــن الإتحـــاد السوفيتي ، وإقامة دول مستقلة (٣).

وإزاء هذا التحدى الخطير الذى باتت تمثله إزاءه الجبـــهات الشـــعبية البلطيقية راح الحزب الشيوعي السوفيتي يوجه - بنبرة تنطوي على التهديد- انتقادات حادة إلى تلك الجبهات ، ويذكرها بأن جمهوريات البلطيـــق تمثـــل جزءاً من الإتحاد الســـوفيتي، وأن الحـــزب والحزب وحده هـــو الجـــهاز الحاكم فى عموم الدولة السوفيتية (٤).

---

(١) دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ..... ، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٨.

(٢) المرجع السابق.

(٣) راجع بصدد تطور أهداف الجبهات الشعبية البلطيقية:

Smith , Graham, Op.Cit., P.P. 81-82.

(٤) أنظر فى هذا المعنى : دانكوس، نهاية الإمبراطورية....، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٩

وعلى صعيد آخر فقد راحت الأقليات الروسية القاطنة لجمهوريات البلطيق تنشئ جبهات مضادة للجبهات الشعبية، حيث أكدت هذه الجبهات المضادة رفضها للمطالب الانفصالية التى تتبناها الجبهات البلطيقية ، كما أيدت بشدة موقف موسكو الرامي إلى الإبقاء على كافة الجمهوريات السوفيتية فى إطار الإتحاد. وقد تمثل أظهر هذه الجبهات المضادة فى منظمة عرفت بحركة إنترفرونت Interfront Movement أو الجبهة الشعبية للشعب العامل، والتى ظهرت فى أواخر عام ١٩٨٨ داخل كل من إستونيا ولاتفيا. أما فى ليتوانيا فقد ظهرت منظمة شيوعية على غرار إنترفرونت عرفت بمنظمة الروس لمناصرة موسكو (إدينستفو) Yedinstvo ، وقد تأسست هذه الجبهة فى شهر نوفمبر عام ١٩٨٨[١] وراحت تتبنى ذات أهداف إنترفرونت.

وهكذا فقد تعددت الحركات العرقية فى جمهوريات البلطيق، وتضاربت أهدافها ، إذ على حين راحت الجبهات الشعبية البلطيقية الثلاث تطالب باستقلال جمهورياتها عن الإتحاد السوفيتي، أكدت الجبهات المضادة التى أنشأتها الأقليات الروسية على رفض الانفصال عن موسكو. والحق أن ظهور هذه الجبهات المضادة قد أسهم فى تأجيج نيران الانفصال لدى الجبهات البلطيقية ، التى راحت تؤكد على أنه لا بديل عن الاستقلال ، والتخلص من ربقة السوفييت. وتأكيدا على ذلك إجتمع ممثلون عن الجبهات الثلاث بالعاصمة الليتوانية فيلنيوس فى فبراير ١٩٨٩ بغية مناقشة مصير جمهورياتهم ، وقد صدر عن هذا الاجتماع بيانان عنون أولهما بـ " ميثاق من أجل حرية الأمم المستعبدة من قبل الإتحاد السوفيتي"، ولعل فى هذا العنوان ما يؤكد إصرار البلطيقيين على اعتبار جمهورياتهم محتلة من جانب السوفييت . أما البيان الثاني فقد عنونه واضعوه بـ " نداء إلى الإنتلجنسيا الروسية " ، حيث راح البلطيقيون يؤكدون من خلاله على أن مشكلة الديمقراطية لايمكن حلها بدون حصول شعوب الإتحاد السوفيتي على حق

---

(١) Hiden, John & Salmon, Patrick, The Baltic nations and Europe : Estonia, Latvia and Lithuania in the twentieth Century, London , 1994, P. 153.

تقرير المصير(١).

وتأسيسا على ما تقدم فقد كان على شعوب البلطيق أن تختار إلــى أى الجبهات ستنحاز: الجبهات الاستقلالية الداعية إلــى انفصـــال جمــهوريات البلطيق عن موسكو وإقامة دول مستقلة، أم إلى تلك التى ترفض الانفصـــال عن الإتحاد السوفيتي؟

على أية حال فإنه لم يمر وقت طويل حتى بات واضحـــا أن شــعوب البلطيق قد أعلنت خيارها. وقد تجلى هذا الاختيـــار بوضـــوح مـــن خـــلال انتخابات مؤتمر نواب الشعب التى أجريت فى مارس عـــام ١٩٨٩ . ففـــى ليتوانيا وبرغم كافة العراقيل التى وضعت أمام جبهة سايوديس فإن الجبهـــة خاضت الإنتخابات فى مواجهة كل من الحزب الشيوعي الليتواني، ومنظمـــة الوحدة (إدينستفو) التى يسيطر عليها الروس. وقد أسفرت هذه الإنتخابات عن فوز سايوديس على خصميها اللدودين فوزا ساحقا، إذ حصل مرشحوها على ٧٥% من المقاعد المخصصة لليتوانيا فى مؤتمر نواب الشعب ، فى حين لـم تتمكن إدينستفو من الوصول إلى أى من المقاعد، كذلك فقد انـــهزم كافـــة المسئولين الكبار فى الدولة والحزب(٢)، وبات واضحا أن ســـايوديس هـــى الممثل الشرعي للشعب الليتواني، حيث أفرزها الواقع الليتواني كتعبير حقيقي عنه ، ثم أغدق عليها تأييده فرسخ لها شرعية راحت تجب شرعية ماعداهـــا من منظمات جاءت بها موسكو، وعلى رأسها الحزب الشيوعي الليتوانـــــي، ذلك الحزب الذى طالما احتكر الحياة السياسية فى ليتوانيا، وهيمن على سائر المؤسسات والأجهزة الرسمية فيها، ثم ها هو فجأة أمام مارد جديـــد صنعـــه الليتوانيون بأنفسهم ، وكان من القوة بحيث لم يستطع الحزب إزاءه حراكا.

أما فى إستونيـــا ولاتفيا وعلى الرغم من ارتفاع عدد الناخبين الروس

---

(١) راجع فى هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص١٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٠.

داخلهما فإن النجاح الذى حققته الجبهتان الشعبيتان الإستونية واللاتفية جـــاء ليؤكد أنهما قد سحبتا بساط الشرعية من تحت أقدام الموالـيـــن لموســكو، إذ تفوقت كلتا الجبهتين على إنترفرونت تفوقا بائنا (١).

وفى أعقاب انتصارهم فى إنتخابات مــارس ١٩٨٩ راح البلطيقيــون يخطون خطوة جديدة نحو تدعيم قوتهم، وقد تمثلت هذه الخطوة فى إنشاء مـا يعرف بمجلس الجبهات الشعبية البلطيقية ، ففى ١٣ مايو ١٩٨٩ اجتمع فـــى العاصمة الإستونية طالين ممثلون عن الجبهات الشعبية البلطيقيـــة الثـلاث، حيث قرروا إنشاء المجلس المذكور بغية التنسيق بيـــن سياســـات الجبـــهات الثلاث، ومناقشة مستقبل جمهوريات البلطيق(٢). فضلا عن الوقـــوف صفـــا واحدا فى مواجهة الانتقـــادات التى راح الحزب الشيوعي السوفيتي يكيلـــها للجبهات الشعبية، على نحو ما أشرنا سلفا.

ويُتعين الإشارة إلى أن الحزب الشيوعي السوفيتي كان قد علق آمـــالا كبارا على الأحزاب الشيوعية البلطيقية فيما يتصل باحتواء تحرك الجبـــهات الشعبية ، وحصره فى أضيق نطاق ، غير أن تلك الأحزاب قد خذلت كبيرها الذى علمها الشيوعية. حيث وجدت أن شعبيتها أخذت تتقلص وتتضاءل لـدى الرأى العام البلطيقي الذى كان يعتبرها مجرد أدوات فى يد موسكو، فى حين أن شعبية الجبهات البلطيقية التى تتبنى قضية استقلال الجمهوريات قد أخذت فى التزايد المطرد. وهكذا فلم يكن أمام الأحزاب الشيوعية البلطيقية ســـوى رفع راية الدفاع عن الحقوق القومية لجمهوريات البلطيق(٣)، عسى أن تتمكن تلك الأحزاب بذلك من استعادة شعبيتها التى كادت تتلاشـــى أمـــام الشـــعبية الجارفة للجبهات الشعبية. وعلى ذلك فقد راحت أهداف الأحزاب الشـــيوعية تقترب إلى حد كبير من أهداف الجبهات الشـــعبية لا ســيما فـــى ليتوانيـــا

---

(١) أنظر فى هذا المضمون: نفس المرجع السابق، ص ٢٠٠ ، ٢٠١.

(٢) Hiden & Salmon , Op. Cit., P. 151.

(٣) أنظر فى هذا المعنى: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...... ، مرجع سبق ذكره، من ص ١٧٨ إلى ١٨١.

وإستونيا. وبالتالي فقد تزايدت قوة التيار الاستقلالي داخل جمهوريات البلطيق، حيث راحت الجبهات الشعبية والأحزاب الشيوعية البلطيقية تتبارى في إظهار إخلاصها للمطالب القومية لشعوب البلطيق، على نحو أدي إلى تزايد قوة الاتجاه الاستقلالي داخل الجمهوريات الثلاث. وقد هيأ ذلك إلى تحقيق نتائج هامة لشعوب البلطيق، من ذلك على سبيل المثال نجد أن برلمانات جمهوريات البلطيق - والتى كانت الأحزاب الشيوعية لما تزل تسيطر على توجهاتها- قد اتخذت خطوات بالغة الأهمية على صعيد التمكين للغات البلطيقية في جمهورياتها(١). حيث كان قد صدر في إستونيا- في ١٨ يناير ١٩٨٩- قانون يؤكد على عدم الاعتراف بلغة رسمية لإستونيا سوى اللغة الإستونية، وبالتالى فقد اجتث هذا القانون أى امتياز كان قد أعطى للغة الروسية داخل إستونيا، كما نص ذات القانون على أن كل مواطن من مواطني الجمهورية لديه مهلة أربع سنوات، يتعين عليه خلالها أن يتعلم الإستونية، كما أن كافة اللفظات الروسية يجب أن تختفى من الحياة العامة فى أقرب وقت ممكن. أما فى ليتوانيا فقد صدر - فى ٢٥ يناير ١٩٨٩- قانون بصدد اللغة يكاد يتطابق مع نظيره الإستونى، وإن كانت السلطات الليتوانية قد أعطت مهلة سنتين قبل دخول القانون حيز التنفيذ. أما فيما يتصل بلاتفيا فقد صدر قانون لغوى أقل تشددا وأكثر مرونة من قانون إستونيا وليتوانيا، حيث أعطى ذلك القانون لمواطني لاتفيا حرية الاختيار بين اللغة اللاتفية واللغة الروسية فى الحياة العامة. ويرتد عدم التشدد الذى ينطوى عليه القانون اللغوي اللاتفي إلى كون العنصر البشرى غير اللاتفي الأصل يشكل حوالى ٤٨% من سكان لاتفيا.

ذلكم فيما يتصل بالصعيد اللغوى أما على صعيد السيادة فقد اتخذت الحكومات البلطيقية خطوات لا تقل شأنا عن تلك التى اتخذتها فيما يتصل باللغة. ففى ١٦ نوفمبر عام ١٩٨٨ كان مجلس السوفييت الأعلى لإستونيا قد أعلن سيادة الجمهورية، وسرعان ما حذت كل من ليتوانيا ولاتفيا حذو

(١) أنظر بصدد هذه الخطوات : المرجع السابق، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥.

إستونيا، ففى مايو ١٩٨٩ أعلن الليتوانيون سيادة جمهوريتهم ، فى حين أعلن اللاتفيون سيادة لاتفيا فى ٢٨ يوليو ١٩٨٩[١] . وتأكيدا على ماتقدم فقد نصت المادة ٧٤ من دستور إستونيا الجديد والمادة ٧٠ من نظيره الليتواني على أن القانون السوفيتي لم يعد بالإمكان تطبيقه داخل الجمهورية، ما لم يكن متوافقا مع دستورها، وحائزا على موافقة مجلس السوفييت الأعلى لها. أما الدستور اللاتفي فقد كان أقل تشددا فى التعامل مع القانون السوفيتي، حيث أكدت المادة ٧١ من ذلك الدستور المعدل على سريان القانون اللاتفي على سائر أرجاء لاتفيا، غير أنه فى حالة تعارضه مع القانون السوفيتي يسرى ذلك الأخير[٢]. ويرتد هذا الموقف المهادن من القانون السوفيتي إلى ذات السبب الذى سبق وأن أشرنا إليه، والمتمثل تضاؤل نسبة اللاتفيين كجماعة مسيطرة فى جمهوريتهم، إذ لا يمثلون سوى ٥٢% فقط من تعداد سكانها، فى حين تمثل الأقليات القاطنة للاتفيا ٤٨% من عدد سكانها. وعلى ذلك فلم يكن فى مقدور اللاتفيين اتخاذ مواقف من السوفييت تصل فى تشددها إلى مواقف كل من الإستونيين والليتوانيين ، والذين يشكل كمهما البشرى أغلبية عظيمة الشأن كل فى جمهوريته.

ومهما يكن الأمر فإن الجمهوريات البلطيقية- فى سبيل تدعيمها لسيادتها - راحت تعلن تملكها لكافة ثرواتها الطبيعية، وحقها فى تقرير سياساتها فى كافة المجالات لا سيما المجال الاقتصادي، حيث رسخت استقلالها الإقتصادي من خلال قوانين صيغت بحيث تنص على ذلك [٣].

ولم يكتف البلطيقيون بما تقدم، حيث راح المجلس البلطيقي للجبهات الشعبية يطالب الحكومة السوفيتية بالاعتراف بالبروتوكولات السرية الملحقة بالميثاق السوفيتي النازى لعام ١٩٣٩، والتى بمقتضاها ضمت دول البلطيق

---

(١) Hiden. & Salmon . Patrick. Op. Cit. P. 151.

(٢) أنظر فى هذا الصدد : دانكوس، نهاية الإمبراطورية......، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٤،٢١٥.

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٢١٦.

عنوة إلى الإتحاد السوفيتي، كما طـالب المجلس الحكومة بإدانة تلك البروتوكولات، وشجب ضم الجمهوريات البلطيقية للدولة السوفيتية، باعتباره يمثل خرقا للقانون الدولي . وعلى الرغم من الرفض الشديد من جانب السلطة السوفيتية للإعتراف بتلك البروتوكولات فقد تحقق للبلطيقيين انتصار هائل فى هذا الصدد، تمثل فى صدور بيانات - من جانب الأحزاب الشيوعية فى بعض الجمهوريات السوفيتية - راحت تدين بمقتضاها المعاهدة السوفيتية النازية وسائر بروتوكولاتها السرية، وقد صدرت تلك البيانات فى ٢٢ أغسطس عام ١٩٨٩، أى قبل يوم واحد من الذكرى الخمسين للمعاهدة المذكورة[١]. وفى اليوم التالي مباشرة لصدور تلك البيانات - أى فى ٢٣ أغسطس عام ١٩٨٩ وإحتفالا بمرور خمسين عاما على إبرام المعاهدة السوفيتية النازية - عمت العواصم البلطيقية الثلاث مظاهرات ضخمة، بحيث ربطت هذه العواصم من خلال سلاسل بشرية لم يسبق لها مثيل، إذ ضمت ما يربو على المليوني متظاهر، راحوا يؤكدون على عدم شرعية ضم جمهوريات البلطيق إلى الإتحاد السوفيتي، ويطالبون باستقلال تلك الجمهوريات[٢]. ولم تعبأ تلك السلاسل البشرية بالتهديدات التى وجهتها موسكو، ولا بالاتهامات التى ألصقتها بها، والتى نعتت البلطيقيين بأنهم إنقساميون وأعداء للتجديد[٣].

وفى إطار الاحتفال بالذكرى الخمسين للإتفاق النازي السوفيتي -وإلى جانب المسيرات الحاشدة التى نظمتها- راحت الجبهات البلطيقية الثلاث تصدر بيانا مشتركا، عنونه واضعوه بـ " الطريق البلطيقي" The Baltic Way . وقد أكدت الجبهات الثلاث فى بيانها هذا على أنها ستسعى جاهدة من خلال الوسائل السلمية إلى استعادة استقلال جمهوريات البلطيق، الذى

(١) أنظر فى هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١٩٥.

(٢) White, Op. Cit., P.156.

(٣) دانكوس، نهاية الإمبراطورية......، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٧.

اغتصب بمقتضى اتفاق عام ١٩٣٩الإجرامي وغير الشرعي Criminal and Unlawful Agreement of 1939.(١)

وهكذا بانت جلية من خلال ما تقدم الشرعية الراسخة التي تمتعت بها الجبهات البلطيقية، كما ظهرت واضحة مقدرتها على التأثير على مجتمعاتها، واستنفار طاقاتها. وفوق ما تقدم وقبله يتضح أن الهدف الحقيقي والمحوري لتلك الجبهات إنما كان يتمثل فى نيل جمهوريات البلطيق لاستقلالها التام عن الإتحاد السوفيتي، وخلاصها من ربقة موسكو.

وتتعين الإشارة إلى أن الأحزاب الشيوعية البلطيقية قد راحت هى الأخرى شيئا فشيئا – على نحو ما ذكرنا سلفا– تنحو نحو ذلك الهدف . حيث نجد أن زعماء تلك الأحزاب قد راحوا فى أعقاب اجتماع لهم – إبان الإحتفال بالذكرى الخمسين للإتفاق النازي السوفيتي– يهاجمون السلطة السوفيتية، ويعلنون عن مساندتهم لسيادة جمهوريات البلطيق، وعلى سبيل المثال فقد راح زعيم الحزب الشيوعي الليتواني برازوسكاس Brazauskas يؤكد على حتمية حصول ليتوانيا على سيادتها، حيث قال: " إن ليتوانيا بدون سيادة ، هى ليتوانيا بلا مستقبل" (٢).

وكان الحزب الشيوعي الليتواني قد تبني – فى ١٠ يوليو ١٩٨٩ – برنامجا حاول من خلاله أن يبدو كحامل للواء الاستقلال ، كما أعلن زعماء الحزب أنهم سيعقدون مؤتمرا استثنائيا يقررون فيه استقلال حزبهم عن الحزب الشيوعي السوفيتي . وعلى الرغم من كافة التهديدات التى وجهتها موسكو إلى الحزب، فقد راح يعلن دون تردد– فى ٢٠ ديسمبر ١٩٨٩– انسلاخه عن الحزب الشيوعي السوفيتي، وهو الانسلاخ الذى لم يكن التاريخ السوفيتي قد شهد مثيلا له حتى ذلك الحين(٣).

---

(١) Hiden & Salmon, Op. Cit., P. 154.

(٢) Ibid., P. 155.

(٣) أنظر فى هذا المعنى : دانكوس، نهاية الإمبراطورية....، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٧

وهكذا فإن البلطيقيين كانوا عاقدى العزم على المضى قدما فى سبيل الحصول على استقلالهم، ونيل سيادتهم. ولعله مما تجدر الإشارة إليه أنهم كانوا يؤكدون دوما على رغبتهم فى الحصول على السيادة بمدلولها الحق لا بمفهومها عند السوفييت والذى سبق أن أشرنا إليه . وعلى سبيل المثال نجد أن المندوب الليتواني إلى مؤتمر القوميات – الذى عقد فى سبتمبر ١٩٨٩ – راح يعلن: " إن الجمهوريات لا تطالب بزيادة الحقوق السيادية، وإنما تطالب بالسيادة ذاتها، وأن أى شخص يعرف القانون الدولى يعلم أن السيادة هى شئ مطلق ، إما موجود، وإما غير موجود" [١].

وعلى الرغم من اعتراف مجلس السوفييت الأعلى فى موسكو بالاستقلال الإقتصادي لجمهوريات البلطيق الثلاث فى ديسمبر ١٩٨٩، فإن الجبهات الشعبية البلطيقية استمرت على نهجها الرامي إلى تحقيق الإستقلال التام لتلك الجمهوريات، إذ ظلت عاضة بالنواجذ على ذلك الهدف، غير مرتضية لسواه بديلا. ففى ذات الشهر – ديسمبر ١٩٨٩– وتحت وطأة الضغوط الشعبية التى قادتها سايوديس صوت برلمان ليتوانيا بالموافقة على قرار يؤكد على أن ضم جمهوريات البلطيق الثلاث إلى الإتحاد السوفيتي هو إجراء باطل وغير شرعي، ثم سرعان ما راح ذات البرلمان– مع بداية عام ١٩٩٠– يعلن إلغاء المادة السادسة من الدستور التى كانت تنص على الدور القيادي للحزب الشيوعي فى ليتوانيا، وهكذا فقد بدأ الليتوانيون يؤكدون رغبتهم الأصيلة فى الانفصال عن الإتحاد السوفيتي من خلال تحطيم وتقويض الهياكل الرسمية التى طالما ربطتهم بموسكو[٢] ، وعلى رأسها الحزب الشيوعي.

وإزاء هذا التهديد الخطير لوحدة الكيان السوفيتي والذى جسدته النزعات الانفصالية البلطيقية قام جورباتشوف فى ١١ يناير ١٩٩٠ بزيادة

---

(١) توم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٥.

(٢) أنظر فى هذا المضمون: أحمد مصطفى العملة، أزمة القوميات وخطر انهيار الإتحاد السوفيتي، مجل السياسة الدولية، العدد (١٠٣) ، يناير ١٩٩١ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

ليتوانيا ، عساه يتمكن من إقناع الليتوانيين بالتخلى عن سعيهم الانفصالي. بيد أن الزعيم السوفيتي لم يفلح لا من خلال الإقناع والترغيب ولا عن طريـــق التهديد والترهيب فى أن يحرك الليتوانيين عن مطالبــــهم الانفصاليـــة قيـد أنملـــة[1].

وفى إطار برامجها الانفصالية خاضت الجبهات الشـــعبية البلطيقيـة الثلاث الانتخابات البرلمانية التى أجريت فى جمهوريات البلطيق خلال الأيام الأخيرة من شهر فبراير والأيام الأولى مـــن شـــهر مـــارس عـــام ١٩٩٠. وارتباطا بتلك المطالب حققت الجبـــهات الثـلاث- لا سـيما سـايوديس- انتصارات عظيمة الشأن الأمر الذى أكد الرغبة الملحة لشعوب البلطيق فـــى الانفصال عن الإتحاد السوفيتي، واستعادة سيادتها المغتصبة. وفى أول جلسة للبرلمان الليتواني الجديد غداة انتخابه راح يوافق - فى ١١ مارس ١٩٩٠ - بإجماع أصوات أعضائه الحاضرين (١٢٤ عضوا) على استقلال ليتوانيـــا، وتغيير إسمها من جمهورية ليتوانيا السوفيتية الإشـــتراكية إلـــى جمهوريـــة ليتوانيا، وبالتالي فقد نزع عنها صفتى السوفيتية والإشتراكية. كما تم خـــلال نفس الجلسة اختيار رئيس للجمهورية الليتوانية وكـــذا رئيـس للـــوزراء[2]. وفضلا عما تقدم فقد أكد البرلمان الليتواني- فى إعلان الاستقلال - علـــى أن ليتوانيا كان لها فى ظل الإتحاد السوفيتي وضع الدولة المحتلـــــة، حيـــث أن ضمها إلى الدولة السوفيتية كان يفتقر تماما إلى الشرعية[3] . وفوق ما تقـــدم فقد تمت الموافقة على تغيير إسم البرلمان الليتواني من مجلـــس الســـوفييت الأعلى لليتوانيا إلى المجلس الليتواني الأعلى ، كما تمت الموافقة على إعفـاء الليتوانيين من الخدمة فى الجيش السوفيتي[4].

---

(١) أنظر فى هذا المعنى : دانكوس ، نهاية الإمبراطورية..........، مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٧

(٢) Hiden & Salmon, Op. Cit., P. 158.

(٣) أنظر فى هذا المعنى: دانكوس، نهاية الإمبراطورية.....، مرجع سبق ذكره، مـــن ص ٢٢٧ إلى ص ٢٢٩.

(٤) نفس المرجع السابق.

أما فيما يتصل بإستونيا فتتعين الإشارة إلى أن الإستونيين قد أنشأوا – غداة إنتخابات ربيع ١٩٩٠ – مجلساً نيابياً جديداً إلى جانب مجلس السوفييت الأعلى لإستونيا، وقد عرف هذا المجلس إستونيا، وسرعان ما راح هذا المجلس يكتسب شرعية راسخة إزاء مجلس السوفييت الأعلى، حيث كان ينظر إلى مجلس إستونيا من قبل المواطنين الإستونيين على أنه المجلس النيابي الشرعي للجمهورية المقبلة ، وقد راح هذا المجلس – في ١١ مارس ١٩٩٠ – يوجه بياناً إلى مجلس نواب الشعب السوفيتي يطالبه من خلاله بإعادة إستونيا مستقلة(١).

وفى الثلاثين من ذات الشهر راح مجلس السوفييت الأعلى لإستونيا يؤكد تأييده التام لموقف مجلس إستونيا، بل وأعلن الاستقلال الفعلي لجمهورية إستونيا(٢). كما أكد المجلس على أن الدولة الإستونية كانت موجودة دوماً، بيد أنها كانت – فى ظل الإتحاد السوفيتي – بمثابة دولة محتلة. ومن جانب آخر فقد أعلنت السلطات الإستونية أنها لم تعد تعترف بأية واجبات عسكرية عليها قبل الإتحاد السوفيتي، وأنها ستتولى بنفسها حماية الإستونيين الذين يتركون الخدمةفى الجيش السوفيتي(٣).

وعلى صعيد آخر وبصدد لاتفيا فإنه تجدر الإشارة إلى أن مجلس السوفييت الأعلى اللاتفى كان قد أكد – قبيل إنتخابات ماس ١٩٩٠ وفى ١٥ فبراير – ضرورة إعادة ترسيخ الدولة اللاتفية المستقلة(٤). ثم سرعان ما راح – غداة تلك الإنتخابات وفى ٤ مايو ١٩٩٠ – يعلن استقلال لاتفيا عن الإتحاد السوفيتي، ويقرر عودة العمل بالدستور اللاتفي لعام ١٩٢٢(٥).

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٣٠

(٢) Hiden & Salmon . Op. Cit., P.162.

(٣) داتكوس، نهاية الإمبراطورية..........، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣١.

(٤) المرجع السابق.

(٥) Hiden & Salmon . Op. Cit., P. 162.

وهكذا فقد راحت الحركات العرقية البلطيقية تنخر شيئاً فشيئاً في عظام الجسد السوفيتي المترهل مؤكدة مدى الوهن الذى ينطوي عليه ذلك الجسد، ومظهره زيف الأكذوبة الكبرى التى طالما تشدق بها الزعماء السوفييت، والمتمثلة فيما أسموه بالصداقة بين الشعوب السوفيتية، تلك الصداقة التى تغنوا بها دوماً معتبرين إياها مأثراً عظيماً من مآثر ثورتهم، غير أن الجماعات العرقية الخاضعة لنيرهم سرعان ما راحت واحدة تلو الأخرى تنزع أغلالهم التى فى أعناقها، ولكى تظهر للجميع - فى ذات الوقت- أن عبارة الشعب السوفيتي الواحد لم تكن سوى أضغاث أحلام راودت الزعماء السوفييت، ومحض أساطير اعتقدوا فى إمكانية تحققها.

وجملة القول - إذا - فإن جمهوريات البلطيق الثلاث(ليتوانيا - إستونيا -لاتفيا) قد أعلنت - خلال النصف الأول من عام ١٩٩٠- استقلالها، وإنفصالها عن الإتحاد السوفيتي، مؤكدة على أنها كانت- فى إطار الدولة السوفيتية- بمثابة دول محتلة. ولكن هل وقفت موسكو مكتوفة اليدين أمام ما قام به البلطيقيون؟

تتعين الإشارة إلى أن جورباتشوف قد أكد - غداة إعلان الليتوانيين لاستقلالهم - رفضه التام لهذا الإجراء، وهدد الزعيم السوفيتي بقطع إمدادات الغاز والبترول والمواد الغذائية عن ليتوانيا إذا لم تتراجع سلطاتها عن الاستقلال خلال ثمان وأربعين ساعة[1]. بيد أن الليتوانيين لم يذعنوا لهذا التهديد، الأمر الذى كان من شأنه أن دفع جورباتشوف إلى المضى قدماً فى تنفيذ تهديده، حيث قام بفرض ضغوط إقتصادية هائلة على ليتوانيا، تمثلت فى حظر إقتصادي طال منتجات الطاقة، والمواد الأولية، والصادرات الليتوانية، كما عمد الزعيم السوفيتي إلى حرمان ليتوانيا من عائداتها من العملات الصعبة، وسعى إلى إحباط أى مسعى لإيصال كل عون خارجي إلى الإقليم الليتواني. وفضلاً عما تقدم فقد راح يمنع السفن والسائحين من استخدام

---

(١) أحمد مصطفى العملة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٦.

سواحل ليتوانيا [1]، كما قام جورباتشوف بإرسال قوات عسكرية إلى منطقة البلطيق حيث أجرت مناورات عسكرية بغية إظهار التشدد إزاء البلطيقيين، ذلك فضلاً عن نشر قوات أخرى داخل ليتوانيا لمطاردة الشباب الهاربين من الخدمة العسكرية فى الجيش السوفيتي[2].

وعلى الرغم من كل هذه الضغوط التى قامت بها موسكو فإنها لم تفلح فى إثناء الليتوانيين عن موقفهم، إذ ظلوا قابضين على استقلالهم المستعاد، عاضين بالنواجذ على سيادتهم المستردة. وفضلاً عما تقدم فإن تلك الضغوط لم تفلح فى إثناء كل من الإستونيين واللاتفيين عن السير على ذات النهج الليتواني ، إذ أعلنت إستونيا استقلالها عن الإتحاد السوفيتي - كما قدمنا- فى ٣٠ مارس ١٩٩٠، فى حين قامت لاتفيا بنفس الإجراء فى الرابع من مايو من ذات العام. وسرعان ما راحت كل من الجمهوريات البلطيقية الثلاث تعمل على طمس أى مظهر من مظاهر الشيوعية بها، وكان من بين ما قامت به فى هذا الصدد تحطيم تماثيل لينين التى كان البلاشفة قد أقاموها على أراضيها ، كما شرعت كل من الجمهوريات الثلاث- على صعيد آخر- فى تأسيس وحدات عسكرية ذاتية، تكون بمثابة النواة لجيوش قومية حقة[3].

وإزاء هذا التحدي البلطيقي راح جورباتشوف - فى ٣٠ مايو ١٩٩٠- يهدد بالتدخل العسكرى فى الجمهوريات الثلاث، كما حرض الزعيم السوفييتى بيلوروسيا على مطالبة ليتوانيا بإعادة مدينتى فيلنيوس وكلايبيدا البيلوروسيتين، اللتين كان الإتحاد السوفيتي قد ضمهما إلى الأراضي الليتوانية عام ١٩٤٠. أما بصدد إستونيا فقد راح روس (إنترفرونت) يعلنون

---

(١) دانكوس، نهاية الإمبراطورية..............، مرجع سبق ذكره، من ص ٢٣٣ إلى ص ٢٣٥.

(٢) أنظر فى هذا المضمون: أحمد مصطفى العملة ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٦.

(٣) أنظر فى هذا المضمون:دانكوس، نهاية الإمبراطورية.....،مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٦،٢٣٧.

أنه فى حالة انفصال الجمهورية عن الإتحاد السوفيتي فإنهم سيطالبون بحقهم فى الانفصال عن إستونيا بمنطقتهم الشمالية[1]. وتتعين الإشارة إلى أنه مع تصاعد المشاعر العرقية فى جمهوريات البلطيق وإعلان هذه الجمهوريات استقلالها وجد الروس القاطنون لها أنفسهم فى موقف المنبوذ من جانب الجماعات البلطيقية ، وهو ذات الموقف الذى تعرضوا له من قبل شعوب آسيا الوسطى فى الماضى، والذى كان أحد الأسباب التى دفعتهم إلى تفضيل العيش فى جمهوريات البلطيق. أما فى ظل تلك الأوضاع المستجدة على الصعيد البلطيقي فقد بات على الروس- على حد قول البعض- أن يجابهوا فى كافة البقاع غير الروسية عداء واضحا. فلقد كان الروس يعيشون فى جمهوريات المحيط منغلقين على أنفسهم فى ظل حماية السلطة المركزية، حيث يحملون معهم لغتهم وعاداتهم وسلوكياتهم، أما الآن فيكف لهم أن يعيشوا فى مجتمعات لن تتسامح معهم إلا إذا تخلوا عن كل مظهر من مظاهر روسيتهم[2] ، وتلكم هى الصداقة بين الشعوب السوفيتية التى طالما تفاخر بها الزعماء السوفييت.

ومهما يكن الأمر فإن جمهوريات البلطيق الثلاث وعلى رأسها ليتوانيا قد تعرضت- غداة إعلانها الاستقلال - لضغوط هائلة من جانب السلطات السوفيتية، وقد تمثلت هذه الضغوط - على نحو ما تقدم- فى عقوبات إقتصادية شديدة الوطأة، فضلا عن تهديد جورباتشوف باستخدام القوة إزاء تلك الجمهوريات ، وظهور العديد من المطالبات التى حركها السوفييت لانتزاع أقاليم حيوية من أراضيها. وقد حاول البلطيقيون الصمود أمام هذه الضغوط الشديدة من جانب موسكو، كما حاولوا إجراء اتصالات خارجية مع الدول الغربية - وعلى رأسها الولايات المتحدة - للحصول على دعم مادي وسياسي يقوى من موقفهم إزاء الحكومة السوفيتية، بيد أن أملهم قد خاب فى هذا الصدد، إذ لم يحصلوا من قبل الدول الغربية على الدعم الكاف

---

(١) أنظر فى هذا الصدد بالتفصيل: المرجع السابق، من ص ٢٣٣ إلى ص ٢٣٦.

(٢) أنظر فى هذا المضمون: نفس المرجع السابق، ص ٣١٩ ، ٣٢.

والمتوخي[1]. وبالتالي فلم يكن أمام البلطيقيين من سبيل سوى قبـول دعـوة جورباتشوف للتفاوض بغية إيجاد حل للموقف المتأزم بين الطرفيـن، وقـد جرت المفاوضات بالفعل خلال شهر يونيو ١٩٩٠، حيث أكد جورباتشـوف للبلطيقيين أنه لا سبيل إلى رفع العقوبات المفروضة عليهم وانتهاء التهديدات التى تجابههم ما لم يقوموا بتجميد استقلالهم ، ثم البدء فى مفاوضات جديـدة للنظر فى أمر هذا الاستقلال. وهذا هو ما قام به البلطيقيون بالفعل فى نهايـة شهر يونيو، حيث أعلنت برلمانات الجمهورية الثـلاث تجميـد الاسـتقلال بصورة مؤقتة[2] .

وعلى الرغم مما تقدم فإن البعض راح يؤكد أن ما حدث كـان يمثـل انتصارا للبلطيقيين، فعلى سبيل المثال كان رئيس المجلس الأعلـى اللاتفـي أناتولى جوربونوف يرى : " أن إقتراح جورباتشوف تجميـد اسـتقلال دول البلطيق إنما يعادل اعترافا ضمنيا بالاستقلال ، وذلك على اعتبار أن المـرء لا يمكنه أن يجمد إلا ما هو موجود فعلا"[3].

على أية حال فإن تتبع الأحداث فى جمهوريات البلطيق غداة إعلانـها تجميد الإستقلال إنما يؤكد على أن هذا التجميد كان بمثابة إجـراء تكتيكـي فحسب، حيث استهدف البلطيقيون من ورائه التخلص من الحصار الإقتصادي المفروض على جمهورياتهم ، وبالتالي فإنه لم يكن يعنى أن البلطيقييـن قـد تخلوا عن الاستقلال. ذلك بأنهم ظلوا متمسكين باسـتقلالهم رافضيـن أيـة وصاية من جانب موسكو عليهم. ضاربين عرض الحـائط بأيـة قـرارات تصدرها إزاءهم . فعلى سبيل المثال نجد أن ليتوانيا قد أكدت رفضها تطبيـق القرار الصادر من جانب موسكو فى ٢٥ يوليو ١٩٩٠، والذى كان يقضـى بأنه : " يصبح من حق رئيس الدولـة السوفيتية مصـادرة الأسـلحة التـى

(١) أنظر فى هذا المعنى : أحمد مصطفى العملة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٦.

(٢) Hiden & Salmon, Op. Cit., P. 163.

(٣) دانكوس، نهاية الإمبراطورية ..... مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٨ ، ٢٣٩.

حصلت عليها التشكيلات العسكرية للجمهوريات بطريق غير قانوني"[1]. ويعتبر هذا الموقف الليتواني رفضا للاعتراف بأية حقوق للسلطة المركزية في مواجهة ليتوانيا.

وجملة القول – إذا – فى شأن استقلال جمهوريات البلطيق أن قرار تجميد الاستقلال كان بمثابة قرار تكتيكي استهدف حفظ ماء وجه جورباتشوف، بغية إقناعه بإنهاء الحصار الإقتصادي الذى كان مفروضا من جانبه على تلك الجمهوريات ، وأن البلطيقيين ظلوا متمسكين باستقلالهم، عاضين بالنواجذ على سيادتهم. والحق أن هذا الاستقلال سرعان ما راح يتدعم شيئا فشيئا فى ظل قيام الجمهوريات السوفيتية الأخرى بإعلان استقلالها واحدة تلو الأخرى، وعلى نحو أدى إلى إجبار جورباتشوف فى النهاية على الإذعان أمام المطالب الاستقلالية المتزايدة من قبل سائر جمهوريات المحيط، وذلك على النحو الذى سنعرض له فى صفحات لاحقة بإذن الله .

---

(١) رولان لوم ، فيليب ميشيه، حل الدولة السوفيتية ، ترجمة: سوسن حسين، مجلة السياسة الدولية، العدد (١٠٤) أبريل ١٩٩١ ، ص ٢٥٢.

تعقيـــــب :

يتضح فى ثنايا ما تقدم أن عقودا عديدة من السيطرة البلشفية لم تفلـــح فى طمس الهويات العرقية للبلطيقيين، ذلك بأنه - برغم جـــهود الكريمليـــن المضنية لترويسهم- ظلوا قابضين على هوياتهم، عاضين بـــالنواجذ علـــى مقومات ذاتياتهم، ناظرين إلى الإتحاد الســـوفيتي باعتبـــاره دولـــة تحتـــل أراضيهم، وتغتصب حقهم فى تقرير المصير. وعلى ذلك فمـــا أن تخلـــص البلطيقيون من نير الإرهاب والكبت- بمجئ جورباتشوف إلى الكريمليـــن- حتى اشرأبت أعناقهم نحو استعادة استقلالهم المغتصب، واسترجاع حريتـــهم السلبية. وسرعان ما ظهرت الحركات العرقية الانفصالية داخل جمـــهوريات البلطيق، حيث تجسدت هذه الحركات فيما يعرف بالجبهات الشـــعبية، تلـــك الجبهات التى كانت الجمهوريات البلطيقية مهدا لها، وكان للبلطيقيين قصـــب السبق فى ابتداعها، فكانت تجربتهم فى ذلك هى السراج الذى سار على هدى من نوره غيرهم من الشعوب التى طالما أنت تحت نير الكريملين، ثم ها هى أخيرا تحذو حذو البلطيقيين فى سعيهم نحو التخلص من ربقة البلاشفة.

* * * * *

المبحث الثاني

في

الحركات العرقية فى منطقة آسيا الوسطى

يرتد تاريخ منطقة آسيا الوسطى بجذوره إلى ما يقرب من العشرين قرناً مضت من الزمان ، ولقد خضعت هذه المنطقة - خلال حقب طويلة من تاريخها- لشتى صنوف الغزو الثقافي والتجاري والعسكري، حيث تعاقب على غزوها كل من العرب والمنغوليين والأتراك، وذلك قبل أن تدين للروس السيطرة عليها خلال القرون القليلة المنصرمة [١] . وهكذا فقد كانت آسيا الوسطى تمثل - حتى قيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧- جزءاً من الإمبراطورية الروسية، حيث كان يطلق عليها تركستان الروسية Russian Turkestan وتضم منطقة آسيا الوسطى خمس جماعات عرقية رئيسية هي الطاجيك ، والأوزبك ، والكازاخ ، والقرقيز، والتركمان. وتدين هذه الجماعات قاطبة بالإسلام وإن تباينت مذاهبها. وفيما عدا الطاجيك ينحدر أفراد تلك الجماعات من أصل تركي، أما الطاجيك فينحدرون من أصل إيراني[٢].

وقد عاني مسلمو التركستان خلال الحقبة القيصرية- على نحو ما أشرنا سلفاً- من صنوف شتى للاضطهاد والتنكيل، ولا سيما إبان عهد إيفان الرهيب، الذى سعى بمختلف السبل إلى تنصيرهم، بيد أنهم قاوموا كافة

---

(١) Chavin. James , Independent Central Asia: aprimer. Current History , April. 1994. P.160.

(٢) Smith , Graham (ed.). Op. Cit., P. 197.

وأنظر كذلك لتفاصيل أخرى بصدد هوية شعوب آسيا الوسطى:

Fuller. Graham E., Central Asia: The Question of Identity. Current History, April . 1994 P.P. 145-146.

المساعي التى استهدفت تقويض مقومات هويتهم العرقية وعلى رأسها الدين الإسلامي. ومع اندلاع الثورة البلشفية عام ١٩١٧ اشرأبت أعناق التركستانيين إلى الإستقلال والتخلص من النير الروسي ، لا سيما وأن البلاشفة قد أعلنوا إيمانهم بمبدأ حق الشعوب فى تقرير مصائرها ، غير أن التركستانيين سرعان ما أدركوا زيف الوعود البلشفية، حيث راح لينين ورفاقه يحكمون قبضتهم على شتى أصقاع الإمبراطورية الروسية، ويخضعون لسلطانهم جل الشعوب التى كان القياصرة قد جمعوها عنوة تحت إمرتهم . وبالتالي فلم يجد التركستانيون من سبيل أمامهم سوى الكفاح المسلح بغية الوصول إلى غايتهم المتمثلة فى الاستقلال، وبالفعل فقد نشأت حركات عرقية انفصالية عديدة فى التركستان، كان أظهرها– كما قدمنا– حركة أمير بخاري، وحركة البسماتشي، وهما الحركتان اللتان ظلتا تقاومان البلاشفة طيلة عقد العشرينيات، إلى أن تمكنوا من إخمادهما تماماً مع بداية عقد الثلاثينيات.

وفى ظل الحكم الشيوعي سعى الزعماء السوفييت– شأنهم فى ذلك شأن أسلافهم القياصرة – بمختلف الوسائل إلى تقويض مقومات هوية مسلمى آسيا الوسطى، والقضاء على أية نزعة عرقية لديهم. وقد تمثلت أولى الوسائل التى لجأوا إليها – فى هذا الصدد – فى تقسيم آسيا الوسطي إلى ست جمهوريات منفصلة هى كازاخستان ، وأوزبكستان، وطاجيسكتان ، وقريجيزستان، وتركمانستان، منتهجين بذلك ذات السياسة التى طالما انتهجتها القوى الاستعمارية إزاء مستعمراتها بغية إخضاعها ، وهى السياسة المعروفة بسياسة " فرق تسد " " Divide and Rule " (١).

وفضلاً عما تقدم – وفى إطار سياستهم الرامية إلى طمس هوية قاطني آسيا الوسطي– عمد الزعماء السوفييت إلى تقويض مقومات تلك الهوية وعلى رأسها الدين، فراحوا يغلقون المساجد، ويدعون إلى الإلحاد، ويجبرون

---

(١) Chavin, Op. Cit., P. 161.

النساء على خلع الحجاب، ويفرضون كوادر ملحدة (أو علمانية معادية للدين) على قيادة المؤسسات العامة فى الأقاليم التى يقطنها المسلمون بصفة عامة ، وعلى رأسها آسيا الوسطى(1). وكل ذلك فضلاً عن العمل على ترويس المنطقة لغوياً وثقافياً وأبجدياً وبشرياً ، فى معنى فرض اللغة والثقافة الروسيتين على شعوب آسيا الوسطى ، وإجبار تلك الشعوب على كتابة لغاتها بالأبجدية السيريلية ، والتخلى عن الأبجدية العربية التى كانت تستخدمها أصلا ، والتى كانت بمثابة إطلالة لها على لغة دينها. أما فيما يتصل بالترويس البشرى فنعنى به هنا سعى الزعماء السوفييت إلى تهجير الروس من مواطنهم الأصلية وتوطينهم فى جمهوريات آسيا الوسطى وغيرها من جمهوريات المحيط ، وذلك إلى جانب جعل المنطقة مستودعا للجماعات العرقية المتمردة ، والتى كان البلاشفة يقتلعونها من مواطنها الأصلية على نحو ماقدمنا .

وعلى الرغم من كل ماتقدم فإن الكريملين لم يفلح فى طمس هوية شعوب آسيا الوسطى ، إذ يؤكد الثقاة من الباحثين المهتمين بالشئون السوفيتية أن تلك الشعوب ظلت قابضة على مقومات ذاتياتها وعلى رأسها الدين الإسلامى . ويعبر البعض عن ذلك بقوله : " إنه كان ثمة فى إطار الإتحاد السوفيتى دوما مايمكن أن نطلق عليه الكائن الإسلامى ، حيث كان المسلمون يرفضون الزواج من غيرهم ، كما دأبوا على المحافظة على تقاليدهم الإجتماعية ولاسيما تلك المتصلة منها بالزواج ، إذ التزمت غالبية المسلمين بتقاليد الزواج الإسلامية ، واستمرت بعض التقاليد القديمة كزواج الفتيات الصغيرات ، وتقاضى المهور ، وهى تقاليد كانت تتعارض مع القانون السوفيتى ، الذى كان ينص على توقيع العقوبة على من يلتزمها. وفضلا عن ذلك فقد كان المسلمون يرفضون دفن موتاهم مع موتى غيرهم، وقد دفع ذلك

---

(١) راجع فى هذا المضمون: وليد محمود عبد الناصر، العامل الإسلامي والدور الإيراني فى الجمهوريات الإسلامية المستقلة، مجلة السياسة الدولية ، العدد(١٢٠) ، أبريل١٩٩٥، ص ١٥٧.

أحد الكتاب السوفييت إلى القول : " كان يحدث أن يتعايش بشر من عرقيات مختلفة فى عائلة أممية واحدة ثم يتضح بعد الموت أنهم لايستطيعون أن يدفنوا داخل مقبرة واحدة ، وأن تستغل رحلتهم الأخيرة فى نشر الدين والقومية " (١) .

والحق أن مسلمى آسيا الوسطى كانوا يؤكدون دوما على هويتهم الإسلامية، فعلى سبيل المثال يقول أحد المشتغلين بالدراسات الإجتماعية من السوفييت فى إحدى دراساته التطبيقية عن دور الدين كمقوم للهوية العرقية فى آسيا الوسطى والتى أجريت فى طاجكستان إن السؤال الذى كان يطرحه على أفراد عينته هو : هل أنت مسلم ؟، وأن الغالبية العظمى من أفراد العينة كانوا يجيبون ذات الإجابة وهى : بالفعل فأنا طاجيكى (٢) . وهكذا فقد كان الطاجيك يعتبرون أن طاجيكيتهم إنما هى مرادف لإسلامهم .

ومن جانب آخر فقد أظهر استطلاع للرأى أجرى فى إحدى قرى أوزبكستان مع نهاية عقد السبعينيات أن ٧٧% من الرجال ، ٨٠% من النساء غير ملحدين ، وهم إما مؤمنون عن قناعة وممارسون للشعائر ، وإما مجرد ممارسين للشعائر تحت تأثير عائلاتهم . كما تتعين الإشارة إلى أن المسلمين خلال تلك الفترة كانوا قد بدأوا ينخرطون فى الجماعات الصوفية ، التى انتشرت فى سائر أرجاء آسيا الوسطى ، والتى وصل تعداد الأعضاء فيها - آنذاك - إلى المليون شخص (٣) .

ويؤكد غير واحد من الباحثين أن هزيمة الإتحاد السوفيتى أمام المجاهدين الأفغان ، واندلاع الثورة الإسلامية فى إيران كان لهما عظيم الأثر على تنامى الشعور الدينى لدى بلدان آسيا الوسطى منذ نهاية عقد السبعينيات.

---

(١) دانكوس ، انتفاضة القوميات ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٢) انظر فى هذا المعنى :

Olcott, Martha Brill, Central Asia's Islamic Awakening, Current History, April, 1994, p. 151.

(٣) دانكوس ، انتفاضة القوميات ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

ويقول البعض فى ذلك : " لاشك فى أن مسلمى آسيا الوسطى قد تعلموا دروسا مفيدة من المقاومة الأفغانية ، إذ بات واضحا لديهم أن الأخ الأكبر يمكن هزيمته ، وأن التمرد المسلح قد صار ممكنا " . ويضيف القائل بهذا الرأى : " إن مقاومة المجاهدين الأفغان قد أشعلت المشاعر القومية لدى المسلمين السوفييت ، ودفعتهم إلى التمرد ، ذلك بأن من شأن هذه الحروب إذكاء نيران الحركات الانفصالية والثورية " (١) . ويسوق صاحب الرأى السابق تدعيما لرأيه مقولة عظيمة الأهمية لأحد المثقفين الأذربيين وقد أطلقها ذلك المثقف فى عام ١٩٨٠ وفى وقت لم يكن أحد يفكر فيه فى أى انتصار للأفغان ، ومؤدى هذه المقولة أن " شعب أذربيجان لايستطيع أن يثور على موسكو مثلما فعل الشعب الإيرانى مع الولايات المتحدة ، ذلك بأنه ليس بمقدوره أن يهزم الروس ، ولكننا نعتمد على انتصار المجاهدين فى أفغانستان ، فإن استطاعوا الإطاحة بالنظام الشيوعى فى كابول وإقامة حكومة إسلامية على غرار حكومة إيران ستستطيع الدول الثلاث (إيران وأفغانستان وباكستان) مساعدتنا فى صراعنا ضد الروس ، وسيرفع ذلك من الروح المعنوية لشعوب آسيا الوسطى " (٢) .

ومن ناحية أخرى فقد كان لتصاعد المد الإسلامى خلال عقد السبعينيات عظيم الأثر على الشعوب المسلمة فى الإتحاد السوفيتى ، حيث ساهم فى تنامى الشعور الدينى لديها ، على نحو اعتبره البعض نيلا من أسس الدولة السوفيتية . ولم يفلح الكريملين – بكل جبروته – فى الحيلولة دون تصاعد الوعى السياسى الإسلامى لدى المسلمين السوفييت ، الأمر الذى دفع الحزب الشيوعى السوفيتى إلى إدانة الأنشطة الدينية ، والاهتمام بتحليل ظواهر معينة مثل ارتفاع معدلات التردد على المساجد (٣) .

---

(١) ألكسندر بينجسن ، أفغانستان : الأفكار الخلفية السوفيتية ، ترجمة : سوسن حسين ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٩٣ ، يوليو ١٩٨٨ ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) أنظر فى هذا المضمون : وليد محمود عبدالناصر ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٧ .

وفضلا عما تقدم فقد كان ثمة نزعة قوية لدى المسلمين السوفييت إلى إحياء التراث الديني ، وسعى الشعراء إلى أن يعكسوا في أشعارهم الماضي الحضاري الإسلامي لبلدانهم ، كما تزايد الإتجاه إلى التعليم الديني الذي بات متاحا في كافة المساجد ، حيث أظهرت الأجيال الصاعدة اهتمامها بالتقاليد الإسلامية ، وتزايد معدل ذهابهم إلى المساجد (١) .

وتتعين الإشارة إلى أن الزعماء السوفييت كانوا قد شرعوا - منذ البداية - في تحديث جمهوريات آسيا الوسطى اعتقادا منهم أن التحضر ، والتحديث ، والتصنيع هي أمور من شأنها تيسير عملية اندماج شعوب تلك الجمهوريات في سائر قاطني الإتحاد السوفيتي ، غير أن هذه السياسة أدت إلى نتائج عكسية ، إذ أفرزت - على حد قول البعض - طبقة من أبناء آسيا الوسطى على قدر هائل من التعليم ، هيأ لها القدرة على التعبير عن التمايز الثقافي لشعوبها بكفاءة واقتدار لم يكن بمقدور آبائها أن يبلغوهما نظرا لضحالة تعليمهم (٢) .

وهكذا فإن كافة السياسات التي اتبعها الزعماء السوفييت بغية طمس الهوية العرقية لشعوب آسيا الوسطى كان مآلها إلى الفشل ، إذ لم يفلح أي من هذه السياسات - على تعددها - في تقويض مقومات ذاتية تلك الشعوب . فلقد ظل مسلمو آسيا الوسطى - إلى حد كبير - عاضين بالنواجذ على مقومات تمايزهم العرقي وعلى رأسها الدين . وتلكم هي الحقيقة التي عبرت عنها إحدى المبرزات من الباحثين المهتمين بالشئون السوفيتية بقولها : " إن السلطات السوفيتية تجد نفسها أمام لغز هائل ، إنه لغز الكائن الإسلامي في الإتحاد السوفيتي ، ذلك بأن الطفل يحبو في مجتمع اشتراكي ، ويرضع الإشتراكية في ظل منظمات أكتوبر ، ثم شابا في رحاب الكومسمول ، فيافعا في منظمات الحزب الشيوعي ، ومع كل ذلك يجد نفسه مأخوذا بتقاليد أبيه

---

(١) أنظر في هذا المضمون : المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

(٢) أنظر في هذا المعنى : أحمد عباس عبدالبديع ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٠ .

وأجداده ، وبتراثهم وتاريخهم . وهذا مايؤكد على أن النموذج الإنسانى وليد التربية الإشتراكية - كما تصوره السوفييت - هو نموذج لم يوجد بعد ، أو على الأقل ليس موجودا فى كل الإتحاد السوفيتى طالما أن ثمة مسلما من بين كل خمسة سوفييت " [١] .

وجملة القول - إذا - فى شأن ماتقدم أنه على الرغم من كافة المساعى التى بذلها الزعماء السوفييت بغية طمس هوية شعوب آسيا الوسطى فإن هذه الشعوب قد ظلت قابضة على هويتها ، ممعنة فى التمسك بمقومات ذاتيتها ، مفرطة الإدراك لتمايزها الثقافى إزاء ماعداها من الجماعات العرقية المشكلة للإتحاد السوفيتى. وقد اتضح ذلك فى أجلى صورة خلال عهد جورباتشوف ، وفى رحاب المناخ الليبرالى الذى أتاحته البيريسترويكا والجلاسنوست ، ذلك المناخ الذى هيأ لظهور الحركات العرقبية المعبرة عن تمايز هويات جماعاتها فى شتى جمهوريات الإتحاد السوفيتى، ومن بينها بطبيعة الحال جمهوريات آسيا الوسطى . وفيما يلى نعرض بشئ من التفصيل للحركات العرقية فى آسيا الوسطى خلال عهد جورباتشوف ، وذلك فى ثنايا مطالب خمسة متتابعة نعنونها على النحو التالى :

المطلب الأول : الحركة العرقية فى كازاخستان .

المطلب الثانى : الحركة العرقية فى أوزبكستان .

المطلب الثالث : الحركة العرقية فى طاجيكستان .

المطلب الرابع : الحركة العرقية فى تركمانستان .

المطلب الخامس : الحركة العرقية فى قرقيزستان .

* * * * *

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : دانكوس ، انتفاضة القوميات ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٤ .

المطلـب الأول

الحركات العرقية فى كازاخستان (قازقستان)

أولا : تعريف بجمهورية كازاخستان وتكوينها العرقى :

تبلغ مساحة كازاخستان ٢٧١٧٣٠٠ كيلـــو مـــتر مربـــع ، وتتمثـل عاصمتها فى مدينة ألما آتا Alma – Ata (١) . وقـــــد كـــانت الجمهوريـــة الكازاخيـــة تمثل - بمساحتها الشاسعة تلك - ثانى كبرى جمهوريات الإتحـاد السوفيتى مساحة ، حيث كانت تلى فى ذلك جمهورية روسيا الإتحادية كبرى الجمهوريات السوفيتية قاطبة (٢) . وقد بلغ عدد سكان كازاخســتان حوالـــى ١٦٤٦٤٤٦٠ نسمة حسب تعداد عام ١٩٨٩ ، يتشكلـــون من مايربو علـــى الثمانـــى جماعات عرقية أظهرها : الكـــازاخ (القـــازاق) ، والـــروس ، والألمان ، والأوزبك ، والتتار ، والأوجريون ، والبيلوروس ، والكوريـون . ويشكل الكازاخ الجماعة العرقية ذات الكم البشرى الأكبر فى كازاخستان ، إذ يسشكلون حوالى ٤٠% من عدد سكان الجمهورية ، فى حين يمثل الـــروس ثانى الجماعات العرقية عددا فى كازاخستان ، حيث تبلغ نسبتهم إلى جملـــة عدد السكان قرابة الثمانية والثلاثين بالمائـــة (٣) . وبالتـــالى فـــإن الكـــازاخ لايتفوقون على الروس فى كازاخستان من حيث العدد إلا بنســـبة ضئيلـــة ، وذلك على النحو الذى سيتضح من خلال الجدول التالى ، والذى نعرض فـــى ثناياه لأعداد أظهر الجماعات العرقية فى كازاخستان ، حسب تعـــداد عـــام ١٩٨٩ :

---

(١) Olcott, Martha Bril, Central Asia's Post – Empire Politics . Orbis. Spring. 1992, p. 257.

(٢) Savanberg, Ingver, Kazakhs, in : Smith, Graham, Op. Cit., p. 199.

(٣) راجع فى هذا الصدد كلا من :

Olcott, Central Asia's Post – Empire Politics, Op. Cit., p. 257.

وأيضا : جار ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٥ .

الجماعة العرقية	تعدادها(نسمة)
الكازاخ (القازاق)	٦٠٨٥٧٨٤
الروس	٦٢٥٦٤٩٥
الألمـــــان	٩٨٧٨٦٧
الأوكرانيون	٨٢٣٢٢٣
الأوزبـــــك	٣٢٩٢٨٩
التتـــــار	٣٢٩٢٨٩
الأوجريون	١٨٥٢٠٧
البيلوروس	١٨٣٢٠٥
الكوريون	١٠٣١١٥

جدول رقم (١١)

تم تركيبه بالإستعانة بالمراجع التالية :

Conway, Patrick, Kazakhstan : Land of Opportunity, Current History, April, 1994, p. 165.

Olcott, Central Asia's Post – Empire Politics, Op. Cit., p. 257.

وتتعين الإشارة إلى أن الروس كانوا حتى سنوات قليلة مضت يشكلون الجماعة البشرية ذات الكم البشرى الأكبر فى كازاخستان ، وبالتالى فقد كان الكازاخ يمثلون أقلية فى وطنهم (١) . وبذلك فقد كانت كازاخستان تمثل فى هذا الصدد - إلى عهد قريب - استثناء من سائر الجمهوريات السوفيتية، والتى كانت كل منها تتميز بكون الجماعة

---

(١) أنظر فى هذا الصدد : Svanberg, Op, Cit., P.P. 199-204.

التى يشتق إسم الجمهورية من إسمها هى الجماعـــة ذات الكـــم البشـــرى الأكبر، حال الروس فى روسيـــا ، والأوكرانيين فى أوكرانيا ، والأوزبك فى أوزبكستان ... وهكذا .

ويوضح الجـدول التالى تطور أعداد الجماعات العرقيـــة الرئيســـية المشكلة للكيان البشرى فى كازاخستان منذ عام ١٩٥٩ وحتى عام ١٩٨٩ .

الجماعة العرقية	١٩٥٩ (نسمة)	١٩٧٠ (نسمة)	١٩٧٩ (نسمة)	١٩٨٩ (نسمة)
الكازاخ	٢٧٩٥٠٠٠	٤٢٣٤٠٠٠	٥٢٨٩٤٠٠	٦٥٨٥٧٨٤
الروس	٣٩٧٤٢٠٠	٥٥٢١٠٠٠	٥٩٩١٢٠٥	٦٢٥٦٤٩٥
الألمـــان	٦٤٨٠٠٠	٨٥٨٠٠٠	٩٠٠٢٠٧	٩٨٧٨٦٧
الأوكرانيون	٧٦٢٠٠٠	٩٣٣٠٠٠	٨٩٧٩٦٤	٨٢٣٢٢٣
الأوزبك	١٣٧٠٠٠	٢١٦٠٠٠	٢٦٣٣٠٠	٣٢٩٢٨٩
عدد سكان الجمهورية	٩٢٩٤٠٠٠	١٣٠٠٨٠٠	١٤٦٤٨٣٠٠	١٦٤٦٤٤٦٠

جدول رقم (١٢)

المصدر : تم تركيبه بلاستعانة بـــ :

- دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦١ ، وكذلك :

Olcott, Central Asia's Post – Empire Politics, Op. Cit.,p. 257.

وجملة القول – إذا – فى شأن ماتقدم أن الكازاخ كانوا حتى بدايـــة عقد الثمانينيات يمثلون أقلية فى وطنهم ، حيث كان الروس يمثلون الجماعـة العرقية ذات الكم البشرى الأكبر فى كازاخستان . بيد أنه مع انتصاف عقـــد الثمانينيات بدأ الكازاخ يتجاوزون الروس عدديا ، وبالتالى فقد باتوا يشـكلون

جماعة الأغلبية فى كازاخستان ، وإن كانوا لايتفوقون على الروس فى هذا الصدد إلا بنسبة ضئيلة كما قدمنا . ويرتد هذا التضاؤل فى نسبة الكازاخ داخل الدولة المسماة بإسمهم إلى جملة أسباب أظهرها ماتعرضوا له من مذابح هائلة على يد البلاشفة طيلة عقد العشرينيات ، وهى المذابح التى أودت بحياة مايربو على المليون كازاخى كانوا يشكلون - وقتذاك - ربع سكان كازاخستان [1] . وذلك فضلا عن إعطاء الزعماء السوفييت الضوء الأخضر لأفراد الجماعات السوفيتية السلافية الثلاث (الروس - الأوكرانيون - البيلوروس) فيما يتصل بالنزوح إلى كازاخستان ، فراحوا يتدفقون تترا إلى أراضيها دافعين السكان الأصليين من الشمال (حيث الجزء الأكثر خصبا) إلى الجنوب ، كذلك فإن من بين الأسباب الرئيسية التى أدت إلى تضاؤل نسبة الكازاخ فى وطنهم أن ستالين كان قد جعل من أراضى كازاخستان مأوى للجماعات العرقية التى كان قد اجتثها من مواطنها الأصلية إما بتهمة الخيانة (حال تتار القرم ، وبعض سكان البلطيق ... وغيرهم) ، وإما كإجراء وقائى إبان الحرب العالمية الثانية حال ألمان الفولجا الذين اقتلعوا من موطنهم الأصلى خوفا من أن يتعاونوا مع الجيوش النازية . ونظرا لكل ماتقدم فقد أصبحت كازاخستان - على حد قول البعض - بمثابة فسيفساء عرقية [2] .

وتتعين الإشارة - فى النهاية بصدد التكوين العرقى لجمهورية كازاخستان - إلى أن الكازاخ يمثلون جماعة عرقية يرتبط أفرادها فيما بينهم من خلال روابط عديدة أظهرها وحدة اللغة ، والدين ، والثقافة ، والتاريخ ، والسلالة ، وفيما يتصل بلغتهم فهى تتمثل فى اللغة الكازاخية ، وهى ترتد إلى فئة من اللغات التركية المعروفة باسم " نوغاى " [3] . ولقد كانت هذه

(١) أنظر فى هذا الصدد : دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٢ .

(٢) أنظر فى هذا المعنى : نفس المرجع السابق ، ص ٦١ ، ٦٢ .

(٣) محمد عبدالقادر أحمد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٠ .

اللغة - حتى عام ١٩٢٨ - تكتب بالحروف العربية ، غير أن السلطات السوفيتية فى ذلك العام قد أبدلت الحروف العربية بالحروف اللاتينية بصدد كتابة اللغة الكازاخية ، ثم عادت تلك السلطات - فى عام ١٩٤٠ - وفرضت على الكازاخ كتابة لغتهم بالحروف السيريلية . ذلكم فيما يتصل باللغة ، أما فيما يتعلق بالدين فإن الكازاخ يدينون بالإسلام ، وهم فى غالبيتهم من السنة [١] .

ثانيا : الحركات العرقية الكازاخية خلال عهد جورباتشوف :

على الرغم من تضاؤل نسبتهم فى وطنهم إلا أن ملاحظة تاريخهم تشير إلى أن الكازاخ قد ظلوا قابضين على هويتهم بشتى مقوماتها ، مقاومين لأى إجراء من شأنه أن يهدد تلك الهوية . ولعل من أبرز حركات التمرد التى صدرت عن الكازاخ فى سبيل الحفاظ على هويتهم تلك الحركة واسعة النطاق التى شهدتها كازاخستان عام ١٩٣٨ ، بيد أن جحافل الفرقة السوفيتية الحادية والعشرين تصدت لها وقمعتها بكل عنف [٢] . كذلك ففى إطار مقاومة مايتهدد هوية جمهوريتهم تظاهر - فى عام ١٩٧٩ - شباب كازاخى فى انتفاضة صاحبتها أعمال عنف بين الأعراق ، وكان هؤلاء الشباب (وهم طلاب) قد انتفضوا إثر سريان إشاعات عن تحويل تسيلينوجراد إلى إقليم يأوى الألمان الذين كان ستالين قد اجتثهم من موطنهم الأصلى إبان الحرب العالمية الثانية كإجراء وقائى على نحو ماسبق أن أشرنا. وقد كان هؤلاء الألمان قد تقدموا إلى السلطات السوفيتية بطلب - عام ١٩٧٩ - يدعونها بمقتضاه إلى الموافقة على تخصيص منطقة تسيلينوجراد لهم كموطن بديل [٣] .

---

(١) Svanberg, Op. Cit., p.p. 204 – 205 .

(٢) أنظر فى هذا المعنى : محمد عبدالقادر أحمد ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٦ .

(٣) أنظر فى هذا المعنى : دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... مرجع سبق ذكره ، ص ٦٦ .

ومع مجئ جورباتشوف إلى الحكم فى الإتحاد السوفيتى عام ١٩٨٥ – وفى ظل البريسترويكا والجلاسنوست – باتت الأجواء مواتية للكازاخ كـــى يعبروا عن هويتهم . وسرعان ماراحت تطفو على سطح الحياة الإجتماعيـــة فى كازاخستان جماعات دينية ، جاءت كى تعبر عن ظاهرة جديدة قوامـــها نزوع الشبـــاب الكازاخى إلى الانضواء تحت لواء الإسلام ، وبالتـــالى فقـد استقطبت تلك الجماعات الآلاف منهم ، على نحو هيـأ لــهم التعبـير عــن مشاعرهم العرقية المتنامية من ناحية، وعن عدائهم الدفين للروس من ناحيـة أخرى (١) .

وتتعين الإشارة إلى أن الكازاخ كانوا أكثر الجماعات العرقية السوفيتية تبكيرا فى إظهار نزعتهم العرقية . إذ تجلت هذه النزعة بائنة مــن خـلال مظاهرة ضخمة قام بها الكازاخ – فى ١٧ ديسمبر ١٩٨٦ – داخل العاصمـة ألما آتا ، وقد ضمت تلك المظاهرة مايربو على عشرة آلاف فرد تجمعوا فى الساحة الكبرى للعاصمة ، مسلحين بالقضبان الحديدية ، وقطع البلاط ، وهـم يهتفون " كازاخستان للكازاخستانيين وفقـط للكازاخســتانيين " . وقـد قـام المتظاهرون بأعمال تخريبية طالت المبانى الرسمية وفى مقدمتها مقر الحزب الشيوعى . وقد جوبهت المظاهرة من جانب قـــوات أمـن راحـت تقمـع المتظاهرين بكل عنف ، تعززها فى ذلك المصفحات ، والعربات المدرعـة . وقد أسفرت المواجهة بين الجانبين عن سقوط العديد من القتلى والجرحـــى ، جرى التعتيم على عددهم من جانب أجهزة الإعلام الرسمية ، التى لم تشـــر إلى انتفاضة ألما آتا على الرغم من ضخامة حجمها (٢) . ويبقى التســاؤل .. هذه المظاهرة الضخمة علام ؟ . لقدجاءت هذه المظاهرة كرد فعـــل علـى مجرد قيام السلطة السوفيتية بتعيين شخص روسى هـــو جينـادى كولبيـن

---

(١) أنظر فى هذا المعنى :

Svanberg, Op. Cit., p. 205.

(٢) أنظر فى هذا المعنى : دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... مرجع سبق ذكـره ، مـن ص ٥٨ إلى ص ٦٠ .

Gennadii Kolbin كسكرتير أول للحزب الشيوعى الكازاخستانى ، محل دين محمد كونايف Dinmukhamed Kunaev الكازاخى [١] . وعلى ذلك فقد انطلقت الجماهير الكازاخية الهادرة مرددة " كازاخستان للكازواخستانيين " ، وتلكم هى الصداقة بين الشعوب السوفيتية التى طالما كانت موضع فخار أولئك الذين يقبعون فى الكريملين.

لقد كان الزعماء السوفييت - بمن فيهم جورباتشوف - يبحثون عن شعب سوفيتى لاتفصل بينه الحواجز العرقية ، غير أن انتفاضة ألما آتا جاءت - على حد قول البعض - كى تتحدى يقينياتهم ، ولكى تؤكد على أن عشرات السنين من الحياة المشتركة لم تؤد إلى توحيد السوفييت ، كما جاءت هذه الانتفاضة - من ناحية أخرى - لكى تعلم الجماعات العرقية السوفيتية الأخرى أن الثورة ضد موسكو قد باتت أمرا ممكنا فى عهد جورباتشوف [٢].

وعلى أية حال فإن المقولات السوفيتية العتيقة عن" الشعب السوفيتى" ، وعن " الأممية " ، وعن " ضروب التقدم " قد تحطمت تماما من خلال انتفاضة ألما آتا ١٩٨٦ ، وأمام هدير الكازاخستانيين " كازاخستان للكازاخستانيين " [٣] .

ولعله مما تجدر الإشارة إليه أن القيادات السوفيتية كانت تتصور أن للكازاخ - الذين كانوا إلى عهد قريب يشكلون أقلية فى وطنهم - قد ذابوا واندمجوا فى الجماعة الروسية ذات الكم البشرى الأكبر فى كازاخستان ، وبالتالى فإن تلك القيادات كانت تعتبر أن الجمهورية الكازاخية لاتعدو أن تكون امتدادا لروسيا . وقد كان الكازاخ يشعرون بالمهانة إزاء ذلك الوضع، كما كان القلق يتملكهم أمام تضاؤل عددهم الذى كان يبلغ ٣٫٨ مليون نسمة عام ١٨٩٧ ، ثم انخفض - بفعل المجازر التى تعرضوا لها خلال عقد

---

(١) Svanberg. Op. Cit., p. 206.

(٢) دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٥ .

(٣) أنظر فى هذا المعنى : المرجع السابق ، ص ٧٢ .

العشرينيات - إلى ٩ر٢ مليونا فقط عام ١٩٣٤ ، وذلك فى الوقت الذى كانت أعداد سائر الجماعات العرقية السوفيتية الرئيسية تتزايد فى جمهورياتها . بيد أنه مع انتصاف عقد الثمانينيات بدأ الكازاخ يتجـاوزون الـروس عدديـا ، وبالتالى فلم يعودوا يمثلون شعبا مهددا فى هويته وبقائه كما كانوا دوما . وقد راح المثقفون الكازاخ - الذين طالما رصدوا التطور الديموجرافى لجماعتـهم العرقية - يدركون أن هذه الجماعة قد باتت تمثل الجماعة الأكثر عددا فـى وطنها ، وبالتالى فإنه يتعين أن يمثل الكازاخ الجماعة المسيطرة التى يحتـل المنتمون لها أغلب مواقع السلطة داخل الجمهورية الكازاخيـة (١) . ونظـرا لكل ماتقدم فقد كان رد فعل الكازاخ عنيفا إزاء قيام موسكو بـترويس قيـادة الحزب الشيوعى الكازاخستانى فى نهاية عام ١٩٨٦ ، ذلك بأنهم قد أدركـوا أن هويتهم لما تزل موضع تهديد ، وبالتالى فقد سادتهم مشـاعر الاسـتياء والإحباط ، على نحو هيأ لتأجج الشعور العرقى لديهم ، فانطلقوا إلى شوارع ألما آتـا بالآلاف، وفى حمية عرقية جارفة راحوا يـرددون " كازاخسـتان للكازاخستانيين وفقط للكازاخستانيين " ، ويحطمون أى مظهر صادفهم مـن مظاهر الترويس ، وعلى رأسها مبنى الحزب الشيوعى .

ولقد حدث ذلك فى وقت كـان الزعمـاء السـوفييت فيـه يعتـبرون كازاخستان المكان المثالى لتطوير التصور الأممى السوفيتى ، لاسـيما وأن الكازاخ كانوا - إلى جانب الليتوانيين - هم أكثر الجماعات العرقية السـوفيتية غير الروسية إتقانا للغة الأخ الأكـبر ، غـير أن ملاحظـة واقـع الحيـاة الإجتماعية والسياسية فى كازاخستان يؤكد - كما يقول البعض - أن إقبـال الكازاخ على تعلم الغة الروسية لم يكن وليد رغبة فى التقارب مع الـروس ، وإنما كان نابعا من حكم الضرورة ، إذ أنهم كانوا يعيشون فى دولة فرضـت فيها ضخامة عدد الروس من ناحية ، وسياسات الـترويس التـى انتهجتـها موسكو إزاءها من ناحية أخرى أن تكون الروسـية هـى اللغـة الوحيـدة

---

(١) أنظر فى هذا المضمون بتفاصيل أخرى : المرجع السابق ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

المستخدمة فى الحياة العامة ، وذلك على الرغم من أن اللغة الكازاخية كانت - نظريا - تعتبر متساوية من حيث المعاملة مع اللغة الروسية . أما فى الواقع فإن أية إدارة لم يكن بمقدورها أن تفهم اية طلبات كتبت باللغة الكازاخية ، كما أنها لم تكن تملك أية أوراق رسمية مكتوبة بهذه اللغة . إلى جانب أن كافة المكاتب الرسمية التى يعمل فيها الكازاخستانيون لم تكن توفر سوى عدد ضئيل من الآلات الكاتبة التى أقلمت حروفها مع اللغة الكازاخية ، وبالتالى فقد كانت موظفات الآلة الكاتبة اللاتى دربن على استخدام اللغة الكازاخية مضطرات لإخلاء أماكنهن للروسيات أو المروسات ، ذلك فضلا عن أن الأجهزة والوسائل التعليمية فى المدارس كانت تتماشى مع اللغة الروسية فحسب [١] .

والحق أن الكازاخ كانوا يشعرون بالاستياء وهم يرون لغتهم قد حلت فى مرتبة ثانية داخل جمهوريتهم ، فى الوقت الذى تبوأت فيه اللغة الروسية - عملا - المرتبة الأولى ، بحيث أضحت تمثل فى الواقع - اللغة الرسمية لكازاخستان ، وبالتالى فقد بات الكازاخ مهددين فى واحد من أظهر مقومات هويتهم ألا وهو اللغة ، لذلك فما أن أضحوا - مع منتصف الثمانينيات - يشكلون جماعة الأغلبية فى وطنهم حتى صار واحدا من أبرز أهدافهم الملحة تدعيم وضع لغتهم ، بحيث تصبح اللغة الرسمية للجمهورية الكازاخية . ولقد تحقق للكازاخ ما أرادوا - بالفعل - فى سبتمبر عام ١٩٨٩ ، عندما أقر مجلس السوفييت الأعلى لكازاخستان قانونا لغويا جديدا ، بمقتضاه أصبحت الكازاخية هى اللغة الرسمية للجمهورية ، فى حين ظلت اللغة الروسية لغة التواصل بين الأعراق [٢] . وتتعين الإشارة - كذلك - إلى أن الكازاخ قد راحوا بدءا من عام ١٩٨٩ يشرعون فى تعليم أبنائهم الحروف العربية، كما

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : المرجع السابق ، ص ٦٩ ، ٧٣ .

(٢) أنظر بصدد هذا القانون :

Svanberg, Op. Cit., p. 208.

بدأ القائمون على الصحف التى تخاطب الناشئة يخصصون قسما منها لتعليم الأبجدية العربية (١) . ويمكن القول إن هذا الاتجاه من جانب الكازاخ كان يستهدف غاية قوامها العودة فى أقرب وقت ممكن إلى كتابة لغتهم بالأحرف العربية ، وذلك بعد أن ظلت لعقود عديدة تكتب بالحروف السيريلية على نحو ماقدمنا .

وعلى صعيد آخر فإنه تجدر الإشارة إلى أن الكازاخ - بعدما أصبحوا جماعة الأغلبية فى وطنهم - قد غدوا شديدى الاعتداد بهويتهم العرقية ، بحيث أصبح من شأن أى حدث يمس تلك الهوية أن يستثيرهم . وقد ظهر ذلك بجلاء من خلال الاضطرابات العرقية واسعة النطاق التى شهدتها الجمهورية الكازاخية فى صيف عام ١٩٨٩ . وهى الإضطرابات التى انطلقت من مدينة نوفى أوزن Novi Uzen فى ١٦ يونيو على إثر مجابهة محدودة بين بعض الشباب الكازاخ ونظرائهم من القوقازيين الذين كانوا قد هجروا من قبل إلى كازاخستان . وقد حدثت تلك المجابهة خلال حفل للرقص الشعبى ضم شبابا من الكازاخ والقوقازيين، وعلى إثرها نزل الكازاخ إلى الشوارع صابين جام غضبهم على المهجرين الذين كانوا قد جئ بهم فى الماضى من داغستان ، حيث راح الكازاخ يهاجمون كل من بدا لهم أنه من أصل قوقازى ، كما طال هجومهم المحال والمبانى العامة ، ذلك فضلا عن مهاجمة مراكز الشرطة ، ومحاولة الاستيلاء على الأسلحة الموجودة بها. كذلك فقد شلت حركة السكك الحديدية ، وأغلقت المؤسسات ، وخرجت العديد من المظاهرات الشعبية شارك فيها النساء والأطفال . وإزاء ذلك تدخلت قوات الأمن بغية احتواء الموقف ، مستخدمة وسائل عديدة كإطلاق النيران فى الهواء ، الهراوات ، والقنابل المسيلة للدموع ، ثم أعلنت حظر التجول داخل نوفى أوزن فى ١٩ يونيو ١٩٨٩ ، بهدف شل حركة المتظاهرين . غير أن المتظاهرين سرعان ما امتدت انتفاضتهم إلى أقصى غرب

---

(١) Ibid.. p. 209.

الجمهورية ، عند ضفاف بحر قزوين ، حيث شلوا الحركة الإقتصادية هنـــا، وراحوا يرهبون المهجرين الأرمن ، كما امتدت أعمال العنف إلى الأجـــزاء الشرقية من كازاخستان ، ووصلت حتى ألما آتا (١) .

وقد تمخضت تلك الاضطرابات عن مصرع وإصابة عشرات الأفراد ، كما أدت إلى فرار الآلاف من القوقازيين إلى الجمهوريات المجاورة ، ذلـــك فضلا عن حدوث خسائر جسيمة لاسيما فى قطاع البترول ، حيث تعد منطقة نوفى أوزن منطقة بترولية هامة (٢) .

وهكذا يبدو فى ثنايا ماتقـــدم كم كان البناء العرقى السوفيتى هشـــا ، وكم كانت العلاقات بين الشعوب السوفيتية بعيدة عن الصداقة ، تلك الصداقـة التى طالما تغنى بها زعماء الكريملين ، إلى حد توهم وجود شعب ســـوفيتى واحد . ولكن أى شعب ذلك الذى يستل أفراده السيف إزاء بعضهم البعـــض بسبب خلافات تافهة خلال حفل رقص شعبى ؟.

على أية حال فقد شهـــد شهر سبتمبر عام ١٩٨٩ حدثا هاما بالنســـبة للكـــازاخ ، فخلال ذلك الشهر تم استبعاد الروسى جينـــا دى كولبيـــن مـــن زعامة الحزب الشيوعى الكازاخستانى ، وبطبيعة الحال فلم تجرؤ موســكو - فى ظل المشاعر العرقية المتأججة لدى الكازاخ - على تعيين روسى آخــــر مكان كولبين ، إذ لم يكن أمامها - كى تحافظ على استقرار الأوضـــاع فـــى كازاخستان - سوى تعيين أحد الساسة الكازاخ زعيمـــا للحـــزب الشـــيوعى الكازاخستانى ، وهذا هو ماحدث بالفعل إذ تبوأ الكـــازاخى نـــور ســـلطان نزاربييف Nursultan Nazarbaev موقع الزعامة فى ذلك الحزب (٣) .

---

(١) أنظر بصدد أعمال العنف هذه : دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجـــع ســـبق ذكره ، ص ١٥١ ، ١٥٢ . وأيضا :

svanberg, Op. Cit., p.p. 209 – 210 .

(٢) أنظر نفس المرجع السابق .

(٣) Sbanberg, Op. Cit., p. 207.

وجملة القول فى شأن ماتقدم أن كافة السياسات التى انتهجها الزعماء السوفييت بغية طمس الهوية العرقية للكازاخ لم تفلح فى بلوغ غايتها ، ذلك بأن الجماعة الكازاخية قد ظلت قابضة على هويتها ، عاضة بالنواجذ على مقومات ذاتيتها فى مواجهة الجبروت البلشفى ، والمد الروسى ، وبالتالى فقد ظلت نزعتها العرقية مستعرة الأوار ، كما بقيت المشاعر العرقية لأفرادها متقدة الجذوة . ولقد بلغت النزعة العرقية للكازاخ أوج تأججها مع غدوهم الجماعة العرقية ذات الكم البشرى الأكبر فى وطنهم بحلول منتصف عقد الثمانينيات . غير أن هذه النزعة العرقية المتأججة لم تتمخض عن ظهور حركة عرقية (منظمة) تتناسب معها من حيث القوة . إذ كانت الحركة العرقية الكازاخية مشتتة إلى حد كبير ، وبالتالى فقد عازها عنصر التنظيم الذى يجمع شتاتها ، ويصهر طاقات أعضائها فى بوتقة واحدة بغية بلوغ أهدافها . وبدلا من أن تكون ثمة حركة عرقية واحدة قوية وجد عديد من تجمعات صغيرة ، ومحدودة النطاق ، إلتف أعضاؤها حول شعارات دينية أحيانا ، وشعارات تتصل بالحفاظ على البيئة أحيانا أخرى . ولم يقدر لهذه الجماعات أن تتحد فى ظل جبهة شعبية واحدة على نحو ماحدث فى جمهوريات البلطيق . ولعل هذا الضعف التنظيمى الذى اتسمت به الحركة العرقية الكازاخية بالمقارنة بنظيراتها فى البلطيق يرتد إلى تضاؤل الخبرات السياسية - لاسيما مايتصل منها بالممارسات الديمقراطية - لدى الكازاخ الذين ما أن خلصوا من النير القيصرى حتى وقعوا فريسة للسيطرة البلشفية ، وذلك على عكس البلطيقيين الذين تمتعوا بفترة استقلال دامت نحو عقدين قبل أن تجتاح جمهورياتهم جحافل ستالين . وقد أقام البلطيقيون فى جمهورياتهم خلال فترة الاستقلال تلك - كما قدمنا - نظما ليبرالية ، وبالتالى قد كونوا - من خلال تجربتهم هذه - خبرات سياسية لايستهان بها على نحو هيأ لجبهاتهم الشعبية التى أنشأوها خلال النصف الثانى من الثمانينيات التمتع بدرجة مرموقة من الكفاية التنظيمية أكسبتها فاعلية هائلة على نحو ماقدمنا . ونظرا لافتقار الكازاخ إلى الخبرات المتصلة بالممارسات الديمقراطية فإن استخدام

العنف كان أظهر وسائلهم التى توسلوا بها للتعبير عن مطالبـــهم العرقيـــة ، وذلك على النحو الذى أظهرته بجلاء انتفاضة ألما آتا عـــام ١٩٨٦ ، وكـــذا اضطرابات نوفى أوزن عام ١٩٨٩ .

وفيما يتصل بهدف الحركة العرقية الكازاخية يمكن القول أنـــه كـــان يتمثل فى تبوؤ الكازاخ موقع السيطرة فى كازاخستان ، وبالتالى فقد كـــانت هذه الحركة حركة استعلائية تستهدف فى المقام الأول الوصـــول بجماعتـــها العرقية إلى موقع السيطرة فى مجتمعها ، أما فيما يتصل بـــهدف الانفصـــال عن الإتحاد السوفيتى فيمكن القول بأنه لم يكن من بين أهداف الحركة العرقية الكازاخية فى الأجل القصير . ويرتد ذلك إلى عديد من أهداف أظهرها :

١ - انـــه على الرغم من أن الكازاخ قد باتوا يشكلون الجماعة العرقية ذات الكم البشرى الأكبر فى كازاخستان بدءا من منتصف عقد الثمانينيات إلا أن نسبتهم إلى جملة السكان كانت غير كبيرة ، إذ لم يكونـــوا يشـــكلون سوى ٤٠% فقط من سكان الجمهورية ، فى حين كانت نسبة السلاف - ولاسيما الروس - متعاظمة إلى حد كبير ، إذ شـــكل الـــروس حوالـــى ٣٨% ، وبلغت نسبة الأوكرانيين ٥ر٥% من جملة سكان كازاخستان . وهكذا فإن مطالبة الكازاخ بالانفصال كازاخستان عن الإتحاد الســـوفيتى لم تكن تستند إلى إرادة أغلبية السكان ، على نحو بات يخشى معـــه أن تؤدى مثل هذه المطالبة إلى عواقب وخيمة على وحدة الجمهورية .

٢ - ضعف الحركة العرقية الكازاخية نظرا لافتقارها إلى التنظيم ، وافتقـــاد أعضائها للخبرات السياسية الكافية على نحو ما قدمنا .

٣ - ان الزعماء الرسميين الكازاخ - وعلى رأسهم نور سلطان نزاربييف - كانوا شديدى الولاء للشيوعية ، وبالتالى فلم يكونوا ليقدموا على خطـــوة كالانفصال عن الإتحاد السوفيتى تلك الدولة التى كانت تمثل أول تجســـيد للفكرة الماركسية على وجه البسيطة ، والتى ظلت تحمل لواءه وتبشر به عبر عديد من القرون.

ونظرا لكل ماتقدم فقد جاء قرار نزاربييف بانفصال كازاخستان عن الإتحاد السوفيتى متأخرا جدا ، بحيث كانت الجمهورية الكازاخية من أواخر الجمهوريات السوفيتية التى أعلنت استقلالها إن لم تكن آخرها . حيث تم إعلان استقلال كازاخستان فى ١٦ ديسمبر ١٩٩١ (١) .

ومهما يكن من أمر الحركة العرقية الكازاخية فإن ثمة ملاحظة هامة تتعين الإشارة إليها بصدد تلك الحركة . ومؤدى هذه الملاحظة أن الجماعة الكازاخية كانت أولى الجماعات العرقية السوفيتية تعبيرا عن نزعتها العرقية خلال عهد جورباتشوف ، وكان ذلك من خلال انتفاضة ألما آتا فى ديسمبر ١٩٨٦ ، تلك الانتفاضة التى شدت من عضد الجماعات العرقية السوفيتية الأخرى ، وعلمتها أن الوقوف فى وجه موسكو ممكن . وهكذا فعلى الرغم من الضعف التنظيمى الذى كانت عليه الحركة العرقية الكازاخية إلا أنها كان لها عظيم الأثر على غيرها من الحركات العرقية التى انتشرت فى شتى أرجاء الدولة السوفيتية ، خلال العهد الجورباتشوفى ، تلك الحركات التى ما أن تعلمت من انتفاضة ألما آتا أن الثورة على موسكو ممكنة حتى ثارت مطالبة بالاستقلال ، والتخلص من النير السوفيتى .

* * * * *

---

(١) Conway, Op. Cit., p. 164.

المطلب الثاني

الحركة العرقية فى أوزبكستان

أولا : تعريف بجمهورية أوزبكستان وتكوينها العرقى :

تبلغ مساحة جمهورية أوزبكستان ٤٤٧٤٠٠ كيلومتر مربع ، وتتمثل عاصمتها فى مدينة طشقند Tashkent ، ويصل عدد الجمهورية الأوزبكية – حسب تعداد عام ١٩٨٩ – حوالى ١٩٨١٠٠٧٧ نسمة (١) ، يتشكلون من مايربو على ثلاث عشرة جماعة عرقية أظهرها الأوزبك ، والروس ، والطاجيك ، والكازاخ ، والتتار ، والكاراكالباك ، والقرجيز ، والألمان ، والأوكرانيون ، والتركمان ، والترك ، والكوريون ، والمسخص .

ويوضح الجدول التالى تعداد كل من هذه الجماعات العرقية فى أوزبكستان عام ١٩٨٩ :

---

(١) Olcott. Central Asia's post – Empire Politics, Op. Cit., p. 257.

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
الأوزبـــك	١٤١٤٤٣٩٤
الـــــروس	١٦٤٤٢٣٦
الطاجيــــك	٩٣١٠٧٣
الكازاخ	٨١٢٢١٣
التتـــــار	٤٧٥٤٤١
الكاراكالباك	٤١٢٠٠٠
الكوريــون	١٨٣٠٠٠
القرقــيز	١٧٥٠٠٠
الأوكرانيون	١٥٨٤٨٠
التركمــــان	١٢٢٠٠٠
التـــــرك	١٠٦٠٠٠
المسخــــص	٦٠٠٠٠
الألمـــــان	٣٩٦٢٠

المصدر : تم تركيبه بالإستعانة بـــ :

- جار ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٤ ، وكذا :

- Olcott. Centra Asia's Post – Empire Politics,Op. Cit., p. 257. Kangas Roger D.. Uzbekistan : Evolving Authoritarianism. Current History. April. 1994. p.p. 179 – 180 .

ويتضح من خلال الجدول السابق أن الأوزبك يمثلون أغلبية عظيمة الشأن فى وطنهم ، إذ يشكلون حوالى ٧١٫٤ % من جملة سكان الجمهورية الأوزبكية حسب تعداد عام ١٩٨٩ . وينحدر الأوزبك – شأنهم فى ذلك شأن أغلب سكان آسيا الوسطى – من أصل تركى ، ويتكلمون اللغة الأوزبكية . وقد كانت هذه اللغة – خلال حقبة تمتد لأكثر من ألف عام سبقت الثورة البلشفية – تكتب بالحروف العربية ، غير أن البلاشفة – فى إطار حملتهم الضارية لطمس هوية الجماعات العرقية الخاضعة لنيرهم – أجبروا الأوزبك فى البداية على الكتابة بالحروف اللاتينية [١] ، ثم مالبثوا أن ألغوا هذه الحروف وأبدلوها بالحروف السيريلية عام ١٩٤٠ [٢] ، ويدين الأوزبك بالإسلام ، ويعتنقون المذهب السنى[٣] ، وتشتهر أوزبكستان بمدنها العريقة ذات التاريخ الإسلامى الحافل حال سمرقند ، وخوارزم ، وترمذ ، وبخارى ، تلك المدن التى قدمت العديد من فحول العلماء المسلمين فى شتى مجالات المعرفة ، وعلى رأس هؤلاء العلماء يأتى كل من البخارى ، والترمذى ، والخوارزمى ، والزمخشرى ، والنسفى ، وإبن سينا [٤] . وكما سبق أن أشرنا فقد تعرض الأوزبك – شأنهم فى ذلك شأن سائر مسلمى آسيا الوسطى – غداة قيام الثورة البلشفية إلى حملات عنيفة من جانب السلطات السوفيتية استهدفت تقويض مقومات ذاتيتهم ، وعلى رأسها الدين . حيث قام البلاشفة – فى هذا الصدد – بحملة عنيفة مضادة للإسلام ، إذ أغلقوا المدارس الإسلامية، وحولوا المساجد إلى نواد ، ودور للسينما ، وصادروا المؤلفات

---

(١) Akiner, Shirin, Uzbeks, in Smith, Graham (ed.), Op. Cit., p.p. 214 – 217.

(٢) محمد عبدالقادر أحمد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٥ .

(٣) Akiner, Op. Cit., p. 214.

(٤) راجع فى هذا المضمون : محمد عبدالقادر أحمد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢١١ ، ٢١٢ .

الدينية حيث قاموا – إثر ذلك – بإعدامها [١] ، ذلك فضلا عن تأليف عشرات الكتب التى تهاجم الإسلام وتدعو إلى الإلحاد . ولكن هل نجح الزعماء السوفييت من خلال ماتقدم فى طمس الهوية العرقية للأوزبك ؟ . هذا ماستتضح الإجابة عليه فى ثنايا السطور التالية .

ثانيا : الحركة العرقية الأوزبكية خلال عهد جورباتشوف :

تتعين الإشارة بداية إلى أن كافة السياسات التى انتهجها الزعماء السوفييت بغية طمس هوية الأوزبك كان مآلها الفشل ، ذلك بأن ملاحظة واقع الجمهورية الأوزبكية – لاسيما خلال الحقبة الجورباتشوفية – تقطع بأن النزعة العرقية لدى الأوزبك ظلت متأججة ، بحيث لم يفلح الجبروت السوفيتى فى إخمادها . لذلك وإزاء المشاعر العرقية الجارفة للأوزبك نجد أن الروس الذين طالما نزحوا بعشرات الآلاف إلى أوزبكستان قد بدأوا يدركون أن عبارة الصداقة بين الشعوب السوفيتية ليست سوى أكذوبة كبرى، وأن عليهم أن يتعاملوا مع واقع مرير قوامه أن ثمة عداء متصاعدا إزاءهم من جانب الأوزبك ، وبالتالى فقد راح الكثيرون منهم يهاجرون من الجمهورية الأوزبكية ، لذلك نجد أن نسبة الروس بين سكان أوزبكستان قد أخذت فى الانخفاض التدريجى منذ نهاية عقد الخمسينيات ، إذ كانت هذه النسبة تبلغ ٥ر١٣% عام ١٩٥٩ ، ثم انخفضت إلى ٥ر١٢% عام ١٩٧٠ ، ثم إلى ٨ر١٠% عام ١٩٧٩ ، وأخيرا إلى ٣ر٨% عام ١٩٨٩ [٢] .

وقد بلغت النزعة العرقية لدى الأوزبك أوج تأججها فى ظل المناخ السياسى الليبرالى الذى تمخضت عنه جلاسنوست جورباتشوف ، حيث راحوا يضفون اهتماما عظيم الشأن على مقومات ذاتيتهم وتمايزهم عن غيرهم من الجماعات العرقية المشكلة للكيان البشرى لمجتمعهم . ويأتى الدين

---

(١) Akiner, Op. Cit., p. 217.

(٢) راجع فى هذا المضمون : دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٤،١٥٥،٣١٧ .

الإسلامى كواحد من أظهر المقومات التى انصب عليها اهتمام الأوزبك البالغ، لاسيما فى عهد المفتى محمد صديق الذى تم انتخابه كمفت لأوزبكستان فى مارس عام ١٩٨٨ . إذ راح محمد صديق يسعى جاهدا إلى فتح المساجد بحيث شهدت الأسابيع القليلة التى أعقبت توليه الإفتاء إفتتاح الكثير منها . كما عمد المفتى الجديد إلى طباعة خمسين ألف نسخة من القرآن الكريم كخطوة أولى فى سبيل غاية تغياها يتمحور هدفها الرئيسى حول وصول مصحف واحد على الأقل إلى كل منزل من منازل الأوزبك . وفضلا عن ذلك فقد بدأ الإعداد لطباعة ترجمة لمعانى القرآن الكريم إلى اللغة الأوزبكية ، وعلى صعيد آخر فقد راحت مدرستا طشقند وبخارى الإسلاميتين تتباريان فى نشر المعرفة الإسلامية ، وتعليم القرآن الكريم . وقد نال محمد صديق شعبية جارفة لدى الأوزبك ، على نحو هيأ لانتخابه كعضو فى مجلس ممثلى الشعب خلال الإنتخابات التى جرت فى مارس عام ١٩٨٩ (١) .

ومن ناحية أخرى وفى إطار الصحوة الدينية التى شهدتها أوزبكستان - فى رحاب الجلاسنوست - نشأ حزب إسلامى يعرف بحزب النهضة الإسلامية Islamic Renaissance Party ، وقد راح هذا الحزب - بطبيعة الحال - يدعو إلى تنظيم المجتمع الأوزبكى فى شتى قطاعاته على هدى من المبادئ الإسلامية (٢) .

واستجابة لواقع قوامه نزعة عرقية متأججة لدى الأوزبك نشأت فى أوزبكستان جبهة شعبية أطلق عليها " بيرليك Pirlik " أو الوحدة Unity ، وقد راحت أهداف بيرليك تتمحور حول الحفاظ على هوية الأوزبك بشتى مقوماتها ، وتأكيد موقعهم كجماعة مسيطرة بين سائر الجماعات العرقية

---

(١) راجع فى هذا المضمون : Akiner, Op. Cit., p.p. 224 – 225.

(٢) أنظر بصدد هذا الحزب وغيره من الأحزاب الأوزبكية :

Kangas, Op. Cit., p.p. 179 – 180.

المشكلة للكيان البشرى لأوزبكستان . ولقد تأسست الجبهة الشعبية الأوزبكية (بيرليك) فى طشقند خلال شهر نوفمبر عام ١٩٨٨ ، على يد كوكبة من المفكرين والمثقفين الأوزبك ، وعلى رأسهم عبدالرحمن بولاتوف الأستاذ بجامعة طشقند . وقد بنى الأوزبك جبهتهم الشعبية على غرار الجبهات الشعبية البلطيقية ، ولاسيما الجبهة الشعبية الليتوانية سايوديس . وسرعان ما اكتسبت بيرليك شعبية هائلة ، ذلك فضلا عن استقطابها لحوالى نصف مليون أوزبكى ناصروها وأصبحوا أعضاء فيها (١) . وتجدر الإشارة إلى أنه فى بداية عام ١٩٩٠ نشأ حزب عرف بحزب إيرك Erk كامتداد لبيرليك ، ويذكر إسم هذا الحزب باسم الحزب الوطنى فى تركستان الذى كان قد تأسس وقت اندلاع الثورة البلشفية ، ولم يعمر طويلا إذ سحقه البلاشفة . وهكذا فإن بيرليك كانت تؤكد إلحاحها فى التمسك بالماضى ، وتمجيد الزعماء التاريخيين (٢) .

ومهما يكن الأمر فلقد كانت بيرليك وراء العديد من المظاهرات التى اندلعت فى أوزبكستان بدءا من أواخر عام ١٩٨٨ ، وهى المظاهرات التى أراد المتظاهرون من خلالها التأكيد على أن أوزبكستان للأوزبك ، فخلال شهور ديسمبر ١٩٨٨ وفبراير وأبريل من عام ١٩٨٩ أدمت طشقند اضطرابات عنيفة ، حيث راح الطلاب والعمال الأوزبك فى الجامعات والمصانع ينتفضون مسلحين بالقضبان الحديدية والعصى وبعض الأسلحة الخفيفة ، صابين جام غضبهم على كل من لاينتمى إليهم ، مهاجمين الأجانب أيا كانوا (٣) .

وفى ٢٣ مايو ١٩٨٩ شهدت مدينة كوسافاى القريبة من طشقند

---

(١) Akiner, Op. Cit., p. 223.

(٢) أنظر فى هذا المضمون : دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٣) أنظر فى هذا المضمون ، نفس المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

إضطرابات عرقية محدودة النطاق بين أفراد من الأوزبك ونظراء لهم من المسخص Meskhetian ، وقد اندلعت هذه الاضطرابات على إثر قيام أحد المسخص بقلب سلة فراولة على بائعة أوزبكية ، اعتراضا منه على ارتفاع سعر الفراولة . وقد أسفرت هذه الاضطرابات المحدودة - في بدايتها - عن مصرع شخص واحد ، وإصابة ستين آخرين بجراح (١) . غير أن تطور الأحداث لم تنته عند هذا الحد ففي الثالث من يونيو ١٩٨٩ انتفض الأوزبك من جديد فى مواجهة المسخص القاطنين لوادى فرغانة Ferghana ، إذ راحت جماعات من الشباب الأوزبك المسلحين بالسلاسل والفئوس والعصى والقضبان الحديدية وعبوات المولوتوف تهاجم منازل القوقازيين مدمرة إياها، حيث قام المتظاهرون الأوزبك - خلال هذه الاضطرابات - بتدمير ما يربو على أربعمائة منزل ، وسيارة (٢) .

وتتعين الإشارة إلى أن المسخص هم جماعة عرقية ينحدر أفرادها من أصل جيورجى ، بيد أنهم اعتنقوا الإسلام وتتركوا جزئيا ، ثم جاء ستالين واجتثهم من قراهم فى أواسط جيورجيا فى نوفمبر عام ١٩٤٤ ، متهما إياهم بالخيانة ، ثم راح يلقى بهم فى عرض طرق كازاخستان وأوزبكستان . ومنذ عام ١٩٥٦ لم يكف المسخص - على غرار التتار - عن النضال من أجل العودة إلى موطنهم الأصلى (٣) . وقد سمح لهم خروشوف بالعودة إلى جيورجيا فى عام ١٩٥٨ ، غير أن ستين ألفا منهم قد ظلوا فى أوزبكستان ، من بينهم إثنا عشر ألفا مكثوا فى فرغانة (٤) .

على أية حال فإن المتظاهرين الأوزبك لم يكتفوا - خلال اضطرابات يونيو ١٩٨٩ - بإحراق وتدمير ممتلكات القوقازيين ، وإنما شرعوا كذلك فى

---

(١) White, Op. Cit., p. 161.

(٢) Ibid.

(٣) دانكوس ، نهاية الإمبراطورية .. ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٦ .

(٤) White , Op. Cit., p. 161.

مهاجمة المبانى العامة ، ولاسيما مراكز الشرطة حيث سعوا إلى الإستيلاء على الأسلحة ، ثم قاموا باحتلال مبنى الحزب الشيوعى فى مدينة فرغانة ، وأخذوا أمينى الحزب كرهينتين ، وبدت قوات الأمن عاجزة عن إيقاف الانتفاضة فخفت إلى دعمها وحدات من الجيش النظامى ، بيد أن ذلك لم يحل دون اتساع نطاق الانتفاضة ، ووصولها إلى مدينة كوكاند Kokand ، حيث ظهرت الأسلحة الأوتوماتيكية فى أيدى المتظاهرين ، وهوجمت السكك الحديدية ، وهدد المنتفضون بنسف المدينة ، وقتل الرهائن إذا لم تستجب السلطات لمطالبهم المتمثلة فى ترحيل المسخص إلى خارج أوزبكستان ، وسرعان ما اشتعلت الجمهورية بأسرها وراح عدد الضحايا يتزايد ، وشرع المتظاهرون الأوزبك فى مهاجمة المخيمات التى أقامتها السلطات لإيواء المسخص وحمايتهم . وقد أسفرت أعمال العنف تلك عن مصرع مائة شخص ، وجرح أكثر من ألف آخرين ، ذلك فضلا عن فرار مايربو على الثلاثين ألفا من المسخص إلى الجمهوريات المجاورة (١) .

وبحلول عام ١٩٩٠ بدأ الأوزبك فى مهاجمة جماعة عرقية أخرى تقطن جمهوريتهم ، وقد دارت الدائرة هذه المرة على الأرمن المقيمين فى سمرقند ، غير أنه يبدو – على حد قول البعض – أن السلطات السوفيتية كانت قد تعودت على وجود اضطرابات عرقية فى أوزبكستان ، وبالتالى فإن انتفاضة سمرقند لم تلفت نظرها (٢) .

وهكذا فما أن خفت القبضة البلشفية الجبارة عن الشعوب السوفيتية – فى إطار الجلاسنوست – حتى راح كل منها يكشر عن أنيابه فى مواجهة الآخرين ، وتلكم هى الصداقة بين الشعوب السوفيتية التى هى – فى تقدير الزعماء السوفييت– أعظم ثمرات ثورة أكتوبر . ولعله يكون من حقنا – بعد

---

(١) أنظر فى هذا الصدد بالتفصيل : دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢) أنظر فى هذا المضمون : نفس المرجع السابق .

كل ماقدمنا – أن نتساءل : إن لم يكن هذا الـــذى حـــدث فـــى كازاخســـتان وأوزبكستان وغيرهما هو العداء فكيف يكون العداء إذن ؟

على أية حال – وعلى صعيد آخر – فإنه تتعيـــن الإشـــارة إلـــى أن الأوزبك – فى إطار سعيهم لدعم مقومات ذاتيتهم – قـــد خـــاضوا معركـــة سياسية ضارية تزعمتها بيرليك بغية جعل الأوزبكية هـــى اللغـــة الرســـمية لأوزبكستان ، وأمام الضغوط التى قادتها بيرليك أذعن البرلمان الأوزبكـــى لهذا المطلب الشعبى ، حيث أصدر قانونا فى صيف عـــام ١٩٨٩ صـــارت بمقتضاه الأوزبكية هى اللغة الرسمية لأوزبكستان ، وما أن تحقق لبـــيرليك ماكانت تصبو إليه حتى راحت تضغط من جديد على السلطات كـــى توافـــق على إلغاء كتابة الأوزبكية بالأبجدية الســـيريلية ، والعـــودة إلـــى كتابتـــها بالحروف العربية . وكانت الشعوب الإسلامية فى آسيا الوسطى قد راحـــت – قبل أن يسمح لها القانون بذلك – تشرع فى نشر الأبجديـــة العربيـــة عـــبر المطبوعات الجديدة ، وعلى رأسها الصحف التى راحت تنشر بـــالأبجديتين الروسية والعربية ، كما استجدت داخل جمهوريات آسيا الوســـطى ظـــاهرة قوامها انتشار دروس تعليم الأبجدية العربية . وهكذا فقد كان على الـــروس فى تلك الجمهوريات – ولاسيما أوزبكستان – أن يستعدوا للرحيل ، أما مـــن يرغب منهم فى البقاء فقد بات لزاما عليه أن يتآلف مع لغـــة الدولـــة التـــى يقطنها . إن هذا الرفض من جانب الشعوب غير الروسية للغة الروس هـــو – على حد قول البعض – مجرد مؤشر على هشاشة " شـــعار الصداقـــة بيـــن الشعوب " (١) ، الذى طالما تشدق به الزعماء السوفييت .

وجملة القول فى شأن ماتقدم أن النزعة العرقية لدى الأوزبك قد بلغـــت أوج عنفوانها خلال عهد جورباتشوف ، وفيما يتصـــل بالحركـــة العرقيـــة الأوزبكية يمكن القول أنها كانت على درجة يعتد بها من التنظيم ، وإن كـــان يغلب على وسائلها طابع العنف . أما بصدد أهدافها فيتضح من خلال مـــاتقدم

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .

أنها كانت تتمحور حول أن تكون أوزبكستان للأوزبك ، حتى وإن اقتضى الأمر طرد سائر الجماعات العرقية الأخرى من الجمهورية الأوزبكية .

. وهكذا يمكن القول بأن الحركة العرقية الأوزبكية كانت حركة استعلائية ، وإن كانت قد غالت فى الاستعلاء ، إذ سعت إلى أهدافها بشتى السبل بما فى ذلك الافتئات على حقوق الجماعات العرقية الأخرى القاطنة لأوزبكستان ، بما فى ذلك حقها فى الوجود داخل الجمهورية الأوزبكية . أما فيما يتعلق بالانفصال عن الإتحاد السوفيتى فإنه لم يكن من بين الأهداف المعلنة للحركة العرقية الأوزبكية ، ومرد ذلك – من وجهة نظرنا – إلى تعاظم قوة الشيوعيين داخل المؤسسات السياسية الرسمية فى أوزبكستان ، إذ كان على رأس هذه المؤسسات قاطبة الزعيم الأوزبكى الشيوعى المتعصب إسلام كريموف Islam Karimov ، والذى لم يكن ليتقبل أية فكرة ينادى القائلون بها بالانفصال عن الإتحاد السوفيتى الذى هو بمثابة قلعة الشيوعية ، ورمزها الرئيسى فى العالم المعاصر .

ونظرا لما تقدم فقد كانت أوزبكستان من أواخر الجمهوريات السوفيتية إعلانا لاستقلالها حيث تم ذلك فى ٥ سبتمبر عام ١٩٩١ (١) ، وفى وقت بات واضحا فيه أن الإتحاد السوفيتى منهار لامحالة ، وأنه لاسبيل ألبتة إلى بقائه .

ومهما يكن الأمر فإن ثمة حقيقة لاسبيل إلى إنكارها فى النهاية ألا وهى أن الصراعات الدامية التى اندلعت بين الجماعات العرقية القاطنة لأوزبكستان قد جاءت لكى تؤكد بجلاء على أن الصداقة بين الشعوب السوفيتية كانت مجرد شعار أجوف ، ليس له سند من حقيقة ، ولاظل من واقع .

* * * * *

---

(١) Kangas, Op. Cit., p. 178 .

المطلب الثالث

الحركة العرقية فى طاجيكستان

أولا : تعريف بجمهورية طاجيكستان وتكوينها العرقى :

تبلغ مساحة جمهورية طاجيكستان ١٤٣١٠٠ كيلو متر مربع ، وتتمثل عاصمتها فى مدينة دوشانبى Dushanbe . وقد وصل عدد سكان الجمهورية - حسب تعداد عام ١٩٨٩ - إلى حوالى ٥٠٩٢٦٠٣ نسمة [١] ، يتشكلون من مايربو على الستة جماعات عرقية ، أظهرها الطاجيك ، والأوزبك ، والروس ، والتتار ، والقرقيز ، والأوكرانيون .

ويوضح الجدول التالى عدد كل من هذه الجماعات حسب تعداد عام ١٩٨٩:

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
الطاجيك	٣١٧٢٦٩١
الأوزبك	١٢٢٢٢٢٤
الروس	٤٠٧٤٠٠
التتار	٧٢٠٠٠٠
القرقيز	٥٠٩٢٦
الأوكرانيون	٤٠٧٤٠

جدول رقم (١٤)

(١) Olcott, Central Asia's Post – Empire Polities, Op. Cit., p. 257.

المصدر : تم تركيبه بالإستعانة بـــ :

- جار ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٥.
- وكذلك : Olcott, Central Asia's Post – Empire Polities, Op. Cit., p. 257.

ويتضح في ثنايا الجدول السابق أن الطاجيك يشكلون أغلبية يعتد بـــها بين كافة الجماعات التي تشاركهم وطنهم ، حيث تبلغ نسبتهم إلى جملة سكان طاجيكستان حوالي ٣ر٦٢% ، كما يلاحظ أن الأوزبـــك يشـــكلون كـــبرى الأقليات القاطنة للجمهورية الطاجيكية ، إذ تبلغ نسبتهم إلـــى جملـــة ســـكان الجمهورية حوالي ٢٤% . وتجدر الإشارة إلى أن الطاجيك ينحدرون مـــن أصل إيراني ، متفردين في ذلك عن باقي ســـكان آســـيا الوســـطى الذيـــن ينحدرون من أصل تركي على نحو ما أشرنا سلفا . ويتكلم الطـــاجيك لغـــة تعرف باللغة الطاجيكية ، وتنتمي هذه اللغة إلى المجموعة اللغوية الإيرانيـــة Iranian Family ، وبالتالي فهي وثيقة الصلة باللغة الفارسية التي يتكلم بـــها الإيرانيون وبعض سكان أفغانستان . ولقد كان الطاجيك – حتى عـــام ١٩٢٧ – يكتبون لغتهم بالأبجدية العربية ، غير أن السلطات السوفيتية أصـــدرت – في ذلك العام – قرارا يقضي بكتابة الطاجيكية بـــالأحرف اللاتينيـــة ، ثـــم سرعان ماعادت السلطات – في عام ١٩٤٠ – وأصـــدرت قـــرارا آخـــر بمقتضاه أجبر الطاجيك على كتابة لغتهم بالأبجدية الســـيريلية [١] ، ويديـــن الطاجيك بالإسلام ، حيث يعتنقـــون المذهـــب الســـني [٢] . وقـــد شـــهدت طاجيكستان – خلال عهد جورباتشوف – اتجاها قويا مـــن جـــانب قطـــاع لايستهان به من الطاجيك نحو الالتزام بالقيم والمبـــادئ الإســـلامية . وقـــد تمخض هذا الواقع – في البداية – عـــن ظـــهور تنظيمـــات ســـرية ، راح أعضاؤها يجندون طلاب المدارس والشباب العاطلين لتوزيع رســـائل علـــى أفراد الشعب الطاجيكي يحثونهم فيها على تنشئة أبنائهم على هدى من التعاليم

---

(١) Payne. Op. Cit., p. 259, 263.

(٢) White, Op. Cit., p. 141.

الإسلامية . وشيئا فشيئا راحت هذه التنظيمات تطفو على السطح، وانتشر أعضاؤها في سائر ربوع طاجيكستان يعلمون الناس القرآن (١) .

ومع تزايد قوة الإتجاه الإسلامي في طاجيكستان ظهر إلى حيز الوجود تنظيم شعبي إسلامي واسع النطاق عرف بحركة المقاومة الإسلامية Islamic Resistance Movement . وقد تمثل الهدف المحوري لهذه الحركة في إعادة تنظيم المجتمع الطاجيكي بشتى قطاعاته استنادا إلى أسس إسلامية . وفي سبيل ذلك فقد شرع أنصار حركة المقاومة في محاربة الشيوعية بشتى الوسائل ، ومن بينها إستخدام القوة المسلحة (٢) على النحو الذي سنعرض له لاحقا .

ثانيا : الحركة العرقية الطاجيكية خلال عهد جورباتشوف :

يتضح في ثنايا ماتقدم أن الطاجيك قد راحوا - في ظل البريسترويكا- يتجهون تترا نحو الالتزام بتعاليم الإسلام ، باعتباره واحدا من أبرز مقومات هويتهم. والحق أن اهتمام الطاجيك بمقومات هويتهم لم يقتصر على الدين ، وإنما شمل كذلك اللغة والثقافة ، ففي رحاب ما أفرزته الجلاسنوست من مناخ ليبرالي راح لفيف يعتد به من أساتذة الجامعة والمثقفين الطاجيك يطالبون بأن تصبح اللغة الطاجيكية هي اللغة الرسمية لطاجيكستان ، وأن تستخدم اللغة الروسية كلغة للتواصل بين الأعراق فحسب ، وسرعان مالاقى هذا المطلب تأييدا واسع النطاق من جانب الشعب الطاجيكي . وعلى سبيل المثال ففي ٢٤ فبراير عام ١٩٨٩ تجمع مئات من الطلاب الطاجيك في ميدان لينين بوسط دوشانبي مطالبين بأن تكون لغتهم هي اللغة الرسمية للجمهورية التي تحمل إسمهم ، وقد رفع المتظاهرون شعارات أظهرها :

---

(١) أنظر في هذا المضمون : Payne. Op. Cit., p. 271.

(٢) أنظر في هذا المضمون :

Tadjbakhsh, Shahrbanou, Tajikistan : From Freedom to War, Current History, April. 1994, p.p. 173-175.

" إن الطاجيكية سوف تصبح اللغة الرسمية للدولة " ، وكذا : " نحن نطالب بإحياء الثقافة الطاجيكية القديمة " (١) .

وتتعين الإشارة إلى أنه أمام هذا الاتجاه الشعبى الجارف لم يكن بوسع السلطات الطاجيكية سوى الاستجابة لمطلبه ، ففى ٢٢ يوليو ١٩٨٩ صدر فى طاجيكستان قانون جديد أصبحت بمقتضاه الطاجيكية هى اللغة الرسمية لطاجيكستان (٢) . ولعله مما يستحق التنويه أن الطاجيك كانوا قد راحوا - حتى قبل صدور قانون يوليو عام ١٩٨٩ - يشرعون فى تعليم الأبجدية العربية على نطاق واسع ، شأنهم فى ذلك شأن سائر شعوب آسيا الوسطى .

وعلى صعيد آخر فإن النزعة العرقية لدى الطاجيك لم تكن أقل تأججا من النزعة العرقية لدى كل من الكازاخ والأوزبك . وقد تجلى أول مظاهر التعبير عن تلك النظرة فى يونيو عام ١٩٨٦ ، حيث شهدت دوشانبى مظاهرة ضمت بضعة آلاف من الطاجيك ، راحوا يهاجمون كل من بدا لهم أنه غير طاجيكى . كذلك فمن المظاهر التى أكدت تأجج النزعة العرقية الطاجيكية قيام الطلاب الطاجيك - فى مظاهرات فبراير ١٩٨٩ - بالاعتداء كل من لايفهم لغتهم . غير أن أهم الأحداث التى تمخضت عنها النزعة العرقية لدى الطاجيك قد تمثل فى المظاهرات الضخمة التى شهدتها دوشانبى فى ١١ فبراير عام ١٩٩٠ . وهى المظاهرات التى كانت موجهة إلى كل من هو غير طاجيكى ، أيا كانت نحلته . وقد راح المتظاهرون يهتفون : " طاجيكستان للطاجيكستانيين " ، وكذا : " أوقفوا هجرة الروس " ، فضلا عن " فليرحل الروس " ، وهى ذات الهتافات التى رفع بها الأوزبك عقيرتهم فى طشقند . على أية حال فإن المتظاهرين فى دوشانبى لم يكتفوا بالهتاف ، كما أن عنفهم لم يقتصر على الروس ، ذلك بأنهم راحوا كذلك يطالبون بترحيل الأرمن . وقد شهدت هذه المظاهرات أعمال عنف اقتربت بها من الحرب

---

(١) Payne. Op. Cit., p.p. 268-270.

(٢) دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٦.

الحقيقية ، إذ قام المتظاهرون بالهجوم على قوات الأمن ، بل وقوات الجيش التي كانت قد خفت لنجدتها ، مستخدمين في ذلك أسلحة على درجة يعتد بها من التطور ، وهكذا فقد بدا أن زمن استخدام المتظاهرين للقضبان الحديدية قد ولى . أيا كان الأمر فقد أسفرت هذه المجابهة عن سقوط مايربو على العشرين قتيلا ، ونحو ستمائة جريح (١) .

وتجدر الإشارة بصدد العلاقات بين الأعراق في طاجيكستان إلى أن ثمة مشاعر غير ودية تسود العلاقات بين الطاجيك والأوزبك ، سواء داخل الدولة الطاجيكية ، أو داخل الدولة الأوزبكية . ففي طاجيكستان يعيش – كما أسلفنا الإشارة – حوالي ١٢٢٢٢٢٤ أوزبكي يشكلون ٢٤% من عدد سكانها. ويعامل الأوزبك في طاجيكستان معاملة الدخلاء ، باعتبارهم – في رأى الطاجيك – يمثلون حضارة دنيا ، إذ يعتبر الطاجيك أنفسهم أبناء الثقافة الفارسية الكلاسيكية ، ويعتبرون جيرانهم برابرة يتعين عليهم إن هم أرادوا العيش فوق الأراضي الطاجيكية أن يقبلوا بثقافة الطاجيك ولغتهم ، وإلا فليرحلوا . كذلك فإن الطاجيك يبدون استياءهم إزاء الأوضاع التي يعيشها بنو نحلتهم داخل الأراضي الأوزبكية ، حيث يوجد حوالي ٩٣١١٠٧٣ طاجيكي يعيشون مع مايربو على ١٤ مليون أوزبكي . ويشكو الطاجيك في أوزبكستان مما يطلقون عليه : " الضغوط الثقافية "، وكذا " الإمبريالية الأوزبكية " . من جانب آخر فإن ثمة خلافا بين طاجيكستان وأوزبكستان بصدد الأحقية في السيطرة على مدينتي بخارى وسمرقند ، حيث يطالب الطاجيك بعودة المدينتين إلى طاجيكستان ، باعتبار أن الثقافة السائدة فيهما هي الثقافة الطاجيكية (٢) .

وجملة القول في شأن ماتقدم أن النزعة العرقية لدى الطاجيك قد بلغت

---

(١) راجع بصدد هذه المظاهرات بالتفصيل : المصدر السابق ، من ص ١٤٧ إلى ص ١٥٥ .

(٢) أنظر في هذا المضمون : المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

ذروة تأججها خلال عهد جورباتشوف ، غير أن الحركة العرقية الطاجيكية – شأنها فى ذلك شأن الحركات العرقية فى جمهوريات آسيا الوسطى قاطبة – كانت تفتقر إلى التنظيم الفعال ، كما كان زعماؤها ضئيلى الخبرة السياسية . وفضلا عن ذلك فقد اتسمت تلك الحركة بالتشتت ، إذ كان ثمة تنظيمات عديدة – أغلبها محدود النطاق – تشرذم فيما بينها المثقفون الطاجيك . وعلى أية حال فقد كان أظهر هذه التنظيمات قاطبة حركة المقاومة الإسلامية ، تلك الحركة التى لقيت مبادؤها رواجا هائلا لدى الطاجيك وبالتالى فقد كونت قاعدة شعبية لايستهان بها [١] .

وعلى أية حال فإنه يمكن القول أن الهدف المحورى للحركة العرقية الطاجيكية كان يتمثل فى تأكيد الموقع المسيطر للطاجيك داخل جمهوريتهم ، وبالتالى فقد كانت حركة استعلائية ، وإن كانت قد غالت فى الاستعلاء ، مطالبة بإبعاد كل من هو ليس طاجيكيا عن طاجيكستان ، على اعتبار أن طاجيكستان للطاجيكستانيين وفقط للطاجيكستانيين ، أما فيما يتصل بالانفصال عن الإتحاد السوفيتى فيمكن القول أنه لم يكن من بين أهداف الطاجيك فى الفترة القصيرة ، إذ أن الحركة العرقية الطاجيكية كانت – من وجهة نظرنا – لاطاقة لها بتبنى مثل هذا الهدف ، نظرا لتشتتها وضعفها التنظيمى ، وضحالة الخبرة السياسية لزعمائها ، ذلك فضلا عن سيطرة شيوعيين متعصبين للماركسية وللإتحاد السوفيتى على مقاليد الأمور فى طاجيكستان ، وعلى رأس هؤلاء جميعا الزعيم الطاجيكى الممالئ بالكريملين رحمون نبييف Rahmon Nabiev ، كذلك فقد كان الشيوعيون يشكلون ٩٥% من جملة عدد أعضاء البرلمان الطاجيكى . ويتعين التنويه إلى أن هذا البرلمان قد اجتمع فى جلسة طارئة غداة انتفاضة دوشانبى – فى فبراير ١٩٩٠ –وقرر إعادة تنصيب تماثيل لينين التى كان الطاجيك قد اقتلعوها من ميادين عاصمتهم

---

(١) أنظر فى هذا المعنى : adjbakhsh, Op. Cit., p. 173.

أثناء تلك الانتفاضة [١] .

ونظرا لكل ماتقدم فقد كانت طاجيكستان من بين أواخر جمهوريات الإتحاد السوفيتي إعلانا لاستقلالها ، إذ تم ذلك في شهر سبتمبر عام ١٩٩١ ، أي في وقت كان قد بات واضحا للجميع فيه أن الإتحاد السوفيتي لامحالة متفكك على النحو الذي سنعرض له لاحقا .

غير أنه لايفوتنا في النهاية أن نشير إلى أن حربا ضروسا بدأت رحاها في الدوران غداة إستقلال طاجيكستان بين قوات النظام الطاجيكي الشيوعي من جهة ، وقوات حركة المقاومة الإسلامية من جهة أخرى . إذ ترفض الحركة استمرار النظام الشيوعي في حكم طاجيكستان ، وتأبى إلا أن ينظم المجتمع الطاجيكي بشتى قطاعاته على هدى من المبادئ الإسلامية ، وسرعان ماتدخلت روسيا إلى جانب نبييف كما راح الزعيم الأوزبكي الشيوعي كريموف يسانده خوفا من انتشار المد الإسلامي إلى أوزبكستان ، في حين راحت أفغانستان تساند حركة المقاومة وتدعمها بالسلاح ، أما إيران فقد اكتفت بالدعم السياسي العلني ، والدعم العسكري في السر . وحتى وقتنا هذا لم يحسم الصراع بين رحمون وحركة المقاومة ، ذلك الصراع الذي اسفر في عام ١٩٩٢ وحده عن مصرع عشرين ألف فرد ، وتشريد ١٠% من سكان طاجيكستان [٢] .

---

(١) أنظر في هذا المضمون : محمد عبدالقادر أحمد ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٠ .

(٢) أنظر في هذا الصدد بالتفصيل :

Tadjbakhsh, Op. Cit., p.p. 173-177.

المطلب الرابع

الحركة العرقية فى تركمانستان

أولا : تعريف بجمهورية تركمانستان وتكوينها العرقى :

تبلغ مساحة جمهورية تركمانستان ٤٨٨١٠٠ كيلو متر مربع ، وتتمثل عاصمتها فى مدينة عشق أباد Ashkhabad ، ويبلغ عدد سكان الجمهورية - حسب تعداد عام ١٩٨٩ - حوالى ٣٥٢٢٧١٧ نسمة [١] ، يتشكلون من مايربو على السبع جماعات عرقية ، أظهرها التركمان ، والروس ، والأوزبك ، والقرقيز ، والكازاخ، والتتار ، والأوكرانيون . ويمثل التركمان أغلبية يعتد بها فى تركمانستان، إذ يشكلون - كما سيتضح من الجدول التالى- حوالى ٧٢% من سكان الجمهورية التركمانية .

ويقدم الجدول التالى سردا لعدد كل من الجماعات العرقية السبع الرئيسية فى تركمانستان حسب تعداد عام ١٩٨٩ :

(١) Olcott. Central Asia's Post – Empire Politics . Op, Cit., p. 257.

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
التركمـــــان	٢٥٣٦٣٥٦
الــــروس	٣٣٣٩٧٣
الأوزبـــــك	٣١٧٠٤٤
القرقــــيز	٨٧٩٩٣
الكــــازاخ	٧٠٤٥٤
التتــــــار	٣٨٩٩٧
الأوكرانيـــون	٣٥٩٩٧

جدول رقم (١٥)

المصدر : تم تركيبه بالإستعانة بالمراجع الآتية :

- جار ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٦.
- Olcott, Central Asia's Post – Empire Politics, Op. Cit., p. 257.

Nissman, David, Turkmenistan (UN) Tranformed, Current History, April, 1994, p. 184.

وينحدر التركمان – شأنهم فى ذلك شأن معظم سكان آسيا الوســطى – من أصل تركى ، كما أن اللغة التركمانية تنتمى إلى مجموعة اللغات التركية، وقد كانت هذه اللغة حتى عام ١٩٢٦ تكتب بـــالحروف العربيـــة ، بيــد أن السلطات السوفيتية أصدرت – فى ذلك العام – قرارا أجبر التركمان بمقتضاه على كتابة لغتهم بالأحرف اللاتينية ، ثم عادت هذه السلطات – عام ١٩٣٨ – وأصدرت قرارا جديدا يقضى بكتابة الغة التركمانية بالحروف السيريلية (١)

(١) أنظر فى هذا المضمون :

Bohr, Annette. Turkmen, in : Smith, Graham (ed.), Op. Cit., p.p:. 230-231.

ويدين التركمان بالإسلام ، ويعتنقون - حالهم فى ذلك حال أغلب سكان آسيا الوسطى - المذهب السنى ، وتتعين الإشارة إلى أن التركمان قد شاركوا بفاعلية فى حركة البسماتشى المناهضة للبلاشفة خلال عقد العشرينيات ، حيث قاد كفاحهم الزعيم التركمانى محمد قربان خان . وعلى صعيد آخر فقد شنت السلطات السوفيتية حملة عنيفة معادية للإسلام فى تركمانستان ، ويكفى لكى ندلل على ضراوة هذه الحملة أن نذكر أن عدد المساجد فى تركمانستان الذى كان يبلغ الخمسمائة مسجد عام ١٩١٧ قد انخفض إلى أربعة مساجد فقط عام ١٩٧٩ (١) .

وأيا كان الأمر فإن التركمان - شأنهم فى ذلك شأن سائر مسلمى آسيا الوسطى - ظلوا قابضين على هويتهم ، ملتفين حول مقومات ذاتيتهم ، وبالتالى فإن كافة السياسات التى انتهجها الكريمليين بغية تقويض هذه المقومات لم تفلح فى بلوغ غايتها . ويؤكد ذلك - على سبيل المثال - ماشهدته تركمانستان فى ظل الجلاسنوست - من اتجاه واسع النطاق من جانب التركمان نحو تأكيد هويتهم الإسلامية ، وما صاحب ذلك من مظاهر أبرزها التوسع فى بناء المساجد ، وتعليم القرآن ، والعمل على ترجمة معانيه إلى اللغة التركمانية (٢) .

ثانيا : الحركة العرقية التركمانية خلال عهد جورباتشوف :

إن ملاحظة واقع الحياة السياسية والإجتماعية فى تركمانستان خلال عهد جورباتشوف تشير إلى أن النزعة العرقية لدى التركمان لم تكن تختلف كثيرا - من حيث حدتها - عن النزعات العرقية لسائر مسلمى آسيا الوسطى، كذلك فإن الحركة العرقية التركمانية كانت - من حيث طبيعتها ووسائلها وأهدافها - مشابهة - إلى حد كبير - لكافة الحركات العرقية التى ظهرت فى

---

(١) Ibid.

(٢) Ibid. p. 239.

باقى جمهوريات آسيا الوسطى . فبصدد النزعة العرقية لـــدى التركمـــان – بادئ ذى بدء – نجد أنها قد تنامت إلى حد كبير فى ظل البريسترويكا . وقـد تمثل أبرز مظاهر التعبير عنها فى المظاهرات التى شهدتها عشق آباد ، وكذا نبيت داج Nebitdag خلال شهر مايو عام ١٩٨٩ ، تلك المظـــاهرات التـــى شابتها أعمال عنف طالت أشخاص وممتلكات أولئك الذيـــــن ليســوا مــن التركمان ، وعلى رأسهــم القوقازيين والأرمن . ولقـــد راح المتظـــاهرون التركمان فى كل من عشق آباد ونبيت داج يهتفون بشـــــعارات تحمــل ذات مضمون الشعارات التـــى أطلقـــها الكـــازخ ، والأوزك ، والطـــاجيك فـــى مظاهراتهم التى شهدتها ألما آتا ، وطشقند ، ودوشـــــانبى ، إذ تمثـــل أبـــرز الشعارات التى رفع التركمان بها عقيرتـــــهم فـــى : " لا للقوقـــازيين .. ولا للأرمن فى تركمانستان "، وأيضــــا : " فليرحـــــل الـــروس "، وكـــذا : تركمانستان للتركمانستانيين " (١) . إنها – إذا – ذات الشعارات التى كـــانت تدوى فى شتى جمهوريات آسيا الوسطى ، تلك الشعارات التى أوضحت كــم كانت محض أكذوبة عبارة " الصداقة بين الشعوب السوفيتية " ، التى لم يكف الزعماء السوفييت عن ترديدها طيلة تاريخهم .

على أية حال فإن العنف كان طابع مظاهرتى عشق آباد ونبيــت داج ، حيث أسفرت تينك المظاهرتان عن حدوث خســـائر ماديـــة جســـيمة ، أمـــا الخسائر فى الأرواح فلم تكن ضخمة (٢) . ذلكم بصدد النزعة العرقية لـــدى التركمان ، أما فيما يتصل بالحركة العرقية التركمانية فإنها – حالها فى ذلــك حال كافة الحركات العرقية فى آسيا الوسطى – كانت تفتقـــر إلـــى التنظيـــم الفعال ، إذ اتسمت بالتشتت ، وضآلة الخبرة السياسية لزعمائها . حيث كـــان ثمة أحزاب وتنظيمات سياسية واجتماعية متعددة ، غير أنها كانت محـــدودة

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكـــره ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

القاعدة . وقد كان أظهر هذه التنظيمات حزب تركمانستان الديمقراطي The Democratic Party of Trukmenistan ، وهو الحزب الذى غير إسمه عام ١٩٩٠ إلى الحركة الشعبية ، وكانت أهدافه تتمحور حول الحفاظ على اللغة التركمانية ، والدعوة إلى أن تصبح اللغة الرسمية لتركمانستان (١) .

أما فيما يتصل بطبيعة الحركة العرقية التركمانية فيمكن القول أنها كانت حركة استعلائية ، إذ كانت تسعى - كما يتضح مما تقدم - إلى أن يهيمن التركمان تماما على مقاليد الأمور فى وطنهم . كذلك يمكن القول أن هدفا كالانفصال عن الإتحاد السوفيتي لم يكن من بين أهداف الحركة التركمانية فى الأجل القصير ، ولعل مرد ذلك إلى ضعف تلك الحركة وعدم كفاية قياداتها من جهة ، وهيمنة الإتجاه الشيوعى الممالئ للكريملين على مقاليد السلطة فى تركمانستان من جهة أخرى .

ونُظرا لما تقدم فإن تركمانستان - شأنها فى ذلك شأن كافة جمهوريات آسيا الوسطى - من أواخر الجمهوريات السوفيتية إعلانا لاستقلالها ، إذ تم ذلك فى أعقاب فشل الانقلاب الذى حدث فى مواجهة جورباتشوف فى أغسطس عام ١٩٩١، وفى وقت كان قد بات واضحا فيه أنه لا أمل فى استمرار الإتحاد السوفيتي كدولة موحدة ، وذلك على النحو الذى سنعرض له لاحقا .

* * * * *

---

(١) أنظر فى هذا المضمون :

Nissman, Op. Cit., p. 184.

المطلـب الخامـــس

الحركة العرقية فى قرقيزيا

أولا : تعريف بجمهورية قرجيزستان وتكوينها العرقى :

تبلغ مساحة جمهورية قرجيزستان ١٩٨٥٠٠ كيلومتر مربع ، وتتمثـل عاصمتها فى مدينة بيشيك Bishkek (فرونذ Frunze ســـابقا) ، وقــد وصل عدد سكان الجمهورية القرجيزية - حسب تعداد عـــام ١٩٨٩ - إلـــى حوالى ٤٢٥٧٧٥٥ نسمة (١) ، يتشكلون من مايربو على الســـت جماعـــات عرقية أظهرها القرجيز ، والروس ، والأوزبك ، والأوكرانيون ، والألمان ، والتتار .

ونقدم فى الجدول التالى سردا لأعداد كل من هذه الجماعـــات الســـت داخل قرجيزستان حسب تعداد عام ١٩٨٩ :

---

(١) Olcott, Central Asia's Post – Empire Politics, Op. Cit., p. 257

تعدادها (نسمة)	الجماعة العرقية
٢٢٣١٠٦٣	القرقـــيز
٩٣٦٧٠٦	الـــروس
٥٥٣٥٠٨	الأوزبـــك
١٢٧٧٣٢	الأوكرانيـــون
٨٥١٥٥	الألمـــان
٦٩٩٩٥	التتـــار

جدول رقم (١٦)

المصدر : تم تركيبه بالاستعانة بالمراجع الآتية :

- جارب، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٦.
- Olcott. Central Asia's Post – Empire Politics, Op. Cit., p. 257.
- Nissman. David, Free Kyrgyzstan: problems and Solutions, Current History. April. 1994, p. 170.

ويتضح من الجدول السابق أن القرجيز يمثلون أغلبية في وطنهم ، وإن كانت هذه الأغلبية ليست فائقة ، إذ لايشكلون سوى ٤ر٥٢% فقط من إجمالى سكان قرجيزيا . كما يتضح من هذا الجدول أن الـــروس يشـــكلون كـــبرى الأقليات القاطنة للجمهورية القرجيزية ، إذ تصل نسبتهم إلى حوالـــى ٢٢% من جملة سكان الجمهورية .

ويرتد ظهور القرجيز - سلاليا - إلى اختـــلاط ثلاثـــة أجنـــاس هـــى المنغول، والأتراك ، وسلالة ثالثة تعرف بالكيبتشاك Kypchak [١] . ويتكلـــم القرجيز لغة تنتمى إلى مجموعة اللغات التركية ، وقد كانت هذه اللغة أيضـــا تكتب بالأحرف العربية حتى عـــام ١٩٢٨ ، عندمـــا أصـــدرت الســـلطات

---

(١) Crisp. Simon. Kirgiz, in : Smith, Graham (ed.), Op. Cit., p. 246.

السوفيتية قرارا يقضى بكتابة القرجيزية بالحروف اللاتينية . وقــد اســتمر القرجيز يكتبون بالحروف اللاتينية حتى عام ١٩٤١ عندما أصدرت السلطات السوفيتية قرارا جديدا أجبروا بمقتضاه على كتابة لغتهم بالأبجدية السيريلية ، ويدين القرجيز بالإسلام ، ويعتنقون المذهب الســنى ، ويؤكـد المشـتغلون بالشئون القرجيزية على أن النزعة الإسلامية ظلت راسخة لدى القرجيز على الرغم من كافة الحملات المعادية للإسلام التى شنها قاطنو الكريمليـــن إزاء مسلمى الإتحاد السوفيتى (١) .

ثانيا : الحركات العرقية القرجيزية خلال عهد جورباتشوف :

لم تكن النزعة العرقية لدى القرقيز أقل تأججا من النزعات العرقيـــة لدى غيرهم من الجماعات المسلمة فى آسيا الوســطى ، كمــا أن الحركــة العرقية القرجيزية تكاد تتطابق من حيث طبيعتها وأهدافها ووسائلها وقوتــها مع كافة الحركات العرقية التى ظهرت فى باقى جمهوريات آسيا الوســطى . على أية حال فإن تأجج النزعة العرقية لدى الطاجيك قد بان جليا من خــلال عديد من المظاهرات التى قام بها القرجيز بغية الدفاع عن هوية جمهوريتهم، وتأكيد سيطرتهم على مقاليد الأمور فيها . ويتمثل أبرز هذه المظاهرات فــى المظاهرة التى قام بها الطلاب القرجيز فــى أكتوبــر عــام ١٩٨٦ داخــل العاصمة فرونذ ، حيث راحوا خلالها يهاجمون كل من لاينتمى إلى نحلتهم ، ولم يكد يمضى على ذلك بضعة شهور حتى عاود الطلاب القرجـــيز تلــك الانتفاضة التى قاموا بها فى يناير عام ١٩٩٠ ، إثر سماعهم لنبأ غير مؤكــد عن أن لاجئين روس فارين من الحرب الأهلية فى أذربيجان -آنذاك - فــى طريقهم إلى قرجيزستان . ولقد راح القرجيز وقتــذاك يحتلــون الأراضــى الخالية فى فرونذ ، والتى اشتبهوا فى أن السلطات عازمـــة علــى توطيــن اللاجئين فيها ، ثم قام المتظاهرون ببناء أكواخ سكنوها ونظموا أنفسهم للدفاع

---

(١) راجع فى هذا المضمون تفصيلا :

Ibid., p.p. 248-249.

عنها ، وقاموا بمظاهرات كثيفة ، راحوا خلالها يرددون ذات الشعارات التى كان يرددها غيرهم من أبناء آسيا الوسطى ، وعلى رأس هذه الشعارات " فليرحل الروس " ، وكذا " قرجيزستان للقرجيز " (١) . ولم يكد يمضى على ذلك بضعة أشهر حتى كانت منطقة أوش مسرحا لمعارك عرقية أخرى خاضها القرجيز ، وقد دارت الدائرة هذه المرة على الأوزبك الذين يقيمون بين ظهرانيهم (٢) .

وهكذا فإن قرجيزستان لم تكن بمستثناة مما شهدته كافة جمهوريات آسيا الوسطى من صراعات عرقية ، أما فيما يتصل بالحركة العرقية القرجيزية فقد كانت – شأنها فى ذلك شأن الحركات العرقية فى كافة جمهوريات آسيا الوسطى – حركة استعلائية، تستهدف تأكيد سيطرة جماعتها العرقية على مقاليد الأمور فى الجمهورية التى تحمل إسمها ، كما اتسمت وسائل هذه الحركة – كذلك – بغلبة طابع العنف عليها ، أما بصدد قوتها فقد كانت حركة تفتقر إلى التنظيم الفعال ، فضلا عن تضاؤل الخبرات السياسية لدى قادتها . ومن جانب آخر فقد كان الشيوعيون يسيطرون على مؤسسات الدولة فى قرجيزيا ، وتبعا لذلك – ونظرا للضعف التنظيمى للحركة العرقية القرجيزية – فإن هدفا كالانفصال عن الإتحاد السوفيتى كان بعيد المنال ، ولذلك فإن قرقيزيا لم تعلن انفصالها عن الإتحاد السوفيتى إلا غداة فشل الانقلاب الذى قام به غلاة الشيوعيين فى مواجهة جورباتشوف فى أغسطس عام ١٩٩١ .

* * * * *

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٨ ، ١٥٢، ١٥٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٢.

تعقيب :

بعد أن فرغنا من التعريف بالحركات العرقية فى منطقة آسيا الوسطى خلال عهد جورباتشوف ، نقدم فيما يلى أظهر الملاحظات التى وقفنا عليها بصددها :

١ - إن شعوب آسيا الوسطى ظلت قابضة على هويتها ، عاضة بالنواجذ على مقومات ذاتيتها ، على الرغم من كافة الجهود التى بذلها قاطنو الكريملين بغية ترويسها ، وبرغم حملاتهم الضارية التى استهدفت تقويض مقومات ذاتيتها وعلى رأسها الدين الإسلامى ، وهكذا فإن مئات السنين من حكم القياصرة ، وعشرات السنين من حكم البلاشفة لم تفلح فى طمس الهوية العرقية لشعوب آسيا الوسطى .

٢ - إن النزعة العرقية لدى شعوب آسيا الوسطى قد بلغت أوج تأججها ، مع إدراك هذه الشعوب أن قبضة الكريملين عليها قد خفت فى ظل البريسترويكا والجلاسنوست ، ومع ذلك فإن هذه النزعة المتأججة لم تتمخض عن ظهور حركات عرقية قوية قادرة على مصارعة غلاة الشيوعيين المهيمنين على مقاليد الحكم - آنذاك - فى سائر جمهوريات آسيا الوسطى . وقد كان مرد ضعف هذه الحركات إلى ضعف الخبرات السياسية لأعضائها لاسيما مايتصل منها بالممارسات الديمقراطية ، تلك الخبرات والممارسات التى تميز بها البلطيقيون ، والتى اكتسبوها نتيجة للتجربة الديمقراطية التى شهدتها جمهورياتهم الثلاث إبان فترة استقلالها، التى دامت طيلة حقبة مابين الحربين العالميتين ، أما مسلمو آسيا الوسطى فإنهم لم يتمكنوا من الخلاص من براثن البلاشفة غداة ثورة ١٩١٧ ، حيث أجهض لينين ورفاقه حركاتهم التى كانت تستهدف الاستقلال ، وعلى رأسها حركتا أمير بخارى وبسماتشى . وهكذا فلم تتح لمسلمى آسيا الوسطى أية فرصة لخوض التجربة الديمقراطية ، واكتساب خبراتها .

٣ - إن الحركات العرقية فى جمهوريات آسيا الوسطى قاطبة كانت حركات استعلائية ، استهدفت كل منها تأكيد الوضع المسيطر لجماعتها داخل جمهوريتها ، حتى وإن اقتضى الأمر الافتئات على حقوق سائر الجماعات العرقية الأخرى القاطنة لتلك الجمهورية ، ومن هنا فقد رفعت هذه الحركات شعارات حال : " كازاخستان للكازاخستانيين " ، و " أوزبكستان للأوزبكستانيين " ... الخ ، وكذا : " لا للقوقازيين " ، فليرحل الروس عن أراضينا " . ولم تكتف تلك الحركات برفع الشعارات ، وإنما راحت تصب جام غضبها على كل من يقطن جمهوريتها ولاينتمى لجماعتها العرقية ، وبالتالى فقد غلب طابع العنف على وسائلها فى التعبير عن مطالبها .

٤ - إن هذه الحركات كانت لاطاقة لها بتبنى هدف كالانفصال عن الإتحاد السوفيتى فى الأجل القصير ، ومرد ذلك إلى ضعفها التنظيمى ومحدودية قاعدتها وضآلة الخبرات السياسية لقادتها من ناحية ، وهيمنة شيوعيين متشددين ممالئين للكريملين على مقاليد الأمور فى جمهورياتها من ناحية أخرى . وبالتالى فقد كانت جمهوريات آسيا الوسطى هى أواخر جمهوريات الإتحاد السوفيتى إعلانا لاستقلالها ، والذى تم فى وقت كان قد بات واضحا للجميع فيه أن الإتحاد السوفيتى متفكك لامحالة ، وأنه لاسبيل إلى إنقاذ وحدته.

وعلى أية حال فإنه ليس بوسعنا فى النهاية إلا أن نقول :

إن انتفاضات ألما آتا ، وطشقند ، ودوشانبى وعشق أباد ، وفرونز بما تضمنته من أحداث دامية وبما رفع خلالها من شعارات قد حطمت - إلى جانب تماثيل لينين - حلمه المتصل بالشعب السوفيتى الواحد ، كما أكدت زيف مقولة الصداقة بين الشعوب السوفيتيه التى طالما تشدق بها الزعماء السوفييت باعتبارها مأثرا عظيما من مآثر دورنهم ، وفضلا عن ذلك فإن تلك الانتفاضات جاءت لتؤكد أنه : لاسبيل إلى استقرار سياسى دائم ولا إلى وحدة

وطنية حقة داخل وحدة سياسية أسس بنيانها على التجميع الإجبارى لشـــعوب متباينة قوميا .

* * * * *

المبحث الثالث

فى

الحركات العرقية فى منطقة ماوراء القوقاز

خلال عهد جورباتشوف

تمثل منطقة ماوراء القوقاز Trans Caucasia إقليما صغير المساحة بيد أنه كثيف السكان نسبيا ، وتقع هذه المنطقة بين البحر الأسود وبحر قزوين ، وتفصلها عن روسيا جبال القوقاز ، وتضم المنطقة ثلاث جمهوريات هى أرمينيا ، وأذربيجان ، وجيورجيا (١)

وفيما يلى سنعرض للحركات العرقية فى منطقة ماوراء القوقاز من خلال مطلبين ، نعرض فى أولهما للحركتين العرقيتين الأذربيجانية والأرمينية ، حيث أن ثمة ارتباطا بين تينك الحركتين اللتين أفرزهما - فى المقام الأول - الصراع الأذربيجانى الأرمينى حول أحد الأقاليم ، وذلك على النحو الذى سنعرض له لاحقا ، أما المطلب الثانى فينصب على الحركة العرقية فى جيورجيا .

---

(١) Smith, Graham (ed.), Op. Cit., p. 143.

المطلب الأول

الحركتان العرقيتان الأذربيجانية والأرمينية والصراع بينهما فى عهد جورباتشوف

أولا : تعريف بكل من أذربيجان وأرمينيا وتكوينهما العرقى :

١ - أذربيجــــأن :

تبلغ مساحة جمهورية أذربيجان ٨٦٦٠٠ كيلو متر مربـــع ، وتتمثـل عاصمتها فى مدينة باكو Baku [١] . وقد وصل عـــدد ســكان الجمهوريــة الأذرية - حسب تعداد عـــام ١٩٨٩ - إلــى حوالــى ٧٥٢١٠٠٠ نســمة ، يتشكلون من جماعات عرقية شتى منها الأذربيجانيون ، والروس ، والأرمن، والليجيــان، والداغســتانيون ، واليــهود ، والتتــار ، والأوكرانيـــــون ، والجيورجيون ، وغيرهم . ويمثل الأذربيجانيون أغلبية عطيمة الشـــأن فـــى وطنهم ، إذ يشكلون - كما سيتضح من الجدول التالى - حوالـــى ٧ر٨٢ % من جملة عدد سكان أذربيجان ، وهم ينحدرون من أصل تركى ، ويتكلمــون اللغة التركية ، وقد كانت اللغة الأذربيجانية - شأنها فى ذلك شأن لغات كافــة مسلمى آسيا الوسطى - تكتب بالحروف العربية ، غير أن السلطات السوفيتية أصدرت قرارا جديدا بمقتضاه تعين على الأذربيجانيين كتابة لغتهم بالحروف السيريلية [٢] ، ويدين الأذربيجــانيون بالإســلام،حيــث يعتنقــون المذهــب الشيعى[٣]، وبرغم الحملات الضارية المناوئــة للإسلام من جانب السلطـــات السوفيتية فقد ظل الأذربيجانيون - شأنهم فى ذلك شــــأن كافــة الجماعـــات

---

(١) ابراهيم عرفات ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٠ .

(٢) راجع فى تفاصيل ذلك :

Dragadze, Tamara. Azerbaijanis, in: Smith, Graham. Op. Cit., p.p. 163-166.

(٣) Smith . Graham (ed.), Op. Cit., p. 143.

المسلمة فى الإتحاد السوفيتى - متمسكين بدينهم باعتباره واحدا مـــن أبـــرز مقومات هويتهم[١] .

ويوضـــح الجدول التالى أعداد أظـــهر الجماعـــات العرقيـــة داخـــل أذربيجان حسب تعداد عام ١٩٨٩ :

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
الأذربيجانيـــون	٥٠٢١٠٠٠
الـــــروس	٣٩٢٠٠٠
الأرمـــــن	٣٩١٠٠٠
اللجيـــان	١٧١٠٠٠

جدول رقم (١٧)

المصدر : جار ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣٧ .

وتتعين الإشارة إلى أن نسبة يعتد بها من أرمن أذربيجان تقطن إقليـــم ناجورنوكاراباخ Nagorno Karabakh ذا الحكم الذاتـــي، مشـــكلة أغلبيـــة عظيمة الشأن داخله[٢]. وذلكم هو الإقليم الذى كان سبباً فى تفجر الصـــراع الأذربيجاني الأرمني على نحو ما سنعرض لاحقاً.

٢ - أرمينيـــا :

تبلغ مساحة جمهورية أرمينيـــا ٢٩٨٠٠ كيلو متر مربع[٣] ، وتتمثـــل

(١) Dragadze, Op. Cit., p. 166.

(٢) Smith , Graham (ed.), Op. Cit., P. 143.

(٣) إبراهيم عرفات، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠.

عاصمتها فى مدينة إيرفانErevan . وقد وصل عدد سكانها -حسب تعداد عام ١٩٨٩- إلى حوالى ٣٣٠٥٠٠٠ نسمة ، يتشكلون مما يربو على الأربع جماعات عرقية أظهرها الأرمن، والأذربيجانيون، والأكراد، والروس، ويمثل الأرمن- على نحو ما سيتضح من الجدول التالي - أغلبية عظيمة الشأن فى وطنهم، إذ يشكلون حوالى ٩٣,٣% من جملة سكان أرمينيا [١]. ويشير المهتمون بالشئون الأرمينية إلى أن الأرمن هم أمة قديمة يمتد تاريخها عبر عشرات القرون المنصرمة ، ويتكلم الأرمن لغة خاصة بهم تعرف باللغة الأرمينية ، كما أن لهم ثقافتهم الخاصة [٢] ، ويعتنق الأرمن المسيحية بمذهبها الأرثونكسي [٣].

ونقدم فى الجدول التالي سردا لأعداد الجماعات العرقية الأربع الرئيسية فى أرمينيا حسب تعداد عام ١٩٨٩:

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
الأرمن	٣٠٨٤٠٠
الأذربيجان	٨٥٠٠٠
الأكراد	٥٦٠٠٠
الروس	٥٢٠٠٠

جدول رقم (١٨)

المصدر: جار ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٨.

(١) جار ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٧ .

(٢) Herzig, Edmund , M., Armenians , in : Smith. Graham, Op. Cit., P. 146.

(٣) White . Op. Cit. P. 141.

وتتعين الإشارة إلى أنه يوجد- إلى جانب أرمن أرمينيا- مئات الآلاف من الأرمن مشتتين بين عديد من دول العالم حال الولايات المتحدة ، وفرنسا ، وإيران ، وتركيا ، وسوريا ، ولبنان ، ويطلق على هؤلاء " أرمن الشتات Diaspora " (١).

ثانيا: الحركتان العرقيتان الأذربيجانية والأرمينية والصراع بينهما:

يرتد الصراع بين أذربيجان وأرمينيا إلى سعى كل من الجمهوريتين إلى السيطرة على إقليم ناجورنو كاراباخ Nagorno Karabakh . ويمثل هذا الإقليم منطقة جبلية تبلغ مساحتها حوالى ٤٤٠٠ كيلو متر مربع ، ويشكل الأرمن ما يربو على ثلاثة أرباع سكانها، فى حين تبلغ نسبة الأذربيجانيين بين سكانها حوالى ٢٣% . وكان ستالين قد أصدر قرارا بمقتضاه أصبح نارجورنو كاراباخ- منذ يوليو ١٩٢٣- جزءا من أراضي جمهورية أذربيجان، وإن كان قد منح حق الحكم الذاتي(٢). غير أنه نظرا لأن الدستور السوفيتي لم يحدد حقوق الأقاليم المتمتعة بالحكم الذاتي فإنه لم يكن بمقدور سكان كاراباخ الوقوف على حقوقهم الدستورية، وبالتالي فلم يكونوا ليتمكنون من الدفاع عن حقوق غير محددة. وما أن ضم الكاراباخيون إلى أذربيجان حتى هدمت جسور الاتصال بينهم وبين أرمينيا، إذ كان التدريس فى الإقليم يتم باللغة الأذربيجانية، كما أن تاريخ وجغرافية أرمينيا لم يكونا ضمن المقررات الدراسية بمعهد التربية، والذى كان يمثل المعهد العالي الوحيد فى الإقليم ، وفضلا عما تقدم فإن الإرسال الإذاعي لأرمينيا لم يكن يصل إلى سكان كاراباخ (٣).

---

(١) Herzig. Op. Cit., P. 147.

(٢) White . Op. Cit. P. 159

(٣) أنظر فى هذا المضمون: أماني الطرابيشي، اضطرابات الأرمن فى الإتحاد السوفيتي مجلة السياسة الدولية، العدد (٩٣) ، يوليو ١٩٨٨، ص ٢٣١ ، ٢٣٢.

ولقد كان الأرمن- سواء فى أرمينيا أو كاراباخ- يشعرون بالاستياء والغبن من جراء قيام السلطات السوفيتية بضم ناجورنو كاراباخ إلى أذربيجان، لا سيما وأن ثمة مشاعر عدائية وأحقاد تاريخية يكنها الأرمن للأذربيجانيين، ذلك بأن الأرمن لم يكونوا لينسون ما تعرضوا له من مذابح على يد الأتراك (والأذربيجانيون أتراك) خلال فترة ١٨٩٣-١٩١٥[١].

على أية حال فإنه بانتهاء الحقبة الستالينية ومجئ خروشوف إلى الحكم فى الإتحاد السوفيتي راح الأرمن يسعون إلى إحياء مشكلة كاراباخ،إذ عمدوا إلى المطالبة بعودة الإقليم إلى أرمينيا متذرعين بوجود تمييز أذربيجاني فى مواجهة أرمن كاراباخ ، ونادوا بأن تكون ثمة جمهورية واحدة (هى أرمينيا) تضم الشعب الواحد (أى الأرمن). غير أن موسكو كانت دوما تصم آذانها إزاء مطالب الأرمن[٢].

ومع مجئ جورباتشوف إلى الحكم فى الإتحاد السوفيتي فى منتصف عقد الثمانينات – وفى ظل المناخ السياسي الجديد الذى تمخضت عنه البريسترويكا والجلاسنوست- بدأت قبضة الكريملين على الجماعات العرقية تخف شيئا فشيئا، وبالتالي فسرعان ما طفت على سطح الحياة السياسية فى الإتحاد السوفيتي مشكلة كاراباخ. ففى بداية عام ١٩٨٨ تقدم أرمن كاراباخ بعريضة إلى جورباتشوف وقعها ما يربو على خمس وسبعين ألفا منهم، راحوا من خلالها يطالبون الزعيم السوفيتي بإعادة رسم الحدود بين أرمينيا وأذربيجان، بحيث يعود إقليم ناجورنو كاراباخ إلى الوطن الأم أرمينيا[٣].غير أن رد ١موسكو جاء مخيبا لآمال أرمن كاراباخ إذ رفض مطلبهم من جانب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي . ولم يقف الأرمن الكاراباخيون مكتوفي الأيدي أمام رفض موسكو لمطلبهم هذه المرة ، إذ سرعان ما اندلعت المظاهرات – بدءا من ١١ فبراير عام ١٩٨٨- فى عاصمة كاراباخ

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : جار ، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٩.

(٢) دانكوس، نهاية الإمبراطورية.. مرجع سبق ذكره، ص ٨٠، ٨١.

(٣) Herzig. Op. Cit. P.153.

ستباناكرت Stepanakert، حيث راح المتظاهرون الأرمن- بطبيعة الحال- يطالبون بعودة الإقليم إلى أرمينيا . وفي ٢٠ فبراير بات واضحا أن مجلس سوفييت كاراباخ- الذى كان يعد ظل موسكو فى ستباناكرت- قد أضحى مدافعا عن مطلب الأرمن، إذ صوت المجلس- فى ذلك اليوم وبعد انسحاب النواب الأذربيجانيين- بالموافقة الجماعية على ضم الإقليم الكاراباخي إلى أرمينيا(١).

وسرعان ما خرجت المظاهرات الحاشدة إلى شوارع العاصمة الأرمينية إيرفان تعلن تأييدها ومساندتها لموقف أرمن كاراباخ، ففى ميدان الأوبرا بإيرفان تجمع ما يربو على المليون أرميني راحوا- من خلال تظاهرات ضخمة استمرت لبضعة أيام فى ٢٠ فبراير- يعلنون تأييدهم لعودة كاراباخ إلى أرمينيا(٢).

أما فيما يتصل بموقف أذربيجان فقد اتسم بالرفض المطلق لأى نقاش حول مستقبل ناجورنو كاراباخ، كما أكدت السلطات الأذربيجانية – بطبيعة الحال- عدم اعترافها بقرار مجلس سوفييت كاراباخ القاضى بضم الإقليم إلى أرمينيا، واعتبرته قرارا غير شرعي ، وشيئا فشيئا تأججت مشاعر العداء بين الأرمن والأذربيجانيين تغذيها الأحقاد التاريخية التى طالما ظلت حبيسة صدور الفريقين لعقود طويلة مضت،والتى كانت مكبوتة بفعل القبضة الجبارة لقاطني الكريملين على كافة الشعوب الخاضعة لنيرهم، ثم هاهى القبضة قد خفت فى ظل البريسترويكا ، وبالتالي فقد آن الأوان كى يعبر كل من الفريقين الأذربيجاني والأرميني عن مكنون عدائه إزاء الآخر.

وتتعين الإشارة إلى أن مظاهرات إيرفان قد حركتها جبهة شعبية كانت قد تأسست لتوها ، وقد عرفت هذه الجبهة بـ " لجنة كاراباخ " ، حيث

---

(١) Wright , Martin(ed.), Soviet Union: The Challenge of Chance , Countries in Crisis, Longman, 1989, P. 40.

(٢) White , Op. Cit., P. 159.

تبنت – كما يتضح من تسميتها– قضية كاراباخ وتوحيد أرمينيا ، كما تجـدر الإشارة إلى أن البرلمان الأرميني قد صدق على قـــرار مجلـس سـوفييت كاراباخ القاضى بضم الإقليم إلى أرمينيا[١]. وهو الأمر الذى ساهم فى تعاظم مشاعر العداء بين الأذربيجانيين والأرمن، ذلك العداء الذى لم يلبث الطرفـان أن عبرا عنه عملا إثر ذلك ببضعة أيام ، ففـى٢٧ فـبراير ١٩٨٨ نشـبت اشتباكات محدودة النطاق بين الشباب الأذربيجانيين ونظرائهم الأرمـن فـى العاصمة الكاراباخية ستباناكرت. وقد أسفرت هذه الاشتباكات عن مصـرع شابين أذربيجانيين، كما جرح العشرات مـن الجـانبين المتصـارعين [٢]. وسرعان ما هب الأذربيجانيون طلبا للثأر، وقد تمثل مسرح الأحـداث هـذه المرة فى مدينة سومجيت Sumgait القريبة من العاصمة الأذربيجانية باكو، ففى ٢٨،٢٩ فبراير شهدت تلـك المدينـة أعمـال عنـف مروعـة بيـن الأذربيجانيين والأرمن . إذ راح الأذربيجانيون يصبون جام غضبهم علـى الأرمن، بحيث سادت ذينك اليومين أعمال قتل وتخريب واغتصاب ونـهب وإحراق إزاء كل ما هو أرميني[٣]. وقد أسفرت هذه الاضطرابات – حسـب الإحصاءات الرسمية – عن مصرع ٣٢ شخصا أغلبهم من الأرمـن، كمـا جرح ما يقرب من مائتي شخص آخرين[٤]. واضطرت موسكو إلى إرسـال قوات أمن ضخمة إلى أذربيجان ، كما أعلنت حالة الطوارئ. وعلى الرغـم من ذلك فقد استمرت أعمال العنف وامتدت إلى مـدن أذربيجانيـة أخـرى، وراح الأرمن يفرون من أذربيجان ومن ذكرى مذبحة عام ١٩١٥، فى حيـن راح الأذربيجانيون يفرون من أرمينيا مخافة أن يطولهم انتقام الأرمن[٥].

وهكذا فقـد كان على جورباتشـوف أن يجـد حلا للمشكلة المتفاقمة

---

(١) دانكوس، نهاية الإمبراطورية.. ، مرجع سبق ذكره، ص ٨٦.

(٢) White. Op. Cit., P. 159.

(٣) دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ٨٧.

(٤) Wright(ed.) Op. Cit., P. 41.

(٥) أنظر فى هذا المضمون: نهاية الإمبراطورية....، مرجع سبق ذكره، ص ٨٧.

بين الأذربيجانيين والأرمن، وسرعان ما شكل لجنة ضمت العديد من أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بغية دراسة مطالب الأرمن، وقد انتهت اللجنة إلى وضع خطة، يستغرق تنفيذها ثمان سنوات، تستهدف تحسين الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية، والثقافية لإقليم ناجورنو كاراباخ، فضلا عن الاهتمام باللغة الأرمينية، واستخدامها داخل الإقليم إلى جانب اللغتين الروسية والأذربيجانية، وكذا الاهتمام بمحطة الإرسال الإذاعي المحلية[١].

وفى ٢٣ مارس ١٩٨٨تبني مجلس السوفييت الأعلى للإتحاد السوفيتي قرارا يدين الموقف الأرميني إدانة عنيفة. وعلى إثر ذلك تم اعتقال بعض زعماء الحركة الأرمينية، وجرى التعامل مع لجنة كاراباخkarabakh Committee باعتبارها منظمة خطرة، تزرع الفوضى،وتحض على الثورة. وإزاء ذلك راحت اللجنة تدعو إلى تنظيم مقاومة سلبية لموسكو، إذ أعلنت ما يسمى " بالمدينة الميتة" داخل إيرفان فى ٢٥ مايو ١٩٨٨. والحق أن الأرمن قد بدأوا – إزاء موقف موسكو من مسألة ناجورنو كاراباخ – يشعرون بأن الإتحاد السوفيتي لم يعد يؤدي دوره التقليدي فى حمايتهم من الأتراك، إذ راح الكريملين بدلا من ذلك يسلم كاراباخ للأتراك، وبالتالي فلم يعد ثمة وجود لحماية سوفيتية تقى الأرمن شر الأتراك، وإذن فلم يعد ثمة من الأسباب ما يستوجب قبول الأرمن بمساوئ الإذعان للإتحاد السوفيتي. وهكذا – وعلى حد قول البعض – فإن أرمينيا – التى ظلت حتى عام ١٩٨٨ أكثر جمهوريات الإتحاد السوفيتي اقتناعا به ، وطاعة له – صارت فجأة على أعتاب المطالبة بالاستقلال. وقد بدا ذلك جليا خلال المظاهرات التى قام بها الأرمن فى ٢٨مايو ١٩٨٩ داخل العاصمة إيرفان احتفالا بالذكرى السبعين للاستقلال، وهى المظاهرات التى حمل الأرمن خلالها بيارق تحمل ألوان أرمينيا الحرة الثلاثة (الحمراء والزرقاء والبرتقالية)[٢].

---

(١) أماني الطرابيشي، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٣.

(٢) أنظر فى هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ٨٩،٩٣.

ومن ناحية أخرى وعلى الصعيد الأذربيجاني نجد أن الأذربيجانيين كانوا – أيضا – يشعرون بالاستياء إزاء موقف موسكو من مسألة كاراباخ ، إذ اعتبروا أن تدخل موسكو لحماية الحقوق الثقافية لأرمن كاراباخ يشكل مساسا بسيادة أذربيجان المنصوص عليها فى الدستور، كما بدأ الأذربيجانيون يفسرون هذا التدخل على أنه بمثابة تعبير عن التضامن الثقافي القائم بين الروس والأرمن، والذى يتمحور حول انتماء الفريقين إلى المسيحية[١]. ولقد ساهمت وجهة نظر الأذربيجانيين هذه فى تأجيج نزعتهم العرقية، على نحو جعلهم يتجهون- فى نوفمبر ١٩٨٨- إلى البدء فى خطوات إنشاء جبهة شعبية تتبني قضاياهم القومية، ولعل أخطر ما جاء فى برنامج هذه الجبهة هو فتح ملف العلاقة بين أذربيجان السوفيتية وأذربيجان الإيرانية[٢]. ويتعين التنويه إلى أن الأذربيجانيين يقطنون منطقة إيرانية تقع على الحدود مع أذربيجان، ويبلغ تعدادهم فى تلك المنطقة حوالى ١١ مليون شخص[٣]. وقد وضعت الجبهة الشعبية الأذربيحانية – ضمن برنامجها كذلك – المطالبة بفتح الحدود بين أذربيجان وإيران، بغية السماح بتنمية العلاقات بين أذربيجاني أذربيجان وأبناء نحلتهم فى إيران. وهكذا فقد انبعث – على حد قول البعض- حلم قيام أذربيجان الموحدة، ذلك الحلم الذى طالما أزعج لينين وستالين[٤].

وجملة القول – إذا – فى شأن موقف موسكو من مسألة كاراباخ أن هذا الموقف قد أثار استياء كل من الأرمن والأذربيجانيين معا، لذلك فقد سعى جورباتشوف إلى التوصل إلى تسوية ترضى الطرفين ، وفى ١٢ يناير عام ١٩٨٩ أصدرت موسكو قانونا بمقتضاه وضع إقليم ناجورنو كاراباخ تحت سلطة لجنة تفويضية خاصة يرأسها روسى ، ويعاونه ثلاثة من الأرمن

---

(١) أنظر فى هذا المضمون: المرجع السابق، ص ٩٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٩.

(٤) أنظر فى هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية .. ، مرجع سبق ذكره، ص ٩٤.

وأذربيجاني واحد، كما تم إخضاع الإقليم لرقابة عسكرية صارمة(١). بيد أن هذا الإجراء من جانب موسكو لم يلق القبول المتوخي لا من جانب الأذربيجانيين، ولا من جانب الأرمن. وفى مارس عام ١٩٨٩ رفضت أذربيجان قتراحا لبرلمان أرمينيا يدعو إلى إجراء استفتاء لشعب كاراباخ يقرر من خلاله مصيره، وبالتالي فقد استمرت حوادث العنف بين الأذربيجانيين والأرمن برغم وجود قوات قوامها ٥٥٠٠ جندي تقبض على إقليم ناجورنو كاراباخ(٢). وسرعان ما تدهورت الأوضاع وتفجرت الصراعات الدامية بين الفريقين، فبدلا من الطلقات النارية والاغتيالات المتفرقة راح كل من الأذربيجانيين والأرمن يستنفرون كامل قواهم، فعمدوا إلى قطع وسائل الاتصال بين الجمهوريتين ، إذ قام الأرمن بتخريب خطوط السكك الحديدية، وعزل إقليم ناخيتشفانNakhichevan ذى الأغلبية الأذربيجانية عن أذربيجان، ورد الأذربيجانيون على ذلك بقطع كافة خطوط السكك الحديدية المؤدية إلى أرمينيا، على نحو هيأ لقطع المؤمن والوقود والمواد الأولية عنها، فى وقت كانت فى أشد الحاجة إليها لبناء ما هدمه الزلزال الذى شهده إقليمها فى نهاية عام ١٩٨٨. وفضلا عما تقدم فقد نجح الجانبان إلى مهاجمة القطارات ، وتلغيم الجسور، كما نظمت الإضرابات، ونشبت المعارك الضارية بين أبناء النحلتين ، وانتشرت عمليات التخريب، والاختطاف، ومهاجمة المراكز العسكرية ، كما دعا كل فريق أبناء نحلته إلى تنظيم مجموعات للدفاع الذاتي المسلح.. وهكذا فإنه مع نهاية عام ١٩٨٩ كان قد بات جليا أن الحرب الأهلية قد حطت رحالها فى منطقة ماوراء القوقاز، وكادت تصل إلى الجمهورية القوقازية الثالثة (جيورجيا) ، حيث راح الأذربيجانيون يطالبونها بالمشاركة فى قطع السكك الحديدية الموصلة لأرمينيا، وإلا فإنهم سيحاصرونها(٣). ولم يعر الطرفان المتصارعان أى

---

(١) White. Op. Cit., P. 160.

(٢) أنظر فى هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكره، ص ٩٦،٩٧.

(٣) أنظر فى تفصيل ذلك: المرجع السابق ، ص ٩٨.

اهتمام للإنذارات التى وجهها إليهما الكريملين، وهكذا بدت الحكومة المركزية عاجزة عن التصدي لحصار فرضته إحدي الجمهوريات التابعة لها على أخرى ، بل وغير قادرة على فرض نظام الوضع الخاص الذى كانت قد قررته فى يناير ١٩٨٩ على كاراباخ . وفى ٢٨ نوفمبر ١٩٨٩ اضطر مجلس السوفييت الأعلى للإتحاد السوفيتي إلى إلغاء ذلك النظام، وأعيد وضع ناجورنو كاراباخ تحت سلطة أذربيجان، فى ظل قيود معينة لصالح موسكو. وبطبيعة الحال فإن هذا الإجراء لم يكن من شأنه سوى إثارة استياء الأرمن، وفى ١ ديسمبر ١٩٨٩ أكد مجلس السوفييت الأعلى لأرمينيا على أن ناجورنو كاراباخ يشكل جزءا لا يتجزأ من أرمينيا الموحدة، وبالتالي فإن الأرمن يرفضون الاعتراف بالوضع الجديد ، ويبدو أن الأذربيجانيين لم يكونوا أقل إستياء من الأرمن إزاء الوضع الجديد الذى قررته موسكو بصدد ناجورنو كاراباخ، حيث راح كل من مجلس السوفييت الأعلى والحزب الشيوعي والجبهة الشعبية فى أذربيجان يؤكدون رفضهم للقيود التى وضعتها موسكو على السيادة الأذربيجانية فوق الإقليم الكاراباخي،واعتبروا أن مرسوم ٢٨ نوفمبر غير دستوري. وهكذا فقد استهين بسلطات الكريملين على نحو لم يسبق له مثيل [١]، كما بات واضحا أن الأذربيجانيين قاطبة- بمن فيهم قادة الحزب الشيوعي- يقفون صفا واحدا فى مواجهة هيمنة موسكو.

على أية حال فإن الصراع الدامي بين الأذربيجانيين والأرمن لم تكن آخر حلقاته قد انتهت بعد ، إذ استمر هذا الصراع واشتد شراسة، ثم ما لبث أن بلغ أوج شراسته بحلول الأسابيع الأولى من عام ١٩٩٠، بحيث صارت الأوضاع فى القوقاز – على حد قول البعض- أشبه ما تكون بنظيراتها فى لبنان خلال أحلك فترات الحرب الأهلية[٢] . فبدءا من ١١ يناير ١٩٩٠ راحت عصابات مسلحة خاضعة للجبهة الشعبية الأذربيجانية تستولى على كافة المباني العامة فى مدينة لنكوران فى أذربيجان وتعلن أن المدينة ستبقى

---

(١) أنظر فى هذا المضمون: المرجع السابق، من ص ٥٨ إلى ص ١٠١.

(٢) أنظر فى هذا المعني : White, Op. Cit., P.P. 160-161.

خارج السلطة السوفيتية حتـــى يعـود نــاجورنو كارابـــاخ إلـــى الســيادة الأذربيجانيـــة ، وفضلا عما تقدم فقد قام الأذربيجانيون بنســـف الجســور، ونهب الثكنات، والاستيلاء على الأســلحة. وفـوق مـــا تقـدم فقــد نظــم الأذربيجانيون في باكو مذابح جماعية للإجهاز على الأرمن [١]، وقد قتل فـي هذه المذابح- في ١٣ يناير- ما يربو على الستين أرمينيا، كما جرح المئــات من الأرمن[٢].

وفي ١٩ يناير راحت مدرعات من الجيش السوفيتي تشق طريقها إلـى باكو، بينما رادت المقاومة الشعبية الأذربيجانية تنظـــم صفوفــها، وتجــبر السوفييت على التعامل معها كقوات نظامية، وأسفرت المجابهات عن مصرع عشرات الأشخاص من الفريقين[٣]. وعلى سبيل المثال فقد بلغ عدد القتلـــى خلال الأيام الأولى من المواجهة- حسب التقديرات الرسمية- مايربو علــى ثلاث وتسعين قتيلا [٤] ، وتلكم كانت واحدة من عديد من المذابـــح شــهدتها القوقاز خلال السنوات الأخيرة من عقد الثمانينات، والعام الأول مـــن عقــد التسعينيات، إنها المذبحة التي عرفت بمذبحة باكو.

على أية حالة فإن ثلاثين ألفا من الجيش السوفيتي - بالإضافــة إلــى قوات الأمن - لم يفلحوا في توطيد الأمن نهائيا في باكو وسرعان ما عمـدت موسكو إلى فرض حالة الطــوارئ ، وحظـر كافــة أنــواع المظــاهرات والإضرابات داخل العاصمة الأذربيجانية ، ولم يقبل الأذربيجانيون الخضوع لعسكر الكريملين، فلجأوا إلى تطبيق نوع من أنواع المقاومة السلبية إزاءهم ، وراح جورباتشوف يعلن أن التدخل المسلح كان أمـــرا لا مفــر منــه، لأن الأذربيجانيين - على حد قوله - كانوا يستهدفون الإطاحة بالسلطة السوفيتية،

---

(١) دانكوس، نهاية الإمبراطورية....، مرجع سبق ذكره، ص ١٠١، ١٠٢.

(٢) White, Op., Cit., P. 160.

(٣) دانكوس، نهاية الإمبراطورية....، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٢.

(٤) White, Op., Cit., P. 160.

وانفصال أذربيجان عن الإتحاد السوفيتي، وإقامة دولة إسلامية موحدة[١].

وهكذا فإن الصراع المسلح الدامي الذى نشب بين الأذربيجانيين والأرمن- خلال عهد جورباتشوف - جاء لكى يؤكد مدى الزيف الذى انطوى عليه شعار الكريملين الأشهر " الصداقة بين الشعوب السوفيتية"، إذ بان واضحا- خلال أحداث ذلك الصراع - أن تلك الصداقة لم تكن تعدو محض أوهام طالت أذهان قاطني الكريملين فاعتقدوا فى وجودها ، وراحوا يتشدقون بها معتبرين إياها واحدة من أعظم منجزات ثورتهم.

ومهما يكن الأمر فإن ثمة تنظيمات أذربيجانية ثلاثة[٢]كانت من وراء التحرك الأذربيجاني المعادي للأرمن وللكريملين معا. ويتمثل أول هذه التنظيمات فى "منظمة شنليبل" ، وقد نشأت هذه المنظمة فى عام ١٩٨٧ فى وقت لم يكن للحركة السياسية قواعد شرعية، حيث بدأت شنليبل نشاطها كمنظمة ثقافية اهتمت بإحياء التراث التاريخي للأذربيجانيين، والحفاظ على اللغة الأذربيجانية ، بيد أن هذه المنظمة سرعان ما انخرطت فى العمل السياسي ، بحيث كانت من بين منظمات ثلاث وجهت الأحداث فى باكو. أما المنظمة الثانية فقد تمثلت فى " بيرليك" أو" الوحدة" وهى منظمة تنحو منحى إسلاميا، وتتبنى برنامج عمل يستهدف غاية نهائية قوامها تشكيل دولة أذربيجانية كبرى، تجمع شتات أبناء الشعب الأذربيجاني. وفيما يتصل بالمنظمة الثالثة التى ساهمت فى تحريك أحداث باكو فإنها تتمثل فى الجبهة الشعبية الأذربيجانية ، تلك الجبهة التى كان لفيف من المثقفين الأذربيجانيين قد شرع فى تأسيسها بدءا من شهر نوفمبر ١٩٨٨ على نحو ما ذكرنا، وقد ظهرت الجبهة إلى حيز الوجود الفعلي فى يوليو ١٩٨٩. وتبنت الجبهة الشعبية الأذربيجانية برنامجا قومي المنحي، يدعو- من بين ما يدعو- إلى سيادة أذربيجان، وتمثيل الجمهورية فى المنظمات الدولية، والتقارب بين

---

(١) دانكوس، نهاية الإمبراطورية....، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٢، ١٠٣.

(٢) أنظر بصدد هذه التنظيمات: المرجع السابق، من ص ١٠٥ إلى ص ١٠٨.

شطرى أذربيجان بغية تمهيد السبل أمام توحدهما ، كما استهدف برنامج الجبهة العمل من أجل أن تغدو الأذربيجانية هى اللغة الرسمية الوحيدة داخل أذربيجان. وقد اكتسبت الجبهة الشعبية الأذربيجانية تأييدا جماهيريا هائلا، على نحو هيأ لها أن تكون الموجه الرئيسي للمظاهرات ، والإضرابات ، وغيرها من الأعمال التى تنطوي على تعبئة جماهيرية، وسرعان ما راحت الجبهة تدخل الإسلام فى نطاق اهتمامها باعتباره واحدا من أبرز مقومات الهوية الأذربيجانية. وعلى حين إكتسبت الجبهة شرعية هائلة أخذ الحزب الشيوعي الأذربيجاني يفقد مصداقيته لدى الشعب الأذربيجاني الذى راح يعتبره امتدادا لموسكو ، وهكذا فقد طرحت الجبهة الشعبية الأذربيجانية نفسها- فى مواجهة السلطة المركزية - كممثل حقيقي للمجتمع .

وتأسيسا على ما تقدم يبدو جليا أن الحركة العرقية الأذربيجانية كانت على مستوى مرموق من التنظيم، كما كانت تتمتع بتأييد شعبي جارف، على نحو خلع عليها شرعية هائلة داخل مجتمعها، جبت شرعية كافة المؤسسات الموالية لموسكو وعلى رأسها الحزب الشيوعي. وفضلا عن ذلك فإنه يتضح من خلال ما تقدم أن هذه الحركة كانت حركة انفصالية ، فى معنى أنها كانت تتغيا غاية قوامها انفصال أذربيجان عن الإتحاد السوفيتي، وتكوين دولة مستقلة، بل وقد كان طموحها متعاظما إذ وضعت من بين أهدافها إقامة دولة أذربيجانية تضم شطري أذربيجان السوفيتي والإيراني. أما فيما يتصل بوسائل الحركة العراقية الأذربيجانية فقد كان طابع العنف يغلب عليها، على نحو ما بدا بائنا خلال الصراعات الدموية التى خاضها الأذربيجانيون فى مواجهة الأرمن، والتى كانت الحركة العرقية هى الموجه لها.

وتتعين الإشارة إلى أنه انطلاقا من الشرعية الهائلة التى اكتسبتها المطالب الانفصالية للحركة العرقية الأذربيجانية فإن مجلس السوفييت الأعلى لأذربيجان كان قد صوت بالموافقة - فى أول سبتمبر عام ١٩٨٩ وفى غمرة المشاعر العرقية المتعاظمة - على قانون يقضى بأن تصبح أذربيجان دولة

ذات سيادة(١). كما أعلنت السلطات الأذربيجانية أنها المهيمن على كافة المسائل المتصلة بالتنظيم السياسي والإداري داخل أراضي أذربيجان، وأن أى تغيير فى هذا الصدد لن يكون ممكنا إلا من خلال قرار يتخذه القائمون على السلطة فيها، أو عبر استفتاء شعبي. وبطبيعة الحال فإن الأذربيجانيين كانوا يقصدون من وراء هذا النص التأكيد على أن مصير ناجورنو كاراباخ مرهون بإرادتهم هم،لا بإرادة قاطني الكريملين. وفضلا عما تقدم فقد نص قانون السيادة الأذربيجاني على أن القانون السوفيتي لن يطبق على أذربيجان إلا إذا كان متماشيا مع قوانينها ، كما نص القانون على احتفاظ أذربيجان بالحق المطلق فى إعلان حالة الطوارئ. وبطبيعة الحال فقد رفضت موسكو قانون السيادة الأذربيجاني واعتبرته غير دستوري، فى حين راح الأذربيجانيون يؤكدون مضيهم قدما نحو الاستقلال التام ، وعلى أية حال فقد تمكن الأذربيجانيون من نيل إستقلالهم " الفعلي" على إثر الانقلاب الفاشل الذى تعرض له حكم جورباتشوف فى أغسطس عام ١٩٩١.

أما فيما يتصل بالحركة العرقية الأرمينية فقد تجسدت – فى البداية – من خلال لجنة كاراباخ، ثم تراكمت عليها منظمة أخرى كانت بمثابة إمتداد لها عرفت بالحركة الوطنية الأرمينية ، وقد تأسست هذه الحركة فى إيرفان فى ٤ نوفمبر عام ١٩٨٩، وحضر مؤتمرها التأسيسي ممثلون عن الجبهات الشعبية فى العديد من الجمهوريات السوفيتية(٢) . ويمكن القول – بصفة عامة – أن الطبيعة الانفصالية قد راحت تكسو الحركة العرقية الأرمينية منذ نهاية عام ١٩٨٨، إذ فى ذلك الوقت ساد الأرمن الاعتقاد بان موسكو لم تعد تمثل لهم – كما كانت من قبل – الحصن المنيع الذائد عنهم، والمدافع عن حقوقهم ، ولعل مرد هذا الاعتقاد كان إلى موقف موسكو غير المحابي لإيرفان بصدد مسألة ناجورنو كاراباخ على نحو ما قدمنا . أما بصدد وسائل الحركة العرقية الأرمينية فقد كان يغلب – عليها هى الأخرى– طابع العنف ،

---

(١) أنظر بصدد هذا القانون: المرجع السابق، ص ٢١٧.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٣.

ويؤكد ذلك ما شهده الصراع مع الأذربيجانيين من اشتباكات دامية، وإغتيالات ، وعمليات إختطاف ، ومعارك شديدة الوطيس بين عصابات مسلحة، وميلشيات عرقية وغيرها(١).

على أية حال فإنه نظرا لطغيان مزاج الانفصال على الأرمن منذ عام ١٩٨٩ فإن مجلس السوفييت الأعلى لأرمينيا كان قد أقر- هو الآخر- قانونا في ذلك العام يقضي بأن تصبح أرمينيا دولة ذات سيادة، وقد كان هذا القانون من حيث مضمونه- مطابقا - إلى حد بعيد - لقانون السيادة الأذربيجاني السابق الإشارة إليه(٢). غير أن نيل الأرمن لاستقلالهم "الفعلي" لم يتم إلا غداة فشل انقلاب أغسطس ١٩٩١ والذى استهدف كما أشرنا سلفا الإطاحة بجورباتشوف.

ويبقى أن نشير فى النهاية إلى أن الصراع المسلح الدامي بين الأذربيجانيين والأرمن والذى اندلع فى بداية عام ١٩٨٨- كما سبق أن أشرنا - قد استمر حتى تفكك الإتحاد السوفيتي فى نهاية عام ١٩٩١، ثم لم يلبث أن تحول - غداة نيل كل من الدولتين الأذربيجانية والأرمينية لاستقلالهما - إلى حرب نظامية شعواء بين جيشي الدولتين، راح ضحيته عشرات الآلاف من الجانبين ، وإن كان قد أسفر عن استيلاء أرمينيا على معظم أراضي إقليم ناجورنو كاراباخ. وقد سعى العديد من الأطراف الدولية للتوفيق بين الدولتين بغية وقف نزيف دم أبنائهما ، غير أن كافة المساعى- وعلى رأسها المسعى الإيراني- قد باءت بالفشل(٣). وعلى الرغم من سكوت هدير مدافع الدولتين فى الوقت الراهن فإن أسباب الصراع لما تزل قائمة ، إذ لم تتفق الدولتان بعد على أية صيغة من الصيغ التى قدمت لحل الأزمة.

(١) أنظر بصدد هذه الوسائل : جار ، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٧ ، ٢١٨.

(٢) دانكوس، نهاية الإمبراطورية... ، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٧.

(٣) أنظر بصدد هذا النزاع على سبيل المثال: عبد الله صالح، ناجورنو كاراباخ: الصراع بين الجغرافيا والهوية القومية ، مجلة السياسة الدولية، العدد (١٢٠)، أبريل ١٩٩٥، من ص ١٧٦ إلى ص ١٧٩.

ولعلنا لا نكون بعيدين عن كبد الحقيقة إذا ما قلنا أن الهدوء النسبي الذى يخيم حاليا على العلاقات الأرمينية الأذربيجانية لا يعدو أن يكون هو ذاته الـــهدوء الذى يسبق العاصفة، وبالتالي فإن الصراع المسلح الدامي بين الدولتين مندلع لا محالة، طالما ظلت جذوره تضرب فى أرض الواقع .

* * * * *

تعقيـــــب :

بعد أن عرضنا للصراع الأذربيجاني الأرميني خلال عهد جورباتشوف فإنه يجدر بنا أن نؤكد على حقيقة – بصدده- قوامها أنه :

ما أن خفت قبضة الكريملين على الجماعات العرقية الخاضعـة لنـير قاطنيه-في ظل الجلاسنوست- حتى راحت مشاعر العـداء بيـن الأرمـن والأذربيجانيين تتأجج، ويستعر أوراها، تغذيها فى ذلك الأحقاد التاريخية التى طالما ظلت حبيسة صدور الفريقين لعقود طويلة مضت ، ولم يقدر لـهـا أن تتجسد فى الواقع، نظرا للقبضة الجبارة التى أطبق بها البلاشفة علـى كافـة الجماعات العرقية المشكلة لدولتهم. وما أن خفت تلك القبضة- فى ظل الحكم الجورباتشوفى – حتى راح كل من الفصيلين الأذربيجاني والأرميني يكشـر عن أنيابه في مواجهة الآخر ، ويسعى إلى صب جام غضبه عليه، وهكـذا اندلعت الصراعات المسلحة الدامية بينهما، وهى الصراعات التى لم يـدع أى من الفريقين وسيلة من وسائل العنف والانتقام إلا واستخدمها فـى مواجهـة خصمه ، فانتشرت عمليات النهب ، والحرق، والاغتصـاب ، والإغتيـال ، وحروب العصابات، بل والحروب النظامية فى ربوع القوقاز، وظلت تئـن تحت وطأتها لأعوام عديدة . لقد جاءت هذه الصراعات – بكل ما شهدتـه من أعمال عنف – كى تؤكد علـى أن عبـارة " الصداقـة بيـن الشـعوب السوفيتية" لم تكن تعدو محض أوهام طـالت أذهـان قـاطني الكريمليـن ، فاعتقدوا فى وجودها على أرض الواقع، وراحوا يتشدقون بـها ، معتـبرين إياها أعظم إنجازات ثورتهم ، كذلك فإن الصراع المسلح الدامي الذى طـال منطقة عبر القوقاز ساهم أعظم إسهام فى تحطيم حلم لينين ورفاقه فى الشعب السوفيتي الواحد ذى الهوية الموحدة الجامعة . وفضلاً عما تقدم فـإن ذلـك الصراع قد جاء ليؤكد الحقيقة التى سقناها سلفاً، والتى مؤداها: أنه لا سـبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة فى وحدة سياسية أسـس بنيانها على التجميع الإجباري لشعوب غير متجانسة .

المطلب الثاني

الحركة العرقية فى جورجيا
خلال عهد جورباتشوف

أولا: تعريف بجمهورية جيورجيا وتكوينها العرقي:

تبلغ مساحة جمهورية جيورجيا ٩٦٧٠٠ كيلو متر مربع، وتتمثل عاصمتها فى مدينة تبليسى[١] Tbilisi . وقد وصل عدد سكان الجمهورية الجيورجية-حسب تعداد عام ١٩٨٩-إلى حوالى ٥٤٤٨٦٠٠ نسمة[٢]،يتشكلون من ما يربو على السبع جماعات عرقية، أظهرها الجيورجيون، والأرمن، والروس، والأذربيجانيون، والأوسيتيون، واليونانيون، والأبخاز. ونقدم فى الجدول التالي سردا لعدد كل من هذه الجماعات العرقية السبع الرئيسية فى جيورجيا ، حسب تعداد عام ١٩٨٩ :

---

(١) إبراهيم عرفات، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠.

(٢) Parsons. Op. Cit., P. 183.

الجماعة العرقية	تعدادها (نسمة)
الجيورجيون	٣٨١٩٤٦٨
الأرمن	٤٤٠٨٥١
الروس	٣٧٤٢٦٩
الأذربيجانيون	٣١٠٧١٤
الأوسيتيون	١٦٥٤٤٥
اليونانيون	١٠٠٨٨٠
الأبخاز	٩٦٨٤٥

جدول رقم (١٩)

المصدر: تم تركيبه بالإستعانة بـ :
- جار ،مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٧ وكذا:
- Parsons, Op. Cit., P. 186.

ويتضح من الجدول السابق أن الجيورجيين يمثلون أغلبية بائنة في وطنهم، إذ يشكلون حوالى ٧٠,١% من جملة سكان جيورجيا، ويتمايز الجيورجيون سلالياً عن سائر الجماعات العرقية الأخرى التى كانت تشكل الكيان البشرى للإتحاد السوفيتي، كما أن لهم لغتهم الخاصة بهم، والتى تكتب بأبجدية متمايزة لهم ظهرت فى القرن الرابع. أما من ناحية الدين فقد اعتنق الجيورجيون المسيحية منذ القرن الرابع الميلادي، وبالتالي فقد سبقوا الروس فى هذا الصدد بحوالي ستة قرون. وعلى الرغم من أن الجيورجيين يدينون - كالروس - بالمذهب الأرثونكسي إلا أن لهم كنيستهم الخاصة التى تعرف بالكنيسة الأرثونكسية الجيورجية ، ويتميز الجورجيون بإنجازاتهم العملية والثقافية عظيمة الشأن ، لذلك فإنهم يعتبرون أنفسهم أرقى من سائر الشعوب

المجاورة لهم(١).

وعلى نحو ما أشرنا سلفا فقد كان الجيورجيون تمكنوا فى عام ١٩١٨ من الحصول على استقلالهم عن روسيا، غير أن ذلك الاستقلال لم يدم سوى ثلاث سنوات ، إذ سرعان ما قامت جحافل البلاشفة بإقتحام الدولة الجيورجية الوليدة فى عام ١٩٢١، منهية استقلالها ، ومدخلة إياها من جديد إلى الحظيرة الروسية. غير أنه يتعين التنويه إلى أن الجيورجيين كانوا قد أقاموا فى دولتهم نظاما ديمقراطيا خلال فترة استقلالهم القصيرة(٢).

وتجدر الإشارة إلى أن جمهورية جيورجيا الإتحادية السوفيتية كانت تضم جمهوريتين تتمتعان بالحكم الذاتي هما أبخازيا ، وأدغاريا ، فضلا عن إقليم يتمتع بالحكم الذاتي هو إقليم أوسيتيا.

ثانيا: الحركة العرقية فى جيورجيا خلال عهد جورباتشوف :

الحق أن عهد جورباتشوف شهد ظهور حركات عرقية عديدة فى جيورجيا ، وقد تمثل أظهر هذه الحركات فى الحركة الجيورجية، والحركة الأبخازية، والحركة الأوسيتية، والحركات الأذربيجانية. ولغرض التحليل فإننا سنعرض لكل من هذه الحركات على انفراد، وذلك على النحو التالي :

١-الحركات العرقية الجيورجية:

تشير ملاحظة الواقع الجيورجي- فى ظل الحكم السوفيتي- إلى أن الجيورجيين كانوا من أكثر الجماعات العرقية السوفيتية تمردا على الكريملين، إذ كانت تسيطر عليهم دوما مشاعر الاستياء والحنق إزاء كل هو ما سوفيتي، وكان مرد ذلك - بطبيعة الحال- إلى إدراك الجيورجيين أن

---

(١) أنظر فى هذا الصدد :

- White .Op. Cit., P.P. 141-145.

(٢) Parsons . Op. Cit., P.P. 181-182.

دولتهم قد أخضعت لهيمنة الكريملين رغما عن أنفهم.

كذلك فإن المدقق فى تاريخ جيورجيا السوفيتي سرعان ما يـــدرك أن الجيورجيين كانوا من أكثر الجماعات العرقية السوفيتية تمســـكا بهويتـــهم، ودفاعا عنها ، ووقوفا فى وجه أى مساس بها. لذلك نجدهم - علـــى ســـبيل المثال - يتظاهرون ضد الكريملين فى عام ١٩٥٦، لا لشئ إلا لأن الزعيـــم السوفيتي الجديد- آنذاك- خروشوف قد راح يهاجم سلفه الجيورجي الأصـــل ستالين، وذلك على الرغم من أن الناظر فى تاريخ ستالين يدرك - دون أدني معاناة - أنه لم يكن أبدا مخلصا لبنى نحلته[١]. كذلك ففى إطار دفاعهم عـــن مقومات ذاتيتهم نجد أن الجيورجيين قد نظموا مظـــاهرات حاشـــدة – فـــى عام١٩٧٨- بغية المطالبة بأن تصبـــح الجيورجيـــة هـــى اللغـــة الرســـمية لجيورجيا[٢].

وفى عام ١٩٨١ سادت الاضطرابات وأعمال العنف جيورجيا، ونشبت أزمة بين الكريملين والمسئولين الجيورجيين، أعقبتها حركة تطهير واســـعة النطاق، أطاحت موسكو بمقتضاها بلفيف يعتد به من الساسة الجيورجييـــن. وقد أعلنت الحكومة السوفيتية أن القيام بتلـــك الحركـــة إســـتهدف مواجهـــة ظاهرتي الفساد والرشوة، اللتين تفشيتا فى جيورجيا . غير أن العديـــد مـــن الأدلة والبراهين يؤكد- على حد قول البعض - أن إضطرابـــات جيورجيـــا عام ١٩٨١ كانت ذات طابع عرقي ، إذ كانت تمثل نوعا من المقاومة مـــن جانب الجيورجيين لاستمرار الكريملين فى السعي إلى ترويـــس جيورجيـــا، وتضييق الخناق على لغتها القومية[٣]. ذلكم فيما يتصـــل بالنزعـــة العرقيـــة الجيورجية فى ظل قبضة الكريملين الجبارة على العرقيات خـــلال الحقبـــة

---

(١) Ibid .. P. 186.

(٢) Ibid..P.P. 186-187.

(٣) أنظر فى هذا المضمون: دانكوس، انتفاضة القوميات...، مرجع ســـبق ذكـــره، ص ١٨٢.

السابقة على اعتلاء جورباتشوف سدة الحكم فى الإتحاد السوفيتي. أما خلال الحقبة الجورباتشوفية وفى رحاب البريسترويكا والجلاسنوست فقد بات المناخ مهيئا – بطبيعة الحال – لتأجج النزعة العرقية لدى الجيورجيين أكثر من أى وقت مضى، وقد تجلى أول مظاهر التعبير عن تلك النزعة الطاغية فى ٢٥ فبراير عام١٩٨٨، عندما تجمع الجيورجيون داخل تبليسى فى مظاهرات حاشدة ينددون بما قام به قاطنو الكريملين عام ١٩٢١ من اجتياح لجيورجيا، ووضعها عنوة تحت إمرتهم[١]. وهكذا فهاهم الجيورجيون – وفى أول فرصة أتيحت لهم للتعبير عن مكنون صدورهم- يؤكدون عدم شرعية ضم جمهوريتهم إلى الإتحاد السوفيتي، ويطالبون بالاستقلال. وقد تكرر ذات المطلب خلال مظاهرات فبراير ١٩٨٩ أيضا. وفى إطار تأكيد مسعاهم الانفصالي وتأسيسا على موقفهم الرافض الإذعان لموسكو راح الجيورجيون- فى ٤ أبريل ١٩٨٩- ينخرطون فى مظاهرات حاشدة ضمت فى البداية عشرين ألفا منهم، راحوا يزأرون فى الساحة المتاخمة لمجلس الوزراء ، والشوارع المجاورة لها داخل العاصمة تبليسي، وسرعان ما تعاظم عدد المتظاهرين، كى يصل إلى مائة ألف تعالت هتافاتهم مطالبين باستقلال جيورجيا ، ورحيل الروس عنها. وتجدر الإشارة إلى أن الروس كانوا- إزاء مشاعر العداء التى يبديها الجيورجيون تجاههم- قد بدأوا فى النزوح من جيورجيا، وعلى سبيل المثال فقد كان عددهم فيها عام ١٩٨٩ لا يزيد عن ٣٧٤٢٦٩ شخصا ، كما أن أعداد الروس الراحلين عن جيورجيا قد بدأت في التزايد بصورة كبيرة مع نهاية عقد الثمانينيات[٢] . وبالعودة إلى صعيد مظاهرات تبليسي فى أبريل عام ١٩٨٩ نضيف أن الجيورجيين قد نظموا خلالها إضرابا عاما أصاب الحياة فى العاصمة بالشلل التام، كما عمد

---

(١) Fuller, Elizabeth , Georgia Since Independence : Plus C A CHANGE..., Current History , October . 1993 P. 342.

(٢) أنظر فى هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية..مرجع سبق ذكره،ص ١٢٢، ١٢٣

بعض المناضلين المنتمين إلى الحزب الوطني الجيورجي (غير الشرعي) إلى الإضراب عن الطعام، مطالبين بحـق جيورجيـا فـي تقريـر مصيرهـا، والإستقلال التام عن موسكو. وفى ٨ أبريل اندلعت المظاهرات فـي مدينـة كوتايس الجيورجية تضامنا مع متظاهري تبليسـي ، كمـا راح جيورجيـو أبخازيا يتجاوبون مع بنى نحلتهم فى تبليسى، ويتظـاهرون فـي العاصمـة الأبخازية سوخومي[١].

وهكذا فقد عمت المظاهرات ربوع جيورجيا مطالبة بالإسـتقلال ، وإذا كان المسئول السوفيتي الجيورجي الأصل إدوارد شيفرنادزة قد نجـح فـي تهدئة المتظاهرين عام ١٩٧٩، فإن مسعاه هذه المرة كان مآله إلى الفشل ، إذ بات واضحاً أن هيمنة الحزب ورجاله على الجيورجيين قد غـدت واهيـة، وبالتالي فلم يفلح شيفرنادزة فى إثناء الجيورجيين عن المضـي قدمـا فـي المطالبة باستقلالهم[٢].

على أية حال فإن مظاهرات تبليسى قد بلغت أوج عنفوانها فى التاسـع من أبريل عام ١٩٨٩ ، وإزاء ذلك لم تجد السلطات السوفيتية من حل سـوى قمع المتظاهرين، وسرعان ما راحت قوات تابعة للجيش السـوفيتي تـهاجم المتظاهرين فى تبليسي ، حيث أسفرت المجابهة بيـن الفريقيـن – حسـب التقديرات الرسمية – عن مقتل تسعة عشر شخصاً، وجـرح بضـع مئـات آخرين[٣]. وإزاء تلك المذبحة المروعة راح الجيورجيون يطلقون على يـوم الأحد ٩ أبريل ١٩٨٩ " الأحد الأسود" .

ومن جانب آخر فقد صادرت قوات الأمن– خلال المصادمات– حوالى ٦٦ ألف قطعة سلاح كانـت لدى الجيورجيين، كما تم كشف النقـاب عـن حملة جيورجية شعبية واسعة النطاق استهدفت تعبئة المواطنين مـن شـتى

---

(١) أنظر فى هذا المضمون: المرجع السابق.

(٢) أنظر فى هذا المضمون: نفس المرجع السابق.

(٣) Fuller . Op. Cit., P. 342.

أرجاء جيورجيا فى مواجهة الحكومة، فضلاً عن السعي إلى تكثيف المقاومة بين صفوف المنشقين ، وممثلى الحركات العرقية...، وغيرهم من منظمي الاضطرابات[١].

وهكذا فإن الجيورجيين ما أن أدركوا أن قبضة الكريملين عليهم قد خفت حتى هبوا لنيل استقلالهم، والتخلص من النير السوفيتي الذى طالما أنوا تحت وطأته .

والحق أن مذبحة تبليسى (أبريل ١٩٨٩) قد هيأت لتوحيد الجيورجيين فى بوتقة حقد استشعروه إزاء الكريملين، ومن جانب آخر فإن تزايد المطالب الانفصالية –التى سنعرض لها لاحقا– لدى الأبخاز والأذربيجانيين وغيرهم قد أدى إلى إقناع الحركات الوطنية الجيورجية بأن جيورجيا مهددة بالتمزق ، وأن موسكو تقف وراء هذا التهديد بغية تحطيم الشعور القومي لدى الجيورجيين ، وبالتالي فإنه لا بديل أمامهم عن الاستقلال، وهو الأمر الذى يستلزم توحيد جهود الجيورجيين وصهرها فى بوتقة واحدة سعياً لبلوغ هدفهم المنشود . ونظراً لكل ما تقدم فقد أنشأ الجيورجيون جبهتهم الشعبية فى يوليو ١٩٨٩، تلك الجبهة التى جمعت شتات أغلب الأحزاب والمنظمات التى كانت قد ظهرت إلى حيز الوجود خلال النصف الثاني من عقد الثمانينيات ، وعلى رأس هذه المنظمات والأحزاب منظمتان كانتا قد نشأتا عام ١٩٨٩، والتف أعضاؤهما فى البداية حول أهداف ثقافية حال إحياء التراث الجيورجي، والنضال ضد الترويس الثقافي . غير أن تينك المنظمتين سرعان ما اتخذتا منحى سياسياً ذا طابع قومي استقلالي. وفضلاً عن هاتين المنظمتين فقد ضمت الجبهة أحزاباً عديدة حال الحزب الوطني الديمقراطي، والحزب القومي من أجل الاستقلال.. وغيرهما. وقد بدا هدف الجبهة الشعبية الجيورجية جلياً من خلال برنامجها التأسيسي،

---

(١) أنظر فى هذا المضمون: أحمد عباس عبد البديع، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٦.

والذى جاء فيه أن الجبهة هى: " تنظيم اجتماعي سياسي شعبي شامل يضـــم كافة ذوي الإرادة الطيبة من أجل استعادة الاستقلال السياسي، والإقتصـــادي، والثقافي لجيورجيا ، وخلــق مجتمع ديمقراطي وإنســاني من أجل كل الذين يعيشون فيه" (١).

وهكذا يتضح فى ثنايا كل ما تقدم أن الحركة العرقية الجيورجية كانت حركة انفصالية ، إذ استهدفت انسلاخ جيورجيا عن الإتحاد السوفيتي، وإقامة دولة مستقلة تضم أبناء النحلة الجيورجية وتعبر عن هويتهم.

وفى ٨ نوفمبر ١٩٨٩- وفى إطار مناخ مفعم بالمشـــاعر القوميـــة - راح مجلس السوفييت الأعلى الجيورجي يخطو خطوة هامة نحو الاســتقلال المنشود لجمهوريته، إذ وافق المجلس على تعديلات دستورية تعطي جيورجيا الحق فى رفض أى قانون سوفيتي يتعارض مع مصالحها(٢). وعلى ذلك فقـد بات جليا أن النزعة الانفصالية كانت قد غدت مسيطرة علـــى المؤسســات الجيورجية الرسمية، بما فيها تلك التابعة لموسكو، والتى كانت قـــد أنشــئت بقصد ترسيخ الإتحاد حال مجلس السوفييت، ومن هنا فقــد أضحــت تلــك المؤسسات- فى خضم النزعة العرقية المتأججة- بمثابـــة عــامل مقــوض للإتحاد، لا مرسخ له.

وارتباطا بالاتجاه الاستقلالي الذى سيطر على أعضائه راح مجلس السوفييت الجيورجي - فى ٩ ماس ١٩٩٠ - يطالب - دون أدنى مواربة - بإستقلال جيورجيا ، وانفصالها عن الإتحاد السوفيتي(٣). ثم راح المجلـــس-

---

(١) أنظر فى هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية.. مرجع ســبق ذكــره، ص ١٩٢، ١٩٣ ، ٢١٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٢.

(٣) أنظر فى هذا المضمون: شهريات مجلة السياسة الدوليـــة، العــدد (١٠١) ، يوليــو ١٩٩٠، ص ٢٧٩.

فى الحادى والعشرين من ذات الشهر – يخطو خطوة جديدة نحـــو ترسيخ نظام سياسي جيورجي ديمقراطي يستند إلى مبادئ مناقضة لتلك التى يقــوم على هداها النظام السوفيتي، حيث وافق المجلس على إلغاء النص الدستوري الذى يقضى باحتكار الحزب الشيوعي للحياة السياســية فــى جيورجيــا(١)، وبالتالي فقد أقر البرلمان الجيورجي مبدأ التعددية الحزبية. والحــق أن هــذا الإجراء – فى رأينا – يعد بمثابة محو للتــاريخ الســوفيتي لجورجيــا ، إذ بمقتضاه عاد الجيورجيون إلى ذات النظام النيابي التعددى الذى كان قائما فى جمهوريتهم خلال فترة استقلالها الوجيزة، التى لم تدم أكثر من ثلاث سنوات بدأت فى عام ١٩١٨ ، وانتهت فى عام ١٩٢١.

ومن ناحية أخرى فقد قرر البرلمان الجيورجي– خلال جلسة ٩ مارس ١٩٩٠ – الاستجابة لمطالب الأحزاب والمنظمات السياســية الجيورجيــة– وعلى رأسها الجبهة الشعبية – وأعلن تأجيل الإنتخابات البرلمانيــة – التــى كان مزمعا عقدها فى ذات الشهر – إلى خريف عام ١٩٩٠(٢) ، وذلك بقصد إعطاء الفرصة للأحزاب الجيورجية الناشئة فى ترسيخ وجودها والمشــاركة بفاعلية فى تلك الإنتخابات، وعلى نحو يهيئ لإيناع التجربــة الديمقراطيــة الوليدة . أما على صعيد الأحزاب والمنظمات الشعبية فقد راح أكثر من مائــة حزب ومنظمة جيورجية– فى ٢٥ مارس ١٩٩٠– يشاركون فى تأســيس " منبر قومي من أجل الاستقلال" ، عمدوا من ورائه إلى أن يكون بمثابة قــوة شعبية منافسة لمجلس السوفييت الأعلى، فضلا عن التفاوض مــع موســكو بصدد الاستقلال(٣). وهكذا فها هم الجيورجيون وقد هبوا – عن بكرة أبيــهم– مطالبين بالاستقلال، والتخلص من ربقة الكريملين. وبطبيعة الحال فإن ذلــك لم يكن ليحدث إلا فى ظل التراخي الذى انتاب القبضة الشيوعية فــى ظــل

---

(١) المرجع السابق.

(٢) أنظر فى هذا المضمون : نفس المرجع السابق.

(٣) أنظر فى هذا المضمون: دانكوس،نهاية الإمبراطورية... ، مرجع سبق ذكره،ص٢١٨

البريسترويكا ، بحيث لم تعد هى ذات القبضة التى طالمـــا كـــان الإرهـــاب ديدنها، والصرامة المفرطة طابعها.

والحق أن مناخ الجلاسنوست الذى ســمح بإينـــاع الحركـــة العرقيـــة الجيورجية، قد هيأ كذلك لظهور حركات عرقية أخرى داخـــل جيورجيـــا ، وذلك على النحو الذى سنعرض له فيما يلي :

٢-الحركة العرقية الأبخازية:

يشير المؤرخون إلى أن الأبخاز كانت لهم مملكة خاصة بهم، أسســوها فى عام ٧٤٦ ميلادية، وقد ظلت هذه المملكة قائمة ومستقلة حتى عام ١٩٧٨ عندما قام الجيورجيون بضمها إلى دولتهم . غير أن الأبخاز تمكنوا – فـــى عام ١٤٦٣- من استعادة استقلالهم، ثم سرعان ما ضمت الدولـــة العثمانيـــة مملكتهم فى القرن السادس عشر، حيث راحوا يعتنقون الإسلام . وبحلول عام ١٨٦٤ وعلى إثر حروب طويلة وطاحنة مع الدولة العثمانية تمكن الـــروس من ضم أبخازيا وجيورجيا إلى إمبراطوريتهم، حيث تعرض الأبخاز إثر ذلك لعمليات تهجير إجباري من موطنهم، ومع ذلك فقد ظلوا يقـــاومون الـــروس بضراوة حتى تمكن القياصرة من إخماد تمردهم تماماً فى عام ١٨٧٧(١).

أما فى ظل الكيان السوفيتي فقد مثلت أبخازيا جمهورية ذات حكم ذاتي فى إطار جمهورية جيورجيا الاتحادية . وقد بلغ عدد سكان أبخازيا – حسب تعداد عام ١٩٨٩- حوالى ٥٢٥٠٦١ نسمة، يتشكلون مما يربو على الأربـــع جماعات عرقية أظهرها الجيورجيون ، والأبخاز، والأرمن، والروس.

ويقـــدم الجدول التالي سرداً لأعداد هذه الجماعات الأربع الرئيسية فى

---

(١) أنظر فى هذا المضمون: مختار شعيب عبد الله، الصـــراع القومـــى والعرقـــى فـــى الجمهوريات المستقلة : أبخازيا – جيورجيا، مجلة السياسة الدوليـــة، العـــدد(١٢٠)، ص١٨٢، ١٨٣ ، وكذا : معتز محمد سلامة ، الصراع على الساحل الشرقي للبحـــر الأسود، مجلة السياسة الدولية، العدد(١١٥) ، ص ٩٩.

أبخازيا حسب تعداد ١٩٨٩:

الجماعة العرقية	تعدادها(نسمة)
الجيورجيون	٢٣٩٩٥٢
الأبخاز	٩٣٤٦٠
الأرمن	٧٨٧٥٩
الروس	٧٣٥٠٨

جدول رقم (٢٠)

المصدر: تم تركيبه بالإستعانة بـ :

- معتز محمد سلامة، مرجع سبق ذكره، ص ٩٩ ، وكذا :

- Fuller , Op. Cit., p. 344.

ويتضح فى ثنايا هذا الجدول أن الأبخاز يمثلون أقلية فى موطنهم، إذ لا يشكلون سوى ١٧,٨% فقط من عدد سكان أبخازيا، في حين يمثل الجيورجيون الجماعة ذات الكم البشري الأكبر فى الجمهورية الأبخازية ، إذ يشكلون حوالي ٤٥,٧% من جملة عدد سكانها. وذلك كله على الرغم من الأبخاز كانوا - منذ قرن مضى- يشكلون حوالي ٦٨% من جملة سكان أبخازيا. ويرتد التناقص الشديد الذى طرأ على نسبة الأبخاز بين سكان موطنهم إلى هجرة عشرات الآلاف منهم إلى تركيا فراراً من الاضطهاد الذى تعرضوا له فى ظل الحكم الروسي القيصري. هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى إلى قيام الجيورجين بتوطين أعداد كبيرة من بنى نحلتهم في أبخازيا[١].

(١) أنظر فى هذا المضمون: معتز محمد سلامة، نفس المرجع السابق .

ويرى البعض أن قيام ستالين بمنح أبخازيا وضع الجمهورية ذات الحكم الذاتي- برغم تضاؤل نسبة الأبخاز فيها - إنما استهدف إثارة العداء بينهم وبين الجيورجيين ، إعمالاً لمبدأ فرق تسد. والحق أن الجيورجيين طالما نظروا إلى الأبخاز- منذ سنوات العشرينيات- على أنهم أداة في يد موسكو، التي يتعين تحديها بتحطيمهم في الوقت المناسب[1]. وهكذا فقد خيمت أجواء العداء دوماً على العلاقات بين الجيورجيين والأبخاز.

وتأسيساً على ما تقدم فإن الأبخاز - ظلوا منذ رحيل ستالين - يطالبون بالانفصال عن جيورجيا ، والانضمام إلى روسيا . وقد أكد الأبخاز على مطلبهم هذا إبان المظاهرات التي قام بها الجيورجيون عام ١٩٧٨ ، والتي إستهدفت - كما سبق أن أشرنا - الحصول على موافقة الكريملين بأن تصبح الجيورجية هي اللغة الرسمية لجيورجيا. فإزاء ذلك راح الأبخاز يتهمون الجيورجيين بالسعي إلى تدمير الهوية الأبخازية ، ويطالبون السلطات السوفيتية بسلخ جمهوريتهم عن جيورجيا وضمها إلى روسيا ، وهو المطلب الذي لم يحظ بموافقة قاطني الكريميلين وقتذاك . ولم يكن أمام الأبخاز- في ظل القبضة الجبارة لموسكو آنذاك- سوى الامتثال، وكبت عدائهم المتصاعد إزاء الجيورجيين. ومع اعتلاء جورباتشوف سدة الحكم في الكريملين في منتصف عقد الثمانينات فقد سمحت الجلاسنوست - على حد قول البعض - للعداء المتصاعد الأصم بين الجيورجيين والأبخاز أن يتحول إلى حقد معلن، وسرعان ما تفجر الصراع بين الفريقين[2].

وقد طفت المشكلة الأبخازية على سطح الأحداث داخل الإتحاد السوفيتي- من جديد- في يونيو عام ١٩٨٨ عندما تقدم الأبخاز إلى مؤتمر الحزب الشيوعي بوثيقة يطالبون فيها بالانفصال عن جيورجيا، كما راحوا يمطرون كافة مراكز السلطة في الحزب والجمهورية بل وعلى مستوى

---

(١) دانكوس، نهاية الإمبراطورية... ، مرجع سبق ذكره، ص١١٧.

(٢) راجع في هذا المضمون: المرجع السابق ، ص ١١٨، ١١٩.

الإتحاد السوفيتي بوابل من العرائض تحمل ذات المطالب. وإزاء ذلك نظم بعضة آلاف من الجيورجيين مظاهرة في تبليسي أكدوا من خلالها رفضهم لانفصال أبخازيا عن جيورجيا، رافعين شعار " لا للانفصال " . كما إتهم المتظاهرون الأبخازيين باستبعاد الجيورجيين من كافة مواقع المسئولية في أبخازيا، وراحوا يرددون : " لا للتمييز" . وسرعان ما جاء رد الأبخاز حاسماً على متظاهري تبليسي، إذ قاموا باستنفار شعبي هائل بين صفوفهم تمخض عن قيام مظاهرة ضمت حشوداً بشرية كانت من الضخامة بحيث لم تعهد المنطقة طيلة تاريخها نظيرة لها ، وراح المتظاهرون يطالبون بالانفصال ، وبأن تصبح أبخازيا جمهورية ذات سيادة شأنها في ذلك شأن جيورجيا [(١)].

وهكذا فعلى حين راح المتظاهرون في تبليسي يهتفون " جيورجيا للجيورجيين " راح المتظاهرون في سوخومي Sukhumi يزأرون "أبخازيا للأبخازيين " [(٢)]، ولكي تشتعل بذلك العداءات بين الأعراق، على نحو أظهر بجلاء كم كانت زائفة عبارة " الصداقة بين الشعوب السوفيتية " التي طالما رددها قاطنو الكريملين، وكم كان مستحيلاً تحقق الحلم اللينيني المتصل بالشعب السوفيتي الواحد ذي الهوية الجامعة .

على أية حالة فإن النزعة العرقية الأبخازية المتأججة سرعان ما طالت الحزب الشيوعي الأبخازي ذاته، إذ أن السكرتير الأول للحزب الشيوعي الأبخازي راح يوقع على إحدى العرائض المطالبة بانفصال أبخازيا عن جيورجيا، وعندما تمت إقالته – إثر ذلك – راح ينضم إلى الجبهة القومية الأبخازية المعروفة بـ " أيجلارا Ayglara" أو الوحدة وهي الجبهة التي كانت توجه دفة التحرك الأبخازي نحو الاستقلال جنباً إلى جنب مع جبهة

---

(١) أنظر في هذا الصدد: المرجع السابق، ص ١٣٠، ١٣١.

(٢) White . Op. Cit., P. 163.

قومية أبخازية أخرى تعرف بـــ " منبر شعب أبخازيا" The forum for the "Peoples of Abkhazia"[١].

وسعيا وراء تحقيق مطلبهم فى الانفصال استمر الأبخـــاز فـــى رفـــع العرائض التى تحمل هذا المطلب إلى كافة مراكـــز الســـلطة فـــى الإتحـــاد السوفيتي، كما راحوا – من جانب آخر – يسعون إلى تزويد قواتهم الخاصـــة بالأسلحة الحديثة، ولهذا الغرض فقد شنوا – فى يوليو ١٩٨٩ – هجوما عنيفا ضد مقار قوات وزارة الداخلية، وعمدوا إلى الاستيلاء على ما بداخلها مـــن أسلحة. وفضلا عما تقدم فقد نظم الأبخاز إضرابا شاملا شلت مـــن جرائـــه الحياة الاقتصادية فى أبخازيا، بل وطالت بعض آثاره المناطق الجيورجيـــة الأخرى[٢]. وفى ذات الشهر (أى يوليو ١٩٨٩) اندلعت فى الخامس عشـــر والسادس عشر اشتباكات عنيفة بين الأبخاز والجيورجيين داخـــل العاصمـــة الأبخازية سوخومي، حيث راح الأبخاز يرفضون إنشاء فرع لجامعة تبليســـي فى سوخومي. وقد أسفرت المجابهات بين الطرفيـــــن – حســـب التقديـــرات الرسمية – عن مصرع ١١ شخصا، وجرح ١٢٧ آخرين[٣].

كذلك فقد اندلعت مصادمات عنيفة بين الأبخاز والجيورجييـــن علـــى إثر فوز تحالف حزبي المائدة المستديرة وجيورجيا الحـــرة /Round Table Free Georgia Coalition الانفصالي فى الانتخابات البرلمانية التى أجريـــت فى جورجيا فى أواخر عام ١٩٩٠[٤]، وهو التحالف الذى انتخب البرلمـــان الجيورجي الجديد زعيمه زياد جمساخورديا Zviad Gamsakhurdia رئيســـا للجمهورية الجيورجية. وقد زادت المشاعر العرقية الأبخازية تأججا على إثر إعلان البرلمان الجيورجي الجديد استقلال جيورجيـــا فـــى ٩ أبريـــل عـــام

---

(١) Ibid.

(٢) أنظر فى هذا المضمون:دانكوس ، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره،ص١٣٨

(٣) White, Op. Cit., P.P. 164 -165.

(٤) Ibid., P. 165.

١٩٩١[١]. وراحوا يؤكدون- أكثر من أى وقت مضى- عزمهم الانفصال عن الإتحاد السوفيتي ، ولكى يستمر بذلك الصراع العرقي بين الجيورجيين والأبخاز، ذلك الصراع الذى استمر مشتعل الأوار وإزداد تأججاً فى أعقاب نيل جيورجيا لإستقلالها الفعلي عن الإتحاد السوفيتي على إثر فشل الانقلاب الذى استهدف الإطاحة بجورباتشوف من حكم الإتحاد السوفيتي في أغسطس عام ١٩٩١.

ومع اعتلاء إدوارد شيفرنادزة سدة الحكم فى جيورجيا مع بداية عام ١٩٩٢ راح البرلمان الأبخازي - فى يونيو - يتقدم إلى السلطات الجيورجية بطلب لإقامة اتحاد جيورجي أبخازي،غير أن الأبخازيين لم يتلقوا - حتى منتصف يوليو- أى رد على اقتراحهم من جانب السلطات الجيورجية، مما حدا بالبرلمان الأبخازى أن يعلن عودة أبخازيا إلى الإلتزام بدستور عام ١٩٢٥، والذى كانت أبخازيا - فى ظله - جمهورية إتحادية[٢]. والحق أن هذا الإجراء من جانب البرلمان الأبخازى كان يعنى عملاً- وفى ظل تفكك الإتحاد السوفيتي- أن تصبح أبخازيا دولة مستقلة.

على أية حال فإن شيفرنادزة سرعان ما راح يرد بحسم وصرامة على الإجراء الأبخازي ، ففى ١٤ أغسطس عام ١٩٩٢ شرع الآلاف من الجيش الجيورجي فى احتجاج أبخازيا، ولم يكد يمضى أسبوع على بدء الهجوم حتى أعلنت جيورجيا سيطرتها على أبخازيا وعاصمتها سوخومي. غير أن الأبخاز لم يستسلموا للزحف الجيورجي، إذ سارعوا بتشكيل قيادة عمليات للجيش الأبخازي وأعلنوا التعبئة العامة ، وراحوا يشنون هجماتهم الضارية على القوات الجيورجية ، ويحاصرونها فى سوخومى . وإثر معارك طاحنة إستمرت إثنى عشر يوما دانت للأبخاز السيطرة على عاصمتهم ، فى الوقت الذى خرج فيه شيفرنادزة منها بمساعدة الروس على متن إحدى طائراتهم،

---

(١) Fuller . Op. Cit., P. 343.

(٢) Ibid. P. 344.

بعد أن حاصره الأبخاز فى أحد مخازن الأسلحة النووية القديمة[1].

وفى ٣١ ديسمبر بدأت فى جنيف - بواسطة كل من الأمم المتحدة وروسيا - مباحثات سلام بين الجيورجيين والأبخاز، حيث تمت بمقتضاها الموافقة على وقف الأعمال الحربية، وتشكيل مجموعة عمل لتحديد الوضع السياسي لأبخازيا، وتمركز قوات حفظ سلام دولية على الحدود الجيورجية الأبخازية بغية مراقبة تطبيق الإتفاق ، بيد أنه سرعان مابان واضحا خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٩٤ أن الفشل هو مآل مفاوضات جنيف، إذ استمر كل من الفصيلين الجيورجي والأبخازي قابضا على موقفه المناقض لموقف الآخر . وعلي نحو هيأ لاندلاع الاشتباكات - من جديد - بين الأبخاز والجيورجيين بدءا من ٢٦ مارس عام ١٩٩٤[2]. وعلى الرغم من الهدوء النسبي الذى يخيم على أجواء العلاقات بين جيورجيا وأبخازيا - فى وقتنا الراهن- إلا أن الصراع الجيورجي الأبخازي لم تقتلع جذوره بعد، إذ لا يزال الأبخاز مسيطرين على جمهوريتهم ،قابضين على استقلالهم ، رافضين لإياه بديلا. فى حين يرفض الجيورجيون الإذعان للأمر الواقع الذى فرضه الأبخاز، لأن من شأن مثل هذا الإذعان أن يهيئ لمزيد من الحركات الانفصالية أن تطل برأسها على نحو يهدد بتمزيق أوصال جورجيا قاطبة.

وهكذا فعلى الرغم من تفكك الإتحاد السوفيتي ونيل جيورجيا لاستقلالها إلا أنها لا تزال - حتى يومنا هذا - تئن تحت وطأة الصراع العرقي، ذلك الصراع الذى يمثل خطرا داهما أودى باستقرارها، وكاد أن يعصف بوحدتها.

٣-الحركة العرقية الأوسيتية:

بلغ عدد الأوسيتيين فى الإتحاد السوفيتي السابق حوالي ٦٠٠ ألف

---

(١) أنظر فى هذا المضمون: مختار شعيب عبد الله، مرجع سبق ذكره، ص١٨٤.

(٢) أنظر فى هذا المضمون: نفس المرجع السابق .

نسمة، وهم يتوزعون بين جمهوريتي روسيا وجورجيا. ففي إطار روسيا الإتحادية يقطن الأوسيتيون جمهورية تتمتع بالحكم الذاتي هي أوسيتيا الشمالية، وتضم ٣٣٥٠٠ ألف أوسيتي ، في حين يبلغ عدد الأوسيتيين في جيورجيا حوالي ١٦٤٠٠٠ نسمة، يقطن خمس وستون ألفا منهم إقليما يتمتع بالحكم الذاتي يعرف بأوسيتيا الجنوبية ، وكانت روسيا القيصرية قد ضمت الشعب الأوسيتي في عهد كاترين الثانية . ويتكلم الأوسيتيون لغة ذات أصل فارسي، وبرغم وحدة أصلهم إلا أنهم غير متجانسي الدين، ذلك بأن أكثريتهم في أوسيتيا الشمالية يدينون بالإسلام، في حين أن أكثريتهم في جيورجيا مسيحيون. ومع ذلك فإن كافة الأوسيتيين يميلون إلى الإنضمام لروسيا، كما يجيد سبعون بالمائة منهم اللغة الروسية ، ومن هنا فإن غاية المنتهى لدى الأوسيتيين قاطبة هي أن يتحدوا في جمهورية واحدة تتمتع بالاستقلال الذاتي في إطار روسيا الإتحادية، وتجدر الإشارة إلى أن الأوسيتيين كانوا قد أعربوا – في عام ١٩٢٥– عن رغبتهم هذه ، غير أن مطلبهم قوبل بالرفض من جانب ستالين[١].

وبصدد أوسيتيا الجنوبية – وهي ما يهمنا في هذا المقام – فإن الأوسيتيين يشكلون ثلثا سكانها، في حين يشكل الجيورجيون الثلث الباقي[٢]. ويشير البعض إلى أن ثمة أحقادا تاريخية تحكم علاقة الجيورجيين بالأوسيتيين ، ومرد هذه الأحقاد إلى أن الأوسيتيين لم يبدوا أي اهتمام بما تعرض له الجيورجيون من مذابح عام ١٩٢٤، وبالتالي فلم يساندونهم. ومن هنا راح الجيورجيون ينظرون إلى الأوسيتيين على أنهم ألعوبة في يد موسكو، وعلى ذلك فقد عمدوا دوما إلى تحطيم هويتهم ، وفصم عرى الترابط بينهم وبين ذويهم في الشمال ، بيد أن الأوسيتيين قد ظلوا قابضين

---

(١) أنظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية....مرجع سبق ذكره، ص ١٣٩،١٤٠.

(٢) Fuller . Op. Cit., P. 344.

على هويتهم ، مدافعين بكل ضراوة عن مقومات ذاتيتهم ، لا سيما ما يتصل منها باللغة والتقاليد . ويمكن القول أن ميراث العداء بين الفصيلين الجيورجي والأوسيتي قد تنامى من جراء موقف الأوسيتيين اللامبالي إزاء المذبحة التى شهدتها تبليسي في يوم الأحد الأسود[1].

على أية حال فإن النزعة العرقية الانفصالية لدى الأوسيتيين الجنوبيين قد بلغت ذروة حدتها في رحاب البريسترويكا والجلاسنوست. لذلك فقد أسس الأوسيتيون – خلال عام ١٩٨٩ – جبهة شعبية راحت تعبر عن مطلبهم الخاص بالانفصال عن جيورجيا ، والانضمام إلى بنى نحلتهم في الشمال تحت الراية الروسية . وقد عرفت هذه الجبهة بـ" أديمون بنخاس" . ولقد بدأت أديمون بنخاس باللجوء إلى تقديم عرائض إلى السلطات السوفيتية والروسية والجيورجية ، عبرت فيها عن مطالب الأوسيتيين ، ثم سرعان ما راحت الجبهة تدرك أهمية القوة المسلحة ، وبالتالي فقد سعت إلى تكوين قوة أوسيتية دفاعية ، وعمدت إلى تزويدها بالعتاد والأسلحة . وهو الأمر الذى أثار قلق جيورجيا ، مما حدا بوزير داخليتها إلى إرسال قواته إلى أوسيتيا – في نهاية عام ١٩٨٩ – بغية السيطرة على الموقف داخلها[2].

وفي إطار محاربتها لأديمون بنخاس راحت السلطات الجيورجية– ممثلة في مجلس السوفييت الأعلى– تصدر– في أغسطس ١٩٩٠– قانونا انتخابيا يحظر على الجبهة الأوسيتية ممارسة حق الترشيح للإنتخابات. وقد رد الأوسيتيون على ذلك – في ٢٠ سبتمبر ١٩٩٠– بأن أصدر برلمانهم قرارا اعتبر بمقتضاه إقليم أوسيتيا الجنوبي جمهورية ديمقراطية سوفيتية تتمتع بالسيادة والحكم الذاتي. وسرعان ما رد الجيورجيون على ذلك – في ٢١ سبتمبر – بإصدار قرار من جانبهم اعتبروا فيه أن إعلان أوسيتيا السيادة

---

(١) أنظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص

(٢) أنظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١٤١.

غير دستورى[1] ، ولم يكتف الجيورجيون بما تقدم وإنما راح الرئيس الجيورجي جمساخورديا يصدر- في ديسمبر ١٩٩٠- قرارا يلغى بمقتضاه تمتع الإقليم الأوسيتي بالحكم الذاتي ، وسرعان ما راح البرلمان الأوسيتي يؤكد على حق الإقليم فى الإتحاد مع جمهورية أوسيتيا الشمالية، فى رحاب جمهورية روسيا الإتحادية.

من جانب آخر فقد استمر كفاح الأوسيتيين فى مواجهة الجيورجيين طيلة عام ١٩٩١، بيد أن هذا الكفاح اتسم بالعشوائية ، والتشتت . وفى يناير ١٩٩٢ وافقت أغلبية ساحقة من الأوسيتيين فى استفتاء شعبي أجرى آنذاك على إنفصال أوسيتيا الجنوبية عن جيورجيا، وانضمامها إلى أوسيتيا الشمالية تحت الراية الروسية[2]. وبطبيعة الحال فقد رفض الجيورجيون تحقيق المطلب الأوسيتي، ولا يزال الأوسيتيون- حتى يومنا هذا - يسعون بشتى السبل إلى الانفصال عن جيورجيا، والإتحاد مع بنى نحلتهم فى أوسيتيا الشمالية، لكى يكونون جمهورية واحدة تتمتع بالحكم الذاتي فى إطار روسيا الإتحادية.

٤-الحركات العرقية الأخرى داخل جيورجيا:

لم تقتصر الحركات العرقية فى جيورجيا على ما تقدم وإنما شملت كذلك حركتين أخريين هما:

أ - الحركة العرقية الأدغارية [3] :

يقطن الأدغار فى جيورجيا جمهورية تتمتع بالحكم الذاتي وهى جمهورية أدغاريا. وبرغم كون الأدغار جيورجيي السلالة إلا أنهم يستشعرون هوية خاصة ترتد إلى إسلام جانب كبير منهم، فضلا عن تأثرهم

---

(١) معتز محمد سلامة، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٠.

(٢) Fuller , Op. Cit., P. 345.

(٣) أنظر بصدد هذه الحركة: معتز محمد سلامة، مرجع سبق ذكره، ص ٩٩.

بالثقافة التركية طيلة فترة التواجد العثماني بجمهوريتهم ، الأمر الذى يجعلهم يشعرون بالعزلة والاغتراب الثقافي لا سيما فى ظل الإضطهاد الديني الـذى يعانونه فى جيورجيا . وقد تمثل أول مظهر من مظاهر تعبير الأدغار عـن مشاعرهم العرقية فى المظاهرات التى قاموا بها فـى أبريـل عـام ١٩٩١ كتعبير عن رفضهم للمقترحات الجيورجية بإلغاء الحكم الذاتـي لأدغاريـا، فضلا عـن احتجاجهـم على محاولات التنصير التى يمارسها الجيورجيون

ضد الأدغار، والأذربيجانيين ، والأكراد فى أدغاريا ، وتتمثل غاية المنتـهى بالنسبة للأدغار فى الإنسلاخ عن جيورجيا والإنضمام لتركيا ، الأمر الـذى يجعل من المحتمل حدوث نزاع فى المستقبل بين تركيا وجيورجيـا بصـدد أدغاريا.

ب-الحركة العرقية الأذربيجانية [١] :

حيث توجد فى جيورجيا أقلية أذربيجانية يعتد بها ، إذ يبلغ تعدادهـا- حسب إحصاء ١٩٨٩- حوالى ٣١٠٧١٤ نسمة ، وفى ظل الشعور الإسلامي المتنامي الذى شهدته كافة أرجاء الإتحـاد السـوفيتي راح الأذربيجـانيون يدركون- أكثر من أى وقت مضى- تمايزهم إزاء الجيورجيين، وبالتالي فقد عمدوا إلى المطالبة بأن تصبح لهم جمهورية تتمتع بـالحكم الذاتـي تجمـع شتاتهم وتعبر عن هويتهم ، وذلك على غرار الجمهورية الأبخازية المتمتعة بالحكم الذاتي .

---

(١) أنظر بصدد هذه الحركة: دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكـره، ص١٣٨

تعقيـــب :

بعد أن عرضنا للحركة العرقية الجيورجية خلال عهد جورباتشـــوف فإنه قد بات بائنا أن عشرات السنين من الحكم الشيوعي لم تفلح في طمـــس الهوية العرقية للجيورجيين، كما أن هذه السنوات الطوال لم يكن من شـــأنها أن تمحو من ذاكرتهم حقيقة أن دولتهم قد ضمت قسرا إلى الدولة الســوفيتية، لذلك فما أن خفت قبضة الكريملين عليهم حتى راحت أعناقهم تشرئب إلـــى الاستقلال ، والتخلص من براثن الكريملين، فانطلقت مظاهراتهم الهادرة فـــي تبليسي تزأر بشعار ظل حبيس صدورهم طيلـــة عقـود عديـدة ألا وهـــو "جيورجيا للجيورجيين" ، ذلك الشعار الذى راح يجب كافة الشعارات التـــي طالما رفعها قاطنو الكريملين وعلى رأسها شعار " الأممية البروليتاريـــة " ، تلك الأممية التى اعتبرها البلاشفة – دوما – المصل الواقي من النزعـــات العرقية ، والسبيل الأوحد إلى إذابة الفواصل العرقية بين الشعوب الخاضعـــة لنيرهم على نحو يهيئ لخلق هوية سوفيتية جامعة.

وتأسيسا على ما تقدم فقد كانت الحركة العرقية الجيورجيـــة حركـــة انفصالية استهدفت انسلاخ بنى نحلتها عن الإتحاد السوفيتي، وإقامـــة دولـــة مستقلة تجمع شتاتهم وتعبر عن هويتهم.

على صعيد آخر فإن الصراعات العرقية الدامية التـــي حفلـت بـــها جيورجيا خلال العهد الجورباتشوفي– والتى لا يزال أوارها مستعمرا حتـــى يومنا هذا – جاءت لكى تؤكد أن عبارة " الصداقة بين الشعوب الســـوفيتية " التى طالما تشدق بها الزعماء السوفييت كانت مجرد شعار زائف ، ومحـــض أكذوبة كبرى ليس لها سند من حقيقة، ولا ظل من واقع، ذلك بأنـــه مـــا أن خفت قبضة الكريملين عليهم – فى رحاب الجلاسنوست – حتى راح كل من الأبخاز والجيورجيين يكشرون عن أنيابهم إزاء بعضهم البعض، وعمد كـــل فريق – مدفوعا بالأحقاد التاريخية التى يكنها صدره – إلى صب جام غضبه على خصمه. وسرعان ما اندفع الأوسيتيون إلى حلبـــة الصـــراع العرقـــي

المتأجج ، وراحوا يتجابهون مع الجيورجيين طلباً للانفصال عن جورجيــــا، والانضمام إلى بنى نحلتهم فى أوسيتيا الشمالية الروسية. ولم يقتصر الصراع على ما تقدم بل وراح الأدغار بدورهم يرفضـــون إلغــاء الحكــم الذاتـــي لجمهوريتهم، ويطالبون بالإنضمام إلى تركيا، فى حين عمد الأذربيجـــانيون إلى المطالبة بحق الحكم الذاتي فى إطار جيورجيا . وهكــذا فقــد اشــتعلت الجمهورية الجيورجية بنيران العرقية المتأججـــة ، علـــى نحــو عصــف بالإستقرار السياسي ، ودمر الوحدة الوطنية بين قاطنيها ، وراح ينذر بتفتتها قاطبة ، إذ تمكن الأبخاز من السيطرة على جل إقليم أبخازيـــا، علـــى إثــر معارك حامية الوطيس خاضوها فى مواجهة الجيورجيين، حتى تمكنوا فـــي النهاية من بسط نفوذهم على أراضي أسلافهم ، معلنين قيام دولـــة أبخازيـــا المستقلة. وهو الأمر الذى لم يكن ليذعن له الجيورجيون، فراحوا يرفضـــون الاعتراف باستقلال أبخازيا ، وإن كان وهن قوتهم وضراوة القوات الأبخازية قد حالا دون خوضهم غمار حرب جديدة بغية استرداد أبخازيا . وعلى ذلـك فإن الصراع الجيورجي الأبخازي مازالت جذوره تضرب فى أرض الواقع ، وبالتالي فإن آخر حلقاته لم تنته بعد . كما أن الصراع الجيورجي الأوســيتي لما يزل قائماً، فضلاً عن أن الأدغار لم يكفوا بعد عن المطالبة بالانسلاخ عن جيورجيا والانضمام لتركيا .

وجملة القول – إذا – فإن ما شهدته جيورجيا من صراعات عرقيـــة لاتزال مستعمرة الأوار حتى الآن جاء ليؤكد على الحقيقة الكبرى التى سـبق أن سقناها ، والتى مؤداها أنه : لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلـــى وحدة وطنية حقة فى وحدة سياسية أسس بنائيها علـى التجميـع الإجبـاري لشعوب متباينة قومياً .

* * * * *

المبحـــث الرابع

الحركتان العرقيتان الأوكرانية والبيلوروسية خلال عهد جورباتشوف

والحق أننا نجمع بين دراسة هاتين الحركتين فى مبحث واحد نظـــراً لكون كل من أوكرانيا وبيلوروسيا تمثل جمهورية سلافية، إذ تشتركان مـــع روسيا فى تلك الصفة، وبالتالي فقد كانتا أكثر الجمهوريات السوفيتية ترابطـا مع الأخ الأكبر. ولكن هــل أدى ذلك إلى الحيلولـــة دون ظـــهور حركـــات عرقية انفصالية داخل تينك الدولتين؟ هذا ما ستتضح الإجابة عليه من خــلال الصفحات التالية .

المطلب الأول

الحركة العرقية الأوكرانية

أولاً: تعريف بجمهورية أوكرانيا وتكوينها العرقي:

تبلغ مساحة جمهورية أوكرانيا ٤٤٥٠٠٠ كيلو متر مربع ، وتتمثل عاصمتها فى مدينة كييف Keiv (١) ، ولقد كانت أوكرانيا تمثل- في ظل الإتحاد السوفيتي- ثاني كبرى الجمهوريات من حيث عدد السكان، إذ كانت تلى روسيا فى هذا الصدد(٢). وقد وصل عدد سكان أوكرانيا - حسب إحصاء عام ١٩٨٩- إلى حوالى ٥١٤٧١٠٠٠ نسمة، يتشكلون من ما يربو على الثمان جماعات عرقية أظهرها الأوكرانيون، والروس، والبيلوروس ، والمولداف، والبلغار ، والبولنديون، والمجريون، والرومانيون.

ويمثل الأوكرانيون- حسب ما سيتضح من الجدول التالي- أغلبية عظيمة الشأن فى وطنهم ، إذ يشكلون حوالى ٧٢,٧% من جملة عدد سكان أوكرانيا. فى حين يمثل الروس كبرى الأقليات داخل الجمهورية الأوكرانية، إذ يشكلون حوالى ٢٢,٦% من جملة عدد سكانها . وتتعين الإشارة إلى أن الروس عموماً كانوا يعتبرون الأوكرانيين أقرب الجماعات العرقية السوفيتية إليهم، إذ كانوا يطلقون عليهم وصف " أشقائنا الأقدمين" كما كانوا يعتبرونهم الأخ الأكبر الثاني ، ولعل مرد ذلك إلى انحدار كل من الروس والأوكرانيين من ذات الأصل " السلافي " .

ونظراً لما تقدم فقد كان الروس يقبلون على الهجرة إلى أوكرانيا، وهذا ما يفسر تعاظم حجم الأقلية الروسية داخل الدولة الأوكرانية.

ونقدم فى الجدول التالي سرداً لأعداد الجماعات العرقية الثمان الرئيسية فى أوكرانيا حسب تعداد عام ١٩٨٩:

---

(١) إبراهيم عرفات، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠.

(٢) Duncan, Peter, J.S., Ukrainians, in : Smith , Graham(ed.) , Op. Cit., P. 95

تعدادها (نسمة)	الجماعة العرقية
٣٧٤١٩٠٠٠	الأوكرانيون
١١٣٥٦٠٠٠	الروس
٤٤٠٠٠٠	البيلوروس
٣٢٥٠٠٠	المولداف
٢٣٤٠٠٠	البلغار
٢١٥٠٠٠	البولنديون
١٣٦٠٠٠	المجريون
١٣٥٠٠	الرومانيون

جدول رقم(٢١)

المصدر: - جار ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٣.

وينحدر الأوكرانيون - كما سبق أن أشرنا - من أصل سلافي ، ويتكلمون لغة تنتمي إلى مجموعة اللغات السلافية الشرقية، وهم يدينون بالمسيحية بمذهبها الأرثوذكسي ، ويتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الروسية(١).

ثانيا: الحركة العرقية الأوكرانية:

لقد سعى ستالين بشتى السبل إلى تدمير النزعة القومية الأوكرانية ، ويرى البعض أنه قد رتب - عن عمد - المجاعة الكبرى خلال عامى ١٩٣٣،١٩٣٢ ، والتى هلك من جرائها ما يربو على الثلاثة ملايين أوكراني . كما فكر ستالين فى اقتلاع الشعب الأوكراني بأسره وتشتيته إبان الحرب العالمية الثانية بتهمة الخيانة، بيد أن تعاظم عدد الأوكرانيين قد

(١) White , Op. Cit., P. 141.

حل بين ستالين وإعمال فكرته هذه[١].

كما تتعين الإشارة إلى أن ستالين قد عمد إلى طمس الهوية الدينية لأوكرانيا الغربية، تلك القطاع من أوكرانيا التي كان خاضعا في الماضي للإمبراطورية النمساوية المجرية، والذي قام ستالين بضمه غداة الحرب العالمية الثانية ، ثم سرعان ما أصدر قرارا بربط الأوكرانيين الغربيين كاثوليكيي المذهب بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية، بيد أنهم – على حد قول البعض – لم يتخلوا أمام ضغط عقائدهم لسلطة الفاتيكان، وحرية المعتقد، إذ باتت أوكرانيا الغربية تمثل مرتعا خصبا للحركات التبشيرية السرية التي كان يقوم عليها قساوسة بولتشيوك[٢].

من جانب آخر تشير الدلائل – على حد قول البعض – إلى تنامي المشاعر العرقية لدى الأوكرانيين منذ بداية عقد الثمانينيات ، حيث بزغت مظاهر عديدة للاحتجاج القومي قادته النخبة الأوكرانية ، وعلى سبيل المثال فقد أرسل الكاتب الأوكراني (زينوبيا) مذكرة احتجاج طويلة إلى السلطات السوفيتية، راح يرفض – من خلالها – تروبيس أوكرانيا تحت غطاء الأممية ، حيث عنون مذكرته بـ " أممية أم تروبيس " [٣].

وعلى أية حال فإن النزعة العرقية الأوكرانية بلغت أوج حدتها خلال عهد جورباتشوف ، وعلى الرغم من ذلك فإن الجبهة الشعبية الأوكرانية لم يكتمل بنيانها إلا في سبتمبر عام ١٩٨٩. وقد كان مرد هذا التأخير في اكتمال بنيان الجبهة إلى تشتت العمل السياسي بين عاصمتي شطري أوكرانيا كييف ولفوف من ناحية، ومناوأة المعارضة التي قوبلت بها الجبهة من قبل السلطات السوفيتية من ناحية أخرى[٤]. والحق أن الجبهة الشعبية

---

(١) دانكوس، نهاية الإمبراطورية... مرجع سبق ذكره، ص ١٨٧، ١٨٨.

(٢) أنظر في هذا المضمون: المرجع السابق، ص ١٨٨.

(٣) أنظر في هذا المضمون: دانكوس، التفاصة القوميات...، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٣.

(٤) أنظر في هذا المضمون: نهاية الإمبراطورية... مرجع سبق ذكره، ص ١٨٩.

الأوكرانية كانت قد بدأت تطفو على سطح الحياة السياسية منذ نهاية عام ١٩٨٨، حيث كان إهتمامها – في البداية – ينصب على أمور تتصل بالحفاظ على البيئة، والدعوة إلى خفض التسلح النووي ، فضلاً عن بعض المسائل المتعلقة بالثقافة واللغة الأوكرانيتين(١). ثم شيئاً فشيئاً راحت الأهداف الحقيقية للجبهة تظهر للعيان، لا سيما غداة اكتمال بنيانها، والذى تم – كما سبق أن أشرنا – في ١٠ سبتمبر عام ١٩٨٩، ففي ذلك اليوم عقد المؤتمر التأسيسي للجبهة الشعبية الأوكرانية التي راحت تعرف " بالحركة Rukh " (٢). وغداة تأسيسها راحت راخ تطالب بأن تصبح الأوكرانية هي اللغة الرسمية لأوكرانيا، كما عمدت إلى المطالبة بنيل الجمهورية الأوكرانية لاستقلالها الاقتصادي ، وإزاء ذلك بدأ أعضاء الحزب الشيوعي الأوكراني يدركون أن الهدف الحقيقي لراخ إنما يكمن في استقلال أوكرانيا التام عن الإتحاد السوفيتي، وبالتالي فقد راح فريق يعتد به منهم يهاجم الجبهة ويطالب بالتصدى " للمتطرفين الذين يحلمون بالاستيلاء على السلطة ، وفرض أفكار ذات طابع عرقي على الشعب ، والانفصال عن الإتحاد السوفيتي، وإعادة الاعتبار لتيار البانديرية (*)، وكافة الرموز القومية" (٣).

وعلى الرغم من الهجوم الضاري الذى شنه غلاة الشيوعيين على راخ فإنها سرعان ما اكتسبت تأييداً شعبياً عظيم الشأن ، على نحو خلع عليها شرعية راسخة راحت – كما أثبت الواقع فيما بعد – تجب شرعية الحزب الشيوعي الأوكراني ، وتتعين الإشارة إلى أن شرعية الجبهة الشعبية ورسوخ قاعدتها كانت قد تأكدت حتى قبل إنعقاد مؤتمرها التأسيسي ، وقد بدا ذلك جلياً من خلال نتائج الإنتخابات التشريعية التي أجريت في أوكرانيا خلال

(١) White . OP. Cit., P. 165.

(٢) Ibid .

(*) نسبة إلى ستيبان بانديرا قائد المقاومة الأوكرانية ضد السيطرة السوفيتية على أوكرانيا الغربية .

(٣) دانكوس: نهاية الإمبراطورية ....، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٠، ١٩١.

شهر مارس عام ١٩٨٩، حيث حققت الجبهة - التى كانت لما تزل فى طور التكوين- نجاحا يعتد به فى مواجهة الحزب الشيوعي، إذ لحقت هزيمة ساحقة بعدد كبير من مسئولي الدولة والحزب. وأكد أحد زعماء الحزب الشيوعي الأوكراني" أن الهزيمة جاءت بفعل النشاط الذى قامت به الجبهة الشعبية برغم أن بنيانها لم يكن قد اكتمل بعد ، ومن هنا راح سكرتير الحزب الشيوعي الأوكراني شتشربيتسكي ينتقد سياسات جورباتشوف قائلاً: " إن الجلاسنوست تؤدي إلى قيام نزعة التطرف ، وبعث نزعة قومية ديماجوجية (غوغائية) " [١].

ومهما يكن الأمر فإنه قد بان واضحاً أن راخ قد بلغت أوج شعبيتها وذروة شرعيتها من خلال المظاهرات الحاشدة والسلاسل البشرية الهائلة التى تمكنت من تعبئتها وتحريكها فى ١٢ يناير عام ١٩٩٠، ذلك اليوم الذى راح الأوكرانيون يحتفلون فيه بالذكرى السنوية الثانية والسبعين لتأسيس جمهورية أوكرانيا المستقلة ، فقاموا بتنظيم سلسلة بشرية بلغ طولها خمسمائة كيلو متر بحيث ربطت عاصمتي شطري أوكرانيا كييف ولفوف ، ذلك فضلاً عن ما شهدته المدن الأوكرانية من مظاهرات حاشدة ضمت عشرات الآلاف فى بعض المدن ، غير أنه نظراً لوزن أوكرانيا الهائل داخل الإتحاد السوفيتي لم يكن بمقدر السلطة المركزية أن تتعامل مع أحداث أوكرانيا بنفس الوحشية التى تعاملت بها مع الجيورجيين[٢].

والحق أن أحداث أوكرانيا هذه بما تضمنته من مظاهرات وسلاسل بشرية حاشدة جاءت كى تؤكد على رسوخ قاعدة الجبهة الشعبية الأوكرانية، وتعاظم شرعيتها ، كما أظهرت هذه الأحداث مدى غلبة رغبة الإستقلال، وتأجج النزعة العرقية لدى الأوكرانيين.

ونظراً لما تقدم - وفى خضم تلك المشاعر القومية المتأججة - راح

---

(١) أنظر بصدد نتائج هذه الانتخابات، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

(٢) أنظر فى هذا المضمون: المرجع السابق ، ص ١٩٨.

مجلس السوفييت الأعلى فى جمهورية أوكرانيا- فى ١٦ يوليو ١٩٠- يعلن استقلال أوكرانيا وسيادتها على أراضيها ، وإعطاء القوانين الأوكرانية الأولوية على القوانين السوفيتية(١). ذلك فضلا عن الإعلان عن تملك أوكرانيا لكافة ثرواتها الطبيعية، وتشكيل جيش خاص بها، وتبني الجنسية الأوكرانية ، وصك عملة محلية(٢).

واستكمالا لما تقدم فقد وقع الرئيس الأوكراني ليونيد كرفشوك ونظيره الروسي بوريس يلسين- فى ٢٠ نوفمبر ١٩٩٠- اتفاقا تعترف بمقتضاه كل من أوكرانيا وروسيا باستقلالية الأخرى عن الإتحاد السوفيتي(٣).

---

(١) أنظر : شهريات مجلة السياسة الدولية، العدد (١٠٢) ، أكتوبر ١٩٩٠، ص٢٦٥.

(٢) دانكوس: نهاية الإمبراطورية.. ، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٩.

(٣) أنظر فى هذا الصدد : شهريات مجلة السياسة الدولية، العدد (١٠٤) ، أبريل ١٩٩١،ص٢٥٨

تعقيـــــب:

بعد أن عرضنـــا للحركة العرقية الأوكرانية خلال عهد جورباتشـــوف بأن لنا أن الأوكرانيين- برغم اشتراكهم فى الأصل السلافي مــــع الـــروس وبالرغم من أن الروس كانوا يعتبرونهم " أشقاءهم الأقدمين" و " الأخ الأكـبر الثاني" - إلا أنهم أبوا إلا أن يقبضوا على هويتهم، تلك الهوية التى لم تفلـــح عشرات السنين من حكم البلاشفة فى طمسها ، أو تقويض مقوماتها ، كما أن تلك السنين الطوال تحت النير الشيوعي لم تنجح فى أن تمحو من ذاكرتهم أن جيوش البلاشفة قد إجتاحت دولتهم ، وسحقت استقلالهم يوما ما. لذلك فما أن خفت قبضة الكريملين عليـــهم - فـــى ظـــل الجلاسنوســـت - حتـــى راح الأوكرانيون يؤكدون عزمهم على الانسلاخ عن الإتحاد السوفيتي ، وإقامــــة دولة أوكرانيا المستقلة.

وهكذا فقد كانت الحركة العرقية الأوكرانية التى جسدتها " راخ" حركة إنفصالية، إذ تغيت استقلال شعبها عن الدولة السوفيتية، وإقامة دولة مســـتقلة تعبر عن هويته . وسرعان ما تحقق لها ما أرادت، إذا انسلخ الأخ الأكـــــبر الثاني عن الإتحاد السوفيتي، رافضاً أن يقرر من هم سواه مصيره ، حتــــى ولو كانوا الروس الذين طالما اعتبروا بنيه أشقاءهم الأقدمين ، كى تتأكد بذلك - أكثر وأكثر- الحقيقة التى سبق أن سقناها والتى مؤداها أنه : لا سبيل إلى استقرار سياسي ولا إلى وحدة وطنية حقة فى وحدة سياسية أسس بنيانها على التجمع الإجباري لشعوب غير متجانسة قومية، ذلك بأن هذه الوحدة السياسية لا محالة متفككة ، وإن ظلت محتفظة بوحدتها لفترة ما مـــهما طــــالت هـــذه الفتـــرة .

* * * * *

المطلب الثاني

الحركة العرقية فى بيلوروسيا

خلال عهد جورباتشوف

أولا: تعريف بجمهورية بيلوروسيا وتكوينها العرقي:

تبلغ مساحة جمهورية بيلوروسيا حوالى ٢٠٧٦٠٠ كيلو متر مربــــع، وتتمثل عاصمتها فى مدينة منسك Minsk(١) ، وقـــد وصـــل عـــدد ســـكان الجمهورية – حسب تعداد عام ١٩٨٩– إلى حوالـــى ١٠١٥٢٠٠٠ نســـمة، يتشكلون مما يربو على الخمس جماعـــات عرقيـــة أظـــهرها البيلـــوروس، والروس، والبولنديون، والأوكرانيون، واليهود (٢). ونقدم فى الجدول التـــالي سردا بأعداد كل من هذه الجماعات الخمس الرئيسية فى بيلوروســـيا حســـب تعداد عام ١٩٨٩:

---

(١) إبراهيم عرفات، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠.

(٢) أنظر فى هذا الصدد: جار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٤.

تعدادها (نسمة)	الجماعة العرقية
٧٩٠٥٠٠٠	البيلوروس
١٣٤١٠٠٠	الروس
٤١٨٠٠٠	البولنديون
٢٩٠٠٠٠	الأوكرانيون
١١٨٠٠٠	اليهود

جدول رقم (٢٢)

المصدر: تم تركيبه بالاستعانة بـ :

- دانكوس، نهاية الإمبراطورية.. ، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٦ . وكذا جار ، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٤.

ويتضح من خلال الجدول السابق أن البيلوروسيين يمثلون أغلبية عظيمة الشأن فى وطنهم، إذ يشكلون حوالى ٧٧,٩% من جملة سكان بيلوروسيا ، وينحدر البيلوروس – شأنهم فى ذلك شأن الروس والأوكرانيين – من أصل سلافي، ويتكلمون– كذلك–لغة تنتمى إلى مجموعة اللغات السلافية الشرقية . أما فيما يتصل بعقيدتهم الدينية فهم يدينون – كما يدين الروس والأوكرانيون – بالمسيحية ، ويعتنقون مثلهم المذهب الأرثوذكسي، كما يتبعون الكنيسة الروسية [١].

ثانيا: الحركة العرقية البيلورسية خلال عهد جورباتشوف:

يتضح فى ثنايا ما تقدم أن البيلوروس كانوا يعدون– إلى جانب الأوكرانيين– أكثر الجماعات العرقية قرباً من الروس، إذ تنحدر الجماعات الثلاث من أصل سلافى، كما يدين أفرادها قاطبة بذات الدين ويعتنقون نفس

(١) White . Op. Cit., P. 141.

المذهب، بل ويتبعون كنيسة واحدة ، وعلى الرغم من ذلك فإن البيلوروس قد ظلوا قابضين على هويتهم ، مدركين لتمايزهم إزاء ما عداهم من أفراد الجماعات العرقية الأخرى ، وإلى ذلك يرتد التنامي في المشاعر العرقية التي سادت البيلوروس خلال فترة حكم جورباتشوف ، إذ ما أن خفت قبضة الكريملين عليهم - في ظل البريسترويكا - حتى راحوا يتطلعون إلى الاستقلال عن موسكو، ومن هنا فقد كانت الجبهة الشعبية البيلوروسية من أكثر الجبهات الشعبية للجمهوريات السوفيتية تبكيراً من حيث الظهور، إذ تأسست تلك الجبهة في ١٩ أكتوبر عام ١٩٨٨ في العاصمة البيلوروسية منسك . ولقد جوبهت الجبهة الشعبية البيلوروسية - منذ ظهورها إلى حيز الوجود- بعداء لا هوادة فيه من جانب الحزب الشيوعي البيلوروسي، إذ راح قادته يعلنون أنه لا يحق لأى عضو في الحزب أن ينتمي إلى الجبهة ، كما صبت السلطات البيلوروسية شديد عنفها على المظاهرة الأولى التي نظمتها الجبهة، ورفضت منح الجبهة ذاتها ترخيصا رسمياً، كما أنكرت عليها حق النشر، وحظرت عرض برامجها عبر محطات الإذاعة والتليفزيون(١).

وعلى الرغم مما تقدم فسرعان ما اكتسبت الجبهة الشعبية شرعية هائلة، إذ لاقت تأييداً شعبياً هائلاً تجسد من خلال المظاهرة الحاشدة التي نظمتها الجبهة في فبراير ١٩٨٩ داخل منسك ، حيث ضمت تلك المظاهرة ما يربو على الخمسين ألف شخص، راحوا يهتفون باستقلال بيلوروسيا، رافعين علمها الوطني، ومبرزين كافة رموزها القومية(٢) ، الأمر الذى سلهم في تصاعد عداء السلطات الشيوعية للجبهة، غير أن هذا العداء لم يكن ليثني أعضاء الجبهة عن المضي قدماً في ترسيخ شرعية جبهتهم ، لذلك فقد عمدوا إلى عقد مؤتمر تأسيسي جديد للجبهة ، غير أن هذا المؤتمر قد عقد هذه المرة في ليتوانيا، وبمساعدة الجبهة الشعبية الليتوانية ، وفي ظل حشد كبير

---

(١) أنظر في هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٦.

(٢) Clem, Ralph, S., Belorussians, in :Smith . Graham(ed.) . OP. Cit. P.117.

شهدته فيلينوس فى ٢٩ يونيو عام ١٩٨٩[١]. ولقد راحت الجبهة الشعبية البيلوروسية تؤكد عزمها على النضال من أجل سيادة بيلوروسيا واستقلالها عن الإتحاد السوفيتي [٢]، كماراح أعضاء الجبهة يندون بالتدفق الهائل للروس والأوكرانيين تجاه بيلوروسيا، وإزاء ذلك راحت جبهة إنتروفرونت تبعث بمندوبين عنها إلى بيلوروسيا بغية استنفار الأقليات القاطنة لها فى مواجهة النزعة القومية التى تجسدها الجبهة. غير أن كافة الجهود التى بذلها الشيوعيون بغية تقويض شرعية الجبهة البيلوروسية كان مآلها إلى الفشل، فبرغم كافة ضروب الاضطهاد التى تعرضت لها الجبهة فإن شعبيتها قد أخذت فى التنامي، وعلى سبيل المثال فقد وصل عدد أعضائها إلى حوالى مائة ألف عضو فى غضون أسابيع قليلة[٣]. وفى ٢٧ يوليو ١٩٩٠ راح البرلمان البيلوروسي – تحت وطأة الضغوط التى قادتها الجبهة الشعبية – يعلن سيادة بيلوروسيا على أراضيها.. وهكذا فقد خطت بيلوروسيا خطوة عظيمة الشأن على درب الانسلاخ عن موسكو، ذلك الانسلاخ الذى لم يكن الروس يعتقدون فى إمكانية حدوثه أبداً.

وعلى أية حال فقد تأكد انسلاخ بيلوروسيا نهائياً عن الإتحاد السوفيتي – شأنها فى ذلك شأن سائر الجمهوريات السوفيتية – غداة فشل انقلاب أغسطس ١٩٩١ فى مواجهة جورباتشوف.

---

(١) White . OP. Cit., P. 165.

(٢) Markus. Ustina , Belarus : You can't go home again ? Current History , October. 1994. P. 338.

(٣) أنظر فى هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية.. ، مرجع سبق ذكره. ص ١٨٦.

تعقيـــــب:

يتضح فى ثنايا عرضنا المتقدم للحركة العرقية البيلوروسـية أن هـذه الحركة كانت حركة ذات طبيعة انفصالية ، إذ استهدفت انسلاخ بيلوروســيا عن الإتحاد السوفيتي. وهكذا فإن مئات السنين فى كنف الروس لم تفلح فـى طمس هوية البيلوروس ، كما أن اشتراكهم فى الأصل والدين مع الروس لـم يكن كافيا لإثنائهم عن الانسلاخ عن موسكو، وعلى ذلك فما أن خفت قبضـة الكريملين عليهم- فى ظل الجلاسنوست- حتى راحوا- هم أيضا- يطـالبون بالسيادة ، والاستقلال ، ولكى يساهموا بذلك فى تمزيــق أوصـال الدولـة السوفييتية، التى كان أشقاؤهم الروس قد أسسوها، وظلوا لعقود عديدة يسعون بشتى السبل إلى الحفاظ على وحدتها .

* * * * *

المبحث الخامس

الحركتان المولدافية والشيشانية

المطلب الأول

الحركة العرقية المولدافية

أولا: تعريف بجمهورية مولدافيا وتكوينها العرقي:

تبلغ مساحة جمهورية مولدافيا ٣٣٧٠٠ كيلو متر مربع، وتتمثل عاصمتها فى ميدنة كيشينيوف[١]، وقد وصل عدد سكان الجمهورية- حسب تعداد عام ١٩٨٩- إلى حوالى ٤٣٣٢٠٠٠نسمة[٢]، ويتشكلون مما يربو على الست جماعات عرقية أظهرها المولداف، والأوكرانيون، والروس، والجاجوازي Gagauzi ، والبلغاريون، واليهود[٣]. ويقدم الجدول التالي سردا لتعداد كل من هذه الجماعات فى مولدافيا حسب إحصاء عام ١٩٨٩:

(١) إبراهيم عرفات، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠.

(٢) دانكوس، نهاية الإمبراطورية.. ، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٢.

(٣) Crowther. William , Moldava after Indepencence , Current History . :tober . 1994, P. 342.

تعدادها (نسمة)	الجماعة العرقية
٢٧٧٢٤٨٠	المولداف
٦٠٦٤٨٠	الأوكرانيون
٥٦٣١٦٠	الروس
١٥١٦٢٠	الجاجوازي
٨٦٦٤٠	البلغاريون
٦٥٦٦٨	اليهود

جدول رقم (٢٣)

المصدر: تم تركيبه بالاعتماد على :

Crowther, Op. Cit., P. 342.

وكذا : دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره،ص١٨٢.

ويتضح فى ثنايا الجدول السابق أن المولداف يمثلون أغلبية بائنة فى وطنهم، إذ يشكلون حوالى ٦٤% من جملة سكان مولدافيا ، وينحدر المولداف من أصل روماني، كما يتحدثون اللغة الرومانية، أما بصدد عقيدتهم فهم يدينون بالمسيحية الأرثوذكسية ، ويتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الرومانية(١).

ثانيا: الحركة العرقية المولدافية خلال عهد جورباتشوف:

كانت مولدافيا - كما سبق أن أشرنا - قد ضمت قسرا إلى الإتحاد السوفيتي، إذ اجتاحتها جحافل ستالين إبان الحرب العالمية الثانية ، وعمدت إلى سلخها عن رومانيا، ووضعها تحت إمرة الكريملين ، ومن هنا فقد كان من الطبيعي أن تشرئب أعناق المولداف إلى الاستقلال عندما أضحت الظروف مهيأة لذلك ، فما أن خفت قبضة الكريملين عليهم - فى رحاب

---

(١) White , Op. Cit., P. 141 .

الجلاسنوست - حتى راحوا يعلنون رغبتهم فى الانفصال عن الإتحاد السوفيتي ، ففى البداية - وفى ٣ يونيو ١٩٨٨ - ظهرت إلى حيز الوجود فى مولدافيا حركة ديمقراطية أفرزها الواقع المولدافي الذى كان يعج بالمشاعر القومية. وقد عرفت هذه الحركة بالحركة الديمقراطية من أجل البريسترويكا ، حيث راحت تعلن أن هدفها يتمثل فى الدفاع عن الإصلاحات الديمقراطية التى جاء بها جورباتشوف، غير أن هذه الحركة سرعان ما تحولت إلى جبهة شعبية حقيقية ، إذ راحت تطالب بأن تصبح المولدافية هى اللغة الرسمية لمولدافيا ، فضلا عن العودة إلى كتابتها بالأبجدية اللاتينية على النحو الذى كان عليه الحال خلال الفترة السابقة على ضم السوفييت لمولدافيا . إذ راح أعضاء الجبهة يؤكدون على أن " المولدافية والرومانية يمثلان لغة واحدة، وقد تمت إقامة جدار فاصل بينهما بصورة تعسفية ، وأنه قد حان الوقت لإزالة هذا الجدار الزائف" (١).

والحق أن المطالبة بسيادة اللغة المولدافية داخل مولدافيا والعودة إلى كتابتها بالأبجدية اللاتينية لم يقتصر تبنيهما على الحركة الديمقراطية، وإنما تبنتها كذلك كافة الجماعات والمنظمات اللارسمية الأخرى التى أفرزها الواقع المولدافي فى رحاب البريسترويكا(٢).

وفضلا عما تقدم فقد راحت كافة المجموعات غير الرسمية المولدافية- وعلى رأسها الحركة الديمقراطية - تطالب باستعادة مولدافيا للمقاطعات التى كانت قد اقتطعت منها وضمت إلى أوكرانيا ، وإزاء تنامى النزعة العرقية لدى المولداف على النحو المتقدم بدأت الأقليات القاطنة لمولدافيا تستشعر وجود خطر يهدد كيانها ، وعلى حين تكالب اليهود على الهجرة خارج

---

(١) أنظر فى هذا المضمون: دانكوس، نهاية الإمبراطورية..، مرجع سبق ذكره ، ص١٨٣.

(٢) Wyal, Jonthan, Moldvaians, in: Smith,Graham (ed.)Op.Cit., P.P. 131-132.

مولدافيا، راح الروس والأوكرانيون- فى يناير ١٩٨٩- يؤسسون جبهتين أمميتين على غرار " إنتروفرونت" اللاتفية بغية الدفاع عن حقوقهم، وقد تمثلت هاتان الجبهتان فى لجنة سويوز وحركة إدينستفو ، ولقد لقيت الجبهتان دعما لا يستهان به من جانب الحزب الشيوعي السوفيتي(١).

غير أنه مما تجدر الإشارة إليه أن الانتخابات التشريعية التى جرت فى مولدافيا خلال شهر مارس عام ١٩٨٩ جاءت لتؤكد أن التجمعات المولدافية غير الرسمية – وعلى رأسها الحركة الديمقراطية – تحظى بتأييد عظيم الشأن من جانب المولداف ، إذ فاز مرشحو هذه التجمعات فى كافة الدوائر التى خاضوا الانتخابات فيها ، وذلك على الرغم من الثقل الكبير لغلاة الشيوعيين داخل أجهزة الدولة المولدافية ، وكذا برغم الضغوط التى تعرض لها مرشحو التنظيمات غير الرسمية بل والناخبون ، والتى وصلت إلى حد التهديد والوعيد، ذلك فضلا عن الطابع غير الديمقراطي الذى كسا الحملة الانتخابية (٢).

وفى إطار البحث عن مزيد من القوة وترسيخ الشرعية راحت التجمعات المولدافية غير الرسمية- فى مايو ١٩٨٩- تسعى إلى توحيد جهودها ، إذ قامت بإنشاء الجبهة الشعبية المولدافية الموحدة (٣). وقد تبنت الجبهة أهدافاً ذات طبيعة ثورية، إذ راحت تطالب بأن تصبح مولدافيا دولة "ذات سيادة كلية"، كما نادت باستعادة الدولة المولدافية لكافة المناطق التى كانت قد استقطعت منها لصالح أوكرانيا ، وأكدت – من جانب آخر- ضرورة وقف الهجرة إلى مولدافيا. وفضلاً عما تقدم فقد أبدت الجبهة حرصها على الحفاظ على هوية الجماعات العرقية المولدافية، وإيمانها بضرورة العودة إلى اللغة الرومانية وكتابتها بالحروف اللاتينية بدلاً من

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : دانكوس، نهاية الإمبراطورية ....، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٤.

(٢) أنظر فى هذا المضمون: المرجع السابق ، ص ٢٠١

(٣) Eyal . Op. Cit.. P. 133.

السيريلية التى كان الكريملين قد فرض على المولداف الكتابة بها ، وقد اعتبرت الجبهة الشعبية المولدافية أن كافة مطالبها – المتقدمة – لابد وأن تتحقق وأنها ليست موضع مساومة أو تفاوض[1].

وقد راحت الجبهة الشعبية المولدافية تنظم المظاهرات الحاشدة بغية ترسيخ شرعيتها ، وتأكيد شعبية مطالبها ، ففى ٢٨ أغسطس ١٩٨٩ نظمت الجبهة- فى كيشنيوف- مظاهرة هائلة ضمت ما يربو على نصف المليون متظاهر، راحوا يؤكدون تأييدهم للجبهة، وإيمانهم بعدالة مطالبها[2]. وسرعان ما امتدت المظاهرات إلى سائر أنحاء مولدافيا ، وراح المتظاهرون المولداف على الحدود مع رومانيا يعملون على إزالة الأسلاك الشائكة التى تفصل بين مولدافيا ورومانيا ، الأمر الذى اتضح من خلاله تمسك المولداف بأصلهم الرومانى ، وبالتالى فإنهم كانوا يعتبرون انفسهم رومانيين ، لاسوفييت . وإزاء هذه المشاعر العرقية المتأججة لدى المولداف راحت منظمات الحزب تمطر السلطات المحلية بالعرائض التى تندد بالمطالب المولدافية [3] ، كما نظمت كل من لجنة سويوز وجمعية إدنستفو مظاهرات واضرابات راحت من خلالها تطالب بأن تكون اللغة الروسية فى وضع متساو مع المولدافية داخل مولدافيا ، مع ضرورة مراعاة حقوق الجاجواز أيضا [4] .

وعلى أية حال فقد انتصرت إرادة المولداف فى النهاية إذ وافق مجلس السوفييت الأعلى لمولدافيا – فى بداية سبتمبر ١٩٨٩ وتحت وطأة المشاعر العرقية المتأججة لدى المولداف – على أن تصبح المولدافية اللغة الرسمية للجمهورية ، على أن تكتب بالأبجدية اللاتينية بدلا من السيريلية ، أما اللغة

---

(١) أنظر بصدد برنامج الجبهة المولدافية: دانكوس، نهاية الإمبراطورية...، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٤،١٨٥.

(٢) Eyal . Op. Cit., P. 133.

(٣) دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٥ .

(٤) Crowther. Op. Cit., p.p. 342-343.

الروسية فيقتصر دورها على أن تكون بمثابة لغة التواصل بين الأعراق [1] .

وهكذا فقد تحقق المطلب الأول من مطالب الجبهة الشعبية المولدافية . غير أنه كان يبدو أن الجبهة لما يزل أمامها نضال طويل فى سبيل بلوغ غايتها الرئيسية المتمثلة فى سيادة مولدافيا واستقلالها ، ومن هنا فقد استمرت فى تنظيم المظاهرات الحاشدة التى راحت من خلالها تعبر عن مطالبها المتعلقة بالسيادة والاستقلال ، وسرعان ما أصبحت كيشينيوف واحدة من أكثر المدن السوفيتية غليانا . ولعل أبرز المظاهرات التى شهدتها العاصمة المولدافية قاطبة تلك المظاهرة الهائلة التى نظمتها الجبهة الشعبية المولدافية فى ٢٦ الكتوبر ١٩٨٩ ، وهى المظاهرة التى كانت من الضخامة بحيث مثلت تتويجا لنضال الجبهة فى سبيل الحصول على شرعيتها ، تلك الشرعية التى حصلت عليها من أسفل (أى من الشعب المولدافى ذاته) لا من أعلى (أى السلطة المركزية وعلى رأسها الحزب الشيوعى) [2] .

ولقد كان من جراء هذه الشعبية الجارفة للجبهة المولدافية والشرعية الهائلة التى اكتسبتها مطالبها أن راح الحزب الشيوعى المولدافى ينحو شيئا فشيئا إلى تبنى تلك المطالب ، وفى خضم المشاعر القومية الجارفة التى سادت المولداف قاطبة راح مجلس السوفييت الأعلى للجمهورية يعلن – فى ٢٣ يوليو ١٩٩٠ – سيادة مولدافيا وتملكها لكافة الثروات الطبيعية ، كما أعلن المجلس أن مولدافيا سوف تطالب بالانضمام إلى الأمم المتحدة [3] .

وهكذا فقد بدأت مولدافيا – هى الأخرى – تنسلخ – بخطى واسعة – عن الإتحاد السوفيتى ، ولقد تأكد هذا الانسلاخ غداة فشل الانقلاب الذى استهدف الإطاحة بجورباتشوف فى أغسطس عام ١٩٩١ . إذ أعلنت

---

(١) دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٦ .
(٢) أنظر فى هذا المضمون : المرجع السابق ، ص ١٨٥ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢١٩ .

السلطات المولدافية – فى ٢٧ من ذلك الشهر – انفصال مولدافيا عن الإتحاد السوفيتى (١) .

تعقيب :

وهكذا فإن سنين طوال تحت إمرة الكريملين لم تمح من ذاكرة المولداف أنهم رومانيون ضموا – عنوة – إلى الإتحاد السوفيتى . وبالتالى فما أن خفت قبضة قاطنى الكريملين عليهم – فى ظل الجلاسنوست – حتى راحوا يسعون إلى الاستقلال ، والتخلص من ربقة موسكو ، فى حين راح الجاجوازى القاطنون لمولدافيا يعلنون من جانبهم عن قيام دولتهم فى شمال الجمهورية ، الأمر الذى جعل من الحرب الأهلية خطرا دائما يتهدد مولدافيا حتى بعد استقلالها .

وهكذا فقد تأكد لنا من جديد – وفى ضوء ماتقدم – أنه لاسبيل إلى استقرار سياسى دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة فى وحدة سياسية أسس بنيانها على التجميع الإجبارى لشعوب غير متجانسة قوميا .

---

(١) Crowther, Op. Cit., p. 342.

- وتتعين الإشارة إلى أن الجاجوازى كانوا قد أعلنوا – غداة إعلان مولدافيا سيادتها – عن قيام جمهوريتهم المستقلة فى شمال مولدافيا ، الأمر الذى مثل – ولايزال – مصدرا لايستهان به لاندلاع صراع عرقى بين المولداف والجاجوازى . أنظر فى هذا الصدد :

- Ibid., p. 343.

المطلب الثانى

الحركة العرقية الشيشانية (*)

يشكل الشيشان جماعة عرقية قوقازية قديمة ، يمتد تاريخها عبر قرون طويلة مضت ، وهم يقطنون إحدى الجمهوريات الصغيرة التابعة لروسيا تعرف بإسمهم وهى جمهورية شيشينيا . وتبلغ مساحة هذه الجمهورية حوالى ٢٠٠٠٠ كيلو متر مربع ، وهى تتمتع بالحكم الذاتى فى ظل الدولة الإتحادية الروسية . وقد وصل عدد أعضاء الجماعة الشيشانية – حسب إحصاء عام ١٩٨٩ – إلى حوالى ٩٥٨٠٠٠ نسمة (١) ، يدينون بالإسلام ويعتنقون المذهب السنى . ويتسم الشيشان – كما يذكر المحللون – بكونهم مقاتلين أشداء ، شديدى الاعتداد بهويتهم والتمسك بمقومات ذاتيتهم ، ولذلك فإن الروس لم يتمكنوا من ضمهم إلا بعد طول عناء ، إذ ظل الشيشان يقاومون الجيوش الروسية بضراوة بالغة خلال الفترة الممتدة من عام ١٨١٧ وحتى عام ١٨٦٤ عندما دانت للروس السيطرة على شيشينيا ، تلك السيطرة التى لم يذعن لها الشيشان إلا فى عام ١٩١٨ ، وعلى الرغم من ذلك فإن سنين طوالا تحت الحكم القيصرى ونظيرات لها تحت الحكم الشيوعى لم تفلح فى أن تطمس هوية الشيشان ، كما لم تنجح فى أن تمحو من ذاكرتهم أنهم قد ضموا عنوة إلى روسيا ، إذ ظلوا حريصين دوما على التباهى بتاريخهم ، لاسيما مايتصل بنضالهم الطويل ضد القياصرة ، ذلك النضال الذى كانوا دائمى تمجيد زعمائه وعلى رأسهم الإمام شامل . وعلى أية حال فإنه ما أن خفت قبضة الكريملين على الجماعات العرقية الخاضعة لنيره حتى راح

(*) تتعين الإشارة إلى أننا اعتمدنا بصدد عرضنا لتلك الحركة على ملاحظتنا المباشرة للأحداث المتعلقة بها ، وذلك من خلال وسائل الإعلام الموثوق بها .

(١) أنظر بصدد تعداد الشيشان : Smith, Graham (ed.) , Op. cit.. p. 363.

كما تتعين الإشارة إلى أن عدد الشيشانيين حاليا يبلغ زهاء المليون ونصف المليون نسمة .

الشيشان يتطلعون إلى الاستقلال ، والتخلص من ربقـــة موسـكو ، وفـــى أعقاب فشل انقلاب أغسطس عام ١٩٩١ واستقلال الجمهوريات الإتحاديــة السوفيتية عن موسكو راح الشيشان يعلنون تمردهم على السيادة الروسية ، إذ قاموا بانتخاب رئيس لهم من بين زعماء الحركة الانفصالية وهـــو جوهـر دوداييف . وما أن اعتلى دودابيف سدة الحكـم فـى العاصمــة الشيشـانية جروزنى – فى أواخر عام ١٩٩١ – حتـــى أعلــن اسـتقلال شيشـينيا ، وانفصالها عن روسيا الإتحادية . وعلى الرغم من إعلان الرئيس الروســى بوريس يلتسين عدم اعترافه باستقلال الشيشان فإنه لم يتخذ أيـــة إجـراءات تستهدف إعادة شيشينيا إلى الحظيرة الروسية حتى منتصف عـــام ١٩٩٤ . ولعل مرد ذلك إلى أن اهتمام يلتسين خلال تلك الفترة كان منصبا على تدعيم مركزه كزعيم لروسيا من ناحية ، والقضاء على حالة عدم الاستقرار التـــى سادت موسكو غداة تفكك الإتحاد السوفيتى من ناحية أخرى .

وباستتباب الأوضاع فى موسكو – مع انتصاف عـــام ١٩٩٤ – راح يلتسين يسعى إلى إيجاد حل لمشكلة شيشينيا ، حيث حاول فى البداية إقنـــاع الزعماء الشيشان بالتخلى عن فكرة الإستقلال ، غير أن هؤلاء الزعماء ظلوا متمسكين بموقفهم ، مؤكدين أنه لارجعة من جانبهم عن قرار الإســـتقلال . وإزاء ذلك عمد يلتسين إلى استخدام مايعرف بأسلوب الحرب بالوكالـــة ، إذ عمد إلى تدعيم معارضى دودابيف بالأسلحة والجنود عساهم يفلحـــون فـــى إسقاط حكومة دودابيف الشيشانية الانفصالية . بيد أن قوات دودابيف نجحت فى سحق كافة الهجمات التى قامت بها قوات المعارض الشيشـــانى الممـــالئ لموسكو عمر أفتوخانوف ، وتمكنت قوات دودابيف من قتل العشــرات مـــن الجنود الروس الذين كانوا يحاربون فى صف أفتوخانوف ، كما أسرت بضع عشرات أخرى ، ذلك فضلا عن تدمير مايربو على الثلاثين مدرعة روسية ، وذلك فى خضم المعارك التى دارت بين الفصيلين الشيشانيين خلال النصـف الثانى من عام ١٩٩٤ ، وهكذا فقد بات واضحا لدى الروس – مع نهاية عام ١٩٩٤– أنه لاسبيل إلى إسقاط حكم دودابيف إلا بالتدخل المباشر فى مواجهة

قواته ، ومن هنـــا فقد بدأ الروس يحشدون قواتهم بالقرب من حدود شيشينيا. وعلى الرغم من تحذير الزعيم السوفيتى السابق جورباتشوف ليلتسين مـــن مغبة التورط فى حرب مع الشيشان راح الزعيم الروسى يطلق جحافله فـــى فجر يوم ١١ ديسمبر ١٩٩٤ كى تجتاح شيشينيا من خلال أراضـــى ثـــلاث جمهوريات روسية مجاورة لـــها هـــى داغســـتان ، وأوســـيتيا الشـــمالية ، وأنجوتشيا. وعلى الرغم من ضعف قوات دوداييف- سواء من حيث العدد أو العتاد - فإنها راحت تقاوم الزحف الروسى بكل ضراوة بحيث لـــم يتمكـــن الروس من دخول العاصمة الشيشينية جروزنى إلا فى ٣١ ديسمبر ١٩٩٤ ، وذلك فى أعقاب معارك طاحنة دمرت لهم خلالها عشرات الدبابات والعربات المدرعة ، كما أسفرت هذه المعارك عن مصرع وإصابة وأسر الآلاف مـــن الروس ، وكذا من الشيشان . وفى أعقاب استيلاء الروس علـــى جروزنـــى تراجعت قوات دوداييف إلى مناطق مجاورة للعاصمة ، حيث راحت تســتبدل أسلوب حرب العصابات بأسلوب الحرب النظامية ، كما راح الشيشان يلجأون إلى أساليب أخرى فى صراعهم مـــع موســـكو وذلـــك حـــال الاختطـــاف والاغتيالات وغيرها من الوسائل التى تستقيم مع كون قوتهم متضائلة إلـــى جانب قوات الدب الروسى الجبارة . ولعل من أظهر عمليات الاختطاف تلـك العملية التى تمت فى صيف عام ١٩٩٥ والتى تزعمـــها أحـــد العســـكريين الشيشان يدعى شامل باساييف ، حيث قام باساييف ورفاقه باحتجاز مـــايربو على المائة رهينـــة داخل مستشفى مدينة بودينوفســـك الروســـية . وهـــدد باساييف بقتل الرهائن مالم يجلس يلتسين إلى طاولة المفاوضات مع القـــادة الإنفصاليين الشيشان . وبالفعل فقد أذعن يلتسين لمطلب باســـاييف وبـــدأت المفاوضات بين الجانبين - آنذاك - بحيث انتـــهت فـــى ٣٠ يوليـــو ١٩٩٥ باتفاق الروس والشيشان على وقف إطلاق النار ذلك الوقف الذى لم يكد ينفذ حتى تم خرقه ، وراح الشيشان يناضلون من جديد بغية إجبار الروس علـــى الخروج من شيشينيا . وفى أواخر عام ١٩٩٥ دارت بين الجانبين معـــارك عنيفة حاول من خلالهـــا الشيشان السيطرة على مدينة جوديرميس والتى تعد

واحدة من أكبر المدن الشيشانية .

ولعل من أهم عمليات الاختطاف التى قام بها الشيشان تلك التى تمت فى ١٠ يناير ١٩٩٦ ، وهى العملية المعروفة بعملية " كيزليار " ، حيث قامت مجموعة من المقاتلين الشيشان باحتجاز زهاء ١٦٠ شخصا كرهائن فى مدينة كيزليار التابعة لجمهورية داغستان الروسية ، وإثر ذلك توجهت هذه المجموعة – التى أطلقت على نفسها جماعة الذئب الوحيد – إلى قرية بيرفومايسكايا حيث اختطفت مائة روسى آخرين كرهائن ، وبذلك بلغ عدد الرهائن الذين اختطفهم الشيشان نحو مائتين وستين رهينة . وقد استمرت هذه العملية لفترة تجاوز الأسبوع ، ثم سرعان ماراحت القوات الروسية تهاجم بيرفومايسكايا فى محاولة من جانبها لتخليص الرهائن ، وعلى الرغم من إعلان يلتسين عن نجاح القوات الروسية فى تخليص الرهائن واستئصال شأفة المختطفين الشيشان فقد أعلن دوداييف أن مقاتليه قد نجحوا فى الفرار ببعض الرهائن إلى داخل الشيشان ، وعلى أية حال فإن القتال الضارى الذى دار بين القوات الروسية وجماعة الذئب الوحيد فى بيروفومايسكايا قد أسفر عن مصرع العشرات من الجانبين .

وفى أعقاب هذه العملية وفى ٢٠ يناير ١٩٩٦ أكد يلتسين إرتياحه التام للنتائج التى أسفرت عنها أزمة بيروفومايسكايا ، كما أعلن أنه سيتصدى بكل عنف لأية عملية مماثلة قائلا أنه " يجب إطلاق النار على الكلاب المسعورة " ، وإزاء ذلك راح دوداييف يؤكد عزمه على تنفيذ المئات من عمليات الاختطاف فى إطار سعيه لإجبار الروس على الخروج من بلاده . وفى نبرة ملؤها الاعتداد بالهوية راح وزير خارجية دوداييف يعلن أن كفاح الشيشان مستمر إلى أن يتم إجبار الروس على الخروج من شيشينيا ، كما راح يقول : " إن الشعب الشيشانى هو شعب عريق عرف قبل أن تعرف روسيا ذاتها بما يربو على الألف عام " .

وتتعين الإشارة إلى أن ثمة عملية اختطاف أخرى واكبته عملية

كيزليار قام بها بعض الأبخاز المؤيدين لإستقلال شيشينيا ، ففى ١٥ ينـــاير ١٩٩٦ قام بضعـــة أشخاص من الأبخـــاز باختطاف سفينـــة الركاب التركية " أوفرازيا " وهى تتجه من أحد الموانى الروسية إلى تركيا ، حيث كان على متنها حوالى مائتى راكب أغلبهم من الروس . وقد أعلـــن المختطفـــون أن هدفهم من وراء عمليتهم هذه يتمثل فى جذب أنظار العالم نحو معاناة الشـعب الشيشانى ، ومن هنا فقد سلم المختطفون أنفسهم للسلطات التركيـــة فـــى ١٩ يناير ١٩٩٦ .

وإلى جانب عمليات الاختطاف وحرب العصابات التى يشنها الشيشـــان فى مواجهة الروس ، فإنهم يلجأون كذلك إلى أسلوب الاغتيـــالات . ولعـــل من أظهر الأمثلة على ذلك ماقام به مسلحون شيشان فى ١٦ اكتوبـــر ١٩٩٥ من محاولة لاغتيال قائد القوات الروسية فى شيشينيا ، وقـــد أســـفرت تلـــك المحاولة عن إصابة القائد ومصرع بعض معاونيه ، كذلك فـــهناك العمليـــة الفاشلة التى قام بها مسلحون شيشان – فى ٢٥ نوفمـــبر ١٩٩٥ – بـــهدف اغتيال رئيس حكومة الشيشان الموالية لموسكو دوكوزا مخاييف .

مهما يكن الأمر فإنه فى ظل تعاظم حجم الخسائر الروسية فى حـــرب الشيشان (١٩٩٤ – ١٩٩٦) وتحت وطأة الضربات الموجعة التى تلقتـــها قوات الروس فى تلك الحرب لم يكن أمام يلتســـين ســـوى الإذعـــان لإرادة الشيشانيين ، ففى شهر أغسطس ١٩٩٧ وقع الزعيم الروسى مع المقـــاتلين الشيشان اتفاقية تقضى بالدخول فى هدنة لمدة خمس سنوات ينظر بعدها فـــى أمر الجمهورية الانفصالية ، على أن يقوم الروس فى الحال (أى على إثـــر توقيع الاتفاق) بسحب سائر قواتهم من الأراضى الشيشانية ، وذلكم هو ماتم بالفعل . وبخروج الروس يجرون أذيال هزيمتهم المدوية اعتبر الشيشـــانيون أنهم قد حصلوا على الاستقلال ، وراحوا يجرون انتخابات رئاســـية جـــاءت بأصلان مسخادوف (*) رئيسا للبلاد التى ظلت محتفظة باستقلالها الفعلى حتى

(*) تتعين الإشارة إلى أن جوهر دوداييف كان قد قتل من خـــلال عملية دبرتها ==

شهر أغسطس من عام ١٩٩٩ .

غير أن شهر سبتمبر من ذلك العام شهد وقوع تمرد فـــى جمهوريـــة داغستان الإسلامية الملاصقة للشيشان وراح المتمردون الإسلاميون يعلنـــون استقلال داغستان عن روسيا الإتحادية . بيد أن يلتسين لم يعـــترف بطبيعـــة الحال باستقلال تلك الجمهورية ، واستجاب لنصائح رئيس وزرائه (وقتذاك) فلاديمير بوتين ، وأرسل جحافله إلى داغستان كى يعيدها بحد السيف إلــــى الحظيرة الروسية بعد القضاء على المتمردين ، واعتـــبر الـــروس أن ذلـــك التمرد كان من تدبير المقاتلين الإسلاميين فى الشيشان ، وراحوا يتذرعـــون بذلك كى يرسلوا قوات هائلة إلى شيشينيا بدءا من سبتمبر عام ١٩٩٩ لكـــى يعود الروس من جديد إلى المستنقع الشيشانى ، وتبدأ حرب الشيشان الثانيـــة منذ منتصـــف ذلك الشهر ، وهى الحرب التى لاتزال مشتعلة حتى يومنا هذا (نوفمبر ٢٠٠٠) .

وتتعين الإشارة إلى أن حرب الشيشان الأولى كانت قـــد أودت بحيـــاة زهاء مائة ألف شخص من الروس والشيشـــانيين ، فضـــلا عـــن تشـــريد عشرات الآلاف من الشيشان ، وكانت هذه الحرب قد انتهت – كما قدمنـــا – بخروج مذل للقوات الروسية من شيشينيا على إثر تكبدها لخسائر فادحة .

أما الحرب الدائرة حاليا فقد بدأت كحرب نظامية فـــى ســـبتمبر عـــام ١٩٩٩ ثم مابرحت أن حولها الشيشانيون – إثر تمكن الروس مـــن دخـــول العاصمة الشيشانية جروزنى – إلى حرب عصابات شعواء يشـــنونها مـــن معاقلهم الجبلية الجنوبية التى كانوا قد انسحبوا إليها بحلول أول فبراير عـــام ٢٠٠٠م . وتشير التقديرات الرسمية الروسية إلى أن خسائر القوات الروسية فى الحرب تقدر – حتى أكتوبر ٢٠٠٠ – بحوالى ٢٥٠٠ قتيـــل ، وزهـــاء ٧١٠٠ جريح ، غير أن المصادر المحايدة تؤكد أن خسائر الروس الحقيقيـــة تقدر بما يربو على أربعة أضعاف هذه الأرقام الرسمية . وبطبيعة الحال فقد

== المخابرات الروسية أثناء حرب الشيشان الأولى .

قتل فى هذه الحرب آلاف الشيشانيين ، وكانت غالبية القتلى مـــن المدنييــن الذين دكت منازلهم ومدنهم حيث جندت الحكومة الروسية لحرب الشيشـــان مايزيد على مائة ألف عسكرى مسلحين بالأسلحة الثقيلة تدعمهم الطـــائرات الحربية ، ولم يتورع الروس خلال هذه الحرب عن ضرب المدن الآهلـــة ، وتدمير مقومات البنية التحتية فى شيشينيا ، على نحو استحالت معه العاصمة الشيشانية جروزنى إلى أطلال يسكنها الخراب بعد أن كانت واحـــدة مـــن أجمل مدن الدنيا ، كما دمرت فى الحرب ثانيـــة المـــدن الشيشـــانية أوروس مارتان ، وفر مايربو على ٢٠٠ ألف شيشانى إلـــى أنجوتشـــيا كلاجئيـــن . ويشار إلى أن القوات الروسية قد ارتكبت فى هذه الحرب – فضلا عما تقـدم – جرائم بشعة فى حق الإنسانية حيث عمدت إلى اغتصاب النساء وقتلـــهن وإقامة معسكرات لتعذيب الشيشانيين هى من البشاعة بحيث شبهها البعـــض بمعسكرات هتلر وستالين .

على أية حال لايزال المقاتلون الشيشانيون يشنون حـــرب عصابـــات شعواء فى مواجهة القوات الروسية ، وقد تصاعدت عملياتهم خـــلال شـــهر اكتوبر ٢٠٠٠ الذى شهد العشرات من العمليات الموجعة .

يبقى أن نشير إلى أن المقاتلين الشيشان قد أعلنوا من خلال موقعـــهم على شبكة المعلومات الدولية مسئوليتهم عن إغراق الغواصة النووية الروسية (كورسك) فى بحر بارنتس بالقطب الشمالى فى ١٢ أغسطس ٢٠٠٠ والتى قتل سائر بحارتها البالغ عددهم ١١٨ بحارا ، كما أعلـــن المقـــاتلون كذلـــك مسئوليتهم عن تفجير برج أوستانكينو (٥٤٠ مترا) والذى يعد ثانى أعلـــى برج تليفزيونى فى العالم ، وذلك فى ٢٧ أغسطس ٢٠٠٠ ، هذا ولم يتـــأكد حتى الآن ضلوع الشيشانيين فى تينك العمليتين .

وأيا كان الأمر فإن حرب الشيشان الثانية لاتزال دائرة حتى يومنا هـذا – نوفمبر ٢٠٠٠ – حيث لايزال الشيشانيون يمتشـــقون الحســـام رافضيـــن الإذعان لحكم الدب الروسى ، كما لايزال الروس – برغم خسائرهم الهائلة–

يرفضون انفصال شيشينيا ، تلك البقعة من الأرض التى تمثل بئرا بترولية عظيم الأهمية ، والتى تتميز بموقعها الجغرافى المميز كأرض فاصلة بين روسيا والبئر البترولى الأعظم أهمية المتمثل فى منطقة القوقاز ، والتى يعنى حصولها على الإستقلال (فضلا عن خسارة الروس للميزتين المتقدمتين) نفخ الروح فى حركات انفصالية أخرى داخل كل من أنجوتشيا ، وداغستان ، وتتارستان ... وغيرها ، على نحو ينذر بتفكك روسيا الإتحادية ذاتها .

* * * * *

تعقيـــــــب :

يتضح فى ثنايا ماتقدم أن عقودا طويلة من الحكم القيصرى وأخـــرى تحت النير البلشفى لم تفلح فى طمس الهوية العرقية للشيشان ، كما لم تنجـــح فى أن تمحو من ذاكرتهم أن وطنهم قد ضم عنوة إلى روسيا . لذلك فمــا أن خفت قبضة الكريملين عليهم حتى بدأوا يعــدون العــدة للاســتقلال ، ذلــك الاستقلال الذى أعلنوه بالفعل عندما كان الإتحاد الســـوفيتى يلفـظ أنفاســه الأخيرة خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٩١ ، وعلى الرغم من ضــــراوة التدخل العسكرى الروسى فى شيشينيا – فى أواخر عام ١٩٩٤ وكــذا عــام ١٩٩٩ – فإن الشيشان قد استخدموا كافة الوسائل بغية الدفاع عن اســتقلالهم الوليد ، إذ لجأوا إلى الحرب النظامية ، وحــــرب العصابـــات ، وعمليـــات الاختطاف ، والاغتيال ... وغيرها . ولم يفلح الجبروت الروســـى – حتـــى يومنا هذا – فى إخماد نيران الحركة الانفصالية الشيشانية .

وهكذا فإنه على الرغم من مرور زهاء تسع سنوات على تفكك الإتحاد السوفيتى فإن الصراعات العرقية لم تخمد بعد فى جمهورياته الســـابقة ، إذ لاتزال هذه الصراعات تمثل تــهديدا بالغــا لاســتقرار العديــد مــن هــذه الجمهوريات ، وعلى رأسها روسيا الإتحادية ذاتها . إذ تمثل الحركة العرقية الشيشانية تهديدا بالغا لوحدة الدولة الروسية ، ذلك بأن هذه الحركة يمكــن أن تتخذ نبراسا من جانب جماعات عرقية روسية أخرى ، حيـــث أن روســيا تتكون مما يربو على ٣٧ جماعة عرقية ، ولعل فى تأييد أنجوتشيا لاســتقلال الشيشان مايؤكد صحة مقولتنا هذه . كذلك فإن الحركة الشيشانية قد تحدث – ولو فى المستقبل – آثارا دولية ، إذ قد يؤدى استمرارها إلى توتر العلاقـــات بين روسيا والدول الإسلامية .

إن الحقيقة التى جاء عرضنا للحركة العرقية الشيشانية مؤكدا لها هى : أنه لاسبيل إلى استقرار سياسى دائم ، ولا إلى وحدة وطنية حقة فى مجتمـــع تأسس بنيانه على التجميع الإجبارى لشعوب غير متجانسة قوميا .

المبحث السادس

فى

تفكك الإتحاد السوفيتى وآثاره الدولية

بحلول الشهور الأولى من عقد التسعينيات كان قد بات واضحا أن المقومات الرئيسية الثلاث للإتحاد السوفيتى قد قوضت ، ونعنى بهذه المقومات كلا من القوانين الإتحادية ، والحزب الشيوعى ، والجيش السوفيتى. فبصدد القوانين الإتحادية – بادئ ذى بدء – نجد أن عام ١٩٩٠ لم ينته إلا وكانت غالبية الجمهوريات السوفيتية قد أعلنت سيادتها على أراضيها من جهة ، وأكدت رفضها لأى قانون اتحادى يتعارض مع قوانينها الخاصة من جهة أخرى . وعلى ذلك فقد أضحى الالتزام بالقوانين الاتحادية مرهونا بإرادة الجمهوريات ، الأمر الذى أهدرت معه إلزامية تلك القوانين بحيث لم تعد تمثل – كما كانت من قبل – ذراع الكريملين فى كافة الجمهوريات ، والوثاق الذى يشد تلك الجمهوريات إلى بعضها البعض .

أما فيما يتصل بالحزب الشيوعى السوفيتى فإن الجبهات الشعبية التى ظهرت فى جمهوريات المحيط كانت كفيلة بأن تفقده كل مصداقية وهيبة ، إذ سرعان ماجبت شرعيتها الراسخة شرعيته ، وأطاحت شعبيتها الهائلة بكل شعبية كانت له . وهذا هو مايعبر عنه البعض بقوله : " لقد كانت الجبهات الشعبية وشتى التجمعات والحركاته اللارسمية قوى فاعلة وحاسمة فى تفتيت الإمبراطورية ، إذ عبأت المجتمع من حول تطلعات مضمرة أتت الجلاسنوست – أخيرا – لتتيح لها أن تعبر عن نفسها ، وسرعان مابانت هذه الجبهات ممثلة حقيقية لمجتمعاتها مما أكسبها شرعية أتاحت لها أن تمارس الضغط على السلطات المحلية والمركزية ، وتوجهها وتعدل قراراتها مستندة إلى الإرادة الشعبية التى تجسدها ، وما أن ولجت هذه الجبهات الحياة

السياسية حتى وقعت للحزب الشيوعى مرسوم اندحاره " [١] .

وبخصوص المقوم الاتحادى الثالث – أى الجيش السوفيتى – فنجد أن وحداته العاملة فى كافة الأراضى السوفيتية بدأت تواجه رفضا لوجودها من جانب شعوب جمهوريات المحيط ، وقد تعرضت هذه الوحدات لهجمات مسلحة ومضايقات أهدرت كثيرا من هيبة القوات المسلحة السوفيتية ، كما راح الزعماء الانفصاليون فى بعض الجمهوريات يوجه انتقادات عنيفة إلى قادة المؤسسة العسكرية السوفيتية ، وأصدر العديد من الجمهوريات قرارات بتشكيل وحدات دفاعية ذاتية ، كى تقوم بالذود عن أراضيه ، الأمر الذى اعتبر بمثابة إلغاء لدور القوات السوفيتية فى تلك الجمهوريات ، بل وأكدت بعض الجمهوريات صراحة – حال جمهوريات البلطيق – على رفضها لوجود قوات سوفيتية على أراضيها ، معتبرة إياها قوات احتلال [٢] .

من جانب آخر فقد أكدت الدراسات الميدانية أن الجيش السوفيتى بدلا من أن يكون مدرسة للأممية – على حد تعبير الزعماء السوفييت – قد أضحى مع نهاية عقد الثمانينيات يمثل مسرحا للصراعات العرقية ، فعلى سبيل المثال نجد أن مجندى آسيا الوسطى أخذوا يشكون من كونهم محتقرين، ومن أنهم يعاملون معاملة العبيد من جانب الروس . والحق أن الضباط الروس أنفسهم لم يكونوا ينكرون هذه المقولة ، إذ نجد بعضهم يصرح : " منذ البداية نعتبر أنفسنا نحن البيض متفوقين على النشوركى (أهل آسيا الوسطى) ، فإذا ما أردنا تنظيف المراحيض مثلا ترانا نجبر كازاخيا على القيام بذلك ، ففى الثكنة كل ماهو حقير يكون وقفا على الكازاخ والأوزبك " . وقد كان البلطيقيون كذلك يشكون من تعرضهم لمعاملة وحشية من جانب الروس داخل الجيش كما شهد هذا الجيش معارك عديدة داخله بين المسلمين والبيض ، وشهدت صفوف القوات البحرية صراعات عديدة بين

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٧ .

(٢) أنظر فى هذا المضمون : أحمد مصطفى العملة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥٥ .

الأذربيجانيين والأرمن انطلقت من صراع جماعيتهم العرقيتين حول ناجورنو كاراباخ ، ذلك فضلا عن حوادث أخرى عديدة شهدتها وحدات الجيش حتى مقتل جنود روس على يد جندى بطليقى اتهمهم باغتصابه (١) ، وتلكم هى مدرسة الأممية التى طالما تفاخر بها الزعماء السوفييت .

جملة القول – إذاً – أنه قد بات جليا – مع بداية عقد التسعينيات – أن مقومات تماسك الإتحاد السوفيتى قد قوضت إلى حد كبير ، ذلك فضلا عن أن كافة الجمهوريات السوفيتية كانت تعج بالصراعات العرقية والحركات الانفصالية ، فى وقت بدا واضحا خلاله أن جورباتشوف غير قادر على إخماد هذه الصراعات ومواجهة تلك الحركات ، على نحو جعل الكثير من المحللين يؤكدون أن الإتحاد السوفيتى متفكك لامحالة ، وأنه لاسبيل إلى إنقاذه من مصيره المحتوم . وإزاء ذلك راح جورباتشوف يلقى بالسهم الأخير الذى كان فى جعبته عساه يفلح فى الحفاظ على أية رابطة بين الشعوب الخاضعة لإمرته ، إذ راح الزعيم السوفيتى يعلن فى أبريل ١٩٩١ عن معاهدة اتحادية جديدة بين الجمهوريات السوفيتية تحصل بمقتضاها هذه الجمهوريات على سيادة حقيقية فى إطار كيان سوفيتى جديد هو أقرب مايكون إلى الإتحاد الكونفيدرالى (٢) . كما نصت هذه المعاهدة على إسقاط النص على الإشتراكية من إسم الإتحاد المزمع إنشائه ، بحيث يطلق على هذا الاتحاد : " اتحاد الجمهوريات السوفيتية ذات السيادة " . وفضلا عن ذلك فقد منحت المعاهدة الجديدة للجمهوريات الحق فى الانفصال عن الإتحاد السوفيتى برفض الانضمام إليها والبدء فى اتخاذ إجراءات الانفصال (٣) .

---

(١) أنظر فى هذا المضمون : دانكوس ، نهاية الإمبراطورية ... ، مرجع سبق ذكره ، من ص ٢٢٠ إلى ص ٢٢٢ .

(٢) Bialer, Sewyen, The Death of Soviet Communism, Foreign affairs, Winter, 1991-92, p.p. 175-176.

(٣) أنظر فى هذا المضمون : التقرير الإستراتيجى العربى (١٩٩١) ، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام – القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ٦١ .

وأعلن جورباتشوف أن التوقيع على المعاهدة سيتم فى ٢٠ أغسطس ١٩٩١[١].

وفى ٢٦ يوليو عام ١٩٩١ عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى اجتماعا طارئا بناء على اقتراح جورباتشوف ، تم خلاله إقرار تبنى الحزب لبرنامج ينص على التخلى عن الشيوعية والماركسية واللينينية ، حيث أعلن جورباتشوف الفشل النظرى والعملى لنموذج الإشتراكية ، مؤكدا على أن الستالينيين كانوا قد فرضوه بالقوة على الحزب ، كما صرح أحد مستشارى الزعيم السوفيتى بأن " الفكرة الشيوعية لم تعد تصلح راية للعمل السياسى ، وبالتالى فإنها لايمكن أن تصبح هدفا لحزب يريد أن يكون حاكما " [٢] .

وإزاء هذه التطورات الجسام راح غلاة القادة الشيوعيين يعدون العدة لمواجهة المخاطر الجمة التى تعرض لها حزبهم ، وطالت عقيدتهم المذهبية ، وفى ١٩ أغسطس عام ١٩٩١ قام نفر منهم وعلى رأسه نائب الرئيس جينادى ياناييف بانقلاب فى مواجهة جورباتشوف [٣] . وقد راح القادة الانقلابيون يؤسسون لجنة للطوارئ تزعمها ياناييف بغية قيادة البلاد ، حيث راحت تعلن : " أنها تحمل جورباتشوف وسياسة البريسترويكا تبعة الحالة التى وصلت اليها البلاد " . وعلى أية حال فإن المحاولة الانقلابية هذه قد فشلت فشلا ذريعا إذ لم تستمر أكثر من ستين ساعة ، انهار على إثرها قادة الانقلاب أمام المقاومة الصلبة التى قادها الرئيس الروسى بوريس يلتسين ذلك فضلا عن أن هذا الفشل جاء – كذلك – نتيجة لأخطاء فادحة وقع فيها قادة الانقلاب [٤] .

---

(١) Bialer, Op. Cit., p. 178.

(٢) أنظر فى هذا المضمون : التقرير الإستراتيجى العربى (١٩٩١) ، مرجع سبق ذكره، ص ٦٠ .

(٣) أنظر بصدد قادة هذا الانقلاب :

- Bialer . Op. Cit.. p.p. 178 – 180 .

(٤) أنظر بصدد تطورات هذا الانقلاب : المرجع السابق ، ص ٦١ ، وكذا :

وعلى إثر فشل الإنقلاب راح جورباتشوف يعلن موافقته على استقلال جمهوريات البلطيق ، كما راح جل الجمهوريات السوفيتية الأخرى يعلن استقلاله عن الإتحاد السوفيتى ، تلك الدولة التى انتهت – بالفعل – عندما قام رؤساء إحدى عشرة جمهورية سوفيتية – فى ٢١ ديسمبر ١٩٩١ – بإعلان زوال الإتحاد السوفيتى من الوجود ، وإنشاء مايعرف بكومنولث الدول المستقلة ، والذى هو أشبه مايكون بمنظمة دولية إقليمية لتحقيق التعاون وتنسيق العلاقات بين إحدى عشرة جمهورية سوفيتية سابقة وقعت على بيان ألما آتا وهى : روسيا ، وبيلوروسيا ، وأوكرانيا ، وكازاخستان ، وأوزبكستان ، وقرقيزستان ، وأذربيجان ، وأرمينيا ، وتركمانستان ، وطاجيكستان ، ومولدافيا (*) .

ولم يكن أمام جورباتشوف – إزاء ذلك – سوى الاستقالة حيث راح يعلن فى ٢٥ ديسمبر ١٩٩١ أنه : " فى ضوء الأوضاع الراهنة وبعد الإعلان عن تشكيل الكومنولث الجديد للدول المستقلة فإننى أنهى دورى كرئيس للإتحاد السوفيتى " (١) .

وهكذا فقد انهارت إمبراطورية البلاشفة تحت وطأة الحركات العرقية، وبانهيار هذه الإمبراطورية تهاوت فكرة الانتماء للأممية البروليتارية ، إذ بان جليا أن انتماء سائر الجماعات العرقية الخاضعة لنير الكريمليين كان للعرق لا للطبقة ، وذلك على الرغم من الجهود المضنية التى بذلها الزعماء السوفييت لطمس الهويات العرقية لتلك الجماعات ، إذ ظلت كافة هذه الجماعات قابضة على هويتها ، عاضة بالنواجذ على مقومات ذاتيتها ضاربة عرض الحائط بما عدا هذه المقومات من شعارات حال " الأممية البروليتارية " ، و " الصداقة بين الشعوب السوفيتية " ، و" الشعب السوفيتى

== – ممدوح لطفى ، انهيار إمبراطورية شيوعية ، الدار المصرية للنشر والتوزيع، القاهرة ، ١٩٩٢ ، من ص ١٩٧ إلى ص ٣٤٨ .

(*) انضمت جورجيا إلى الكومنولث فى نهاية عام ١٩٩٣ تحت وطأة ضغوط روسية .

(١) ممدوح لطفى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١٤ .

الواحد " ، وبالتالى فقد بدا واضحا أن تلك الشعارات لم تكن تعــدو محــض أوهام طالت أذهان الزعماء السوفييت فاعتقدوا فـــى وجودهـــا ، وراحـــوا يفاخرون بها فى الأمم معتبرين إياها أعظم إنجازات ثورتهم . لقد كان الهدف الملح لهؤلاء الزعماء هو طمس الهويات العرقية للشعوب الخاضعة لإمرتـهم ، بحيث تنضوى هذه الشعوب تحت راية الشيوعية ، على نحو يهيئ لخلـــق هوية سوفيتية جامعة تجب ماعداها من هويات ، ولما كان قاطنو الكريمليـن قد نجحوا من خلال قبضتهم الحديدية فى الإبقاء على وحدة دولتـــهم حتـــى منتصف عقد الثمانينيات فقد ظنوا أنهم قد أضحوا قاب قوسين أو أدنى مـــن بلوغ غايتهم المنشودة ، غير أن ملاحظة الواقع السوفيتى خـــلال النصـــف الثانى من عقد الثمانينيات تؤكد أن تلك الغاية لم تكن تعدو محض سراب ، إذ ما أن خفت قبضة الكريملين على الشعوب الخاضعة لنيره حتى هبــت هـــذه الشعوب من سباتها رافضة الإذعان له ، وساعية إلى التخلص من ربقته .

وشيئا فشيئا بدأ الوهن يدب فى أوصـــال الجسد السوفيتى ، وســـرعان ما انهار تحت وطأة الحركات العرقية ، ذلك الانهيار الذى كانت لـــه آثـــار دولية عظيمة الشأن طالت مقومات النسق الدولى قاطبة ، وذلك على اعتبـــار أن الإتحاد السوفيتى قد ظل يمثل – لعقود عديدة تلت الحرب العالمية الثانيـــة – إحدى قوتين قطبيتين إثنتين ظلتا – طيلة هذه العقود – تقرران معا مصير النسق الدولى ، وقد تمثلت القوة الثانية – كما هو معروف – فى الولايـــات المتحدة . ولقد استتبع تفكك الإتحاد السوفيتى (عام ١٩٩١) على التو تفكـك – دائرته الثابتة (الكتلة الشرقية) ، واختفاء تطلعه – تبعـــا لذلـــك – إلـــى التسابق مع القطب الثانى (الولايات المتحدة) على الامتداد على أرض العالم الثالث ، فضلا عن اختفاء ظاهرة تنافس القطبين فى مجال العمل داخل الأمم المتحدة ، وزوال العداء الدائم بينهما (١) .

---

(١) راجع فى هذا المضمون : محمد طه بدوى ، ليلى أمين مرســـى ، العلاقـــات .... ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

وهكذا فباختفاء الإتحاد السوفيتي أضحى القطب الثـــاني (الولايـــات المتحدة) منفردا بدرجة التفوق العظمى التى كانت تشاركه إياها إمبراطورية البلاشفة ، وسرعان ما اتجهت الولايات المتحدة – التى باتت تمثـــل قطـــب النسق الأوحد – إلى الأمم المتحدة باعتبارها منظمة قانونية لتتخذ منها ســـندا نظاميا لانفرادها بتقرير مصير علاقات القوى على مستوى النسق العـــالمى ، وبالتالى فقد أضحت المنظمة الدولية – لدى الأمريكيين – مجرد أداة لإضفاء الشرعية على سياساتهم على المستوى العالمى [١] .

وتأسيسا على ماتقدم فقد أدى تفكك الإتحاد الســـوفيتي إلـــى إحـــداث تغيرات بالغة الخطورة فى خريطة توزيع القوى الدولية التى كانت قائمة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية . ولعلنا لانكون بعيدين عـــن كبـــد الحقيقـــة إذ اعتبرنا أن هذه التغيرات تمثل آثارا دولية – وإن كـــانت غـــير مباشـــرة – للحركات العرقية التى ظهرت فى الإتحاد الســـوفيتي منـــذ انتصـــاف عقـــد الثمانينيات ، ذلك بأن هذه الحركات كان من شأنها أن مزقت أوصال الدولـــة السوفيتية ، الأمر الذى ترتب عليه زوالها من الوجود وبالتالى من خريطـــة توزيع القوى الدولية .

والحق أن ثمة آثارا دولية أخرى – وإن كانت أقل شأنا – للحركـــات العرقية السوفيتية ، من ذلك مثلا أن انهيار الإتحاد السوفيتي واســـتقلال دول آسيا الوسطى قد خلقا ظاهرة دولية جديدة قوامها : التنافس التركى الإيرانـــى على مناطق النفوذ فى تلك الدول (إلى جانب أذربيجان) ، حيـــث راحـــت كل من تركيا وإيران – باعتبارها دولة إسلامية – تسعى إلى نقـــل نظمـــها السياسية والإجتماعية والإقتصادية إلى الجمهوريات الست ، فى محاولة منها لبسط نفوذها ، وبالتالى تحقيق مصالحها القومية لدى تلك الجمهوريات . ففى حين راحت تركيا تسعى إلى فـــرض نموذجـــها الفكـــرى العلمـــانى علـــى الجمهوريات الست ، راحت إيران تقدم لتلك الجمهوريات نموذجها الفكـــرى

---

(١) راجع فى هذا المضمون : المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .

الإسلامى ، حيث نجحت بالفعل فى خلق تأييد لايستهان به لذلـــك النمـــوذج داخل معظم الجمهوريات ، ولعل أظهر مايؤكد ذلك هو الحرب الأهلية التـــى لاتزال راحها دائرة حتى يومنا هذا فى طاجيكســـتان بيـــن قـــوات النظـــام الشيوعى الحاكم ، وقوات حركة النهضة الإسلامية التى تسعى إلـــى إقامـــة نظام إسلامى على غرار النظام الإيرانى فى الجمهورية الطاجيكية [1] .

وفضلا عما تقدم فهناك التنافس على النفوذ فـــى جمـــهوريات آســـيا الوسطى بين كل من إيران وأفغانستان من جهة ، وروسيا من جهة أخـــرى . ذلك التنافس الذى يبدو جليا من خلال تتبع مجريات الحـــرب الأهليـــة فـــى طاجيكستان ، إذ تأخذ الدولتان الإسلاميتان صف حركة النهضة الإســـلامية ، فى حين تقف روسيا إلى جوار القوات الحكومية .

ويبقى أن نشير – فى النهاية – إلى أنه على الرغم من تفكك الإتحـــاد السوفيتى فإن الصراعات العرقية لاتزال مستعرة الأوار فـــى جمهورياتـــه ، ولعل مرد ذلك إلى كون هذه الجمهوريات – ذاتها – دولا متنوعة الأعراق . ومن أظهر الصراعات القائمة فى الجمهوريات السوفيتية حتى يومنا هذا :

- الصراع الأذربيجانى الأرمينى حول إقليم ناجورنو كارابـــاخ (صـــراع دولى) .
- الصراع الروسى الشيشانى (روسيا) .
- الصراع الجيورجى الأبخازى (جيورجيا) .
- الصراع الجيورجى الأوسيتى (جيورجيا) .
- الصراع المولدافى الجاجوازى (مولدافيا) .
- الصراع بين الأوكرانييـــن وروس القـــرم (أوكرانيا) ، وهو قد يؤدى

---

(١) أنظر بصدد التنافس التركى الإيرانى على الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى :

– وليد محمود عبدالناصر ، مرجع سبق ذكره ، من ص ١٥٩ إلى ص ١٦١ ، وكذا :

- Olcott, Martha Brill, Central Asia : The Calculus of Independence, Current History, October, 1995, p.p. 339-341.

إلى صراع دولى فى المستقبل بين روسيا وأوكرانيا [1]

وبالإضافة إلى ماتقدم فإننا لانكون بعيدين عن كبد الحقيقة إذا ماقلنا أن ثمة صراعات عرقية عديدة أخرى قد تطل برأسها فى أى وقت داخل أغلب الجمهوريات السوفيتية السابقة . ويرتد ذلك إلى كون هذه الجمهوريات تتسم بالتنوع العرقى ، الأمر الذى يجعل الصراعات بين أعراقها أمرا محتمل الحدوث فى أى وقت على نحو ماحدث فى الإتحاد السوفيتى (السابق) ذاته.

* * * * *

(١) أنظر بصدد هذا الصراع : نورهان الشيخ ، مرجع سبق ذكره ، من ص ١٤٤ إلى ص ١٤٨ .

تقريـــــر :

عرضنا فى هذا الفصل للحركات العرقيـــة فـــى الإتحـــاد الســـوفيتى (السابق) خلال الحقبة الجورباتشوفية وما بعدها ، وقد خلصنا من عرضنـــا هذا إلى مايلى :

لقد شهد العهد الجورباتشوفى ظهور العديد من الحركات العرقية فـــى جمهوريات المحيط السوفيتية ، وهى الحركات التى سرعان ماتعاظم شـــأنها فى ظل ماهيأته الجلاسنوست من مناخ اتسم بالحرية إلى حد كبير ، وعلـــى نحو هيأ لبعث النزعات العرقية من مرقدها . ففى ظل الجلاسنوست وجـــدت الجماعات العرقية نفسها وقد واتتها الفرصة كى تعبر عن مضمر نزعاتـــها ، بعد قرون عديدة أحكمت القبضة خلالها على تلك الجماعات من لدن حكـــام جبابرة ، حكموها بالحديد والنار ، وكبلوهـــا بـــأغلال القـــهر والاســـتبداد ، وأذاقوها كافة صنوف الإرهاب والتنكيل ، وما أن خفت القبضة عليها – فـــى رحاب البريسترويكا – حتى راحت تدق طبول الحرب طلبـــا للاســـتقلال ، والتخلص من ربقة أولئك الذين يقطنون الكريملين .

فبصدد **جمهوريات البلطيق** – بادئ ذى بدء – انتهينا إلى أن عقـــودا عديدة من السيطرة البلشفية لم تفلح فى طمس الهويات العرقية للبلطيقييـــن ، ذلك بأنهم – وبرغم جهود الكريملين المضنية لترويسهم – ظلـــوا قـــابضين على هوياتهم ، عاضين بالنواجذ على مقومات ذاتياتهم ، ناظرين إلى الإتحاد السوفيتى باعتباره دولة تحتل أراضيهم ، وتغتصب حقهم فى تقرير المصير. وعلى ذلك فما أن تخلص البلطيقيون من نير الإرهاب والكبـــت – بمجـــئ جورباتشوف إلى الكريملين – حتى اشرأبت أعناقهم نحو استعادة اســـتقلالهم المغتصب ، واسترجاع حريتهم السليبة ، وســـرعان ماظـــهرت الحركـــات العرقية الانفصالية داخل جمهوريات البلطيق ، حيث تجسدت هذه الحركـــات فيما يعرف بالجبهات الشعبية ، تلك الجبـــهات التـــى كـــانت الجمـــهوريات البلطيقية مهدا لها ، وكان للبطيقيين قصب السبق فـــى ابتداعـــها ، فكـــانت

تجربتهم فى ذلك هى السراج الذى سار على هدى من نـوره غـيرهم مـن الشعوب التى طالما أنت تحت نير الكريملين ، ثم ها هى أخيرا تحذو حـذو البلطيقيين فى سعيهم نحو التخلص من ربقة البلاشفة .

أما فيما يتصل بجمهوريات آسيا الوسطى فقد خلصنا – مـن خـلال تحليلنا للحركات العرقية التى ظهرت بها خلال عهد جورباتشوف – إلـى أن مئات السنين من حكم القياصرة وعشرات مثلها من حكم البلاشفة لم تفلح فى طمس الهوية العرقية لشعوب هـذه الجمـهوريات ، وعلـى ذلـك فمـا أن استشعرت هذه الشعوب أن قبضة الكريملين قد خفت عليـها – فـى ظـل البريسترويكا – حتى هبت عن بكرة أبيها تعلن رفضها لوجود أية جماعـات عرقية أخرى على أراضيها ، رافعة شعارات تعبر عن هذا الرفـض حـال "كازاخستان للكازاخستانيين " ، و " أوزبكستان للأوزبكستانيين ... الـخ . وكذا ".لا للقوقازيين " ، و" فليرحل الروس عن أراضينا " .

وهكذا فإن انتفاضات ألما آتا وطشقند ودوشانبى وعشق آباد وفرونـز بما تضمنته من أحداث دامية ، وبما رفع خلالها من شعارات قد حطمـت – إلى جانب تماثيل لينين – حلمه المتصل بالشعب السوفيتى الواحد ، كما أكدت زيف مقولة الصداقة بين الشعوب السوفيتية التى طالما تشدق بها الزعمـاء السوفييت ، باعتبارها مأثرا عظيما من مآثر ثورتهم . وفضلا عما تقدم فـإن انتفاضات عرقيات آسيا الوسطى جاءت لتؤكد أنه لاسـبيل إلـى اسـتقرار سياسى دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة فى مجتمع أسس بنيانه على التجميـع الإجبارى لشعوب غير متجانسة قوميا .

وإذا انتقلنا إلى الحركات العرقية فى منطقة ماوراء القوقـاز فبصـدد الصراع الأذربيجانى الأرمينى حول إقليم ناجورنو كاراباخ خلصنا إلى أنه ما أن خفت قبضة قاطنى الكريملين على الشعوب الخاضعة لنيرهم حتى راحـت مشاعر العداء بين الأرمن والأذربيجانيين تتأجج ، ويستعر أوارها ، تغذيـها فى ذلك الأحقاد التاريخية التى طالما ظلت حبيسة صدور الفريقيـن لعقـود

طويلة مضت ، ولم يقدر لها أن تتجسد فى الواقع نظرا للقبضة الجبارة التى أطبق بها البلاشفة على كافة الجماعات العرقية المشكلة لدولتهم . ومن هنا فما أن خفت تلك القبضة – فى ظل الجلاسنوست – حتى راح كل من الفصيلين الأذربيجانى والأرمينى يكشر عن أنيابه فى مواجهة الآخر ، ويسعى إلى صب جام غضبه عليه ، لتندلع بذلك الصراعات المسلحة الدامية بينهما ، وهى الصراعات التى لم يدع أى من الفريقين وسيلة من وسائل العنف والانتقام إلا واستخدمها فى مواجهة خصمه ، فانتشرت عمليات النهب، والحرق ، والتخريب ، والاغتصاب ، والاغتيال ، وحروب العصابات، بل والحروب النظامية فى ربوع القوقاز ، وظلت تئن تحت وطأتها لأعوام عديدة . لقد جاءت هذه الصراعات – بكل ماشهدته من أعمال عنف كى تؤكد على أن عبارة " الصداقة بين الشعوب السوفيتية " لم تكن تعدو محض أوهام طالت أذهان قاطنى الكريملين ، فاعتقدوا فى وجودها على أرض الواقع ، وراحوا يتشدقون بها معتبرين إياها أعظم إنجازات ثورتهم . من جانب آخر فإن الصراع المسلح الدامى الذى طال منطقة عبر القوقاز ساهم أعظم إسهام فى تحطيم حلم لينين ورفاقه فى الشعب السوفيتى الواحد ذى الهوية الموحدة الجامعة . وفضلا عما تقدم فإن ذلك الصراع قد جاء ليؤكد الحقيقة التى سقناها سلفا ، والتى مؤداها : أنه لاسبيل إلى استقرار سياسى دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة فى وحدة سياسية أسس بنيانها على التجميع الإجبارى لشعوب غير متجانسة .

أما فيما يتعلق بالحركات العرقية فى الجمهورية القوقازية الثالثة وهى جيورجيا فقد رأينا أن عشرات السنين من الحكم الشيوعى لم تفلح فى أن تمحو من ذاكرة الجيورجيين أن جمهوريتهم قد ضمت عنوة إلى الدولة السوفيتية ، لذلك فما أن خفت قبضة الكريملين عليهم حتى راحوا يتطلعون إلى الاستقلال فانطلقت مظاهراتهم الهادرة فى تبليسى تزأر بشعار ظل طيلة عقود عديدة حبيس صدورهم ألا وهو " جيورجيا للجيورجيين " ، ذلك الشعار الذى راح يجب كافة الشعارات التى طالما رفعها قاطنو الكريملين ، وعلى

رأسها شعار " الأممية البروليتارية " . ولقد كانت الحركة العرقية الجيورجية حركة انفصالية استهدفت انسلاخ بنى نحلتها عن الإتحاد السوفيتى ، وإقامة دولة مستقلة تعبر عن هويتهم ، ولم ينفض الجيورجيون حتى حققوا ما أرادوا. علىَ صعيد آخر فإن الصراعات العرقية الدامية التى حفلت بها جيورجيا خلال العهد الجورباتشوفى – والتى لاتزال قائمة حتى يومنا هذا – جاءت لكى تؤكد أن عبارة " الصداقة بين الشعوب السوفيتية " التى طالما تشدق بها الزعماء السوفييت كانت مجرد شعارزائف ، ومحض أكذوبة كبرى، ليس لها سند من حقيقة ، ولاظل من واقع . ذلك بأنه ما أن خفت قبضة الكريملين عليهم – فى رحاب الجلاسنوست – حتى راح كل من الأبخاز والجيورجيين يكشرون عن أنيابهم إزاء بعضهم البعض ، وعمد كل فريق – مدفوعا بالأحقاد التاريخية التى يكنها صدره – إلى صب جام غضبه على خصمه ، وسرعان ماندفع الأوسيتيون إلى حلبة الصراع العرقى المتأجج ، وراحُوا يتجابهون مع الجيورجيين طلبا للانفصال عن جيورجيا ، والانضمام إلى بنى نحلتهم فى أوسيتيا الشمالية الروسية . وهكذا فقد اشتعلت الجمهورية الجيورجية بنيران العرقية المتأججة ، على نحو عصف باستقرارها السياسى ، ودمر الوحدة الوطنية بين قاطنيها ، وراح ينذر بتفتتها قاطبة ، إذ تمكن الأبخاز – إثر معارك حامية الوطيس – من بسط سيطرتهم على أراضى أسلافهم ، معلنين قيام دولة أبخازيا المستقلة ، وهو الأمر الذى لم يكن ليذعن له الجيورجيون ، فراحوا يرفضون الاعتراف باستقلال أبخازيا ، وإن كان وهن قوتهم وضراوة القوات الأبخازية قد حالا دون خوضهم غمار حرب جديدة بغية استرداد أبخازيا . وعلى ذلك فإن الصراع الجيورجى الأبخازى مازالت جذوره تضرب فى أرض الواقع ، وبالتالى فإن آخر حلقاته لم تنته بعد ، كما أن الصراع الجيورجى الأوسيتى لما يزل قائما .

وجملة القول فإن ماشهدته جيورجيا من صراعات عرقية لاتزال قائمة حتى الآن جاء ليؤكد على الحقيقة الكبرى التى سبق أن سقناها والتى مؤداها

أنه : لاسبيل إلى استقرار سياسى دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة فى مجتمع أسس بنيانه على التجميع الإجبارى لشعوب متباينة قوميا .

وإذا ماعرجنا على الحركة العرقية الأوكرانية خلال عهد جورباتشوف فقد بان لنا بصددها أن الأوكرانيين – برغم إشتراكهم فى الأصل السلافى مع الروس وبالرغم من أن الروس كانوا يعتبرونهم " أشقاءهم الأقدمين " و "الأخ الأكبر الثانى " – إلا أنهم أبوا إلى أن يقبضوا على هويتهم ، تلك الهوية التى لم تفلح عشرات السنين من حكم البلاشفة فى طمسها ، أو تقويض مقوماتها ، كما أن تلك السنين الطوال تحت الحكم الشيوعى لم تنجح فى أن تمحو من ذاكرة الأوكرانيين أن جيوش البلاشفة قد اجتاحت دولتهم ، وسحقت استقلالهم يوما ما ، لذلك فما أن خفت قبضة الكريملين عليهم – فى ظل الجلاسنوست– حتى راح الأوكرانيون يؤكدون عزمهم على الانسلاخ عن الإتحاد السوفيتى وإقامة دولة أوكرانيا المستقلة . وهكذا فقد كانت الحركة العرقية الأوكرانية حركة انفصالية إذ تغيت استقلال شعبها عن الدولة السوفيتية ، وإقامة دولة مستقلة تعبر عن هويته ، وسرعان ما تحقق لها ما أرادت ، إذ انسلخ " الأخ الأكبر الثانى " عن الإتحاد السوفيتى رافضا أن يقرر من هم سواه مصيره ، حتى ولو كانوا الروس الذين طالما اعتبروا بنيه أشقاءهم الأقدمين ، كى تتأكد بذلك – أكثر وأكثر – الحقيقة التى سبق أن سقناها ، والتى قوامها أنه : " لاسبيل إلى استقرار سياسى دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة فى مجتمع أسس بنيانه على التجميع الإجبارى لشعوب غير متجانسة قوميا " ، ذلك بأن هذا المجتمع لامحالة متفكك ، وإن ظل محتفظا بوحدته لفترة ما مهما طالت هذه الفترة .

وعلى نفس منوال الحركة العرقية الأوكرانية كانت الحركة العرقية البيلوروسية حركة ذات طبيعة انفصالية ، إذ استهدفت انسلاخ بيلوروسيا عن الإتحاد السوفيتى . وهكذا فإن مئات السنين فى كنف الروس لم تفلح فى طمس هوية البيلوروس ، كما أن اشتراكهم فى الأصل والدين مع الروس لم يكن كافيا لإثنائهم عن الانسلاخ عن موسكو ، وعلى ذلك فما أن خفت قبضة

الكريملين عليهم – فى ظل الجلاسنوست – حتى راحوا – هم أيضا – يطالبون بالسيادة والاستقلال ، ولكى يساهموا بذلك فى تمزيق أوصال الدولة السوفيتية التى كان أشقاءهم الروس قد أسسوها ، وظلوا لعقود عديدة يسعون بشتى السبل إلى الحفاظ على وحدتها .

أما فيما يتصل بالحركة العرقية **المولدافية** فقد انتهينا إلى أن سنين طوال تحت إمرة الكريملين لم تمح من ذاكرة المولداف أنهم رومانيون ضموا – عنوة – إلى الإتحاد السوفيتى ، وبالتالى فما أن خفت قبضة قاطنى الكريملين عليهم – فى ظل البريسترويكا – حتى راحوا يسعون إلى الاستقلال والتخلص من ربقة موسكو ، فى حين راح الجاجوازى القاطنون لمولدافيا يعلنون من جانبهم عن قيام دولتهم فى شمال الجمهورية ، الأمر الذى جعل من الحرب الأهلية خطرا داهما يتهدد مولدافيا حتى بعد استقلالها.

وإذا انتقلنا إلى الحركة العرقية **الشيشانية** فقد خلصنا إلى أن عقودا طويلة من الحكم القيصرى وأخرى تحت النير البلشفى لم تفلح فى طمس الهوية العرقية للشيشان ، كما لم تنجح فى أن تمحو من ذاكرتهم أن وطنهم قد ضم قسرا إلى روسيا ، لذلك فما أن خفت قبضة الكريملين عليهم حتى راحوا يعدون العدة للاستقلال ، ذلك الاستقلال الذى أعلنوه بالفعل عندما كان الإتحاد السوفيتى يلفظ أنفاسه الأخيرة خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٩١ . وعلى الرغم من ضراوة التدخل العسكرى الروسى فى شيشينيا – فى أواخر عام ١٩٩٤ – فإن الشيشان قد استخدموا كافة الوسائل بغية الدفاع عن استقلالهم الوليد ، إذ لجأوا إلى الحرب النظامية ، وحرب العصابات ، وعمليات الاختطاف ، والاغتيال ... وغيرها ، ولم يفلح الجبروت الروسى حتى يومنا هذا – نوفمبر ٢٠٠٠ – فى إخماد نيران الحركة الانفصالية الشيشانية . وهكذا فإنه على الرغم من مرور مايربو على الأربع سنوات على تفكك الإتحاد السوفيتى فإن الصراعات العرقية لم تخمد بعد فى جمهورياته (السابقة) . إذ لاتزال هذه الصراعات تمثل تهديدا بالغا لاستقرار العديد من هذه الجمهوريات وعلى رأسها روسيا الإتحادية ذاتها ، إذ تمثل الحركة

العرقية الشيشانية تهديدا بالغا لوحدة الدولة الروسية ، ذلك بأن هذه الحركة يمكن أن تتخذ نبراسا من جانب جماعات عرقية روسية أخرى ، حيث أن روسيا تتكون مما يربو على ٣٧ جماعة عرقية ، ولعل في تأييد أنجوتشيا لاستقلال الشيشان مايؤكد مقولتنا هذه .

على أية حال فإن تحليلنا للحركة العرقية الشيشانية جاء لكي يؤكد الحقيقة التي سبق أن سقناها والتي قوامها : أنه لاسبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة في مجتمع تأسس بنيانه على التجميع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا .

وهكذا ونظرا لكل ماتقدم فقد انهارت إمبراطورية البلاشفة تحت وطأة الحركات العرقية ، ذلك الانهيار الذي كانت له آثار دولية عظيمة الشأن طالت مقومات النسق الدولي قاطبة ، إذ باختفاء الإتحاد السوفيتي (والذي كان يمثل أحد قطبي النسق الدولي الذي قام غداة الحرب العالمية الثانية) أضحى القطب الثاني (الولايات المتحدة) متفردا بدرجة التفوق العظمى التي كانت تشاركه إياها إمبراطورية البلاشفة ، وسرعان ما اتجهت الولايات المتحدة – التي باتت تمثل قطب النسق الأوحد – إلى الأمم المتحدة باعتبارها منظمة قانونية لتتخذ منها سندا نظاميا لانفرادها بتقرير مصير علاقات القوى على مستوى النسق العالمي ، وبالتالي فقد أضحت المنظمة الدولة – لدى الأمريكيين – مجرد أداة لإضفاء الشرعية على سياساتهم على المستوى العالمي . وذلكم هو ماخلفه تفكك الإتحاد السوفيتي منه آثار على خريطة توزيع القوى الدولية .

* * * * *

التقريــر الختامـــى

استهدف هذا البحث – في المقام الأول – الإجابة على تساؤل هام قوامه :

هل من سبيل إلى استقرار سياسي ووحدة وطنية في مجتمع أسس بنيانه على التجمع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا؟ وبمعنى آخر فقد استهدف البحث هدفاً يتمحور حول التعريف بظاهرة الحركات العرقية في العالم المعاصر من حيث طبيعتها ، وأسبابها ، وأهدافها ، ووسائلها ، وآثارها ، على الحياة السياسية في البلدان التي توجد بها، ولا سيما فيما يتصل بآثارها على الإستقرار السياسي ، وتداعياتها على الوحدة الوطنية، وكذا آثارها الدولية ، وعلى ذلك فقد تمثلت مادة البحث في ظاهرة الحركات العرقية في العالم المعاصر من حيث كنهها وأسبابها وآثارها في الحياة السياسية ، وذلك كله من خلال العرض لبعض النماذج (الحالات) المعبرة عن هذه الظاهرة حال الحركات العرقية في الاتحاد السوفيتي (السابق) ، والحركة العرقية الكردية، والحركة العرقية في جنوب السودان.. وغيرها.

أما فيما يتصل بمنهج الدراسة فإنه بحكم طبيعة مادة البحث ، وعلى مقتضى الهدف الذي حددناه له كان لا مناص من الإلتزام بالمنهج الإختباري، فعمدنا إلى البدء من المصادر والمراجع- ذات الصلة بمادة البحث- كأداة للملاحظة، بغية تحليلها في سبيلنا إلى الوصول إلى حكم موضوعي بشأن هدف البحث، كما لجأنا إلى أسلوب الملاحظة الذاتية المباشرة للواقع، ساعين إلى تسجيل أحداثه، ووقائعه في مجال التحركات الفعلية للحركات العرقية المعاصرة.

وبصدد خطة الدراسة فقد قمنا بتقسيم بحثنا إلى ثلاثة أقسام وتقرير ختامي.

وقد عنونا هذه الأقسام الثلاث على النحو التالي :

القسم الأول : في الظاهرتين القومية والعرقية.

القسم الثاني : فى التعريف بظاهرة الحركات العرقيـــة فـــى العـــالم المعاصر.

القسم الثالث : فى الحركات العرقية وانهيار الإتحاد السوفيتي الســـابق (دراسة خاصة).

وفيما يلى نعرض لأظهر ما خلصنا إليه من ملاحظات فى كل من هذه الأقسام الثلاثة:

القسم الأول : وقد ضم فصلين انصب أولهما على التعريف بالدولـــة القومية، فى حين عالج الثاني الظاهرة العرقية(الجماعات والحركات). أمـــا فيما يتصل **بالفصل الأول** فقد خلصنا منه إلى أن الدولة القومية- بمقومـــها الرئيسي المتمثل فى تجانس عنصرها البشري تجانساً قوميا - قـــد راحـــت تتميز عن الإمبراطوريات القديمة، تلك الإمبراطوريات التى كانت تقوم على التجميع الإجباري لشعوب متباينة الأصل واللغة والدين، وبالتالى فقد كـــان التجمع البشري لتلك الإمبراطوريات يفتقر إلى الرباط الموضوعي المتمثـــل فى وحدة الأصل واللغة والدين من ناحية، كما عازه الرباط الذاتي المتمثـــل فى الرغبة فى الحياة المشتركة بين أفراده من ناحية أخرى. لذلك فقد كـــانت هذه الإمبراطوريات تعاني من ظاهرة الحركات العرقية، إذ كانت كل جماعة عرقية تسعى بشتى السبل إلى الانفصال عن الإمبراطورية وتكويـــن دولـــة مستقلة تجمع شتاتها، الأمر الذى كان لابد من أن يتمخض فى النهايـــة عـــن اضمحلال الإمبراطورية واندثارها. أما الدولية القومية - بركنـــها الركيـــن المتمثل فى التجانس القومي- فهى تمثل بحق - مصلاً واقياً مـــن ظـــاهرة الحركات العرقية، وبالتالي فهى تعد الصورة المثلى للمجتمع السياسي .

أما **الفصل الثاني** والمعنون بالتعريف بالظاهرة العرقية فقد انتهينا مـــن خلال مباحثه الخمسة إلى تقديم تعريف للجماعة العرقية، والوقـــوف علـــى مقومات ذاتيتها، على نحو هيأ لاستجلاء الفارق بينها وبين ما قد يختلط بـــها أو يتداخل معها من مفاهيم حال الجماعة السلالية ، والأمة ، والأقلية . كمـــا

عرضنا فى هذا الفصل أيضا لأبرز الاتجاهات فيما يتصل بتصنيف الجماعات العرقية ، ذلك فضلاً عن التعريف بالحركة العرقية ومقوماتها وأهدافها ووسائلها. ويتمثل أظهر ما انتهينا إليه بصدد ما تقدم فيما يلي :

١ – إن الجماعة العرقية هى : تجمع بشري يرتبط أفراده فيما بينهم من خلال روابط فيزيقية أو بيولوجية (كوحدة الأصل أو السلالة) أو ثقافية (حال وحدة اللغة أو الدين أو الثقافة) ، ويعيش هذا التجمع فى ظل مجتمع سياسي أرحب، مشكلاً لإطار ثقافي حضاري مغاير للإطار الثقافي الحضاري لباقي المجتمع، ويكون أفراد هذا التجمع مدركين لتمايز مقومات هويتهم وذاتيتهم، عاملين دوماً من أجل الحفاظ على هذه المقومات فى مواجهة عوامل الضعف والتحلل .

٢ – إن مقومات الذاتية العرقية لا تقتصر على المقومات الفيزيقية أو البيُولوجية (كوحدة السلالة أو السمات الفيزيقية المشتركة) ، وإنما تتضمن كذلك مقومات ثقافية حال وحدة الدين ، أو اللغة ، أو الثقافة.

٣ – الأقلية هى : الجماعة أو الجماعات العرقية ذات الكم البشري الأقل فى مجتمعها، والتى تتمايز عن غيرها من السكان من حيث السلالة ، أو السمات الفيزيقية ، أو اللغة ، أو الدين ، أو الثقافة ، ويكون أفرادها مدركين لمقومات ذاتيتهم وتمايزهم ، ساعين على الدوام إلى الحفاظ عليها، وغالباً ما تكون هذه الجماعة أو الجماعات فى وضع غير مسيطر فى ذلك المجتمع، كما يعاني كثير منها – بدرجات متفاوتة– من التمييز ، أو الاضطهاد أو الاستبعادفى شتى قطاعات المجتمع السياسية، والاجتماعية والاقتصادية . وهكذا فإن كل أقلية هى جماعة عرقية فى حين أن كل جماعة عرقية ليست بالضرورة أقلية .

٤ – إن الجماعات العرقية قد تكون جماعات سلالية أو لغوية أو دينية.وإن كان أغلب الجماعات العرقية لا تقتصر الرابطة بين أفرادها على مقوم واحد، إذ غالباً ما تكون الجماعة العرقية جماعة سلالية ولغوية، أو

سلالية ولغوية ودينية... وهكذا. من جانب آخر فإن الجماعات العرقية قد تكون جماعات مسيطرة ، كما قد تكون جماعات غير مسيطرة في مجتمعها، كما أن أغلب الجماعات غير المسيطرة هي أقليات يعاني كثير منها من التمييز ، أو الإضطهاد ، أو الإستبعاد، ولذلك نجد أن الحركات العرقية يرتبط وجودها بالجماعات غير المسيطرة.

٥ - الحركة العرقية هي حركة سياسية اجتماعية منظمة تنشأ في إطار جماعة عرقية غير مسيطرة (غالباً ما تكون أقلية) ، ويكون لهذه الحركة برنامج عمل ينطوي على ما تصبو إليه من أهداف، وما تتوصل به من وسائل بغية بلوغ هذه الأهداف التي قد تتمثل في إعمال مبدأ المساواة بصدد علاقة الجماعة بالجماعات لا سيما المسيطرة منها، كما قد تستهدف الحركة في بعض الأحيان تحقيق نوع من الحكم الذاتي لجماعتها على الإقليم الذي تقطنه، ذلك فضلاً عن أن ثمة حركات قد تتغيا الارتقاء بجماعتها إلى تبوؤ موقع السيطرة في مجتمعها، غير أن أغلب الحركات العرقية ترمي إلى انفصال الجماعة عن المجتمع السياسي الذي يشملها، وإقامة دولة مستقلة تجسد هويتها، أو الانضمام إلى دولة أخرى مجاورة تشاركها ذات المقومات العرقية، وفي سبيل تحقيق أهدافها تلجأ إلى استخدام وسائل عديدة بعضها ذو طابع سلمي، وبعضها يرتكز إلى العنف .

أما **القسم الثاني** – والذي هو من بحثنا هذا بمثابة الصلب– فقد قدمنا فيه تحليلاً لظاهرة الحركات العرقية في العالم المعاصر، واضعين نصب أعيننا الوقوف على السمات العامة المشتركة لتلك الحركات، والتي تجعل منها ظاهرة بحق ، وقد خلصنا من تحليلنا للظاهر موضع البحث إلى أن ثمة سمات عامة تشير الملاحظة إلى أن سائر الحركات العرقية تكاد تشترك فيها، وتتمثل هذه السمات العامة المشتركة في :

١ - إن الحركات العرقية ترتبط من حيث وجودها بالدول متنوعة العرقيات،

سواء أكانت هذه الدول تدخل فى مصاف الدول المتقدمة حال كندا وإسبانيا والمملكة المتحدة، أو كانت تنتمى إلى العالم الثالث حال كل من السودان ، وليبريا ، ورواندا ، وبوروندي ، والعراق ، وسريلانكا ، والهند ، وإثيوبيا ، وغيرها . وقد عرضنا بالتفصيل للحركة الكردية وكذا الحركة العرقية فى جنوب السودان كنموذجين للحركات العرقية فى العالم الثالث، كما عرضنا للحركة العرقية فى إقليم كيبيك الكندي كنموذج للحركات العرقية فى الدول التى تدخل فى مصاف الدول المتقدمة.

٢ - إن الحركات العرقية غالبا ما تكون حركات انفصالية وقد أشرنا فى هذا الصدد إلى نماذج عديدة للحركات العرقية الانفصالية حال الحركة التاميلية (نمور التاميل) فى سريلانكا، وحركة مسلمي جامو وكشمير فى الهند، وحركة تيمور الشرقية فى إندونيسيا ، وحركة الجيش الأيرلندي فى أيرلندا الشمالية بالمملكة المتحدة، وحركة الباسكيين فى إسبانيا، وحركة مهاجر قومي فى باكستان.. وغيرها. وذلك بطبيعة الحال فضلاً عن الحركات الثلاث التى عرضنا لها بالتفصيل ، والتى انتهينا بصددها إلى ما يلي :

أ - الحركة العرقية فى إقليم كيبيك الكندي: وهى تستهدف انفصال إقليم كيبيك ذى الأغلبية الفرنسية عن كندا، وإقامة دولة مستقلة تجمع شتات الكنديين الفرنسيين، كما سبق أن أشرنا.

ب - الحركة العرقية فى جنوب السودان: وهى تستهدف فى جملتها انفصال جنوب السودان عن شماله، وإقامة دولة مستقلة تضم الجنوبيين الذين يعتبرون أنفسهم أفارقة، ويعتبرون الشماليين عرباً، على النحو المشار إليه.

جـ- الحركة العرقية الكردية داخل كل من تركيا والعراق وإيران: وتتمثل غاية المنتهى للأكراد فى الانفصال بكردستان عن

الدول الثلاث التى تتقاسمها ، وإقامة دولة كردستانية تجمع شتات الأكراد وتجسد هويتهم ، وذلك على النحو الذى عرضنا له بالتفصيل.

٣ - إن الحركات العرقية غالبا ما تلجأ إلى إستخدام كافة وسائل العنف فى سبيل بلوغ غاياتها، إذ لا تدخر هذه الحركات أيا من وسائل العنف بغية تحقيق أهدافها، سواء تمثلت هذه الوسائل فى الحرب النظامية، أو حرب العصابات،أو التطهير العرقي ، أو عمليات الاغتيال ، أو الاختطاف، أو المظاهرات ذات الطابع العنفي، أو غيرها. وقد أشرنا للعديد من النماذج للحركات العرقية وما تمخض عنه استخدامها العنف من آثار، حال حركة التوتسي وحركة الهوتو فى وروانـدا ، ونظيرتيهما فى بوروندي، وحركة جماعتي الجيو والمانو فى مواجهة جماعة الكراهن فى ليبريا ، وحركة الجيش الجمهوري فى أيرلندا، وحركة الباسك فى إسبانيا ، وحركة نمور التاميل فى سريلانكا.. وغيرها ، أما فيما يتصل بالنماذج التى عرضنا لها تفضيلا فقد خلصنا - بصدد مدى استخدامها للعنف - إلى ما يلي:

أ - **الحركة العرقية فى إقليم كيبيك الكندي:** وقد أشرنا بصددها إلى أن ثمة جناحا داخل التيار الانفصالي الكيبيكي لا يتورع عن التوسل بشتى وسائل العنف بغية بلوغ غايته، ويتمثل هذا الجناح فى جبهة تحرير كيبيك، تلك الجبهة التى جعلت ديدنها عمليات الاختطاف، والاغتيال، والتخريب ، والارهاب بشتى صوره . الأمر الذى كان من شأنه أن رصدنا ملاحظة قوامها أنه حتى فى ظل المجتمعات الديمقراطية قد تنشأ حركات عرقية انفصالية يغلب على وسائل طابع العنف، وذلك على الرغم مما يتوافر فى ظل هذه المجتمعات من قنوات عديدة شرعية للتعبير عن الآراء ، ولعله مما قد يؤكد صحة هذه الملاحظة ما تقوم به الحركة العرقية الايرلندية الانفصالية

(ممثلة فى الجيش الجمهوري) من أعمال عنف متواصلة بغية الوصول إلى هدفها المتمثل فى انفصال شمال أيرلندا عن المملكة المتحدة ، وذلك كله على الرغم من الطبيعة الديمقراطية للنظام السياسي البريطاني.

ب - **الحركة العرقية فى جنوب السودان:** وقد دخلت هذه الحركة (ممثلة فى الجيش الشعبي لتحرير السودان بزعامة جون جارانج) فى حرب أهلية مع قوات الحكومة السودانية منذ عام ١٩٨٣، وقد تمخضت تلك الحرب- طبقا لتقديرات الحكومة السودانية - خلال الفترة (١٩٨٩-١٩٩٤) وحدها عن مصرع ما يربو على الخمسين ألف مسلح، فضلاً عشرات الآلاف من المدنيين ، كما أسفرت الحرب عن تدمير عشرات القرى والمدن، وفرار عشرات الآلاف من أبناء جنوب السودان إلى الدول المجاورة.

جـ- **الحركة العرقية الكردية داخل كل من تركيا والعراق وإيران:** وقد قام الأكراد – على طول تاريخهم- بعشرات الثورات بغية تحقيق هدفهم فى إنشاء كردستان المستقلة، ولعل من أبرز الأمثلة المعاصرة على لجوئهم إلى العنف ما قام به حزب العمال الكردستاني فى تركيا وحدها من عمليات عنف فى مواجهة المنشآت التركية منذ عام ١٩٨٤، وعلى سبيل المثال فقد قام الحزب – خلال الفترة (١٩٩٠-١٩٩٤) – بحوالى ٨٦٠٠ عملية عسكرية فى مواجهة القوات، والمنشآت التركية.

٤ - إن الحركات العرقية تشكل تهديداً بالغاً للاستقرار السياسي فى المجتمعات التى توجد بها ، كما أن لهذه الحركات آثاراً سلبية لا يستهان بها على الوحدة الوطنية لتلك المجتمعات، ذلك بأن هذه الحركات تلجأ – كما سبق أن ذكرنا – إلى شتى وسائل العنف فى

سبيل بلوغ أهدافها، والتي هي في الغالب ذات طبيعة انفصالية ، وتأكيداً لهذه الحقيقة فقد أشرنا إلى ما تمخضت عنه تلك الحركات من تمزق لأوصال العديد من الوحدات السياسية حال يوغوسلافيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وإثيوبيا ، والهند ، والباكستان ، والبوسنة ، فضلاً عن الإتحاد السوفيتي والذى رأينا أن نعرض له بتفصيل يليق به، فأفردنا له القسم الثالث من هذا الكتاب . وفضلاً عما تقدم فقد أدت الحركات العرقية إلى اندلاع الحرب الأهلية فى عديد من دول حال السودان ، وليبريا ، وسريلانكا ، ورواندا ، وبوروندي ، ولبنان.. وغيرها . كما أدت هذه الحركات إلى اضطرابات متلاحقة داخل كل من الهند وباكستان ، وإندونيسيا ، والمملكة المتحدة ، وإسبانيا ، والصين، أما بصدد الحالات التفصيلية التى عرضنا لها فقد خلصنا من هذا العرض إلى ما يلي :

أ – الحركة العرقية فى إقليم كيبيك الكندي : وقد خلصنا إلى أن هذه الحركة– برغم ما يغلب على وسائلها من طابع سلمي– تشكل تهديداً عظيم الشأن لوحدة أراضي الدولة الكندية، إذ فى ظل وجودها بات الانقسام يشكل خطراً داهماً يكاد يعصف بكيان هذه الدولة، ويجعل استقرارها فى مهب الريح لا سيما وأن نتائج استفتاء صيف عام ١٩٩٥ قد أكدت تعاظم نسبة الكيبيكيين المؤيدين لانفصال كيبيك عن كندا.

ب – الحركة العراقية فى جنوب السودان : وقد تمخضت عن اندلاع حرب أهلية دامية بدأت منذ استقلال السودان عام ١٩٥٦ واستمرت حتى عام ١٩٧٢، وتوقفت لمدة أحد عشر عاماً، ثم ما لبثت أن اندلعت من جديد فى عام ١٩٨٣، ولا تزال رحاها دائرة حتى الآن .

جـ– الحركة العرقية الكردية : وهى وإن كان تهديدها لاستقرار إيران ضئيلاً إلا أنها تشكل تهديداً عظيم الشأن لاستقرار كل

من تركيا، والعراق على النحو الذى عرضنا له تفصيلا.

٥ - إن الحركات العرقية- برغم كونها حركات داخلية- إلا أنها كثيراً ما تتمخض عن آثار دولية هامة، وقد أشرنا فى هذا الصدد إلى دور الحركة العرقية فى جامو وكشمير فيما يتصل بتأجيج الصراع بين الهند وباكستان، كما عرضنا لأثر الحركة العرقية فى قبرص فيما يتعلق بتحريك الصراع بين تركيا واليونان ، أما بصدد الحالات التفصيلية التى عرضنا لها فقد خلصنا فيما يتصل بآثارها الدولية إلى ما يلي :

أ - الحركة العرقية فى إقليم كيبيك الكندي: وقد خلصنا بصددها إلى أنها كانت لها دوماً آثار سلبية هامة على العلاقات الكندية الفرنسية لاسيما خلال فترة اعتلاء ديجول لسدة الحكم فى فرنسا.

ب - الحركة العرقية في جنوب السودان: وقد أوضحنا أنها كانت لها آثار سلبية على العلاقات بين السودان وجيرانه الذين كانوا يقدمون الدعم للانفصاليين فى الجنوب حال إثيوبيا(خلال عهدي الإمبراطور هيلاسلاسي والرئيس منجستو ماريام) ، وأوغندا ، وإريتريا فى وقتنا الراهن.

جـ- الحركة العرقية الكردية: وقد أوضحنا أنها كانت لها آثار هامة على العلاقات بين الدول المعنية بها، إذ كانت- ولا تزال- لها آثارها على العلاقات التركية الإيرانية، وكذا على العلاقات الإيرانية العراقية، والعلاقات التركية العراقية، والعلاقات السورية التركية.. ، ثم رأينا تأثيرها على علاقة تركيا بالإتحاد الأوربى .

وفى النهاية فإن ثمة حقيقة لا سبيل إلى إنكارها بعد كل ما قدمنا ألا وهى أنه لا سبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة فى

مجتمع أسس بنيانه على التجميع الإجباري لشعوب غير متجانسة قومياً.

وبغية استجلاء كافة الحقائق التي وقفنا عليها من خلال القسمين الأول والثاني توجنا بحثنا هذا بدراسة للحركات العرقية في الإتحاد السوفيتي (السابق)، نظراً لما كان لهذه الحركات من آثار عظيمة الشأن على الواقع السياسي فى عالمنا المعاصر قاطبة، ذلك فضلاً عما انطوت عليه هذه الحركات من تنوع هائل من شأن الوقوف عليه وتحليله، أن يثرى أى عمل علمى فى مجال الحركات العرقية. ومن هنا فقد أفردنا القسم الثالث من بحثنا هذا لدراسة الحركات العرقية فى الإتحاد السوفيتي، وقد ضمنا هذا القسم فصلين عرضنا فى أولهما بالتحليل للحركات العرقية فى الإتحاد السوفيتي السابق خلال الفترة الممتدة من قيام الثورة البلشفية (عام ١٩١٧) وحتى ما قبل اعتلاء جورباتشوف لسدة الحكم فى الكريملين عام١٩٨٥. وقد اقتضى ذلك التعريف بالتكوين العرقي للإتحاد السوفيتي، والتقسيمات الإدارية التى خطها الزعماء السوفييت استجابة لذلك التكوين. كما عرضنا فى هذا الفصل بشئ من التفصيل للسياسات التى انتهجها هؤلاء الزعماء بغية تسوية المسألة القومية، ومن خلال تتبع الواقع السوفيتي – خلال الفترة ١٩١٧-١٩٨٤ – فيما يتصل بالمسألة القومية خلصنا إلى الملاحظات التالية:

أولا: إن الإتحاد السوفيتي كان وريث إمبراطورية تم بناؤها من خلال التجميع الإجباري لشعوب متباينة من حيث السلالة واللغة والدين، فضلاً عن أنها لم تكن ترغب فى العيش المشترك. وهكذا فقد ورث الإتحاد السوفيتي الإمبراطورية الروسية بمختلف أقاليمها وجل أعراقها، فكان دولة ذات تنوع عرقي هائل.

ثانيا: إن هدف الزعماء السوفييت الملح والمحوري والدائم فيما يتصل بالمسألة القومية كان يتمثل فى الوصول بالمجتمع السوفيتي إلى درجة من التكامل تختفى فى ظلها تلك المسألة، التى طالما قضت مضجعهم، ومثلت العامل المهدد لكيان دولتهم، والمهيئ لتفككها وإضمحلالها،

وعلى ذلك فقد كان صهر الهويات العرقية للجماعات السوفيتية في بوتقة هوية سوفيتية جامعة هو غاية المنتهى بالنسبة لهؤلاء الزعماء .

ثالثا: إن الزعماء السوفييت قد راحوا- في سبيل تحقيق هدفهم المتقدم- يحكمون قبضتهم على شتى الجماعات العرقية المشكلة لدولتهم، ساعين في ذات الوقت إلى تحطيم أية نزعة عرقية لدى أي من هذه الجماعات، وبغية بلوغ ذلك استند هؤلاء الزعماء إلى ركائز عديدة، ولجأوا إلى وسائل شتى، ولعل من أظهر هذه الركائز الوسائل ما يلي:

١ - **طبيعة النظام السياسي السوفيتي** :والذى كان يمثل نظاما شموليا، ارتكز إلى حزب واحد هو الحزب الشيوعي، ولقد راح هذا الحزب يفرض أيديولوجيته الماركسية على كافة أعضاء المجتمع بشتى الوسائل بما في ذلك الإرهاب والتنكيل. وقد احتكر هذا الحزب الحياة السياسية، كما هيمنَ على مختلف الأجهزة الرسمية للدولة وعلى رأسها المؤسسات السياسية، ومن فوقه طاغية هو " الرجل رقم واحد " الذى قام من فوق الحزب - بل ومن فوق المجتمع والدولة جميعا - بسلطات مطلقة ونهائية هيأت له تصفية سائر معارضيه ، كما كان الإعلام في ظل ذلك النظام موجها بحيث كان شاغله الأوحد هو الدعاية للنظام، والتعتيم على كافة أخطائه، وكل ذلك إلى جانب وضع قيود هائلة من جانب النظام على حرية الرأى ، والتعبير ، والعقيدة .

وفوق كل ما تقدم عمد الزعماء السوفييت بغية إحكام السيطرة على الجماعات العرقية إلى تقليص الاختصاصات المخولة للجمهوريات السوفيتية إلى أدنى حد ممكن(وذلك بمقتضى الدساتير التى وضعها هؤلاء الزعماء)،كما تم بمقتضى القانون العسكري لعام ١٩٣٨ تفكيك الوحدات العسكرية الخاصة بالجمهوريات فلم يعد ثمة سوى جيش واحد متعدد العرقيات هو الجيش السوفيتي ، أملا في أن يكون هذا الجيش بمثابة النواة لخلق شعب سوفيتي واحد.وهكذا فقد مثل النظام

السوفيتي- بمقوماته المشار إليها- إطاراً ضاغطا علـــى الجماعـــات العرقية لم تستطع إزاءه حراكاً.

٢ - **الدعوة إلى فكرة الأممية البروليتارية كفكرة بديلة للقومية:**حيــث راح كافة الزعماء والمثقفين السوفييت يروجــون فى خطبـــهم ومؤلفاتـــهم لفكرة الأممية البروليتارية، ويدعون إلى نبذ القومية باعتبارها إحـــدى موروثات البرجوازية البائدة، كما سخرت شتى وسائل الإعلام السوفيتية من مقروءة ، ومسموعة ، ومرئية للترويج لفكرة الأممية البروليتاريـــة، التى يكون الولاء فى ظلها للطبقة لا للعرق. وقد استهدف السوفييت من وراء ذلك القضاء على أية نزعـــة قوميـــة أو عرقيـــة لـــدى أى مـــن الجماعات المشكلة للإتحاد السوفيتى ، بما يهيئ لإحكام القبضة عليـــها على نحو ماقدمنا .

٣ - **قمع أية حركة عرقية تستهدف انفصال شعبها عن الإتحاد الســوفيتى:** حيث قام السوفييت بسحق استقلال كـــل مـــن أوكرانيـــا وأذربيجـــان وجيورجيا ، وإبادة الحركة الانفصالية البخارية وحركة بسماتشى فـــى آسيا الوسطى غداة الثورة البلشفية . ولم يكتف السوفييت بذلـــك وإنمـــا شرعوا مستخدمين جبروتهم فى اغتصاب دول بأكملها وضمـــها إلـــى دولتهم ، فضلا عن سلخ أجزاء من أقاليم دول أخرى مجاورة ودمجـــها فى الإتحاد السوفيتى ، وذلك كله إبان الحرب العالمية الثانيـــة . وقـــد تمثلت الدول التى ضمها السوفييت فى دول البلطيق الثلاث (ليتوانيـــا - إستونيا - لاتفيا) ، أما الأقاليم التى قاموا بالاستيلاء عليها عنوة وجـبرا عن دولها الأصلية فقد تمثلت فى كل من كاريليا الفنلندية ، ومولدافيـــا الرومانية . وفضلا عن التجميع الجبرى للشـــعوب وإرغامـــها علـــى الدخول فى الحظيرة السوفيتية ، لم يسمح السوفييت لأى من حلفائهم فى شرق أوربا بالانسحاب من حلف وارسو ، وعلى ســـبيل المثـــال فقـــد أجـــبرت الدبابـــات الســـوفيتية كـــلا مـــن المجـــر (عـــام ١٩٥٦) وتشيكوسلوفاكيا (عام ١٩٦٨) علـــى الرضـــوخ لإرادة الســـوفييت ،

والعودة صاغرتين إلى الدوران فى فلكهم داخل حظيرة حلف وارسو . وهكذا فإن كل ماتقدم يؤكد على أن السوفييت لم يكونوا ليوافقون على انفصال أية جمهورية سوفيتية عن الإتحاد السوفيتى ، وبالتالى فإن "حق تقرير المصير " – الذى طالما تشدقوا به – وحق الانفصال – الذى طالما أكدوا التزامهم به وضمنوه سائر دساتيرهم – لم يكونا فى الواقع سوى مجرد شعارين أجوفين رفعهما السوفييت بغية تحقيق مكاسب سياسية ، ولم يلتزموهما ألبتة قيد أنملة ، كما أننا لانكون بعيدين عن كبد الحقيقة إذا ماقلنا أن الإتحاد السوفيتى– فى ضوء ماتقدم – كان يقوم – شأنه فى ذلك شأن الإمبراطورية الروسية التى ورثها – على التجميع الإجبارى للشعوب ، وبالتالى فإننا نتفق مع الرأى القائل بأن الإتحاد السوفيتى كان يمثل إمبراطورية فى عصر لايعرف الإمبراطوريات .

٤ – **السعى إلى طمس الهويات العرقية للجماعات المشكلة للإتحاد السوفيتى** من خلال تقويض مقوماتها وعلى رأسها الدين ، وعلى نحو يهيئ لإمكانية إحكام السيطرة عليها ، وصهرها فى بوتقة هوية سوفيتية جامعة تجب ماعداها من هويات ، وتستمد ركيزتها الأساسية من نسق ثقافى سوفيتى موحد هو " الثقافة البروليتارية " بمضمونها المتقدم .

٥ – **سياسة الترويس والتى انطوت على أهداف ثقافية** ، وأخرى تتصل بالكيانات البشرية للجمهوريات ، وثالثة تتصل بسائر المؤسسات الإتحادية للدولة ، أما الترويس الثقافى واللغوى فقد استهدف المساهمة فى طمس الهويات العرقية لجماعات المحيط وتقويض مقومات ذاتياتها، على نحو يهيئ لصهرها مع الروس فى بوتقة واحدة ، بما يؤدى إلى خلق هوية واحدة ، وللتأكيد لذلك لجأ السوفييت بجانب الترويس الثقافى واللغوى إلى ترويس الكيان البشرى لجمهوريات المحيط بتوطين تجمعات بشرية روسية داخل أراضى هذه الجمهوريات على نحو ماقدمنا .

أما ترويس المؤسساته الإتحادية - وعلى رأسها الجيش والحزب الشيوعى - فقد استهدف الزعماء السوفييت من ورائه إحكام قبضتهم على هذه المؤسسات ، وبالتالى على سائر الجمهوريات بما تنطوى عليه من جماعات عرقية .

٦ - **اقتلاع الجماعات العرقية المتمردة** من أراضيها وتشتيتها فى أرجاء آسيا الوسطى وأصقاع سيبيريا بمنأى عن مواطنها الأصلية ، وهذا حال ماحدث مع الأقليات التى اتهمها ستالين بالخيانة والتعاون مع النازيين إبان الحرب العالمية الثانية ، وهى الأقليات المتمثلة فى الشيشان ، والأنجوش ، والبلقار ، والكاراتشيز ، وتتار القرم ، والكالموك ، وألمان الفولجا .

رابعا : إنه من خلال الوسائل المتقدمة تمكن الزعماء السوفييت بالفعل خلال الفترة (١٩١٧ - ١٩٨٤) من إحكام قبضتهم على سائر الجماعات العرقية الخاضعة لنيرهم ، والمشكلة لدولتهم ، كما قاموا بسحق أية حركة عرقية تستهدف انفصال شعبها عن الإتحاد السوفيتى ، على نحو ماقدمنا .

خامسا : إن كافة الزعماء السوفييت الذين تعاقبوا على الحكم فى الكريملين بمن فيهم جورباتشوف ذاته - كانوا يؤكدون دوما على أنهم قد نجحوا فى تسوية المسألة القومية ، وأن الصداقة بين سائر الشعوب السوفيتية قد باتت تمثل واقعا ملموسا ، ودليلا قاطعا على عظمة ثورتهم (ثورة أكتوبر) .

أما الفصل الثانى من هذا القسم فقد عرضنا من خلاله للحركات العرقية فى الإتحاد السوفيتى (السابق) خلال الحقبة الجورباتشوفية وما بعدها ، وقد خلصنا من عرضنا هذا إلى مايلى :

لقد شهد العهد الجورباتشوفى ظهور العديد من الحركات العرقية فى

جمهوريات المحيط السوفيتية ، وهى الحركات التى سرعان ماتعاظم شـــأنها فى ظل ماهيأته الجلاسنوست من مناخ اتسم بالحرية إلى حد كبير ، وعلـــى نحو هيأ لبعث النزعات العرقية من مرقدها ، ففى ظل الجلاسنوست وجـدت الجماعات العرقية نفسها وقد واتتها الفرصة كى تعبر عن مضمر نزعاتـها . بعد قرون عديدة أحكمت القبضة خلالها على تلك الجماعات من لدن حكـــام جبابرة ، حكموها بالحديد والنار ، وكبلوهـا بـأغلال القـهر والاسـتبداد ، وأذاقوها كافة صنوف الإرهاب والتنكيل ، وما أن خفت القبضة عليها - فـى رحاب البريسترويكا - حتى راحت تدق طبول الحرب طلبـا للاسـتقلال ، والتخلص من ربقة أولئك الذين يقطنون الكريملين .

فبصدد **جمهوريات البلطيق** - بادئ ذى بدء - انتهينا إلى أن عقـودا عديدة من السيطرة البلشفية لم تفلح فى طمس الهويات العرقية للبلطيقييـن ، ذلك بأنهم - وبرغم جهود الكريملين المضنية لترويسهم - ظلوا قابضين على هوياتهم ، عاضين بالنواجذ على مقومات ذاتياتهم ، ناظرين إلـى الإتحـاد السوفيتى باعتباره دولة تحتل أراضيهم ، وتغتصب حقهم فى تقرير المصير. وعلى ذلك فما أن تخلص البلطيقيون من نير الإرهـاب والكبـت - بمجـئ جورباتشوف إلى الكريملين - حتى اشرأبت أعناقهم نحو استعادة اسـتقلالهم المغتصب ، واسترجاع حريتهم السليبة ، وسـرعان ماظـهرت الحركـات العرقية الإنفصالية داخل جمهوريات البلطيق ، حيث تجسدت هذه الحركـات فيما يعرف بالجبهات الشعبية ، تلك الجبـهات التـى كـانت الجمـهوريات البلطيقية مهدا لها ، وكان للبلطيقيين قصب السبق فـى ابتداعـها ، فكـانت تجربتهم فى ذلك هى السراج الذى سار على هدى من نـوره غـيرهم مـن الشعوب التى طالما أنت تحت نير الكريملين ، ثم ها هى أخيرا تحذو حـذو البلطيقيين فى سعيهم نحو التخلص من ربقة البلاشفة .

أما فيما يتصل **بجمهوريات آسيا الوسطى** فقد خلصنا - مـن خـلال تحليلنا للحركات العرقية التى ظهرت بها خلال عهد جورباتشوف - إلـى أن مئات السنين من حكم القياصرة وعشرات مثلها من حكم البلاشفة لم تفلح فى

طمس الهوية العرقية لشعوب هذه الجمهوريات ، وعلى ذلك فما أن استشعرت هذه الشعوب أن قبضة الكريملين قد خفت عليها – في ظل البريسترويكا – حتى هبت عن بكرة أبيها تعلن رفضها لوجود أية جماعات عرقية أخرى على أراضيها ، رافعة شعارات تعبر عن هذا الرفض حال " كازاخستان للكازاخستانيين " ، " أوزبكستان للأوزبكستانيين " ... إلخ ، وكذا: " لا للقوقازيين " ، " فليرحل الروس عن أراضينا " .

وهكذا فإن انتفاضات ألما آتا وطشقند ودوشانبي وعشق آباد وفرونز بما تضمنته من أحداث دامية ، وبما رفع خلالها من شعارات قد حطمت – إلى جانب تماثيل لينين – حلمه المتصل بالشعب السوفيتي الواحد ، كما أكدت زيف مقولة الصداقة بين الشعوب السوفيتية التي طالما تشدق بها الزعماء السوفييت ، باعتبارها مأثرا عظيما من مآثر ثورتهم . وفضلا عما تقدم فإن انتفاضات عرقيات آسيا الوسطى جاءت لتؤكد أنه : لاسبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة في مجتمع أسس بنيانه على التجميع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا .

وإذا انتقلنا إلى الحركات العرقية في **منطقة ماوراء القوقاز** فبصدد **الصراع الأذربيجاني الأرميني** حول إقليم ناجورنو كاراباخ خلصنا إلى أنه ما أن خفت قبضة قاطني الكريملين على الشعوب الخاضعة لنيرهم حتى راحت مشاعر العداء بين الأرمن والأذربيجانيين تتأجج ، ويستعر أوارها ، تغذيها في ذلك الأحقاد التاريخية التي طالما ظلت حبيسة صدور الفريقين لعقود طويلة مضت ، ولم يقدر لها أن تتجسد في الواقع نظرا للقبضة الجبارة التي أطبق بها البلاشفة على كافة الجماعات العرقية المشكلة لدولتهم . ومن هنا فما أن خفت تلك القبضة – في ظل الجلاسنوست – حتى راح كل من الفصيلين الأذربيجاني والأرميني يكشر عن أنيابه في مواجهة الآخر ، ويسعى إلى صب جام غضبه عليه ، لتندلع بذلك الصراعات المسلحة الدامية بينهما ، وهي الصراعات التي لم يدع أي من الفريقين وسيلة من وسائل العنف والانتقام إلا واستخدمها في مواجهة خصمه ، فانتشرت عمليات

النهب، والحــرق ، والتخريــب ، والاغتصـــاب ، والاغتيــال ، وحــروب العصابات ، بل والحروب النظامية فى ربوع القوقاز ، وظلت تئـــن تحــت وطأتها لأعوام عديدة . لقد جاءت هذه الصراعات - بكل ماشهدته من أعمال عنف كى تؤكد على أن عبارة " الصداقة بين الشعوب السوفيتية " لــم تكــن تعدو محض أوهام طالت أذهان قاطنى الكريملين ، فاعتقدوا فى وجودها على أرض الواقع ، وراحوا يتشدقون بها معتبرين إياها أعظم إنجازات ثورتــهم . من جانب آخر فإن الصراع المسلح الدامى الذى طال منطقة عــبر القوقــاز ساهم أعظم إسهام فى تحطيم حلم لينين ورفاقه فى الشعب السوفيتى الواحــد ذى الهوية الموحدة الجامعة . وفضلا عما تقدم فإن ذلك الصراع قــد جــاء ليؤكد الحقيقة التى سقناها سلفا ، والتى مؤداها : أنه لاسبيل إلـــى اســتقرار سياسى دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة فى وحدة سياسية أسس بنيانها علـــى التجميع الإجبارى لشعوب غير متجانسة .

أما فيما يتعلق بالحركات العرقية فى الجمهورية القوقازية الثالثة وهــى **جيورجيا** فقد رأينا أن عشرات السنين من الحكم الشيوعى لم تفلــح فــى أن تمحو من ذاكرة الجيورجيين أن جمهوريتهم قد ضمت عنــوة إلــى الدولــة السوفيتية ، لذلك فما أن خفت قبضة الكريملين عليهم حتى راحوا يتطلعـــون إلى الاستقلال فانطلقت مظاهراتهم الهادرة فى تبليسى تزأر بشعار ظل طيلــة عقودعديدة حبيس صدورهم ألا وهو " جيورجيا للجيورجيين " ، ذلك الشـعار الذى راح يجب كافة الشعارات التى طالما رفعها قاطنو الكريمليـــن وعلــى رأسها شعار " الأممية البروليتارية " . ولقد كانت الحركة العرقية الجيورجية حركة انفصالية استهدفت انسلاخ بنى نحلتها عن الإتحاد السوفيتى ، وإقامـــة دولة مستقلة تعبر عن هويتهم ، ولم ينفض الجيورجيون حتـــى حققــوا مــا أرادوا. على صعيد آخر فإن الصراعات العرقية الدامية التـــى حفلــت بــها جيورجيا خلال العهد الجورباتشوفى - والتى لاتزال قائمة حتى يومنا هــذا - جاءت لكى تؤكد أن عبارة " الصداقة بين الشعوب السوفيتية " التـــى طالمــا تشدق بها الزعماء السوفييت كانت مجرد شعار زائف ، ومحـــض أكذوبــة

كبرى ، ليس لها سند من حقيقة ، ولاظل من واقع . ذلك بأنه ما أن خفت قبضة الكريملين عليهم - في رحاب الجلاسنوست - حتى راح كل من الأبخاز والجيورجيين يكشرون عن أنيابهم إزاء بعضهم البعض ، وعمد كل فريق - مدفوعا بالأحقاد التاريخية التى يكنها صدره - إلى صب جام غضبه على خصمه . وسرعان ما اندفع الأوسيتيون إلى حلبة الصراع العرقى المتأجج ، وراحوا يتجابهون مع الجيورجيين طلبا للانفصال عن جيورجيا ، والانضمام إلى بنى نحلتهم فى أوسيتيا الشمالية الروسية . وهكذا فقد اشتعلت الجمهورية الجيورجية بنيران العرقية المتأججة ، على نحو عصف باستقرارها السياسى ، ودمر الوحدة الوطنية بين قاطنيها ، وراح ينذر بتفتتها قاطبة ، إذ تمكن الأبخاز - إثر معارك حامية الوطيس - من بسط سيطرتهم على أراضى أسلافهم، معلنين قيام دولة أبخازيا المستقلة ، وهو الأمر الذى لم يكن ليذعن له الجيورجيون ، فراحوا يرفضون الاعتراف باستقلال أبخازيا، وإن كان وهن قوتهم وضراوة القوات الأبخازية قد حالا دون خوضهم غمار حرب جديدة بغية استرداد أبخازيا . وعلى ذلك فإن الصراع الجيورجى الأبخازى مازالت جذوره تضرب فى أرض الواقع ، وبالتالى فإن آخر حلقاته لم تنته بعد ، كما أن الصراع الجيورجى الأوسيتى لما يزل قائما.

وجملة القول فإن ماشهدته جيورجيا من صراعات عرقية لاتزال قائمة حتى الآن جاء ليؤكد على الحقيقة الكبرى التى سبق أن سقناها والتى مؤداها أنه : لاسبيل إلى استقرار سياسى دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة فى مجتمع أسس بنيانه على التجميع الإجبارى لشعوب متباينة قوميا .

وإذا ماعرجنا على الحركة العرقية **الأوكرانية** خلال عهد جورباتشوف فقد بان لنا بصددها أن الأوكرانيين - برغم إشتراكهم فى الأصل السلافى مع الروس وبالرغم من أن الروس كانوا يعتبرونهم " أشقاءهم الأقدمين " ، "الأخ الأكبر الثانى " ، إلا أنهم أبوا إلى أن يقبضوا على هويتهم ، تلك الهوية التى لم تفلح عشرات السنين من حكم البلاشفة فى طمسها ، أو تقويض مقوماتها، كما أن تلك السنين الطوال تحت الحكم الشيوعى لم تنجح فى أن تمحو من

ذاكرة الأوكرانيين أن جيوش البلاشفة قد اجتاحت دولتهم ، وسحقت استقلالهم يوما ما ، لذلك فما أن خفت قبضة الكريملين عليهم – في ظل الجلاسنوست – حتى راح الأوكرانيون يؤكدون عزمهم على الانسلاخ عن الإتحاد السوفيتي وإقامة دولة أوكرانيا المستقلة . وهكذا فقد كانت الحركة العرقية الأوكرانية حركة انفصالية إذ تغيت إستقلال شعبها عن الدولة السوفيتية ، وإقامة دولة مستقلة تعبر عن هويته ، وسرعان ماتحقق لها ما أرادت ، إذ انسلخ " الأخ الأكبر الثاني " عن الإتحاد السوفيتي رافضا أن يقرر من هم سواه مصيره ، حتى ولو كانوا الروس الذين طالما اعتبروا بنيه أشقاءهم الأقدمين . كي نتأكد بذلك – أكثر وأكثر – الحقيقة التي سبق أن سقناها ، والتي قوامها أنه : " لاسبيل إلى استقرار سياسي دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة في مجتمع أسس بنيانه على التجميع الإجباري لشعوب غير متجانسة قوميا " ، ذلك بأن هذا المجتمع لامحالة متفكك ، وإن ظل محتفظا بوحدته لفترة ما مهما طُالت هذه الفترة .

وعلى نفس منوال الحركة العرقية الأوكرانية كانت الحركة العرقية **البيلوروسية** حركة ذات طبيعة انفصالية ، إذ استهدفت انسلاخ بيلوروسيا عن الإتحاد السوفيتي ، وهكذا فإن مئات السنين في كنف الروس لم تفلح في طمس هوية البيلوروس ، كما أن اشتراكهم في الأصل والدين مع الروس لم يكن كافيا لإثنائهم عن الانسلاخ عن موسكو ، وعلى ذلك فما أن خفت قبضة الكريملين عليهم – في ظل الجلاسنوست – حتى راحوا – هم أيضا – يطالبون بالسيادة والاستقلال ، ولكي يساهموا بذلك في تمزيق أوصال الدولة السوفيتية التي كان أشقاءهم الروس قد أسسوها ، وظلوا لعقود عديدة يسعون بشتى السبل إلى الحفاظ على وحدتها .

أما فيما يتصل بالحركة العرقية **المولدافية** فقد انتهينا إلى أن سنين طوال تحت إمرة الكريملين لم تمح من ذاكرة المولداف أنهم رومانيون ضموا – عنوة – إلى الإتحاد السوفيتي ، وبالتالي فما أن خفت قبضة قاطني الكريملين عليهم – في ظل البريسترويكا – حتى راحوا يسعون إلى الاستقلال

والتخلص من ربقة موسكو ، فى حين راح الجاجوازى القاطنون لمولدافيا يعلنون من جانبهم عن قيام دولتهم فى شمال الجمهورية ، الأمر الذى جعل من الحرب الأهلية خطرا داهما يتهدد مولدافيا حتى بعد استقلالها.

وإذا انتقلنا إلى الحركة العرقية **الشيشانية** فقد خلصنا إلى أن عقودا طويلة من الحكم القيصرى وأخرى تحت النير البلشفى لم تفلح فى طمس الهوية العرقية للشيشان ، كما لم تنجح فى أن تمحو من ذاكرتهم أن وطنهم قد ضم قسرا إلى روسيا ، لذلك فما أن خفت قبضة الكريملين عليهم حتى راحوا يعدون العدة للإستقلال ، ذلك الاستقلال الذى أعلنوه بالفعل عندما كان الإتحاد السوفيتى يلفظ أنفاسه الأخيرة خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٩٩١ . وعلى الرغم من ضراوة التدخل العسكرى الروسى فى شيشينيا فى أواخر عام ١٩٩٤ فإن الشيشان قد استخدموا كافة الوسائل بغية الدفاع عن استقلالهم الوليد ، إذ لجأوا إلى الحرب النظامية ، وحرب العصابات ، وعمليات الإختطاف ، والإغتيال ... وغيرها ، ولم يفلح الجبروت الروسى حتى يومنا هذا - نوفمبر ٢٠٠٠ - فى إخماد نيران الحركة الإنفصالية الشيشانية . وهكذا فإنه على الرغم من مرور مايربو على التسع سنوات على تفكك الإتحاد السوفيتى فإن الصراعات العرقية لم تخمد بعد فى جمهورياته (السابقة) . إذ لاتزال هذه الصراعات تمثل تهديدا بالغا لاستقرار العديد من هذه الجمهوريات وعلى رأسها روسيا الإتحادية ذاتها . إذ تمثل الحركة العرقية الشيشانية تهديدا بالغا لوحدة الدولة الروسية ، ذلك بأن هذه الحركة يمكن أن تتخذ نبراسا من جانب جماعات عرقية روسية أخرى ، حيث أن روسيا تتكون مما يربو على ٣٧ جماعة عرقية ، ولعل فى تأييد أنجوتشيا لاستقلال الشيشان مايؤكد صحة مقولتنا هذه .

على أية حال فإن تحليلنا للحركة العرقية الشيشانية جاء كى يؤكد الحقيقة التى سبق أن سقناها والتى قوامها : أنه لاسبيل إلى استقرار سياسى دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة فى مجتمع تأسس بنيانه على التجميع الإجبارى لشعوب غير متجانسة قوميا .

وهكذا ونظرا لكل ماتقدم فقد انهارت إمبراطورية البلاشفة تحت وطأة الحركات العرقية ، ذلك الانهيار الذى كانت له آثار دولية عظيمة الشأن طالت مقومات النسق الدولى قاطبة ، إذ باختفاء الإتحاد السوفيتى (والذى كان يمثل أحد قطبى النسق الدولى الذى قام غداة الحرب العالمية الثانية) أضحى القطب الثانى (الولايات المتحدة) متفردا بدرجة التفوق العظمى التى كانت تشاركه إياها إمبراطورية البلاشفة ، وسرعان ما اتجهت الولايات المتحدة - التى باتت تمثل قطب النسق الأوحد - إلى الأمم المتحدة باعتبارها منظمة قانونية لتتخذ منها سندا نظاميا لانفرادها بتقرير مصير علاقات القوى على مستوى النسق العالمى ، وبالتالى فقد أضحت المنظمة الدولية - لدى الأمريكيين - مجرد أداة لإضفاء الشرعية على سياساتهم على المستوى العالمى ، وذلكم هو ماخلفه تفكك الإتحاد السوفيتى من آثار على خريطة توزيع القوى الدولية .

وفى النهاية فإن الحقيقة الكبرى التى جاء بحثنا هذا ليؤكدها هى : " أنه لاسبيل إلى استقرار سياسى دائم ولا إلى وحدة وطنية حقة فى مجتمع أسس بنيانه على التجميع الإجبارى لشعوب غير متجانسة قوميا " .

* * * * *

المراجـــــع

أولا : المراجع العربية

١ – الكتـــب :

- إبراهيم أحمد شلبى ، **مبادئ القانون الدولـــى العـــام** ، مكتبـــة الآداب ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
- .... ، **علم السياسة ، دراسة فى قواعده الأصولية وضوابطه النظرية** ، الدار الجامعية ، ١٩٨٥ .
- أبو خلدون ساطع الحصرى ، **حول القومية العربية** ، مركـــز دراســـات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٥ .
- .... ، **محاضرات فى نشـــوء الفكـــرة القوميـــة** ، مركـــز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٥ .
- .... ، **ماهى القومية** ، مركز دراسات الوحـــدة العربيـــة ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٨٥ .
- .... ، **أبحاث مختارة فى القومية العربية** ، مركز دراســات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٥ .
- أبيل أليـــر ، **جنوب السودان : التمادى فى نقض المواثيق والعـــهود** ، ترجمة : بشير محمد سعيد ، ميدلايت المحـــدودة ، لنـــدن ، ١٩٩٢ .
- أحمد الصاوى ، **الأقليات التاريخية فى الوطن العربى** ، مركز الحضـــارة العربية للإعلام والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٩ .
- أحمد خاكى ، **فلسفة القومية** ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- أحمد سويلم العمرى ، **أصول العلاقات السياسية الدولية** ، مكتبة الأنجلـــو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٩ .

- أحمد سويلم العمرى ، **التفرقة العنصرية** ، المؤسسة المصريـــة العامــة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

- أحمد عطية الله ، **القاموس السياسى** ، دار النهضة العربية ، القـــاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٠ .

- أحمد وهبـــان ، **العلاقات الأمريكية الأوروبية بين التحالف والمصلحة،** مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

- إدوارد هاللت كار ، **ثورة البلاشفة (١٩١٧ - ١٩٢٣)** ، الجزء الثالث، ترجمة : عبدالكريم أحمد ، الهيئة المصرية العامة للكتـــاب ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

- إسماعيل صبرى مقلد ، **العلاقات السياسية الدولية** ، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة ، ١٩٩١ .

- الشافعى محمد بشير ، **القانون الدولى العام فى السلم والحرب** ، مكتبـــة الجلاء الحديثة ، المنصورة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٦ .

- أفنير كورلين ، ستانيسلان تيو تيوكين ، **سقوط الإمبراطورية الروســـية (١٩١٧)** ، ترجمة : أسما حليـــم ، دار الثقافـــة الجديـــدة ، القاهرة (بدون تاريخ) .

- ألكسندر زيفيليف ، **المسألة القومية فى الإتحاد الســـوفيتى** ، دار نشـــر وكالة نوفوستى ، موسكو ، ١٩٧١ .

- السيد محمد جبر ، **المركز الدولى للأقليات فى القانون الدولى العام مـــع المقارنـــة بالشـــريعة الإســـلامية** ، منشـــأة المعــــارف ، الإسكندرية، ١٩٩٠ .

- ب . ج . غفورف وآخرون ، **لينين والتحرر الوطنـــى فـــى الشـــرق** ، ترجمة : مصطفى مجدى الجمال ، دار الثقافـــة الجديـــدة ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

- برهان غليون ، **المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات** ، سينا للنشر ، القاهرة، ١٩٨٨ .

- بطرس بطرس غالى ، محمود خيرى عيسى ، **المدخل فى علم السياسة**، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

- بيير رنوفان ، **تاريخ العلاقات الدولية : أزمات القرن العشرين (١٩١٤ – ١٩٤٥)** ، ترجمة : جلال يحيى ، دار المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٧٩ .

- تيد روبرت جار ، **أقليات فى خطر** ، ترجمة : مجدى عبدالحكيم ، سامية الشامى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

- جليلى جليل وآخرون ، **الحركة الكردية فى العصر الحديث** ، ترجمة : عبدى حاجى ، دار الرازى ، بيروت ، ١٩٩٢ .

- ج . هـ . د . كول ، **الإشتراكية والفاشية فى ثلاثينيات هذا القرن** ، ترجمة : عبدالحميد الإسلامبولى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، بدون تاريخ .

- حامد محمود عيسى ، **المشكلة الكردية فى الشرق الأوسط** ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

- درية عونى ، **عرب وأكراد : خصام أم وئام** ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٩٣ .

- دونالدنيف ، **حرب السويس : كيف أدخل أيزنهاور أمريكا إلى الشرق الأوسط** ، ترجمة : أحمد خضر ، عبدالسلام رضوان ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٩٠ .

س . س . جافان ، **كردستان : أمة مقسمة فى الشرق الأوسط** ، بدون ذكر إسم مترجم أو ناشر ، ١٩٦٣ .

- سعد الدين إبراهيم ، **تأملات فى مسألة الأقليات** ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، الكويت ، ١٩٩٢ .

- .... ، **الملل والنحل والأعراق : هموم الأقليات فى الوطن العربى** ، مركز إبن خلدون للدراسات الإنمائية ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

- .... ، **هموم الأقليات** ، التقرير السنوى الأول (١٩٩٣) ، إصدارات مركز ابن خلدون ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

- .... (مشرف) ، **الملل والنحل والأعراق** ، التقرير السنوى الثانى ، ١٩٩٥ ، دار الأمين للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

- صلاح الدين عبدالوهاب ، **أضواء على المجتمع العربى** ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٩٦٣ .

- صلاح بدر الدين ، **القضية الكردية والنظام العالمى الجديد** ، رابطة كاوا للثقافة الكردية ، بيروت ، ١٩٩٣ .

- طلعت رميح ، **مستقبل السودان : أزمة الحكم ، أزمة الجنوب ، أزمة الهوية** ، بدون ناشر ، ١٩٩٤ .

- طلعت محمود عبدالرازق (مقرر) وآخرون ، **الأقليات فى المنطقة العربية وتأثيرها على الأمن القومى العربى** ، تقرير صادر عن وزارة الدفاع المصرية (بدون تاريخ) .

- عبدالعزيز المهنا ، **السودان وسط اللهب** ، الكتاب العالمى ، قبرص ، ١٩٩٤ .

- عزيز الحاج ، **القضية الكردية فى العشرينات** ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٤ .

- علی صادق أبو هيف ، **القانون الدولی العام** ، الطبعة السابعة ، منشـــأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٦٥

- فاروق مصطفی إسماعيل ، **العلاقات الإجتماعية بين الجماعات العرقية : دراسة فی التكيف والتمثيل الثقافی** ، الهيئة المصرية العامـة للكتاب ، ١٩٧٥ .

- ف . ف . مينورسكی ، **الأكراد : ملاحظـــات وانطباعــات** ، ترجمـــة : معروف خزنة دار ، دار الكاتب ، بيروت ، ١٩٨٧ .

- كينيث ليتل ، **السلالة والمجتمع** ، ترجمة : محمد جـــلال عبـــاس ، دار الفكر العربی ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

- مازن بلال ، **المسألة الكردية : الوهم والحقيقة** ، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت ، ١٩٩٣ .

- مجدی نصيف ، **حرب البوسنة والهرسك : فـــی إطارهـــا السياســـی ، الإقتصادی ، القومی ، العرقـــی ، الدينـــی** ، دار المســـتقبل العربی ، القاهرة ، ١٩٩٣ .

- محمد السماك ، **الأقليات بين العروبة والإسلام** ، دار العلـــم للملاييـــن ، بيروت ، ١٩٩٠ .

- محمد حافظ غانم ، **مبادئ القانون الدولی العام** ، دار النهضة العربيـــة ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٢ .

- محمد سامی عبدالحميد ، **أصول القانون الدولی العام** ، الجـــزء الأول ، الجماعة الدولية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، بدون تاريخ .

- محمد طه بدوی ، **النظرية السياسية : النظرية العامة للمعرفة السياسية**، المكتب المصری الحديث ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

- محمد طه بدوى ، **محاضرات فى مقومات الحياة السياسية فى الولايات المتحدة** (غير منشورة) ، ملقاة على طلبة ماجستير العلوم السياسية – كلية التجارة – جامعة الإسكندرية ، ١٩٨٦ .
- محمد طه بدوى – محمد طلعت الغنيمى ، **دراسات سياسية وقومية** ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٦٣ .
- محمد طه بدوى وآخرون ، **المجتمع العربى والقضية الفلسطينية** ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٣ .
- محمد طه بدوى – ليلى أمين مرسى ، **النظم والحياة السياسية** (بدون ناشر) ، الإسكندرية ، ١٩٩١ .
- محمد طه بدوى – ليلى أمين مرسى ، **النظرية العامة للعلاقات الدولية** ، الطبعة الرابعة ، الإسكندرية ، ١٩٩٢ .
- محمد عبدالقادر أحمد ، **الجمهوريات الإسلامية فى الإتحاد السوفيتى بين الماضى والحاضر** ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٢ .
- محمد فتحى الشاعر ، **الأكراد فى عهد عماد الدين زنكى** ، توزيع دار المعارف ، ١٩٩١ .
- محمود إسماعيل محمد ، **دراسات فى العلوم السياسية** ، مكتبة الإمارات، العين ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤ .
- ممدوح لطفى ، **انهيار إمبراطورية شيوعية** ، الدار المصرية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٩٢ .
- ميخائيل جورباتشوف ، **البريسترويكا : تفكير جديد لبلادنا وللعالم** ، ترجمة : حمدى عبدالجواد ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، يناير ١٩٩٠ .

- نور الدين حاطوم ، **تاريخ الحركات القومية** ، الجزء الأول ، دار الفكر الحديث ، لبنان ، ١٩٦٧ .

.... ، **حركة القومية الإيطالية** ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧١ .

- .... ، **حركة القومية الألمانية** ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧١ .

- نيفين مسعد ، **الأقليات والإستقرار السياسى فى الوطن العربى** ، مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

- هارولد نيكلسون ، **الدبلوماسية** ، ترجمة : محمد مختار الزقزوقى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٧.

- هيلين كارير دانكوس ، **نهاية الإمبراطورية السوفيتية : (مجد الأمم)** ، ترجمة : إبراهيم العريس ، دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث ، الأرض للنشر ، قبرص ، ١٩٩٤ .

- وائل أحمد علام ، **حماية حوق الأقليات فى القانون الدولى العام** ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

- يسرى عبدالرازق الجوهرى ، **السلالات البشرية** ، دار الطلبة العرب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩ .

٢ - الأبحاث والتقارير والوثائق المنشورة بالدوريات :

- إبراهيم عرفات ، **بيانات وحقائق عن الإتحاد السوفيتى** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٩٤ ، أكتوبر ١٩٨٨ .

- أحمد عباس عبدالبديع ، **اضطرابات جورجيا ومشكلة القوميات في الإتحاد السوفيتي** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٩٧ ، يوليو ١٩٨٩ .
- أحمد مصطفى العملة ، **أزمة القوميات وخطر انهيار الإتحاد السوفيتي** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٠٣ ، يناير ١٩٩١ .
- أحمد ناجي قمحه ، **العنف الإسلامي الهندوسي** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١١٢ ، ابريل ١٩٩٣ .
- أحمد يوسفي القرعي ، **مصر واستقلال إريتريا** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١١٣ ، يوليو ١٩٩٣ .
- إسماعيل صبرى مقلد ، **التقارب الأمريكي السوفيتي والحرب الباردة** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٧ ، يوليو ١٩٦٥ .
- أريك دانيلسون ، **الجذور التاريخية للنزاع القائم في البلقان** ، المجلة العربية للدراسات الدولية ، السنة الخامسة ، العدد الأول ، شتاء ١٩٩٤ ، بيروت .
- التقرير الإستراتيجي العربي (١٩٩١) ، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام ، القاهرة ، ١٩٩٢ .
- التقرير الإستراتيجي العربي (١٩٩٣) ، الأهرام – القاهرة ، ١٩٩٣ .
- السيد السيد حجاج ، **الحياة السياسية في السودان من الاستقلال يناير ١٩٥٦ حتى مايو ١٩٦٩** ، مجلة كلية التجارة ، جامعة الإسكندرية ، (المجلد ١٩) ، العدد الثاني لسنة ١٩٨٢ .
- الكسندر بينجسن ، **أفغانستان : الأفكار الخلفية السوفيتية** ، ترجمة : سوسن حسين ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٩٣ ، يوليو ١٩٨٨ .

- الطاهر أحمد مكى ، **الضغوط الداخلية على المسرح الإسباني** ، العدد ٣٩ ، مجلة السياسة الدولية ، يناير ١٩٧٥ .
- أماني الطرابيشي ، **إضطرابات الأرمن في الإتحاد السوفيتي** ، العدد ٩٣، مجلة السياسة الدولية ، يوليو ١٩٨٨ .
- أماني محمود فهمي ، **تشيكوسلوفاكيا وأزمة البحث عن الهوية** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١١١ ، يناير ١٩٩٣ .
- أنور عبدالملك ، **تحرك الإتحاد السوفيتي المستقبلي** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٩٤ ، اكتوبر ١٩٨٨ .
- جمال الدين محمد على ، **اغتيال أنديرا غاندى ومستقبل القارة الهندية** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٧٩ ، يناير ١٩٨٥ .
- .... ، **إتفاق كولمبو بين الهند وسريلانكا** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٩٠ ، اكتوبر ١٩٨٧ .
- .... ، **مشكلة كشمير واحتمالات النزاع المسلح في جنوب شرق آسيا** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٠١ ، يوليو ١٩٩٠ .
- جهاد عودة ، **الجزائر والمواجهة بين الدولة والبربر** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٦١ ، يوليو ١٩٨٠ .
- خيرى عزيز ، **التغييرات الدستورية في الإتحاد السوفيتي** ، العدد ٥٠ ، مجلة السياسة الدولية ، أكتوبر ١٩٧٧ .
- رولان لوم ، فيليب ميشيه ، **حل الدولة السوفيتية** ، ترجمة : سوسن حسين ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٠٤ ، أبريل ١٩٩١.
- سمعان بطرس فرج الله ، **الحركة الانفصالية في كندا** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١١ ، يناير ١٩٦٨ .

- **شهريات مجلة السياسة الدولية** ، العدد ٨٨ ، يناير ١٩٨٧ .
- **شهريات مجلة السياسة الدولية** ، العدد٩٢ ، أبريل ١٩٨٨ .
- **شهريات مجلة السياسة الدولية** ، العدد ١٠١ ، يوليو ١٩٩٠ .
- **شهريات مجلة السياسة الدولية** ، العدد ١٠٢ ، اكتوبر ١٩٩٥ .
- **شهريات مجلة السياسة الدولية** ، العدد ١٠٤ ، أبريل ١٩٩١ .
- **شهريات مجلة السياسة الدولية** ، العدد ١٠٥ ، يوليو ١٩٩١ .
- **شهريات مجلة السياسة الدولية** ، العدد ١١٤ ، اكتوبر ١٩٩٣ .
- **شهريات مجلة السياسة الدولية** ، العدد ١٢٠ ، أبريل ١٩٩٥ .
- **شهريات مجلة السياسة الدولية** ، العدد ١٢٣ ، يناير ١٩٩٦ .
- طارق حسنى أبو سنة ، **بوروندى والانقلاب العسكرى الثالث** ، العدد ٩١، مجلة السياسة الدولية ، يناير ١٩٨٨ .
- عبدالعزيز سليمان نوار ، **الحرب الأهلية وأبعادها الطائفية** ، العدد ٤٣ ، مجلة السياسة الدولية ، يناير ١٩٧٦ .
- عبدالله صالح ، ناجورنوكاراباخ : **الصراع بين الجغرافيا والهوية القومية** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٢٠ ، أبريل ١٩٩٥ .
- عبدالملك عودة ، **مستقبل جنوب السودان بين وحدة الدولة أو الانفصال**، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٠٩، يوليو ١٩٩٢ .
- فتحى حسن عطوة ، **اضطرابات التبت : أسبابها وأبعادها** ، مجلة السياسة الدولية ، مؤسسة الأهرام ، القاهرة ، العدد ٩١ ، يناير ١٩٨٨ .

- فتحى عبدالفتاح ، **ناميبيا : نهاية كابوس وبداية وطن** ، مجلة المنـــار ، دار المنار ، القاهرة ، العدد ٦٠ ، ديسمبر ١٩٨٩ .
- فرانسوا زتوم ، **الدول السوفيتية واللهفة إلى التحرر** ، ترجمة : سوســن حسين ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٠٤ .
- محمد أبو الفضل ، **المصالحة والحرب فى جنـــوب الســودان** ، مجلــة السياسة الدولية ، العدد ١٢٣ ، يناير ١٩٩٦ .
- محمد بشير حامد ، **نشر السلطة والتكامل القومى فى جنوب الســودان** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٩١ ، يناير ١٩٨٨ .
- محمد على المداح ، **مشكلة الباسك بين الاستقلال والحكم الذاتى** ، العــدد ٥٩ ، مجلة السياسة الدولية ، يناير ١٩٨٠ .
- محمد عيسى الشرقاوى ، **استقلال زيمبابوى ومستقبل الجنوب الأفريقى**، العدد ٦٠ ، مجلة السياسة الدولية ، ابريل ١٩٨٠ .
- .... ، **المشكلة الطائفية فى الهند** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٧٣ ، يوليو ١٩٨٣ .
- محمد مصطفى شحاته ، **أبعاد الحرب الأهلية فى ليبريا** ، مجلة السياســة الدولية ، العدد ١٠٣ ، يناير ١٩٩١ .
- محمود عبدالمنعم مرتضى ، **قضية التمييز العنصرى فى روديسيا** ، العدد ٥ ، مجلة السياسة الدولية ، يوليو ١٩٦٦ .
- مختار شعيب عبدالله ، **الصراع القومـــى والعرقـــى فـــى الجمـــهوريات المستقلة : أبخازيا – جيورجيا** ، مجلة السياسة الدوليـــة ، العدد ١٢٠ ، ابريل ١٩٩٥ .
- مختار شعيب ، " **كيبيك** " **البركان الذى يهدد الوحـــدة الكنديـــة** ، مجلـــة السياسة الدولية العدد ١٢٣ ، يناير ١٩٩٦ .

- مراد إبراهيم الدسوقى ، **روسيا والتركة العسكرية للإتحاد السوفيتى** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٠٩ ، يوليو ١٩٩٢ .
- معتز محمد سلامة ، **الأزمة ومستقبل الدولة فى أفغانستان** ، العدد ١١١، مجلة السياسة الدولية ، يناير ١٩٩٣ .
- ....، **الصراع على الساحل الشرقى للبحر الأسود** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١١٥ ، يناير ١٩٩٤ .
- نازلى معوض أحمد ، **كويبك والحركة الانفصالية فى كندا** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٤٨ ، ابريل ١٩٧٧ .
- .... ، **النظام الإسبانى مابعد الجنرال فرانكو** ، العدد ٤٣ ، مجلة السياسة الدولية ، يناير ١٩٧٦ .
- .... ، **إصلاحات جورباتشوف الداخلية والتغيير فى السياسة الخارجية** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٨٩ ، يوليو ١٩٨٧ .
- نبيل صباغ ، **كويبك ومصير الوحدة الكندية** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٥٣ ، يوليو ١٩٧٨ .
- نرمين السعدنى ، **تمرد الهنود الحمر والنظام السياسى المكسيكى** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١١٦ ، أبريل ١٩٩٤ .
- نيفين القباج ، **جنوب أفريقيا : والتوجه الصعب نحو التسوية** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٠٩ ، يوليو ١٩٩٢ .
- هيلين كاربر دانكوس ، **انتفاضة القوميات فى الإتحاد السوفيتى** ، ترجمة: حسن نافعة ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٦٦ ، اكتوبر ١٩٨١ .
- وثيقة منشورة بمجلة السياسة الدولية ، العدد ٩١ ، يناير ١٩٨٨ ، بعنوان: **إتفاقية أديس أبابا** ، ترجمة : مجدى على عطية .

- وليد محمود عبدالناصر ، **العامل الإسلامى والدور الإيرانى فى الجمهوريات الإسلامية المستقلة** ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٢٠ ، ابريل ١٩٩٥ .

ثانيا : المراجع الأجنبية

1 – Books :

- Barghoorm, Fredrick C. & Remington, Thomas F., **Politics in Ussr,** Little, Brown and Company, Third Edition. Boston, 1986.

- Brzinsk, Zbigniew K., **The Soviet Block : Unity and Conflict,** Frederick A. Praeger Publisher, New York. 1961.

- Carr, E. H. and Others, **Nationalism,** Oxford University Press, London, 1939.

- Cohen. Abner, **Urban Ethnicity,** Tavistock Publications. London, 1974.

- Cramptan, R. J., **Eastern Europe in the Twentieth Century,** Routladge, London, 1994.

- Denber, Rachel (ed.), **The Soviet Nationality Reader : The distengration in Context,** Wetview Press, Oxford, 1992.

- **Encyclopaedia Britannica** , Volume 15, William Benton Bublisher, London.

- **Encyclopaedia of the Social Science,** Volume Five, The Macmillan Company, New York.
- Featherstone, H.L., **A Century of Nationalism,** Thomas Nelson and Sons LTD., London, 1939.
- Harbutt, Frasher J., **The Iron Crutain : Churchill, America and the Origins of the Cold War,** Oxford University Press, New York, 1986.
- Hiden, John & Salmon, Patrick, **The baltic Nations and Europe Estonia, Latvia and Lithuania in the Twentieth Century,** Longman, London, 1991.
- Hinsley, F. H., **Nationalism and The International System,** Hodder and Stoughron, London, 1973.
- Janawsky, Oscar I., **Nationalities and National Minorities,** Macmillan, New York, 1945.
- John, Hutchinson and Anthony D. Smith, **Nationalism,** Oxford University.
- Kohn, Hans, **The Age of Nationalism,** Harrper & Brothers, Publishers, New York, 1962.
- McRoberts, Kenneth, **Quebec : Social Change and Political Crisis,** Third Edition, M. & S., Canada, 1988.
- McCauley, Martin (ed.), **Gorbachev and Perestroika,** Macmillan Press LTD., London, 1990.
- Mcauley, Mary, **Soviet Politics: 1917 – 1991,** Oxford University Press, 1992.

- Urwin, Derek W.. **Western Europe Since 1945,** Longman, London, Fourth Edition, 1989.

- Richmond, Anthony H.. **Readings in Race and Ethinic Relations,** Pergamon Press, Oxford, 1972.

- Roskin, Micheal G. & Others, **Political Science: An Introduction,** Fourth Edition, Prentice – Hall International, Inc., 1991.

- Rothschild, Joseph, **Communist Eastern Europe,** Walker and Company, New York, 1964.

- Russett, Bruce & Starr, Harvey, **World Politics: The Menu for Choice,** Second Edition W. H. Freeman and Company, New York, Oxford. 1985.

- Smith, Gordon B., **Soviet Politics : Continuity and Contradiction,** Macmillan Education. London. 1988.

- Smith, Graham, **The Nationalities Question in Soviet Union,** Longman, London, 1990.

- Wagley, Charles, **Minorities in the New World,** Colombia University Press, New York, 1958.

- Weigall, David and murphy, Michael, **European History,** B.P.P. Letts Educational, London, 1993.

- Whitaker, Ben, Minorities : **a Question of Human Rights?,** Pergamon Press, Oxford, 1984.

- White. Stephen & Others, **Developments in East Europe Politics,** Macmillan 1993.

- Wright. Martin (ed.). **Soviet Union : The Challenge of Chance: Countries in Crisis,** Longman 1989.

- Yourg, John W., **Cold War Europe : 1945 0 1989,** Edward Arnold, London, 1991.

2 - Periodicals :

- Bercuson, DavidJ., **Why Quebec and Canada Must Part?** Current History. March 1995.

- Bialer, Seweyn, **The Death of Soviet Communism,** Foreign affairs, Winte, 1991-92.

- Burg. Steven L., **Why Yugoslavia Fell a Part,** Current History, November, 1993.

- Chavin, James, **Independent Central Asia : a Primer,** Current History, April, 1994.

- Crowther, William, **Moldava after Independence,** Current History. October, 1994.

- **Ethnic Conflicts Worldwide,** Current History, April, 1993.

- Fulford, Robert, **Canada : a great northern paradox.,** World Politics, Annual Editions, 1990-91.

- Fuller, Elizabeth, **Georgia Since Independence : Plus Ca Change.....,** Current History, October, 1993.

- Fuller. Graham E., **Central Asia : The Question of Identity,** Current History. April, 1994.

- Gunter. Michael M.. **The Kurdish Problem in Turkey**, The Middle East Journal, Summer. 1988.

- Holloway, Steven., **Canada Without Qubec**, Orbis, Fall.. 1994.

- Joseph T., **Canda If Quebec Secedes : a view from the United States**, Current History, March, 1995.

- Markus, Ustina, **Belarus : You can't go home again?**, Current History, October, 1994.

- Olcott, Martha Brill, **Central Asia's Post – Empire Politircs**, Orbis, Spring, 1992.

- .... **central Asia's Islamic A wakening.**, Cjurrent History, April, 1994.

- .... **Central Asia : The Calculus of Independence**, Current History, October, 1995.

- Remington, Robin Alison, **Bosnia : The Tangled web**, Current History, November, 1993.

- Svec, Milan, **Czechoslovakia's Velvet Divorce**, Current History, November, 1992.

- Tadjbakhsh, Shahbanou, **Tajikistan : From Freedom to War**, Current History, April, 1994.

(تم بحمد الله)